شؤون فلسطينية

٤٧

تموز (يوليو) ١٩٧٥

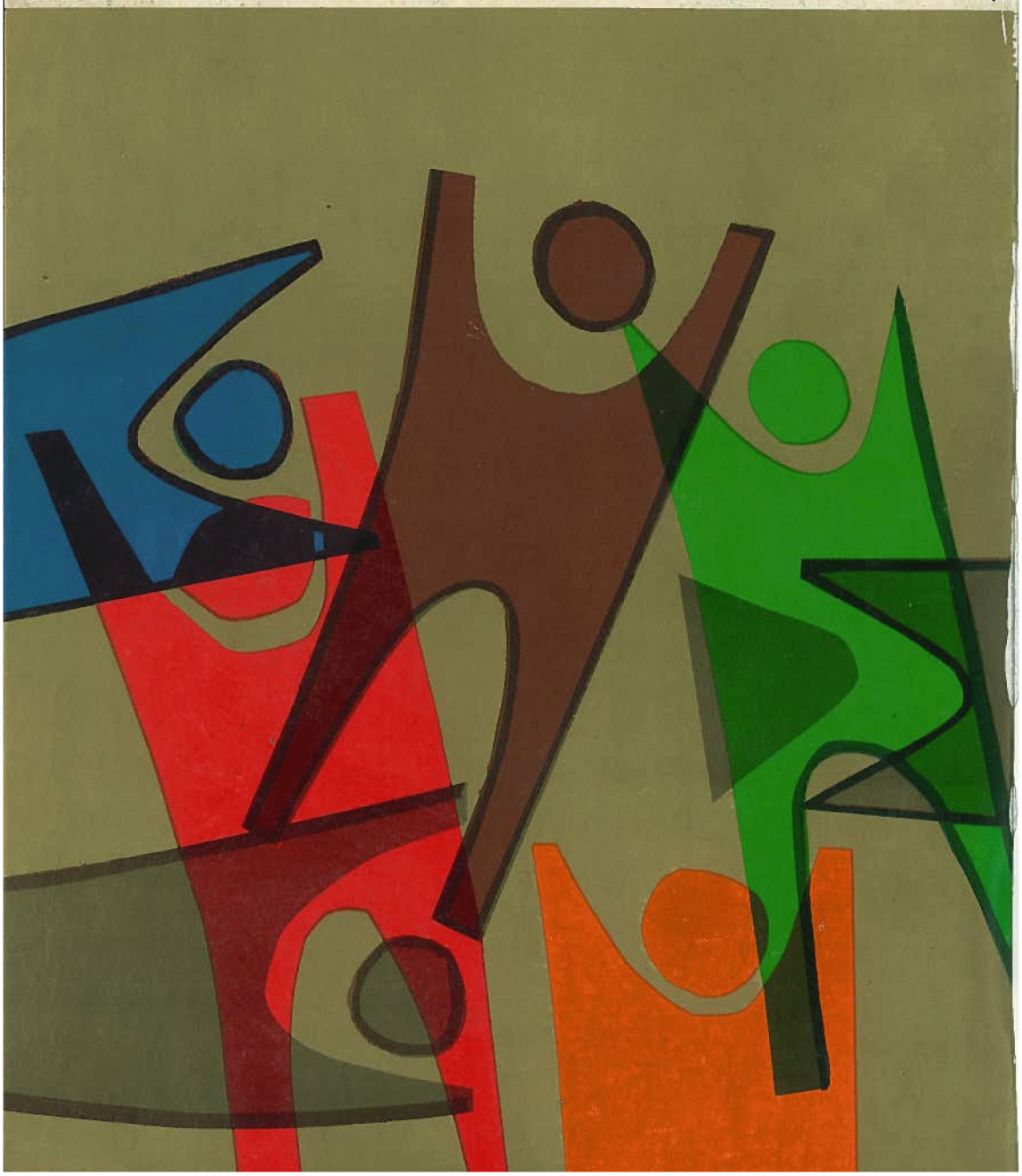

شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : الدكتور انيس صايغ

رقم ٤٧ — تموز (يوليو) ١٩٧٥

شهرية فكرية لمعالجة احداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة .
تصدر عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

يشارك في التحرير : محمود درويش .

سكرتير التحرير : ابراهيم العابد **مدير التوزيع** : غازي خورشيد .

جميع الآراء الواردة تعبر عن وجهات نظر كاتبيها ولا تعكس بالضرورة آراء منظمة التحرير الفلسطينية ولا المحررين ولا المستشارين ولا الناشرين .

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني (متفرع من السادات) ، رأس بيروت ، بيروت — لبنان ، ص.ب ١٦٩١ ، تلفون : التحرير ٣٥١٢٦٠ ، التوزيع ٢٢٦٥٨٥ ، برقيا مرابحاث ، بيروت .

ثمن العدد : ٣١/٢ ل.ل. في لبنان ، ٤ ل.س. في سوريا ، ٤٥٠ فلسا في الكويت والعراق ، ٤١/٢ ل.ل. في سائر الاقطار العربية .

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٥٠ ل.ل. في لبنان وسوريا ، ٦٠ ل.ل. في سائر الاقطار العربية ، ٨٠ ل.ل. في اوروبا وافريقيا ، ١٠٠ ل.ل. في اميركا واستراليا وآسيا .

الاشتراك السنوي (بريد عادي) : ٥٠ ل.ل. في جميع الدول غير العربية .

المحتويات

صفحة ٤ **شؤون فلسطينية** ، محمود درويش .

٧ **مستقبل العلاقات اللبنانية ــ الفلسطينية** ، ندوة اشترك فيها الدكتور امين الحافظ ، الاستاذ كمال جنبلاط ، الشيخ ميشال الخوري ، الدكتور نجيب ابو حيدر ، الاستاذ سمير فرنجية ، والاستاذ شفيق الحوت .

٢٨ **انتصار فيتنام وتحرير الارض العربية** ، الدكتور سامي منصور .

٣٤ **تحدي التقنية الاسرائيلية وكيف نواجهها** ، هالة سلام مقصود .

٥٦ **التصنيع الحربي العربي أمام تحدي الصناعات الحربية الاسرائيلية** ، طارق الصواف .

٦٩ **غسان كنفاني : طريق الكاتب والمناضل الثوري** ، افنان القاسم .

٩٧ **يا أخضر .. انهم يتربصون بك** ، عز الدين المناصرة .

١٠٢ **سلاح النفط العربي وصلته بالقضية الفلسطينية** ، رهف البدوي .

١١٥ **أسس الايديولوجية الصهيونية** ، ماهر الشريف .

١٢٥ **البارون هيرش والحركة الصهيونية** ، فارس المنصوري .

١٤١ **الحزب الاشتراكي الفرنسي والقضية الفلسطينية : نظرة تاريخية** ، الدكتور فيصل دراج .

١٥١ **جنوب افريقيا واسرائيل : علاقة خاصة** ، الدكتور سميح فرسون .

١٧٨ **حزب العمال البريطاني وقضية فلسطين** ، ديفيد واتكنز .

٢٠١ **مراجعات** : قوة الفدائيين العرب : ١٩٦٧ — ١٩٧٢ ، الدكتور أسعد عبد الرحمن . الصهيونية والصراع الطبقي ، هاني الزعبي . المساعدات الاميركية العسكرية لايران ، وليد نويهض. تعليق على تعقيب علي ماهر رشدي الشوا ورد حسين ابو النمل ، عبد القادر ياسين .

٢١٨ **تقارير** : (١) تحليل لاتجاهات الدعاوة الصهيونية في شهر ابريل (نيسان) ١٩٧٥ ، ادريس الخالدي . (٢) أوضاع العمال الفلسطينيين في برلين الغربية ، عدنان الغول . (٣) جاك دوكلو : مناضل نموذجي ، ف.د. (٤) تطور العلاقات النيبالية الاسرائيلية ، الدكتور محمد علي العويني . (٥) أضواء على زيارة دايان لليابان ، أنور عبد الغني عبد الرحمن . (٦) تجربة المسرح الفلسطيني في الارض المحتلة ، محمود شقير .

٢٤٣ **شهريات** : (١) المقاومة الفلسطينية ، عصام سخنيني . (٢) القضية الفلسطينية دوليا . (٣) المناطق المحتلة ، عيسى الشعيبي . (٤) اسرائيليات ، يوسف حمدان وحنه شاهين. (٥) القضية الفلسطينية عسكريا ، سمير جريس ، والرائد الطيار حسين عويضة . (٦) جدول بالعمليات العسكرية لقوات الثورة الفلسطينية وآخر بالعمليات التي اعترف بها العدو الصهيوني من ٥/١٤ — ١٩٧٥/٦/١٢ ، غازي خورشيد .

شؤون فلسطينية

طريق مسدود آخر

● في أوج التفاؤل العربي الرسمي باحتمالات الضغط الاميركي على اسرائيل من اجل تليين موقفها ، تبنى حزب العمل الاسرائيلي « خريطة لحدود اسرائيل النهائية » .

وليست هذه الخريطة القائمة على برامج الضم والتوسع الاسرائيلية بجديدة . انها صياغة مكتوبة لما يسمى في اسرائيل « بالنظرية الشفهية » التي تحدد سياسة اسرائيل تجاه المناطق العربية المحتلة وتضبط حركة السياسة الاسرائيلية الخارجية . وقد التزمت بهذا الاتفاق الشفهي كل الاجنحة التي يتألف منها حزب العمل الحاكم في عام ١٩٦٩ .

ويبدو ان الخريطة السياسية في منطقة الشرق الاوسط التي أعقبت حرب تشرين لم تكن حافزا كافيا ، في وعي حزب العمل ، لاعادة النظر في هذه « النظرية الشفهية » .

ويبدو الآن ، وبعد ان ارتأى حزب العمل نسخ « النظرية » من الشفاه الى الورق أن بعض المتفائلين العرب بنضال الرئيس الاميركي من أجل السلام سيشعرون بخيبة أمل من السلوك الاسرائيلي « المفاجيء » . ولكن ، هل تعقب هذه الصدمة صحوة لاتهام اميركا القادرة على الضغط — اذا شاءت واذا تنافت مصالحها الامبريالية مع مصالح اسرائيل التوسعية ؟ أم اننا سنشهد من جديد ، وكالمعتاد ، حملة تبرئة للسياسة الاميركية « العاجزة » عن الضغط على اسرائيل . وهل يكفي أيضا أن نسمع من المتفائلين العرب بنوايا اميركا ان اسرائيل هي ، وحدها ، المسؤولة عن احباط الامل الرسمي في التسوية ؟

قد يكون الادراك الاميركي — الاسرائيلي لاصرار بعض المسؤولين العرب على الثقة بأميركا أحد الدوافع التي جعلت حزب العمل يعلن « خريطة حدود اسرائيل النهائية » الآن بعدما ترسخت الشائعات القائلة ان الرئيس الاميركي قد دخل المرحلة الاخيرة من مراحل اعادة تقييم السياسة الامريكية . وبعدما أعلن كبار المسؤولين الاسرائيليين ان العلاقات الاميركية — الاسرائيلية لن تكون كما كانت عليه في السابق ، على ضوء الحرص الاميركي على ايجاد توازن بين المصالح الامريكية لدى العرب وبين اتفاقها العام مع السياسة الاسرائيلية .

ولكن رئيس وزراء اسرائيل أعلن انه عرض على الرئيس الاميركي المبادىء الاساسية التي تضمنتها الخريطة الاسرائيلية ، ولم يعلن عن حقيقة موقف فورد منها ، مما يوحي بأن المطالب الاسرائيلية تحظى بمعرفة اميركا وموافقتها . وكان رابين مطمئنا الى ان واشنطن لن تتخذ موقفا لا ينسجم مع موقف اسرائيل .

ولكن اميركا تجد بين العرب من يعفيها دائما من القدرة على الضغط ، ومن يسجل عجزها عن ممارسة هذا الضغط على اسرائيل . ومن هنا جاء اعلان حزب العمل الاسرائيلي نوعا من الضغط المضاد يشكل ذريعة أمريكية امام « الاصدقاء العرب » مؤداها ان التصلب الاسرائيلي يصعب التغلب عليه .

ماذا جاء في « خريطة اسرائيل النهائية » ؟ انها تتضمن ـ كما أعلن الامين العام لحزب العمل الاسرائيلي في ١٩٧٥/٦/١٩ ما يلي :

« ● ضم مرتفعات الجولان

● ضم قطاع غزة

● جعل نهر الاردن الحدود الآمنة لاسرائيل

● ترك الباب مفتوحا لاجراء مفاوضات في المستقبل حول السيادة على الضفة الغربية .

● ترك الباب مفتوحا لمفاوضات حول السيادة على شرم الشيخ وعلى مساحة ضيقة من الارض في الضفة الشرقية لخليج العقبة تربط اسرائيل بالعقبة » .

وعن القدس أعلن الامين العام لحزب العمل : « لا مجال للتساؤل بشأنها . فقد ضمت الى اسرائيل نهائيا » .

هذا هو جوهر المطالب الاسرائيلية التي تم الاتفاق عليها ، داخليا ، قبل حرب تشرين ، وتمت صياغتها كتابة بعد مرور أكثر من عامين على حرب تشرين . فهل جاء هذا السلوك الاسرائيلي تعبيرا عن الحيرة أم عن تقديم ضغط مضاد أم اعلانا لحقيقة النوايا ؟ قد يكون الامر واحدا ، وقد يضاف اليه ان حزب العمل قد كشف أوراقه دفاعا عن التهمة التي يوجهها اليه خصومه الداخليون بأنه لا يملك سياسة واضحة تجاه مستقبل الاراضي المحتلة .

اضافة الى قسوة المطالب الاسرائيلية التي تضع حدودا للتسوية كما تتصورها اسرائيل ، كشف رئيس الوزراء الاسرائيلي عن خطة تحركه السياسي في المرحلة المقبلة وجوهرها هو رفض التسوية الشاملة وتكريس الجهود لاحراز لبنات اتفاقيات جزئية مع دولة عربية واحدة . وعندما يعلن رابين هذه المطالب وهذه الخطة في ختام مباحثاته مع فورد فان للامر دلالة اميركية حادة .

لقد وصلت محاولات الحل الجزئي الى حالة الانفضاح من جهة والى مفترق طرق خطير من جهة ثانية . وصار السؤال المطروح على الطرف العربي من معادلة الحل الجزئي محرجا : ان ثمن هذا الحل التخلي عن الارض وعن الالتزام العربي وعن حقوق الفلسطينيين . ورفض هذا الحل هو الحرب . فهل يستطيع هذا الطرف المضي في الشق الاول ، أم لا يجد مفرا من اختيار البديل الثاني ؟

آن الاوان لان يعيد بعض المسؤولين العرب النظر في طريقة تحرير الاراضي العربية المحتلة بواسطة التنافس مع اسرائيل على كسب الرضا الاميركي . فان نظرية دخول العرب في فجوة الخلافات التكتيكية بين اميركا واسرائيل لم تعد على العرب بغير سلسلة من التراجعات ، وتحرير الولايات المتحدة من الحاجة الى الضغط على اسرائيل تحت قبضة الضغط العربي .

مر اكثر من عامين على حرب تشرين ، وما زالت السياسة الاسرائيلية — بدعم مادي وعسكري وسياسي من الولايات المتحدة — تصعد تصلبها ورفضها الانسحاب من المناطق المحتلة ، فهل يحتاج أصحاب الحلول الاميركية الى مزيد من الادلة واضاعة الوقت والفرص لاعلان اليأس من التحرير عبر واشنطن ؟

ان كل الدلائل تشير الى أن هذه الطريق طريق الحل الباهظ الثمن قد وصلت الى الباب المسدود ، وان تصعيد الصمود على أرض الصراع وحشد مقومات معركة التحرير هي التي تحدد مصير الصراع .

مستقبل العلاقات الفلسطينية ـ اللبنانية

ندوة

اشترك فيها : الدكتور أمين الحافظ
الاستاذ كمال جنبلاط
الشيخ ميشال الخوري
الدكتور نجيب ابو حيدر
الاستاذ سمير فرنجية
الاستاذ شفيق الحوت

ادارها : عصام سخنيني

مندوب المركز : باسم مركز الابحاث في منصة التحرير الفلسطينية ومجلة « شؤون فلسطينية » نرحب بهذه النخبة من قادة الفكر والرأي والسياسة في هذا القطر العزيز .

أيها الاخوة ، ان ما يجري في الساحة اللبنانية الآن لن يكون له تأثير على الاوضاع المحلية في لبنان فحسب وانما سوف يمتد اثره الى مجمل الصراع في المنطقة ، وربما سيصبح لسنوات قادمة احد مكونات هذا الصراع ومحدداته . ومن هنا كان حرص مركز الابحاث ومجلة « شؤون فلسطينية » على استشارة هذه النخبة بالنسبة لمستقبل العلاقات اللبنانية ـ الفلسطينية وهي علاقة تعود بالتاريخ الى زمن بعيد . وسنترك في هذه الندوة الحوار مفتوحا دون اعداد لاية ورقة عمل او برنامج لسير الندوة لان في ذلك اخصابا للحوار وتوضيحا لكل الآراء المطروحة . والمجلة واثقة من ان نتائج هذا الحوار الصريح الواضح سوف تكون لمصلحة شعبنا اللبناني وشعبنا الفلسطيني وقضيتهما العربية المشتركة . واقترح ان نعطي الكلمة للاخ شفيق الحوت ليضع العلاقة في اطارها التاريخي ، ثم ننتقل بعد ذلك الى مناقشة واقع العلاقة الراهنة ، ثم الى استشراف المستقبل والتعرف على آفاقه .

الجزء الاول : الافكار الاساسية

الاستاذ شفيق الحوت: نحن نعيش في فترة يمكن وصفها بأنها ازمة حادة في العلاقات الفلسطينية ـ اللبنانية . غير ان الانسان يكتشف فجأة ان تاريخ العلاقة الفلسطينية ـ اللبنانية لم يبدأ اليوم ، لم يبدأ بهذه الازمة الحادة .

فقد كان ذات يوم قطر اسمه فلسطين وكان هناك شعب اسمه الشعب الفلسطيني ، وكان ذلك الشعب يقيم على حدود لبنان الجنوبية ، وكانت تربطه بلبنان أوثق العلائق وأطيبها ، سواء على صعيد الروابط العائلية أم على صعيد الهجرة أم على صعيد العمل المشترك . ونتذكر جميعا أن عشرات الآلاف من الاخوة اللبنانيين كانوا يعيشون في فلسطين ، كانوا يعملون هناك ويتعايشون مع الشعب الفلسطيني . ومن جهة مقابلة

لم يكن الفلسطينيون غرباء عن لبنان في جولاتهم وزياراتهم ، وفي تجارتهم وعملهم . واذا كنا نمر بهذه المرحلة سريعا فلا بد من تثبيتها حتى يتذكر الناس اننا لسنا غرباء عن بعضنا البعض ، واننا لسنا شعبا مستوردا من أقاصي الدنيا الى الاراضي اللبنانية .

ثم قامت اسرائيل . وكان قيامها حدثا تاريخيا ضخما لا على صعيد المنطقة فحسب وانما على صعيد العالم كله . ان قيام اسرائيل خلق علاقات دولية جديدة ، وترك متغيرات على الواقع الدولي ، ربما بالحدة نفسها التي تركها على المنطقة . وكان من الطبيعي — بحكم الجوار الجغرافي ان لم يكن لأي سبب آخر — ان يعكس قيام دولة اسرائيل آثارا ضخمة على الواقع اللبناني . فمع قيام اسرائيل وبسبب ذلك ازداد الوجود الفلسطيني في الساحة اللبنانية ، مما أوجد علاقة جديدة بين الشعب اللبناني والشعب الفلسطيني . وكان للحالة الاجتماعية والسياسية التي تميز بها النزوح الفلسطيني تأثير في تكوين ملامح هذه العلاقة .

لقد مر الوجود الفلسطيني في لبنان بمرحلتين أمر بهما سريعا أيضا : المرحلة الاولى مرحلة ما قبل قيام الثورة الفلسطينية والمرحلة الثانية ما بعد قيامها . ولا بد لنا من الاشارة الى أن نوعية العلاقات التي كانت قائمة في المرحلة الاولى تغيرت وتطورت بحكم قيام الثورة الفلسطينية التي اعتبر ان قيامها — وأظنكم تشاركوني الرأي — كان ردة فعل تكاد تكون مساوية ، أو هي على طريق أن تصبح مساوية ، لقيام دولة اسرائيل لجهة الاثر الذي خلفه قيام الثورة الفلسطينية على مجمل العلاقات السياسية في المنطقة وخارجها على الصعيد الدولي . ونتيجة لحمل الفلسطيني البندقية وقيام ثورته ولما انتزعته من مكتسبات محلية وقومية ودولية انعكس هذا الوجود على العلاقات اللبنانية — الفلسطينية لاسباب موضوعية . فسواء شاء الفلسطينيون أم لم يشاؤوا فبمجرد حملهم السلاح فرضوا نوعا جديدا من العلاقات ، ومناخا لا بد أن يعكس نفسه نحو تطوير العلاقات اللبنانية — الفلسطينية الى أن وصلنا ، للأسف ، الى ما وصلنا اليه من أزمة لم تكن الاولى وان كنا نرجو ان تكون الاخيرة .

انني كعربي أقول ان العلاقات ، اية علاقات بين شعبين ، تحتاج الى مشاركة الفريقين في تحديد هذه العلاقات والسعي لتطويرها وتنميتها . والحقيقة ان هنا حرصا ورغبة في معرفة الشعور اللبناني لنوعية العلاقة التي يجب أن تكون بين الفلسطينيين واللبنانيين انطلاقا من واقعنا الراهن بأمل تنمية هذه العلاقة التي نحن بصدد البحث في صورتها المستقبلية التي نرجو جميعا أن تكون على ما يتمناه الشرفاء والطيبون في الشعبين الفلسطيني واللبناني ، أي علاقة أخوية ايجابية مربوطة بأكثر من رابط ، أهمها أن هناك عدوا مشتركا ، وأن هناك وجودا لبنانيا فلسطينيا مشتركا في الساحة اللبنانية .

الاستاذ كمال جنبلاط : انني اعتقد انه ما من نتيجة أو معلول الا ولهما علة او سبب، واظن ان العلاقات الفلسطينية — اللبنانية تتأثر بالعوامل التالية :

خوف مسيحي تقابله خشية فلسطينية

العامل الاول الذي يتحكم بهذه العلاقات هو الخوف المسيحي الذي يتمثل عند اغلبية اخواننا المسيحيين لأسباب تاريخية متعددة ولتصورات نفسانية عميقة أضحت لديهم مثالات . لان الطوائف في لبنان تعكس في الحقيقة بنى اجتماعية نفسانية يصعب اختراقها — في معظم الاحيان — من جانب الافكار المتطورة حتى يصعب ذلك بالنسبة للفكر المسيحي الحقيقي الاصيل وكذلك الاسلام . فنحن في تكويننا الذي لا يزال حديثا

ـــ لان لبنان لم يتطور بكيانه السياسي الحالي الا منذ عام ١٩١٦ ـــ لم نزل نعيش في نفسيتنا ومن خلال طوائفنا ومذاهبنا ، الهرطقات القديمة التي تمثلت قبل الاسلام وبعد الاسلام في هذا المحيط العربي الحديث الواسع . أضف الى ذلك ان الحركة الوطنية ، خاصة في الاوساط المسيحية ، لم تعط الفرصة لتظهر وتتقوى ، خصوصا ان الدولة بعد عام ١٩٥٨ اعتمدت على بعض العناصر الانعزالية اللبنانية التي تمثل بشكل واضح نسمة الهرطقة ، اذا جاز التعبير ، أو رياح هذه المذهبية القديمة . ان عهد الرئيس فؤاد شهاب وعهد الرئيس شارل حلو والعهد الحالي لم يعطوا مجالا للشخصيات الوطنية المسيحية وللأجيال الجديدة المسيحية بأن تتمثل في الحكم وأن تتقوى بواسطة الحكم ، لان الحكم هو وسيلة لتقوية الافكار وللخروج من البنى القديمة كما ظهر ذلك جليا في حقبة الاستقلال الاولى عندما فرض فيها بشارة الخوري وعدد من الدستوريين توجيها وطنيا ساحقا في الاوساط المسيحية .

وقد نما هذا الخوف لدى الاغلبية من المسيحيين بشكل خاص بعد الوحدة التي قامت بين مصر وسوريا وتغلب على بعض النفوس بسبب سوء تصرف الجانب المسلم ، او انقياده هو ايضا الى لون من الصنميات الطائفية، وقد تغلغل هذا الخوف وتأكد لظروف لن أذكرها هنا لافسح المجال لغيري في الحديث .

مقابل هذا الخوف نشأ ما أسميه الخشية الفلسطينية ، فالشعب الفلسطيني لا يزال يعيش أيضا ضمن رواسب تذكره بما كان عليه قبل ثورته في المخيمات وبممارسات السلطة اللبنانية والمكتب الثاني بشكل خاص قبل ان تحرره الثورة من سوء المعاملة التي كان الوجود الفلسطيني راضخا لها . ان الشعب الفلسطيني لا يزال يخشى العودة الى السابق ولا يطمئن للحكم اللبناني بوصف هذا الحكم لا يمثل اتجاها وطنيا بالمعنى الصحيح للكلمة . ذلك ان رواسب الانعزالية لا تزال فيه ، ولا يزال يمثل أيضا ، بشكل واسع ، هذه الانعزالية المسيحية في الحكم وفي الادارة وفي الجيش . ان الامر سيكون مختلفا لو اطمأن الفلسطينيون الى أن الحكم في لبنان هو حكم وطني وليس فقط قشرة وطنية يتلبس بها في الداخل ويتزيف بها في الخارج دون ان يكون له فعلا بنية وطنية عميقة تقوم على أصول الثورة الوطنية التي حدثت في البلاد عام ١٩٤٣ والتي رمز اليها بنشاطهم وبتمثيلهم الشيخ بشارة الخوري ورياض الصلح ومن لف لفهما من المسيحيين الوطنيين ، وهم كثرة ، من أمثال ميشال زكور ، الذي توفي في عهد سابق ، وحميد فرنجية ، وغيرهما من الشخصيات المسيحية البارزة التي طبعت في ذلك الوقت المسيحيين بطابعها الوطني المتطور .

ان هذه الخشية الفلسطينية التي تقابل الخوف المسيحي هي ، في نظري ، سبب معظم المشاكل التي نعيش في جوها . اما اذا اطمأن الفلسطينيون الى وجود سلطة وطنية فاني أتصور انه لن يكون لديهم مانع في أن يدخل الحكم اللبناني الى المخيمات ، وان يصبح الشرطي اللبناني هو الذي يمارس صلاحية الامن اليوم داخلها .

ينبغي أن نضيف هنا عنصرا آخر يجعل الخوف المسيحي مستعرا ، هو الخوف من التيارات الفكرية ؛ فالثورة الفلسطينية أخذت تجرف اللبنانيين ـــ مسيحيين ومسلمين وعلى اختلاف نزعاتهم ـــ في تيارها. ذلك ان من يعايش الثورة لا بد أن يتأثر بها خاصة ضمن النظام الديموقراطي البرلماني الموجود في هذا البلد .

مسؤولية النظام المتحجر

العنصر الثالث (بالاضافة الى الخوف اللبناني والخشية الفلسطينية) والذي له

أهميته في العلاقات الفلسطينية ــ اللبنانية وتوترها هو دور النظام السياسي ، فهو نظام سياسي متحجر لا يريد أن يتطور على أي صعيد . لقد دفع فؤاد شهاب النظام في الحقل الاجتماعي الى بعض وجوه التطور . غير ان فؤاد شهاب وقف أمام حائط المال عندما باشر بعض اصلاحاته الاقتصادية التي ربما لم تكن ثورية على الاطلاق . كما وقف أيضا أمام حائط آخر ، حائط الذين يعتبرون النظام السياسي اقنوما جديدا من أقانيمهم لا يستطيعون التخلي عنه سواء بالنسبة للمجلس النيابي أم بالنسبة للحكم أم الرئاسة .

ازاء ذلك كان لا بد أن يشعر الجميع ، لبنانيين وفلسطينيين ، ان هذا النظام السياسي هو عدوهم ، عدو التطور ، عدو التقدم ، عدو الفئات التي تئن من الاحتكار اكانت وسطى أم محدودة الدخل أم صغيرة ، أم كانت من العمال ، كما هو عدو تطور المفهوم الوطني للبلد ، هذا المفهوم المتمثل في عبور اللبنانيين من اتحاد الطوائف او هذا التعايش الكاذب الذي ينفجر من آن الى آخر في فورات دامية ، الى انصهار هذه الطوائف ضمن شعب لبناني حقيقي وبمفهوم للوطن لا مفهوم للملجأ .

التبدلات الديموغرافية والتوازن القائم

العنصر الرابع يكمن في التبدلات الديموغرافية التي طرأت على التوازن الداخلي بين المسلمين والمسيحيين . وعلى الرغم من أن التمذهب والتشرذم قائمان داخل الفئات الاسلامية كما هما داخل الفئات المسيحية ذاتها الا أنهم يجتمعون عندما تبلغ الازمة حدها الاقصى. هذه التبدلات أخذت تتفاعل في الضمير المسيحي المتخوف من ان يسيطر المسلمون الذين اضحى عددهم يناهز ٦٥ في المائة ، وقد أضحى الموارنة ، في هذا العدد ، او في هذا التسلق لسلم التكاثر النسبي ، ثالث طائفة في لبنان بعد الشيعة ثم السنة ، وأصبح الارثوذكس بدورهم يتسلقون سلم النسل لكي يصبحوا تقريبا في موازاة الموارنة .

هذا ، بينما أخذت الحركات التقدمية والافكار الجديدة تلعب دورها في كل ذلك وتتخطى التناقضات ، وأحيانا تستعين بالتناقضات ذاتها ، في لعبة ذكية جدا تتجاوز ببعيد عدد المنتسبين للحركات التقدمية في لبنان ، فيظهر لمن هو خارج لبنان أن اليسار أصبح الاكثرية الساحقة في لبنان ، بينما الامر هو عكس الحقيقة تماما وعكس الواقع . غير انه أمام يمين غبي متحجر وأمام دولة لا تريد التطور ظهر هذا اليسار وكأنه هو المهيمن على الجماهير الغفيرة ، خاصة في المدن .

الاخطاء فلسطينيا

أما العنصر الخامس الذي يتحكم بالعلاقات الفلسطينية واللبنانية فهو عدم الانضباط الموجود في الصف الفلسطيني . هناك اخطاء ترتكب من خطف وسرقة سيارات واعمال مخالفة للقانون اللبناني ولأمن الثورة ذاته ولنظام الثورة . هذه الاعمال يتحملها فريق كبير من الناس لانه يجب أن نتذكر أن من بين ٤٠٠ الف فلسطيني الذين يعيشون في مخيمات فلسطينية هناك فقط ١٥ ألفا منهم يسكنون على باب المتن، فالمسلمون يتحملون هذه الاخطاء ، وربما بعضهم يضجون منها ويطالبون بتصحيحها وبالقضاء عليها بشكل مباشر وبالعنف النظامي المطلوب ؛ غير أن هناك فئات لا تستطيع ان تتحمل ذلك ، بل هي تستفيد من هذه الاخطاء فتستغل قطع طريق أو خطف انسان كي تقيم القيامة . هذا مع علمي الاكيد ، من خلال عملي وزيرا للداخلية ، أن نسبة المخالفات التي يقترفها الفلسطينيون في لبنان ــ حسب الاحصاء الموجود لدى قوى الامن ــ هي أقل نسبيا بكثير من المخالفات التي يرتكبها الجمهور اللبناني .

من جهة ثانية فان اللبناني لا يفطن الى أن تصاعد الجرائم والمخالفات في لبنان ناجم عن عامل حضاري أساسي . لقد دخلنا في التيار الذي سبقتنا اليه الولايات المتحدة والذي أخذ يظهر أيضا في أوروبا . ففي فرنسا مثلا زاد عدد الجرائم خلال أربع سنوات بنسبة ٥٥ بالمئة في أنواع معينة من الجرائم . ان العصر الحضاري هو بحد ذاته عصر الجريمة ، عصر المخالفات ، فالحياة المدينية لكونها مصطنعة تضيق على أهلها كمن يضع جرذانا في قفص اختبار فتبدأ في الاختلاف اذا كان عددها ثلاثة ثم بالاقتتال اذا زاد عددها عن ذلك ، فتبدأ الجريمة في مستوى الحيوان ولا يشذ عن هذه القاعدة الانسان .

بطبيعة الحال علينا أن نعالج هذه الاخطاء بحزم . وأمس رحبنا بالقرار الذي اتخذته منظمة التحرير الفلسطينية بتشديد العقوبة على المخالفات حتى تصل الى حد الاعدام في بعض الجرائم . على الثورة أن تكون نظيفة في علاقاتها مع اللبنانيين لكي لا تستثير الحساسيات المدفونة في باطن التاريخ والتراث المؤسف الغابر حتى لا تعود بعض النفوس فتتحرك من جديد .

ويضاف الى كل ذلك تأثير الدعايات الاجنبية والمداخلات الاجنبية والتناقضات التي تحدثها الدول العربية في لبنان . لاننا نحن في الحقيقة مشاع للحرب القائمة بين الغرب والعرب وبين العرب أنفسهم ضمن لبنان .

السلاح ، والجيش الثقة هو البديل

العنصر الاخير الذي اتحدث عنه هنا هو التسلح الذي يخيف الجميع . أن نفكر بأن هنالك ٣٠٠ ألف او ٤٠٠ ألف قطعة سلاح (أو أقل من ذلك أو أكثر حسب التقديرات المبالغ فيها) أمر خطير بحد ذاته لانه ماذا سيكون مصير البلد اذا أفلت هؤلاء المسلحون؟ ربما سنعود الى ما قبل عهد الامارات الى الاقطاعات ، عندها يؤسس كل شخص امارة أو مشيخة على حسابه من جنوب لبنان الى شماله ، خاصة في غيبة السلطة وفي غيبة جيش يمكن لجميع اللبنانيين ان يثقوا فيه . لهذا السبب كنا أول من طالب بأن يشعر اللبنانيون جميعا، بادىء ذي بدء ، بأن الجيش هو للجميع حتى يتمكن من النزول الى الساحة . ان تنظيم الجيش أمر أساسي كذلك جعل التوازن تاما كاملا في جميع الوظائف الحساسة في لبنان ، شاء هذا القائد أم لم يشأ ، فالقضية أصبحت مصيرية بالنسبة للبنان . عندئذ ، يتمكن الجيش من النزول والفصل بين الناس أيا كانوا . وعندها يثق الفلسطينيون انه اذا نزل الجيش فانه لن يعتدي عليهم .

نظرة الى المستقبل

هذه هي العناصر التي تشكل الثقل في مصير العلاقات الفلسطينية ــ اللبنانية . وهي علاقات ستظل تمر بهذا التأزم الدائم ، لانه من الصعب جدا اقناع الدولة أو فريق كبير من الناس على الصعيد التقليدي الاسلامي او على الصعيد التقليدي الانعزالي المسيحي بأن يبدلوا ولو شيئا من النظام السياسي في هذا البلد . لهذا السبب فان الوضع الفلسطيني في لبنان يرتبط بشكل عضوي وأساسي بالوضع اللبناني . ذلك ان انعكاسات هذه العلاقات بين الجانبين اللبناني والفلسطيني مترابطة ومتلازمة وكأنها في النهاية ثورة واحدة يشعر فيها الناس ان هناك التزاما فلسطينيا بتقدم لبنان والتزاما لبنانيا بثورة فلسطين . وبدون هذا الالتزام لا يمكن أن نخطو خطوة في مواجهة هذا الحائط الرجعي اللبناني الانعزالي المسيحي والانعزالي الاسلامي، لان التقليد الاسلامي كان أشد وطأة علينا لرداءة تمثيله السياسي وبتقبله كل تسوية آتية على ظهر القضايا الرئيسية وعلى ظهر التقدم الحقيقي في لبنان ، تماما كالانعزالية ذاتها التي نشكو منها

أحيانا على الصعيد المسيحي والتي يجب علينا أن نتفهمها حتى نتمكن من حل مشكلتها لانها مشكلة نفسية قبل أي شيء آخر ، ومشكلة سلاح طبعـــا . ولو كانت مشكلة نفسية فقط لكانت أخف وطأة . لكن عندمـــا تسمع المدافع تضرب ليل نهار علـــى بعض الاحياء وتقابلها مدافع أخرى ، يفكر المرء ويتساءل أين صرنا ؟ هل اقتربنا من انفجار حرب طائفية في لبنان كما تشتهيها المخابرات الاميركية وكما يدور في حلم اسرائيل ؟ اننا على يقين انه لن يحدث شيء من ذلك ، لان الشعب اللبناني يتغلب على جميع المحن في النهاية ، ولا بد من نهاية لكل جنون ، على أي صعيد سياسي او طائفـــي . فقد علمنا لبنان اننا نستطيع في النهاية أن نعود الى العقل فنتحكم بكل شيء .

الدكتور أمين الحافظ : لقد رسم الاستاذ كمال جنبلاط هيكلا للموضوع ونحن سندخل هذا الهيكل ، كما وضع فيه كثيرا من التفاصيل وسنضيف نحن تفاصيل أخرى .

البعدان : القومي والاجتماعي

عندما نتحدث عن العلاقات الفلسطينية ــ اللبنانية ، في الماضي وفي المستقبل ، فاننا ننطلق من منطلق التجزئة . ولو كان منطلقنا منطلقا وحدويا لما كان مبرر للحديث عـــن ذلك . وقد قادت التجزئة الى أن يتوافق اللبنانيون على نظـــام وعلى كيان في عهـــد الاستقلال ارتضوه لانفسهم ، لان هذا الكيان كان بمثابة الحد الادنى بالنسبة لفريقين كانا ، في ذلك الحين ، يتجهان اتجاهين مختلف أحدهما عن الآخر . ولكن بفضل هذا القاسم المشترك ، وبسبب وجود عناصر طائفية وثقافية متنوعة ، أصبح بالامكان قيام كيان مثل الكيان اللبناني ، أريد له ، ونحن جميعا نريد ، أن يساهم مساهمة بناءة ، وأن يستمر بالمساهمة ، في الحضارة الانسانية وفي النهضة العربية .

اذا أخذنا هذا الواقع بعين الاعتبار نجد أن فلسطين هي أقرب الاقطار العربية الى المفهوم اللبناني . ففلسطين مكونة من طوائف على الرغم من أن نسبها لا تتماثل مع تلك الموجودة في لبنان ، الا أن هناك زبدة تيارات ثقافية ، وطائفية أيضا ، كونت ما يسمى بشعب فلسطين . من هنا فان امكانية تفاهم هذين الشعبين الجارين تعتبر مرتفعة أكثر من تفاهم أي شعبين آخرين . قد يتولد لدى بعض اللبنانيين حذر وخشية من شعوب عربية أخرى ، ولكن لا أرى كيف يمكن أن تكون ثمة خشية من الفلسطينيين . ولقد مر بخاطري كل ذلك عندما شاهدت ، من أيام ، لبنانيين من طائفة معينة يطلقون النار على فلسطينيين ينتمون الى الطائفة نفسها .

ليس الموضوع ، اذن ، موضوعا طائفيا ، ولكني أسارع الى القول بأنه موضوع اجتماعي . ذلك أن الثورة الفلسطينية ليست ثورة تحرير فقط ، وانما بجانب انها ثورة تحرير، هي رائدة للثورات العربية المقبلة التي نريدها . وقد تكون الثورات القادمة عنيفة وقد تكون ثورات بيضاء ، تتناسب مع ظروف كل بلد من البلاد العربية ، الا ان الثورة الفلسطينية ستظل رائدة اذا اكتسبت مـــا نتوخى لها مـــن الصفات . وبهذه المناسبة أشير الى مقالة كتبها الاستاذ شفيق الحوت يشرح فيهـــا أسباب نجاح الثورة الفيتنامية ، وكان في كل بند من بنودها وكأنه يهيب بالثورة الفلسطينية أن تكون كذلك . وان أهم ما جاء في تلك المقالة على ما أذكر الحديث عن جدية الثورة .

ان لبنان واللبنانيين والفلسطينيين ينتمون الى هذه الامة العربية، التي تنتمي بدورها الى الشعوب المتخلفة . وأمراض الشعوب المتخلفـــة معروفة ؛ والتخلف ليس تخلفا ماديا فقط بل هو تخلف بشري واجتماعي أيضا ، ولمعالجة هذا التخلف علميا ينبغي انماء

المناطق المتخلفة كما يجب أن يوجه قسم كبير من الانماء نحو الناحية الاجتماعية الاقتصادية .

اني أشعر أن كثيرا من اللبنانيين ، سواء أكانوا مسيحيين أم مسلمين ، يحقدون على الثورة الفلسطينية ضمنا او علنا لانها قد تهدد التركيبة الاجتماعية الاقتصادية الموجودة في لبنان . وعلينا أن نذكر أن جزءا من الثروات في لبنان قد جني بالفعل من فلسطين وان بداية المدخرات التي مولت التجارة في لبنان ، في مطلع هذا القرن وبداياته ، كانت من أثمان الاراضي التي باعها اللبنانيون لليهود في فلسطين ، وقد تساوى في هذا المسيحي والمسلم ولا أريد أن أسمي أشخاصا . اذن فان هذه المدخرات كانت بداية قيام المؤسسات التجارية ونمو قطاعات الخدمات والتجارة التي يفخر بها لبنان . غير ان هذه الاهمية التي للبنان ، في التجارة والخدمات ، ان لم يرافقها مقابل لها في التنمية العمرانية والانتاجية والصناعية والزراعية ، فان من شأنها ان تبقي على هذا الخوف وهذا الحذر وهذه الحرب على الثورة الفلسطينية من كلا الطرفين : المسلم والمسيحي .

بطبيعة الحال ان تحويل الامر وتغييره ليس في يد اللبنانيين وحدهم ، ذلك ان لبنان جزء من هذه المنطقة والامراض التي تفتك بنا تفتك في أجزاء المنطقة الاخرى مع اعترافنا بأن هنالك تقدما كبيرا أصاب الانظمة المحيطة بنا . واذا كانت هذه الانظمة قد تلهت كثيرا عن انماء نفسها فانها الآن قطعت شوطا واسعا . غير ان خلافاتها ، بعضها مع بعض ، كان من ثمراتها ان الوضع في لبنان قد تأخر عن التطور . فنحن العروبيين في لبنان مسلمين ومسيحيين نستند ظهرنا الى القوة العربية فاذا كانت هذه القوة متفككة أصبنا نحن بذلك . وأعطي مثالا على ذلك بما يسمى بالسوق العربية المشتركة ؛ فلو كانت العلاقات والاحوال السياسية بين الدول العربية على ما يرام لنجحت هذه السوق وفي حال نجاحها كان لا بد للتنمية الزراعية والصناعية ان تؤتي ثمارها وأن يجري تحول اجتماعي في لبنان وبذلك يرتبط السواد الاعظم من الشعب اللبناني،سواء كان مسيحيا أم مسلما ، بالعرب والعروبة وبالمصالح العربية الكبرى .

لذلك فاننا يجب أن نوجه همنا الى هذا القطاع الشعبي المسيحي الخائف ، ويجب أن نعترف أن هناك مسيحيين من الطبقات الشعبية منساقون الى الرجعية بما في ذلك من تناقض . ومن هنا فانني أتوجه الى الطليعة التقدمية والاحزاب التي صرفت وقتها في تبشير المؤمنين في أثناء تركيزها على القطاعات الشعبية الاسلامية وهذا تحصيل حاصل ، أتوجه اليها وأدعوها أن لا تستسهل الامور وأن تركب الصعاب وأن تحاول أن تتسلل الى الفئات الشعبية المسيحية والمناطق المسيحية لكي تستدرجها ولكي توعيها . وقد تكون مهمتها أيسر لو ارتبطت هذه الطبقات الشعبية أكثر بالبلاد العربية ذات الانظمة التقدمية عن طريق السوق العربية المشتركة مثلا .

دور لبنان في الصراع

علينا الآن أن نبحث فيما نحن بصدده في هذه الايام . لا شك ان ما يسمى مشكلة الشرق الاوسط محتدمة ونحن لا نتوقع أن تنتهي قريبا حتى لو تم التوصل الى تسوية سلمية . فلا بد اذن من ترابط لبناني فلسطيني لدحر الوجود الصهيوني في المنطقة ، ذلك ان الخطر الصهيوني قد يكون أكبر من خطر اسرائيل نفسها كما أن انفتاح اسرائيل ، بطريقة أو بأخرى ، على العالم العربي يجعل من الضروري قيام تعاون لبناني فلسطيني أوثق مما هو موجود . وفي هذه الحالة لا بد من وجود منظمات وفئات وحركات تقوم بحملات مكثفة لربط القوى الشعبية المسيحية بالقوى الشعبية المسلمة .

لقد قدمت دول مثل سوريا ومصر آلافا وآلافا من الجنـــود للقضية الفلسطينية كما قدمت دول أخرى ، كدول النفط ، ملايين من الليرات للقضية وان لم يكن ذلك كافيا . أما لبنان فعليه ان يتحمل حصته . وقد تكون هذه الحصة شيئا من عدم الاستقرار ، وهذا أمر طبيعي ، ذلك ان لبنان لا يمكن أن يطلب كل الغنم من العرب ومن القضية الفلسطينية ولا يقبل بأي غرم . ولان لبنان بلد مفتوح تتصارع فيه كل التيارات العالمية والعربية والمحلية تصارعا فكريا وماليا وغـــير ذلك ، فنحن ننشد الحـــد الادنى مـــن الاستقرار . ولا يمكن أن نحلم بأن يكون هناك استقرار في لبنان ما لـــم تنته القضية الفلسطينية ويتم ضبط الخطر الصهيوني .

العودة الى الاتفاقات والرجوع الى الشعب

من أجل تنظيم العلاقة وجد ما يسمى باتفاقية القاهرة ثم بعد احداث طويلة الحق بهذه الاتفاقية تفصيلات باسم تفاهم ملكارت، وقد كان لي شرف وضع نقاط هذا التفاهم عندما كنت في الحكم بعد معاناة طويلة وبعد لقاءات مـــع جميع القادة الفلسطينيـــين والمعنيين اللبنانيين . وضعنا هذا التفاهم وساد بعده هدوء نسبي خلال عامين من جراء هذه الاتفاقية . وكان يمكن تلافي عودة الاصطدامات لو اننا رجعنا في الوقت المناسب الى اتفاقية ملكارت والى اتفاقيه القاهرة فنفذناهما ووضعنا الجميع أمام مسؤولياتهم. ولكن يبدو ان هذه الاتفاقات قد اغفلت ، كما كان هناك من يتهيـــأ ، قبل الاوان ، لشن حملة كبيرة لنسف هذه الاتفاقيات ولتشويهها وتخريبها ســـواء بالتسلح ام بانتقاد هذه الاتفاقيات او حتى باثارة المنتقدين . فقد وجد بعض السياسيين ممن كانوا يأخذون على حزب من الاحزاب انه قبل باتفاقية القاهرة بقصد اثارته وما كان هذا بحاجة الى الاثارة فقد كان يسلح نفسه .

الآن ، أن الرجوع الى الحالة الطبيعية والنظر الى مستقبل العلاقات الفلسطينية ـــ اللبنانية لا يتم الا عن طريق الشعب : الفئات الشعبية والمنظمات الشعبية والاحزاب الوطنية التي يجب أن تتفاهم فيما بينها لعزل كل القوى التي يمكن أن تؤثر في مسيرة الثورة الفلسطينية الرائدة التي سوف يتمخض عنها تحولات اجتماعيـــة وسياسية في البلاد العربية ومنها لبنان . وقد يأخذ هذا بعض الوقت ولكن هذا هـــو الطريق الاسلم والقويم ، وبانتظار هذا الامر علينا أن نحاول أن نخفف من المعاناة قدر الامكان .

الشيخ ميشال الخوري : يصعب علي ان أزيد شيئا عمـــا تفضل به كمال بك ودولة أمين الحافظ ، الا اني أريد أن أنوه ببعض النقـــاط التي وردت ثم أنطلق الى الموضوع الذي نعيشه .

لبنان دخل التاريخ الفلسطيني مبكرا

اشير الى ما تفضل به الاستاذ شفيق الحوت عن العلاقات اللبنانية الفلسطينية في الفترة التي سبقت انشاء دولة اسرائيل، واقول ان في لبنان من ادرك الخطر الصهيوني في وقت مبكر جدا وربما قبـــل اي شخصية عـــربية او اية دولـــة عربية وربما قبـــل الفلسطينيين انفسهم . وقد سمعت اصوات كثيرة في لبنان تنبه العالم العربي وتنبـــه الشعب الفلسطيني وتنبه العالم الى ما يمكن ان يحدث فيما اذا تجسدت الصهيونيـــة العالمية في دولة اسمها اسرائيل ، وفيما اذا بنيت هـــذه الدولة على أرض فلسطينية عربية كجسد غريب ادخل الى المنطقة وهو يحمل أبشع صورة من صور الاستعمـــار بالاضافة الى الاطمـــاع الصهيونية الناتجة عن فلسفة الصهيونيين وعـــن طموحهـــم بالاستيلاء على العالم كله . هذه النقطة الاساسية جئت على ذكرها لاؤكد ان لبنـــان

دخل في التاريخ الفلسطيني ، وفي التاريخ العربي الفلسطيني ، وفي التاريخ اللبناني الفلسطيني ربما قبل اي دولة اخرى ، مما يجعلنا جديرين بأن نتكلم عن القضية الفلسطينية بكل اقتناع . الا ان الامور في لبنان تطورت بعد ذلك بشكل اضعف فيه الخط الوطني الذي اتى على ذكره كمال بك ، الخط الوطني الذي شمل جميع الطوائف والذي ساهم مساهمة جدية في انشاء الدولة اللبنانية العصرية وفي الالتزام العربي والفلسطيني للدولة ، اضعف هذا الخط بسبب الاحداث المتتالية التي حصلت في لبنان منذ ازمة سنة ١٩٥٨ ومن الازمات التي نعيشها اليوم والتي تستعمل ذريعة لبعض الفئات لتعزيز العنصرية والتعصب الطائفي الى غير ذلك من مواقف تعزل لبنان او فئة من اللبنانيين عن التزامها الطبيعي الجغرافي ــ التاريخي ــ السياسي .

تماثل الثورتين الفلسطينية واللبنانية

انطلاقا من ذلك اقول انه اذا كانت العلاقات اللبنانية الفلسطينية تظهر في بعض الصحف وفي بعض الاقوال بصفحات سوداء يتألم لها طبعا الشعب اللبناني والشعب الفلسطيني الا انني اعتقد انها ستتحول الى صفحات ذهبية في تاريخ الشعبين الفلسطيني واللبناني وفي تاريخ العرب باجمال . لان الثورة الفلسطينية على الرغم مما يعترضها من مصاعب ومتاعب هي حدث تاريخي حيوي في مصير العرب ستتسبب في ايجاد تغيير اساسي في حياتهم وفي فلسفتهم وفي نظرتهم للحياة وفي تركيبهم السياسي . ولبنان بالاخص سيستفيد الكثير من الثورة الفلسطينية لانها قريبة جدا الى ما ينبغي ان تكون عليه الثورة اللبنانية يوما ما . فمن حيث الجغرافيا يكون لبنان وفلسطين نوعا من التكامل الجغرافي في هذه البقعة من الارض العربية ، كذلك تنتمي فلسطين ولبنان الى حضارة واحدة والى البحر الابيض المتوسط ويجمعهما كثير من الروابط التاريخية . وبالاضافة الى ذلك فان الثورة الفلسطينية تنادي اليوم بدولة علمانية تؤمن لجميع سكان الارض الفلسطينية الحبيبة الحقوق السياسية والحقوق الاجتماعية دون اي تفرقة بسبب الطائفية ، وهذا ما يصبو اليه لبنان وما ينبغي ان يكون عليه لبنان المستقبل . ان علينا ان نستفيد من التفاعل الممكن بين الوجود الفلسطيني في لبنان وبين الامنية اللبنانية الكبيرة بأن يتحول لبنان يوما ما الى بلد يبتعد عن الطائفية ويعتمد العلمانية بشكل صحيح .

الوجود الفلسطيني جيش حليف

لقد احببت ان أنوه بهذه الامور لانني اعتبرها ايجابية . وعلينا الان ان ننظر الى العلاقات اليومية بين الفلسطينيين الموجودين على الارض اللبنانية وبين الدولة اللبنانية والشعب اللبناني . على صعيد العلاقات الرسمية بين المقاومة والدولة اعتقد ان الظروف التي نعيشها يجب ان تعطينا عبرا ومثلا لتعاون اوثق . انا لا اسلم بالقول بوجود تناقض بين منطق الثورة ومنطق الدولة ، ولكن اذا سلمنا بذلك فعلينا ان نقبل ــ بادنى تفسير ممكن ــ بالوجود الفلسطيني كوجود جيش يحارب معنا عدوا مشتركا، وعلينا ان نعطي كل ما نملك من طاقات ومن امكانات ومن مساعدة الى هذا الجيش الحليف ، وان نلتحم بواسطة جيشنا مع هذا الجيش ، ونحارب معا العدو المشترك . واعتقد ان هذه الفكرة بدأت تدخل تماما في اذهان المسؤولين في الدولة ، او على الاقل في اذهان الكثير من رجال السياسة والقادة .

بجانب هذه النقطة ، لا بد من وجود بعض التجاوزات ولا بد من بعض المخالفات من قبل وجود مثل الوجود الفلسطيني في لبنان ، وبوجود بعض الفئات اللبنانية التي

يصعب عليها ان تتفهم ذلك بسهولة ، وبسبب عجز الدولة الاعلامي عن توعية اللبنانيين بهذا الواقع . واعتقد أن هذه التجاوزات يمكن ان تضبط وان تنظم بواسطة اللجان المشتركة وبكل ما ورد في الاتفاقيات المشتركة التي حصلت وان ستحصل في المستقبل ان شاء الله . وانا متفائل جدا بأنه يمكن للدولة اللبنانية ، حتى في حال بنيتها الحاضرة المنهارة والمتفككة ، أن تؤمن الحد الادنى من التعاون ومن الامن المشترك بواسطة الاتفاقات الموجودة .

اتمنى ان ينادي المسيحي بالثورة قبل المسلم

واذا انتقلنا الى العلاقة بين الشعبين الفلسطيني واللبناني فانني اتمنى — اذا جئنا الى المنطق الطائفي — ان يكون المسيحي في لبنان هو الذي يحمل لواء فلسطين وهو الذي ينادي بالثورة الفلسطينية قبل المسلم . وعلى المقاومة الفلسطينية ، بواسطة اجهزتها الاعلامية وعملها على الارض اللبنانية ، أن تقوم بمساعي ايجابية في هذه الناحية ، لتعطي للمواطن المسيحي في لبنان صورة صحيحة ، وصورة صادقة ، وصورة مغرية ، عن الوجود الفلسطيني وعن الكفاح الفلسطيني ، وعن ما يمكن ان ينتج من نتائج ايجابية فيما لو حصل تعاون بين الشعبين . ان من واجب المقاومة الفلسطينية ان تتوجه اولا الى الرأي العام المسيحي قبل ان تتوجه الى رأي عام قد يعتبر بالنسبة لها تحصيل حاصل . وانا مستعد ، كشخص وكمسؤول ، على قدر المستطاع ان اعطي من وقتي ، واعطي كل مساعدة في هذا المجال .

أما بالنسبة للتقليد الطائفي في لبنان الذي اتى على ذكره كمال بك ، فأقول ان الانتساب الطائفي في لبنان لم يكن فقط انتسابا دينيا فهو انتساب اجتماعي سياسي . والمسيحي الذي ينتمي الى طائفة مسيحية قد يكون ملحدا في اغلبية الاحيان الا انه ينتمي الى نوع من التفكير في نوعية الحياة ، في كيفية الحياة ككل . انه يؤمن ببعض القيم التي يمكن ان توصف كقيم مسيحية او كقيم حضارية اذا سلمنا بذلك . ويمكن لهذه القيم ان تفيد العالم العربي كله يوما ما . فعليه ان يطمئن الى ان هذه القيم ستبقى محفوظة عبر الثورة الفلسطينية وعبر الالتزام العربي حتى لو محي انتسابه الطائفي . ان مصدر الاطمئنان لم يكن مصدرا مسيحيا او دينيا بل هو مصدر حضاري وعلينا أن ندرك ذلك .

الاستاذ سمير فرنجيه : احب ان اركز على نقطة واحدة في موضوع العلاقات الفلسطينية — اللبنانية هي ما قيل عن ازمة النظام وعن الخوف المسيحي .

أزمة النظام والفئات الانعزالية

ان سبب توتر العلاقات ناتج عن ازمة نظام غير قابل ان يجدد نفسه ، وبرهن على فشل وطني وفشل اجتماعي . وهذا النظام يستخدم فئة المسيحيين كاحتياط له ويستغل خوفها التقليدي من كل ما هو خارجي . وان احد اسباب هذا الخوف هو عدم وجود فئة مسيحية قادرة على ان تطرح كبديل للفئات الانعزالية الموجودة حاليا . وبذلك فان العمل التبشيري في الوسط المسيحي لا يكفي لان الخوف اصلا غير ناتج عن تحليل منطقي . ومن هنا فان ازالة هذا الخوف لا تأتي باقناع الشخص بالقول له ان العرب لا يشكلون خطرا عليك او ان ثمة مسيحيين بين الفلسطينيين ، او ان هناك على رأس بعض المنظمات الفدائية اشخاصا مسيحيين كجورج حبش ونايف حواتمه . هذه الامور لا تشكل اهمية بالنسبة للمسيحيين الخائفين لان عقدة الخوف لا تحارب الا اذا وجدت قوة قادرة بحكم وجودها على ان تعطيه حماية معينة . وهذه القوة يمكن

ان تتجه اما الى طريق انعزالي او الى طريق العقل . وحتى الان حدث عدد من التجارب الكبيرة في هذا الصدد . فمثلا لقد هزمت الفئة الانعزالية التي كانت موجودة عام ١٩٤٣ وعزلت الكتلة الوطنية عن الحكم عدة سنوات . وفي عام ١٩٥٨ هزمت الفئة الانعزالية التي كان يمثلها كميل شمعون وانعزلت ايضا عن الحكم خلال فترة طويلة ، على الرغم من أن هاتين الفئتين كانتا تمثلان جمهورا واسعا من المسيحيين . ولكن بأي منطق هزمت هاتان الفئتان ؟ لقد هزمتا بمنطق قوة وليس بمنطق الضعف ولا منطق الاقناع . واظن ان افضل تجربة في هذا السياق كانت تجربة زغرتا التي وقفت في عام ١٩٥٨ في الصف العربي ضد اكثرية المسيحيين . ولم تكن تلك ظاهرة جديدة في تاريخ لبنان . اذن فان الاسلوب هنا هو الاساس .

انني اوافق كمال بك الراي في ان الدولة لعبت دورا في تقوية الفئات الانعزالية . لقد مدت الكتائب بالسلاح وبالمساعدات على جميع انواعها حتى انها اوجدت فئات ثانية مثل « جبهة حراس الارز » ، وهي فئات مسيحية مهمتها تحريض الوسط المسيحي ، كما ساعدت الرابطة المارونية وغير ذلك . ولكن في مقابل ذلك برزت في الاوساط المسيحية اتجاهات جديدة تعمل على اعادة النظر في الوضع الحالي . ويجسد ذلك ، كمثال ، انتخابات الجامعة اللبنانية ، ووجود فئة مسيحية متعاطفة مع الحركة الوطنية ، كما برز ذلك في ازمة الحزب القومي السوري الموجود اصلا في الريف المسيحي ، والذي كان نتيجة التطور الموجود في هذا الريف .

الاتجاهات الجديدة مقابل مشروع الكتائب الانتحاري

هذه الفئات العديدة قادرة برايي على ان تخوض معركة مع الكتائب بهدف اعادة اكثرية المسيحيين الى الخط الوطني خاصة وقد ظهر في نهاية المطاف ان المشروع الكتائبي هو مشروع انتحاري يقف في طريق مسدود . فاذا كانت الكتلة الوطنية او كميل شمعون قد طرحا على الجمهور المسيحي اهدافا محددة (كميل شمعون كان يسعى الى تجديد ولايته) فماذا يريد بيار الجميل اليوم ؟ بتعبير اخر ما هو الهدف المحدد الذي تطرحه الفئة الانعزالية الاقوى في الوسط المسيحي على انصارها ؟ عمليا لا شيء . فهم يطرحون على انصارهم ان المسألة هي مسألة قتال مع المقاومة ومع الاسلام . وليس ثمة من هدف اخر يستطيعون ان يعبئوا على اساسه ، وجميع الاسباب التي اعطيت للخلافات ولتوتر العلاقات بين الطرفين كانت حلقتها المركزية هذه المسألة .

على الحركة الوطنية ان تسهم في حركة المسيحيين

وهنا ، فكما ان الحركة الوطنية الراهنة استطاعت ان تتحالف مع حركة المسلمين انطلاقا من ظروف كثيرة محددة تدور حول ان المسلمين محرومون من بعض الحقوق السياسية والاجتماعية ، فان على الحركة الوطنية ان تساهم في ايجاد حركة المسيحيين ، اي ان عليها ان يكون لها الطرفان . اما بالنسبة لقدرة الحركة الوطنية على انجاز هذه المهمة ، فقد تكون غير قادرة على خلق البديل المسيحي بسرعة نظرا للظروف الحالية بما فيها من تعبئة طائفية ، ولكنها قادرة على انجاز امر اخر انجازا سريعا هو أن تتعامل مع شخصيات وطنية مسيحية ليس كبديل عن الحركة الوطنية ولكن كقوة مساعدة رديفة للحركة الوطنية . واعتقد ان معركة عزل الكتائب عن الحكم هي الجزء الاول من معركة تكوين البديل . وعندما عزل كميل شمعون عن الحكم اضطر فؤاد شهاب ان يخلق الكتائب خلقا لانه وجد من الضروري ان يكون ثمة طرف

مسيحي محاور مقابل الطرف المسلم . ربما كان اختيار فؤاد شهاب غير سليم وذلك موضوع اخر ، غير ان فؤاد شهاب استطاع ان يعزل كميل شمعون وكانت قوته تفوق قوة الكتائب الحالية . ان التركيز الان يجب ان يكون على كيفية تشكيل القوة البديلة وكيفية تجميع كافة العناصر الرافضة للمنطق الكتائبي والتي برزت خلال الاحداث .

ان من يتابع اخبار المناطق المسيحية ، فقط من خلال الصحف ، يأخذ فكرة مشوهة عما جرى فيها . ولكن في الحقيقة هناك مناطق معينة لم تحدث فيها تعبئة طائفية ولم يكن هناك قدرة على تحريك مناطق عديدة نحو ذلك ، من الجنوب في الزهراني الى البقاع الى زحلة الى منطقة الشمال . وقد حدث عكس ذلك في اكثر من منطقة اذ اخذت هذه القوى المبادرة في التصدي للكتائب والتأكيد على ان العرب قد تطوروا وان الامور قد تغيرت عما كانت عليه في الماضي . ولكن يظل مع هذا أن مثل هذا الكلام يمكن ان يفيد فئة معينة من اللبنانيين هي الفئة المثقفة القادرة على فهم هذه المعطيات غير ان القسم الاكبر من المسيحيين لن يسير الا وراء قطب جاذب يطرح نفسه بكل صراحة بأنه البديل عن الكتائب . فالكتائب هي آخر رمز للانعزالية اللبنانية ويمكن ضربها اذا تمت عملية عزلها سياسيا . وبذلك تصبح مهمة تكوين البديل ، القادر وحده على تخفيف حدة التوتر بين الشعبين الفلسطيني واللبناني ووضع الازمات في اطارها الطبيعي العادي ، هي المهمة الراهنة والاساسية والتي ، برأيي ، يمكن ان تنجز بأسرع مما يتصور .

الدكتور نجيب ابو حيدر : نحن طائفة الروم كنا على مدى التاريخ مجموعة غير طائفية وقد رفضت الطائفية ، وكانت تعتبر نفسها دائما من المجموعة العربية حتى ان بطريرك الروم في زيارته الاخيرة الى السعودية كان يوازي مع ملك العربية السعودية ايهما الاكثر عروبة بطريرك الروم ام الملك . لهذا السبب فانني شخصيا اجد من الصعوبة الكلام عن القضية الطائفية في لبنان خاصة اني لا افهمها كما ان فهمي لها صعب قليلا .

الفهم الطبقي للطائفية

أنا أرى ان الطائفية في لبنان ليست الا مظهرا من مظاهر الصراع الطبقي . فلو اخذنا هيكلية حزب الكتائب وتساءلنا مما يتألف حزب الكتائب لوجدنا انه مؤلف من الموارنة على وجه الخصوص بالاضافة الى عدد قليل جدا من غير الموارنة . اما القيادة فيه فهي من صميم القطاعات الاستثمارية اللبنانية وعددها يعد على الاصابع . اما بقية الكوادر الكتائبية فهي من الاشخاص الذين يفترض انهم من طبقات المحرومين ، ولكنا نرى هؤلاء يقاتلون مع الطبقات التي تستثمرها في هذا البلد . وربما يعود ذلك الى ان القيمين على الامور في هذا القطاع اكثر ذكاء من القيمين على الامور في بقية القطاعات ، فقد استطاعوا أن يقنعوا هذا الشعب الفقير العامل بأن مصلحته تكمن في الدفاع عن الوضع الحالي في لبنان ، الوضع الاستثماري الرأسمالي .

ما الذي جرى في الدكوانه ؟ لقد شاهدت العامل هناك يقاتل العامل . وان الذي خسر في الدكوانه هو العامل . وقد تحدثت مع اصدقائي في المقاومة وبالاخص مع الحركة العمالية الفلسطينية وكنت اسألهم ماذا فعلتم وبمن الحقتم الضرر ؟ وكنت اذهب الى الجانب الاخر واسألهم بمن الحقتم الضرر ومن الذي تضرر ؟ وكان همنا في اليومين الاخيرين ان نفتح الطوق كي يعود العمال الى اعمالهم فهم يجب ان يأكلوا . ولهذا السبب فانني أرفض الدخول في الوضع اللبناني الطائفي لاني اعتبر المسألة

صراعا طبقيا وصراعا على مراكـز القوى بين الزعماء السياسيين . ومـن هنا فان ظاهرة الطائفية ليست عميقة الجذور ويمكن انهاء الصراع الطائفي في لبنان بتطويـر الوضع اللبناني مهما كانت هذه المهمة صعبة .

تذكير ببعض حقائق التاريخ

أريد أن أرجع قليلا الى التاريخ، وعندما نتحدث عن شعبين، الشعب اللبناني والشعب الفلسطيني ، فانني اعتبر ذلك رجعة الى الوراء فقـد كان في المـاضي شيء اسمه القومية العربية ، ومنذ عام ١٩٢٠ تقهقرت القومية العربية تقهقرا مخيفا . لقد اصبحنا اليوم نتحدث عن شعب لبناني وشعب فلسطيني وشعب قطري وشعب كويتي وهلـم جرا . كما اننا اصبحنا نرى اقتتالا بين الشعوب العربية على قطرات الماء : بين لبنان وسوريا ، وبين العراق وسوريا ، واقتتالا على لقمة العيش . لهـذا السبب اجدني مضطرا ، لسوء الحظ ، ان اتحدث عـن شعب فلسطيني وشعب لبناني . ان لكـل من الشعبين تناقضاته . وفي فلسطين لم تكن الطائفية موجودة . لقد عشت في القدس عام ١٩٦٦ — ١٩٦٧ وقد لمست في الحقيقة انه لا وجود للظواهر الطائفية في فلسطين. ولكن قبل احتلال الصهيونية لفلسطين كان في فلسطين وجود وتطاحن اكثر ضررا من الوجـود الطائفي هـو التطاحن العائلي مـا بين الحسينيين والدجانيين والخالديين والنشاشيبيين . وكان ذلك التطاحن يضاهي التطاحن الموجود في لبنان . وقـد ادى ذلك ، اكثر من اي شيء اخر ، الى الكارثة الفلسطينية . لقد فقدت الوحدة في الصف الفلسطيني للقتال ضد منظمة صهيونية موحدة استطاعت ان تخلق جيشا للسيطرة على البلاد ، بينما كان الفلسطينيون يتقاتلون : الحاج امين رحمه الله كان يقتل وغير الحاج امين كان يقتل . غير انه من حسن حظ الشعب الفلسطيني ، وبعد هذه المحنة ، انـه خرج من فلسطين دون قيادة تقليدية . لقد انهارت القيـادة التقليديـة . ونظرا لهذا الحدث فقد كانت هناك امكانية بروز قيادة فلسطينية من الشعب وللشعب . ولهذا فان امامنا حاليا الظاهرة الفلسطينية الراهنة التي يمكن ان تعتبر مستقبلية في مجالها .

الدعـوة الى وجود سلطتين قويتين وطنيتين

هنا على أرض لبنان يوجد شعب فلسطين ، ان الـ ٤٠٠ الف نسمة يؤلفون شعبا. والشعـب الفلسطيني اصبح لـه نوع من المؤسسة الوطنيـة هي منظمة التحريـر الفلسطينية . وكما في لبنان يمين ويسار وغير ذلك ، كذلـك فان للشعب الفلسطيني تناقضاته . ولكنا يجب أن نقبل ان تكون منظمة التحرير هي المسؤولة عن كل ما يجري ضمن هذا الشعب وان تكون مسؤولة عنه حتى تتمكن من ان تتكلم باسمه وتقوم بعقد تعهدات تعاقدية مع أي مؤسسة شعبية اخرى في لبنان وغيره . لهذا السبب فان من ضروريات التعايش اللبناني الفلسطيني في المستقبل وجود مؤسسة مركزية فلسطينية تكون مسؤولة عن اي تعاقد حصل او قد يحصل في المستقبل . وعلى هذه السلطة ان تفرض على الشعب الفلسطيني ما تقبله هي . وعلينا ان نشير الى انه ليس الشعب الفلسطيني فقط وانما العالم باسره قد وافق على ان تمثل المنظمة الشعب الفلسطيني، عندما تكلم ياسر عرفات باسم الشعب الفلسطيني في الامم المتحدة .

اذن فان على الشعب الفلسطيني ان ينظم اموره في هذا الاطار وان يقبل بان تكون منظمة التحرير الفلسـطينية هي المؤسسة المركزية التي تتعاقـد باسـمه وتوقـع التعهدات . وانا لا اعرف حتى الان اسباب عـدم اعلان حكومة فلسطينية في المنفى ، غير ان التعبير ليس له قيمة فان منظمة التحرير الفلسطينية تقوم بهذا العمل . ويجب

ان تكون هذه المنظمة قوية لدرجة تستطيع فيها ان تمارس جميع الصلاحيات التي تمارسها اية حكومة على شعبها .

في مقابل ذلك لدينا الشعب اللبناني بتناقضاته الطائفية والحزبية . ونحن في صراع ضمن هذه التناقضات . أما من سيربح في المستقبل فلا أستطيع ان اتنبأ وان كانت الطبقة الاقطاعية السياسية هي الرابحة حتى الان . ولكن هذا لا ينفي ضرورة قيام سلطة وطنية لبنانية قوية تمارس جميع الحقوق . وهنا اشير الى المقال الذي نشرته في « النهار » يوم ٧٥/٥/٣٠ والذي بينت فيه الضرورات الاساسية لقيام مستقبل العلاقات بين اللبنانيين والفلسطينيين .

توجيه الجهد اللبناني نحو الصراع مع اسرائيل

منذ عام ١٩٦٧ حدثت ثلاثة صراعات اساسية ولو كانت معركتان فقط لكان ذلك كثيرا . وكانت هذه المعارك التي حدثت بين اللبنانيين والفلسطينيين تحل بطريقة واحدة : الاتفاقات ، سواء اتفاقية القاهرة او ملاحق ملكارت . وفي رأيي لم تكن تلك في حد ذاتها علاجات اساسية في حل الصراع ولم تكن الا مخدرات مؤقتة . وهنا أحب ان انزع عن نفسي الصفة التقدمية والوطنية واتعامل بحساب الربح والخسارة واتساءل ماذا يمكن ان تكون خسارة لبنان لو شارك في المعركة العربية ضد اسرائيل ، ماذا يمكن ان تكون الخسارة في الرجال والعتاد وفي الاقتصاد وفي المعنويات ؟ مقابل ذلك ما هي الخسارة التي حصلت الان نتيجة معاهدة القاهرة وغيرها والتي اصابت لبنان في الرجال والمعدات وفي الماديات والمعنويات ؟ بتقديري اننا لو اشتركنا في المعركة العربية العامة لكانت خسارتنا فيها اقل بكثير مما نخسر الان ومما يمكن ان نخسر في المستقبل .

اسمحوا لي ان اقول هنا ، وفي هذا الموضوع ، اننا اذا اردنا ان ننظم العلاقات اللبنانية ـ الفلسطينية واللبنانية ـ العربية ، فلا يمكن عزل فئة من اللبنانيين مهما كانت ، بل يجب ان يشارك جميع اللبنانيين في المعركة ، لان المعركة اكبر من اي فئة وحدها ، وان المعركة تتطلب تضحيات كبيرة جدا وان لم نقم بهذه التضحيات فلن يكون لنا بقاء في المستقبل .

ان ضرورة المشاركة اللبنانية في المعركة القادمة ضد اسرائيل هي ضرورة حتمية وضرورة لبقاء لبنان . واذا لم يشارك لبنان في المعركة القادمة فلا اعلم ماذا سيكون مصير هذا البلد على جميع الاصعدة . كما أرى من الضروري اقناع اللبنانيين بأن عليهم ان يقوموا بتضحيات اكبر مما قدموا حتى الان . ولا شك اننا قدمنا تضحيات في هذا البلد .

ان علينا ان نخلق سلطة لبنانية قوية وجيشا لبنانيا قويا وان تقوم معاهدات بين السلطة اللبنانية والسلطة الفلسطينية والسلطة العربية المشاركة في القتال كي يصبح الجيش اللبناني احد الجيوش المشاركة في القتال . واذا لم تتحول هذه المعاهدات من كونها نظرية الى ان تصبح تطبيقية فلا بقاء للبنان .

اما بالنسبة للسلاح الموجود حاليا في ايدي الشعب اللبناني فان استعماله وتنظيمه اذا بقيا على ما هما عليه الان فهو لن يأتي على لبنان الا بالكوارث . ان هذا السلاح يجب ان يصبح سلاحا منظما تحت الراية اللبنانية وتحت قوة حرس وطني ، ينظم بالاساليب العسكرية ويعاقب من يستعمله خارج هذا النظام باعتباره مخالفا للقوانين اللبنانية ومجرما امام القانون . وعندئذ يصبح هذا السلاح الموجود في ايدي اللبنانيين

حاليا جزءا من اداة المعركة المصيرية مع اسرائيل ــ وانا شخصيا لا ارى ان الحل السلمي وراء الابواب كما ارى ان المعركة طويلة ــ وفي هذه الحالة فلن يبقى السلاح للاستعمال اللبناني الفولكلوري الذي تعودنا عليه حتى هذا التاريخ .

الجزء الثاني : المداخلات

الدكتور امين الحافظ : انني ارفض فكرة عدم الاستقرار في لبنان ، لان عدم الاستقرار الناتج عن الوجود الفلسطيني يجب ان يتحول الى استقرار ، والى مركز قوة كي يتمكن لبنان من المشاركة في المعركة . اما اذا بقينا على هذا النمط من عدم الاستقرار فان ذلك سينفجر كل ثلاثة اشهر او اربعة في حوادث كما نرى الان التي يدفع ثمنها الثورة الفلسطينية اولا والشعب اللبناني بمجمله ثانيا سواء أكان مسيحيا أم مسلما .

الشيخ ميشال الخوري : لقد اتى الدكتور ابو حيدر على ذكر الطائفية وقال انها ليست سوى صورة من صور الصراع الطبقي . وانا اعتقد ، خلافا لما تفضل به الدكتور ابو حيدر ، ان الطائفية هي العائق الذي يردع الصراع الطبقي وان الطائفية هي صورة من المخلفات القديمة التي تمنع هذا الصراع . واذا حللنا الوضع اليوم ــ وهو ما يجب ان يفهمه الجميع حتى نستطيع ان ندرك في النهاية اين الجرثومة واين المرض فعلا ــ على الطريقة الماركسية فاننا نجد ان ثمة طبقة حاكمة وطبقة محكوما عليها . اما الطبقة الحاكمة فهي مؤلفة من نسبة كبيرة من المسيحيين ومن نسبة قد تكون ٣٠ بالمئة او ٤٠ بالمئة من غير المسيحيين ، اي ان الاكثرية مسيحية . والطبقة المحكوم عليها مؤلفة من اكثرية غير مسيحية واقلية غير مسيحية نسبتها ٤٠ بالمئة . لكن الفئة المحكوم عليها المكونة من الطبقة الكادحة ، طبقة المحرومين ، هي في حالة تواطؤ مستمر مع الطبقة الحاكمة ، سواء عن جهل ام ادراك ، بسبب الطائفية . بمعنى ان الرابط الطائفي هو الذي يجعل العامل المسيحي ــ الذي يطلق النار اليوم على العامل المسيحي ــ يفضل ان يحكمه مسيحي عن ان يحكمه شخص اخر . واذا لم نعالج المرض هذا فلا يمكننا في النهاية حل المشكلة وانني اعتبر هذه النقطة اساسية .

الدكتور امين الحافظ : طرح الاستاذ سمير مسألة ايجاد شخصية مسيحية او قوة تستقطب المسيحيين . فهل هو يفضل الاحزاب أم الاشخاص ؟ بمعنى انه عندما يكون هناك حزب ينتمي اليه عدد من الشخصيات الوطنية والتقدمية من مختلف الطوائف المسيحية والاسلامية أفليس هذا أفضل من أجل الانصهار ؟ هذه نقطة ، ونقطة ثانية انه بنظرة الى المستقبل ومن أجل دعم الثورة الفلسطينية طرحت في الماضي فكرة توحيد المليشيات من أجل تكوين مليشيا كبيرة وطنية لبنانية لمساندة الثورة الفلسطينية ، أفلا ترون ان هذه الفكرة قابلة للتنفيذ ؟

الدكتور نجيب ابو حيدر : اريد أن أقول للاخوان الفلسطينيين اننا في الحقيقة لا نعرف بعضنا بعضا . فالاخوان الفلسطينيون لا يعرفون من لبنان سوى بيروت والمدن ، اما ما يسمى الجبل المسيحي الدرزي فهم لا يعرفونه . أنا ، مثلا ، من منطقة بعبدا ، من حمانا . وهي منطقة درزية مسيحية والاكثرية فيها روم وموارنة . ليس لدينا في هذه المنطقة طائفية فالدروز منقسمون قسمين وكذلك الموارنة قسمان ، قسم من الدروز مع الموارنة وقسم من الموارنة مع الدروز . في الماضي كان الدروز منقسمين الى يزبكية وجنبلاطية ، الآن أصبح الجنبلاطيون اشتراكيين .

عندما أتحدث مع بعض الاخوان المسيحيين عن المحرومين يقولون انه ليس من جائع في لبنان ولكني أقول أن المسألة ليست هي الخبز وحده وانما أدعوهم الى منطقة صبرا ليشاهدوا اذا كان بامكانهم أن يقبلوا بأن يعيش لبنانيون في هذا المستوى من المعيشة غير المقبولة . ولذلك فاني أرى أن من أهم أسباب حل الازمة تعارف الشعوب بعضها ببعض . ان اللبنانيين لا يعرفون ماذا كان يحدث في المخيمات قبل عام ١٩٦٧ ، وعندما أقول لهم ان الفلسطينيين كانوا يتعرضون لاضطهاد قوى الامن قبل عام ١٩٦٧ لا يصدقون . ان هذه المعلومات غير متوفرة عند اللبنانيين كما ان الشعب اللبناني جاهل بالقضية الفلسطينية أكثر بكثير من الشعب الفرنسي . لقد صرفت أموال كثيرة للدعاية في الخارج ، في أوروبا واميركا ، وصرف القليل جدا في لبنان . وقد أثرنا هذه المواضيع في الجمعيات التي ننتمي اليها ، جمعية الخامس من حزيران والجمعية اللبنانية للاعلام الفلسطيني ، وتحدثنا عن ضرورة الاعلام الفلسطيني في لبنان نفسه الذي يجهل الفلسطينيين ، فحيثما ذهبت في الجبل فهم لا يعرفون عن القضية الفلسطينية سوى انها قضية شعب طرد من أرضه وانه « حرام ، لازم يرجع اليها » . يمكن لان الشيخ بيار قال ذلك وقبلوا به . فمن الضروري اذن من أجل دعم القضية الفلسطينية تعريف هذه القضية للبنانيين ، ليس في بيروت الغربية فقط وانما في الشرقية أيضا وفي منطقة كسروان وفي جميع المناطق اللبنانية .

الاستاذ سمير فرنجيه : ان اكثر المسائل اهمية في قضية الصراع الطبقي والصراع الطائفي ان ثمة شعورا قوميا مزيفا لدى المسيحيين يجعلهم يتحدثون بصيغة الجمع ساعة يتحدثون عن لبنان بحيث يعتبرون انهم ورثوه وانه ملك لهم . وهذا الشعور القومي المزيف يجعل العامل المسيحي يؤيد بيار الجميل كما كان يؤيد قبل ذلك كميل شمعون . وهذا الواقع يجب أخذه بعين الاعتبار وان كان ذلك لا يعني اننا نشجع هذا الشعور القومي المزيف. خذ مثلا قضية اجتماعية مطروحة كالغلاء أو قضية الايجارات، فبدلا من معالجتها يقول هؤلاء هناك مسألة أهم ، هناك الخطر على المسيحيين . فالطائفية لا تبحث في الخطر على الدين وانما على « الوجود القومي » لفئة معينة ، وهذا هو الشعور الذي تتركه الكتائب ، ومن هنا قولهم انهم يمثلون نصف لبنان ، ومن هنا أيضا مشاريع قبرصة لبنان وتقسيمه .

اما بالنسبة للملاحظة التي طرحها دولة الرئيس الحافظ فان الحل المثالي بطبيعة الحال هو أن يكون هناك حزب يوحد بين الجميع . غير ان علينا أن ننطلق من واقع معين فهناك تشتت سياسي في المناطق المسيحية ، والارض المشتركة غير واسعة لتوحيد جميع هذه الفئات في حزب واحد ، فهناك الديموقراطي والاشتراكي وغير ذلك ، لذا فان توحيدهم يجب ان يتخذ الشكل الجبهوي بدل شكل الحزب. وبالاضافة الى ذلك فهناك التركيز على ايجاد القطب المسيحي ويعود هذا التركيز الى أن المسيحيين الريفيين هم من الفئة البرجوازية الصغيرة التي لا تملك الاستقلالية بحد ذاتها والتي لا بد ان تتبع اقطابا معينين . ولو كانت البروليتاريا موجودة في المناطق المسيحية فان المسألة عندها تجد حلا ما دام البديل موجودا . غير ان الحل يجب ان يتخذ الشكل الواقعي لفقدان الجزء الثاني من المعادلة أعني فقدان البروليتاريا . بجانب ذلك فهناك مسألة أساسية هي ان محاربة الكتائب من جانب أطراف مسيحية يعطل جميع قدراتها القتالية . لقد حاربت مليشيا الكتائب في الدكوانة ليس بالعامل الموجود هناك فحسب بل كذلك بابن العاقورة وابن تنورين وابن قرطبا وهؤلاء يستحيل تعبئتهم ضد ابناء زغرتا او حراجل او غيرها . وحادث ترشيش في العام الماضي يعطي مثلا على ذلك فرغم

الوجود العسكري القوي للكتائب هناك فهم لم يستطيعوا أن يعبئوا المنطقة لان الحادث وقع في الجبل حيث لا وجود للفلسطينيين هناك .

الاستاذ شفيق الحوت : في الحقيقة لم أسمع في هذه الندوة كلمة أجد نفسي في موقف مضاد منها أو مختلف معها . وأمام هذه الروحية اللبنانية غير المستغربة او المستهجنة عن الطرح الموضوعي الذي لا يخلو من نقد ذاتي أجد كانسان ينتمي الى حركة المقاومة الفلسطينية انه لا بد لي من أن أدلي بكلمة أحاول فيها أن أعطي صورة عن المفهوم الفلسطيني للازمة .

انني كفلسطيني أقام في لبنان وأعرفه بتكوينه السياسي والاجتماعي والطائفي لم أكن أتمنى في حياتي أن ينتهي المطاف بالثورة الفلسطينية في القطر اللبناني . كنت اتمنى لها أن تقوى وأن تنمو وتستمر في الساحة الاردنية مثلا او في أي قطر عربي مجاور لاسرائيل الا في الساحة اللبنانية . لانني ، بحكم تواجدي على هذه الارض أعرف مشاكل لبنان الكثيرة . ربما يكون وجودها هنا — كما تفضل بعض الاخوة وبالاخص الشيخ ميشال — هو لمصلحة لبنان بقدر ما هو لمصلحة فلسطين ، بمعنى انها قد تدفع هذا القطر على طريق التقدم وعلى طريق الديموقراطية والعلمانية .

أمام تعقد المجتمع اللبناني ومشاكله جاءت قيادة فلسطينية تجهل هذا الواقع اللبناني . فعندما اضطرت هذه القيادة تحت وطأة الاحداث الرهيبة في الاردن الى المجيء هنا ، دخلت ساحة لا تعرف الكثير من خفاياها السياسية والاجتماعية . لقد كان أخوتنا الذين هم على مستوى قيادي وقدموا من الاردن أو غزة او مصر يستغربون كثيرا بعض الامور عندما كنا نحدثهم عنها نحن ابناء فلسطين الذين أقمنا في الساحة اللبنانية . كانوا يستغربون مثلا عندما نقول لهم ان كورنيش المزرعة يمينه له اتجاه سياسي ويساره له اتجاه سياسي آخر ، أو عندما نقول لهم انكم اذا دخلتم في الازقة ستجدون هنا السريان ، وهناك وطى المصيطبة وهنالك كركول الدروز ، ولكل من هذه الاحياء اتجاهات سياسية تنعكس على تواجدنا هنا بأشكال مختلفة . غير ان من حسن حظ الثورة الفلسطينية — وقد يأخذ البعض هذا مأخذا سلبيا — انها كانت منذ تواجدها مرنة بالنسبة للتعاون مع الانظمة ومع الحركات الوطنية . ربما كان بعض العقائديين في حركة المقاومة الفلسطينية يتمنون عدم التعامل اطلاقا مع الانظمة وينظرون الى الثورة ، من منظار طوباوي ، بأنها حركة التغيير العربية الشاملة واعتبارها البديل للحركة الوطنية الموجودة في لبنان وغيره من الاقطار العربية . غير انه اضافة الى هذا الجهل الفلسطيني بالنسبة للعقد اللبنانية أخذ الفلسطيني يتساءل مع أي لبنان يتعامل ومع أي جهة يتعاون ؟ هل يتعاون مع السلطة أم مع الاحزاب أم مع الطوائف ؟ وبالاضافة الى هذا السؤال عن الجهة التي يتعامل معها الفلسطيني علينا الا ننسى ان الوجود الفلسطيني حدث هنا في أعقاب مذبحة أيلول ١٩٧٠ ويضيف ذلك سببا الى ما ذكره كمال بك عن الخشية الفلسطينية . فبجانب خشيته التقليدية الموروثة من ايام المكتب الثاني وضعت هذه المجزرة الفلسطيني على شفير البارانويا او الشعور بالاضطهاد وخطر التصفية بحيث كاد هذا ان يصبح مرضا فلسطينيا . ولكن على الرغم من هذا فانني أقول بصراحة وبصدق ان المقاومة الفلسطينية كانت براغماتية الى أبعد الحدود الممكنة بمعنى انها تعاونت مع جميع الانظمة بالتساوي . غير انه ثبت شيء من خلال التجربة ان النظام من حيث هو نظام هو في موقع مضاد للثورة الفلسطينية . وليس هذا بغريب . كما يجب الا نغضب منه أو نستهجنه ، لاننا في واقع الامر قد نكون في استراتيجيتنا النهائية ضد أي نظام لاننا ثورة بالتعريف وتلك دول بالتعريف .

حتى ان الرئيس الاسد عندما طرح مشروع الوحدة الفلسطينية ــ السورية اشترط ان لا نحول سوريه الى ثورة وألا نتحول نحن الى دولة . اذن فان العلاقة يجب ان تكون واضحة لان ثمة خلافا في المواقع السياسية والنظرية والنضالية بين الثورة والنظام . وهكذا فان النظام بمعناه العام كان دائما موضع حذر من جانب الثورة الفلسطينية وموضع شك وعدم ثقة مطلقة والعكس قائم كذلك .

بجانب ذلك فقد نما احساس موضوعي بأنه يمكن ان يكون في النظام شخصيات وطنية ــ سواء أكانت في مواقع الحكم أم خارجه ــ تستطيع ان تبني علاقات بناءة مع الفلسطينيين . وأنا أشهد التاريخ الآن انه في العام ١٩٦٩ عندما كان الاستاذ كمال جنبلاط وزيرا للداخلية وكنا آنذاك في مشاكل صعبة واتفاقية القاهرة جديدة ، وموجة المخالفات بعد ذلك وكثرة الحديث عن الفدائي الذي يخرج بثيابه المرقطة و« يسرق وينهب » ، استطعنا آنذاك بالفعل ان نحقق شبه معجزة أمنية بالتعاون ما بين المقاومة الفلسطينية والسلطة اللبنانية لان الاستاذ جنبلاط وهو في موقع المسؤولية كان موضع ثقة الفلسطيني .

ان هذه القضية ليست سياسية فحسب وانما هي نفسية أيضا . فقد كنا نستعين في تلك الفترة بالاستاذ كمال جنبلاط لتسهيل امور الفلسطيني العادي في الوزارات المختلفة ونستعين به لحل مشاكلنا في وزارة الشؤون الاجتماعية حيث لا يزال الوضع فيها ، بالنسبة للتعامل مع الفلسطيني ، كما كان عليه في عام ١٩٤٩ أي سنة اللجوء . وبهذه المناسبة أشير الى أنه لا يوجد في وزارة الشؤون الاجتماعية قانون يحدد علاقات الانسان الفلسطيني بالدولة سواء أكان عاملا أم مزارعا أم متخرجا من المعاهد الجامعية العليا .

بسبب هذه الممارسة أخذ على الثورة الفلسطينية انها تضع ثقل تعاونها مع الحركة الوطنية التقدمية في لبنان وكنا دائما نرد ردا سياسيا ، لاننا نفضل الرد السياسي على الرد العقائدي ، بالقول ان الاخوة في الحركة الوطنية والتقدمية والديمقراطية هم الذين مدوا أيديهم الينا بالدعم والتعاون ، فهل نرفض يدا امتدت الينا ؟ بمعنى آخر ان الحركة الوطنية هي التي اختارت ــ وكان طبيعيا أن تفعل ذلك ــ المقاومة الفلسطينية كرفيق وحليف وصاحب قضية مشتركة . ومع هذا فان القيادة الفلسطينية لم تهمل الاطراف الاخرى حتى ان بعض كوادرنا وجهوا الى القيادة نفسها نقدا بأنها مدت يدها الى اليمين اللبناني . وأستطيع أن أقول بصدق وبصراحة انه كان للكتائب حظوة لدى المقاومة الفلسطينية لدرجة انني شخصيا كنت أحيل بعض الناس في حل قضاياهم الى عضو في المكتب السياسي لحزب الكتائب اصبح شبه رفيق دائم لنا في مكتب القائد العام للثورة الفلسطينية . كما ان الحوار كان مستمرا مع الشيخ بيار الجميل والشيخ امين الجميل وغيرهما . لقد كنا دائما نحاول جهدنا أن نطمئن التخوف المسيحي من خلال الحوار مع اخوتنا في الكتائب ومع رجال الدين ومع البورجوازية اللبنانية على اختلاف أنواعها . ولكن يبدو ان الخلاف الاستراتيجي بينك وبين أي فريق هو الذي يتحكم في النهاية في قضية الصراع .

أما بالنسبة للاخطاء فأنا أعتقد بوجود عدم انضباط في الصف الفلسطيني ولكن ذلك ليس هو الاساس وانما هي قضايا هامشية يمكن حلها بواسطة التلفون . ومن خلال تعامل الثورة الفلسطينية مع الشخصيات الوطنية ثبت انه يمكن حل هذه المشاكل بأسهل ما يكون الحل . أما عندما توضع كذريعة لتصعيد الخلاف والتناقض فهنا يصبح الحل مستحيلا . أنا لا أقول هذا دفاعا عن عدم الانضباط في الصف الفلسطيني ، فهو

موجود وهو ناتج عن كوننا عربا ننتسب كما اشار الدكتور امين الحافظ الى منطقة متخلفة في هذه المرحلة من تاريخنا ، ومن الطبيعي ان يكون لدينا اخطاء . ولكن ذلك ناتج عن طبيعة الوضع في لبنان ايضا . فلماذا ينتفي عدم الانضباط في سوريه ؟ لاننا في سوريه نتعامل مع سلطة واضحة تحدد معها ما لك وما عليك . كما انك مطمئن على صعيد خطها الاستراتيجي . وهذا هو السبب الذي اشار اليه الدكتور ابو حيدر . فسوريه خاضت معارك وضحت بالرجال فكان من الطبيعي — حتى ولو على حساب اشياء كثيرة تمس تنظيماتنا الفلسطينية — ان نتحمل من سوريه وان نسكت وأن نرضى ببعض الاجراءات ، لاننا نقول في النهاية انها دولة حاربت ودولة ضحت ودولة ما زالت ترفع شعارات وطنية وقومية مقبولة لدينا .

هنا يصعب على السلطة في لبنان أن تطلب منا ذلك لاننا نجد أن موقفها الاستراتيجي غير مطمئن فكلنا نعرف مشاكل الجيش ، وكلنا نعرف حقيقة السياسة الدفاعية اللبنانية . وما من لبناني يجهل انه ليس من سياسة دفاعية في لبنان وان هنالك عراقيل حقيقية تحول دون قيام سياسة دفاعية في لبنان .

أريد هنا أن أقول ، وليس ذلك في مجال الدفاع ، انه صحيح اننا قصرنا الى حد ما في الواجب التبشيري . ولكن أرجو أن أقول للشيخ ميشال اننا فعلنا بقدر ما تسمح لنا به جدران الوضع في لبنان . أنا شخصيا حاضرت في رهبانيات وغيري كذلك من الرفاق والزملاء وقد عمل الاخ محمود درويش ندوة في زغرتا واستقبل استقبالا جيدا لانه ينتمي الى المقاومة الفلسطينية . مع هذا فاني اشارك الاخ سمير فرنجيه الرأي بأنه يمكننا أن نبشر ولكن في النهاية لا بد للفئات الشعبية المتعاطفة معنا من وجود من يحميها . وهناك بالتأكيد صوت تقدمي ثوري وربما هذا كان من الاسباب التي دفعت الكتائب الى المغامرة . انا لم يكن في حلمي أن اذهب ذات يوم الى الجامعة اليسوعية محاضرا وقد صعقت عندما صنفني الطلاب هناك يمينيا فلسطينيا لاني لم أكن من الجرأة في طرح الامور بالمقدار الذي كانوا على استعداد لاستقباله . وهنا يشعر المرء أن ثمة تقدما وهذا دليل صحة . وأظن أن الموقف المسيحي الذي لم يعلن عن نفسه بقوة ولم يترجم بشخصيات قيادية وحركات ، استطاع ان يلجم في مناطق عديدة امكانات الكتائب وشعرت الكتائب فيها انها معزولة . حتى كميل شمعون على الرغم من أنه على مستوى القواعد دعم الكتائب قليلا الا انه أدرك لانه سياسي محنك وربما أكثر مرونة من الجميل ، ان الوضع لم يعد يسمح لاي زعيم طائفي بأن ينفخ في بوق الطائفية ويجند الشارع بالسهولة التي كان يجنده بها في الماضي .

اننا نتمنى كمقاومة فلسطينية أن تتضح الصورة مع الايام كي نتمكن من التعاون . ان التعاون مع السلطة يخضعه الدكتور امين لاتفاقية القاهرة وتفاهم ملكارت . لكن تبقى القضية الاساسية والتي عكست نفسها موضوعيا على الواقع اللبناني هي ان الحركة الوطنية تظل هي الحليف الاساسي الذي يمكن الركون اليه . ومثل واحد أحب أن اشير اليه هنا ان هذا النظام عبر عشر سنوات لم يسمح لصوت او وجه فلسطيني أن يظهر في أية وسيلة من وسائل الاعلام الرسمي . حتى الاتفاقات التي كانت تعقدها السلطة لو كانت حريصة عليها لدعت وجها فلسطينيا لتوضيحها . لقد تحديت وزير اعلام سابق ان يعطي منظمة التحرير دقيقة واحدة يوميا في الاذاعة اللبنانية يوجه خلالها نداء يتفق على صيغته ، فقط لكي يشعر المواطن اللبناني العادي الذي يعيش في كسروان او جبيل او سواها ان هذا الانسان الفلسطيني ليس مجرد شبح مرقط قاتل يخطف الطائرات . ان النظام اللبناني منذ عام ١٩٦٥ او منذ ١٩٦٩ بالتحديد ، أي منذ

تواجدت الثورة الفلسطينية حتى اليوم لم تتحمل معدته ان يعطي المجال للظهور لصوت فلسطيني يمثل منظمة التحرير .

كما تفضل الدكتور ابو حيدر نحن أحرص من غيرنا على ان يتم التعامل معنا « كمنظمة التحرير » من قبل السلطة . ولكن بعض اجهزة السلطة تظن ان التعامل مع الفئات المتعددة يخرق المقاومة الفلسطينية . حتى نحن ابناء المقاومة الفلسطينية كثيرا ما نشاهد صورا في الصحف ونقرأ عن مقابلات لا نعرف في الحقيقة من الداعي اليها ، بينما هنالك مراجع رسمية موجودة وقيادة موجودة يجب أن يتم الاتصال بها دائما عبر منظمة التحرير والقيادة الحالية وعبر ابو عمار . وأقول هذا دون حساسية فان ما يقتنع به ابو عمار وقيادة منظمة التحرير هو الذي يمر ولا يمر غير ذلك . أما اذا اختلفنا في الساحة بيننا فأعطونا حقنا وفرصتنا ان نرتب نحن أمورنا الداخلية .

الاستاذ كمال جنبلاط : أحب أن أشدد فقط على بعض النواحي التي وردت ومنها ضرورة البديل المسيحي الوطني وأوافق تماما الصديق سمير فرنجيه على وجهة نظره وعلينا أن نفعل كل جهدنا لايجاد هذا البديل كما يجب على المسيحيين الوطنيين ان يجتمعوا ويظهروا بمواقف يتراكم أثرها في الراي العام الاسلامي والمسيحي والعربي على السواء . فان نقاط المطر تصبح ذات يوم جدولا صغيرا وفي المستقبل تضحي نهرا واسعا يجر معه الاكثرية الساحقة من المسيحيين .

فيما يتعلق بالوضع اللبناني والتسمم الداخلي فان الذي نلحظه ان للصحافة أثرا في ذلك خصوصا تلك التي تتوجه الى جمهور المسيحيين . وعندما تستوي روح الحقيقة لدى بعض الصحف فسيحصل تبديل هائل في الذهنية المسيحية . وفي الظرف المؤلم الذي عشناه منذ شهر ونيف لعبت بعض الصحف دورا في تشويه الحقائق بتقديمها بشكل لا يقبله الا الذين يريدون التطرف الطائفي ويسعون وراءه . ولو ان هذه الصحف أخذت فقط بمنطق الاعتدال لما تجرأت الكتائب على ما تجرأت عليه ولما جرت قسما كبيرا من المسيحيين وراءها بشكل مؤقت .

مسألة أخرى في الوضع اللبناني هي التقسيم الانتخابي ففي الطائفية يجعل التقسيم الانتخابي الجائر أكثرية ساحقة من المسلمين في جهة وأكثرية ساحقة من المسيحيين في جهة اخرى . لذلك يجب ان ننظر بجدية الى تعديل هذا القانون والا فنحن أمام قلعتين تطول فيهما يد المزايدات الطائفية .

ومن جهة المشاركة المطلوبة بين الفلسطينيين واللبنانيين فقد سعيت اليها عندما كنت وزيرا للداخلية ولم يقبل رأيي . وكان رأيي هو ان المخيمات يجب الا تبقى معزولة عن المحيط الذي تعيش فيه . وكان أحد الافكار الاساسية ، مثلا ، ادخال مخيم تل الزعتر في اطار بلدية الدكوانة وأن يصبح جزءا من هذه البلدية من حيث المنافع العامة كالطرقات والمجارير وسواها وان يصبح للمخيم ممثل في هذه البلدية ، وهكذا بالنسبة لسائر المخيمات . ان هذا الامر يحسن من جهة الوضع السكني الفلسطيني فلا يعود يقوم على ما يقوم عليه اليوم من وضع سكني متأخر وغير متطور كما انه من جهة ثانية يشعر بالروابط التي تربطه بجواره وهذه الرابطة أساسية . لان المعرفة تبدل كثيرا من الاتجاهات اللاشعورية . وكنت كما تذكرون أطالب بتخصيص عشرة ملايين تصرف على سنوات لتحسين وضع المخيمات بالاضافة الى اشتراكها في الحياة اللبنانية . وينبغي ان نعود الى طرح مثل هذه القضايا لتأمين الاستقرار النفسي عند اخواننا الفلسطينيين ولتوفير الامن أيضا بالنسبة للفلسطينيين واللبنانيين على السواء .

أضيف في ختام كلمتي شيئا قاله الدكتور ابو حيدر وأوافق عليه ايضا هو المعرفة . لماذا نعيش في الجبل بهذه الروح المتسامحة ؟ لاننا نتعايش بعضنا مع بعض في قرى مشتركة والتعارف شيء اساسي ذلك ان الانسان عدو ما جهله . وفي هذا المجال فان السكنى غير المشتركة في بيروت حيث انعزال المسلمين في أحيـاء وحدهم وانعـزال المسيحيين في أحياء وحدهم أيضا ، تمنع التعارف الذي كان موجودا قبل عام ١٩٥٨ عندما أجبر نفر من المسلمين على الانتقال الى هذا الشارع ونفر آخر على الذهاب الى ذاك الشارع، وقبل التقسيم الانتخابي الذيكان يجعل المرشح او النائبالمسلم مضطرا لزيارة الاحياء المسيحية في الاشرفية والجميزة في الاعياد والمآتم وسواها من المناسبات الاجتماعية . ان المشاركة في السكن لها أهمية كبيرة في نظري ويجب أن نعدل التشاريع الانتخابية من أجل احيائها من جديد .

الدكتور نجيب أبو حيدر : يجب الا نتناسى الاقتتال السياسي الحالي في لبنان اذ اننا في زمن انتخابات ، والاقطاب السياسيون الآن في طور استقطاب القوى وان اي وضع يقوي فئة ستقوم ضده الفئات الثانية . لهذا أرى ان على السلطة الفلسطينية في هذه المرحلة بالذات ان تكون حذرة في التعاون حتى مع من سبق ان مد لها يده سواء باقتناع أم بغير اقتناع ، لانها اذا دخلت اللعبة السياسية اللبنانية فان هذه اللعبة مميتة بأقل ما يمكن ان يقال . ولهذا فأقول للاستاذ الحوت انه شيء حسن ان الفئات التقدمية مدت يدها ولكن علينا تحذير المقاومة الفلسطينية من الوقوف مع أي جهة لان الجهة الاخرى ستعتبر هذا الامر موجها ضدها لان عملية الاستقطاب قائمة الآن .

نقطة ثانية أود أن أذكرها هي عدم سماح السلطات اللبنانية للسلطات الفلسطينية بالظهور . ان هناك تخوفا لبنانيـا من اسرائيل ناتجا مـن سنوات ١٩٤٩ و١٩٥٦ و١٩٦٧ . ونحن ما زلنا في لبنان نرفض القول انه يوجد لدينا فلسطينيون منظمون خوفا من أن تضرب اسرائيل لبنان . ولن يزول هذا الخوف الا بانشاء قوة لبنانية رادعـة تشارك في الاقتتال ضد اسرائيل : تردعها عند الردع وتصد هجماتها وتشارك بالهجوم عليها والقضاء عليها في النهاية . لذلك أعود فأكرر انه يجب ان يكون هناك تعاقد بين سلطتين قويتين ، وعلى جميع المخلصين ان يساعدوا ويساهموا في انشاء سلطـة لبنانية أقوى في الوطن اللبناني لان السلطة اللبنانية القوية هي وحدها التي بامكانهـا التعامل ندا لند مع السلطة الفلسطينية القوية .

مندوب المركز : شكرا للاخوة الذين شاركوا في هذه الندوة ، ونحن واثقون من أن نشر وقائعها سيخلق جوا ايجابيا يساهم في تمتين العلاقات الاخوية بـين الشعبين الشقيقين اللبناني والفلسطيني .

انتصار فيتنام وتحرير الارض العربية

الدكتور سامي منصور

في ١ مايو ١٩٧٥ انتهت أطول حرب في القرن العشرين ، حرب فيتنام . استغرقت أكثر من ٣٠ عاما ، هزمت فيها ثلاث من أعتى الامبراطوريات الاستعمارية متوالية : اليابان ، فرنسا ، الولايات المتحدة . قدم الشعب الفيتنامي فيها مليون شهيد مع ٦ ملايين مشرد . دمرت خلالها نصف قرى فيتنام . قتل للجيش الامريكي وحده حسب التقدير الرسمي ٥٦ الف جندي غير أضعاف هذا الرقم من الجرحى . والقت الولايات المتحدة ٧ر١ مليون طن من القنابل على شعب فيتنام ، أي ما يعادل مرتين ونصف ما استخدم في كل الحرب العالمية الثانية . ومع ذلك فقد انتصرت الثورة وهزمت الامبراطوريات الاستعمارية واكبرها وأغناها الولايات المتحدة ، والخوف ان يتحول هذا الانتصار على الارض العربية الى ملحمة شعرية تتحدث عن البطولة ، او سيمفونية تعزف لحن الانتصار ثم ينتهي الامر عند ذلك الحد ، وكأن شيئا لم يقع . والواقع ان معركة العرب مع الاستعمار تفرض على الجميع سواء من كان على مستوى مسؤولية العمل او يحمل مسؤولية « المواطنة » ان يستوعب الدرس الفيتنامي جيدا دون حرج او حساسية .

ولعل ما تقوله ثورة فيتنام المنتصرة للشعوب العربية خاصة وشعوب العالم الثالث بوجه عام هو :

اولا : ان الاستعمار الامريكي بكل ما تملكه المؤسسة العسكرية الامريكية من ترسانة مسلحة وأموال بلا حدود وهيئات علمية على أعلى درجات التخصص ، ليست قوة اسطورية لا تهزم ، بل على العكس انها تهزم وليس ذلك على يد قوة عملاقة ذرية مثلها ولكن على أيدي ثوار دولة صغيرة وفقيرة .

فثوار فيتنام دخلوا في حرب مع الولايات المتحدة نفسها بجيشها وعتادها . ويكفي ان نعرف ان الحكومة الامريكية استخدمت ٥٤٣ الف جندي امريكي — أي ثلث الجيش الامريكي كله — هذا غير ١٫٤ مليون جندي لدى الحكم الفيتنامي الامريكي الى جانب نصف مليون جندي آخر من الدول الحليفة التي اشتركت مع الجيش الامريكي في مواجهة الثوار . والمهم في ذلك ان الجندي الامريكي نفسه الذي درب وتعلم في الولايات المتحدة ، وليس جنود دول أخرى هي التي حاربت في فيتنام ورسمت وخططت للمعارك بكل ما يساندها من عقول اليكترونية وجامعات ومراكز ابحاث امريكية .

يضاف الى ذلك ان سلاح الطيران الامريكي استخدم كل انواع الطائرات وأحدث ما انتجته المصانع الامريكية من الطائرات التي تستخدم أحدث الاجهزة العلمية ، هذا الى جانب ١٣٠٠ طائرة هي السلاح الجوي لحكومة فيتنام الامريكية*. ويكفي ان نقول ان

---

* سوف نستخدم تعبير حكومة فيتنام الامريكية عند الحديث عن حكومة فيتنام الجنوبية قبل دخول الثوار سايجون .

سلاح الطيران الامريكي قام بأكثر من ١٫٨٩٩٫٦٦٨ غارة على شعب فيتنام ـــ أي حوالي ٢ مليون غارة ـــ اسقطت خلالها ٧٫١ مليون طن من القنابل أي ما يعادل مرتين ونصف من القنابل التي استخدمت في الحرب العالمية الثانية . هذا مع ١٩ مليون جالون من المواد الحارقة والسامة القتها الطائرات الامريكية وأحرقت بها ٣٫٥ مليون فدان . وتعتقد الدوائر الامريكية أن هذه الاراضي قد فسدت لسنوات طويلة يقدرها البعض بقرن من الزمن . هذا غير ٤٧٫٤٨٩ عبوة من المواد الكيماوية لتغيير الجو .

أما قائمة الخسائر الامريكية حسب التقديرات الامريكية فقد كانت ٥٦ الف قتيل ومعنى ذلك ان عدد الجرحى لا يقل عن ٢٨٠ الف . وفقدت امريكا ٨ آلاف طائرة منها ٤٫٦٠٠ طائرة هليكوبتر . أضف الى ذلك ان الولايات المتحدة انفقت ما يزيد عن ١٥٠ الف مليون دولار . **ومعنى ذلك ان الولايات المتحدة استخدمت كل جنودها وأكبر عقلياتها العسكرية وعبأت كل واحدث الاسلحة ، ورصدت كل الاموال بلا حدود ومع ذلك فقد استطاع الشعب الفيتنامي أن يهزمها . وهي حقيقة لا يمكن انكارها . الشيء الوحيد الذي يجب الا يضيع وسط شريط الاحداث ان الارقام تكاد تفقد قيمتها من ضخامتها وهو ما يجب أن نقاومه وان نستوعبه . وخاصة اذا اجرينا عملية مقارنة بسيطة بالارقام في الحروب العربية مع اسرائيل !.**

واذا كانت الولايات المتحدة قد عرفت متى تنسحب قبل ان تكون نهايتها مثل نهاية فرنسا في ديان بيان فو ، فان ذلك لا ينفي هزيمتها وبالتالي فلا بد من التأكد والايمان بأن الولايات المتحدة بكل امكانياتها الاستعمارية يمكن ان تهزم وعلى يد شعب لا يملك قنبلة ذرية ولا طائرات فانتوم ولا اكاديميات عسكرية مشهورة .

وصحيح ايضا ان القياس خطأ ولكن الحقيقة تبقى ثابتة وهي انه ليس هناك استعمار لا يهزم مهما ملك وتضخم . ولا بد أن يكون واضحا أو لا بد من التذكر هنا بأن اسرائيل استعمار استيطاني ممركز في فلسطين وان كان هدفه ورقعته تشمل العالم العربي كله . واذا كان ضروريا ان تبقى هذه المقارنة الخاصة بالاستعمار الاسرائيلي حتى نهاية تحديد النقاط التي تبرز من انتصار شعب فيتنام الا انه كان لا بد من التأكيد على الحقيقة الاكبر وهي ان الاستعمار الامريكي يهزم ويمكن لشعوب وفق ظروف معينة ان تحارب امريكا نفسها وان تنتصر عليها ، ليس من الاحلام ولكن على أرض الواقع . وليس ثوار فيتنام بشياطين او ملائكة او هم يقومون بمعجزة ، بل هو واقع امام العيون وملء الاسماع .

ثانيا : ان التوازن الدولي بين العملاقين لا يمنع شعبا توفرت له ارادة الثورة من تحرير ارضه . فثورة فيتنام بدأت حرب تحريرها مع السنوات الاخيرة للحرب العالمية الثانية وبالتالي فهي قد شهدت كل مراحل التطور التي مر بها تاريخ التوازن الدولي المعاصر ابتداء من انفراد الولايات المتحدة لسنوات معدودة بالقوة الذرية ثم مشاركة الاتحاد السوفييتي لها فالحرب الباردة ، وانتهاء بسياسة الوفاق بين العملاقين . وهي لم تتوقف طوال ذلك عن الحرب والثورة الى ان حققت تحرير ارضها كاملة بلا نقصان او مساومة او تنازل عن شبر واحد منها .

وقد اوضحت استمرارية الثورة في فيتنام ان التوازن الدولي قيد ـــ ان كان يمثل قيدا ـــ على القوى العملاقة الاطراف فيه في علاقاتها مع بعضها . بمعنى انه يمثل قيدا على العمل العسكري بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي ولكنه لا يمثل قيدا على طرف ثالث حتى لو كان يتحرك في مواجهة احدى القوتين . واثبتت وقائع التاريخ

المعاصر أي ما بعد الحرب العالمية الثانية ان التوازن الدولي لا يمثل قيدا الا على من لا يفهم قوانين الحركة في اطاره .

ففكرة ميزان القوى قديمة بعمر البشرية منذ أصبحت في شكل دول . أما في شكله المعاصر ، فان العالم بعد الحرب الثانية قد انقسم الى معسكرين شرقي وغربي — شيوعي ورأسمالي — وفي ظل سيادة ذرية امريكية كانت السياسة ذلك الوقت هي القدرة على « الردع الشامل » تحولت الى التهديد بالهجوم الشامل المدمر للعدو . وبعد نجاح السوفيت في دخول النادي الذري ظهرت الحرب الباردة بديلا لاستحالة الحرب الحقيقية بين العملاقين ثم تطور الامر بعد دخول الصواريخ بعيدة المدى دائرة العمل فأصبحت كل من الدولتين — الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة — في دائرة الدمار الشامل لصواريخ الدولة الاخرى . وقدمت أجهزة الرادار والتقدم الفني خطوة اخرى جعلت الضربة الاولى لا تختلف كثيرا عن الضربة الثانية ، بمعنى أن الذي يبدأ الحرب الذرية من العملاقين لا يختلف في مصيره عن الذي سوف يأخذ الخطوة الثانية. فكلاهما مصيره الدمار الكامل الشامل .

وقد ترتب على توازن الرعب الذري أن خرجت الاستراتيجية الاستعمارية الامريكية بفكرة العودة الى الحرب المحدودة. اذ ان توازن الرعب الذري جعل استخدام الاسلحة الذرية محصورا في حالة الدفاع عن النفس فقط . أما الحرب المحدودة فهي حرب بالاسلحة التقليدية في مواقع جغرافية بعيدا عن مواقع العصب لاي من الكتلتين أي على صعيد العالم الثالث . وبالتالي بقيت القدرة على الحركة والعمل ، الحرب ممكنة من اطار مدلول الحرب المحدودة . وهي لا تعني بالقطع ان تكون محدودة الرقعة الجغرافية فهي يمكن ان تتسع وتشمل منطقة بأكملها ولكنها بالقطع تعني ان تبقى محدودة في اطار الاسلحة التقليدية .

وليس معنى ان تملك دول العالم الثالث القدرة على الحركة هو ان تكون هذه الحركة مطلقة أي عدم وجود قدر من القيود التي تحد منها . وأبرز القيود التي طرحتها الحرب المحدودة قيدان الاول خاص بالسلاح حيث ان مصادر السلاح في العالم محكومة الى حد كبير — وليس تماما — بالتوازن الدولي بين العملاقين والثاني هو قدرة أي من العملاقين على التدخل المباشر لصالح أي من الاطراف في الحرب المحدودة . وبرغم مباشرة كلا القيدين الا ان ثورة فيتنام عرفت طريقها وتجاوزت ذلك .

ومع تزايد قدرة الدول الصغيرة على فهم قوانين الحركة في اطار تبادل الرعب الذري تطور ميزان القوى ووصل الى ما اتفق على تسميته بسياسة الوفاق . وبرغم كل ما يقال عن ما تفرضه هذه السياسة على العالم الثالث واتفاق العملاقين على معالجة الامور فان درس الواقع ان كان لا ينفي اتفاق العملاقين فهو يؤكد قدرة أي شعب توفرت له ارادة الثورة ان يحرر ارضه حتى لو كان المحتل هو الاستعمار الامريكي نفسه وليس أحدا من حلفائه . وان مباشرة القيد بالسلاح لا يمكن أن ينجح مع ارادة الثورة بدليل ان ثورة فيتنام حصلت على كل ما ارادت هي ان تحصل عليه ووجدت البديل من ثوريتها لما لم تستطع ان تحصل عليه . وبالتالي فالتوازن الدولي لا يمنع الشعوب من تحرير اراضيها .

ثالثا : ان السلاح ليس هو العامل الحاسم في الانتصار حتى لو كان الخصم هو أعتى الامبراطوريات الاستعمارية وهي الولايات المتحدة بكل ما لدى ترساناتها من أسلحة الدمار ، التي لم يشهد او يسمع العالم عن مثيل لها .

مؤكد ان الولايات المتحدة قد استخدمت كل انواع الاسلحة واحدث ما انتج منها . ويكفي ان نعرف ان ما استولت عليه الثورة في الاشهر الاخيرة من القتال قد بلغ ٥ آلاف مليون دولار . وقد وصل الامر الى تغيير المناخ نفسه بالقاء ما يصل الى ٤٨ الف عبوة مواد كيماوية لتحقيق ذلك . ولعل العودة الى تقارير وكالات الانباء تكفي لاعطاء صورة لهذه الانواع من الاسلحة واحدثها ما استخدم في آخر ايام الحرب في فيتنام وكمبوديا ، وهي قنبلة تقوم بامتصاص الاكسجين من الجو من مسافة ١٥٠ مترا مربعا . وقد عثر على مئات من الجثث تكشف عن بشاعة السلاح الذي استخدمته الولايات المتحدة ، وبرغم ذلك فقد خسرت امريكا المعركة وانتصر الثوار .

ولست اريد ان أعدد الامثلة من قنبلة مغناطيسية الى الغازات السامة والمواد الكيماوية ، فان ذلك سوف يحتاج الى كتاب وربما أكثر ، والمهم ليس في الامثلة ولكن في الدلالة .

فان أحدث الاسلحة الامريكية بالقوات المسلحة الامريكية نفسها لا يهزم شعبا ثائرا يحرر أرضه ، والاهم ان هذا الشعب لم يدخل سباق اقتناء الاسلحة المقابلة أي الاحدث .

فان الحقيقة التي يجب أن تبقى بارزة ان الثوار في فيتنام أو كمبوديا لم يكن لديهم طائرات لا حديثة مثل الفانتوم ولا قديمة ، فهم يحاربون بدون حماية أو غطاء جوي بل لم تدخل في لغتهم تعبيرات الغطاء الجوي . وخطأ تصور انهم كانوا على طول السنوات يحاربون حرب عصابات بل ان السنوات الاخيرة شهدت حرب تحرير حيث كانت قوات الثوار تزحف بمئات من الدبابات والعربات المصفحة على المدن ومع ذلك فالزحف كان يتم تحت الآلاف من غارات الطائرات الامريكية وبدون حماية جوية على الاطلاق . وبرغم ذلك فان الثوار كانوا يتقدمون باستمرار والقوات الامريكية وحليفاتها وقوات حكومة فيتنام الامريكية تتراجع باستمرار أمامهم .

صحيح ان شعب فيتنام قدم — حسب التقديرات الامريكية بعد انتهاء الحرب — مليون شهيد و٤ ملايين من الجرحى مع تشريد ٦ ملايين وفي تقدير آخر انهم عشرة ملايين من البشر أي حوالي ٥٥ ٪ من الشعب الفيتنامي أصبح من اللاجئين ذلك كله صحيح ولكن الاصح منه أن هذا الشعب رغم ذلك انتصر . هذا الى جانب اننا لم نسمع طوال هذه السنوات أصواتا تحاول ايقاف النزيف الدموي المستمر والاستسلام أو التنازل عن جزء من الاهداف باستثناء أصوات عملاء الحكم الامريكي طبعا ، أما بعد ذلك فقد كان الاجماع على مستوى الشعب بقياداته هو التصدي للاستعمار الامريكي والحكم الفيتنامي الامريكي دون خوف من السلاح الامريكي او القوات الامريكية .

والمؤكد من النتيجة التي انتهت بها الحرب وانتصار الثورة هو ان المسألة ليست طائرة الفانتوم اقوى من الميراج او أن الميراج أكثر قدرة من الميج ولكنها في الانسان أما السلاح فهو العامل الثاني للانسان باصالته وبمدى تعبيره عن شعبه .

هذا الى جانب ان قيادات الثوار ابتداء من جياب وانتهاء بخيو سانغان لم تتعلم في سان هيرست — بريطانيا — ولا في ويست بوينت — الولايات المتحدة — ولا في اي من الاكاديميات العسكرية التي تتناقل وكالات الانباء كل يوم أسماءها ، ومع ذلك فان هذه الاكاديميات تدرس وتتعلم اليوم استراتيجية وتكتيك ثوار فيتنام وكمبوديا ، وليس العكس . فالقيادات تعلمت من واقعها ، وأرضها وشعبها . وطوعت كل شيء لتحقيق الهدف وهو التحرير .

والواضح من ذلك كله ان العامل الحاسم في النصر هـــو الانسان بفضل تنظيم ، وانتماء ، وتعليم وطني ، وقيادة تنتمي الى الجماهير وتبقى بينها دون ان تنسلخ عنها . وهو ما يستحق الدراسة التفصيلية في حرب فيتنام وكمبوديا .

رابعا : ان الدخول في المباحثات وتوقيع الاتفاقات ان كان تعبيرا عن الواقع الذي تحققه القوات الا أنه لا يغير الهدف الاستراتيجي او يعرقل الوصول اليه اذا لم تكن القوات قد أنجزت المهمة كاملة بعد . فالتفاوض والاتفاق يصبح مجرد تكتيك ، وفرصة لالتقاط الانفاس واعادة ترتيب الاوضاع .

وقد برز أمام العالم أن المفاوض الفيتنامي يمكن أن يكون ندا للمفاوض الامريكي ، بل وأكثر قدرة على المناورة . ولكن المهم أن المفاوض لم يبتعد عن الهدف بتنازلات غير محسوبة .ودليل ذلك نظرة على الاتفاق الذي تم توقيعه في يناير ١٩٧٣ تؤكد انه وضع ليفتح الطريق أمام القوات الثورية لتحقيق الجولة الاخيرة وهي تحرير سايجون .

فاتفاق باريس كان تعبيرا عـــن انتصار فيتنام الثورة وليس تعبيرا عـــن انتصار الولايات المتحدة بل كان مجرد انقاذ لامريكا من ورطتها ومنعا من مواجهتها بديان بيان فو أخرى بالانسحاب خلال ٦٠ يوما . واذا كان البعض قد تصور أن الاتفاق كان دعما للوجود الامريكي فان الواقع والاحداث قد كشفت عن صدق رؤية الثوار وايمانهم بقدرة المقاتل الفيتنامي على انهاء الوجود الاستعماري الامريكي في فيتنام ممثلا في الحكم الذي انهار أمام زحف الثوار .

ثم ان الثوار لم يذهبوا للتفاوض الا بعد أن تأكد للولايات المتحدة استحالة هزيمتهم ، وأصبح انتصارهم مسألة وقت . يومها ذهب الثوار الـــى مائدة المباحثات . اي ان ذهابهم لم يكن الا من موقع القوي القادر ان لم يكن على فرض ارادته كاملة في هذه المرحلة فعلى الاقل فهو قادر على أن يمنع فرض ارادة الآخرين عليه .

خامسا : ادراك العلاقة الوثيقة بين العمل الدبلوماسي والعمل العسكري وان أي كسب دبلوماسي هو في الواقع نتيجة عمل عسكري سابق له . فالمفاوض مهما بلغت درجة كفاءته هو لا يستطيع أن يحقق أكثر مـــن خطوة او اثنتين ابعـــد مـــن العمل العسكري ، ولهذا نجد أن القتال لم يتوقف ايمانا بأن تحـــرير الارض لا يتم بالعمل السياسي وحده والا كان مشروطا ، وناقصا مهما بلغت كثافة الجهد السياسي المبذول . ولهذا لم يتوقف الثوار عن الحرب الا بعد تحرير أرضهم كاملة .

سادسا : ان حرب فيتنام قد أوضحت ـــ اذا توفرت القدرة والارادة طبعا ـــ ان الضمانات الدولية لا تمنع الشعوب من اتمام تحرير أرضها فالمعاهدات التي وقعت في فيتنام ابتداء من سنة ١٩٥٤ حتى اتفاق سنة ١٩٧٣ قـــد ضمنتها عدة دول وأشرفت على وقف اطلاق النار كثير من الدول حتى شملت القائمة الولايات المتحدة والاتحـــاد السوفييتي والصين وفرنسا وبريطانيا والمجر وبولندا وكندا واندونيسيا . ومع ذلك فان ثوار فيتنام كانوا يتحركون وكأن الموقف خال الا من ارادتهم .. ارادة الثورة .

فالحساب السياسي للثوار كان بارعا حقا الى درجة أن شيئا لم يستطع أن يعرقل عملهم الحربي في كل الظروف وتحت أي قيود مهما كانت صفتها . فالمسألة ليست تحد للمجتمع الدولي ولكن براعة الحركة في اطار ما هو قائم . وليس هنـــاك معاهدة أو ضمان دول لا يمكن ايجاد المنفذ من خلاله للعمل واستمراره حتى يتم التحرير .

سابعا : ان الاستعمار الامريكي لا يحمي العملاء الذين باعوا أنفسهم له اذا مـــا

تعرضت المصالح الاستعمارية الامريكية لاي خطر بسببهم . ولعل الاستعمار الامريكي أدرك ايضا ان العملاء لا يمكنهم حماية مصالحه طويلا .

صحيح أنهم دفعوا مبلغ مليون دولار للون نول قبل أن يغادر كمبوديا ولكنها ايضا قد جعلت منه مجرد لاجيء هارب من بلده ، أما بقية الهاربين فان المناقشة التي دارت في الكونغرس وعلى صفحات الصحف وفي الاذاعة في الولايات المتحدة توضح كيف يعامل الاستعمار الامريكي الذين باعوا انفسهم له .

فمع ان الرئيس الامريكي فورد قد طالب باعتماد مبلغ ٥٠٧ ملايين دولار لمساعدتهم الا أن الرأي السائد هو عدم الترحيب بوجودهم في الاراضي الامريكيـــة . فالولايات المتحدة اليوم لا تريد في أراضيها الذين خانوا أوطانهم وعملوا لحسابها . ولعله درس يستوعبه كل المتأمركين — ان جاز هذا التعبير علميا — في العالم الثالث .

وتبقى ملاحظة أخيرة في هذه السطور هي ان مقارنة الارقـــام أيضا لم يقع الثوار فريستها ، بمعنى ان الحكم الفيتنامي الامريكي مثلا كان له جيش من ١ر١ مليون جندي بينما كان جيش الثوار من ٢٢٠ الفا فقط أي ربـــع جيش فيتنام الامريكي . وحكومة فيتنام الامريكية حصلت مثلا خلال ١٩٧٤/٧٣ على مبلغ ٣ر٩ مليار دولار بينما حصلت فيتنام الثورة من الاتحاد السوفيتي والصين معا على ٥ر١ مليـــار دولار اي حوالي النصف . ومع ذلك فان الثورة لم تقارن ولا ارتفعت أصوات بالشكوى والبكاء ، وانما استمر النضال حتى حقق كل أهدافه بالتحرير الكامل .

هذه بعض الحقائق التي تبرزها حقيقة انتهاء حرب فيتنام بانتصار الثورة ، وهي ما يجب أن يدرسها ويناقشها ويستوعبها العرب خاصة وكل دول العالم الثالث بوجه عام، باعتبار ان العدو واحد .. وهو الاستعمار الامريكي . فان كان قد هزم هناك فهو لا بد أن يهزم هنا وفي كل مكان .

تحدي التقنية الاسرائيلية وكيف نواجهها

هالة سلام مقصود

هناك اجماع اليوم على أن التقدم العلمي والتقنية هما المفتاح للتطور الاقتصادي وللقوة العسكرية . وقد اعترفت الحركة الصهيونية منذ نشأتها بأهمية العلم فكان من أهم وأولى الاعمال التي قامت بها ، وضع حجر الاساس لانشاء الجامعة العبرية في القدس عام ١٩١٨ ، بينما كانت الحرب العالمية الاولى لا تزال مندلعة . ومنذ ذلك الحين ، وأسرائيل تسعى سعيا حثيثا لتطوير العلوم وخلق المؤسسات العلمية والاستفادة بتطبيقها في جميع المجالات العسكرية والسلمية .

والعلوم اليوم ليست ممارسة خارجة عن عمل الانسان اليومي ، انها في صميم حياتنا في البيت وفي المكتب وفي الزراعة وفي كل المجالات . اننا في الوطن العربي ما زلنا حتى اليوم نستورد نتائج العلم من الخارج ولا بد أن نبقى معتمدين على العالم الخارجي لامدادنا بالوسائل التقنية ، طالما اننا لا نطبق العلم ولا نعني بانشاء مؤسسات البحث والتطوير المطلوبة .

وكما هو معروف ، فانه لم تعد في العالم اليوم عزلة في العلوم ، فلا يمكن للعالم ان يعمل لوحده في مختبره ويتوصل الى نتائج مهمة اذا لم يكن يعيش في مناخ علمي ولم يكن محيطا بشكل متواصل بالنتائج العلمية التي توصل اليها غيره من العلماء في مجاله. لذلك ، فقد خلقت اسرائيل علاقات وثيقة بين مؤسسات البحث والتطوير في اسرائيل ومؤسسات البحث والتطوير في العالم مما جعلها قادرة على الاطلاع والاستفادة من نتائج الابحاث التي تجري في العالم بأقل كلفة ممكنة ، كما انها بذلك توفر على العالم الاسرائيلي كثيرا من الاخطاء التي هي جزء لا يتجزأ من تجربة البحث العلمي . وللعالم العربي الامكانات البشرية الناتجة من جراء الدراسة العليا التي يتلقاها الكثير من العلماء العرب في الخارج . ونتيجة وجود الكثير منهم أيضا في مؤسسات البحث والتطوير في الولايات المتحدة والدول الغربية والشرقية لخلق علاقة وثيقة بين المؤسسات العربية والمؤسسات العلمية في الخارج ، الا اننا لم نستعمل هذه الطاقات لخلق المستوى المطلوب من العلاقات مع المجموعات العلمية العالمية .

والمجتمع العربي ، لا يعتمد اعتمادا كبيرا على استيراد النتاج التقني من الغرب ، كما ذكرنا أعلاه فحسب ، بل لا يحاول ايضا الحفاظ على ما يستورد بصيانته الصيانة المطلوبة . ويمكن أن يكون هناك مستوى صيانة رفيع في حالة عدم وجود مؤسسات تقنية متطورة وذلك حتى للآلات البيتية التي نستعملها في حياتنا اليومية حيث نتركها دون صيانة حتى تخرب ثم نستبدلها . ونتيجة عدم وجود مؤسسات تقنية للصيانة ، (تظهر اكثر وضوحا في المجال العسكري) حيث نجد ان معدات كثيرة لا يمكن استعمالها

أقصى حدود الاستعمال ، لانها ليست بحالة ممتازة ، ولم يصر الى صيانتها بشكل مستمر .

وتدخل التقنية ايضا في مجال اختيار الاسلحة الملائمة . فقد اشترت احدى الدول العربية مثلا بمبلغ ٣٠ مليون دولار صواريخ ارض — جو بعد حرب ١٩٦٧ تنطلق بقوة دفع مائية مصممة لبلدان باردة اجمالا ولم تستطع هذه الدولة في مناخها الحار ان تستعمل هذا السلاح وهكذا ذهب هدرا(١). ولو اعتمد الاختيار على اسس علمية صحيحة لما كان نصح العلماء بشراء هذا السلاح ، ولو كانت هناك مؤسسات عربية علمية بالمستوى المطلوب لسعت بعد اتمام الصفقة الى تغيير المحرك وابداله بمحرك ديزل مثلا كما فعلت اسرائيل بكثير من الاسلحة التي اشترتها والتي لا تلائم المناخ الاسرائيلي . فقد لاقت اسرائيل مثلا صعوبات كثيرة في استعمال دبابات سنتوريون البريطانية الصنع وغير المهيأة لاجواء حارة فقد كانت تسخن بشكل كان يسبب دائما مشاكل ميكانيكية فاعتمد الجيش الاسرائيلي تنظيف مروحة التبريد فيها كل يوم ولم تعد تسبب أية مشاكل(٢).

والعلاقة بين الجندي الاسرائيلي الذي يستعمل السلاح والمهندس والعالم الذي يعمل على تطويره هي علاقة وثيقة جدا وهم جميعا يعملون سوية لاكتشاف الوسائل لجعل هذا السلاح اكثر ملاءمة والحاجات الخاصة الاسرائيلية . فمثلا ، يعتمد سلاح الجو الاسرائيلي بالاساس على خريجي المدارس الثانوية لا على خريجي الجامعات في حين ان سلاح الطيران المعتمد في العالم مصمم بشكل يستعمل من قبل طيارين وفنيين جامعيين . لذا ادخل الاسرائيليون تعديلات تبلغ الستماية على طائرة الميراج مثلا لتمكين الملاحين ذوي الثقافة الثانوية من استعمالها كما يجب(٣).

ومن المهم جدا للذي يستعمل السلاح ان يشعر بأنه يفهم هذا السلاح فهما تاما وان هذا السلاح هو سلاح جيد ولن يخونه عندما يحتاجه .

ولا تكمن اهمية البحث العلمي في تأثيرها على المؤسسة العسكرية فحسب بل لها أيضا أهمية سياسية واعلامية . وقد حاولت اسرائيل بشتى الوسائل الاعلامية خلق صورة لها كبلد متفوق علميا في وسط عالم عربي لا يزال غارقا في التخلف(٤). وبفضل هذه الدعاية تمكنت من التغلغل في افريقيا وآسيا واميركا اللاتينية اي في بلدان لم تكن تود الاستعانة بالمعرفة التقنية من البلدان الكبرى لانه يولد حساسيات خاصة فرأت في اسرائيل بلدا صغيرا ليس له طموحات عندها وبالتالي يمكن ان يمدها بالمعرفة التقنية دون خوف . وقد شجعت الولايات المتحدة هذه الخطة ودعمتها ماليا بشكل غير مباشر(٥). وقد نجحت اسرائيل في ذلك حتى اصيبت بنكسة في الدول الافريقية في اوائل السبعينات .

البحث والتطوير

لقد كان عدد الاطباء والمهندسين والعلماء من المهاجرين اليهود الذين جاؤوا الى فلسطين حتى سنة ١٩٤٨ كبيرا جدا وكان معظمهم من يهود المانيا واوروبا الشرقية . لذلك فان اسرائيل لم تعلن منذ تأسيسها مشكلة تعليم العلماء وتخريجهم بل كرست جهودها للاستفادة من الطاقة البشرية الموجودة عندها استفادة قصوى . كما بقيت نسبة العلماء المهاجرين الى اسرائيل كبيرة جدا . ففي سنة ١٩٦٤ كانت الجامعات والمؤسسات المحلية تخرج ٥٢ ٪ من مجموع عدد الاطباء والمهندسين والعلماء بينما كان ٤٤ ٪ من المجموع من المهاجرين الجدد و ٤ ٪ من الاسرائيليين الذين يتخرجون من جامعات في الخارج .

وهكذا كان لدى الجامعات ومؤسسات الابحاث التي أسستها الحركة الصهيونية طاقة بشرية كبيرة وعلى مستوى عال من الاختصاص . وكان على الحركة الصهيونية ان تؤمن فقط المكتبات والمختبرات ووسائل الابحاث الملائمة . وحتى قبل قيام اسرائيل كانت الحركة الصهيونية قد انشأت ثلاث جامعات هي : ١) الجامعة العبرية في القدس ، اسست سنة ١٩٢٥ ، ٢) معهد اسرائيل التكنولوجي (التكنيون) في حيفا أسس سنة ١٩٢٥ ، ٣) جامعة وايزمن للعلوم في رحفوت أسست سنة ١٩٣٤ . وبعد قيام اسرائيل تأسست عدة جامعات ومؤسسات ابحاث اخرى وهي جامعة تل أبيب التي اسست سنة ١٩٥٤ وجامعة بار ايلان التي اسست سنة ١٩٥٥ وجامعة حيفا التي افتتحت سنة ١٩٦٤ وجامعة بن غوريون في النقب التي اسست سنة ١٩٦٤ . وقد اعلن البروفيسور الكس كينان نائب مدير الجامعة العبرية وكان يشغل في الماضي منصب رئيس المجلس القومي للبحث والتطوير ان نصف البحث الاساسي تقريبا يتم في اطار الجامعة العبرية ويتم جزء اخر في معهد وايزمن بينما ينحصر البحث التكنولوجي في التخنيون . وقد بدأت جامعة تل ابيب اخيرا تعنى بالبحث العلمي . واضاف ان هناك الان ٢٠ معهدا للبحوث التطبيقية وان البحث الصناعي كان مهملا جدا الا انه حدث اخيرا تحسن في هذا المجال فاقيم في السنوات الاخيرة ٥٠ مشروعا صناعيا على اسس علمية(٦) . ويقدر عدد خريجي الجامعات في اسرائيل بـ ٢٤٠٫٠٠٠ شخص منهم ٨٫٠٠٠ مهندس و ٦٫٠٠٠ طبيب .

أما الطاقة البشرية العلمية في اسرائيل فتقدر بعشرة الاف شخص يكرسون معظم اوقاتهم للبحث ويشمل هذا العدد الباحثين في جميع الجامعات ومؤسسات الابحاث المدنية والعسكرية ومختبرات البحث في الصناعة(٧) . الا ان تقديراتنا هي ان عدد العلماء العاملين في البحث لا يتجاوز ٧ آلاف شخص .

وقد اسست اسرائيل عام ١٩٤٩ مجلس البحوث الاسرائيلي التابع لمكتب رئيس الوزراء . وقد انشأ هذا المجلس معظم المختبرات الصناعية الا انه تبين عام ١٩٥٩ انه يجب توسيع افقه كي يعنى برسم السياسة العلمية وتخطيطها والتنسيق بين جميع مراكز البحوث الموجودة . فشكل المجلس الوطني للبحث والتطوير كما يلي : ١) تقديم المشورة الى الحكومة في العمل المتعلق بالبحث والتخطيط العلميين وفي التطوير التقني ، ٢) اتخاذ القرارات في تخصيص الاموال لاعمال البحث والتطوير ، ٣) بدء برامج لمشاريع البحث العلمي والتطور التقني . الا ان أبحاث وزارة الدفاع السرية بقيت خارج سلطته . وقد حاول المجلس جاهدا تقوية قطاع البحث الصناعي بواسطة هبات مالية ومشاريع مشتركة مع الصناعة الا انه لاقى صعوبات جمة في هذا القطاع بحيث انه لم يفلح في البدء في خلق العلاقة المناسبة بين العلماء والقطاع المدني . بتوسيع القطاع الصناعي العسكري وبزيادة طلبات المؤسسة العسكرية على الصناعة ، ترسخت العلاقة بين المؤسسات الاكاديمية والمؤسسات الصناعية ، الا ان البحث الصناعي لا يزال نقطة الضعف في مجال البحث العلمي والتقني في اسرائيل .

في حزيران ١٩٦٨ شكل موشي دايان « اللجنة الاستشارية للبحث والتطوير العلمي » وهي تابعة لوزارة الدفاع ومهمتها دراسة المبادىء العامة لادارة البحث الموجه للدفاع ولوضع مشاريع جديدة للبحث والتطوير .

كما يحاول العلماء الاسرائيليون ان يبقوا على اطلاع على المستجد في الابحاث في العالم وذلك بثلاث وسائل : ١) حضور المؤتمرات العلمية العالمية ، ٢) تنظيم مؤتمرات دولية علمية في اسرائيل ، ٣) اخذ اجازات من مؤسساتهم للعمل في

مؤسسات علمية في العالم. ونجد لدى مراجعة صحيفة الجروسالم بوست في زاوية القادمين والمسافرين الى ومن اسرائيل ان هناك يوميا أحد العلماء الاسرائيليين تقريبا يسافر لحضور مؤتمر ما كما اننا نجد اعلانات عن مؤتمرات وندوات علمية وتقنية تعقد في اسرائيل وذلك بمعدل مؤتمرين او ثلاثة في الشهر .

في مجال الذهاب في اجازة الى مؤسسات علمية في الخارج يتبين من دراسة للدكتور انطوان زحلان انه مقابل كل ثلاث دراسات ونصف تنشر لاسرائيل في المجلات العلمية العالمية هناك دراسة تنشر لعالم اسرائيلي يعمل لوقت محدد في احدى المؤسسات في الخارج . كما يتبين ان انتاج العلماء في الجامعة العبرية ومعهد وايزمن للعلوم والتخنيون كان ٣٨١ دراسة في مجال الفيزياء سنة ١٩٦٦ وسنة ١٩٦٧ . كما انه صدر عن علماء من هذه الجامعات في اجازة في مؤسسات اجنبية ١١٩ دراسة في السنة ذاتها(٨) .

نوع الابحاث : يتبين من دليل نشره مركز المعلومات العلمية والتقنية التابع لمكتب رئيس الوزراء في اسرائيل في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٧ انه كان هناك ٢٫٩٢٨ مشروعا للبحث في ٣٧٢ مجالا مختلفا وتشارك فيه ١٤١ مؤسسة ومعهد علمي . وهذا العدد لا يشمل الابحاث التي تتم في مختبرات وزارة الدفاع والابحاث النووية او الابحاث التي تتم لحساب وزارة الدفاع وتحاط بالسرية . ويتبين من هذا الدليل ان اكثر المجالات نصيبا هي الطب والعلوم البيولوجية وتأتي من بعدها مباشرة الزراعة والكيمياء اما الباقي ففي المجالات الاخرى كالفيزياء والهندسة وغيرها . ومما يسترعي الانتباه انه كان هناك في تلك السنة ٨٧ مشروعا للبحث فقط في مجال الهندسة ومتفرعاتها وانه كان يعمل في نطاق البحث في هذه المشاريع ١١١ مهندسا فقط وهذه نسبة قليلة جدا لبلد يفخر بأن لديه ٨٫٠٠٠ مهندس .

تمويل معاهد الابحاث ومشاريع البحث والتطوير : انفقت اسرائيل سنة ٧١ ــ ١٩٧٢ على الابحاث والتنمية في جميع القطاعات والفروع نحو ٦٥٠ مليون ليرة اسرائيلية ، ويشكل هذا المبلغ ٢٫٥٠ ٪ من الناتج القومي القائم وتعادل هذه النسبة مثيلاتها في معظم الدول المتقدمة في العالم . وينفق اكثر من نصف هذا المبلغ على الابحاث العسكرية . اما باقي الـ ٣٢٠ مليونا فقد وزعت على النحو التالي : أبحاث بمعدل ١٨٠ الى ٢٠٠ مليون ليرة تنفق في مؤسسات التعليم العالي و٥٠ الى ٦٠ مليون ليرة تنفق في معاهد الابحاث الحكومية و٥ الى ٨ ملايين في المستشفيات و٥٠ الى ٦٠ مليونا في القطاع الانتاجي أي الزراعة والصناعة . وينفق في الصناعة أقل من نصف هذا المبلغ وهذه نسبة منخفضة جدا اذ ان للصناعة في باقي الدول المتقدمة حصة الاسد(٩) .

وتغطي الحكومة في اسرائيل نحو نصف ميزانية الجامعات ومعاهد البحوث لديها اما باقي الميزانية فيغطى من قبل « أصدقاء » لهذه الجامعات او المعاهد في الغرب ومن قبل مؤسسات عالمية خاصة وعامة كصندوق فولكسفاكن الالماني الذي يقدم سنويا هبات كبيرة الى معاهد بحوث في اسرائيل . وتدفع وكالات حكومية اميركية اموالا طائلة لابحاث تجري في اسرائيل فقد ساهمت الولايات المتحدة سنة ٦٥ ــ ١٩٦٦ بحوالي ٢٢ مليون ليرة اسرائيلية كهبات للجامعة العبرية وبمبلغ ١٠٫٥ مليون ليرة اسرائيلية للتخنيون وبـ ٤ ملايين ليرة اسرائيلية لمؤسسة وايزمن كما اعطت هبات للجامعات والمعاهد الاخرى . واذا ما تفحصنا الدراسات التي نشرها العلماء الاسرائيليون سنتي ١٩٦٦ و١٩٦٧ نجد أن ٤٠ ٪ منها قد نفذت بأموال الوكالات الحكومية

الاميركية(١٠) . وقد أعلن الملحق العلمي في السفارة الاميركية في اسرائيل ان الولايات المتحدة منحت اسرائيل مبلغ ٢٣٠ مليون ليرة اسرائيلية خلال الـ ١٥ سنة الاخيرة في اطار مشروع مشترك للابحاث بين الحكومتين(١١)، وذكر ان المساعدات الاميركية افادت البحث الاساسي في اسرائيل التي تعاني مشكلات امنية . وفي حديث لبنحاس سبير وزير المال السابق نشرته معاريف في ٧٣/١/١٢ ان ٢٥٠ مليون ليرة ستخصص في الموازنة العامة لسنة ٧٣ ــ ٧٤ للبحث المشترك مع الاميركيين .

وقد استفادت الولايات المتحدة كثيرا من الابحاث التي اجريت في اسرائيل في مجال الزراعة وفي مجال تحلية مياه البحر وقد عقدت اتفاقية اميركية اسرائيلية مشتركة في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٢ توصي بانفاق ٣٢ مليون دولار بمساهمة من البلدين لتغطية نفقات استكمال المنشآت في ايلات لتحلية مياه البحر ولاقامة مصنع تجارب مشابه في سان دياجو من قبل الحكومتين الاميركية والاسرائيلية واقامة مصنع متطور في أشدود اذا ما حقق مصنع ايلات التوقعات والمقاييس المطلوبة.وقد وافق الكونغرس على هذا المشروع المشترك « لاقتناعه بأن التعاون مع اسرائيل سوف يؤدي الى تقدم تقنية الملوحة »(١٢) وقد شغلت تحلية مياه البحر بالطاقة جهود اسرائيل منذ سنة ١٩٦٣ ومن الدلائل على الاهمية التي تعلقها اسرائيل على هذا المشروع ان رئيس الوزراء نفسه تولى مسؤولية هذا الامر سنة ١٩٦٤ .

كذلك فقد وافقت الحكومة الاميركية في ايار (مايو) ١٩٧٣ على تحويل نحو ١٠ ــ ١٥ مليون دولار من شركات اميركية الى اسرائيل للقيام بابحاث حول مصادر الطاقة التي ستحل محل النفط . وستمول هذه المبالغ الابحاث خلال ثلاث سنوات . وقد أقرت الحكومة الاميركية هذا المشروع لان لاسرائيل « ميزات في هذا الموضوع كونها خارج النفوذ المالي لشركات النفط »(١٣) .

الابحاث النووية : يبين ليونارد بيتون وجون مادوكس(١٤) كيف بدأ البحث في برنامج تطوير الاسلحة النووية في اسرائيل تحت اشراف وزارة الدفاع الاسرائيلية سنة ١٩٤٨ فيقولان : « لقد وضعت اولى المشاريع التقنية لصنع القنبلة الذرية مباشرة بعد انتهاء حرب ١٩٤٨ . في هذه الاثناء جمعت مجموعة من العلماء الشباب وسميت لجنة الطاقة الذرية وقد ارسلت مجموعة منهم الى الخارج لدراسة الموضوع تحت اشراف اكبر العلماء في هذا المجال » .

ولم يكن اهتمام اسرائيل المبكر بالقوة النووية تطورا منفصلا او اعتباطيا بل كان تعبيرا عن الدور الاساسي الذي خصص للعلم والتكنولوجيا في مواجهة التطور ومشكلات الامن . وكان اهتمام اسرائيل في المرحلة الاولى من البرنامج هو الحصول على التقنية الضرورية لصنع القنبلة الذرية . ولذلك فقد اسست رأسا بعد رجوع بعثة العلماء الشباب من الخارج دائرة للفيزياء النووية في معهد وايزمن وذلك في سنة ١٩٥٤ . وقد قامت هذه الدائرة ببحث مركز في حقول استغلال خام اليورانيوم المنخفض الدرجة وتخصيب الماء الثقيل بالتقطير التفاضيلي(١٥). كما كانت تجري في الوقت نفسه تجارب لاستخلاص اليورانيوم من خامات الفوسفات في النقب . وقد نتج عن هذه الابحاث ان طور العلماء في اسرائيل عملية لانتاج الماء الثقيل لا تعتمد على القوة الكهربائية كما طورت مؤخرا طريقة جديدة تقوم على استخلاص اليورانيوم كمنتوج جانبي في عملية انتاج حامض الفوسفوريك من صخور الفوسفات ويمكن بهذه الطريقة رفع نسبة راسب اليورانيوم بعد معالجة فوسفات النقب من ٩ر٩ بالمئة الى ١٢ بالمئة(١٦) .

وقد اسست لجنة الطاقة الذرية سنة ١٩٥٢ ولها الان مركزان : مفاعل طاقته ٥ مغاوات في ناحال سوريك وهو بشكل بركة سباحة ومفاعل ٢٦ مغاوات اورانيوم طبيعي في مركز الابحاث النووي في النقب المعروف بديمونا وقد ساعد الافرنسيون في بناء هذا المفاعل وبذلك صار لدى الاسرائيليين القدرة على صنع القنبلة الذرية خلال عام بعد أخذ القرار السياسي ويؤكد البعض ان اسرائيل قد عملت بهذا الخيار وان لديها القنبلة .

وقد ساعدت فرنسا على وضع اسس العمل في البرنامج الاسرائيلي بفتحها ابواب مؤسستها الذرية أمام الاسرائيليين وبتزويدهم بالمعلومات التقنية في السنوات الاولى. أما الولايات المتحدة فقد كانت الدولة التي اعطت اسرائيل اول مفاعل ذري بموجب اتفاقية عقدت سنة ١٩٥٥ وقد كان مركزه ناحال سوريك . وقد وضع تصميم هذا المفاعل مهندسون اسرائيليون بالتعاون مع العلماء الاميركيين وبوشر العمل به في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٨ وبدأ المفاعل عمله في ١٦ حزيران (يونيو) ١٩٦٠ . والمركز هو في الاساس لتدريب العلماء والفنيين وللبحث النووي وتطويره وتجري في ناحال سوريك الان دراسات في حقول الفيزياء والكيمياء النووية وفي حقل الراديوبيولوجي ومصادر الاشعاع العالي وغيرها من الحقول المتفرعة . وقد كبر المركز كثيرا ان كان لناحية عدد العلماء فيه او لناحية انتاجه وهو مركز للاتصال بالمجتمع العلمي الدولي والاستفادة منه .

اما مركز ديمونا فقد تم الاتفاق على بنائه سنة ١٩٥٧ عندما ابرمت الاتفاقية مع فرنسا ولا تزال بنود هذه الاتفاقية التي تتعلق بمصادر الوقود والتفاصيل الاخرى سرا حتى اليوم. وقد لقي بناؤه معارضة شديدة في اسرائيل في البداية لانه كلف اسرائيل اموالا طائلة وقد اعلن وقتها ان المفاعل سيكلف ٢٥٠ مليون ليرة اسرائيلية(١٧) ولقي صعوبات تقنية جمة وكان بعض الاسرائيليين يتخوفون من ردود الفعل العالمية .

ولدى اسرائيل بالاضافة الى المفاعلين في ناحال سوريك وديمونا عدة منشآت فرعية اخرى ذات اهمية كبيرة وتأتي في طليعتها « المختبرات الحامية » التي بنيت بمساعدة بريطانيا لاجراء الابحاث على المواد الاشعاعية التي ينتجها مفاعل ناحال سوريك . وتكمن اهمية هذه المنشآت في ما توفره من خبرة وتدريب على الفن الصعب الخاص بتداول المواد المشعة .

وهناك ايضا مركز متقدم للبحث والتطوير في كلية العلم النووي التابعة لمعهد وايزمن في رحوبوت كما أن في التخنيون دائرة خاصة للعلم والهندسة النووية هدفها تدريب العلماء على التقنية النووية واعداد الموظفين التقنيين للمفاعلين الموجودين في اسرائيل .

ويمثل جهاز وزارة الدفاع للبحث العلمي ومختبراتها زيادة اضافية في غاية الاهمية على الجهد النووي الاجمالي . ولكن ليس هناك ارقام رسمية حول حجم هذه المراكز(١٨).

ومن الصعب جدا الحصول على ارقام مجموع عدد العلماء والمهندسين المرتبطين بالعمل المتعلق بالجهد النووي ويقدر هذا الرقم بحوالي الفي شخص وقد جاء في دليل اليونيسكو لعام ١٩٦٨ ان لجنة الطاقة الذرية وحدها تستخدم ٣٠٠ عالم ولديها ٦٠٠ موظف فني(١٩).

ان اسرائيل من الدول الاعضاء في الوكالة الدولية للطاقة الذرية وقد صوتت الى

جانب نظام المراقبة سنة ١٩٦٠ وعقدت اتفاقيات للتعاون في الحقل النووي مع ثمانية بلاد واتفاقيات لتبادل المعلومات مع ٦٠٠ مؤسسة في ٨٠ بلدا(٢٠).

مركز العلماء الاسرائيليين في العالم : تظهر دراسة اعدها ديريك ج. دوسولا برايس مركز كل دولة في حقل العلم والتقنية واسرائيل هي البلد السادس عشر بين بولندا وهنغاريا . ويظهر من الدراسة ايضا ان لاسرائيل علماء تنشر نتائج ابحاثهم اكثر مما هناك علماء تنشر ابحاثهم في دول اميركا اللاتينية مجتمعة واكثر بكثير من افريقيا كلها(٢١).

وفي دراسة للدكتور انطوان زحلان حاول فيها المقارنة بين المؤسسات العلمية ومراكز الابحاث في الدول المتقدمة وفي اسرائيل توصل الى أن اسرائيل قد طورت مؤسساتها بشكل تزاحم فيه المؤسسات في الدول المتقدمة في عدد اساتذة العلوم بالنسبة لعدد السكان وفي حجم انتاجهم(٢٢). ويضيف زحلان انه بينما استفاد الصهيونيون من اليهود الذين هاجروا الى اسرائيل وكانوا قد تعلموا على حساب الغرب جير الصهاينة التقنية الغربية الى حسابهم ، فان التقنية الغربية كانت تستعمل ضد بلدان العالم الثالث . وهكذا فان التقنية الغربية كانت عنصرا ايجابيا لاسرائيل وسلبيا للدول التي استعمرها الغرب(٢٣).

وفي مقارنة أخرى اجراها الدكتور انطوان زحلان بين العلماء في العالم العربي والعلماء الاسرائيليين يتبين : ١ ـ ان انتاج اسرائيل العلمي (وعدد سكانها ٣ ملايين) هو ٢ر٤ مرات اكثر من انتاج العالم العربي العلمي (وعدد سكانه ١٢٦ مليونا) ، ٢ ـ ان انتاج اسرائيل العلمي هو اربعة اضعاف انتاج مصر العلمي مع ان عدد سكان مصر هو ١٢ ضعف عدد سكان اسرائيل(٢٤).

وهكذا فان اسرائيل بالنسبة لعدد سكانها تحتل مركزا مرموقا في مجال البحث العلمي والتقني وقد استغلت هذا المركز سياسيا واعلاميا لتظهر بمظهر الدولة المتطورة في بحر من التخلف .

تقييم البحث والتطوير : لا تزال اسرائيل تعتمد اعتمادا كبيرا على المهاجرين من الاطباء والمهندسين والعلماء كما أنها تعتمد اعتمادا كبيرا على تمويل اجنبي لكثير من مشاريع الابحاث العلمية التي تقوم بها . ولذلك فان عددا من العلماء الاسرائيليين يبدي قلقه من أن يكون مردود هذه الابحاث اكثر فائدة لمولي المشروع مما هو لاسرائيل . واسرائيل مثلا مركز مهم لترجمة الكتب والمقالات العلمية لان فيها عددا كبيرا من العلماء الوافدين من جميع انحاء العالم والذين يعرفون لغات اجنبية عديدة . ورغم ان مشاريع الترجمة هذه هي فرصة لايجاد العمل لهؤلاء العلماء ، ولكنها لا تعود بنفع مباشر لاسرائيل .

وصحيح ان اسرائيل تخصص مبلغا كبيرا بالنسبة لميزانيتها في البحث والتطوير الا ان هذا قد عاد عليها بالفائدة في المجال العسكري اذ أصبح بامكانها صنع القنبلة الذرية كما أنها استطاعت ان تطور الصناعات العسكرية الاساسية وطورت اشياء عديدة اخرى كما أنها في مجال الاقتصاد ضاعفت انتاجها الزراعي واستعملت وسائل تقنية للمحافظة على انتاجها الزراعي لتسويقه في الخارج كما أنها طورت صناعات اساسية مهمة . وقد استفادت اكثر ما استفادت في مجال الاعلام والعلاقات الخارجية وكان المستوى العلمي والمساعدات العلمية مدخلها الى افريقيا وآسيا واميركا اللاتينية حتى اصيبت بنكسة في هذا المجال في اوائل السبعينات . ولكنها لا تزال تحاول الرجوع الى افريقيا بهذه الوسيلة كما أنها تنشط في آسيا واميركا اللاتينية وقد وقعت مؤخرا

اتفاقيات مع تشيلي والبيرو والارجنتين لتقديم المساعدة التقنية في مجال استعمال المياه استعمالا سليما وتخزينها وطرق الري الصحيحة(٢٥).

في المجـــال العسكري

لقد لقي القطاع العسكري في عنصريه ـــ البحث والانتاج ـــ اهتماما كبيرا منذ قيام اسرائيل ، ولكنه اندفع دفعة قوية ولاقى دعما كبيرا بعد حرب حزيران ١٩٦٧ . اذ حاولت اسرائيل تنفيذ سياسة اكتفاء ذاتي خاصة في ميدان تصنيع الاسلحة الخفيفة وقطع الغيار بعد الحظر الفرنسي اثر هذه الحرب . واعتمدت اسرائيل في هذا المجال على نتائج الابحاث والتطوير في البلاد المتقدمة خصوصا الولايات المتحدة فاستوردت المعلومات وبراءات الاختراع وعملت لتكييفها وتطويرها في مؤسساتها العلمية كـــي تخدم حاجاتها العسكرية .

وقد تمت صناعة اسرائيل العسكرية ، لتصبح الدولة اكبر صاحب عمل ، فصناعة الطائرات وحدها تستخدم ما يزيد على ١٣ الف شخص . واسرائيل مدرجة في معهد الدراسات الاستراتيجية بلندن بين الدول الاربع والعشرين في العالم التي تطور وتنتج بعض أسلحتها بينما لا تضم القائمة ايا من البلدان العربية .

وفي تصريح لموشي دايان في حزيران (يونيو) ١٩٧٣ قال : « فيما بلغت قيمة أسلحتنا عشية حرب الايام الستة ٨٠٠ مليون ليرة اسرائيلية ٥٠ ٪ منها انتاج محلي ، فان أسلحتنا تبلغ هذه السنة ٥ر٢ مليارات ليرة اسرائيلية ٤٨ ٪ منها انتاج محلي . وتوقع دايان أن تبلغ قيمة السلاح الاسرائيلي سنة ١٩٧٧ ، ٦ر٢٥ مليارات ليرة ٧٥٪ منهـــا انتاج محلي يشمل طائرات وصواريخ ودبابات ، وقال ان حوالي ٩٠٪ من الذخيرة تنتج في اسرائيل »(٢٦).

وقد نقلت « دافار » في عددها الصادر في ١٩٧٤/٩/٤ ، عن المهندس ميخائيل شور مدير الصناعة الحربية قوله ان احدى عبر حرب يوم الغفران ، كانت زيادة احتياط الذخيرة على انواعها لحساب الجيش . وقد بذل منذ انتهاء الحرب جهد مركز لهـــذا الغرض . وتستمر فترة الطوارىء في الصناعة الحربية لتوفير حاجات الجيش مـــن الاسلحة والذخيرة . وتعمل هذه الصناعة حاليا في انتاج ذخيرة للاسلحة التي تـــم الحصول عليها اخيرا . وفي انتاج بعض هذه الاسلحة ايضا ومن بينهـــا الاسلحـــة والمعدات السوفياتية الصنع التي غنمت في الحرب الاخيرة(٢٧).

وجاء في التقرير السنوي لمراقب دولة اسرائيل بعد حرب اكتوبر ١٩٧٣ ، انه : كان الامداد الفعلي من الصناعة العسكرية للقوات البرية الاسرائيلية خلال فترة نيسان ـــ ايلول ١٩٧٣ يشكل نسبة ٧٨٪ فقط مما كان مخططا لتلك الفترة . كما حصل سلاح الجو على ٦٧٪ من الامداد الذي كان مخططا له في السنة المالية ١٩٧٣ واجل الباقي لسنة ١٩٧٤ وفي شهر تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ ضوعف معدل الامداد الشهري ولكن الامداد الشامل حتى نهاية الشهـــر كان لا يزال اقل بنحو ٢٨ ٪ من الامـــداد المخطط(٢٨).

وقد اعلن ان جهاز الامن استثمر ٥٠٠ مليون ليرة اسرائيلية عام ١٩٧٤ في البحث والتطوير ، مقابل ٧٠ مليون ليرة اسرائيلية عام ١٩٦٧(٢٩).

وقد توصل رؤساء جهاز الامن بعد حرب تشرين الى استنتاج انه من الضروري بذل جهد اكبر كثيرا من الماضي في تطوير وسائل قتال ذاتية . واحد الاستنتاجات هو انه

نظرا الى عدم قدرة الجيش الاسرائيلي على سد الثغرة الكمية بينه وبين الجيوش العربية ، يجب بذل جهد لزيادة الفجوة النوعية . واحدى الطرق للمحافظة على نسبة ملائمة كما ونوعا بين الجيش الاسرائيلي والجيوش العربية ، هي تطوير أسلحة حديثة وانتاج مستقل لاسلحة متقدمة ... لقد تم خلال السنوات الماضية بناء قاعدة صناعية تمكن من زيادة طلبات جهاز الامن من السوق المحلية . فقد كان حجم هذه الطلبات سنة ١٩٦٧ ٤٠٠ مليون ليرة اسرائيلية . وسيصل حجمها في السنة المالية التي تبدأ في اول نيسان ١٩٧٤ نحو ٥ مليارات ليرة اسرائيلية ... وقد تلقت الصناعة الاسرائيلية طلبات من الخارج لاجهزة وأسلحة وعتاد الكتروني تبلغ قيمتها نحو ٣٠٠ مليون دولار وستلبي هذه الطلبات خلال ثلاث سنوات(٣٠) .

وقد اعلن ميخائيل شور مدير الصناعة الحربية في تصريح نشرته يديعوت احرونوت في ١٩٧٤/٩/٤ ان الصناعة الحربية صدرت قبل الحرب الاخيرة ما قيمته ١٠٠ مليون ليرة اسرائيلية في السنة . ولكن هذا الرقم سينخفض هذه السنة الى ٧٠ مليون ليرة بسبب التركيز على سد حاجات الجيش الاسرائيلي . وقال ان عائدات الصناعة العسكرية بلغت هذه السنة ٨٠٠ مليون ليرة اسرائيلية(٣١) .

وتنتج مصانع الصناعة الحربية الاسرائيلية التابعة لوزارة الدفاع جميع انواع الصواريخ والقذائف الصاروخية وذخيرة المدفعية والدبابات والذخيرة الخفيفة . ويبلغ عدد العمال في هذه المصانع ١٠،٠٠٠ شخص وينتظر ان يرتفع هذا العدد في نيسان (ابريل) ١٩٧٥ الى نحو ١١،٠٠٠ شخص(٣٢) .

لنلق الان نظرة سريعة على الاسلحة التي تصممها اسرائيل وتصنعها او انها تصنعها وتكون مصممة من قبل فريق اخر او انها ادخلت عليها تحسينات مهمة :

أ) **المدرعات** : كشفت اسرائيل في ٧٣/٢/١٢ انها ادخلت تعديلات مهمة على دبابات سنتوريون مارك ٥٠ ابرزها تغيير المدفع الاصلي عيار ٨٥ ملم بمدفع عيار ١٠٥ ملم . كما استبدل المحرك الذي كان يعمل على البنزين وقوته ٦٥٠ حصانا بمحرك ديزل اميركي تبلغ قوته ٧٥٠ حصانا . وقد زادت حمولة الدبابة من الذخيرة كما زادت سرعتها من ٣٥ الى ٤٣ كلم في الساعة . وقد تم تركيب علبة سرعة هيدروليكية من صنع شركة جنرال الكتريك الاميركية فيها سرعتان للامام وسرعة للخلف كما تم استبدال أجهزة التسيير في الدبابة مما زاد من مرونتها وضيق قطر دائرة تغيير اتجاه سيرها من ٤٠ مترا الى ١٣ مترا . ولم تتوفر معلومات عن التعديلات الاخرى التي ادخلت على هذه الدبابات ، ولكن من المتوقع ان يكون الاسرائيليون قد استبدلوا اجهزة الاتصال الموجودة في هذه الدبابات بأجهزة جديدة . ومن الممكن جدا ان تكون قد زودت هذه الدبابات بأجهزة الرؤية الليلية التي تعمل بالاشعة ما تحت الحمراء . ويرجح ايضا ان تكون اسرائيل قد ادخلت تحسينات اخرى على دبابات سنتوريون وهو استخدام أجهزة قياس بعد وتهديف تعمل بأشعة لايزر(٣٣) .

وقد ادخلت اسرائيل تعديلات مهمة ايضا على دبابة شيرمان(٣٤) كما انها غيرت المدفع والمحرك في دبابة باتون M-48 (٣٥) . أما دبابات ت ــ ٥٤ وت ــ ٥٥ السوفياتية الصنع التي غنمتها في حرب ١٩٦٧ فقد غيرت اجهزة الاتصال والتصويب واجهزة الانارة الموجودة في هذه الدبابات كما ادخلت تعديلات تزيد من راحة الطاقم وركبت جهاز رماية كهربائي كما استبدلت المدافع الاصلية بمدافع ١٠٥ ملم البريطانية التصميم والتي تصنع في اسرائيل(٣٦) .

اما الدبابة الوحيدة التي هي من تصميم وصنع اسرائيل ، فقد اطلق عليها اسم سابرا وتقول المصادر الاسرائيلية انها قد انتهت من صنع هذه الدبابة وانها الان قيد الاستعمال وقد زودت بمدفع ١٠٥ ملم الذي يصنع في اسرائيل ايضا ويقال انها صممت خصيصا لتعمل في الصحراء(٣٧) .

ب) **المدفعية** : معظم المدفعية التي تنتجها اسرائيل تصمم وتصنع من قبل شركة سولتام الاسرائيلية . وقد اسست هذه الشركة سنة ١٩٥١ من قبل مجمع كور (التابع للحكومة الاسرائيلية) ومجموعة من المستثمرين الاسكندينافيين ، وهي تصدر الان ٦٠ ٪ من انتاجها . وقد صدرت سولتام معدات عسكرية بين سنتي ١٩٥٨ و١٩٧٢ بقيمة ١٠٨ ملايين دولار منها ١٥ مليون دولار سنة ١٩٧٢ . ويتم التصدير الى حلف الاطلسي في اوروبا ودول اخرى في افريقيا وآسيا واميركا الجنوبية . ويساعد هذا التصدير الجيش الاسرائيلي اذ انه يمكن تحويل كامل انتاج الشركة المعد للتصدير الى الجيش وقت الحاجة كما حصل سنة ١٩٦٧ وسنة ١٩٧٣ . وتشغل الشركة حوالي ١٫٣٠٠ شخص(٣٨) .

وقد صممت الشركات الاسرائيلية وصنعت مدفعا مضادا للمدرعات بعيار ٩٠ ملم، اطلق عليه اسم ٩٠ ملم . س.ب وهو يركب على نصف مجنزرة من طراز م — ٣ التي تحولت لتقبله . ويمكن للمدفع ان يطلق النار في جميع الاتجاهات حتى عندما تكون النصف مجنزرة محركة . وهو نصف آلي . طوله ٧٫٢ قدم وطاقمه ٥ جنود(٣٩) .

وتصنع اسرائيل مدافع عيار ٥٢ ملم و ٨١ ملم و١٢٠ ملم كما تصنع شركة سولتام مدفعا عيار ١٦٠ ملم من تصميم شركة تمبالا في فنلندا(٤٠) . وكشف الاسرائيليون عن مدفع جديد اطلق عليه اسم ل — ٣٣ من عيار ١٥٥ ملم محمول على عربة شيرمان من صنع شركة سولتام ايضا . ويتميز هذا المدفع بمداه الذي يصل الى ٢٠ كلم وبفضل سرعة اطلاق النار التي تصل الى ٣ قذائف في الدقيقة . وهو يحمل ٦٠ قذيفة ومصفح من جميع الجهات بما في ذلك السطح وهو مزود بجهاز تلقيم نصف آلي ويسير ٢٠ ساعة متواصلة بسرعة قصوى تصل الى ٥٨ كلم في الساعة . ويتألف طاقمه من ٧ جنود(٤١) .

وعرض الاسرائيليون في ايار (مايو) ١٩٧٣ مدفعا مضادا للطائرات بسبطانتين من عيار ٢٠ ملم مركبا على ناقلة جنود نصف جنزير من نوع م — ٣ وقد صمم هذا السلاح لتأمين دفاع جوي للقوات الالية اثناء تحركها وتقول المصادر الاسرائيلية ان هذا السلاح استخدم اثناء حرب الاستنزاف(٤٢) .

ج) **سلاح المشاة** :

١ — **رشاش عوزي** : من اهم الرشاشات التي يستعملها المشاة في الجيش الاسرائيلي رشاش عوزي من تصميمهم وصنعهم وقد صدر هذا الرشاش الى المانيا الغربية ودول اوروبية اخرى ، ويعتبره البعض احسن رشاش خفيف موجود في العالم اليوم . عياره ٩ ملم ، وزنه ٧٫٧ رطل ، طوله ٢٤٫٥ انش مجاله ٢١٩ يارد ويطلق ٦٠٠ طلقة في الدقيقة(٤٣) .

٢ — **بندقية غاليل** : عرض الاسرائيليون في نيسان (ابريل) ١٩٧٣ سلاحا اخر من انتاجهم وتصميمهم هو بندقية غاليل من عيار ٥٦٫٥ ملم ويمكن استخدامها لاطلاق القذائف المضيئة وقذائف مضادة للدروع ورمانات شديدة الانفجار . ويمكن تزويدها بمخازن تحتوي ١٣٥ و٥٠ طلقة ، وتطلق نظريا بمعدل ٦٥٠ طلقة في الدقيقة . وتقول

المصادر الغربية والاسرائيلية ان هذه البندقية افضل من بنادق الكلاشينكوف ومن الـ م ـ ١٦ الاميركية وانها ستكون السلاح الفردي الاسرائيلي بدلا من البنادق الاخرى المتعددة الانواع(٤٤).

د) **سلاح البحرية** : لقد حققت البحرية الاسرائيلية عدة تطورات مهمة بعد حرب حزيران ١٩٦٧ فقد لاقت اهتماما كبيرا بعد الضربتين الكبيرتين اللتين تلقتهما القوات البحرية الاسرائيلية خلال حرب ١٩٦٧ وبعدها ، وهما اغراق المدمرة ايلات وفقدان الغواصة داكار .

وتبينت نتائج التقنية الاسرائيلية اكثر ما تبينت خلال حرب اكتوبر ١٩٧٣ في سلاح البحرية اذ وفق الاسرائيليون باعتراض صواريخ ستيكس السوفياتية بواسطة آلة الكترونية صممها الاسرائيليون تستطيع تغيير وجهة سير صاروخ ستيكس اثناء رحلته(٤٥).

وتنتج اسرائيل منذ سنة ١٩٦٩ حوامات وقد اطلق اسم ليدي بيرد على اول تلك الحوامات التي صنعت في اسرائيل وهي من انتاج وتصميم شركة (Israel American Motor Corporation) التي اسست سنة ١٩٦٤ . وهذه الشركة كما يظهر من اسمها هي شركة اسرائيلية اميركية يملك متمولون اميركيون ٤٩ ٪ من اسهمها ويساعد الاميركيون ايضا في الخبرة(٤٦).

وقد كشف الاميرال بنيامين تيليم قائد سلاح البحري الاسرائيلي في مؤتمر صحفي عقده في ٤ شباط (فبراير) ١٩٧٣ ان اسرائيل تصنع حاليا زوارق جديدة اطلق عليها اسم ريشيف تتميز بقوة ضاربة تعادل ضعف قوة زوارق سالمار التي بنيت في فرنسا. ويسلح هذا الزورق بـ ٧ صواريخ غبريئيل ومدفعين عيار ٧٦ ملم وقاذفات قنابل اعماق وعدد من الاسلحة الرشاشة(٤٧) و(٤٨) ويعتقد ان عددا من هذه الزوارق قد شارك في حرب اكتوبر ١٩٧٣ الا انه لم يعرف بعد ما هو العدد الذي انجز صنعه حتى اليوم .

واهم ما تنتجه اسرائيل لسلاح البحرية هو صاروخ غبريئيل . وقد عرض هذا الصاروخ لاول مرة سنة ١٩٧٠ وهو صاروخ موجه من السفن الى السفن ، تنتجه مؤسسة صناعة الطائرات الاسرائيلية (ص. ط. أ) ويستطيع هذا الصاروخ العمل في جميع الاحوال الجوية ولا تؤثر فيه المعطلات الالكترونية ، وطوله ٣٫٣٥ امتار ووزن الرأس الحربي فيه ١٥٠ كلغ . واعلنت اسرائيل وقتذاك ان هذا الصاروخ هو الوحيد من نوعه خارج الكتلة الشرقية . ويتبع هذا الصاروخ في مساره خط طيران منخفض جدا فوق الامواج ويصيب الهدف بدقة بالغة . وفي اوائل سنة ١٩٧٢ عرف انه تم بيع صواريخ غبريئيل الى خارج اسرائيل بقيمة ٣٨ مليون دولار ، ومن المحتمل ان يكون قد بيع الى الحبشة وايران وجنوبي افريقيا وسنغافورة . وقد حقق هذا المشروع نجاحا كبيرا لشركة ص. ط. أ(٤٩).

وتعمل اسرائيل حاليا في تزويد صواريخ غبريئيل البحرية بكاميرات تلفزيونية لزيادة مدى هذه الصواريخ الى ابعد من مداها الحالي الذي يصل الى نحو ٢١ كلم . ويستطيع مشغل الصاروخ أن يرى الهدف البعيد ويرسل اشارات بضبط توجيه الصاروخ في المرحلة النهائية من رحلته . والجدير بالذكر ان الاسرائيليين كانوا قد اعلنوا انهم يصنعون نوعين من صواريخ غبريئيل : الاول بمدى ٢١ كلم والثاني بمدى ٤٢ كلم . لذلك من المتوقع ان يكون التوجيه التلفزيوني قد صمم ليستخدم على النوع

ذي المدى البعيد . ومن جهة اخرى تطور اسرائيل حاليا صواريخ غبريئيل لاطلاقها من الشواطىء وذلك لتأمين دفاع فعال عن الموانىء والمدن الساحلية ولا يحتاج الصاروخ نفسه الى تعديل في هذه الحالة وانما يجب بناء قواعد ثابتة له على الارض مع اجهزة توجيه شبيهة بتلك المستخدمة في الزوارق(٥٠).

هـ) **الصناعة الجوية** : تنصب جهود اسرائيل التقنية اكثر مما تنصب في صناعة وتطوير سلاح الجو . وهناك عدة صناعات نمت وازدهرت لارتباطها بشكل مباشر او غير مباشر بالصناعة الجوية .

واهم المؤسسات التي تعمل في هذا المجال هي مؤسسة صناعة الطائرات الاسرائيلية (ص. ط. أ) وقد اسست سنة ١٩٥٣ وكان اسمها حينذاك « بيديك » ، وكان عملها الاساسي صيانة الطائرات والمحركات . وكان رأسمال المؤسسة عام ١٩٥٣ ، ٦٠٠ الف دولار وكان عدد العاملين فيها ٧٠ شخصا ، وقد أصبح رأسمالها الان مئات الملايين من الدولارات ويعمل بها الان نحو ١٣ الف شخص .

وقد بقيت الشركة حتى سنة ١٩٥٨ تعمل أساسا في الصيانة الا انها اصبحت تستعمل من قبل شركات تجارية اجنبية لصيانة طائراتها أيضا . وفي عام ١٩٥٨ وقعت اتفاقا مع شركة بوتيز اير — فوغا لانتاج طائرات التدريب فوغا — ماجستير في اسرائيل لحساب سلاح الجو الاسرائيلي وقد انطلقت ص. ط. أ منذ ذلك الحين في مجال انتاج الطائرات او ادخال تعديلات على الطائرات الموجودة لديها .

وتستوعب مؤسسة ص. ط. أ معظم خريجي معهد تخنيون في حقل العلوم الفضائية والجوية وقد حاولت سد حاجاتها باستقدام مهندسين وفنيين من الخارج الا انها فشلت في معظم الحالات في استقدام واستبقاء المهندسين والفنيين الذين اتوا من البلدان الغربية المتقدمة . وكشف مسؤولون اسرائيليون ان ٦٠ مهندسا كانوا يعملون في الصناعة الجوية تركوا عملهم ونزح معظمهم عن اسرائيل واضاف ان عددا كبيرا آخر على وشك النزوح خلال الاشهر المقبلة وبينهم عدد غير قليل ممن خدموا الدولة في مشروعات مهمة . وقدر المسؤولون ان ٢٥ ٪ من المهندسين من بين اصحاب العقود لمدة ٣ سنوات ينزحون قبل انتهاء مدة تعاقدهم وتصل هذه النسبة في نهاية العقد الى ما يزيد على ٣٣ ٪ (٥١). وقد نسب نزوح المهندسين من أصل اميركي الى الانسحاق المهني والقيود الادارية . وقد ذكر المهندسون النازحون ان مستوى الادارة في الصناعة الجوية منخفض ، وانه يسود هذه الصناعة تنافس شخصي حاد اذ يسيطر على ادارات مهمة للتخطيط والتنفيذ مهندسون اوروبيون متخلفون في الخبرة الادارية عن التطور الذي شهدته صناعة الطيران في العالم(٥٢).

وقد ادخلت ص. ط. أ تعديلات رئيسية ومهمة على بعض انواع اسلحة الجو التي يستخدمها الطيران الاسرائيلي . فقد غيرت محركات طائرات سكايهوك وابدلتها بمحركات Pratt و Whitney من نوع J 65 كما أبدلت مدفع الـ ٢٠ ملم الذي كان على هذه الطائرات بمدفع DEFA من عيار ٣٠ ملم وهو يصنع في اسرائيل بموجب ترخيص خاص(٥٣).

وقد حولت طائرات ستراتوكروزر الى طائرات صهريج تزود الطائرات المقاتلة بالوقود اثناء تحليقها ، مما يعطي هذه الطائرات مدى أطول بكثير من مداها الاصلي(٥٤) وزودت طائرات الهليكوبتر سيكورسكي اس ٦٥ بخزانات اضافية ومصاف للوصل ضرورية للعمل في الصحراء(٥٥).

- وتصنع اسرائيل طائرات الفوجا ماجستير برخصة خاصة من شركتها الاصلية ولقد انتجت حوالي مئة طائرة من هذا النوع حتى عام ١٩٧٣ ، وباعت بعضها الى الدول الافريقية والاسيوية . وطائرة فوجا ماجستير هي في الاساس طائرة للتدريب النفاث وقد أجرت عليها تعديلات عديدة بحيث اصبح بالامكان استعمالها كطائرة لدعم الهجوم الارضي(٥٦) .

وتعمل مؤسسة ص. ط. ا أيضا في انتاج قطع الغيار وقد زاد الاهتمام بهذا الموضوع بعد الحظر الفرنسي عام ١٩٦٧ ، وتركز على قطع الغيار لطائرات ميراج ، الا انه سرعان ما تبين انه لم يكن بامكان ص. ط. ا سد الحاجة وعلم أن المانيا الغربية والولايات المتحدة تصنعان بعض قطع الغيار المطلوبة لحساب سلاح الجو الاسرائيلي(٥٧) .

وتنشر ص. ط. ا الكثير من الاعلانات عن انجازاتها وتشارك في المعارض الجوية الدولية ، وهي تفاخر اكثر ما تفاخر بانتاجها طائرتي عرافا وكومودور — جت او وستويند ، وهذه محاولة لتسويق انتاجها من هذه الطائرات لتغطية النفقات الباهظة التي تكلفتها لصنع هاتين الطائرتين كما سيتبين .

طائرة عرافا : وضعت شركة صناعة الطائرات الاسرائيلية (ص. ط. ا) سنة ١٩٦٦ اول تصميم لطائرة « عرافا » على أن تكون طائرة نقل خفيفة معدة للاستخدامين العسكري والمدني ، ومصممة بحيث تتمكن الطائرة من الاقلاع والهبوط على مدارج قصيرة (١٢٠ — ١٥٠ مترا) وغير معبدة . وتستطيع هذه الطائرة ان تحمل ٢٠ جنديا بكامل أسلحتهم او ما حمولته طنين من الذخيرة . وكان من المنتظر أن يبدأ الانتاج التجاري لهذه الطائرة سنة ١٩٧١ ولكن الصعوبات بدأت تعترض هذا المشروع سنة ١٩٧٠ اذ تحطم اول نموذج للطائرة في اثناء رحلة تجريبية في ١٩ تشرين الثاني ١٩٧٠ وقتل ٣ طيارين . وفي سلسلة مقالات كتبها الصحافي الاسرائيلي شمشون أرليخ في هآرتس في كانون الثاني (يناير) ١٩٧٣ يقول انه قد استثمر في هذا المشروع نحو ٢٠٠ مليون ليرة اسرائيلية وهذه زيادة عدة اضعاف عما كان متوقعا له(٥٨) .

وكانت الصناعة الجوية الاسرائيلية تدرس امكانية انتاج نوع أطول من طائرة عرافا بامكانه نقل ٣٠ — ٤٠ جنديا او مسافرا ، ولكن تقرر اخيرا ان يركز على انتاج النموذج العسكري من الطائرة .

وقد اشترت المكسيك ٥ طائرات عرافا من اسرائيل بمبلغ ١٥ مليون دولار اي أنها دفعت ٣ ملايين من الدولارات ثمن الطائرة على الرغم من أن اسرائيل كانت قد أعلنت ان ثمن الطائرة لن يزيد على نصف مليون دولار(٥٩) .

وقد أعلن في يونيو ١٩٧٣ انه تم تجهيز طائرة عرافا الاولى لحساب المكسيك ، ومعدل الانتاج الحالي هو طائرتان كل شهرين مع أن المسؤولين الاسرائيليين كانوا قد أعلنوا انه بمقدورهم انتاج عشر طائرات عرافا في الشهر(٦٠) .

ولم يعرف بعد كم من هذه الطائرات تملك المؤسسة العسكرية الاسرائيلية ، الا أنه مما لا شك فيه أن طائرة عرافا قد شاركت في حرب اكتوبر الاخيرة وان مهمتها الاساسية كانت نقل الجنود من والى الجبهة كما انها كانت تنقل الجرحى والقتلى(٦١) .

طائرة « كومودور — جت » او وستويند : اشترت الحكومة الاسرائيلية في ايلول (سبتمبر) ١٩٦٧ الادوات الخاصة بصنع طائرات جيت كوماندور من شركة ايرو —

كوماندور روكويل الاميركية . وبلغت قيمة الصفقة ٢٥ مليون دولار . وهذه الطائرات مصممة لاستعمال رجال الاعمال ورؤساء الدول في رحلات قصيرة .

وبعد نقل المصنع الى اسرائيل أدخلت (ص. ط. ١) تعديلات على الطائرة وبدأت انتاجها باسم كومودور ـ جت فاستخدمت محركات أقوى وزادت طول هيكل الطائرة لتستطيع نقل ١٠ أشخاص بدلا من ثمانية ، واضافت تحسينات اخرى على الاجهزة الكهربائية وغيرها . الا أن النموذج الاول تحطم اثناء رحلة تجريبية في ٢١ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٦٩ وقتل الملاحون الاربعة الذين كانوا على متنه مما اخر في انتاج الطائرة أيضا(٦٢) .

ومنذ ذلك الوقت غيرت اسرائيل من تصميم هذه الطائرة واصبحت تنتجها الان باسم وستويند ١١٢٣ او وستويند ١١٢٤ المطورة عن الاولى . وقد عرضت هذه الاخيرة لاول مرة في معرض جوي في لوس انجلوس في أيلول (سبتمبر) ١٩٧٤ وكشف لاول مرة عن بعض تفاصيل هذه الطائرة الفنية .

وكانت الشركة قد أبرمت في أيلول (سبتمبر) ١٩٧٢ اتفاقية مع شركة افييشن اتلانتيك الاميركية ، وقد باعت منذ ذلك الحين ١٨ طائرة في الولايات المتحدة بسعر ١ر٥ مليون دولار للطائرة(٦٣) .

وقد أتمت ص. ط. ١ صنع النموذج العسكري الاول لطائرة وستويند ١١٢٣ لصالح قوات خفر السواحل الاميركية سنة ١٩٧٣ . وستشترك هذه الطائرة في مسابقة لاختيار طائرة لخفر السواحل تستخدم للاغراض الالكترونية ولعمليات البحث والانقاذ . واذا قبلت هذه الطائرة فمن المتوقع ان تطلب قوات خفر السواحل الاميركية ٣٥ طائرة منها على الاقل . وتبحث شركة ص. ط. ١ في تغيير محركات طائرة وستويند (وهي الان تستعمل محركات من صنع جنرال الكتريك) لاعطائها المدى المطلوب لطائرة خفر السواحل(٦٤) . ويقول الاسرائيليون انه بامكانهم انتاج اربع طائرات وستويند ١١٢٣ في الشهر(٦٥) .

طائرة « بازاك » : ظلت التكهنات والأقاويل حول ما اذا كانت اسرائيل تصنع طائرة مقاتلة نفاثة أسرع من الصوت موضع جدل حتى حرب اكتوبر ١٩٧٣ ، اذ تبين ان حوالي ٢٥ طائرة من هذا النوع كان قيد الاستعمال خلال الحرب(٦٦) . ولم تعرض اسرائيل هذه الطائرة في أية من المعارض الجوية التي شاركت بها مع أنها تعرض عادة في هذه المعارض نماذج عن الطائرات الباقية التي تصنعها او تجمعها ولذلك فمن الصعب جدا معرفة دقائق هذه الطائرة بالتفصيل الا انه من المعروف ان هذه الطائرة مشابهة جدا لطائرة ميراج ـ ٣ . وكانت تصنع في الاساس تحت اسم Super - Mariage وقد سرقت تصاميم هذه الطائرة بواسطة مهندس سويسري في صيف سنة ١٩٦٩ وسلمت الى اسرائيل كما ان اسرائيل استعانت في تصنيعها لهذه الطائرة بالمعلومات والخبرة التقنية التي حصلت عليها من شركة داسو الفرنسية عندما كانت العلاقات مع فرنسا طبيعية ومتينة . وكذلك فمعروف ايضا ان محرك هذه الطائرة هو جنرال الكتريك (69 - J) ، وهو من تصميم الشركة الاميركية ويصنع في اسرائيل بترخيص خاص من هذه الشركة(٦٧) .

وقد اتفقت الحكومة الاسرائيلية في اوائل سنة ١٩٧٣ مع الحكومة الاميركية لتساعدها في انتاج هذه الطائرة . اذن فان المعدات الاسرائيلية الصنع والتصميم في هذه الطائرة محدودة للغاية ، اذ انه يعتقد أن المساعدة الفنية الاميركية كانت في مجال

التسليح والاجهزة الالكترونية مما لا بد ان يحل الكثير من المشاكل التقنية الخاصة بانتاج هذه الطائرة . ويعتقد ايضا ان اسرائيل استثمرت نحو ٣٠٠ — ٤٠٠ مليون دولار في انتاجها « البارك » .

وكانت مصادر غربية قد ذكرت ان الطائرة الاسرائيلية هذه تستطيع نقل حمولة خارجية وزنها ٤ و٦ أطنان وتستطيع الطيران بسرعة تزيد ٢ر٥ سرعة الصوت، وتستطيع العمل على مدارج قصيرة(٦٨). الا ان هذه المعلومات لا يمكن التأكد منها بعد للسرية التامة التي تحيط بها اسرائيل هذه الطائرة .

ان للصناعة الجوية الاسرائيلية فوائد كثيرة على المجتمع الاسرائيلي . فهذه الصناعة تعود بفائدة كبيرة في مجال تنمية القدرة العلمية والتقنية في اسرائيل . كما ان لها فائدة اقتصادية من حيث انها تزيد في حجم النشاط الاقتصادي داخليا وما يوفره من ارتفاع في توظيف اليد العاملة كما أنها تخفف من عبء الاستيراد باستبداله بالانتاج المحلي .

ووجود صناعة محلية قادرة على تزويد سلاح الجو الاسرائيلي بطائرات مقاتلة نفاثة يعطي اسرائيل قدرة أكبر على تحمل الضغوط السياسية الخارجية . فاسرائيل لم تتأثر كثيرا نتيجة الحظر الفرنسي عليها لا لان الولايات المتحدة فتحت سوقها أمامها فحسب ، بل لانه كان بمقدور الصناعة الاسرائيلية تلبية حاجات الجيش الاسرائيلي في معظم قطع الغيار التي كان يحتاج اليها .

واسرائيل تستغل هذه الصناعة استغلالا اعلاميا كبيرا في محاولة منها لاكتساب اعجاب وتقدير الدول المتقدمة للاستفادة من تبادل الخبرات بينها وبين الدول المتقدمة من جهة وفي محاولة من جهة أخرى لتحسين علاقاتها بالدول النامية بعرض مساعدتها التقنية على هذه الدول ومن جهة ثالثة وهي الاهم لاحداث آثار نفسية معينة عند الشعب العربي من خلال اعلامه بهذه المنجزات العلمية والتقنية التي تحرزها .

الصواريخ : يبرز دور التقنية في اسرائيل أكثر ما يبرز في تطوير وصنع الصواريخ في اسرائيل ، فعدا صاروخ غبريئيل الذي تكلمنا عنه أعلاه ، طورت اسرائيل عدة صواريخ ، فاسرائيل تنتج صاروخ ارض — ارض اسمه جريكو ، وكانت تصنع هذه الصواريخ في فرنسا قبل ١٩٦٧ حيث تقرر نقل المصنع الى اسرائيل ليكون تحت مراقبة السلطات الاسرائيلية مباشرة . وكانت اسرائيل تنتج ٤ الى ٦ من هذه الصواريخ في الشهر ، ويكلف الصاروخ ١ر٥ مليون دولار ومداه ٣٠٠ ميل . وقد كانت تملك ٦٠ صاروخا من هذا النوع أثناء حرب ١٩٧٣(٦٩).

وقد أعلنت مصادر غربية في تموز (يوليو) ١٩٧٢ ان اسرائيل تعمل على تطوير عدة أنواع من الصواريخ التكتيكية للاستعمال من الارض الى الارض لنقل رؤوس حربية غير نووية ويبلغ المدى الاقصى لهذه الصواريخ ٥٦ كلم(٧٠).

كما أعلنت نفس المصادر في أيار (مايو) ١٩٧٣ ان اسرائيل تطور نموذجا حديثا من صاروخ جو — أرض من نوع « زوني » الموجه بواسطة أشعة لايزر(٧١) ولكن من الظاهر انها لم تطوره بعد لانها لا تزال تفاوض الحكومة الاميركية للحصول على أنواع مشابهة من الصواريخ(٧٢).

أما الصاروخ الذي يفاخر الاسرائيليون به فهو صاروخ « شفرير » الذي تدعي اسرائيل انه من تصميمها وصنعها كليا . وقد كشفت عنه لاول مرة في أيار (مايو) ١٩٧٣ . وقد قالت المصادر الاسرائيلية وقتذاك ، ان هذا الصاروخ استعمل اثناء حرب

الاستنزاف وفي المعـــارك الجوية التي تلتها ، وهو صـــارخ جو ــ جو . ويقـــول الاسرائيليون أن بامكان الصاروخ اعتراض طائرات تحلق على ارتفاعات تصل الى ٧٥ الف قدم ويبلغ مداه ٥ كلم ووزنه ٩٣ كلغ ويحمل رأسا حربيا وزنه ١١ كلغ ، ويعمل بالحرارة ما تحت الحمراء أي انه يتبع الحرارة الصادرة عن الطائرة المعادية . وتقول المصادر الاسرائيلية بأن صاروخ شفرير مزود بأجهزة غير موجودة في الصواريخ الاخرى كما يقال ان تكاليفه هي ثلث تكاليف صواريخ Matra جو ــ جو المشابهة وهي فرنسية الصنع وقد استعمل هذا الصاروخ في حرب اكتوبر ١٩٧٣ (٧٢) .

الصناعة المدنية

كان انتاج الصناعة القائمة علـــى التكنولوجيا العصرية حتـــى سنة ١٩٧٢ يشكل ٢٨ر٧ ٪ فقط من مجمل انتاج الصناعات في اسرائيل(٧٤) . وهذه النسبة لا تدل على وجود صناعة متطورة تلائم الاتجاهات السائدة في القرن العشرين، كما انها لا تتلاءم مع الكفاءة التكنولوجية للطاقة البشرية الموجـــودة في اسرائيل . وقد تطورت الصناعـــة القائمة على التكنولوجيا تطورا كبيرا منـــذ سنة ١٩٦٧ لتلبي حاجات جهـــاز الامن في اسرائيل وهي تظهر اتكالية كبـــيرة على هذا الجهاز ممـــا أدى ببعض المسؤولـــين الاسرائيليين الى التساؤل عما اذا كان هذا مظهرا صحيا في تطور أية صناعة(٧٥) .

وسنلقي نظرة سريعة في هذا البحث على مجالين من هذه الصناعة التي تعتمد في الاساس على مستوى عال من التقنية لتطويرها : ١) الصناعـــة الالكترونية لاهميتها العسكرية ولان مواجهتنا مع اسرائيل هي في الاساس مواجهة عسكرية ، ٢) الصناعة الكيماوية لانها نمت خاصة بعد استيلاء اسرائيل على نفط سيناء ، ولانه بمقدور العرب تطوير صناعة كيمائية أهم بكثير بالنسبة لانتاجهم الكبير من النفط ، ولاهمية متفرعات هذه الصناعة في المجال العسكري أيضا .

١ ــ **الصناعة الالكترونية** : لقد نمت هذه الصناعة نموا كبيرا في الستينات بتشجيع من المؤسسة العسكرية اذ اتخذت وزارة الدفاع قرارا بانتاج أكبر عدد ممكن من الآلات الالكترونية الخاصة بالجهاز الدفاعـــي في اسرائيل نفسهـــا بسبب العجز في ميـــزان المدفوعات الاسرائيلي وصعوبة الحصول على العملات الاجنبية وكانت هذه الصناعة حتى سنة ١٩٥٨ لا تنتج تقريبا سوى أجهزة الراديو . وكان من أهـــم العوامل التي ساهمت في تحقيق هذا التطور السريع للصناعـــة الالكترونية تشجيع الدولة وتحملهـــا نسبة كبيرة من النفقات والمساعدات التي تلقتها هذه الصناعة من مراكز الابحاث التي تضم عددا كبيرا من العلماء والمتخصصين والمزودة بمختبرات حديثة ومتطورة وبمكتبات غنية .

وكان لدى اسرائيل سنة ١٩٦٨ ٢١٫٨٠٠ مهندس وعامل وكانت مدارسها التقنية تخرج ٥٫٠٠٠ تقني في السنة(٧٦) والى جانب خريجي المعاهد المحلية كان لدى اسرائيل في تلك السنة نحو ٧٫٠٠٠ مهندس وعالم يدرسون في الولايات المتحدة وكان بين هؤلاء ٨٥٠ يتخصصون في حقل الالكترونيات . وكان لدى اسرائيـــل سنة ١٩٦٩ ، ١٫٥٠٠ مهندس الكتروني مؤهل، منهم ٦٠٠ يعملون في الصناعة والباقون يعملون في المؤسسات الحكومية ومراكز الابحاث . وقدر عدد المهندسين الالكترونيين في اسرائيل سنة ١٩٧٠ بين ٤٫٠٠٠ ــ ٥٫٠٠٠ مهندس قدم معظمهم مـــن الدول الغربية وخاصـــة الولايات المتحدة . ويعمل هؤلاء بموجب عقود عمل لثلاث سنوات عادة(٧٧) .

وتنتج هذه الصناعة المعدات التـــي تستخدم في الاسواق بما فيهـــا شبكة الهاتف

الاسرائيلية وأجهزة الراديو والاسلاك وغيرها من اجهـزة الاتصال لصالح المؤسسة العسكرية . ويشكل هذا الحقل ميدانا واسعا لنشاطات الابحاث والتطوير المحلية. وقد أصبحت اسرائيل تنتج ٨٥ ٪ من معدات الاتصال التي تستعمل محليا . فمصانعها تنتج جميع أجهزة الاتصال بالموجات الدقيقة (Micro Waves) ومئات الانواع مـن الصمامات الثنائية (Diodes) واجهزة الترانزيستور والدورات المكملة وللدورات الغشائية الرقيقة والغليظة (Thin and Thick Film Micro Circuits) . وتصنع معظم هذه الآلات برخص انتاج وبراءات اختراع من الولايات المتحدة الاميركية بعد تطويرها في اسرائيل . كذلك فان اسرائيل بدأت بتصنيع الآلات الحاسبة المصغرة المتطورة ذات الاستعمال التجاري والعسكري . كما انها تتوسع بسرعة في مجال ارسال المعطيات (Data Transmission) وتسلسل البيانات (Data Processing) ويتم صنع قطع ومعدات هامشية لصناعة هذه الآلات .

وقد طورت شركة مبات الالكترونية التابعة للصناعة الجوية جهاز انذار الكتروني — كهربائي تدعي اسرائيل انه بيع الى عدة دول . وقـد صنع الجهاز لمكافحة الفدائيـين ولمقتضيات حرب الاستنزاف . وتقول المصادر الاسرائيلية ان ما يميز جهاز الانذار هذا عدم حاجته الى أسلاك خاصة لنقل الذبذبات بل تنقل أسلاك السياج المعلومات الى مركز بعيد ثم تنقل التعليمات بعد وصول الانذار ... يعمل جهاز الانذار المركزي لدى كل محاولة للتسلل عبر السياج ، ويشير الى الجـزء المحدد الذي جرت منه محـاولة العبور . وتضيف هذه المصادر ان هذا الجهاز « بيع الى جهات مختلفة خارج البلد بما في ذلك شركات تستخدم اجهزة حساسة وثمينة وتعاني مشكلة الحراسة الخاصة»(٧٨) .

كما ان شركة التا للصناعة الالكترونية وهي شركة تملكها (ص. ط. ا) قد باعت أجهزة رادار للملاحة الجوية المدنية من نوع (EL/M-2205) لكل مـن فنلندا والارجنتين . وهذا الجهاز بدىء باستخدامه حديثا في مطار اللد وقد عرضته اسرائيـل في معرض باريس الجوي سنة ١٩٧٣ . والجهاز ذو قوة متوسطة وهو يصنع بطريقة معيارية (Modular Construction) ويستخدم تقنية حالة الصلابة (Solid State) والدورات الكهربائية المصغرة وفيه جهاز اختبار ذاتي(٧٩) .

وكما ذكرنا أعلاه فان الشركات الاسرائيلية تعتمـد اعتمادا كبيرا على المعرفـة الالكترونية التي تستوردها من الولايات المتحدة الاميركية ، فقد وقعت شركة تاديران الاسرائيلية اتفاقا سنة ١٩٧٣ مع شركة هيـوز الاميركية لتقديـم المساعدة التقنيـة والسماح بانتاج دورات كهربائية غشائية مصغرة رقيقة وغليظة وتصديرها الى العالم غير الشيوعي(٨٠) .

كما اشترت تاديران أيضا سنة ١٩٧٤ شركة Electrospace الاميركية بعد أن أفلست هذه الشركة ، وكانت هذه الشركة تصنع أجهزة اتصال عسكرية وقـد صار الى نقل معداتها الى اسرائيـل . وكانت Electrospace تنتج جهاز اتصال عسكري مـن نوع PRC-77 ذو ذبذبات عالية يحمله الجنـود ويمكن تركيبه على آليـات وهو يستعمل للمسافات القصيرة . كما كانت تنتج جهـاز VSC-13 وهو جهاز ارسـال واستقبال للمعلومات ويستعمل في طائرات الاستطلاع الاميركية EC-130 Q ، وجهاز يركب على الدبابات وطائرات الهليكوبتر للاستطلاع أيضا من نوع VSS-R وجهاز اتصال تكتيكي من نوع GRC-10 يعمل على موجات اف. ام وجهاز للتليتايبرايتر واجهزة هاتف يدوية وغيرها . وتنتج تاديران الان جميع هذه الاجهزة لحساب الجيش الاسرائيلي وللتصدير الخارجي(٨١) .

وتصدر اسرائيل منتوجاتها الالكترونية الى ٤٠ دولة ، كما انها تقيم بعض المنشآت الصناعية في عدد من الدول في آسيا وافريقيا واميركا اللاتينيـــة ، ومن بين هذه الدول سنغافورة والبرازيل(٨٢) .

ونقلت معـــاريف عن مردخـــاي شـــفيط مدير عـــام شركة مونســـل للصناعـــة الالكترونية في اســـرائيل قوله ان عائدات الصناعـــة الالكترونية ارتفعت من ١٠٠ مليون ليرة اسرائيلية سنة ١٩٦٥ الى ٧٠٠ مليون ليرة اسرائيلية سنة ١٩٧٢ . وكان يعمل في هذه الصناعة نحو ٣٫٠٠٠ شخص سنة ١٩٦٥ منهم ٢٠٠ مهندس وقد ارتفع هذا الرقم سنة ١٩٧٢ الى ١٧٫٠٠٠ شخص منهم نحـــو ٤٫٠٠٠ مهندس وأكاديمي . وأضاف شفيط ان الصناعة الالكترونية في اسرائيل تستفيد مـــن التعاون وميزانيـــات البحث والتطوير من وكالة الفضاء ووزارة الدفـــاع الاميركيتين كما يتـــم انتاج بعض المعدات الالكترونية لمصلحة جهاز الدفاع في الحلف الاطلسي(٨٣) .

وذكرت معاريف في عددها الصادر في ١٩٧٤/٩/١٩ ان قيمة صادرات الصناعات المدنية والالكترونية قد تصل هذه السنة الى ١٧٠مليون دولار مقابل ١٣٦٫٨مليون دولار سنة ١٩٧٣ و١١٤٫٤ مليون دولار سنة ١٩٧٢ . وتعكس هـــذه الزيادة في الصادرات الجهد الموجه نحو التصدير على الرغم من الحرب الاخيرة وطلبات الجيش المتزايدة التي أعقبتها . هذا برغم الصعاب التي تواجه الصناعة من جراء التضخم المالي في اسرائيل والنقص في الطاقة البشرية والنقص في المواد الخـــام وشبكة العلاقـــات بين اسرائيل والجهات الدولية مما يزيد في صعوبة التغلغل في الاسواق الاجنبية وجذب الاستثمارات الخارجية الى اسرائيل(٨٤) .

٢ ــ **الصناعة الكيمائية** : تمثل هذه الصناعة مركزا هـــاما في الصناعة الاسرائيلية عامة ويتوقع لها مستقبل كبير بالنسبة للتخطيط الصناعي في اسرائيل اذا استمرت المعطيات الراهنة ــ أي استيلاء اسرائيل علـــى حقول النفط في سيناء . وصناعـــة الكيماويات التي تشمـــل بشكل عام المناجم والمحاجـــر والمواد الكيماوية الاساسية والخفيفة والمعادن غير الحديدية ، متطورة بشكل جيد في اسرائيل في الوقت الحاضر . وقد دفعت هذه الصناعة الى الامام مجالات التصدير الكبيرة لهذه الصناعة واهمية التصدير في الميزان التجاري الاسرائيلي فقد كانت نسبة تصدير الكيماويات من مجموع الصادرات ٦٫٧ ٪ سنة ١٩٦٠ وأصبحت تشكل ٥٦٫١ ٪ سنة ١٩٧١(٨٥) .

وكان معدل الزيادة في حجم الانتاج في هذه الصناعة منذ سنة ١٩٦٧ وبعد الاستيلاء على حقول النفط في سيناء ١٥ ٪ ولكن المسؤولين عن وزارة التخطيط لم يكونوا راضين عن هذه الزيادة اذ كان من المفروض أن تزيد ١٦ ٪ ــ ٢٠ ٪ بالسنة .

وفي حقل الصناعة البتروكيماوية بالتحديد تتمتـــع اسرائيل ببعض المزايـــا النسبية ويرجع ذلك لوجود المادة الخام الاساسية فضلا عن ان تلك الصناعة تتطلب الكثير من المعرفة التقنية الموجودة في اسرائيل . وتتفرع عن هذه الصناعة صناعات أخرى متعددة مما يزيد في قيمتها . وقد قررت اسرائيل سنة ١٩٧١ صرف مبلغ ٥٠٠ مليون دولار على عشر سنوات لتطوير صناعة البترول ولاقامة مجمع بتروكيماوي في أشدود بمبلغ ٨٠ مليون دولار ، ومصفاة جديدة في ايلات لتكرير مليون طن من المازوت لمد السفن العابرة مستعملة زيت سيناء(٨٦) .

وتنتج اسرائيل الآن الاثلين والبولثيلين والفنلشروناید وهي مادة اساسية للبلمرة وهي هامة في صناعة البلاستيك ، والكربون الاسود وحامض النتريك وكبريت الامونيا . كما بدأت سنة ١٩٧٣ في انتاج المثانول واليوريا والفينول .

وتعطي اسرائيل أهمية كبيرة لصناعة البلاستيك فقد أقامت في شباط (فبراير) ١٩٧٢ اسبوعا خاصا للبلاستيك دعت اليه ٢٠٠ من أصحاب مصانع البلاستيك والعلماء والباحثين المختصين في العالم لتبادل المعلومات والخبرات في هذا المجال .

ويتجلى اهتمام اسرائيل في هذه الصناعة أكثر ما يتجلى في اقدامها على اقامة مدرسة خصيصا لدراسة البلاستيك لتخريج الفنيين والمهندسين المختصين كجزء من كلية الهندسة في التخنيون كما أدخلت مواد دراسية خاصة بدراسة مادة البلاستيك في معهد الدولة للتقنيين كما وسعت وزارة التربية التعليم الفني في مجال البلاستيك والمجالات التابعة لها وأنشأت قسم تقنية البلاستيك كجزء من المركز الحكومي للابحاث الصناعية في حيفا وأقامت قسما لابحاث البلمرة في معهد وايزمن للعلوم(٨٧) .

وتزود صناعة الكيماويات الصناعة العسكرية بـ ٧٠ نوعا مختلفا من المنتوجات وأهم هذه المنتوجات المذيبات المأمونة لتنظيف الآلات الكهربائية والالكترونية والموتورات كما تنتج مواد للحماية من الرطوبة ، وزيوت متطورة ومواد لازالة الصدأ ومواد مانعة للتآكل . وتستعمل هذه المواد في المجال العسكري لصيانة الطائرات والآلات العسكرية المختلفة والآلات الالكترونية والموتورات وغيرها. وتدعي اسرائيل ان منتوجاتها تضاهي بمستواها منتوجات الشركات التي تزود الجيش الاميركي وشركات بوينغ ودوغلاس(٨٨) .

الخاتمة

يتضح لنا من هذا العرض المقتضب أن اسرائيل تتوجه من خلال تنمية قدراتها الصناعية والعلمية نحو بناء قوة ذاتية كي لا تظل اتكالية على المساعدات التي تستلمها من الخارج وخاصة من الولايات المتحدة . وبرغم من ان الاكتفاء الذاتي لن يكون الا نسبيا فانها تركز على تقوية جهاز البحث العلمي في كل المستويات . كما ان اسرائيل تستهدف من هذه التنمية الذاتية التكنولوجية خلق تفاوت بينها وبين الامكانيات الذاتية العربية بغية اعطاء الانطباع بعجز عربي كامن عن قدرة اللحاق ناهيك بسباق وتجاوز القدرة التكنولوجية الاسرائيلية .

ويقع هذا المخطط ضمن استراتيجية صهيونية تعمل على تحويل اسرائيل الى ترسانة عسكرية وانتاجية في الوقت نفسه مثلها مثل كافة الجيوب الاستيطانية الاستعمارية التي ترسخ عندها قناعة باستحالة انتماء مواطنيها الى ما هو أبعد من التقوقع الصهيوني التي تسعى اسرائيل والعقيدة الصهيونية الى سجن مواطنيها فيه .

الا أنه مهما بالغت اسرائيل في تصميمها في تحويل نفسها الى ترسانة عسكرية تكنولوجية ، تبقى حقيقة واقعية وهي ان موازين القوى في المنطقة ، في المدى المتوسط والبعيد ، لن تبقى في واقعها الراهن وان موازين القوى لن تترجح في صالح العرب فقط من خلال التوجه الوحدوي والتأييد الدولي للقضايا العربية والقبول العالمي بحقوق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره بل ان أحد العوامل الرئيسية في حسم عملية ترجيح موازين القوى لصالح العرب يكمن في الثورة العلمية والتكنولوجية الآخذة بالتحقيق والتي لاحت بوادرها في عدد من الاقطار العربية والتي ترتكز لا على الجواب القومي الشامل على التحدي الصهيوني فحسب ، بل على ما تنطوي عليه الثورة التكنولوجية من امكانيات تفجير طاقات التحرر والتنمية والتحول الاجتماعي الجذري في بنية المجتمع العربي .

فالامة العربية بالاضافة الى ان عدد سكانها يتجاوز ١٣٠ مليون نسمة وان دخلهم

القومي أخذ يتزايد حتى يكاد يبلغ نحو ٦٠ مليار دولار فانه يوجد في الوطن العربي نحو ٦٠٠ الف خريج جامعة ــ هذا الواقع ــ طاقة بشرية ، مال متوفر ــ يعطي العرب اذا توفرت خطة عربية عامة تلتزم بها الاقطار العربية التزاما تنفيذيا وليس لفظيا، الامكانية الكفيلة بتأمين النهضة العلمية المطلوبة .

فالذي ينقصنا هو القرار السياسي بتنسيق وتدعيم مؤسسات البحث العلمي وتعزيزها حتى تصبح متناسبة مع واقع التحديات العلمية الراهنة ومتهيئة لتقبل مستمر للجديد وللمتغير وتمكين العلماء العرب ايضا من المساهمة النشطة في التنقيب والبحث بجو من الحرية والمساهمة الناشطة في المؤتمرات العلمية الدولية كما لا بد ان تتشجع الهيئات العلمية الدولية لاقامة المؤتمرات الدولية في الاقطار العربية . كذلك يتطلب التخطيط العلمي العربي ان تكون برامج البحث العلمي متكاملة على الصعيد القومي ومكملة بعضها لبعض من خلال هيئة تخطيط عربية لمنع التكرار وتنظيم المجهودات البحثية العلمية .

يضاف الى ذلك ان مؤسسات البحث العلمي والتكنولوجي يجب ان تنعتق من مقتضيات الروتين البيروقراطي الذي يقعد الباحث لا عن الانتاج فقط بل عن الابداع أيضا .

في هذا المضمار يجب أن يتوفر المناخ العلمي العام الذي يتيح للعلماء والتقنيين العرب فرص متابعة آخر النتائج العلمية وأن تكون له الضمانات التي تجعل التزامه بالنهضة العلمية في بلاده لا فقط رسالة مهنية بل رسالة اجتماعية أيضا .

ولا بد ان ندرك أيضا ان تحرير البحث العلمي من البيروقراطية المتزمتة ومن الروح الوظيفية الضيقة يعني أن لا بد أن يكون في هذا المجال وخاصة في المرحلة الاولى من النهضة العالمية الكثير من التجربة والخطأ . فقد أدرك العدو الاسرائيلي مثلا هذه الحقيقة اذ تبين ان ٣٠ ٪ فقط من الابحاث التي تجري في اسرائيل يستفاد منها بينما لا يستفاد من الـ ٧٠ ٪ الباقية عمليا ولكن الـ ٣٠ ٪ تغطي نفقات جميع الابحاث وأكثر(٨٩) فمردود مؤسسات البحث العلمية لا يكون فوريا أو سريعا ولكنه يأتي بنتائج ملموسة ومتعاظمة اذا نحن وفرنا له الامكانيات البشرية والمادية واذا جاء القرار السياسي نتيجة لتشبعه لا بضرورة البحث العلمي فقط بل بالمناخ العلمي المطلوب .

وهكذا يتضح انه اذا رصدنا الطاقات المتوافرة في الامة العربية لوجدنا التبرير الكافي لتفاؤلنا بحتمية التفوق العربي وبمساهمة الثورة العلمية العربية في معركة المصير مع الصهيونية والتخلف .

---

١ ــ Antoine Zahlan, «The Science and Technology Gap in the Arab-Israeli Conflict», *Journal of Palestine Studies*. Vol.1 No 3, (Spring 1972), p. 24.

٢ ــ Riad Ashkar and Ahmed Khalidi, *Weapons and Equipment of the Israeli Armed Forces*, (The Institute of Palestine Studies, 71 p. 2 .

٣ ــ زحلان ، ص ٢٨ .

٤ ــ Antoine Zahlan, *Science and Higher Education in Israel*, (The Institute for Palestine Studies, 1970, p.9.

٥ ــ Leopold Laufer, *Israel and the Developing Countries : New Approaches to Cooperation*, (Twentieth Century Fund, New York, 67,

ومجلة *Israel Today* ١٩٦٨/٥/١٧ .

٦ ــ **معاريف** ، ١٩٧١/١٢/١٢ .

٧ ــ المصدر نفسه .

٨ ــ زحلان ، *Science and Higher Education* ص ٨٥ .

٩ ــ **دافار** ، ١٩٧٣/٦/٢٦ .
١٠ ــ زحلان ، المصدر نفسه ، ص ٤٣ ــ ٥٠ .
١١ ــ **يديعوت احرونوت** ، ١٩٧٣/١/١٩ .
١٢ ــ *Near East Report* ١٩٧٢/١١/٨
١٣ ــ **معاريف** ، ١٩٧٣/٥/٢٢ .
١٤ ــ (The Institute for Strategic Studies, London, 1962) «The Spread of Nuclear Weapons» ص ١٦٩ ــ ١٧٠
١٥ ــ فؤاد جابر ، **الاسلحة النووية واستراتيجية اسرائيل** ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، ١٩٧١ ، ص ٢٢ ــ ٢٤ .
١٦ ــ *The Israel Economist* ، كانون الثاني ١٩٧٣ ، ص ٢٧ .
١٧ ــ فؤاد جابر ، ص ٤٣ ــ ٥٢ .
١٨ ــ المصدر نفسه ، ص ٥٤ ــ ٥٧ .
١٩ ــ اليونسكو ، **الدليل العالمي للهيئات التي تضع السياسة العلمية الوطنية** ، المجلد ٢ ، ص ٦٦ (١٩٦٨).
٢٠ ــ فؤاد جابر ، ص ٦٢ .
٢١ ــ زحلان ، *Science and Higher Technology* ص ١٠٩ ــ ١١١ .
٢٢ ــ المصدر نفسه ، ص ١١٣ .
٢٣ ــ المصدر نفسه ، ص ١١٤ ــ ١١٥ .
٢٤ ــ زحلان *The Science and Technology* ص ٢١ .
٢٥ ــ **عال همشمار** ، ١٩٧٤/٨/١٢ .
٢٦ ــ **معاريف** ، ١٩٧٣/٦/٨ .
٢٧ ــ **دافار** ، ١٩٧٤/٩/٤ .
٢٨ ــ **هآرتس** ، ١٩٧٤/٤/٣٠ .
٢٩ ــ **دافار** ، ١٩٧٤/٣/٢٧ .
٣٠ ــ المصدر نفسه .
٣١ ــ **يديعوت احرونوت** ، ١٩٧٤/٩/٤ .
٣٢ ــ **دافار** ، ١٩٧٤/٩/٤ .
٣٣ ــ **جيروسالم بوست** ، ١٩٧٣/٢/١٣ .
وراجع نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، ١٩٧٣/٣/١ .
٣٤ ــ المصدر نفسه .
٣٥ ــ رياض الاشقر ، واحمد الخالدي ، المصدر السابق .
٣٦ ــ **نشرة م. د. ف.** ، ١٩٧٣/٦/١ و ١٩٧٣/٥/١٦ .
٣٧ ــ Dale R. Tahtinen, «The Arab-Israeli Military Balance Since October 1973, American Enterprise Institute for Public Policy Research, (Washington D. C., 1974) ص ٢٣ .
٣٨ ــ **جيروسالم بوست** ، ١٩٧٣/٥/١١ .
٣٩ ــ رياض الاشقر واحمد الخالدي ، ص ١٣ .
٤٠ ــ المصدر نفسه ، ص ٢٠ ــ ٢٢ .
٤١ ــ **نشرة م. د. ف.** ، ١٩٧٣/٦/١ و ١٩٧٣/٥/١٦ .
٤٢ ــ المصدر نفسه .
٤٣ ــ رياض الاشقر واحمد الخالدي ، ص ٢٥ .
٤٤ ــ **جيروسالم بوست** ، ١٩٧٣/٤/١٢ .
٤٥ ــ Aviation Week and Space Technology ، ١٩٧٣/١٠/١٥ ، ص ٢٠ .
٤٦ ــ **نشرة م. د. ف.** ، ١٩٧٣/٦/١ و ١٩٧٣/٥/١٦ .
٤٧ ــ المصدر نفسه ، ١٩٧٣/٢/١٦ .
٤٨ ــ **واشنطن بوست** ، ١٩٧٣/٢/٥ .
٤٩ ــ **نشرة م. د. ف.** ، ١٩٧٣/٣/٢١ .
٥٠ ــ المصدر نفسه ، ١٩٧٣/٨/١٦ وراجع ايضا *Aviation Week and Space Technology* ، *Armed Forces Journal*, ١٩٧٢/١١/٦ ، ١٩٧٢/٣/١٥ .
٥١ ــ **معاريف** ، ١٩٧٢/٧/٢٣ و ١٩٧٢/٧/٢٥ .
٥٢ ــ المصدر نفسه .
٥٣ ــ رياض الاشقر واحمد الخالدي ، ص ٤٢ .
٥٤ ــ **نشرة م. د. ف.** ، ١٩٧٣/٣/١٦ .
٥٥ ــ المصدر نفسه .
٥٦ ــ **نشرة معهد الدراسات الاستراتيجية** ، (لندن ١٩٦٩) .
٥٧ ــ *Aviation Week and Space Technology* ، ١٩٧١/٤/٢٦ .
٥٨ ــ **هآرتس** ، ١٩٧٣/١/١٣ .
٥٩ ــ *Aviation Week and Space Technology* ، ١٩٧٣/٣/٢٦ .
٦٠ ــ **نشرة م. د. ف.** ، ١٩٧٣/٦/١٦ .
٦١ ــ تاهتينن ، ص ١٥ .
٦٢ ــ رياض الاشقر واحمد الخالدي ، ص ٦١ .
٦٣ ــ **معاريف** ، ١٩٧٤/٩/٢٤ .
٦٤ ــ **نشرة م. د. ف.** ، ١٩٧٣/٨/١٦ .
٦٥ ــ المصدر نفسه ، ١٩٧٣/٦/١٦ .
٦٦ ــ تاهتينن ، ص ٧ و١٥ وراجع ايضا *Aviation Week and Space Technology* ، ١٩٧٣/١٠/١٥ .
٦٧ ــ رياض الاشقر واحمد الخالدي ، ص ٣٥ .

٦٨ — *Ordinance* ، أيلول — تشرين الاول ١٩٧٢ ، ص ١٢٧ .

٦٩ — تاهتينن ، ص ١٥ Dale R. Tahtinen, *The Arab-Israeli Balance* (Washington D. C., 1973) ص ٣٣ .

٧٠ — *Aviation Week and Space Technology* ١٩٧٢/٧/٣ .

٧١ — المصدر نفسه ، ١٩٧٣/٥/٣٠ .

٧٢ — تاهتينن ، المصدر الاول ، ص ١٦ .

٧٣ — المصدر نفسه ، ص ١٥ وراجع **نشرة م. د. ف.** ، ٥/١٦ و١٩٧٣/٦/١ .

٧٤ — **دافار** ، ١٩٧٣/٧/١ .

٧٥ — نفس المصدر .

٧٦ — *Science Based Industries in Israel,* Israel Aliyah Centre, Nov. 1968, p. 4.

٧٧ — *Jewish Digest* ، **تموز** ١٩٧٢ ، ص ٧٣ .

٧٨ — **دافار** ، ١٩٧٣/١/١٤ .

٧٩ — *Aviation Week and Space Technology* ١٩٧٣/٥/٢٨ .

٨٠ — المصدر نفسه ، ١٩٧٣/٣/٥ .

٨١ — **يديعوت احرونوت** ، ١٩٧٤/٩/٥ .

٨٢ — **معاريف** ، ١٩٧٣/٦/٧ .

٨٣ — المصدر نفسه ، ١٩٧٣/٤/٢٧ .

٨٤ — المصدر نفسه ، ١٩٧٤/٩/١٩ .

٨٥ — *Israel Industry, Commerce and Export News.*
كانون الاول ١٩٧٣ ، ص ٣ وراجع ايضا *Israel Export and Trade Journal*
أيلول / تشرين الاول ١٩٧٢ ، ص ٧ .

٨٦ — *Business Diary* ، ١٩٧٢/٧/١٩ ، ص ٤٠٩ .

٨٧ — *Israel Export and Trade Journal,* كانون الثاني / شباط ١٩٧٢ .

٨٨ — *Israel Industry, Commerce and Export News.*
أيلول / تشرين الاول ، ص ٩ — ١٠ .

٨٩ — **معاريف** ، ١٩٧٣/٢/٥ .

التصنيع الحربي العربي
امام تحدي الصناعة الحربية الاسرائيلية

طارق الصوّاف

خلال السنوات القليلة الماضية ، تنبهت معظم الاقطار العربية الى اهمية التصنيع الحربي العربي من حيث تحرير الارادة العربية من ضغوط مصادر السلاح ومصالحها ، ومن حيث الاثر البالغ الذي سيتركه في المستقبل القريب والبعيد على كافة نواحي التنمية الصناعية العربية . وقد ساعد مؤخرا هذا التوجه ، ارتفاع عائدات النفط ، فبدأت دول عربية كثيرة تتنادى لاقامة الصناعات الحربية العربية ، وبدأت ترصد بالفعل ، بعض المبالغ من المال هنا وهناك لهذا الغرض .

غير ان الكثير من المهتمين بشؤون التصنيع الحربي العربي ، بدأ يتساءل عن جدوى هذه المشاريع ومدى ما يمكن ان تحقق من نجاحات ، ويتخوف من ان يكون مصيرها كمصير مثيلها من المشاريع الكثيرة التي باءت بالفشل التام . فالاعتقاد السائد لدى هؤلاء المهتمين ، هو ان الانسان العربي لا زال غير مؤهل لتحمل تبعات التصنيع الحربي العربي بسبب تعقيداته وصعوباته الكبيرة . ان هذا الاعتقاد صحيح الى حد بعيد في الشق الاول المتعلق باهلية الانسان العربي فهو لا زال يفتقر الى الخبرات التقنية الاساسية المطلوبة لاقامة مثل هذه الصناعات وعلى الاخص الكوادر التقنية الوسطية ، ولكنه خاطىء في شقه الثاني من حيث تعقيدات الصناعات الحربية ، والعكس هو الصحيح في معظم الحالات . فتصنيع جرار كبير من طراز كاتربيللار مثلا ، هو اكثر صعوبة وتعقيدا من تصنيع دبابة من ذات الوزن ، كما ان تصنيع اسطوانة هيدروليكية يحتاج الى دقة اكبر من تصنيع سبطانة مدفع له نفس الحجم . اما سبب ذلك فيعود الى ارتفاع « عامل السلامة » (Safety factor) في تصنيع السلاح مما يسمح بحصول بعض الاخطاء التصنيعية ، بينما « عامل السلامة » المنخفض في الصناعات المدنية لا يساعد اطلاقا على السماح بحصول الاخطاء نفسها .

ما دامت طبيعة التصنيع الحربي لا تختلف عن طبيعة التصنيع المدني وقد يكون اقل تعقيدا كما اسلفنا ، لماذا يتخلف التصنيع الحربي العربي عن التصنيع المدني بهذا الفارق الهائل ؟ الجواب على هذا السؤال بسيط وما علينا إلا ان نعرف واقع التصنيع المدني العربي فيتبين لنا السبب بسهولة . يتولى اقامة مشاريع التصنيع المدني في الوطن العربي حتى يومنا هذا ، حكومات او مؤسسات اجنبية ، بدءا من اصغر صامولة الى اعقد آلة فيها . فالخبراء الاجانب يقومون بانجاز كافة الامور : انهم يضعون الدراسات الاولى والتصاميم ويضعون المعدات ومن ثم يتولون بناءها وتشغيلها ، وما على المهندسين والعمال العرب من مجهود يشاركون به سوى امور الصيانة اضافة الى الضغط على الازرار ، لتعمل الآت المصنع اوتوماتيكيا وتنجز ما هو مطلوب منها . فمشاركة الانسان العربي ليست مشاركة اساسية فعلية اذن في

عمليات اقامة مشاريع التصنيع المدني ، ولهذا لم تتوفر في الوطن العربي حتى الان ، تلك القاعدة الصناعية البشرية المؤهلة للمساهمة في اقامة مشاريع التصنيع الحربي العربي والتي ترفض الحكومات والمؤسسات الاجنبية المساهمة في اقامتها رفضا قاطعا في معظم الحالات والظروف . بسبب هذا الواقع يتخلف التصنيع الحربي العربي عن التصنيع المدني بهذا الفارق الهائل ، فالصناعات المدنية في الوطن العربي لا زالت صناعات اجنبية التصميم والتنفيذ والتطوير ، وهي بحاجة ماسة لان تصبح عربية في كافة نواحيها الاساسية من اجل خلق هذه القاعدة الصناعية السليمة التي تستطيع تحمل مسؤوليات اقامة مشاريع التصنيع الحربي العربي وتطويرها .

من خلال هذا الواقع ، علينا ان نضع حلولا جديدة جذرية لحل مشاكل التصنيع المدني والحربي ، وقد تبدو هذه الحلول غريبة مستهجنة اذ لا تتوافق مع الحلول الاخرى المطروحة . لهذا ، ندعو كافة المهتمين في هذا الحقل ، الى تدارسها ومناقشتها بتوسع مع مزيد من التأمل والتمحيص ، لعلنا نستطيع المساهمة في اشادة القاعدة الصناعية البشرية ــ المادية التي تقوم عليها مؤسسات التصنيع الحربي العربي المتقدمة في المستقبل القريب .

الصناعة الحربية الاسرائيلية ومنجزاتها

قبل طرح اي تصورات لمستقبل الصناعة الحربية العربية ، علينا ان نتعرف اولا على ملامح الصناعة الحربية الاسرائيلية وانجازاتها وما يمكن ان تحققه في المستقبل القريب والبعيد .

بعد عام ١٩٤٨ ، حققت الصناعة الحربية الاسرائيلية تقدما ملموسا واضحا كان له أثر كبير على القدرة الحربية الاسرائيلية في معظم الحروب العربية ــ الاسرائيلية . فخلال السنوات العشرين المنصرمة ، قامت صناعات حربية متقدمة في الوطن المحتل، بعدما توفرت لها الخبرات المختلفة بكل كوادرها عن طريق الهجرة المستمرة بين اليهود الاوروبيين والاميركيين الى فلسطين ، واصبحت هذه الصناعات الان ، الى جانب انتاجها الاعتدة والاسلحة ، توفر كل او معظم الكوادر التقنية المطلوبة عن طريق برامج التدريب المدروسة المختلفة . وقد يكون هناك خلاف حول الدور الاميركي ــ الاوروبي في مساعدة الصناعة الحربية الاسرائيلية على النهوض ، ولكن مما لا شك فيه ان هذه الصناعة تعتمد الان بصورة اساسية على امكاناتها الذاتية وان المساعدات الاميركية ــ الاوروبية لم تعد الان ، تشكل الركيزة الاساسية في هذه الصناعة .

وبجانب الصناعة الحربية الانتاجية هناك صناعات لا تقل عنها أهمية هي صناعات تطوير الاسلحة القديمة والحديثة التي تشرف عليها وتقوم بها المؤسسات العلمية التطبيقية امثال التكنيون ورحبوت والجامعات الاخرى بالتعاون مع مؤسسات صناعية حربية ومدنية مختلفة . اضافة الى ذلك ، تقوم المؤسسات العلمية ــ التطبيقية بالتعاون مع خبرات اميركية واوروبية مستقطبة بمهام تصميم الاسلحة الجديدة وصنع نماذج لها واختبارها ، ومن ثم دفعها للانتاج عن طريق المؤسسات الصناعة الحربية المختلفة .

اما منجزات الصناعة الحربية الاسرائيلية ، فان المعلومات التالية توضح لنا اهم تلك المنجزات ، وهي مقتبسة مما نشر في مراجع اجنبية تهتم بشؤون التسليح ، وكلها لا تمثل بالتأكيد ، كافة نشاطات الصناعة الحربية الاسرائيلية الحالية . وكما ذكرنا آنفا ، يمكن تقسيم هذه المنجزات الى ثلاث فئات :

* الفئة الاولى هي فئة الصناعات الحربية الانتاجية المقلدة للاسلحة الاميركية والاوروبية وتحوي صناعات الذخائر بدءا من ذخيرة المسدسات وانتهاء بأثقل قذائف المدفعية ، كما تحوي صناعات : بنادق الناتو ، ومدافع الهاون على اختلافها ، ومدافع ١٠٦ ملم عديمة الارتداد ، ومدافع الهاوتزر ١٥٥ ملم البريطاني التصميم . أما صناعة الزوارق الحربية فظهرت بتصنيع زوارق « رشاف » و « كيشيت » وهما نوعان متشابهان يصنعان في اسرائيل ويشبه تصميمهما تصميم الزوارق الفرنسية نوع سار التي سرقت من ميناء شاربورغ عام ١٩٦٦ وزنة كل منهما ١٨٥ طنا ويحمل طاقما مؤلفا من (٤٥) ملاحا ، ومزود بصواريخ بحر — بحر من طراز جبرييل وصواريخ سطح — جو وطوربيدات تحت الماء .

وتحوي صناعة الطائرات صنع طائرة وست وند رقم ١١٢٣ وهي طائرة نفاثة ذات محركين تتسع لعشرة ركاب مع ملاحين ، وكانت اسرائيل قد اشترت المعمل الذي ينتجها من شركة روكويل مع امتياز تصنيعها . وعدلت تصاميمها بحيث اصبحت النماذج الجديدة منها تستعمل لاغراض الشحن . وتقوم اسرائيل حاليا بتسويق هذه الطائرة في اميركا الشمالية ، واتفقت مع المكسيك على اقامة مركز لصيانتها هناك .

اما طائرة عرافا رقم ٢٠١ العسكرية ، فانها طائرة توربينية تنتج في اسرائيل وتستعمل حاليا للنقل العسكري والمدني ولمهام عسكرية اخرى مثل حراسة الشواطىء وكشف الغواصات والسفن المعادية ومهاجمة الاهداف الارضية البسيطة . تزود هذه الطائرة بالرشاشات وبقنابل زنة (٢٥٠) رطل انكليزي . اما الطراز ١٠١ المدني فيستخدم في النقل الجوي المدني الداخلي من قبل شركة « اركيا » .

وهناك طائرة « باراك » وهي طائرة حربية نفاثة انتجت في اسرائيل لتلبي احتياجات سلاح الطيران المتزايدة ، محركها اميركي الصنع من نوع جنرال الكتريك J 79 - GE - 11 اي النوع المستعمل على طائرة الفانتوم ، وقوة دفعه تساوي (٨١٢٠) كغ . اما هيكلها فهو شبيه بهيكل طائرة الميراج — « ٣ س » ، ولقد ادعت اسرائيل ان هذه الطائرة شاركت في معارك حرب رمضان الاخيرة ، لكنه لم تتوفر اية معلومات تؤكد ذلك . ونظرا للصعوبات المالية ، فيشك في قدرة العدو على مواصلة انتاجه لهذه الطائرة اذا ما تم انتاجها فعلا . كما انها تحوي صناعة قطع غيار الطائرات فهناك معمل في شمال فلسطين المحتلة في قرية « الكابري » ينتج معظم قطع غيار الطائرات النفاثة . وتقوم في اسرائيل مصنع لانتاج ناقلات للجنود متوسطة الحجم نوع (م ٢) . كذلك هناك الصناعات الالكترونية المتقدمة التي تؤمن للصناعة الحربية الاسرائيلية معظم احتياجاتها في هذا المجال(١) .

* الفئة الثانية من الصناعات الاسرائيلية هي فئة صناعات التطوير الحربي ، وتشمل مدافع الهاوتزر حجم ١٥٥ ملم المحمولة على اجسام دبابات فرنسية نوع AMX 13 ، وتشمل كذلك تطوير الدبابات الروسية نوع ت ٥٤ و ت ٥٥ فقد تم تغيير مدافعها عيار (١٠٠) ملم بمدافع جديدة من عيار ١٠٥ ملم مع اجراء تحويرات اخرى عليها . كما تم ايضا تغيير مدفع دبابة « باتون » عيار (٩٠) ملم بمدفع جديد عيار (١٠٥) ملم ، وتبديل محركها الذي يعمل بالبنزين بمحرك آخر يعمل بالديزل من نوع « كونتيننتال » . وبالنسبة لدبابة « سوبر شيرمان م ٤ » فقد تم تبديل مدفعها

---

(١) انظر شؤون فلسطينية عدد ١٧ ، **الصناعة الالكترونية في اسرائيل** .

من عيار ٧٥ ملم بمدفع من عيار (١٠٥) ملم مع تبديل محركها الذي يعمل على البنزين بآخر يعمل على الديزل . وكذلك الامر مع مدافع دبابات سنتوريون مارك ٥ و ٧ و ٨ عيار (٢٠) رطل فقد استبدل بمدفع اخر من عيار (١٠٥) ملم مع تبديل محركها الذي يعمل بالبنزين بآخر يعمل بالديزل .

اما تطوير الطائرات فيشمل طائرة « ستراتوكروزر » وهي طائرة من طراز بوينغ (٣٣٧) جرى تطويرها لتصبح صهريج نقل جوي لتموين الطائرات المقاتلة النفاثة بالمحروقات في الجو ، وتستعمل كذلك لنقل المظليين . وهناك طائرة « فو جاميستير » وهي طائرة فرنسية تجمع اجزاؤها في اسرائيل بعد ان اجرت عليها تطويرات كثيرة ، وقد انتجت منها حوالي مئة (١٠٠) طائرة وتستخدم اساسيا في التدريب النفاث المتقدم .

* الفئة الثالثة هي فئة صناعات الاسلحة المصممة كليا في اسرائيل . وتشمل صناعة البنادق من نوع « عوزي » و « جليل » ، كما تشمل صناعة مدافع الهاون الخفيفة الوزن التي يستعملها المظليون ومدافع الهاون الثقيلة من عيار (١٦٠) ملم . وهناك صناعة الصواريخ من نوع « جبرييل » وهو صاروخ سطح ــ سطح يطلق من على ظهر الزوارق والسفن الحربية . يبلغ مداه الان (٢٠) كم وتحاول الصناعة الحربية الاسرائيلية ادخال تعديلات عليه بحيث يزداد مداه الى (٤٠) كم . هناك ايضا صاروخ « اريحا » وهو صاروخ تكتيكي أرض ــ أرض ومداه يبلغ (٤٠٠) كم .

اما الصناعات النووية فان المعلومات الدقيقة المتوفرة حولها ضئيلة جدا بالرغم من كل ما نشر في هذا المجال حتى الان .

العرب ومستقبل الصناعة الحربية الاسرائيلية

ان من الصعب وضع تصور معين لمستقبل الصناعة الحربية الاسرائيلية ، وذلك بسبب المتغيرات الكثيرة في ميزان القوى العربي ــ الاسرائيلي ، فللمعركة بين العرب واسرائيل جوانب اقتصادية وسياسية اضافة الى الجانب العسكري ولا يستطيع اي امرىء قطعا ، ان يتنبأ بماهية هذه المتغيرات خلال فترة السنوات العشر القادمة والتي ستؤثر على مستقبل الصناعة الحربية الاسرائيلية سلبا او ايجابا .

ولكن على افتراض ازدهار وتقدم الصناعة الحربية الاسرائيلية كما ونوعا خلال فترة العقد القادم ، وهو الافتراض الاسوأ بالنسبة للعرب ، فان ذلك لا يعني سوى المزيد من الجهد والعطاء العربي من اجل اقامة الصناعة الحربية العربية المستقبلية على اسس متينة سليمة ، ولا يعني اطلاقا وقوف العرب مكتوفي الايدي في دوامات الحيرة والارتباك .

اهداف الصناعة الحربية العربية

يصنف التصنيع الحربي العربي في سلم الاولويات لدول عربية متعددة ، وهي تجاهد باكثر من طريقة ووسيلة في سبيل اقامة صناعات حربية متقدمة . غير ان اهداف التصنيع الحربي العربي لا زالت غير واضحة البعد والحجم ، فهل نتصنع بغية الوصول الى ما وصلت اليه الصناعة الحربية الاسرائيلية الان ؟ وكم سيستغرق ذلك من الزمن؟ واين تكون الصناعة الحربية الاسرائيلية انذاك ؟ هل نتصنع لمواجهة الآلة الحربية الاميركية والاوروبية التي تمد اسرائيل بما تحتاج من سلاح ؟ وكم سيستغرق هذا من الوقت ؟

ليس هنا من مخطط او جهاز تخطيطي متخصص في هذا الحقل ، يستطيع الاجابة على هذه الاسئلة المحرجة ، لان الاجابات ستكـــون رهن الظـــروف والتطـــورات في الساحة العربية والدولية وهي متغيرات لا يمكن التنبؤ بها منذ الان . لهذا ، لا يمكننا تحديد انواع الاسلحة التي ستقوم الصناعة الحربية العربية بانتاجها خلال السنوات العشر القادمة ، وبالتالي لا يمكننا تحديد مواصفات المصانع الحربية المطلوب اقامتها خلال هذه الفترة القادمة .

ولكن يمكننا التخطيط لاهداف مرحلية لفترة العقد القادم ، حيث يوجـــه التصنيـــع الحربي نحو ايجاد القاعدة الصناعية البشرية ــ المـــادية اللازمـــة لاقامة وتطويـــر الصناعة الحربية العربية في فترة ما بعد السنوات العشر القادمة حين يمكننا انـــذاك البدء بانتاج الاسلحة المتطورة التي نحتاجها في صراعنا ضد العدو الصهيوني .

ومن ضمن هذا الهدف المرحلي يمكن وضع تصورات لكيفية حل مشاكل الصناعـــة الحربية العربية الحالية وكيفية تطويرها في المستقبل . اما التفكير والتخطيط الآن خارج نطاق هذه الاهداف فهو ضرب من سوء التقدير لمستلزمات التصنيع الحربي العربي في هذه الحقبة الزمنية وتصرف ضار بمستقبل التنمية الصناعية العربية بوجه عام .

اوضاع الصناعة الحربية العربية منذ محاولات الثلاثينات حتى وقتنا الحـــاضر

قبل تقييم الصناعة الحربية العربية الحالية ، سنلقي على مسيرتها نظرة متفحصة لنستخلص منها العبر المفيدة في تجنب اخطاء المستقبل . منذ الثلاثينيات قامت في أكثر من قطر عربي ، محاولات متعددة لاقامة صناعات حربية حقق منها القليل نجاحـــات جزئية وباء الباقي بالفشل التام . في احدى تلك المحاولات ، وكان ذلك منذ حـــوالي اربعين سنة ، انفقت مبالغ باهظة على اقامة مشروع حربي لصناعة نوع من الاسلحة الفردية الصغيرة ، وكان أول انتاج له قبـــل سنة فقط ودون المستوى المنشود . وفي محاولة اخرى حصلت تقريبا في نفس الفترة الزمنية ، ما زالت معدات مصنع عتـــاد حربي حتى الان في صناديقها يتآكلها الصدأ ، ومكدسة فوق بعضها البعض في عنابر ضخمة مهجورة .

وصناعة الصواريخ ، فقد انفق عليها في قطر عربي اكثر من مئة وستين مليـــون جنيه ولم يطلق حتى الان ، صاروخ واحد من انتاجها في اي من الحـــروب العربية ــ الاسرائيلية . كذلك حال صناعة الطائرات بالرغم من توفر كافة الاحتياجات البشرية والمادية الرئيسية لها . وقد صادفت بعض المحاولات نجاحات جيدة في مراحلها الاولى، ولكن ما لبث العمل فيها ان تعثر وفشل كليا ، وذلك بسبب فرض الادارات الصناعية عليها فيما بعد ، والتي تفتقر الى الخبرة والشجاعة والنزاهة . وفي اكثر من محـــاولة كان الوضع مترديا وشاذا : فلا هو وضع استعداد وتحضير للانتاج ، ولا هو وضـــع توقف مؤقت عن العمل . كان ذلك اشبه بتمثيلية تستمر فصولهـــا سنوات وسنوات طويلة قد تصل احيانا العشرين .

في المقابل ، قامت ونجحت مشاريع صناعية حربية لا زالت منتجة حتى الان ، منها صناعات المسدسات والبنادق والذخائر وغيرها مما لا يمكن ذكرها بداعي الحـــرص على السرية .

هذه بعض النماذج من المحاولات التي حصلت في ميدان الصناعة الحربية العربية في اقطار عربية متعددة خلال الاربعين سنة الماضية . اما اسباب فشل القسم الاعظـــم

من هذه المحاولات ، فتعود الى امور عديدة مختلفة سنعرض اهمهـا بشكل موجـز وسريع .

قبل الخمسينات ، كانت محاولات التصنيع الحربي تحصـل لاسباب مختلفة قلمـا كانت بدافع وطني صادق . معامل كثيرة اشتريت ارضاء لسياسات اجنبية ، اذ كانت هذه المعامل مهترئة ومستهلكة تماما ، وكان يطلب الى الحاكم العربي دفع ثمنها لدوافع سياسية ويكون الثمن عادة عال . او يشترك بضع تجار متنفذين في صفقات مشبوهة ينالون عليها عمولة معينة بعدما يدفع هؤلاء رشاوى للصحـافة المأجورة من اجـل التهليل والتمجيد بمكان هذا المعمل وفوائده الجمة . هذا ناهيك عن عدم الاهتمـام والجدية بشأن تشغيل المعمل بعد شرائه لو كان في ذلك القليل من النتائج والفوائد .

اما في فترة ما بعد الخمسينات ، فقد كانت هناك جدية صادقة لدى المسؤولين في بعض الاقطار العربية بصدد بناء الصناعة الحربية ، وبذلت جهود كبيرة على مستويات متعددة من اجل انجاح تلك المشاريع . لكن ، لم تكن هناك نتائج ملموسة في معظـم الحالات ، بالمستوى الذي اراده هؤلاء المسؤولون .

كان الخبراء الاجانب عادة يتولون المسؤوليات الرئيسية في اقامة وتشغيل هـذه المشاريع ، ولكنهم كانوا في الوقت نفسه يلتزمون بتعليمات دولهم التي لم تكن في يوم ما ، الا فيما ندر ، تسمح بانجاح تلك المشاريع ، وحتى الدول الصديقة كانت تمانـع وتتهرب من تقديم مساعدات حقيقة في هذا الصدد . ناهيـك عن نوعيـة الخبـراء وخبراتهم ، ففي احد المشاريع الحربية ، وجد ان الخبير الاجنبي المسؤول لسنـوات طويلة عن تشغيل المشروع متخصصا في مجال آخر .

النمط الاكبر في هذا الصدد ، يكمن في المردود النفسي السيء الذي ينعكس عـلى الانسان العربي من جراء استلام الخبراء الاجانب دائما اكبر المسؤوليات والصلاحيات في هذه المشاريع . ان ذلك يولد التشكيك وعدم ثقة الانسان العـربي بنفسه او مـا يسمى « بعقدة تفوق الاجنبي » وبالتالي يولد في ذاته القناعة التامة بعدم قدرته علـى استيعاب تقنيات التصنيع الحربي . محزن ان يبقى الانسان العربي مشلول الارادة ، عديم الثقة بنفسه، معطل العقل ، يقف ويتفرج ويراقب من بعيد ولا يجرؤ على الغوص في بحر هذه التجربة الصناعية .

اما التخطيط لهذه المشاريع او المحاولات ، فكان مرتجلا في معظم الحالات ولا يشمل جميع نواحي مستلزمات العمل . لم تكن هناك خطط بديلة جاهزة لدى فشل اي خطط مرحلية ، كما لم يشتمل على نظام المراقبة التنفيـذ المرحلي وتصحيح الاخطاء حـال حصولها لمنعها من التراكم فتمسي خطرا يهدد مصير المشروع . كذلك ، لم تكن تتوفر في حينها ، تلك الادارات الصناعية الخبيرة في تخطيط واقامة مشاريع التصنيع الحربي الخبيرة في ادارة تلك المشاريع التي اقيمت . وما يحصل كان مجرد حشو لاصحـاب الشهادات المدرسية العديمي الخبرة والكفاءة ، في شتى مراكز السلطة الادارية ، مع ما يتبع ذلك من مشاكل لا تحصى .

من الظواهر الخطرة التي كانت تهدد هذه المشاريع (وجميع مشاريع القطاع العام الاخرى) هي ظاهرة تفشي الامراض الاجتماعيـة ـ الاخلاقيـة في معظم اجهزتهـا الرئيسية ، ولم تكن تلك الادارات بقادرة على التخفيف من نتائج هذه الامراض وكبحها الى الحد الادنى القليل الاذى . فبدلا من ان ينصرف كافـة العاملين والمسؤولين في المشروع الى العمل المثمر الخلاق الضروري لانجاح المشروع ، كان يحصل العكس :

انصراف نحو الطعن بالاخرين والدس عليهم لاقصائهم عن مراكزهم للحلول مكانهم وكانت هذه الامراض كافية لتدمير تلك المشاريع .

واخيرا لا آخر ، يأتي موضوع النقص في الكوادر الوسطية وما كان له من اثر بالغ على تلك المشاريع . لدى بدء العمل على اقامة مشروع حربي ، لم تكن تتأمن له مقدما الكوادر الوسطية الضرورية ، على اساس تعذر تأمينها آنذاك وابقاء تأمينها من ضمن مهام المشروع نفسه . الخطأ الناجم عن تدريب الكوادر الوسطية على هذا النحو ، يكون خطأ قاتلا للمشروع في معظم الاحيان وذلك على الشكل التالي : يبدأ أولا بتدريب الكوادر بالمستويات العادية البسيطة ويستغرق التدريب عادة بضع سنوات ويبقى انتاج المعمل مشلولا خلال هذه الفترة . ومن خلال سير العمل ، تكتشف الحاجة الى تدريب الكوادر بالمستويات الاعلى الوسطية ، وهذا يحتاج الى فترة زمنية من التدريب لا تقل عن بضع سنوات اخرى ، يبقى الانتاج مشلولا خلالها أيضا . في هذه الفترة الزمنية الطويلة من شلل المعمل . تذهب حكومات وتأتي أخرى ويتغير تبعا لذلك الحماس للمشروع وضرورة انجازه وبدئه الانتاج ، ويكون ذلك اما عن حسن نية نظرا لتعثر العمل فترة طويلة واما عن سوء نية بقصد اظهار السلف بمظهر الفاشل لتحميله تبعات عدم نجاح المشروع ومحاسبته وبالتالي ادانته . كل ذلك يقود في النهاية الى تدمير المشروع وبعثرة كافة المجهودات المبذولة وذهابها هباء .

منجزات التصنيع الحربي العربي

لن نذيع اسرارا اذا ما ذكرنا منجزات التصنيع الحربي ، فانها منقولة عن منشورات عالمية متداولة بين ايدي العامة من الناس ، ولكنها لا تمثل بالتأكيد كافة المنجزات نظرا لوجود منجزات محافظ على سريتها حتى الان .

تتوزع في عدة اقطار عربية صناعات الاعتدة الحربية على مختلف انواعها واحجامها بدءا من ذخائر المسدسات وانتهاء بأثقل انواع قذائف المدفعية . أما بقية مشاريع التصنيع فانها موجودة بأكثرها في جمهورية مصر العربية وتتألف من صناعات المسدسات والبنادق والرشاشات الخفيفة والمتوسطة والقواذف المضادة للدروع والدبابات الصغيرة .

هذا هو معظم انتاج مؤسسات التصنيع الحربي العربي من حيث الفولاذ والبارود (الحاجات الصلبة) أما ما تنتجه هذه المؤسسات من خبرات وتقنيات بشرية فهو ليس بالانتاج المقبول ، لا من حيث النوع ولا من حيث الكم ، اذا كان هذا الانتاج من البشر هو من سيتولى بناء وتطوير مؤسسات التصنيع الحربي العربي على اسس متينة وسليمة . ويعود سبب هذا التدني في النوع والكم ، الى أمرين اساسيين : اولا ، ان هذه الصناعات الحربية العربية على قلتها ، لا زالت في الواقع صناعات اجنبية التخطيط والتنفيذ والتطوير ، لم يساهم الانسان العربي في اقامتها مساهمة اساسية ، وثانيا ، ان الادارات والقيادات العاجزة السيئة النية التي تقود هذه الصناعات ، لم تسمح للانسان العربي ان يساهم مساهمة جذرية في تطوير هذه الصناعات وتنميتها ، وهذا بسبب التخلف الاخلاقي — الاجتماعي الذي لا زال ، مع الاسف الشديد ، صفات ملازمة للسواد الاعظم من الشعب العربي .

خلق القاعدة الصناعية البشرية المادية
من خلال اصلاح الوضع الحالي للصناعة الحربية العربية القائمة

ان التخطيط للصناعة الحربية العربية خلال السنوات العشر القادمة يجب ان يتركز

في معظم اوجهه نحو تأمين اقامة القاعدة الصناعية البشرية والمادية السليمة التي ستتولى مسؤوليات التصنيع الحربي العربي المتقدم لفترة ما بعد العقد القادم . واذا ما تجاهلنا هذا التوجه في كافة نواحي التخطيط ، وحاولنا منذ الان ان نشيد صناعات جديدة متطورة جدا ، فاننا سنرتكب خطأ فادحا ونكون كمن يبني قصورا عالية على الرمال . اما اذا كابرنا وتصورنا او صورنا للاخرين ، اننا قد اقمنا بالفعل مثل هذه القاعدة الصناعية المتقدمة والضرورية لاشادة هذه الصناعات الجديدة المتطورة ، فاننا سنسيء ابلغ الاساءة الى قضية التصنيع الحربي العربي وبالتالي الى اماني الشعب العربي وامانيه . علينا ان نتعرف بامانة وتجرد الى مواقع اقدامنا في حقلي التصنيع الحربي والمدني ونبدأ بالتخطيط للتصنيع المستقبلي من هذه المواقع الحقيقية .

وقبل توضيح معالم هذه القاعدة الصناعية وكيفية اقامتها ينبغي توضيح الامور الاساسية التالية : اولا : وجوب الاستعداد والتهيؤ النفسي الكامل من قبل المسؤولين لدفع الثمن الباهظ من السهر والتعب والصبر الى جانب صرف المبالغ الكبيرة من المال ، وثانيا افساح المجال الواسع امام العقل العربي والارادة العربية للعمل دون قيود ومعوقات مهما كان نوعها ، مع قبول كبار المسؤولين وصغارهم . ان حصول الاخطاء التقنية والادارية من قبل اي فرد عامل او مجموعة ، هو امر طبيعي وطبيعي جدا في سبيل اكتساب الانسان العربي كافة الخبرات والكفاءات المطلوبة من أجل خلق هذه القاعدة الصناعية المتينة ، وثالثا ان يفهم هؤلاء المسؤولون ان تقييم عمل الفرد والمجموعة لا يبنى قطعا على اساس حصول او عدم حصول الاخطاء بل يبنى على اساس النتائج النهائية للعمل حسب المعادلة التالية : المردود من الانتاج في مقابل الجهد والمال المبذولين ، آخذين بعين الاعتبار ان المردود من الانتاج ليس ماديا فقط بل هو ايضا الخبرات والتقنيات المكتسبة خلال انجاز الاعمال .

بعد توضيح الامور الاساسية السابقة ، نبدأ بتدارس السبل المؤدية الى قيام هذه القاعدة الصناعية منطلقين من حيث ما وصلت اليه الصناعة الحربية الحالية لاننا اذا ما تجاوزنا منجزاتها وسلبياتها الكثيرة ، نكون قد اضعنا الكثير من الخبرات المكتسبة وهذا خطأ فادح لا يغتفر ، ونكون بالتالي عاجزين عن اصلاح اوضاع هذه الصناعة .

يحوي اصلاح الصناعة الحربية العربية العمالية شقين رئيسيين وهما الانسان والمنشآت . الانسان هو الشق الاهم في صرح التصنيع الحربي والمدني ولنا مثل على ذلك المانيا بعد هزيمتها في الحرب العالمية الثانية ودمار كافة منشآتها الصناعية والحربية . فبقاء الشعب الالماني الذي يحمل في ذاته كافة الخبرات التقنية ، كان سببا لعودة القدرة الصناعية الحربية والمدنية الى المانيا بشقيها الشرقي والعربي بعد عقد ونيف فقط من انتهاء الحرب ! اما الانسان العربي العامل في حقل التصنيع الحربي والمدني فهو للاسف الشديد سلعة ثانوية رخيصة بينما تعتبر الآلة والمنشآت السلع الغالية المقدسة .

لهذا ، سيتوجه الجزء الاعظم من معالجتنا الاوضاع الحالية للصناعة الحربية العربية ، الى هذه السلعة الرخيصة ، الى هذا الانسان العربي العامل في تلك المؤسسات والى ما يعاني من صعوبات ومشاكل وخيبات أمل عظيمة .

أول ما ستطرحه هذه المعالجة هو افتقار مؤسسات التصنيع الحربي لاجهزة الرعاية التي تشمل جميع النواحي الانسانية والمادية بلا استثناء . فنشدد هنا على وجوب تأمين أجهزة الدعاية المخلصة الامينة الواعية ، ليخلق لدى جميع كوادر

العاملين ، الشعور بالكفالة والاستقرار والامن والحماية وعلى الاخص الحماية من شرور هؤلاء الطفيليين والانتهازيين المتنفذين واساءاتهم الفظيعة . يتم كل ما تقدم عن طريق اقامة اجهزة الرعاية التي تتمتع بصلاحيات وسلطات تنفيذية واسعة لمراقبة انجازات جميع العاملين بدقة وتجرد ومنع اي فرد او مجموعة من « اغتصاب » انجازات الاخرين مع ما يرافق ذلك من اساءات تنعكس بالنتيجة على العمل والانتاج .

بعد قيام اجهزة الرعاية وممارستها صلاحياتها ، تجري عمليات مسح واستقصاء دقيقة شاملة من أجل تحديد الطاقات البشرية الخلاقة ونوعيات خبراتها غير العادية ، الموجودة في كافة مؤسسات التصنيع الحربي والمدني ومن ثم يصار الى اعادة تنظيم الهياكل الوظيفية للادارات الصناعية المختلفة على اساس وضع هذه الطاقات الخلاقة في مراكز التوجيه والقيادة الصناعية . أما الطفيليون والانتهازيون المتنفذون فيجري نقلهم الى مراكز ثانوية لا تمكنهم من تحقيق الاذى والاساءة لعمليات التصنيع والانتاج والتطوير . في نفس الوقت ، توضع لبقية كوادر الايدي العاملة الاخرى في جميع مؤسسات التصنيع ، الخطط المتكاملة الهادفة الى هضم وامتصاص كل كفاءاتهم عن طريق افساح المجال امام الجميع لممارسة حرية التفكير والاختبار والابداع .

يجب ان يرافق هذه الخطوات عملية تثوير واسعة للادارة الصناعية تقضي باطلاق ايدي تلك الادارات من اعلى الهرم الى القاعدة للتصرف بحرية كبيرة خلال تصريفها شؤون التصنيع والبحث والتطوير وذلك عن طريق الاستقلالية المالية لكل مؤسسة واعطائها سلطات ادارية تنفيذية اوسع للابتعاد عن المركزية وتعقيداتها الادارية قدر المستطاع . كذلك يتحتم على الادارة الصناعية ان تخرج من نطاق روتين اجتماعات اللجان واتخاذ القرارات باكثرية الاصوات وتنتقل الى نظام فرق العمل Team Work حيث يرأس كل فريق خبير قدير يكون مسؤولا عن كافة اعمال الفريق اتجاه رؤسائه . بهذا الاسلوب تحدد المسؤوليات ويسهل تقييم النتائج حيث تكافأ الانجازات وتحاسب الاعمال الفاشلة .

كذلك ، يجب ان ينال التدريب الصناعي بشكل عام قسطا كبيرا من اهتمام المسؤولين ، وعلى الاخص ما يسمى منها بالكوادر التقنية الوسطية . ان المعمل هو المؤسسة الوحيدة التي تخرج مثل هذه الكوادر ويستغرق ذلك سنوات وسنوات طويلة من التدريب والممارسة من خلال شتى المسؤوليات اثناء عمليات الانتاج الفعلي . ولا تستطيع اي مدرسة صناعية لوحدها ، مهما كان مستوى برامجها عاليا ومدروسا ، من ان تخرج اي فئة من هذه الكوادر الوسطية . يوجه التدريب الصناعي على اساس سد حاجات المصانع القائمة من هذه الكوادر لفترة السنوات العشر القادمة ، وعلى اساس سد حاجات الصناعات الجديدة التي تقام خلال هذه الفترة نفسها . ان الفهم الصحيح الدقيق لطبيعة الخبرات الوسطية المطلوبة ولكيفية الحصول عليها امران مهمان يجب امتلاكهما للتمكن من وضع برامج سليمة للتعليم والتدريب الصناعي ومن معرفة كيفية تنفيذها للحصول على افضل النتائج . وعلى نفس هذا الصعيد ومن أجل غرض التعليم والتدريب الصناعي ، يجب وضع انظمة لتبادل جميع الخبرات التقنية المكتسبة في كافة المجالات ، بين كافة الكوادر وفي جميع مؤسسات التصنيع الحربي ، من اجل زيادة كفاءة هذه المؤسسات . ويمكن أن تطور مثل هذه الانظمة الى نظام أعم للتثقيف الصناعي الحربي (والمدني) يلعب دورا خطيرا جدا في عملية دفع عجلة الصناعة الحربية والمدنية الى الامام . وتبرز اهمية وخطورة التثقيف الصناعي الان

نظرا لانعدام التعريب والتأليف الصناعي وفقر المكتبة العربية المختصة بشؤون التصنيع في هذه الناحية .

بخصوص المؤسسات التصنيعية القائمة التي تعاني من مشاكل حادة من نوع او آخر ، فيتبقى ان يعاد تقييم اوضاعها والتخطيط لعملها من جديد . وهنا نود ان نشير بشكل واضح الى مشكلة التخطيط الصناعي الحربي في الوطن العربي وما يسمى بأعناق الاختناق التي تواجه المخططين . ان من الخطأ اعتبار مبادىء التخطيط المتبعة في دول العالم الصناعي صالحة للتطبيق في مشاريعنا الحربية والمدنية وذلك بسبب اختلاف الظروف والمعطيات بيننا وبين دول العالم الصناعي . هناك تهمل التفصيليات التصنيعية الصغيرة (وهي العمليات الصناعية الصغيرة التي تؤلف مع بعضها عملية التصنيع الكاملة) اثناء التخطيط لمشاريعهم التصنيعية الحربية والمدنية ، بينما يؤدي اهمال التخطيط في بلادنا لمثل تلك التفصيليات الى فشل المشاريع ودمارها .

ان عدم توفر الكوادر التقنية الوسطية في الوطن العربي التي تتولى تنفيذ كافة العمليات الصناعية يجعل من تلك التفصيليات التصنيعية اعناق اختناق خطيرة تقود كامل المشروع الى الفشل والدمار . لهذا ، يجب اعادة تخطيط المشاريع القائمة المتعثرة الخطى ، على اسس واقعية تأخذ بعين الاعتبار كافة مراحل عمل المشروع مع تفصيلياته التصنيعية المختلفة وحسب الظروف الموضوعية من الناحيتين البشرية والمادية ، ويؤكد على عدم وجود اعناق اختناق من اي نوع كانت . كذلك يجب ان يحوي التخطيط لكل مؤسسة نظاما جيدا للمراقبة وتصحيح الاخطاء ومنعها من التراكم لئلا تصبح اخطاء قاتلة .

اما الناحية المادية من درسنا اوضاع الصناعة الحربية العربية ومحاولة تصحيحها ، فانها في الواقع ناحية قليلة الاهمية من حيث محاولة تغيير اصناف الاسلحة والاعتدة المصنعة نظرا لكون هذه المصانع في معظمها مصانع متخصصة ومصممة لانتاج انواع محددة من العتاد والسلاح ومن الخطأ محاولة البحث في هذا الشأن . ولكن هناك ناحية بالغة الاهمية من حيث امكانية رفع جودة السلاح وزيادة كمياته المنتجة . اذ يمكننا تحسين جودة الانتاج الى مستوى الصناعات الحربية الاجنبية او حتى الى اعلى من هذا المستوى ، وذلك كي نحافظ على سمعة السلاح العربي بين مختلف رتب الجنود والضباط في القوات المسلحة العربية ، فنزيد من ثقة الجندي بسلاحه وهذا امر كثير الحسنات . تشمل جودة السلاح نواحي عدة ، منها دقة التهديف والرمي على كافة الاهداف التي تقع ضمن مدى السلاح ، وهذا امر يمكن تحقيقه في كثير من الحالات اذا خفضنا « السماحات » اثناء التصنيع ، او اثناء ضبط اجهزة التهديف نفسها . كما تشمل الجودة متانة السلاح ومقاومته للحرارة وعوامل الطبيعة كالصدأ والتآكل ، وكلها امور يمكن العمل عليها وتحسينها باستمرار . ومن ضمن تحسين الجودة ، هناك وزن السلاح ، فكلما خف وزن السلاح كلما افعل واسهل اثناء الاستعمال ، ويمكن تخفيف اوزان كافة الاسلحة المصممة قديما والتي تستعمل انواعا قديمة من سبائك الفولاذ . هناك مثلا مدفعية الميدان الضخمة الروسية الصنع والمستعملة كثيرا في الجيوش العربية ، قد صممت عام ١٩٣٨ على اساس استعمال أجود أنواع الفولاذ المعروف في تلك الفترة . يمكننا الان استعمال انواع حديثة من الفولاذ ذات مواصفات افضل بكثير من تلك الانواع القديمة الصنع هذا النوع من المدافع بأوزان اقل بكثير من اوزانها الحالية . فتزداد فعالية استعمالها كثيرا عما هو عليه الان . يمكن تطبيق هذه الطريقة في انتاج كافة الاسلحة القديمة التصميم

فتتحسن تبعا لذلك جودة السلاح . في الناحية الاخرى ، هنا امكانية لزيادة كميات السلاح المنتج في كل مصنع اذا ما توفرت له الادارات الصناعية الجديدة المؤهلة لتحمل مثل هذه المسؤوليات .

مشروعات التصنيع الحربي الجديدة

أول ما يجب ان يتنبه له المسؤولون عند اقامة مشاريع التصنيع الحربي الجديدة هو عدم الوقوع في أفخاخ ومغريات شراء المصانع ذات الآلات الاوتوماتيكية المعقدة العالية التخصص . اذ أن لدى اجهزة التخطيط والتنفيذ القليلة الخبرة في بلادنا ميل طبيعي دائم لتبني مثل هذه المصانع والآلات نظرا لغزارة انتاجها وانعدام المسؤولية اثناء اقامتها وتشغيلها ، اذ يتولى الخبراء الاجانب عادة كل مثل هذه الامور دوما على هذه الادارات من مسؤوليات سوى الضغط على الازرار . وفي المقابل تظهر هذه الادارات أمام الحكام والمسؤولين الكبار وكأنها حققت المعجزات فتكسب ثقتهم وحظوتهم وتتمكن بهذا من التسلل الى مراكز التوجيه والقيادة وهنا تقع الطامة الكبرى . عمليا ، يصلح هذا الموضوع لان يكون مقياسا لكفاءة وقدرة المخططين في هذا الحقل ، فكلما اتجهوا نحو المكننة المعقدة المتقدمة كلما كانت كفاءاتهم قليلة لانهم يحاولون من خلال هذا التوجيه ، اخفاء النقص في انفسهم . وكما أسلفنا في مقدمة هذا البحث ، فان عيب هذه الآلات المعقدة المتخصصة يكمن في عدم توفيرها فرص اكتساب الخبرات والتقنيات الاساسية من قبل الكوادر العاملة عليها . لهذا يتوجب على كافة المخططين لمشاريع التصنيع الجديدة ان يتجهوا نحو الاكثار من الاعتماد على الآلات التقليدية (القليلة الانتاج) من أجل اكتساب مثل تلك الخبرات الاساسية ، اما الحصول على الانتاج العالي فيتم عن طريق استخدام الاعداد الكبيرة من تلك الآلات فتعوض بذلك عن انخفاض قدرتها الانتاجية وتزيد في نفس الوقت من الايدي العاملة عليها لتوفير اعداد كبيرة من الكوادر التقنية المطلوبة . أما الفوائد الاخرى التي يمكن جنيها من وراء استعمال الآلات غير المتخصصة (الآلات الانتاجية التقليدية) فانها كثيرة . منها امكانية صنع أكثر من نوع من السلاح بواسطة نفس الآلات وسهولة تحويل الانتاج الحربي الى انتاج مدني وبالعكس ، وان تكاليف هذه الآلات اقل بكثير من تكاليف الآلات المتخصصة المعقدة .

الموضوع الثاني الواجب أن يتنبه له المخططون في هذه المرحلة هو الابتعاد ما أمكن عند بدء مشروعات منذ الان لتطوير الاسلحة القديمة او تصميم الاسلحة الجديدة وتصنيعها وذلك لعدة أسباب . أولا لا زالت معظم الخبرات اللازمة لقيام هذه المشروعات غير متوفرة في ظروفنا الحالية ، وثانيا لان الكثير من الخبرات المتوفرة لا يمكن ان يستغنى عنها في حقلي الانتاج والتدريب الصناعي ، وثالثا لان مثل هذه المشروعات تستهلك وقتا طويلا ثمينا من هذه الخبرات لا يمكن المجازفة بها الآن في مشاريع قد تكون او لا تكون منتجة . لذلك يجب ان يقف المسؤولون عن مشاريع التصنيع الحربي الجديدة ، بكل حزم وشجاعة ضد طموحات الحكام وبعض المغامرين من المسؤولين وان يحاولوا قدر استطاعتهم تأجيل قيام صناعات تطوير وتصميم الاسلحة اكبر فترة زمنية ممكنة ، والاكتفاء حاليا بقيام صناعات تقليد الاسلحة فقط . ان التخطيط في المرحلة الحالية والقريبة القادمة يجب ان لا يتعدى صناعات تقليد الاسلحة الشرقية المتوفرة لدى الجيوش العربية بأعداد ضخمة بدءا من الاسلحة الخفيفة وانتهاء بالصواريخ والطائرات ، على ان يؤخذ بعين الاعتبار في تفاصيل التخطيط لكل مشروع جديد توفر كامل المتطلبات لصنع السلاح المطلوب والتأكد من عدم

وجود اعناق اختناق مهما كان نوعها او مصدرها ، كما وان جودة السلاح المصنع يجب ان لا تتدنى عن الحد الادنى من المواصفات العسكرية المسموح بها .

وقد يقول البعض ان هذه الاسلحة الشرقية معقدة وصعبة التصنيع ولهذا ينبغي ان نصمم أسلحة جديدة مماثلة لها وأقل تعقيداً منها ونقوم بعدئذ بتصنيعها . ان هذا الكلام مرفوض جملة وتفصيلا ، لانه اذا كان تصنيع مدفع ميدان عيار ١٥٥ ملم أمرا صعبا ، فهل يعقل أن يكون تصميم مدفع جديد له نفس الكفاءة والقيام من ثم بتصنيعه أمرا أقل صعوبة ؟ ان هذا البعض من الثرثارين لا يعرف شيئا عن الصعوبات الهائلة المرافقة لتصميم الاسلحة الجديدة وعلى المسؤولين في موضع السلطة الا يأخذوا بهذه الترهات او يعيروها آذانا صاغية .

ان القصد الحقيقي من وراء اقامة صناعات تقليد الاسلحة خلال العقد القادم ليس من اجل الحصول على اسلحة اقل كلفة لان العكس هو الصحيح ، ولا من اجل التخلص من ضغوط مصادر السلاح لاننا لن نستطيع في هذه المرحلة من انتاج كافة الاسلحة التي نحتاجها ، بل هو من أجل الحصول على الخبرات التقنية من ضمن التوجه الاساسي نحو اقامة القاعدة الصناعية المستقبلية المتينة .

وهنا نأتي على موضوع الصناعات الاولية في خطط التصنيع الحربي القادمة وهو الامر الحيوي الذي يوفر أسباب ومقومات الاكتفاء الذاتي لكلا الصناعات الحربية والمدنية . ان قيام الصناعات الاولية المختلفة خلال العقد القادم يوفر ، الى جانب ما تقدم ، خبرات وتقنيات عريضة تساهم الى حد بعيد في اقامة القاعدة الصناعية البشرية والمادية التي هي محور الاهتمامات المستقبلية في حقل التصنيع ، وتشمل هذه الصناعات : استخراج الخامات / التعدين وتشكيل سبائك الفولاذ ، الصناعات الكيميائية ، الآلات الدقيقة واجهزة المراقبة ، اجزاء المعدات الالكترونية ، آلات الانتاج، آلات انتاج آلات الانتاج وغيرها من الصناعات الاساسية الحيوية .

اثناء كامل فترة العقد القادم من التصنيع الحربي والمدني يجب التأكيد على ضرورة تدريب وتهيئة القيادات الصناعية المتكاملة بكل كوادرها ، وفي مختلف الاختصاصات ، من أجل المساهمة في خلق الصناعات الحربية الجديدة المستقبلية . ان ذلك يتطلب خلق المناخ المناسب العلمي — العملي وتحرير العقل العربي من قيود التجهيل والتخويف وافساح حرية الممارسة لهذه القيادات اثناء تهيئتها وتدريبها .

ومن منطلق خلق القاعدة الصناعية من اجل المستقبل ، تقام مؤسسات البحث العلمي بهدف مساعدة وتنشيط الابحاث والاختبارات العلمية في الجامعات والجمعيات العلمية والمختبرات وكافة المؤسسات الاكاديمية الاخرى . وتنسق كل هذه المجهودات مع حاجات مؤسسات التصنيع الحربي المختلفة من اجل استيعاب كافة الانجازات العلمية البحثية وتحويلها الى نتائج عملية ملموسة . تعطى جميع هذه المؤسسات صلاحيات مالية واسعة للانفاق على نفسها وعلى باقي المؤسسة الاخرى التي تتعاون معها .

وأيضا بنفس هذا التوجه تطور المؤسسات الحالية المعنية بالتطبيقات التقنية ، وتقام الى جانبها مؤسسات جديدة للتطوير التقني الحربي بحيث ان تستوعب هذه المؤسسات اعدادا كبيرة متخصصة من الصناعيين والعسكريين والباحثين النظريين وغيرهم وتكون مهمتها ابداء المشورة للاجهزة العسكرية العربية والمشاركة في وضع الستراتيجيات العربية وتطوير الاسلحة وتعميمها ومن ثم دفعها للانتاج .

الصناعة الحربية العربية في فترة ما بعد السنوات العشر القادمة

ان من الصعب وضع تصور دقيق لمستقبل التصنيع الحربي العربي في فترة ما بعد السنوات العشر القادمة وذلك لعدم القدرة على التكهن بالمعطيات والمتغيرات التي ستحصل للصناعات الحربية العربية خلال العقد القادم والتي ستؤثر انئذ بالتأكيد على توجه ومستقبل التصنيع الحربي العربي . كذلك ، فان الاحتياجات الموضوعية للآلة الحربية العربية انئذ تتعلق مباشرة بالاوضاع العسكرية ــ السياسية الاقتصادية وهي متغيرات لا يتكهن بها احد . لهذا يتعذر علينا وضع اي تخطيط مستقبلي صحيح في هذا الصدد واي شيء غير هذا هو ضرب من الخيال لا يتصل مع الواقع بصلة .

ان الصناعة الحربية العربية لا زالت متخلفة عن الصناعة الحربية الاسرائيلية بأشواط بعيدة ، أولا بسبب امتناع الشركات والحكومات الاجنبية عن المساهمة في اقامتها وثانيا بسبب افتقارها الى القاعدة الصناعية ــ البشرية ــ المادية القادرة على تنميتها وتطويرها ولهذا لا يمكننا اقامة صناعة حربية متطورة قادرة على مواجهة تحديات الصناعة الحربية الاسرائيلية خلال السنوات العشر القادمة ، هذه الفترة التي ستبقى فترة استعداد وتحضير لصناعات المستقبل . يتحقق قيام هذه القاعدة من خلال تصحيح اوضاع الصناعة الحربية الحالية ، واقامة الصناعة الانتاجية المقلدة للاسلحة الشرقية الى جانب اقامة الصناعات الاولية المختلفة. ويكون للانسان العربي المتحرر من كافة قيود الفكر والارادة الدور الاول والاخير في تشييد بنيان التصنيع الحربي العربي وتطويره باستمرار .

صدر عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية

كتاب

القوات المدرعة الاسرائيلية

عبر أربع حروب

بقلم

محمود عزمي

٥٢٣ صفحة باربع لغات فقط

اطلب نسخك من : قسم التوزيع في مركز الابحاث

ص.ب ١٦٩١ ــ بيروت .

غسان كنفاني
طريق الكاتب والمناضل الثوري

افنان القاسم

المقالة التالية قسم من رسالة للدكتوراه يعدها صاحبها في جامعة السوربون الجديدة في باريس تحت اشراف المستشرق اندريه ميكيل .

(١) مرحلتا كفاح التحرر الوطني من ١٩٣٠ الى ١٩٦٥

(أ) الكفاح ضد الاستعمار حتى نكبة ١٩٤٨ (المرحلة الاولى) :

يعتبر تاريخ الشعب الفلسطيني منذ الحرب العالمية الاولى ، تاريخ مقاومته ضد استعمار خبيث ومداج لفلسطين . وبسبب السيطرة المتتابعة لامبراطوريتين استعماريتين ، الامبراطورية العثمانية ، والامبراطورية البريطانية ، رأى الشعب الفلسطيني نفسه ممنوعا منذ عهد طويل أن يقيم كيانا على شكل دولة مستقلة . في هذا الوضع ، البعيد تاريخيا ، كان على الشعب الفلسطيني أن يواجه عدوا آخر جديدا ، لا يريد فقط استعمار البلاد لاسباب سياسية واستراتيجية ، بل أيضا امتلاك الارض نفسها . هذا العدو هو الصهيونية ، وشتى أشكالها من منظمات سياسية وعسكرية ودعائية .

وهكذا فقد تميزت المرحلة الاولى للكفاح من أجل التحرر الوطني بهاتين الجبهتين ضد الاستعمار البريطاني والاستعمار الصهيوني لفلسطين . نذكر تاريخا هاما في عمر هذا الاستعمار المزدوج : التحالف الذي ربط العدوين سنة ١٩١٧ ، والذي عرف منذ ذلك الحين بتصريح بلفور .

لقد ارتكز استعمار فلسطين على شكلين أساسيين ، استطاعا فيما بعد ان يحددا ديالكتيكيا أشكال المرحلة الاولى للمقاومة :

١ ــ سياسيا ، بوعود كاذبة للامبريالية البريطانية من اجل استقلال وطني : « لقد عزا تقرير اللجنة العسكرية الاضطرابات التي حدثت الى يأس العرب من تحقيق الوعود التي قطعت لهم أثناء الحرب بالاعتراف باستقلالهم . والى ثقتهم من أن تصريح بلفور يتضمن عدوانا على حقوقهم في تقرير مصيرهم ، وكذلك الى خشيتهم من أن يؤدي انشاء الوطن القومي اليهودي الى تضخم الهجرة اليهودية تضخما يسفر عن استعبادهم اقتصاديا وسياسيا »(١) .

٢ ــ اقتصاديا ، بشراء الارض من كبار الملاكين الاقطاعيين ، وتقسيمها الى مستوطنات منظمة تحت شكل معسكرات حربية : « وكان المظهر الثاني للتسلط

الصهيوني والتآمر البريطاني هو تسهيل انتقال الاراضي العربية الى اليهود عن طريق القوانين الخاصة وبواسطة تمليك اراضي الدولة وباغراء بعض الاسر الاقطاعية العربية التي كانت تمتلك أراض واسعة بأن تبيع ارضها »(٢) لتتحول الى مستوطنات . « كما ان السلطة الاستعمارية كانت تتغاضى عن وصـــول السلاح اليها ، وتقدم أسلحـــة للمستوطنات من أجل مواجهة نقمة السكان الفلسطينيين ، ومن اجل السيطرة على الموقف في حالة الصدام »(٣).

وتتجسد المقاومة في ذاك التاريخ ، والتي بلغت أوجها في ثورة ١٩٣٦ الشعبية ، عبر معارضة هذين الشكلين الاستعماريين . فالنضال المسلح بين ١٩٣٦ و١٩٣٩ قد وحد للمرة الاولى القوى الشعبية ، وقسما من البورجوازية الوطنية ، وجناحا من الاقطاعية المناهض للاستعمار . وكان هذان الطموحان جوهريين :

١) سياسيا ، بالتعبير الواضح عن الاستقلال الوطني . ومع هذا ، فقد كان شكل هذا التعبير مشروطا ايديولوجيا وسياسيا واقتصاديا ، بالبورجوازية والاقطاعية : « لم تختلف شعارات اللجنة العربية العليا (توحدت القيادات التقليدية في اللجنـــة العربية العليا برئاسة المفتي لتسلم زمام القيادة السياسية) عن شعارات الحـــركة القومية : وقف الهجرة ، ومنع بيع الاراضي ، وانشاء حكومـــة وطنية مسؤولة امام مجلس نيابي »(٤).

٢) اقتصاديا ، بمعارضة كل الطبقات في فلسطين ، والتـــي لا تتفق مصالحهـــا بالضرورة ، للسوق التجاري الذي أقامته الصهيونية ، وامتلاكها للاراضي : « قاوم المواطنون العرب النشاط الصهيوني كله بنشاط مضـــاد : بيع الاراضي بالسياسة المضادة لبيع الاراضي ، والتوسع الاقتصادي الصهيوني بتوسع اقتصادي مضاد ، وبمحاصرة التوسع الصهيوني »(٥).

وهكذا فقد كانت ثورة ١٩٣٦ — ١٩٣٩ مشروطة بشكل عدوان استعماري نطلق عليها مصطلح **النضال ضد الاستعمار** . وان الصيغ الايديولوجية لهذا النضال تستلفت النظر بشكل واضح للطبيعة المحدودة التي يتميز بها نضال كهذا . ولا يكمن ذلك فقط في جهل الاسباب الحقيقية للاحتلال ، ولكن أيضا في أشكاله الدينية للمقاومة . وما كان ناقصا في هذه المرحلة الاولى ، انما هو العامل الذي يتميز به اليوم نضال الثورة الوطنية الديمقراطية . هذا العامل هو : المعرفة الواضحة والواعية للتقدم الاجتماعي الممكن تحقيقه في آن واحد مع الاستقلال الوطني : « كانت التنظيمات التي قامت في فلسطين بين ١٩١٨ — ١٩٤٠ تنظيمات عشائرية قامت عليها زعامات عائلية تقليدية للمحافظة على زعامتها ، شوهت معالم التنظيم وهاجمت كل ما هو علمي في روح التنظيم ، لان التنظيم المبني على أسس علمية يؤدي بالنتيجة الى زوال تلك الزعامات ، فعملت جاهدة للحيلولة دون قيام منظمات علمية قادرة على مواجهة الاستعمـــار والصهيونية ذات التنظيم الدقيق »(٦). « وهذا يظهر التوجيه الايديولوجي الذي سيطر على الثورة : فالاستشهاد كان غاية الجهاد ، وهكذا لم يكن الكفاح وطنيا بقدر ما كان دينيا »(٧).

ويمكن تفسير ميزات الثورة المحدودة بفشلها، لان اتحاد مختلف الطبقات الفلسطينية المتعارضة لا يمكنه تحقيق أي هدف مهما كان محدودا . ومن ناحية اخرى يمكن تفسير فشل الثورة باستسلام الزعماء الاقطاعيين للجيش البريطاني ، والذي كان من نتيجته عدم الوصول لاي هدف . وعلى العكس ، فقد أظهر الفشل للقوى الشعبية ان عدم تحقيق الاهداف لم يكن الا لاسباب داخلية في جبهة المقاومة . وبالتالي ، لم تذهب عبرة الدرس المسحوب من الثورة سدى ، لانه مدرج في العملية المتطورة للنضوج ، والتي

اثبتت ان الطبقة الاقطاعية عاجزة عن قيادة الثورة : « أما الذين ادعوا النضال من أجل فلسطين من الوجهاء والاقطاعيين فقد كشف أمرهم ... انهم ضعفاء يدعون الذود عن الحمى زورا »(٨). « وهكذا فان تثوير النظرة (بمعنى تحول الوعي السياسي) الذي هو الشرط المسبق لتثوير التنظيم (بمعنى تحول البنى السياسية والعسكرية) لم يصطدم بالتفرقة القائمة فحسب ، بل بالتقليدية الراسخة المعقدة ذاتيا »(٩).

وتميزت الفترة اللاحقة حتى ١٩٤٨ بتدهور حالة الشعب الفلسطيني داخل بلده . فالظروف العالمية قد تغيرت بصفة جذرية ، اذ أن الحرب العالمية الثانية وعملية ابادة اليهود في أوروبا قد سمحتا للصهيونية أن تعمل على ترويج ايديولوجيتها في الغرب : بأن حل المسألة اليهودية في احتلال فلسطين . ولكن ، ولكي تواجه الامبريالية البريطانية احتدام الحرب العالمية ، حاولت بكل السبل التخفيف من توتر مستعمراتها . فكان من جديد ، الوعد باستقلال فلسطين ، بينما جاء الموقف البريطاني تجاه الصهاينة على شكل تنبيه ، للحيلولة دون خطر انقلاب الهدوء العارض المهيمن على أوضاع البلاد . وفي ذلك الوقت ، كانت الامبريالية البريطانية قد ضعفت ، وأخذت الصهيونية تبحث عن حليف قادر يمثل مصالحها ، وجدته في الولايات المتحدة الامريكية . فأقام عدو الشعب الفلسطيني في زاوية جديدة ، وبدأت الحليفتان القديمتان ، بريطانيا والصهيونية ، تنفصلان لحظة أن أخذت هذه الاخيرة في الاعداد لاستبدال القمع الامبريالي بآخر أكثر قوة .

وفيما يخص الشعب الفلسطيني ، لم يكن مهيأ بما فيه الكفاية لحل المشكلتين اللتين طرحتهما ثورة ٣٦ — ١٩٣٩ ، وهما : ١) التخلص من القيادة الاقطاعية في كفاحه ضد الاستعمار والتي انكشف عجزها . ٢) تحديد برنامج عمل دقيق لتحقيق أهداف الكفاح من أجل الاستقلال .

ويجب علينا الالحاح حول الحالة التاريخية لذلك الوقت ، والتي أدت الى ولادة تحالف استثنائي بين الشعوب المستعمرة ومستعمريها لمواجهة خصم أشد خطرا ، ألا وهو الفاشية : « اقتنع الهاشميون — الشريف حسين والامير فيصل وأشقاؤه — بصدق نوايا الامبرياليين البريطانيين الذين كانوا قد وعدوا الشريف بمساعدته على اقامة دولة عربية واحدة تشمل شبه الجزيرة العربية والهلال الخصيب (العراق وسوريا الطبيعية) . وقبلوا فيما بعد بيان الحلفاء الذي صدر في ٨ نوفمبر ١٩١٨ لتبديد الشكوك المتعاظمة في نوايا بريطانيا وفرنسا الامبريالية في المنطقة ، وجاء فيه : (ان السبب الذي من أجله حاربت فرنسا وانجلترا في الشرق هو رغبتهما في تحرير شعوبه من ظلم الترك واستعبادهم وخلاصهم من عسف الالمان ومطامعهم ...)»(١٠).

شجعت هذه الظروف التاريخية اذن ، التوسع الاستيطاني الصهيوني ، وأعاقت اعادة التجمع الثوري لدى الشعب الفلسطيني . وحتى بعد انتهاء التناقض مع الفاشية ، وبعد مواجهة الصهاينة المباشرة لاول مرة ، وجد الشعب الفلسطيني نفسه دوما تحت قيادة الطبقة الاقطاعية . ولكن ، كانت هزيمة ١٩٤٨ هزيمة كلية للانظمة الاقطاعية العربية وللطبقة الاقطاعية ، ونتيجة لذلك كانت سنوات الخمسين تشكل انقطاعا مع ماض عاجز يمكن التعبير عنه سياسيا بسقوط الملكية في مصر وسوريا والعراق .

أما الشعب الفلسطيني ، فقد كانت له الهزيمة مفجعة ، انها الابعاد بالقوة عن الوطن ، وحياة المنفى في مخيمات اللاجئين .

(ب) فترة سنوات الخمسين (الفترة الانتقالية)

١ ــ دياسبورا الشعب الفلسطيني

تندرج حياة غسان كنفاني في السياق التاريخي الذي حددناه . ولد في ٩ نيسان ١٩٣٦ سنة اول ثورة كبرى ضد الاستعمار ، في عكا ، المدينة الحصينة الواقعة شمال فلسطين ، حيث كان أبوه يمارس مهنة محام شعبي . اي انه أمضى شبابه المبكر في فلسطين ، في جو من النضال المتميز بحالة عدم الامن ، والذي ادى الى غزو القوات الصهيونية لعكا .

طردت عائلة كنفاني من بيتها وأرضها ، ومثلت سنوات الخمسين في حياتها عدم الاستقرار الدائم ، اذ أقامت العائلة أولا في الغازية ، قرية من جنوب لبنان ، بعد ذلك في زبداني السورية ، وأخيرا في دمشق .

أما بالنسبة للشعب الفلسطيني ، فقد كانت هذه حالة الالوف من العائلات ، ونصف هذه الفترة **بالتشتت** الاولي ، ثم **بالتجمع** التالي .

لقد تبدلت الحالة جذريا : بلا بلد ، بلا تنظيم دولي (من دولة) ، بلا تنظيم سياسي ، الاحساس بالعار نفسيا ، والحرمان من كل شيء ماديا : « لقد عمق الاحساس بوجود مؤامرة مستمرة ، طرح مشاريع التوطين والتهجير التي حاولت الوكالة القيام بها في الخمسينات بغية محو الهوية السياسية للشعب الفلسطيني ، عن طريق التعامل معه بتحويله من شعب له حقوقه التاريخية والقومية في فلسطين ، الى شعب من اللاجئين »(١١) .

كيف يمكن البدء من جديد في حالة كهذه ؟

يجب على الشعب الفلسطيني أن يعيد تجمعه بشكل آخر يتفق والوضع التاريخي الجديد . ويثبت نجاح هذه المهمة الصعبة دون الانهيار في عملية الدمج مع الجنسيات الاخرى ، ليس فقط طاقة وقدرات القوى الوطنية للشعب الفلسطيني، بل أيضا الارادة الدولية للقوى التقدمية التي يزداد وزنها أكثر فأكثر في العالم . لقد أظهرت سنوات الخمسين في العالم قاطبة تيارا واسعا لحركات التحرر الوطني ، وان كفاح الشعب الفلسطيني لاعادة بناء كيانه القومي تندرج في هذا السياق . ولنشر الى هذه الحركة الدولية المناهضة للاستعمار ببعض التواريخ : ١٩٤٨ استقلال الهند . ١٩٥٢ فشل البريطانيين في استيطان كينيا ، فكانت المقاومة المسلحة التي عززت فهم ان عصر الاستعمار قد انتهى . ثم الانتصار الساحق لكفاح الشعب الفيتنامي في ديان بيان فو سنة ١٩٥٣ ، مما أدى الى مغادرة الفرنسيين للهند الصينية . وفي الاخير ، تعطي مثلا عظيما لشعب عربي شقيق : انفجار الثورة الجزائرية المظفرة سنة ١٩٥٤ لطرد الفرنسيين ، والتي رافقت سقوط الانظمة الملكية ، وخاصة في مصر .

٢ ــ طريق الثورة الصعب

تبدل الوضع العالمي بشكل جذري بعد الحرب العالمية الثانية لصالح الانظمة الاشتراكية وحركات التحرر الوطني . قبل الحرب العالمية الاولى كان المناخ السياسي غير مؤات لكل نضال من أجل الاستقلال . بعد الحرب العالمية الثانية ساعد الوضع الجديد الشعب الفلسطيني للخروج من شدته ويأسه ، ليعيد ولادته رغم الهزيمة الماحقة . وقد ردت الامبريالية بشكل مباشر على هذا التحول في علاقات القوى بعدوانية طاغية ، وعلى الخصوص ضد طبقة البروليتاريا في بلدها ، سميت فيما بعد

« بالحرب الباردة » . وفيما يخص الصراع بين حركات الاستقلال الوطني والامبريالية، فقد سجلت سنوات الخمسين أيضا ، أول انتصار لنظام جمال عبدالناصر الوطني والمناهض للاستعمار في مصر ، اذ أمم سنة ١٩٥٦ شركة قناة السويس الاجنبية ، ورغم التدخل الفرنسي ــ البريطاني ــ الاسرائيلي ، والنجاح العسكري الذي حققته الامبريالية ، الا أن منظمة الامم المتحدة قد أدانته ، وأجبرت البلدان المعتدية على الانسحاب ، وكانت هزيمة القوة العسكرية الامبريالية أمام القوة السياسية للبلدان التقدمية .

وعلى هذا الحال فان المناخ السياسي لسنوات الخمسين يمثل انطلاقا كبيرا للبلدان العربية التي أتمت بقدر كلي الواجبات الاولى لثورتها الوطنية الديمقراطية . على نقيض الشعب الفلسطيني الذي ليس له لا بلد ولا دولة ليتمم هذا الواجب : « أقام الفلسطينيون منذ عام ٤٧ ــ ١٩٤٨ في البلاد العربية على طول الحدود المجاورة للمنطقة المحتلة من فلسطين ، سواء في الخيام التي أقامتها وكالة الغوث الدولية، أو في الكهوف، ولا يزالون يقيمون فيها من ذلك التاريخ حتى الان، عرضة لحر الصيف القاتل ، ولبرد الشتاء القارس ، وللامراض الفتاكة ، يحيون حياة البؤس والفاقة ، ويسدون رمقهم بما يحصلون عليه بالدمع والعرق »(١٢).

وذهب بعض الفلسطينيين الى العربية السعودية ، أو الى امارات الخليج العربي ، ومنهم من هاجر الى الغرب لاكتساب لقمة العيش : « بلغ عدد اللاجئين المسجلين في وكالة غوث اللاجئين بالاضافة الى عدد اللاجئين في غزة والضفة الغربية قبل ٥ حزيران ١٩٦٧ : ١٫٣٤٤٫٥٧٦ ، أما غير المسجلين : ١٫٠٩٫٤٢٤ ، أي أن العدد الاجمالي : ٢٫٤٥٣٫٠٠٠ »(١٣).

في ضوء هذه الوقائع ، نستطيع أن نفسر حياة غسان كنفاني المضطربة في دمشق ، عاملا ومدرسا وصحافيا ، ثم في الكويت سنة ١٩٥٦ مدرسا لسنوات أربع ، اخيرا مجيئه بيروت ليعمل في جريدة الحرية .

لكن أحداث البلدان الشقيقة أعادت للشعب الفلسطيني ثقة كبيرة ، اذ اننا نرى رغم الوضع البائس للحاضر ، أن تحولا قد بدأت تتضح معالمه في هذه الفترة لصالح هدف الشعب الفلسطيني الاساسي ، الا وهو : استرجاع أرضه وحقه الوطني .

(ج) الكفاح من أجل التحرر الوطني (المرحلة الثانية) :

١ ــ اعادة بناء التنظيم الثوري

مع ١٩٥٦ ، ظهرت بعض الاشكال الجنينية للتنظيم الثوري عبر عمليات فدائية شنت من قطاع غزة وسوريا . أخذت هذه النشاطات مقاييس متزايدة مع بداية الستينات ، عندما حصلت تحولات كبيرة في بلدان أخرى (أصبحت الجزائر مستقلة سنة ١٩٦٢ ، وحوالي سنة ١٩٦٠ تحطمت كل الامبراطوريات الاستعمارية على التقريب) دون أن يتبدل شيء في الوضع الفلسطيني . لقد أصبح المد الشعبي متزايدا أكثر فأكثر في البلدان العربية ، وعلى الخصوص في الاردن ، حيث معظم الفلسطينيين لاجئون . في سنة ١٩٦٤ ، قامت « منظمة التحرير الفلسطينية » ، وفي سنة ١٩٦٥ تأسس اول تجمع شعبي ذو بنيان منظم بمولد « فتح » . وهكذا فان الانطلاقة الهادفة للتحرر الوطني قد اجتازت فترة هامة في عملية نضجها : اذ عبرت « فتح » في الواقع عن تنظيم شعبي له أهدافه المحددة، تحت قيادة طليعة ثورية . وقد أبدى برنامج «فتح»، النقاط الاساسية لثورة وطنية ــ ديمقراطية، مستجيبة لحركة التحرر الوطني العريضة، العربية والعالمية،

واعتبرت «فتح» الكفاح المسلح مهمة فلسطينية بحتة، وبهذا المعنى (« ليس مجرد وسيلة فعالة لاستعادة حقوق شعب فلسطين ، ولكنه أيضا الطـــريق الوحيد لتوكيد شخصية الفلسطينيين الوطنية »(١٤).

« ان فشل الثورة الفلسطينية (٣٦ ــ ١٩٣٩) يعود الى نقص في التنظيم والوعي السياسي ، والى غياب مفهوم شامل للكفاح ، والى الافتقار الـــى التخطيط المتناسق لحركة التحرير »(١٥).

وشددت فتح على ضرورة تحقيق وحدة منظمات المقاومة ، مؤكدة ان الوحدة الاصيلة هي التي تنبع من النضج الثوري ، وان « الوحدة ليست حصيلة عوامـــل ظرفية ، والتوافق الجدي والفعال هو فقط حصيلة تفهم متبادل ، وتفاعل متكامـــل ، وجهود متعاونة ، وتحليل دقيق ، وهذه كلها منطلقات كل مرحلة جديدة من النمو الثوري»(١٦).

« ومع ان الفلسطينيين يؤمنون بالوحدة العربية الا ان عليهم الحفاظ على هويتهم المستقلة ، وتقوية احساسهم بها »(١٧).

« ان شعب فلسطين يتوجه الى جميع شعوب العالم الحرة والمحبة للسلام ... لتساعده في كفاحه المحق والعادل لتحرير وطنه »(١٨)...)(١٩).

ان قيام « فتح » عبارة عن بداية تطور تنظيمي طويل للشعب الفلسطيني ، أعطى اليوم منظمة وطنية قادرة كمنظمة التحرير الفلسطينية . أما اوضاع البلدان العربية الاخرى ، وخاصة سوريا ، فقد ظهرت عبر ترسيخ مواقع القوى الديمقراطية التي فتحت آفاقا نحو التوجه اللارأسمالي .

٢ ــ انفتاح الثورة الوطنية الديمقراطية نحو ثورة اشتراكية

يشير تاريخ ١٩٦٧ الى انطلاقة جديدة في الوعي الثوري للشعب الفلسطيني ، فقد أظهرت الهزيمة الجديدة في معركة الاستقلال الوطني معبرا هاما لهذه المعركة ، حيث وجود « فتح » كتنظيم ثوري ، وكميلاد لآمال عديدة وجديدة . فالشعب الفلسطيني دوما ما كان خاضعا لوصاية البلدان العربية ، وقد أثبتت له هزيمة حزيران ١٩٦٧ ضرورة العمل بصفته قائدا لذاته ولقضيته . عند ذلك الحـــين ، أخذت الشخصيـــة الوطنية للشعب الفلسطيني تثبت نفسها على المحفل السياسي الدولي **باستقلال** عن كل وصاية عربية او اقطاعية . وتميزت الثورة الفلسطينية بميزة تقدمية ، ان لم تكـــن اشتراكية ، عندما انشأت جناحا ماركسيا ــ لينينيا داخل منظمة التحرير .

ولم تعق مجازر أيلول ١٩٧٠ استمرار الثورة الفلسطينية ، التي عرفت ان تستخلص منها الدروس ، ووقفت « وقفة جادة امام التجربة بمجملها ، في محاولة لوضع خط سياسي واستراتيجي جديد قائم على ادراك عياني للظروف المحددة ، والتعيين الدقيق للاولويات والاهداف المرحلية »(٢٠).

ونتيجة لاسسها وآفاقها التقدمية الواعيـــة ، كانت الهجمات التي تعرضت لهـــا المقاومة ، والتي ذهب ضحيتها غسان كنفاني كقائد فلسطيني في حادث انفجار سيارة ملغومة يوم الثامن من تموز ١٩٧٢ . وفي الوقت نفسه ، وللاسباب ذاتها ، سجلت المقاومة انتصاراتها قبل وخلال وبعد حرب تشرين الاول ١٩٧٣ .

لقد تجسد النصر العظيم الذي حققته الشعب الفلسطيني ، بعد أن أكد شخصيته الوطنية التقدمية ، بقبول وفد فلسطيني في هيئة الامم المتحدة ، وبخطاب ياسر عرفات في ١٣ تشرين الثاني ١٩٧٤ . وعلى لسان رئيسها ، فان منظمة التحرير الفلسطينية ، أي الشعب الفلسطيني ، قد أظهرت انها **تتمتع بكل مقومـــات المجتمـــع المنظـــم** .

والفريد هنا ، بل اللافت للنظر ، أن اعادة البنيان والتنظيم قد جرت في المنفى ، وتحت الاضطهاد الدائم . ولنر كيف استطاع شعبنا أن يقدم نفسه اليوم للعصبة الدولية : « وتعتز منظمة التحرير الفلسطينية بأنها وهي تخوض المعارك المسلحة وتواجه قساوة الارهاب الصهيوني ، قامت بمآثر عديدة حضارية وثقافية ، فشكلت مؤسسات البحث العلمي ، والتطوير الزراعي ، والرعاية الصحية ، واحياء التراث الحضاري لشعبنا ، وتطوير الفولكلور الشعبي ، وخرجت من بين صفوفها عددا من الشعراء والفنانين والكتاب الذين يسهمون في تطوير الثقافة العربية ، وربما امتد ذلك الى الثقافة العالمية »(٢١) .

كيف أمكن لهذا التحول العميق ان يتحقق ؟ منذ الهزيمة الكبرى الثانية والتالية للعدوان الاسرائيلي ، استعاد الشعب الفلسطيني الشعور بالوعي في نفسه كذات ، فمثل كفاحه الوطني بنفسه ، ولم يتركه تحت وصاية أحد . وبحث عن حلفائه الحقيقيين في المعسكر الاشتراكي ، وعند شتى حركات التحرر الوطني . وما كان هزيمة عسكريا سنة ١٩٦٧ ، كان في ذات الوقت قطيعة مع ماض سلبي .

(٢) انحطاط علم الجمال الرجعي وارتقاء علم الجمال الثوري في الادب العربي

(أ) انحطاط علم الجمال العربي الرجعي

بدأ علم الجمال العربي الكلاسيكي يتحول بين الحربين العالميتين ، وقد احتل الكتاب المصريون المقدمة في عملية التوجه الجديد . وتميز الواقع التاريخي في هذا العصر ، مثلما ذكرنا ، بالكفاح ضد الاستعمار في فلسطين ، ولكن أيضا في سوريا ومصر . وقد تمخض الاستعمار الجديد ، بعد أفول نجم الامبراطورية العثمانية العجوز ، عن اخفاق النظام الاقطاعي القديم في هذه المنطقة من العالم . وانكشف هذا النظام بعدم قدرته على مواجهة التحدي الجديد ، وكان التعبير عن عدم القدرة هذه هو تنامي الضيق الاجتماعي . ولاول مرة منذ قرون ، بدأت الجماهير الشعبية تحتج على حالة الركود ، وتطالب بتغيير الشروط الاجتماعية . فأدت الانتفاضات الى استقلال بلدين عربيين نعرض بشأنهما مقتطفا من تقرير اللجنة الملكية البريطانية لعام ١٩٣٧ : « في شتاء ٣٥ ــ ١٩٣٦ شهدت المنطقة انبعاثا في النشاط القومي في مصر وسوريا ، وكان على درجة من الحيوية في القطرين بحيث حقق أهدافه خلال بضعة شهور ، وفاز القطران بالاستقلال القومي »(٢٢) .

ان الانطلاقة الشعبية الرامية للاستقلال لها محتوى اجتماعي موازٍ للثورة الفلسطينية سنة ١٩٣٦ ، وهي الحركة الشعبية التي أصبحت قوة سياسية رغم طابعها العفوي واللامنظم : « أندلعت (الانتفاضة) في مصر في شهر تشرين الثاني ١٩٣٥ على شكل مظاهرات عنيفة اجتاحت القاهرة وغيرها من المدن ، وأدت الى مصادمات مع قوات الامن وسقوط قتلى وجرحى ، واضراب عام في القاهرة جرى في ٢١ تشرين الثاني ١٩٣٥ ، وتحرك شعبي ديناميكي أجبر الاحزاب على تأليف جبهة وطنية في ١٠ كانون الاول ١٩٣٥ ، طالبت باعادة دستور ١٩٢٣ والاعتراف عمليا باستقلال مصر »(٢٣) . . .(٢٤) .

ويجدر بنا ان نأخذ بعين الاعتبار هذه التحولات داخل البنية الاجتماعية العجوز ، لنفهم التعديلات التي طرأت على القيم الثقافية القديمة . لقد وجدت هذه القيم القديمة نفسها متخلفة نسبة الى التطور الاجتماعي، وأصبحت بالتالي وبشكل مكشوف رجعية . وبالمناسبة نذكر مثلا عباس محمود العقاد ، الذي يدافع في كل انتاجاته عن القيم الميتة ، ممتدحا العهود البائدة ، ومقاتلا كل اشكال الفكر التقدمي .

فما هي هذه القيم القديمة ؟

يعطي العقاد في وصف واسع للعصر الاسلامي الاول تحت عنوان « العبقريات » ، تمجيدا « للشخصية العبقرية » التي تمتع بها الخلفاء الاوائل . ويبدو فكـــره الديني العميق ، ولصالح القديم ، عندما يعارض العالم الواقعي بعالم وهمي روحاني مجرد : « وللعباقرة على الجملة ولع بعالم الغيب ، وخفايا الاسرار ، على نحو يلحظ تارة في الزكانة والفراسة ، وتارة في النظر على البعـــد ، وتارة في الحماسة الدينيـــة او في الخشوع لله »(٢٥) .

هذه التصورات تدور حول قيم شخص نادر واستثنائي ، كذلك فان رؤية الكاتب للعالم تتركز حول الأنا . وعندما يصف حياة عمـــر يستعمل مقولات مثـــل هذه : « عبقري ـــ رجل ممتاز ـــ صفاته ـــ مفتاح شخصيته ... الخ » (٢٦) .

ان الميزة الرجعية لهذا الجمال تكمن اولا في التعارض والتناقض القائمين بين الفرد ومجتمعه ، وثانيا في تقييم الخواص الارستقراطية المقنعة (من قناع) تحت شكل اخلاقي ارستقراطي . وقد أحس المنظرون العرب بقوة ، بانحطاط وسقوط هذه القيم الجمالية كنتيجة مباشرة للتحولات الاجتماعية : « وكان لا بد لأية تحولات في الواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي باتجاه اسقاط هذه السلطة من أن تؤدي الى اسقاط سيطرة الكلاسيكية على الشعر العربي المعاصر »(٢٧) .

ولنكمل هذه اللمحة حول علم الجمال الكلاسيكي الذي أصبح بالنسبة لوقتنا الحالي رجعيا (بمعنى انه يعمل مباشرة او لامباشرة بواسطة قيمه الماضية ضد قيم حقيقية تاريخية جديدة) نضيف الكاتب خليل السواحري مثلا آخر . فهو يختار ابطالا لقصصه بعض الفلسطينيين الهامشيين ، ويدّعي انهم ممثلون للشعب الفلسطيني بأكمله ، وهكذا يعطي صورة زائفة وخاطئة لشعب مسحوق وشجاع ، ويساهم بهذا المعنى في السياسة الرسمية للنظام الاردني الرجعي ، والتي تقوم على انكار تقدم واستقلال الشعب الفلسطيني (لاسباب الالحاق والضم) .

في قصة « مقهى الباشورة » آثر السواحري نذالة المعلم ابو بلطة ، الذي حول مقهاه الى صالون استقبال لمجموعة منحطة من الصهاينة . وعندما تحتم على المعلم دفع ضرائبه الثقيلة ، ذهب الى سكان حي الباشورة في القدس ليطلب النصيحة . فاقترحوا عليه ان يشنوا اضرابا جماعيا لدعمه ضد قوات الاحتلال ، لكن المعلم يرفض ذلك ، ويفضل بيع الحشيش للصهاينة قصد تغطية المبلغ المطلوب منه . وبعد ان تمت الصفقة « شربوا القهوة على حسابه ، وتمازحوا ، وتضاحكوا ، وضرب المعـــلم الفتـــاة (الصهيونية) على فخذيها ، وحين غادروا المقهى، كان ابو بلطة يودعهم عند الباب ، فغدا سوف يدفع الثلاثة آلاف ليرة بأكملها »(٢٨) .

وفي مكان آخر من القصة ، تكشف زوجة المعلم عن تخاذلها بهذا القول : « ايـــام الجدعنة راحت يا معلم ، اليهود اليوم ضبطوا على رقابنا ، وكسروا جيوشنا ، اليوم تغيرت الاحوال ، خرجوا والا عمرهم ما خرجوا »(٢٩) .

الشخصيات المهزومة ، المحدودة ، بل يمكن القول غير الموجود ، والتي لا تقابلها شخصيات مناضلة ايجابية هي شخصيات الكاتب ، تتكرر ايضا في قصص اخرى ظهرت في مجموعة « ثلاثة اصوات » منشورات النظام ١٩٧٢ ، أي بعد مذابح ايلول ١٩٧٠ .

ان هدف المؤلف التقليل من قيمة نضال الشعب الفلسطيني وصموده، لصالح النظام الاردني ، كذلك فان المواضيع التافهة والشخصيات المهزوزة تتعدى ذلك الى « الفهم الساذج لعملية البناء الفني ... وقد اعتمد (الكاتب) في سرده الساذج على عشرات الشتائم ... (التي) تؤكد تفاهة القصة ولا معقوليتها »(٣٠).

تزييف الواقع ، وتجاهل الهموم الحقيقية لشعبنا الصامد في وجه الاحتلال ، كذلك نضالاته اليومية ، يتفقان وخطط العدو الرجعي والصهيوني ، ويؤكدان جانبا آخر من المعايير الجمالية للادب الرجعي .

(ب) ارتقاء علم جمال ثوري جديد

بدأ ميلاد علم الجمال الثوري الجديد لحظة ان دخل الكفاح من أجل التحرر الوطني مرحلته الثانية ، بمعنى انه أصبح الكفاح من أجل الاستقلال كفاحا واعيا يرمي الى التقدم الاجتماعي . وفي هذه المرحلة الثانية ظهر عامل هام في الادب العربي ، الا وهو علم الجمال الجديد ، ممثلا في ابطال الاعمال الشعرية والروائية ، والتي تطرح نفسها اكثر فأكثر وبصفة نامية كأبطال ثوريين ، تشارك بشكل مباشر في النضال ضد العلاقات الاجتماعية القائمة والقمع الامبريالي .

وينعكس قبل كل شيء ، من خلال هذا العامل الجديد ، التطور الثوري في العالم العربي بصفة عامة . اذ بعد ان كسب استقلاله السياسي، بدأ بازالة بقايا الاستعمار، وبناء مجتمع جديد . وبعد ذلك ظهرت التحولات الواسعة في فكر الشعوب العربية ، الموازية للتحولات التي طرأت على العلاقات الاجتماعية . وقد وصف هذه التحولات جمال عبد الناصر بهذه الكلمات : « ثورة عربية حقيقية ولدت في عقولكم ومشاعركم وقلوبكم »(٣١).

ولنذكر بتلك الاحداث الكبرى ذات المرامي التاريخية ، والتي وجدت انعكاسا لها في الادب العربي كاشارة لمنطلق ثوري مناهض للامبريالية واللاعدالة الاجتماعية . هذه الاحداث هي : سقوط الملكية في مصر ، حرب التحرير الجزائرية ، الاعتداء الامبريالي على السويس ، ثورة تموز في العراق ، وكفاح الشعوب العربية ضد العدوان الاسرائيلي .

ويجب علينا تأكيد ان هذا المنطلق الثوري قد وجد مجاله في الادب ، اكثر فأكثر ، وبصفة نامية ، **كعملية متطورة** ، ترمي مضمونا وهدفا الى **التحول** في العلاقات الاجتماعية القائمة .

ان العرض الوصفي لطريقة ساكنة في الحياة والتي كانت خلال قرون ، الامكانية الوحيدة لوجود ظاهرة ادبية ، قد أخلت مكانها لما يمثله الفعل الادبي ، والذي يوجد في مقدمته البطل الثوري .

ما هي خواص البطل الثوري ؟

مثل كل تثمين سياسي — معنوي للبطل الادبي نسبة الى تمثيله للصورة الانسانية ، المشروطة بالطبقة ، فان صورة الثوري تخضع ايضا للتحولات التي طرأت على الادب العربي في العقود الاخيرة بعلاقتها مع التحولات الاجتماعية . وتمتد سلسلة خصائص الثوري الى الباحث الذي يتنبأ حدسيا بأبعاد النضال الثوري للمقاتل الواعي الملتزم من أجل التقدم الاجتماعي مع كل خصائصه المعنوية المميزة والمحددة بالانتماء الطبقي .

وهنا ، نريد ان نعطي مثالين من نمط هذا البطل الثوري في الادب العربي . اولا ،

مثالا عن الكفاح من أجل التحرر والاستقلال في الجزائر . وفي هذا الشأن ، يجدر بنا القول ان نجاح معركة استقلال الشعوب العربية قد انعكس في الادب الواقعي ، حيث تتحرك الشخصيات الثورية بصفتها التمثيلية ، محققة الانتصارات في نضالها ضد الامبريالية ونضالها الاجتماعي . ويقدم المناضل المناهض للامبريالية في الادب العربي الحديث ضمن حالات جد مختلفة بصفته مواطنا مضطرما . وهكذا أظهر الكاتب الجزائري محمد ديب ، في روايته « سيف افريقي » ، الفلاح (مرحوم) الذي كان يخاطر بنفسه لتموين المقاتلين في الجبال ، جالبا لهم الغذاء الضروري . وبهذه اللفتة عبر عن دعمه للكفاح المسلح ضد السيطرة الاستعمارية الفرنسية(٣٢) .

مثال آخر عن معركة الاستقلال ، « غير مباشر » هذه المرة . اذ أننا نلتقي أحيانا بين الامثلة العديدة للبطل الثوري ، بنماذج ليست للوهلة الاولى نماذج « نجعيّة » ، لكنها تمارس نفوذا عظيما بفكرها وفعلها الثوريين فيمن حولها .

لقد قدم لنا أحمد ابراهيم الفقيه الكاتب الليبي هذا النموذج في قصته « الجراد » التي نشرت قبل سقوط الملكية . في هذه القصة : عامل زراعي بسيط يصبح بطلا عندما يجند قرية كاملة لتواجه خطر سرب من الجراد . ويصبح مثالا ثوريا لحدة ذهنه ، وفعله المباشر ، اذ يقدم اقتراحا عمليا لمواجهة هذه الكارثة الطبيعية ، والتي حسب ما يبدو ، لا يمكن تحاشيها ، وقد أداه ذلك لمهاجمة سلطة الشيخ كي يحمي قريته من الجراد . هذا الشيخ ، حاول ان يفرض على القرية اقتراحات لا فائدة فيها تماما ، مثل زيارة ضريح احد الاولياء ، او الدعاء ، او اشعال النار وضرب الطبول من حولها ، بينما يبدي الشاب العامل فكرة حقا ثورية ، وحتى الان ليست متصورة ، تزعزع سلطة القدامى بقوة ، وتعرضهم للسخرية : « ان فكرتي هي هذه . . . أن نأكل الجراد بدل ان يأكلنا »(٣٣) .

حقا ، لا تحول هذه الفكرة البسيطة العامل الزراعي الشاب الى ثوري بالمعنى الواسع المنسوب للمجتمع ، لكنها تمثل تحت شكل فني لقصة ، شيئا لم نره أبدا الى ذلك الحين : ثورة تطيح بالمؤسسات الدولية (من دولة) والدينية والتصورات التقليدية .

وليس هذا كل شيء، اذ لا تبقى الفكرة عند حدود الفكر، بل توضع على محك العمل، وتتطور بصفتها واقعا اجتماعيا جديدا . ولا يتحقق هذا التطور من خلال الطرق التقليدية ، ولكن بعون اناس بسطاء ــ سكان القرية : الاطفال ، والشيوخ ، والنساء، والرجال ــ يخرجون تحت قيادة الشاب العامل الزراعي (وليس الممثل الديني الدولي ــ من دولة ــ) الى الحقول ، كي يجمعوا الجراد المشلول في استرخائه بسبب الليل . وهكذا ينجح بانقاذ القرية من الكارثة ، ويغدو الجراد غذاء وفيرا للسكان . لقد أصبحت فكرة العامل الزراعي حقيقة ، والبطل مثالا ثوريا . لم يحترمه وسطه لشجاعته ومواجهته التصورات الرجعية السلطوية فقط ، بل ايضا لثباته عند العمل من أجل رغد العيش الجماعي .

وفي الوقت نفسه فان هذا الاحترام تجاه البطل الفردي يعبر عنه في الفعل الجماعي، فعل أهل القرية . ويمكن القول ان الناس البسطاء هم الابطال الحقيقيون لهذه الواقعة الغريبة ، العادية في الوقت نفسه .

ولننه لمحتنا القصيرة حول علم الجمال العربي الجديد نلخص هنا ما امتاز به من ملامح تقدمية تكمن فيما يعكسه من تقدم اجتماعي في الواقع ، ويعطينا بالتالي جوابا حول واقعية الابطال . ولنلاحظ اولا ان هؤلاء الابطال يدافعون عن **التقدم الاجتماعي** ،

ويناضلون ضد كل أشكال القمع وخاصة القمع القومي الذي تقوده الامبريالية ، وهم يعملون بوعي او بدون وعي لمصلحة أغلبية الشعب، وهذا ما يظهر باختيار «شخصيات شعبية» للابطال الثوريين (غالبا ما يكونون ممثلين للفلاحين). وزيادة على ذلك يرمي الفعل الثوري الى **تحول** العلاقات الاجتماعية . ورغم ان الغايات والوسائل من أجل تحقيقها غالبا ما تبدو مضطربة ، فان صفات الثوري تمثل الشرط الضروري لقطع كل علاقة مع التقاليد البائدة لطريقة تأملية في التفكير ، ارتبطت بالتطورات الاجتماعية التي تنغرس جذورها عميقا في الدين . ونرى في قصتنا الليبية على الخصوص ، ان الافكار التقدمية تتغلب على سلطة التصورات الرجعية .

أما العنصر التقدمي الثالث الذي نود الاشارة اليه هو ان البطل الثوري يعمل ويتحرك بصفته انسانا **فعالا** داخل المسرح السياسي . انه يحمل مصيره بيديه ، وليس شيئا أصما دون ارادة ، خاضعا للمسلمات اليقينية . هنا ، يصبح الانسان خالقا لنفسه .

(ج) ميلاد أدب فلسطيني جديد

في الفترة بين ثورة ٣٦ — ١٩٣٩ وهزيمة ١٩٤٨ استولت الطبقة الاقطاعية بالتحالف مع الاستعمار على الفن (الادب على الخصوص) ، واستخدمته للتعبير عن قيمها ومصالحها . وبقي الادب عاجزا تحت سيطرتها — الا من بعض الامثلة القليلة ابراهيم طوقان وعبد الرحيم محمود — الى ان كان سقوط فلسطين وهذه الطبقة ايضا ، وميلاد أدب فلسطيني جديد .

بعد ١٩٤٨ صدرت مجموعات قصصية عديدة ، كتب بعضها قبل الهزيمة ، نلمس من خلالها أثر الاحداث التاريخية على الواقع الاجتماعي ، والانتقال الملموس من رؤية عامة وغيبية ، الى رؤية ثقافية واجتماعية متقدمة .

١ — **نجاتي صدقي : موضوعة الثقافة الوطنية** : لقد شحنت الثقافة الوطنية بمعايير جديدة ، وان ظلت عاجزة عن رؤية عينية للصراع الطبقي ، والصراع مع قوى الاستعمار ، وبقيت مشدودة لكل ما هو نظري ، الا انها ساهمت في تحديد دور الاديب « الصحيح ... الذي يضرب مساوىء الحاضر بحسنات الماضي ، ويصور مستقبلا جميلا ... وأن الادب هو علم الانسان ... يرمي الى ادراك كنه حقيقة الانسان »(٣٤)

كذلك فقد تجاوزت هذه المعايير الجديدة المعايير القديمة التي تستند على العادات والتقاليد وكل ما هو متخلف من اجل ثقافة أوسع : « والانسان لا يكون مثقفا الا اذا تحلى بثلاث سجايا : التحرر من الخرافات ، والتفكير في غده وغد غيره من ابناء قومه ، والقدرة على تخطي الحدود القومية الضيقة في تفكيره »(٣٥).

هذه هي بعض الافكار الرئيسية لقصة « جثة حية » من مجموعة « الاخوات الحزينات » المكتوبة في الفترة بين ١٩٣٩ — ١٩٤٨ . ورغم ما يؤكده احد أبطالها بأن « الادب الواقعي انما هو تصوير الحياة بدقة وصدق ، ومن ميزاته انتقاء الحقائق المحيطة به »(٣٦). الا أن ذلك قد بقي عند حد النظرية في جميع قصص المجموعة . حتى في قصة « الاخوات الحزينات » فان الرمز الذي يستعمله الكاتب لم يكن بامكانه عكس الواقع : بما في ذلك الكفاح ضد الاستعمار والصهيونية ، والتعلق بالارض .

لكن موضوعة الارض هذه قد اخذت تتطور وتأخذ منحى اجتماعيا اكثر عمقا واكثر جذرية ، حينما قدم الادب الفلسطيني الجديد صورة واقعية عن (الارض مع صاحبها

الفلاح) كممثل للطبقة المسحوقة ، وان لا معنى لكل منهما الا لعلاقتهما الوثيقة والمتبادلة القائمة منذ دهور .

٢ ــ **أسمى طوبى : موضوعة الارض** : ففي قصة « امنا الارض » من مجموعة أسمى طوبى « أحاديث من القلب » لدينا صورة رائعة « للعم مصطفى يزيل عرقه من جديد عن جبينه ، وهو يقلب أرض حديقتنا . وكانت الذرات المبلورة تنحدر لتمتزج بالتراب ، وسمعته يهمس : ما أصدق هذا ! ان عرق جبيني وقوة عضلاتي في الارض ، دم قلبي أيضا هناك . لقد حرثها آبائي واجدادي لعشرات السنين ، فلن أكون الرجل الذي يضيعها »(٣٧) .

التأكيد على موضوعة الارض في الادب الفلسطيني له دلالات عديدة منها : امتزاج الانسان الفلسطيني بالارض الفلسطينية ، وفي سبيلها يقف ليواجه التحديات الامبريالية .

٣ ــ **سميرة عزام : الالتزام الاجتماعي لاجل الشعب الفلسطيني** : من هنا كانت قصة « في الطريق الى برك سليمان » من مجموعة « أشياء صغيرة » لسميرة عزام ، التي تصور دفاع الانسان الفلسطيني عن الارض أمام هجمات الصهاينة عام ١٩٤٨ .

ان النضال من أجل الاحتفاظ بالارض يأخذ مداه في قصة « خبز الفداء » ، حيث تعيد الكاتبة صياغة الواقع الذي عاشته قبل سقوط عكا . عندما يتحدى البطل الفلسطيني العدو ، ويبذل دمه فداء للأرض .

وقد رافق تحدي العدو تحدي القيم التقليدية في المجتمع ، وتميزت قصة « أشياء صغيرة » بموقف رافض جديد لكل ما هو « خالد ومقدس وأصيل » في العائلة . اذ تدور القصة حول فتاة كانت تظن نفسها من سلالة متميزة عن سائر البشر ، لما كرسه والداها في عقلها من أفكار رجعية محافظة . لكنها اليوم أصبحت شخصا جديدا متفتحا استرد ثقته بنفسه ، وامتلأ حسه بالوجود . لقد اكتشفت زيف وضعها الاجتماعي السابق ، بعد ان أحبت رجلا فتح عينيها على أمور كثيرة غابت عنها في الماضي .

كذلك « قصة في رسالة » تطرح موضوع سقوط المرأة المسحوقة ، و « على الدرب » كيف يتخلى الخطيب عن فتاته الفقيرة بعد أن أصبح سائقا خاصا لصاحب المصنع .

وترمي الكاتبة من طرح مشاكل المرأة الى البحث عن عالم افضل ينتهي فيه اضطهادها ، اذ ليس هناك فصل بين التصدي للاحتلال ومواجهة العدو ، وبين التصدي لآفات المجتمع ومواجهة الفكر الرجعي . « في قصتي (الى حين) و (زواج العمة) حاولت الكاتبة ان تصور صورتين من صور سلوك الانتهازيين من الاقارب ، فالعمتان في القصة الاولى تريدان اقتناص زوج شاب غني لابنة اخيهما . . . أما القصة الثانية فتصور طمع الاخ وزوجته في مال شقيقته الارملة . . »(٣٨) .

وفي باقي قصص المجموعة موقف اجتماعي واضح يرفع مطلب التحول من خلال التأكيد على ظاهرة الفقر والبحث عن القوت اليومي . وقد عبرت سميرة عزام عن بعض سمات الحياة الفلسطينية التي شكلت خطوط البنية الاجتماعية والاقتصادية العريضة لعدم استقرار الانسان الفلسطيني ، وشعوره المعذب في المنفى .

١) فترة توجه المنفي

(أ) دمشق والكويت : عدم الاستقرار الحياتي ــ البحث عن تحديد ايديولوجي

أ ١) موت سرير رقم ١٢

تنعكس عن مراحل حياة غسان كنفاني مباشرة المراحل التي عاشها الشعب الفلسطيني . اولا الترحيل بالقوة ، وثانيا اقامة غير مستقرة في لبنان وسوريا . وكان غسان كنفاني قد بدأ سنة ١٩٥٢ وعمره ستة عشر عاما ، الحياة المهنية معلما في احد مخيمات اللاجئين في دمشق ، فرأى المصير الذي آل شعبه اليه ، واخذ يعي بنفسه ما وقع . لقد اعطته المرحلة الاولى هذه من حياته الفعالة في دمشق تجربة المنفي المرة، الا وهي : حياة التغرب في المخيم ، والشعور الشديد بعجز عدو اقام دون عناء في بيت او مدينة كانت للفلسطينيين دون ان يمكن تصديقه ضمن حقيقته الشرسة .

وبناء على ذلك ، سنقوم بتقديم عرض اولي للموضوعات الرئيسية التي طرحتها اعمال غسان كنفاني نسبة الى التطور التاريخي للتحرر الذي عبره الشعب الفلسطيني ومعه غسان كنفاني منذ هزيمة ١٩٤٨ حتى سنوات السبعين .

وأول موضوعه(٣٩) نعني بابرازها من خلال هذا التسلسل التاريخي هي **شعور المنفي المعذب الذي ينعطف الى الوراء** لحاجة فهمه الحقيقة . وقد عبرت عنها الثلاث قصص الاولى من مجموعة « سرير رقم ١٢ » ، المعنونة : ١ ــ البومة في غرفة بعيدة . ٢ ــ شيء لا يذهب . ٣ ــ منتصف أيار .

ما هي الصور الفنية(٤٠) التي تقابل هذا الشعور ؟ ان صورة القصة الاولى هي صورة **البومة** التي كان قد رآها البطل عند هزيمة ١٩٤٨ ، وهي تظهر بالوصف التالي: « كان يومض في عيونها ذلك الغضب المشوب بخوف غريب .. وبدت لي انها مصرة على وقوفها المتحدي ، وانها سوف تبقى رغم الرصاص والموت »(٤١).

يحتفظ البطل في حجرة المنفى بصورة فوتوغرافية للبومة ، وبما ان البومة طائر ليلي ، فهي تبعث على التدقيق ذكرى ماض معذب . وهكذا فان الصورة الفنية **للبومة في الليل** تعبر جماليا عن **شعور الذكرى المفجعة في ليل المنفى** .

اما صورة القصة الثانية فهي **الورود** التي يريد البطل وضعها على قبر عمر الخيام في طهران . وكانت حبيبته في حيفا قبل سقوط فلسطين ، قد اهدت له كتابا عن عمر الخيام ، آخر ما تبقى له من ماض سعيد بعد ان ماتت دفاعا عن الوطن : « لماذا اصر على الاحتفاظ بكتاب الخيام ؟ ان احدا لا يعرف الحقيقة ، تراني اريد من الكتاب ان يوهم الاخرين بأنني ما زلت مرتبطا بحيفا ؟ »(٤٢).

ان صورة **الورود على القبر** مثيرة بشكل خاص ، اذ تعبر عن دفن ماض سعيد دون التطلع نحو المستقبل . تتجه الرؤية هنا نحو الماضي ، وتبقى مشلولة امام تعاسة الحاضر الفاجعة .

لكن صورة القصة الثالثة باعثة اكثر على الحزن من سابقتيها : الا وهي **رسالة الى ميت** . فالبطل المنفي يكتب رسالة الى صديقه الذي مات خلال احداث ١٩٤٨ ، حيث تطغى ذكراه على الحاضر : « والسؤال الذي يجأر في راسي هو : لماذا اذكرك الان ، واكتب لك ؟ اما كان الاجدر بي ان استمر في صمتي ؟ »(٤٣) .

ويجدر بنا التذكير من جديد بالموضوعة الاساسية التي سبق لنا طرحها لهذه

المجموعة « موت سرير رقم ١٢ » ، الا وهي **شعور المنفي المعذب الذي ينعطف الى الوراء** ، والذي تعبر عنه كافة الصور من خلال التعلق الاحادي الجانب بالماضي . اما باقي قصص المجموعة فهي تثير جانبا اخر من هذه الموضوعة : دافع **العار عند المنفي** ، اشارة لفهم اول يبعث على التساؤل : كيف يمكن محو العار ، وبالتالي شق طريق نحو المستقبل ؟

ولنتابع عرضنا للصور الاساسية الاخرى التي رسمت باقي قصص المجموعة :

في قصة « كعك على الرصيف » يتطور الشعور بالعار من خلال صورة اكثر تعقيدا: اكتشاف الحقيقة التي تختفي وراء شبكة من الاكاذيب . والقصة هذه سمة من سيرة الكاتب الذاتية ، اذ يتضح لمعلم ان احد تلاميذه قد كذب عليه ليخفي اوضاع عائلته السيئة ، مدعيا انه يعيل اسرته عوضا عن والده الميت ، ببيعه كعكا على الرصيف ، ولكن في الحقيقة ان الوالد قد اصبح مجنونا عندما شاهد المصعد وهو يقطع رأس أحد ابنائه ، ولم يكن التلميذ سوى ماسح احذية . ويكمن دافع الموضوعة الاساسية للمنفى في **الورطة التي سببتها الاكاذيب** لتغطية العار ، هذا العار الناجم عن وضع الطفل البائس ، معتبرا اياه ، وضعا منزوعا من الكرامة ، لكنه يعترف لاستاذه عند نهاية القصة : « انه لم يمت (ابوه) ، انه مجنون يدور في الشوارع نصف عار »(٤٤) .

ويقدم لنا الكاتب صورة مزدوجة تعبر عن هذه الاكاذيب في العنوان « كعك على الرصيف » ، الا وهي صورة **ماسح الاحذية** الذي يدعي انه **بائع كعك** ، بينما هو في الحقيقة يقضي كل وقته راكعا على الرصيف لمسح الاحذية .

وقصة « في جنازتي » تعطي تعبيرا واضحا عن دافع موضوعة المنفي يختلف عن غيره ، وهو **الحقد الذي يملأ قلب من ضاع** . انها حكاية مريض غير قابل للشفاء ، يكتشف ان لحبيبته عشيقا ، فيشعر انه مقطوع تماما عن عالم الاحياء : « ولكن من يستطيع ان يمنعني انا الاخر من ان احقد عليكما ، على الجميع ، وعلى نفسي ؟ من يستطيع ان يحرمني من ان اكرهكم جميعا ، واتمنى الموت لكم ، ولكل شيء ؟ القيم والمثل ؟ كلا ، انها قيمكم ومثلكم انتم ، أنتم الاصحاء ، السعداء . . . »(٤٥) . لكن دافع الحقد الذي يملأ قلب من ضاع يتضمن معنى اخر جديرا بالذكر : دافع خيانة الحبيبة الذي يتضح شيئا فشيئا ، والذي سيحتل مكانا هاما في باقي اعمال كنفاني .

ان اهمية التضامن وقت الشدة لمتابعة النضال يدفع البطل لمعاتبة حبيبته : « انت لا تعرفين كم حرمتني من وسيلتي الوحيدة التي كنت اريد فيها ان اقنع نفسي ، بأنني ما زلت استطيع ان اكون شجاعا »(٤٦) .

لا يوجد في هذه القصة تطور واضح للصورة الفنية مثلما هي عليه في القصص الاخرى ، اذ تكمن الصورة المعبرة عن هذا الحقد ، وهذا اليأس في **رسالة الوداع التي يكتبها المشرف على الموت** .

سنتطرق الآن للقصة التي حملت المجموعة اسمها « موت سرير رقم ١٢ » ، هنا تتطور موضوعة المنفي الاساسية تحت دافع **الموت الكاشف عن سر الحياة** : يأخذ أحد المرضى بمراقبة مريض اخر يحتضر ، أصله من عمان ، لا يؤثر وجوده في أحداث القصة ، فيشرع المريض ــ الراوي بتكوين فكرة عن حياته .

لقد تخيله كمنفي شق طريقه بشجاعة رغم العقبات العديدة ، لكن الحياة نبذته بعد اصابته بمرض فاتك . وقد تخيل ايضا في صندوقه الذي يمسك به على الدوام ثروته : « عباءة بيضاء شفافة مذهبة الاطراف . . حلق خزفي لاخته سبيكة تزين به

اذنيها ، وزجاجة من عطر قوي ، وصرة بيضاء مصرورة على ما يسره الله له من نقود »(٤٧) .

يموت العماني ، فنكتشف الحقيقة : ان ما كان خيالا كان صورة رومنطيقية للحياة ، اذ أن حياة العماني في الواقع اكثر قسوة . فهو يقيم في الكويت بعيدا عن وطنه واطفاله الخمسة ، بينما يتخيله الراوي رجلا غادر بلاده ليجمع المال ، وليرجع غنيا كي يستحوذ على حبيبته . غير ان ما كان في الصندوق سوى : « مجموعة فواتير بديون الدكان الجديدة للمخازن الموردة تملأ انحاءه ، وكانت في الطرف صورة قديمة لوجه مليح ، وجلد ساعة قديم ، وخيط من القنب ، وشمعة صغيرة ، وبضع روبيات منثورة بين الاوراق »(٤٨) .

وهكذا لم يحتو الصندوق على « قيمة » ثمينة ، وانما على قيم لحياة الفقر والمنفى الشاقة . الصورة الفنية هنا تتمثل في **المحتوى المزدوج للصندوق** : ان الصندوق الخيالي يتضمن محتوى ذا طابع مثالي « مجمل » ، ومفعم بالاوهام ، بينما الصندوق الحقيقي يحتوي على اشياء حزينة للحياة يذوق الفقير مرارتها . من هنا ، القيم الوهمية مثل العباءة الجميلة تفقد « قيمتها » ، بينما الاشياء الصغيرة التي « لا معنى لها » تستمد قيمة انسانية عظيمة .

اثار الراوي الذي هو مريض ايضا مسألة موت الانسان : فهو يرى ان حياة الشقاء والالم ، ذات المحتوى المحدد ، لا تترك سوى آثار عديمة الجدوى كالفواتير والشموع . وهذا ما يفكر به : « ان قضية الموت ليست على الاطلاق قضية الميت ، انها قضية الباقين .. ان علينا ان ننقل تفكيرنا من نقطة البدء الى نقطة البداية . يجب ان ينطلق كل تفكير من نقطة الموت »(٤٩) .

ما هو سبب اعطاء موضوعة الموت تفسيرا فلسفيا ؟ ما هي علاقتها مع دافع الحياة الوهمية والحياة الحقيقية ؟ الصورة هي صورة **الموت الكاشف عن سر الحياة** ، تسامي مشكلة المنفى ، وموت الشعب الفلسطيني الذي كان يحتضر غداة النكبة . نقول « تسامي » ، لان المشكل المثار يبقى مركزا في صدمة موت « عديم الاهمية » ، ولا يتطرق حقيقة الى ما يكشفه هذا الموت . فكان الموت لازما لمعرفة الحقيقة التي كانت فيما مضى « لا معنى لها » . لقد اعطى الموت في هذه القصة معنى لما لم يستطع الراوي معرفته سابقا . فهل من اللازم ان ننتظر الموت دائما لمعرفة الحياة ؟ اذا طبقنا هذه الفكرة على مصير الشعب الفلسطيني نقراها هكذا : يجب ان نفهم حقيقة الشعب الفلسطيني قبل ان يموت . ومع هذا فلم تطرح هذه المسألة عند غسان كنفاني بشكل واضح الا في وقت لاحق ، اذ لا تحمل سوى طابعها الفلسفي : « يجب ان ينطلق كل تفكير من نقطة الموت »(٥٠) .

أما القصة الاخيرة التي اخترناها من هذه المجموعة فهي تبرز جانبا هامشيا من القصة السابقة . وكما قلنا سابقا ، ان الراوي المريض قد صنع لنفسه صورة رومنطيقية للمنفى كالسعي الشره وراء ثروة . وقد تطورت هذه الصورة في قصة « لؤلؤ في الطريق » لتأخذ أبعاد **اللؤلؤة التي في المحارة الاخيرة** . انها حكاية رجل شد الرحيل الى الكويت طامعا الحصول على ثروة ، لكنه يفشل . وقبل ان يعود الى بلاده يجرب حظه للمرة الاخيرة بشراء بعض المحار ، دفع ثمنا لها ما كان عليه ان يدفعه للحصول على تذكرة السفر الذي وهبه اياه صديقه ، آملا ان يجد فيها احدى اللآلىء . يأخذ في فتحها دون فائدة ، وقبل ان يفتح المحارة الاخيرة يسقط ميتا . ويتساءل صديقه راوي الحكاية : « لماذا مات ..؟ هل كان ثمة لؤلؤة في داخل تلك

المحارة الاخيرة الملعونة فمات فرحـا ، ام كانت فارغـة كأخواتها العاقـرات فمات غمـا ؟ »(٥١) .

تعبر صورة اللآلىء في المحار عن وهم الثروة الساقطة من السماء ، فالموت هنـا صورة شعرية تعبر عن دمار كل من سار في هذا الطريق . وقد وضح غسان كنفاني في اعماله اللاحقة موضوعة الحـل الوهمي هذا الـذي يستبدل به الانسان بؤس الحاضر . وتكمن العلاقة بين صورة اللؤلؤة في المحارة الاخيرة ، والموضوعة الرئيسية **لشعور المنفي المعذب** في السؤال الذي يطرحه غسان كنفاني : كيف يمكن التحرر من هذا الشعور ؟

أ ٢) أرض البرتقال الحزين

تدور المجموعة القصصية الثانية لسنـوات الخمسين حـول نفس الموضوعـة الاساسية : شعور المنفي المعذب الذي ينعطف الى الوراء ، وقد اتسعت وتعمقت ، بعد ان بدأ المنفي برصد الماضي ، واثارة الاسئلة حول اوهامه . وتميزت القصـص بميلها نحو **تحول باتجاه الحاضر** ، واصبح الانسان المنفي متسائلا بشكل جذري .

ويعود من جديد دافع الكشف عن الاكاذيب في قصة « الافق وراء البوابة » ، وتبدو في العنوان صورة : **البوابة التي تفصل بين الكذب والحقيقة** . انها حكاية شاب يجتاح بوابة مندلبوم ، آتيا من الارض المحتلة (حيث عاش مع الكذب) الى الجانب الاخر من مدينة القدس ليواجه الحقيقة . القصة في ذاتها بسيطة جدا ، اذ يحاول الشاب اخفاء موت اخته التي قتلها الصهاينة عن امه ، بينما تحـاول عمته بدورها اخفاء موت الام عنه . وعندما يلتقيان ، وكل منهما يحمل هدية للاخت ولـلام ، يفهمـان اكـاذيبهما المتبادلة .

وهناك ثلاث قصص اخرى تحمل عنوان « ثلاث اوراق من فلسطين » ، نقع فيهـا لاول مرة على دافع **الماضي الايجابي** . في قصة « ورقة من الرملة » يفقد رجل امراته وابنته بعد ان قتلهما الصهاينة ، وكان قد باع املاكه ليشتري اسلحة ومتفجـرات ، نسف بها نفسه ومن معه من الصهاينة في الوقت الذي كانوا يستجوبونه .

أما القصة الثانية « ورقة من الطـيرة » فهي تحكي عن المقاتـل القديم المنفي في دمشق ، يبيع الكعك ، ويسأل الماضي مبديا الجوانب الايجابية للنضال ، وفي نفـس الوقت استياءه من رؤساء الدول العربية الرجعية التي كانت في يدها القيادة ، فيقول : « الخطأ لم يكن مني انا ، كان من فوق »(٥٢) .

اخيرا القصة الثالثة « ورقة من غزة » تعيد من جديد وبشكل مباشر ، موضوعـة المنفي الذي يبحث عن « السعادة » في امريكا ، وقد دعاه صديقه للعودة الى الوطن ليقوم بواجبه في المعركة بعد ان قص عليه حالة ابنة أخته الصغيرة التي فقدت ساقها ايام حرب ١٩٥٦ ضد الصهاينة : « عد لتتعلم من ساق ناديا المبتورة من اعلى الفخذ ما هي الحياة وما قيمة الوجود . عد يا صديقي ، فكلنا ننتظرك »(٥٣) .

هكذا ، تظهر الثلاث اوراق هذه من فلسطين ثلاثة جوانب للماضي : **الشهيـد ذو المشاعر الوطنية ، المقاتل الذي خاب امله ، والهارب امام الحقيقة .**

أما قصة « أرض البرتقال الحزين » التي تحمل اسم المجموعـة ، فهي من التعقيد بقدر ما كانت عليه « موت سرير رقم ١٢ » ، وذلك لسبب تعدد الدوافع التي تشمـل موضوعة المنفي . وللمرة الاولى لدينا نفس يكـاد أن يكون ملحميا ، ويمكن اعتباره رواية صغيرة ، نجد فيه ممرا نوعيا ادبيا من القصة الى الرواية .

ان الصورة الجمالية لهذه القصة هي : **البرتقالة الجافة** ، ولها بعض من جوانب سيرة الكاتب الذاتية : عائلة تغادر عكا اثر الاحتلال الصهيوني الى لبنان ، وعندما يرى رب العائلة البرتقال في طريقه ، ينفجر باكيا . ولم يستطع احتمال خزي المنفى : بلا عمل ، بلا سلاح ، وبلا أمل (فقد حتى ايمانه بالله) ، يتمنى الموت ، وهكذا نجده يحتضر والى جانبه برتقالة جافة .

المنفي هنا هو اليائس ، الانسان الذي حارب ، والذي اقتلع ، وافرغ من جوهره الانساني مثل ثمرة انتزعت عن غصنها . حتى الله يصبح في نظره منفيا ، بعد ان اضاعه خلال الرحيل : « لم اعد اشك في ان الله الذي عرفناه في فلسطين قد خرج منها هو الاخر ، وانه لاجيء في حيث لا ادري ، غير قادر على حل مشاكل نفسه ، واننا نحن ، اللاجئين البشر ، القاعدين على الرصيف منتظرين قدرا جديدا يحمل حلا ما ، مسؤولون عن ايجاد سقف نقضي الليل تحته »(٥٤) .

بالنسبة لموضوعة **الشعور المعذب للمنفي** ، نجد هنا تغيرا هاما لها ، الا وهو كبرياء المنفي الذي يفضل الموت على الخزي .

ولكي نلخص اعمال غسان كنفاني لفترة سنوات الخمسين ، سبق وقلنا انه كان يبحث عن تحديد ايديولوجي . لقد كتب كنفاني معظم هذه القصص بين سنتي ١٩٥٦ ، ١٩٥٩ في دمشق والكويت ، اي عندما كان يعيش تجربة المنفى ، وفي نفس الوقت كان يعمل على تثقيف ذاته . زوده هذا التثقيف الذاتي بموقف ازداد اكثر فأكثر وضوحا الى ان اصبح ماركسيا ــ لينينيا مناضلا .

وهذا ما قالته زوجه حول سنواته في الكويت : « تابع غسان عمله السياسي خلال السنوات الست التي قضاها في الكويت ، وكان يعلم الرسم والرياضة . وفي الحقيقة ، تشهد هذه السنوات بأهميتها العظيمة في حياته ، اذ كان يمارس اثناء فراغه الرسم والكتابة والقراءة ــ قراءة الاعمال السياسية ، خاصة ماركس ، انجلز ، لينين .. وغيرهم »(٥٥) .

(ب) بيروت : اول اشارة لفهم عميق

ب ١) رجال في الشمس

في سنة ١٩٦٠ اتى غسان كنفاني بيروت ، وعاش حياة غير مستقرة : دون جواز سفر ، ولا اذن عمل ، ولا مصدر مالي يعتمد عليه ، رغم عمله في جريدة الحرية ، وكان يشكو فوق هذا من مرض السكري . وقد عكست اقامته الاولى في بيروت شعور عدم الاستقرار السياسي والاجتماعي الذي اتسمت به هذه المرحلة في دمشق والكويت ، ولكن بشيء من تحديد النظر ، والبحث عن جواب لأسئلته .

من هنا كانت رواية « رجال في الشمس » الذي كتبها غسان كنفاني مختبئا سنة ١٩٦٢ ، لتأزم الوضع السياسي آنذاك . نفس الموضوعة تسيطر دوما ، أي **شعور المنفي المعذب الذي ينعطف الى الوراء** ، ولكن بشيء متطور أكثر نحو اكتشاف حقيقة المنفى ، وصلب الالم ، ليجد الفلسطيني خلاصه .

وقبل ان نعرض الجوانب الاخرى لموضوعة المنفى ، أي الدوافع التي أعطتها ، كذلك الصور التي عكستها ، يجدر بنا ملاحظة ما سبق لنا قوله عن قصة « أرض البرتقال الحزين » ، عندما اعتبرناها رواية صغيرة ، أي رأينا فيها ممرا نوعيا الى الرواية ، وهذا ما أعطى بالفعل رواية « رجال في الشمس » . ولو دققنا النظر لوجدناها

تجوي ـــ مقسمة الى فصول ـــ عدة قصص ، ولولا خط الاحداث الواصل ما بينها ، لاعتبرنا كلا منها رواية صغيرة ، فيها ميزات مستقلة « كأرض البرتقال الحزين » . لهذا نرى ان « رجال في الشمس » ليست رواية كاملة بالمعنى الادبي ، بل فيها ملامح القصة القصيرة ، مثلما رأينا ان « أرض البرتقال الحزين » ليست قصة فقط ، بل لها ملامح الرواية .

ان « رجال في الشمس » عمل ادبي انتقالي نحو رواية فلسطينية ناجحة ، وهي في نفس الوقت تمثل المرحلة الانتقالية التاريخية ذاتها ، من عدم الاستقرار الاجتماعي والايديولوجي الى الاستقرار الاجتماعي الايديولوجي ، كأول اشارة للفهم الاكثر عمقا للواقـــع .

نجد في الرواية صورتين فنيتين مترافقتين على الدوام ، على الرغم من تناقضهما . احداهما تمثل الماضي الخصب المفعم بالكرامة، الا وهي صورة**الارض الخضراء** ببرتقالها وزيتونها ، والاخرى تمثل الحاضر الصعب المفعم بالمشاق الا وهي صورة **الصـــحراء القاحلة** بحرارتها ورمالها .

وملخص الرواية ان ابطالها يقطعون الصحراء مهربين الى الكويت **للحصول عـــلى ثروة** ، تمكنهم من قلب الحاضر الصعب الى ما كانوا عليه من ماض رغيد . لكن هذه العملية اللاعقلانية تكلفهم الموت ، اذ يلقون حتفهم عند حدود الكويت ، دون ان يصلوا الى غرضهم .

ان انتصار الصحراء ، أي الحقيقة اللاسعة ، على ما هو وهم ، وزوال صـــورة الارض الخضراء بمثل هذه النهاية التراجيدية ، له دلالات عميقة : انها بداية الشعور بالوعي الذي يقر بأن الصحراء وما ترمز اليه من وعورة المسار لا يمكن اجتيازهـــ والتغلب عليها الا بمواجهة حقيقية ، وليس بالهرب سعيا وراء **ثروة سهلة** .

أما الدوافع التي شكلت موضوعة المنفي هنا فهي كثيرة ، وقد عبرت عنها ميزات الشخصيات ، فكان دافع **الانانية وعدم الشرف** اللذين اتصف بهما ابو الخيزران :

« ـــ استطيع ان اهربك الى الكويت .

. . . . . .

ـــ كم ستأخذ مني ؟

. . . . . .

ـــ كم بوسعك ان تدفع ؟

ـــ خمسة دنانير .

ـــ فقط ؟

ـــ لا أملك غيرها .

ـــ حسنا ، سأقبلها .. ولكن لا تقل ذلك لاي انسان . أعني اذا طلبت من رجل آخر عشرة دنانير ، فلا تقل له انني أخذت منك خمسة فقط »(٥٦).

كذلك دافع **الخضوع للقدرية** الذي اتصف به ابو قيس ، فهو عاجز عن السيطرة على شروط وضعه البائس ، وقضي وقته واهما منتظرا ان تنقذه المعجزات : « وراء هذا الشط توجد كل الاشياء التي حرمها . هناك الكويت ، الشيء الذي لم يعش في ذهنه الا مثل الحلم والتصور »(٥٧).

وأيضا دافع **السلبية** التي اتسم بها اسعد ، فهو متحمس لقضيته ، لكـــن حماسه

أجوف دون قاعدة حزبية متينة ، فجاء دعمه للقضية محدودا ، وحينما أحس بالخطر يداهمه ، ترك كل شيء هاربا : « لماذا تهربون من هناك ؟.. — انها قصة طويلة »(٥٨).

واخيرا دافع **المغامرة** التي انقذت مع اهوالها مروان الفتى المراهق ، لتحقيق المستحيل الذي تعجز عنه امكانياته وقدراته : « كان يريد ان يعرف سبب ذلك الشعور البعيد الذي يوحي له الاكتفاء والارتياح ، شعور يشابه ذاك الذي كان يراوده بعد ان ينتهي من مشاهدة فيلم سينمائي ، فيحس بأن الحياة كبيرة وواسعة ، وانه سوف يكون في المستقبل واحدا من اولئك الذين يصرفون حياتهم ، لحظة اثر لحظة ، وساعة اثر ساعة ، بامتلاء وتنوع مثيرين »(٥٩).

من هنا ، لم يكن الموت قدريا ، بل كان حتميا . فمثل هذه الشخصيات المستسلمة المهزومة ، التي ربطت مصائرها مع ما هو وهمي ولا اخلاقي ، هي نتاج للمنفى ، مثلما كان المنفى نتاجا للموت . واكتمال المعادلة امر عادي جدا ، رغم ما فيها من تعقيد : اشارة متطورة نحو تفهم اشمل وأعمق لهذه المرحلة .

ب ٢) عالم ليس لنا

تستوجب هذه المجموعة الصادرة سنة ١٩٦٥ ترتيبها ضمن هذه الفترة، حيث تطغى موضوعة المنفى بشكل أكثر تطورا ، اخترنا منها ثلاث قصص ، عنوان الاولى « جدران من الحديد » ، والصورة الشعرية التي تعطينا اياها تشرح نفسها بنفسها ، اذ هي صورة **الطائر في القفص** : حكاية طائر يضرب بجناحيه قضبان قفصه دون انقطاع ، حتى عندما يقدمون له قفصا أكبر ، ويوقف ضرباته لحظة ان يبدأ احتضاره .

وبالنسبة لموضوعة المنفى ، فان هذه الحكاية تصفه كالسجن ، لكن النهاية غامضة : هل يموت الطائر لانه استنفذ قواه ، او هل يموت لانه توقف عن الضرب ؟

القصة الثانية « كفر المنجم » تعطينا صورة شعرية تذكر بمضمونها صورة اللؤلؤة في المحارة الاخيرة ، وهي تروي ايضا البحث عن ثروة يتوج بنجاح مبتغيها ، ولكن على حساب كرامته . المقصود هنا جمع **الذهب المدفون بالبصاق** ، صورة هذه القصة التي تتبنى تكنيك الاساطير بسردها مغامرة رجل شاب اراد ان يجرب حظه للمرة الاخيرة قبل ان ينتحر ، فيبحر نحو مدينة من الذهب وسط البحر ، وهناك يجمع ذهبا كثيرا مطمورا بالبصاق الاسود. ان**دافع فقدان الشخصية بواسطة النقود** يظهر واضحا جدا للمرة الاولى ، وهذه اشارة اخرى لتفهم أكثر عمقا للنضال الاجتماعي الذي تتضمنه مشكلة شعبنا .

وكذلك فان فهم دافع « **الفلسطيني الذي يبيع نفسه** » هو ايضا عبارة عن الشعور بالوعي ، الوعي بالمستقبل الذي بدأ أكثر فأكثر يمثله . فاذا كان الكاتب يطرح مسألة ذاك الذي ضاع من أجل قضية الشعب ، فهو يطرح في نفس الوقت مستقبل وطريق هذه القضية .

قصتنا الثالثة « العروس » تتجه بشكل واضح نحو المستقبل ، حكاية رجل يبحث في كل مكان عن عروسه ، له هيئة مجنون ، لكنه مقاتل قديم اضاع بندقيته . ونجد بهذا مطابقة بين صورة العروس وصورة البندقية التي تميز الكفاح بسمة جديدة ، اذ ان أمل وخلاص هذا المقاتل الشاب يوجدان في نصفه الاخر، أي في بندقيته : « ابحث معي عنه (عن هذا المقاتل) حيث انت ، فلدي أخبار جديدة عن العروس »(٦٠).

والجدير ملاحظته ان هذه القصة كتبت سنة ١٩٦٥ ، السنة التي كانت فيها انطلاقة الثورة .

يجدر بنا القول ان غسان كنفاني في هذا التاريخ قد أصبح عضوا في حركة القوميين العرب ، وأخذ منصب رئيس تحرير جريدة المحرر عام ١٩٦٣ ذي الاتجاه الناصري ، وكانت أعماله في هذه الفترة تمثل بالفعل المرحلة الانتقالية في بحثه عن تحديد ايديولوجي واضـــح .

وان التطور الايديولوجي في أعماله ، الذي لازم التطور التاريخي لمسار الشعب الفلسطيني ، يلتقي مع انطلاقة الثورة الفلسطينية سنة ١٩٦٥ ، ليبدأ الطريق الجديد ، نحو استقرار أيديولوجي واجتماعي ، مع ملاحقة مؤقتة ، **لشعور المنفـــي المعذب ، ولكن الذي ينعطف الى الامام .**

ج) بيروت نحو استقرار اجتماعي وايديولوجي

ج ١) ما تبقى لكم

كان انتاج غسان كنفاني في الفترة ما بين انطلاقة الثورة الفلسطينية سنة ١٩٦٥ وسقوط انظمة البورجوازية الصغيرة بعد حرب ١٩٦٧ ينمو وينضج مع نمو ونضج المرحلة الثانية لحركة التحرر الوطني . وقد ميز هذه الفترة الشعور بالوعي ، وان تجاوز الحاضر البائس الى مستقبل زاهر لن يتم الا اذا تحرك الفلسطيني بنفسه ، ودون اعتماد على أحد ، لمواجهة العدو السياسي والاجتماعي .

لقد أدرك غسان كنفاني في الفترة التي كان فيها ناصريا ، ان مصر او اي بلد عربي آخر ، لن يتحرك لتحرير فلسطين ، ما لم يتحرك الفلسطيني نفسه وبارادته الحرة على طريق التحرير ذاته . فكانت الموضوعة الرئيسية الثانية التي شملت انتاج هذه الفترة هي : **شعور المنفي المعذب الذي ينعطف الى الامام .**

من هنا جاءت رواية « ما تبقى لكم » سنة ١٩٦٦ ، التي اكتملت فيهـــا عناصر الرواية ، وأعطت مضمونا شاملا للتحول السياسي في هـــذه الفترة ، والنفاذ الـــى استقرار اجتماعي وايديولوجي يكون قاعدة انتقال من ثورة وطنية ديمقراطية الى ثورة اجتماعية .

وملخص الرواية : حامد يقطع الصحراء في طلب أمه (فلسطين) ، وهو في الطريق يلتقي بأحد الجنود الصهاينة ، يخلصه سلاحه ، ويتصدى له وجها لوجه . في الوقت الذي تقتل مريم ـــ أخت حامد ـــ زكريا الخائن ، الذي تزوجته بعد أن اعتدى عليها .

الدوافع كلها ايجابية ، كذلك الصور الفنية . الصورتان هما ذاتهما اللتان في رواية « رجال في الشمس » ، اي **الارض بجنانها وخيراتها ، والصحراء بشمسها ورمالها ،** مترافقتان دوما ، ولكن ، ليستا متناقضتين ، بل تسعيان نحو بعضهما البعض ، حتى تكاد الواحدة أن تمتزج في الاخرى . الارض الخضراء التي تمثل فلسطين هي **الام** التي يذهب اليها حامد طوعا وبارادته ـــ بعد أن جعلته شروط الحيـــاة التعسة في المخيم واعيا ـــ لانقاذها ، او بالاحرى ، لتحريرها ، مواجها أهوال الصحراء . هذه الصحراء التي تتعاطف معه « وفجأة ، جاءت الصحراء . رآها الان لاول مرة مخلوقا يتنفس على امتداد البصر ، غامضا ومريعا وأليفا في وقت واحد »(٦١) وتصبح طوع يديه ، ويصبح جزءا من جسدها : « فأحس بدنه يعلو ويهبط فوق صدرها »(٦٢) وهذا يستحيل الا مع ارضه ذاتها . وبما انه ذاهب من اجل مهمة فيها خلاص حقيقي من الواقع المعذب الذي يحياه ، تساعده الصحراء على العبور ، تعطيه الحياة وليس الموت مثلما حصل مع « رجال في الشمس » ، وتصبح مثل ارضه : لها طبيعة تربتها اللينة، وحرارتها اللطيفة .

صورة أخرى ايجابية هنا ، هي صورة **طريق الكفاح المسلح لتحرير فلسطين** ، وقد رافق هذه الصورة دافع **خلق حياة جديدة** تستجيب مع الموضوعة الرئيسية وتؤكد التجاوز والانعطاف الى الامام . هذا التجاوز يظهر بشكل متطور كدافع لما تميزت به شخصية مريم : **تجاوز الحرمان والذاتية** ، الذي يتبع الشعور بالبؤس والخلاص منه بالممارسة لا بالقدرية .

وقد حققت مريم ذلك لحظة ان قتلت الخائن زكريا : العدو الثانوي وأحد اسباب الهزيمة السياسية والاجتماعية ، في الوقت الذي يقف أخوها في منتصف الصحراء ، منتصف الطريق الى فلسطين ، وجها لوجه مع الجندي الصهيوني ، العدو الاساسي ، من أجل القضاء عليه . (في منتصف الطريق ، ووجها لوجه مع العدو بانتظار الحركة التالية) هذا يفسر أولى خطوات الثورة .

ج ٢) عن الرجال والبنادق

وتأتي سنة ١٩٦٨ لتعطي عملا أدبيا جديدا ، ويعود الكفاح ضد الاحتلال الصهيوني قبل نكبة ١٩٤٨ ليشمل القسم الاول من الكتاب . أربعة فصول متسلسلة تحكي الماضي البطولي بكل ايجابياته . وهي اذ تتعرض لسلبيات هذا الماضي انما تسحب منها العبرة، لحاضر بدأ التنظيم الثوري يأخذ مداه . ولاول مرة تبدو صورة **البندقيـــة الفلسطينية** واضحة المعالم ، قوية ، وجميلة ، في قبضة المقاتل . أحدهما لا غنى له عن الآخر . أحدهما يستمد هويته وشخصيته من الآخر . كذلك فان أحدهما لا معنى له دون الآخر . ان كليهما يكتمل بالآخر ، وهكذا جاء ذاك الذوبان بين **صورة البنادق وصورة الرجال** الذين يحملون البنادق دفاعا عن فلسطين . وهناك ذوبان أيضا بين الماضي البطولي ، والحاضر البطولي بعد انطلاقة الثورة الفلسطينية ، فالقصة قصة الكفاح المسلح . لهذا أمكن لغسان كنفاني « تعصير » احداث ووقائع الماضي باعطائها طابع احداث ووقائع الحاضر . حقا انها تمثل مرحلة ماضية من النضال ، لكنها في ذات الوقت حافز لنضال المرحلة الحاضرة . من هنا يمكننا استنتاج دافع **استرداد الثقة** الذي أعطته موضوعة المنفي الذي ينعطف الى الامام . كذلك دافع **الاستمرارية** بعد اجتياز المرحلة الانتقالية ، لغاية التحرير . اذ لم يعد المنفى تلك الصحراء ذات الاهوال والصعاب ، وانما الذي يمكن اجتيازه ، مع الاستمرار في العبور ، طالما في القبضة بندقيـــة ، وللثورة هدف واضح يرمي المقاتل الى تحقيقه .

وهذا ما نجده في القسم الثاني من الكتاب ، المؤلف من اربع قصص قصيرة ، يعيد فيها الكاتب تطور الكفاح الاجتماعي والسياسي بمراحله التي سبق ان تعرضنا لها — في المنفى : المخيم حيث الضياع والبؤس(٦٣)، الشعور بالوعي(٦٤)، مواجهـــة الاحتلال الصهيوني(٦٥)، الايمان بالبندقية كناية عن الكفاح المسلح(٦٦). وتتحدد معـــالم هذا التطور بصورة أدق وأشمل في انتاجات الكاتب اللاحقة .

مع انتهاء هذه المرحلة ، يبدأ غسان كنفاني مرحلة الكاتب والمناضل الثوري . فبعد حرب الستة أيام ١٩٦٧ استقر فكره السياسي والايديولوجي ، اذ أصبح ماركسيا — لينينيا ، وقائدا من قادة الثورة الفلسطينية ، الناطق الرسمي باسم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، الى جانب مهمات رئيس تحرير مجلـــة الهدف ، اللسان المركزي للجبهة .

٢) مرحلة الكاتب والمناضل الثوري

أ) بيروت : اجتماعية ، سياسية ، ثقافية

أ ١) عائد الى حيفا

الاعمى والاطرش

لاحظنا ان التطور الايديولوجي والسياسي لغسان كنفاني قد رافق التطور التاريخي والاجتماعي للقضية الفلسطينية ، وبالتالي كان تطور الموضوعات الرئيسية في أعماله الادبية . وفي هذه المرحلة التي تحددت فيها المعطيات التاريخية للثورة ، تأتي موضوعة **المناضل الثوري** ، كتعبير حي وموضوعي للواقع التاريخي الحاضر . وتتعدد جوانبها ، ليأخذ كل جانب قسما من انتاج هذه المرحلة . تتمم ببعضها البعض ، بحيث ترتقي في ثلاث درجات ، صعودا نحو مفهوم اجتماعي عميق للثورة .

واكثر ما يتناسب مع القسم الاول من الانتاج روايتا « عائد الى حيفا » (١٩٦٩) و« الاعمى والاطرش » (١٩٧٢) رغم صدورهما في تاريخين متباعدين .

في الرواية الاولى يذهب البطل بعد هزيمة ١٩٦٧ بصحبة زوجه الى حيفا بحثا عن ولده الذي تركه رغما عنه صغيرا في المهد وهاجر سنة ١٩٤٨ . عندما يصل بيته يجد فيه عجوزا يهودية أشرفت على تربية الطفل ، فنشأ وترعرع في كنفها ، ولم يقبل دونها أما ، ولا دون زوجها أبا ، وصار جنديا في الجيش الاسرائيلي .

الصورة الفنية هنا ، **أبواب مدينة حيفا المفتوحة للمهزومين** ، والبطل في طريقه اليها، كان يتحدث طول الوقت لزوجه عن بيته وابنه والبحر ، كان يتحدث عن الماضي الذي فتحت الهزيمة ابوابه على المصراعين ، والذي يجد نفســه مجبرا ــ رغم ارادته او بارادته ــ على الدخول فيه . لكن العودة الى الماضي بشكل حقيقي وملموس ، وليس عن طريق الحلم ، تنكشف دونه الحقيقة ، فيكف الماضي عن الحياة : « كنت أتساءل فقط . أفتش عن فلسطين الحقيقية . فلسطين التي هي أكثر من ذاكرة ، أكثر من ريشة طاووس ، اكثر من ولد . . »(٦٧).

بل تصبح معايشة الماضي عاملا ثوريا ، اذ يتمنى الاب أن يكون ولده الثاني قد انخرط في حركة المقاومة ، وأصبح فدائيا .

ان دافع **الانخراط في الثورة** هو جانب من جوانب موضوعة المناضل الثوري ، وهو تأكيد على عدم تكرار خطأ ١٩٤٨ ، وان الفرق بين هزيمة ١٩٤٨ وهزيمة ١٩٦٧ ان الماضي ينتهي بلا رجعة وان الحاضر مفعم بالامل ، والهزيمة هزيمة للهزيمة ، فلا رحيل جديد ، ولا شتات آخر ، بل تنظيم واستعداد .

وفي الوقت الذي يحصل فيه الطلاق الابدي بين الفلسطيني والماضي/الوهم الذي تنتجه النكبة الاولى ، يجتاز الفلسطيني ايضا بؤس المخيم واغترابه المتمثل في «العمى» و« الطرش » . هذا العهد الذي يمتد بين النكبتين ، يصبح في عداد الماضي الميت أيضا في رواية « الاعمى والاطرش » : ابنا المخيم اللذان كانا يطمعان في الشفاء على يدي أحد الاولياء الدجالين ، فيكتشفان ذلك عند لحظــة الشعور بالوعي ، وان كــل ما هو ميتافيزيقي وغيبي لا صلة له مع الواقع ، والخيار الوحيد هو الثورة .

لهذا نرى ان **صورة الليل والصمت** اللذين يرمزان الى العمى والطرش ، تحــوي ضمنيا النهار والصراخ اللذين يعنيان الحياة الجديدة **والغضب الثوري الباعث لهذه الحياة** ، حيث يكمن الدافع المسيطر في هذه الرواية .

وهكذا فقد : ١ ــ تحددت **الثورة الاجتماعيـــة** بادراك ثوري للشروط الاجتماعية الفردية لحالة البؤس ، نحو ادراك طبقي وارادة جماهيرية فعالة : « نستطيع مثلا أن نذهب فنحطم قبر الولي . . نستطيع أن نذهب فنضرب مصطفى (مدير مكتب الاعاشة) ونرغمه على الزواج من زينة (التي اعتدي عليها) نستطيع ان نلقي خطابا في جموع اللاجئين . . نستطيع أن نفعل ذلك وأكثر . نستطيع أن نعود الى الطيرة (في فلسطين المحتلة) . الا نستطيع ؟ »(٦٨) .

٢ ــ تحددت **الثورة السياسية** بالمقاومة كتنظيم وكمفهـــوم ثوريين ، المعقـــودة باستراتيجية حرب التحرير الشعبية الطويلة النفس : « تستطيعان البقاء مؤقتا في بيتنا ، فذلك شيء تحتاج تسويته الى حرب . . أرجو أن يكون خالد قد ذهب (ليشارك في العمل الفدائي) »(٦٩) .

٣ ــ تحددت **الثورة الثقافية** بوضع حد للمعايير الميتافيزيقية والغيبية ، وان الحقيقة هي الممارسة : « ورأيت بعين الحقيقة ما رأيته ليلة أمس مئة مرة بعين الحلم . انهم يجمعون ارادتهم في أكتافهم وراء هذا الباب . يكورون قبضاتهم فتصبح مثل الصخور بصفد ، ويستعدون »(٧٠) .

٢) العاشق

برقوق نيسان

من حصة هذا القسم الانتاج الادبي لسنتي ١٩٧١ ، ١٩٧٢ « العاشق » و« برقوق نيسان » على التوالي . هناك عودة الى الماضي ، ولكن **الماضي المشبع بدافع النضال والصمود** ، الذي استخلصناه من رواية « العاشق » . يوازيه **الحاضر المشبع بدافع النضال والصمود** في رواية « برقوق نيسان » .

ان الحركة الديالكتيكية بين الماضي ــ الهزيمة قبل وبعـــد ١٩٤٨ ، تقابلها حركة ديالكتيكية بين الماضي ــ النضال والحاضر ــ النضال ، والتي اصطدمت ــ لتناقضها الجوهري ــ مع الحركة الاولى أيضا ديالكتيكيا ، وتجاوزتها لتحدد مع كل ما يغلي فيها من عوامل ايجابية المرحلة الحاضرة للثورة .

ونلمس التحام تاريخ **النضال والصمود** في التحام المقاتل الفلسطيني على امتداد هذا التاريخ . « فالعاشق » هو « قاسم » الذي حارب الاقطاعية والاستعمار البريطاني قبل سقوط فلسطين ، وداوم على الهرب والاختفاء في الجبـــال والحقول خوفا ان يقع في شباكهما ، وهو « قاسم » (ليس اختيار الكاتب لاسم البطل عفويا) نفس المسحوق في « برقوق نيسان » الذي قتله الصهاينة بعد سقوط الضفة الغربية لكونه فدائيا . ان امتداد جسد المقاتل الفلسطيني ليملأ تاريخ النضال ، امتداد جسد الفلاح الفلسطيني كجذع متين للثورة ، يعطي معنى التقييم المادي والنفسي والطبقـــي لهذه المرحلة . ويتجسم هذا في التحالف القائم بين طبقة المسحوقين وطبقة المثقفين الثوريين كما في « برقوق نيسان » لمحاربة العدو الصهيوني في الاراضي المحتلة .

ان الصور الجمالية صور طبقية ، **فزهر البرقوق الاحمـــر** مخضبة بلون الدم : دم الفلاح : دم الطبقة المسحوقة ، وهي انعكاس صادق لجمالها . حتى ان الطبيعة هنا والربيع ايضا ، طبيعة وربيع الطبقة التي أعطت كل قواها ، وتعطي دمها أيضا من أجل الخصب : « بدن الارض مثل بدن رجل مثقب بالرصاص ، يتضرج بزهر البرقوق ، ويكاد يسمع نزيز الدم يتدفق من تحته ، ولا ريب ان قاسم بدا كذلك بعد هنيهات من

سقوطه ، ثم ذبلت بقع الدم على سترته الخاكية مثلما تجفف شمس الصيف المتوقدة أوراق البرقوق الهشة »(٧١).

ان صورة **زهر البرقوق الاحمر** هي في دلالتها العميقة صورة فلسطين المحتلة ، ذات الجروح ، ولكن الصامدة والحمراء والمزهرة ، ولونها لون المقاومة المتأججة .

كذلك صورة **نار العاشق الحمراء** في رواية « العاشق » ، النار التجريدية ، نار الهوى ، والنار العينية نار اللهب : « أحسست بالنار تسلخ راحتي قدمي ، وكدت أسمع نزيز الدم ينطفىء بصوت مسموع تحت بدني ... وظل يتقدم ، كأنه يمشي على عشب . لقد هزني الرعب ، وسمعت نبض قلبي جنبا الى جنب مع الفحيح المكتوم للنار الراقدة تحت قدميه الحافيتين ، وقلت بيني وبين نفسي : نبي أو مجنون ! »(٧٢).

ان امتزاج الصورتين يعطي امتزاج **الدم والنار** : امتزاج العطاء وحدة العطاء : امتزاج ارض البرقوق وزارع البرقوق : امتزاج مرحلتين من تاريخ النضال الفلسطيني الايجابي ضمن الفعل التاريخي الدافع الى الامام .

وهكذا فقد : ١ ــ تحددت **الثورة الاجتماعية** بادراك طبقي للمعركة الاجتماعية ، نحو ادراك جماعي جذري : « ثمة أمور كبيرة تجري ، وهو بلا ريب يلعب فيها دورا كبيرا ... على انه تيقن من أن هذا الرجل ... هو الذي ينبغي ان يقود خطواته منذ هذه اللحظة (في المواجهة الثورية القائمة) »(٧٣).

٢ ــ وتحددت **الثورة السياسية** باتساع قاعدة المقاومة الشعبية في أوساط الطبقة المسحوقة ، وامتداد التنظيم السياسي والعسكري داخل الاراضي المحتلة الذي أدى الى مواجهة يومية باسلة مع العدو : « كانت تشعر بشيء من الاعتزاز حين كلفت القيام باتصال صغير في نابلس (الارض المحتلة) .. وكانت القدرات التي أظهرتها في الاتصال وفي العمل هي التي أوصلتها في فترة وجيزة الى مرتبة قيادية في نابلس »(٧٤).

٣ ــ تحددت **الثورة الثقافية** بمساهمة المثقفين الثوريين في القيادة ، واعطاء الكفاح المسلح مضمونا علميا ماركسيا ــ لينينيا : « كان زياد عضوا قديما في الحزب الشيوعي .. وكان يعتبر من المثقفين الاكثر اطلاعا في نابلس »(٧٥). « ان المفتاح في يد الاستاذ زياد ، وهو وحده الذي يجيب على هذه الاسئلة »(٧٦). المفتاح هو الفكر الثوري ، والاسئلة هي متطلبات الكفاح المسلح الملحة في حركته المتطورة .

أ ٣) أم سعد

هذه الرواية هي الجواب الذي كلف غسان كنفاني كل انتاجه الادبي . وهي الجواب لمسار مليء بالشوك منذ أن بدأت معاناة الشعب الفلسطيني الاولى . انها التجسد الواعي الكامل لموضوعة **المناضل الثوري** بكل دوافعها . وهي تعبير عن التطور الجدلي للمرحلة الثانية من تاريخ الثورة الفلسطينية نحو الاشتراكية . رواية « ام سعد » هي رواية الثورة الاجتماعية ، الرواية « الجمعية » التي عبرت عن الانسان الفلسطيني الجديد .

ولغناء العالم الذي تمثله الرواية ، نجد هناك تسعة فصول كل منها عبارة عن لوحة ، أو صورة ، رسمتها أم سعد الفلاحة الفلسطينية الفقيرة . تظهر ملامح الصورة الاولى في العنوان الذي أعطاه الكاتب « ام سعد والحرب التي انتهت » : أي صورة حرب ١٩٦٧ التي انتهت . تقابل ام سعد الهزيمة بارسال ولدها لينخرط في حركة المقاومة وتزرع دالية عنب صادفتها في الطريق .

وتكمن الصورة الثانية أيضا في عنوان الفصل الثاني ، خيمة عن خيمة تفرق ، اي : **خيمة البؤس وخيمة الفدائي** . تقارن ام سعد بينهما ، وتقـــر أن خيمة الفدائي هي الخيمة التي يجب أن تضم الجميع : « لو لم يكن لدي هذان الطفلان للحقت به (ولدها الفدائي) . لسكنت معه هناك . خيام ؟ خيمة عن خيمة تفرق . لعشت معهم ، طبخت لهم طعامهم ، خدمتهم بعيني .. »(٧٧) .

الصورة الثالثة هي صورة **المطر والرجل والوحل** عنوان الفصل الثالث، عن الصمود في الوحل والمطر اللذين قضت ام سعد في جرفهما طوال الليل ، والرجل الفدائي الذي أتاها لينقل أخبار ولدها وهو يقوم بالعمليات ضد الجيش الاسرائيلي .

أما الفصل الرابع : « **في قلب الدرع** » ، الصورة التي نشاهدها حينما يقاتل سعد ورفاقه العدو في قلب الحقل ويعون أهل القرية ، مشكلين معا درعا يحميهم. أما صورة **الذين هربوا والذين تقدموا** فهي تشير الى أصحـــاب السيارات اللوكس ، الطبقـــة البرجوازية التي هربت وقت الغارات ، وطبقة الفقراء التي تصدت للطائرات وصمدت في أماكنها .

وصورة **الرسالة التي وصلت بعد ٣٢ سنة** ، عنوان الفصل السادس ، هي رسالة انذار بالقتل من فدائي اليوم لاقطاعي خان الثورة سنة ١٩٣٦ بقتله فدائي الامس ، لئلا يكرر فعلته . لم يتغير الفدائي بالطبع ، كذلك البندقية ، لكن الذي تغير وعي وارادة فدائي اليوم ، كاتب رسالة الانذار التي كان من المفروض ان يكتبها فدائي الامس منذ ٣٢ سنة ، فيحول دون انطفاء ثورة ١٩٣٦ .

ويمكن ايجاز صورة واحدة للثلاثة فصول الباقية ، **بصورة الانســـان الفلسطيني الجديد في المخيم الجديد** : « عينك عالشباب في المخيم ، كل واحد منهم يحمل مرتينة او رشاشا ، والكاكي في كل بيت »(٧٨) .

هذه هي جماهير الثورة ، قوتها المادية الهائلة . ان دافع **التحول** تغنيه هذه الحركة الهادرة على الدوام . ودافع **التقدم الى الامام** يأخذ معناه مـــن دفعات ذراعي الام الفلسطينية التي تحمل البندقية بيد ، وتجرف الوحل بيد . كذلك فان دافع **الوفاء للوطن لا ينفصل عن الفداء** ، لان الثورة في العملية التاريخية تأخذ ابعادها من التضحية التي يبذلها الانسان .

وهكذا فقد : ١ ــ تحددت **الثورة الاجتماعية** بادراك جمعـــي جذري له ابعـــاده الأشتراكية العريضة ، وارادة جماهيرية خلاقة : « وحدي ؟ كل نساء المخيم وأولاده وشبابه خرجوا كأنهم اتفقوا على ذلك سلفا ، ووقفنا جميعا هناك »(٧٩) « وبسرعة انتشروا كالاشباح ، على طول الطريق ، ينظفونه من العراقيل »(٨٠) . « اطفال المخيم وبناته ورجاله يقفزون عبر النار ، ويزحفون تحت الاسلاك ، ويلوحون بأسلحتهم»(٨١) .

٢ ــ وتحددت **الثورة السياسية** بما توجبه الثورة الشعبية مـــن تغيير في الفعل السياسي والعسكري يتفق مع مطامح وآمال الجماهير : « اما الآن فقد تغير كل شيء.. (انه يتحدث) عن الكلاشينكوف الذي كان يفضل ان يشير اليه بمجرد كلمة « كلاشن » مثلما يفعل سعد حين كان يزورهم »(٨٢) .

« ترى ذلك الولد الذي يرفع المرتينة ؟ انه ابني سعيد .. واخوه الكبير سعد مع الفدائيين في الاغوار .. هذه المرأة تلد الاولاد فيصيرون فدائيين .. وتغير أبو سعد منذ تلك الظهيرة .. قالت لي ام سعد : الحالة صارت غير . الزلمة قال لـــي انه صار للعيشة طعم الآن ، الآن فقط »(٨٣) .

٣ ــ وتحددت **الثورة الثقافية** بذوبان المثقف في المقاتل ، والمقاتل في الجماهير، ليعطي وحدة جدلية يكون فيها نبضها الثوري : « اننا نتعلم من الجماهير ، ونعلمها .. المعلم الحقيقي الدائم ، والذي في صفاء رؤياه تكون الثورة جزءاً لا ينفصم عن الخبز والماء وأكف الكدح ونبض القلب »(٨٤).

لم تنته بعد هذه المرحلة من عمر القضية الفلسطينية الممتلئة بالنضج الثوري ، ولن يكتب لغسان كنفاني ، الكاتب والمناضل الثوري ، ان يرافقها ويتطور فكره السياسي والايديولوجي اكثر معها ، بعد أن انقطع انتاجه الادبي بمقتله في بيروت يوم ٨ تموز ١٩٧٢ ، فكانت الاعمال الادبية الخلاقة التي تركها ، هي كل ما استطاع ان يقدمه لفلسطين .

---

١ ــ وزارة الارشاد القومي : **قضية فلسطين** (دمشق : مصلحة الاستعلامات ، ١٩٦٨) ص ٥١ .

٢ ــ المصدر السابق ، ص ٥٤ .

٣ ــ ناجي علوش : **الحركة الوطنية الفلسطينية أمام اليهود والصهيونية** (بيروت : مركز الابحاث ، ١٩٧٤) ص ١٤٩ .

٤ ــ اميل توما : **جذور القضية الفلسطينية** (بيروت : مركز الابحاث ، ١٩٧٣) ص ٢٢٨ و٢٣٥ .

٥ ــ ناجي علوش : المصدر السابق ، ص ١٤٨.

٦ ــ سامي الجندي : **عرب ويهود** (بيروت : دار النهار ، ١٩٦٨) ص ٥٩ .

٧ ــ هشام شرابي : **المقاومة الفلسطينية في وجه اسرائيل وأمريكا** (بيروت : دار النهار ، ١٩٧٠) ص ٢٠٣ .

٨ ــ زكي المحاسني : **طوقان شاعر فلسطين** (القاهرة : دار الفكر العربي ، بدون تاريخ) ص ١٧٣ .

٩ ــ هشام شرابي : المصدر السابق ، ص ٢٠٦.

١٠ ــ اميل توما ، المصدر السابق ، ص ٩٧ ــ ٩٨ .

١١ ــ هاني مندس : **العمل والعمال في المخيم الفلسطيني** (بيروت : مركز الابحاث ، ١٩٧٤) ص ١٣ .

١٢ ــ معين محمود : **الفلسطينيون في لبنان** (بيروت : دار ابن خلدون ، ١٩٧٣)، ص ١٠ .

١٣ ــ المصدر السابق ، ص ١١ .

١٤ ــ حديث لناطق رسمي من فتح : **النيويورك تايمز** ، ٣ كانون الثاني ١٩٦٨ ، ص ٦ .

١٥ ــ **مجلة الثورة الفلسطينية** : عمان ــ أيلول ١٩٦٨ ، ص ١١ .

١٦ ــ المصدر السابق ، ص ٥ .

١٧ ــ **مقررات المجلس الوطني الفلسطيني** ، القاهرة ، كانون الثاني ١٩٦٨ ، المادة ١٢ .

١٨ ــ المصدر السابق ، المادة ٢٢ .

١٩ ــ هشام شرابي : المصدر السابق ، ص ٢١٥ ــ ٢١٩ .

٢٠ ــ باشراف نبيل شعث : **المقاومة الفلسطينية والنظام الاردني** (بيروت : مركز الابحاث ، ١٩٧١) ، ص ٢٧٩ .

٢١ ــ ياسر عرفات : خطبة ١٣ تشرين الثاني ١٩٧٤ ، **مجلة فلسطين الثورة** ، العدد ١١٨/ بيروت ، ١٧ تشرين الثاني ١٩٧٤ ، ص ١٣ .

٢٢ ــ اميل توما : المصدر السابق ، ص ٢١٦ ــ ٢١٧ .

٢٣ ــ المصدر السابق ، ص ٢١٧ .

٢٤ ــ المصدر السابق ، ص ٢١٨ : الامور نفسها بالنسبة لسوريا حيث شن اضراب عام سنة ١٩٣٦ « وانتهى هذا الاضراب بعد حوالي خمسين يوما في مطلع آذار ١٩٣٦ ، بعد ان تعهدت الحكومة الفرنسية باعادة الحياة النيابية الى سوريا ، وعقد اتفاق مع حكومة قومية ، ينص على الاعتراف باستقلال البلاد » .

٢٥ ــ عباس محمود العقاد : **عبقرية عمر** ، (القاهرة : المكتبة التجارية ، ١٩٤٨) ص ١١ .

٢٦ ــ المصدر السابق ، عناوين لبعض الفصول.

٢٧ ــ جلال فاروق الشريف : الشعر العربي الحديث والتحديات الجديدة ، **مجلة الموقف الادبي** ، رقم ٦ ، دمشق ١٩٧٤ ، ص ٧ .

٢٨ ــ خليل السواحري : مقهى الباشورة ، **مجلة أفكار** / عمان .

٢٩ ــ خليل السواحري : المصدر السابق .
٣٠ ــ اسامة فوزي يوسف : ملامح فنية عامة في القصة الاردنية القصيرة ، **مجلة الموقف الادبي** ، دمشق ، تشرين الاول ١٩٧٤ ، ص ٤٩ .
٣١ ــ جمال عبدالناصر : خطاب ٩ آذار ١٩٥٨ في دمشق ، **مجموع الخطب والتصريحات والبيانات** ــ الرئيس جمال عبدالناصر ــ القاهرة الجزء الثاني ، ص ٥٧ .
٣٢ ــ احدى التركات المفجعة للاستعمار هي ما يطلق عليه فرانز فانون «تجهيل» déculturation الشعب المسحوق، ويعبر من هذا التجهيل بواسطة « تلقين » acculturation اللغة الفرنسية في الجزائر ، والذي لا يمكن استبداله بعملية تعريب ، بسهولة . وهكذا فقد كتب محمد ديب روايته « سيف افريقي » بالفرنسية ، وقام بترجمتها للعربية جورج سليم في دمشق سنة ١٩٦٤ .
٣٣ ــ احمد ابراهيم الفقيه : الجراد ، **مجلة المعرفة** ، عدد ٦٤ ، دمشق ، ١٩٦٧ ، ص ٩٩ ــ ١١٦ .
٣٤ ــ ٣٥ ــ ٣٦ : عبدالرحمن ياغي : **حياة الادب الفلسطيني** (بيروت : المكتب التجاري ، ١٩٦٩) ص ٥٠٣ ــ ٥٠٤ .
٣٧ ــ المصدر السابق ، ص ٥١٤ .
٣٨ ــ نادرة جميل السراج: سميرة عزام في ذكراها الخامسة ، **مجلة شؤون فلسطينية** ، اكتوبر ، بيروت ، ١٩٧٢ ، ص ٧٤ ــ ٧٥ .
٣٩ ــ بموضوعة Theme تطلق على مجموعات ايديولوجية تنضوي تحت هيكل واحد ، وتتحدد مقولة الموضوعة في المنهج الايديولوجي للعمل الادبي . ولا يمكننا ان نستخلص سوى موضوعة واحدة من عمل ادبي يحوي في المقابل عدة دوافع Motif وهكذا فان الدافع عبارة عن « موضوعة ــ مساعدة » تظهر جوانب اخرى من مركب « موضوعة » .
٤٠ ــ بصورة فنية «Image artistique» ، نفهم تشخيص الموضوعة عن طريق الرموز ، الاشياء او الحالات. والصورة عبارة عن مجموعة جمالية تقدم نفسها ككثيف « بصري » ، بمعنى انها تجمع او « تكثف » مظاهر جد مختلفة من الموضوعة . وتتشكل الصورة الفنية من عدة « صور ــ مساعدة » نطلق عليها **تفاصيل واقعية** . وهكذا تقوم كل من الموضوعة والصورة في منهجين مختلفين للمضمون الواحد ، الاولى في المنهج الايديولوجي والثاني في المنهج الجمالي، وبالتالي فهما تمثلان الشمول الاعظم ــ للافكار والجمال ــ للعمل الادبي .
٤١ ــ غسان كنفاني : **الاثار الكاملة** ، الجزء الثاني ، **موت سرير رقم ١٢** (بيروت : دار الطليعة ، ١٩٧٣) ، ص ٥٢ .
٤٢ ــ المرجع نفسه ، ص ٦٧ .
٤٣ ــ المرجع نفسه ، ص ٧٨ .
٤٤ ــ المرجع نفسه ، ص ٩٧ .
٤٥ ــ المرجع نفسه ، ص ١١١ .
٤٦ ــ المرجع نفسه ، ص ١١٠ .
٤٧ ــ المرجع نفسه ، ص ١٤٢ .
٤٨ ــ المرجع نفسه ، ص ١٥١ .
٤٩ ــ المرجع نفسه ، ص ١٤٩ .
٥٠ ــ المرجع نفسه ، ص ١٤٩ .
٥١ ــ المرجع نفسه ، ص ١٦٣ .
٥٢ ــ غسان كنفاني ، **أرض البرتقال الحزين** ، الجزء الثاني ، (بيروت ، دار الطليعة ١٩٧٣) ص ٣٣٨ .
٥٣ ــ المرجع نفسه ، ص ٣٥٠ .
٥٤ ــ المرجع نفسه ، ص ٣٦٨ .
٥٥ ــ آني كنفاني : «**غسان كنفاني**» ، (بيروت: مركز الابحاث ، ١٩٧٣) ص ١٣ .
٥٦ ــ غسان كنفاني ، **الاثار الكاملة** ، المجلد **الاول** (بيروت : دار الطليعة ، ١٩٧٢) ، **رجال في الشمس** ، ص ٨١ ــ ٨٢ .
٥٧ ــ المرجع السابق ، ص ٤٦ .
٥٨ ــ المرجع السابق ، ص ٦٥ .
٥٩ ــ المرجع السابق ، ص ٧٣ ــ ٧٤ .
٦٠ ــ غسان كنفاني : **أرض البرتقال الحزين** ، الجزء الثاني (بيروت ، دار الطليعة ، ١٩٧٣) ص ٦٠٦ .
٦١ ــ غسان كنفاني : **ما تبقى لكم** ، المجلد **الاول** ، (بيروت : دار الطليعة ، ١٩٧٢) ، ص ١٦١ .
٦٢ ــ المرجع السابق ، ص ١٦٢ .
٦٣ ــ غسان كنفاني ، قصة من « عن الرجال والبنادق » بعنوان : الصغير يذهب الى المخيم، المجلد ٢ (بيروت : دار الطليعة ، ١٩٧٣) ، ص ٧١٠ .

٦٤ ــ المرجع نفسه ، القصة بعنوان : الصفير يكتشف ان المفتاح يشبه الفأس ، ص ٧٢٩ .

٦٥ ــ المرجع نفسه ، القصة بعنوان : صديق سلمان يتعلم اشياء كثيرة في ليلة واحدة ، ص ٧٣٩ .

٦٦ ــ المرجع نفسه ، القصة بعنوان : حامد يكف عن سماع قصص الاعمام ، ص ٧٥٥ .

٦٧ ــ غسان كنفاني : **عائد الى حيفا** ، الجزء الاول (بيروت : دار الطليعة ، ١٩٧٢) ، ص ٤١١ .

٦٨ ــ غسان كنفاني : **الاعمى والاطرش** ، الجزء الاول (بيروت : دار الطليعة ، ١٩٧٢) ، ص ٥٤٤ .

٦٩ ــ غسان كنفاني : **عائد الى حيفا** ، المرجع نفسه ، ص ٤١٣ ــ ٤١٤ .

٧٠ ــ غسان كنفاني : **الاعمى والاطرش** ، المرجع ذاته ، ص ٥٣١ .

٧١ ــ غسان كنفاني : **برقوق نيسان** ، الجزء **الاول** (بيروت : دار الطليعة ، ١٩٧٢) ، ص ٥٨٥ .

٧٢ ــ غسان كنفاني : **العاشق** ، المرجع نفسه ، ص ٤٢٤ .

٧٣ ــ غسان كنفاني : **برقوق نيسان** ، المصدر السابق ، ص ٦٠٢ .

٧٤ ــ المرجع نفسه : ص ٥٨٦ .

٧٥ ــ المرجع نفسه : ص ٦٠٠ .

٧٦ ــ المرجع نفسه ، ص ٦٠٧ .

٧٧ ــ غسان كنفاني : **ام سعد** ، الجزء الاول ، (بيروت ، دار الطليعة ، ١٩٧٢) ، ص ٢٦٤ ــ ٢٦٥ .

٧٨ ــ المرجع السابق ، ص ٣٣٤ .

٧٩ ــ المرجع السابق ، ص ٢٩٤ .

٨٠ ــ المرجع السابق ، ص ٢٩٥ .

٨١ ــ المرجع السابق ، ص ٣٣٢ .

٨٢ ــ المرجع السابق ، ص ٣٣٢ .

٨٣ ــ المرجع السابق ، ص ٣٣٤ .

٨٤ ــ المرجع السابق ، ص ٢٣١ .

يا أخضر ... إنهم يتربصون بك

عز الدين المناصرة

— ١ —

لِهذا الصَباحِ المبكّرِ جدّاً مزايا ... نَـمَتْ لهفتي ...
سأناديكِ ، بيني وبينك بحرٌ ونهرٌ ومقبرةٌ وحدودْ .
ألا تسمعين الرصاص يُلعلع في قبعّات الجنود ؟ ؟
بلى ... إنك الآن في سفح « عيبال » بين الهوى والرصاصِ ...
استفيقي وطوفي الشوارع والمدن الناطرات السجينة ...
— مَنْ هذه الوردةُ الطيفُ تركض فوق جبيني وفي
شَـرَيان الحنين — أعدّي لهم ما استطعتِ من الشوقِ
والطَـلَـقات ، استعدي ، نقاتل في جبهة النـار صُفْـرَ الفنادقِ
زُرْقَ المطاعم زهْوَ السياحة عالي السُدود .
أناديكِ . هذا الصباح المبكّـرُ جدّا ، أقول لنفسيَ : مِنْ هـذه
الدرب مرّتْ وفوق الثرى تركـَتْ خطواتٍ ووقْـع ...
الصدى في دمي — يا رفيقُ أما زرتَ إحدى كائننا
في الطريقِ ؟ — بلى إنهم يزرعون الرصاص بقلب العدوّ
وبيروت لم تحترم عهدها يا رفيقُ ، رأيت الشوارع تبصقُ
في وجه بيروت ليستْ لهم إنهـا للجنود يهزّونَ أردافها
للوزير المفوّض يعقد مؤتمراً صحفياً يُردد ما علـّموه وتلتقطُ
السيّداتُ الردود .
معاً يا حبيبةَ قلبي نظلّ وإن وضعوا النار بيني وبينكِ
نبقى معاً ، تـَصْنَـعينَ القنابلَ ضدّ الغزاةِ ونحنُ نقاتلُ ضِدّ الحدود .

— ٢ —

« الخليل » دمي .. طافحٌ فوق هذي البسيطةِ ... النجمُ صوتي
وأهلي مع الليل قالوا نطارد عزلانَ برّيةٍ قسد ...
هوى النجمُ ...
والنجم بوصلةُ الفقراء .
ما الذي يجعل الدمع ناراً ، هديلَ الحمام أناشيدَ للثورةِ
المستجدة فينا وصوتَ العصافير قيثارة الإحتفالاتِ ...
والمرجَ والكرم ذاكرةً للصعاليك والأشقياء
ما الذي يجعل الشيح والمريمية قرصَ دواء !!
وبابَ الخليل تراثاً من الذبح والقتلِ ..
يجعل من « باب ادريس » مقبرةَ الشهداء .!!
شجْرة « الميس » ... ظلّكِ هاتي ... هنا اليوم عندكِ
ثم غداً سوف نرحل عند الأحبّة .. يا طائر الميس تأتي
ترّف علينا تزور بساتين أمي :
أصفُ البستانَ .. متى يأتي ، هذي الصفة الأولى لغيابي
أصف « الزعرور » أقول : الشوك الأخضر ينمو في ذاكرتي
هذي الصفة الأخرى لغيابي
وأقول بأنك يا بيروت صليبٌ كُتبَ علينا ، هذي
الصفة الثالثة لأحبابي .
أصف البلوّط أقول بأنك يا « سامي طه » جرحٌ يندملُ
صباحاً في زمن النصر وأنّ رحيل الأشجار عذابي
أصف البحر ، أقول بأن الأمواج الزرقاء سترحل نحوكِ
يا « عكا » وأرى في « نجران » نداماي إذا داهمهم حزنٌ
يمتشقون السيف يقولون اقتربَ إيابي .

— ٣ —

أبداً تبقى القنبلةُ .. مياهَ الأغصان ، أزيز النار المتّدةِ
في قلب الكون الساكت ، غمغمة الطفل إذا احتّدَ رأى
الفاشستَ يغنون لمشهدِ قتلٍ : يتقدم أحدُ الحرّاسِ
ليخلع عينيْ طفل كردي — سوري — من يافـا — من حيفا — حسبَ
الصُدْفة — ثم يجيء الآخرُ يفتح نفقاً ، شلاّل دمٍ في جبهـةِ
طفلٍ آخرَ — ما للمسعورين الأوغاد ؟؟.
هل أصف المشهد كالتالي : طفلٌ جاء من الأعشاشِ
التنكيةِ يصطاد الرزق من الأسيادْ .
يأكله الهمّ نهاراً ليلاً ويجوع فيأكل قمح الغربةِ ،
جدران المنفى ، عطر الأجداد .
ويضاف الى ذلك أن الطفل بكى وتقدم نحو الموتْ .
كان الفاشستُ يصلّون لربّ الحرب ويقتلعون
الزيتون — اللوز — التفاح — الأطفال — وفاجأه
أحد الحرّاس ، تَسمّر فوق الإسفلت ، تَدثّر بالصمتْ .
أبداً تبقى القنبلة نشيدَ الإنشادِ ، أناديكِ ألا يغويكِ
نشيدي في آخر هذا الليل المفعمِ بالبارودِ — العنب —
الليمون وأشجار « أريحا » . !!!
الكحل بعينيكِ .. الرغبـة في أعينهم والسيف القاطع معنا . هـل
تتساوى الرغبة بالفعل ، الصحفُ الملآنةُ ثرثرةً ...
برصاصٍ يُطلق في « ساڤويَ » و « ترشيحا » !!!
الزمنُ القادم فجرٌ صعبٌ ، مُهرٌ روّضْناهُ طويلا من
بيروت إلى غزّه .

— ٤ —

بيتٌ قربَ الفاشست يطل على البحر ، يعانق أشجار
الأرز ويحميني من زخّات المطر ومن دقّات الشرطةِ
فوق الأبواب البيضاء .
الجبلُ أمامي والبحر ورائي والفرسُ الخضرا بين الأحراش الزرقاءْ
هل اكتبُ أن المنطقة العليا تعني المنطقة السفلى ، هل اكتبُ
أنّ القمح رمادٌ أنّ الماءَ دمٌ وبأنّ الفرحَ الأخضر حزنٌ أنّ
الضَحِكَ بكاء ؟؟.
لم يعلم أحدٌ في الحارةِ ، أمي لا تعرف أيضاً أني أسكن في
الحدّ الفاصل بين الحجر وبين الأنواء .
بيتٌ قرب الفاشستِ . الليلةَ جاءوا ، سألوا ؟؟
— نزرع في هذي الأرض الميتة السوداء .
أشبالاً ، ولقد أثمر شجر التوت
سحقوا « الفالانج » الأسود في بيروت .
و « أبو الليلِ » الليلة ذكّرني بالموتِ . سأسألُ
منَ يرقصُ تحت الشباك يغني للوطن الذبح و « عبد الخالقِ »
في القلب و « نيرودا » عصفورُ الحقل على أشجارِ
النخل الأخضر في البيداءْ .
« غسّان » التَحفَ الشال الأحمر مَدَّ جناحيه على المرجِ
يُداعبُ قُبّرةً وينادي : الماءَ الماءَ الماءْ .
أسألُ من يرويه إذا نادى في آخر هذا الليل : الماءَ الماءَ الماءْ !
الأخضر ... يرويه ويحميه إذا هاج البحرُ ، انشقَ القمرُ
ومن غيرُ الأخضرِ يروي الصحراء .

— ٥ —

يا أخضر القَسَماتِ يا ريح الصبا إني أرى ما لا يُرى
وأشمُّ رائحـةً ... وأعرفُ أن درب الشوك يمكنُ
أن تطولْ .
يا سيّدي وأرى المدائنَ في سُباتٍ والدم الغالي النبيلْ
يا سيّدي وأرى الهضاب تَعمُّها هوج السيولْ
وأرى العصافير الجياع أرى البراكين التي
ثارت لتخضرّ الحقول .
يا سيّدي وأرى زماناً أخضر القسَماتِ
يوشك أن يقولْ :
إن لم تشدّ الخيل .. ساختْ تحتنا الأرض البتولْ
إن لم تفجرها وتشعلها لهيباً للسما الزرقا
تحجرت العقولْ .
إن لم تقلها في وجوههمُ ستصحو ذات يومٍ
فوق سمراء الطُلولْ .
يا سيّدي إني أرى ما لا يُرى
وأشمُّ رائحةً ... أرى سُمّاً شهياً قدّموه
لقتلنا هو في طعامِكْ .
وأرى « الخليل » حبيبتي ، نهباً لتجّار الممالكْ
وأشمّ رائحةً ... فحاذرِ إنهمْ حرباءُ تظهر
في الفصولْ .
أخشى إذا طلع النهار تصير « بيروتُ » — « الخليلْ » .

سلاح النفط العربي وصلته بالقضية الفلسطينية

رهف البدوي

ارتبط استخدام سلاح النفط العربي لتحقيق أهداف سياسية متعلقة بالقضية الفلسطينية بحرب اكتوبر ١٩٧٣ . جاء هذا الارتباط نتيجة النجاح النسبي الذي تحقق من تزاوج المبادرة العسكرية العربية وسلاح النفط . لكن يجب ألا يحجب هذا النجاح التاريخ السابق لارتباط سلاح النفط بالقضية الفلسطينية على الرغم من الاخفاقات التي غرفها هذا التاريخ مما يجعلنا أكثر ميلا لتناسيه في غمرة نشوة الانتصارات الحاضرة . ولهذا الامر أهمية لسببين : اولا ، لان النجاح الذي عرفناه مؤخرا على صعيد استخدام سلاح النفط لم يأت ابن ساعته بل سبقته دعوات فاشلة وخطوات لم تتكلل بالنجاح شكلت نوعا من التجارب والمحاولات الممهدة لما تحقق خلال حرب اكتوبر وبعدها في هذا الميدان . ثانيا ، لان الانتصار الحالي يتطلب رعاية وتعميقا وحماية فعالة اذا كان لاثاره أن تستمر وللاخفاقات العربية الماضية الا تعود لتفرض نفسها من جديد فيتحول نجاح ١٩٧٣ الى مجرد استثناء في سلسلة طويلة من الاخفاقات السابقة واللاحقة. فيما يلي مراجعة سريعة لاهم المحطات في تاريخ ارتباط سلاح النفط بالقضية الفلسطينية وبالاهداف السياسية الكبرى المطروحة يومها على البلدان العربية وجماهيرها وحكوماتها :

(١) جاءت الدعوة الرسمية الاولى لاستخدام سلاح النفط من أجل تعزيز الموقف العربي في مواجهة الاجتياح الصهيوني لفلسطين في مقررات مؤتمر القمة الذي عقده الملوك والرؤساء العرب في بلودان في حزيران ١٩٤٦ . انعقد المؤتمر يومها لدراسة السبل الفعالة « للمحافظة على عروبة فلسطين » وايجاد الطرق المناسبة للضغط على بريطانيا وأمريكا لتخففا من تحيزهما للاستيطان الصهيوني ودعمهما له . أخذت هذه المبادرة شكل قرار مائع وعام يدعو الى « اعادة النظر في الامتيازات التي تملكها بريطانيا والولايات المتحدة في الاراضي العربية » اذا لم تحترم هاتان الدولتان حقوق الشعب الفلسطيني والموقف العربي من الاستيطان الصهيوني . وكان كل ذلك جزءا من قرارات أشمل ذات طابع اقتصادي تدعو الدول العربية الى الامتناع عن اعطاء اية امتيازات اقتصادية لهاتين الدولتين او لزعاياهما في الاراضي العربية . الا ان هذه القرارات كغيرها من قرارات مؤتمر القمة لم تجد طريقها الى التنفيذ بسبب تخاذل الانظمة العربية يومها وتبعيتها المفضوحة والمعروفة للاستعمار في منطقتنا .

(٢) ظهرت نغمة استخدام سلاح البترول مجددا في مؤتمر القمة العربي الذي انعقد في صوفر في أيلول ١٩٤٧ . تبنى هذا المؤتمر بالاجماع قرارات مؤتمر بلودان وناقش مطولا قرار « اعادة النظر بالامتيازات التي تتمتع بها الدول الغربية في البلاد العربية » (البترول بصورة رئيسية) . وجرت مزايدة طريفة بين مندوبي السعودية والعراق حول من سيكون السباق الى تنفيذ القرار العتيد وتطبيقه . ومرة اخرى بقيت قرارات المؤتمر حبرا على ورق بدليل ان البترول العراقي ظل يتدفق الى حيفا بعد

خمسة أشهر من تبني قرار التقسيم في الجمعية العمومية لهيئة الامم ولم يتوقف الا بعد احتلال القوات الصهيونية للمدينة .

(٣) ومرة ثالثة برز موضوع سلاح البترول واستخدامه في مؤتمر القمة العربي الذي انعقد في القاهرة في كانون الاول ١٩٤٧ . ناقش الملوك والرؤساء مجددا قضية « اعادة النظر بالامتيازات الاجنبية في الدول العربية » باعتبارها سلاحا أكثر فعالية من غيره لمواجهة ضياع فلسطين . الا أن حظ قرارات هذا المؤتمر لم يكن بأفضل من حظ قرارات المؤتمرات السابقة .

(٤) جاءت أول محاولة ناجحة نوعا مـــا لاستخدام سلاح البترول أثناء العدوان الثلاثي على مصر في ١٩٥٦ حيث قامت وحدة سورية خاصـــة بنسف احدى محطات الضخ التابعة لشركة نفط العراق مما عطل تدفق النفط العراقي الى ساحل البحـــر الابيض المتوسط . وعلى الرغم من أن هذه الخطوة لم تؤد بحد ذاتها الى نتائج كبيرة وهامة على صعيد مضايقة الدول المستهلكة فقد تركت بعض الاثر السلبي على تجارة النفط العالمية . الا أن أهمية الاجراء السوري كانت تكمن في الاقدام على تنفيذه بالفعل ضمن جو وطني عارم واندفاعة تحررية كبيرة وحماسية جدا في معاداتها للاستعمار ، مما جعل الخطوة السورية رمزا محفورا في ذاكرة الجماهير العربية لما يمكن أن تفعله الدول العربية على صعيد استخدام سلاح النفط (ولم تكن سوريا دولة منتجة بل دولة عبور فقط) في المعارك القومية والتحررية اذا توافرت لها القيادات الوطنية الجادة في تصديها للاستعمار في المنطقة العربية .

(٥) جاءت الخطوة التالية في استخدام سلاح النفط العـــربي خلال حرب حزيران ١٩٦٧ عندما قامت بعض الدول العربية المنتجة بفرض حظر على تصدير البترول الى الولايات المتحدة وبريطانيا والمانيا الغربية ، ذلك بعد خراب البصرة . لم تكن هذه الخطوة أكثر من محاولة تعمية للجماهير العربية المصعوقة بالهزيمة وتعويض سريع مصطنع عن الخسارة العسكرية التي حلت بالانظمة والامة عموما . لذلك لم تسفر عن أية نتائج تذكر خاصة انها لم تكن وليدة عمـــل مدروس مرتبط باستراتيجية عـــربية عسكرية وسياسية شاملة . كانت مجرد رد فعل على الهزيمة ومحاولة للحصول على « براءة ذمة وطنية » من قبل الانظمة المعنية أمام الجماهير العربية المفجوعة واستباقا لاية محاولات لضرب المنشآت النفطية على غرار المثل الذي ضربته سوريا في ١٩٥٦ . لكن هذا التقييم العام لاستخدام سلاح النفط في حزيران ١٩٦٧ لا يعفينـــا من طرح السؤال الهام : هل كانت الشروط متوفرة وقتئذ لنجاح مثل هذه الخطوة على افتراض أن نيات الانظمة المعنية خلصت وانها قامت بالتنسيق اللازم والدراسات الضرورية لذلك الخ ؟ الجواب على ما نرجح ويبدو لنا هو بالنفي للاسباب التالية : (أ) السيطرة شبه الكاملة للشركات الكبرى على البترول العربي من منابعه الى مصباته وغياب أي هامش جدي للمناورة او الاستقلال النسبي لدى الحكومات العربية فيما يتعلق بتحديد السياسات البترولية مما جعل فرض أي تخفيض في مستويات الانتاج أمرا متعذرا على الدول العربية المعنية . وبدون هذا التخفيض لا يمكن لسلاح حظـــر النفط أن يكون فعالا حقا .

(ب) افتقار الدول العربية الى الاحتياطي المالي الكافي لتحمل النتائج الاقتصادية المترتبة على حظر النفط ولو لفترة محدودة وبصورة جزئية . وبديهي ان هذا الافتقار لم يكن مطلقا بل كان افتقارا نسبيا اذ اعتادت الانظمة البترولية وقتها على تسيير شؤون البلاد وعلى الانفاق وفقا لمستويات الدخل النفطي المرتفع بدون أي التفات جدي الى

مصادر الثروة الاخرى في البلاد مما جعلها مرتهنة كليا للعائدات البترولية . وكان من شأن أي انخفاض حقيقي في هذه العائدات رمي الانظمة في أزمة مالية وسياسية طاحنة خلال فترة قصيرة جدا .

(جـ) النزاعات الشديدة التي كانت قائمة بين الحكومات العربية على الاصعدة السياسية والاقتصادية والايديولوجية (وحتى العسكرية) . على سبيل المثال اصطدام سوريا بالعراق في ١٩٦٦ حول موضوع مرور النفط في الاراضي السورية . كما كانت السعودية على خلاف كبير مع مصر (حرب اليمن) وكانت دول المغرب العربي منشغلة بقضاياها الخاصة وبعيدة عن مشكلات المشرق العربي ونزاعاته . وبطبيعة الحال كان السبب العميق وراء الخلافات العربية يومها تصدي عدد من الانظمة العربية الرجعية للسياسة التحررية المعادية للاستعمار التي كان ينتهجها الرئيس عبدالناصر والتي بلغت ذروتها — ان كان من حيث التضحيات او من حيث النهاية المأساوية لهذه السياسة — في حرب اليمن .

(د) عدم تأثير حظر النفط على الولايات المتحدة لانها كانت تكفي نفسها بنفسها من هذه المادة الاستراتيجية . في الواقع تمكنت شركات البترول الامريكية من تحقيق أرباح اضافية كبيرة (على حساب الدول الاوروبية) باستغلالها للازمة الناشبة وقتها .

(هـ) تمكن شركات النفط من تعويض النقص الحاصل في تدفق النفط العربي عن طريق زيادة الانتاج في أماكن اخرى على الرغم من اغلاق قناة السويس . كانت المشكلة تدور وقتها حول نقل البترول أكثر مما كانت تدور حول توفره .

(و) عدم تقيد بعض الدول العربية بدقة بقرار الحظر حتى ان واحدة من دول افريقيا الشمالية المنتجة استمرت بشحن البترول الى المانيا الغربية .

ننتقل الآن للنظر في التجربة الاخيرة في استخدام سلاح البترول العربي وتعيين عناصر نجاحها وشروطه . وأول ما يلفت النظر هنا هو التبدلات التي طرأت على الصعيدين العالمي والمحلي مع حلول عام ١٩٧٣ مما أدى الى الغاء معظم الشروط المعطلة المذكورة أعلاه أو تحييد فعاليتها . ويمكننا تلخيص أهم هذه التطورات في النقاط التالية :

(١) انحسار الهيمنة الامريكية الكاملة على المعسكر الامبريالي بعد أن سيطرت عليه منذ نهاية الحرب العالمية الثانية . وجاء هذا التطور كجزء من الازمة العاتية التي أخذت تعصف بالنظام الرأسمالي العالمي وتجلت أهم مظاهر هذه الازمة في انهيار النظام النقدي العالمي المستند الى اتفاقيات بريتون وودز الشهيرة ، وآثار هذا الحدث السلبية على العملات الدولية ، تفاقم مشكلات التضخم النقدي ومضاعفاتها العالمية والمحلية وعجز الانظمة الرأسمالية عن ايجاد الحلول المناسبة للحد من اندفاعه ، اشتداد التنافس الاقتصادي والتجاري بين الدول الرأسمالية الرئيسية حتى اقترب من المستويات التناحرية ، الانهيارات الحادثة في نظام الاحلاف والدفاعات الذي نسجته الولايات المتحدة منذ الحرب العالمية الاخيرة (أزمة الحلف الاطلسي خلال حرب اكتوبر وبعدها ، الانقلاب اليساري في البرتغال ، وصول أزمة العلاقات الامريكية — اليونانية — التركية الى حافة الصدام المسلح ، الخ ...) ، هزيمة امريكا في الهند الصينية ومضاعفاتها العالمية والامريكية المحلية ، ويضاف الى ذلك تحول الولايات المتحدة الى دولة مستوردة للنفط واعتمادها الى حد أكبر من أي وقت مضى على شحنات النفط العربي اذ أصبحت أمريكا تستورد حوالي مليونين ونصف المليون برميل من النفط الخام

ومشتقاته في اليوم اما بصورة مباشرة من البلدان العربية او من المصافي الاوروبية التي تكرر البترول العربي . ففي نهاية شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٣ قدر مديرَ مكتب الطاقة والمحروقات في وزارة الخارجية الامريكية ، جورج بنسكي ، أن حظر النفط العربي سيحرم أمريكا حوالي ثلاثة ملايين برميل في اليوم خلال شتاء ١٩٧٣ — ١٩٧٤ ، اي حوالي ١٧ بالمئة من متطلبات البلاد البالغة ١٨ مليون ونصف المليون برميل في اليوم .

(٢) تحسن العلاقات بين مصر والمملكة العربية السعودية بعد غياب الرئيس عبدالناصر واستلام السادات السلطة في ١٩٧٠ . وتقدم الضغط الوطني العام الذي أخذ يفرزه استمرار احتلال الاراضي العربية ليفرض نفسه على كافة الانظمة والحكومات مهما كانت توجهاتها السياسية والايديولوجية مما جعل السلطة السعودية تفقد صبرها ازاء السياسة الامريكية بالنسبة للنزاع العربي — الاسرائيلي وما تسببه من احراجات ومشكلات للدول العربية الصديقة لامريكا ، مما جعل الملك فيصل يبتعد عن موقفه التقليدي القائل بضرورة فصل البترول عن السياسة والاقتراب أكثر فأكثر من موقف دعاة استخدامه كسلاح سياسي في خدمة القضايا العربية الكبرى . وبالفعل أعلنت السعودية في نيسان ١٩٧٣ عزمها على استخدام سلاح النفط لدعم القضية العربية . ولا شك انه كان لهذا القرار تأثير حاسم وكبير على سياسات بقية الدول المنتجة وتكتيلها في صف واحد بسبب الوزن الهام الذي تمثله السعودية في انتاج البترول العربي*. على سبيل المثال بلغ الانتاج السعودي في اكتوبر ١٩٧٣ ٨٫٣ مليون برميل في اليوم الواحد وتمثل هذه الكمية ٤٠ بالمئة من مجموع النفط العربي الذي يصل الاسواق . يضاف الى ذلك ان مجموع ما تنتجه السعودية والكويت يبلغ ٥٦ بالمئة من مجموع الانتاج العربي كله .

(٣) مع حلول سنة ١٩٧٣ كانت معظم الدول العربية المنتجة قد وصلت الى مركز اقتصادي أقوى من أي وقت مضى بسبب سيطرتها المتعاظمة على حقول النفط (عن طريق التأميم المباشر أو المشاركة المتعاظمة في ملكيتها) ، وارتفاع أسعار البترول المصدر نتيجة تزايد طلب العالم الصناعي عليه وانعدام القدرة على زيادة الانتاج في الحقول الواقعة خارج العالم العربي . بعبارة أخرى أصبحت الدول العربية المنتجة في موقع القادر على تخفيض مستوى انتاج نفطها وحظر شحنه لفترات طويلة نسبيا بدون أن تترك هذه الاجراءات أي تأثيرات مدمرة على اقتصادياتها . على سبيل المثال لم تضطر الدول العربية لتخفيض انتاجها في ١٩٧٣ بأكثر من ٢٥ بالمئة كي تترك آثارا سلبية مباشرة ومهمة على الاقتصاد الرأسمالي العالمي .

(٤) قيام مصر وسوريا بأخذ زمام المبادرة لاول مرة منذ ١٩٤٨ في شن حرب تحريرية على اسرائيل . بطبيعة الحال كان لهذه المبادرة العظيمة تأثيرها السياسي والمعنوي الضخم على الشعوب العربية ودولها مما جعل أي تخلف أو تقاعس في استخدام سلاح النفط محفوفا بمخاطر لا تقدر بالنسبة للدول غير المحاربة والمطلوب منها دعم المجهود الحربي المصري — السوري بأقصى الطاقات المتوفرة . وتشير الدلائل الى أن دولة نفطية او دولتين كانتا على علم مسبق بنوايا سوريا ومصر وقامتا برسم خططهما على هذا الاساس .

(٥) تعيين هدف سياسي واضح ومحدد ومتفق عليه عربيا — وهذا ما كان غائبا

---

* انظر « شؤون فلسطينية » ، عدد ٤٦ ، حزيران (يونيو) ١٩٧٥ ، ص ٢٠٤ .

تماما في استخدام سلاح النفط عام ١٩٦٧ ــ يفترض بسلاح النفط المساهمة في العمل على تحقيقه . وتلخص هذا الهدف ــ أي هدف الحرب بشقيها العسكري والسياسي النفطي ــ بالوصول الى تطبيق قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ (تحرير الارض المحتلة) وتحقيق تسوية عادلة للقضية الفلسطينية .

(٦) ادراك الدول العربية نتيجة التجارب السابقة في استخدام سلاح النفط بأنه لا فائدة من حظره عن بلدان معينة بدون دعم هذا الاجراء بتخفيض مستوى الانتاج . اذ أن الحظر وحده لن يؤدي الى أكثر من عرقلة عمليات الامداد والاستهلاك لفترة قصيرة تقوم بعدها الشركات والحكومات باعادة ترتيب أوضاعهـا بحيث تتكيف مع الواقـع الجديد كما تكيفت قبلها مع اغلاق قناة السويس . من هنا حكمة قرار الدول العربية في ١٩٧٣ بأن تكون الخطوة الاولى في استخدام سلاح النفط هي تخفيض الانتاج بصورة عامة وعدم الاقتصار على مجرد حظر تصديره الى دول معينة . وبالفعل فقد صعدت الدول المعنية تخفيضها لمستويات الانتاج بصورة سريعة بلغت ٢٥ بالمئة من المستوى الذي كان سائدا قبلها ، مما أظهر بجلاء ما بعده جلاء الفعالية الكبيرة التي ينطوي عليها هذا السلاح .

جدير بالذكر هنا انه خلافا للمزاعم والادعـاءات التي تنشرهـا الدول المستهلكة والولايات المتحدة بالتحديد لم يكن لاتجاه أسعار النفط الى الارتفاع خلال فترة ١٩٧٠ ــ ١٩٧٣ أية علاقة مباشرة باستخدام العرب لسلاح النفط خلال الحرب الاخيرة . جاءت حركة ارتفاع الاسعار نتيجة تبدلات طرأت على طبيعة السوق النفطية وعلى موازين العرض والطلب ومقدرة كل من البائـع والشاري على المساومة مـن مواقع تقوى وتضعف وفقا للظروف بالاضافة الى عوامل أخرى مشابهة لا مجال للدخول في تفاصيلها هنا . كان كل ذلك ظاهرا قبل استخدام الدول العربية لسلاح النفط بنجاح. على سبيل المثال عندما قررت دول الخليج بالاشتراك مع ايران في ١٦ اكتوبر ١٩٧٣ (أي قبل يوم واحد من اتخاذ القرار العربي باستخدام سلاح النفط لدعم المعركة مع اسرائيل) رفع الاسعار المعلنة لنفطها الخام بما يزيد على ٧٠ بالمئة من السعـر السائد يومها (أي حوالي دولارين لكل برميل)جاء هذا القرار تتويجا لحركة تصاعد أسعار النفط واتجاهها نحو الارتفاع بدون أن يكون له اية علاقة سببية او مباشرة بحرب اكتوبر . أي بدأت حركة الصعود هذه قبل الحرب بعدة سنوات ووصلت الى ذروتها بصورة مستقلة بعد الهجوم المصري السوري الناجح على القوات الاسرائيلية . لكن هذا لا يعني ان تخفيض الانتاج الذي فرضته الدول البترولية العربية لم يؤد الى ارتفاع كبير في أسعار النفط اذ أنه من طبيعة أي نظام قائم على آلية السوق وقوانين العرض والطلب ان ترتفع فيه أسعار السلعة المعينة عندما يطرأ نقصا في عرضها لا يوازيه نقص مشابه في الطلب عليها . لذلك أدى استخدام سلاح النفط الى زيادة أسعاره بنسبة بلغت حوالي ١٣٠ بالمئة .

على الرغم من أن كافة الشروط اللازمة لتحقيق انتصار كبير عبر استخدام سلاح النفط كانت متوافرة في اكتوبر ١٩٧٣ وما بعده لم يحقق هذا السلاح هدفه الاساسي والمعلن رسميا . في الاجتماع الذي عقده وزراء النفط العرب في الكويت أثنـاء الحرب (١٧ تشرين الاول) أعلنوا أن دولهم ستدعم المجهود الحـربي المصري ــ السوري بخفض انتاج النفط بنسبة ٥ بالمئة كحد أدنى على أن يستمر هذا الخفض شهرا بعد شهر الى أن يتم تحـرير الاراضي العربيـة المحتلة بكاملها وضمـان حقوق الشعب الفلسطيني ، أو الى أن يصل مستوى الخفض في كل دولة الى نقطة تشكل خطرا على

اقتصادياتها وعلى التزاماتها القومية عموما . الا أن شيئا من هذا الهدف الطموح لم يتحقق لان الاعتبارات السياسية التي حكمت طبيعة الحـــرب ومدى تقدمها علـــى الجبهتين المصرية والسورية حكمت ايضا طبيعة « الحرب » ومدى اتساعها على جبهة النفط . فكما أن الهدف من معركة اكتوبر كان شن حرب محدودة لا تذهب الى آخر الشوط ولا تقلب موازين القوى في المنطقة كليا، كذلك لم يكن الهدف من استخدام سلاح النفط الا الوصول الى نتائج محدودة لا تذهب الى آخر الشوط هي ايضا في قلب موازين الستاتيكو السائد في المنطقة ولا تصيب الاقتصاد الرأسمالي العالمي بضربة موجعة حقا قد تؤدي الى شله أو اركاعه . ولا بد لنا من أن نبقي هذه الوقائع في اذهاننا لكي نفهم التراجع التدريجي الذي حدث في شهر سلاح البترول العربي وندرك طبيعة الخطوات المتتالية التي اتخذت لسحبه كليا مـــن الميدان . يضاف الى ذلـــك طبعا خوف الدول العربية المعنية من ردود فعل امريكية وغربية عنيفة وشديدة في حال تضايقها الشديد من نقص البترول العربي خاصة وان الدول العربية لم تكن مستعدة على الاطلاق لتلقي مثل هذه الردود العنيفة أو التصدي لها أو مواجهتها بسياسة طويلـــة النفس . لذلك شملت الاستثناءات التي أقرتها الدول البترولية العربية من اجراءات الحظر بلدانا مثل فرنسا وبريطانيا وبلجيكا واليابان بالاضافة الى بلدان استحقت عـــن جدارة مثل هذا الاستثناء مثل الهند ومعظم الدول النامية ودول الكتلة الافريقية (غير العربية) . كما ادخلت الدول العربية المعنية التعديل تلو التعديل على الاجراءات القوية التي فرضتها أول الامر وذلك باتجاه مزيد من التساهل . فمع حلول شهر كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٣ لم يعد استخدام سلاح النفط مشروطا بالانسحاب الاسرائيلي الكامل من الاراضي العربية المحتلة بكاملها وضمان حقوق الشعب الفلسطيني، اذ أعلن وزراء النفط العرب (في ٨ كانون الاول ١٩٧٣) قرارهم القائل بأنهم سيسحبون سلاح النفط من الميدان اذا تم التوصل الى اتفاق حول الانسحاب من جميـــع المناطق المحتلة ـــ وعلى رأسهـــا القدس ـــ وفقا لجدول زمني توافق عليه اسرائيل وتضمن تنفيذه الولايات المتحدة . ومع حلول شهر آذار (مارس) ١٩٧٤ رفع الحظر عن الولايات المتحدة وتوقف كل تخفيض في الانتاج على الرغم من أن كل مـــا تحقق على الصعيد السياسي لا يتعدى الاتفاقية الجزئية لفصل القوات على الجبهتين المصرية والسورية . وفي شهـــر تموز (يوليو) رفع الحظر على هولنده أيضا . وجدير بالذكر هنا ان ليبيا لم توافق على هذه القرارات كما ان العراق لم يكن موافقا منذ البداية على هذا الاسلوب في استخدام سلاح البترول (خفض الانتاج وغيره من الاجراءات) بل دعا بدلا من ذلك الى تأميم البترول العربي وغيره من المصالح التابعة للدول المعادية للقضية العربية .

واضح اذن انه على الرغم من التشدد الظاهر في الموقف البترولي العربي الاولي في أكتوبر ١٩٧٣ كانت الانظمة المعنية تعمل على تحقيق نتائج محدودة ومحسوبة مسبقا الى حد ما تتناسب تماما مع الحدود المحسوبة لحرب اكتوبر نفسها . لذلك مـــا أن ارتفعت أسعار البترول ـــ على أعقاب تخفيض الانتاج ـــ الى مستويات تضايقت منها الدول المنتجة تضايقا ملحوظا حتى بدأت التنازلات مـــن الجانب العربي على النحـــو المذكور ووصلت الى حد قيام السعودية بالضغط على دول الاوبيك لاقرار تخفيض في أسعار البترول المعلنة . وهنا لا بد من الاشارة ايضا الى بعض العوامل الاضافية التي لعبت دورا ضاغطا ساعد على سحب سلاح النفط مـــن التداول قبل تحقيق أهدافه المعلنة :

(أ) عدم تحقق التسوية السياسية للنزاع العربي ـــ الاسرائيلي بالسرعة المتوقعة على اثر حرب اكتوبر وتبدد كل أمل بالتوصل اليها في المستقبل العاجل مما أدى الى

القول بأن استمرار استخدام سلاح النفط سيترك آثارا سلبيـــة شديدة على الدول النامية والصديقة وعلى البلدان التي يسعى العالم العربي لكسب صداقتها ودعمها للقضية العربية ، أو تحييدها على أقل تعديل . هذا علـــى أن يكون واضحا للدول المستهلكة الرئيسية وللولايات المتحدة انه ما لم يتحقق تقدم جدي وملموس على طريق التسوية السياسية العادلة للنزاع في المنطقة ستعـــود الدول العربية المنتجـــة الى استخدام سلاح النفط مجددا عندما ترى ذلك مناسبا لبلوغ الاهداف السياسية المعروفة ودعم القضية العربية (والفلسطينية بطبيعة الحال) .

(ب) طاقة الولايات المتحدة على تحمل آثار استخدام سلاح النفط العربي أكثر من البلاد الاخرى مثل أوروبا الغربية واليابان (خاصة على المدى القصير) . فضمن منظور الحدود السياسية المعروفة لحرب اكتوبر كان الاستمرار في حظر النفط وتخفيض مستوى انتاجه سيؤدي الى تقوية المركز النسبـــي للولايات المتحدة ازاء اوروبا مما سيحد من مقدرة الدول العربية على المناورة في الساحة الدولية . وهذا واضح من فشل دول السوق الاوروبية المشتركة في وضع سياسة موحدة نوعا ما ومستقلة عن امريكا في ميداني الطاقة والعلاقات الخارجية (بالنسبة للشرق الاوسط) .

(جـ) ضغط الولايات المتحدة على الحكومات العربية المعنية بقولها انه يتعذر عليها متابعة مهمتها في تحقيق السلام وهي واقعة تحت ضغط الاجراءات النفطية العربية ، مع المطالبة بفرصة أخرى لتبرهن عن فعالية سياستها في المنطقة . ومن ناحية اخرى كان هناك اصرار مصر ـــ باعتبارها وزن الثقل العسكري والسياسي في العالم العربي ـــ على افساح المجال أمام الولايات المتحدة للبرهنة على حسن نيتها ومصداقية سياستها المتوازنة الجديدة في الشرق الاوسط في مرحلة ما بعد العبور وحرب اكتوبر .

على الرغم من أن استخدام سلاح النفط العربي في ١٩٧٣ لم يحقق هدفه الرسمي المعلن وشابته سلبيات كثيرة أشرنا الى أهمها فقد ولد في الوقت ذاته عددا من النتائج الهامة والانجازات الايجابية التي يمكـــن ان تشكل قاعدة قويـــة لانطلاقة جديدة في المستقبل تهدف الى استخدام هذا السلاح بصورة اكثر فعالية ومهارة ودقة مما جرى في السابق . طبعا ان تحقيق مثل هذه الانطلاقة مرهون بمدى استفادة الجانب العربي من الايجابيات والانجازات التي خلفها آخر شهر لسلاح النفط ومدى حمايتها لها وتثبيتها كوقائع لا تراجع عنها واستثمارها في الاعداد للمعارك والمجابهات القادمة لا محالة . ويمكننا القول أن الايجابيات والمنجزات المذكورة جاءت على نوعين : الاول ذو طابع استراتيجي بعيد المدى والثاني ذو طابع تكتيكي تأثيره آني ومرهون بالظروف المتقلبة . ويتلخص النوع الاول بالانجازات التالية :

(١) كسر «الحاجز النفسي» الذي كان يعيق سابقا الدول المنتجة من اللجوء الى أسلحة من هذا النوع في مواجهة الدول الرأسمالية الكبرى والتصدي لسيطرتها واستغلالها للامم والشعوب الاخرى . بعبارة ثانية لقد سجل نزول سلاح النفـــط العربي الى المعترك السياسي سابقة مهمة وخطيرة جدا سيكون لها تأثيراتها المتنوعة على مستقبل العلاقات بين دول العالم الثالث وبلدان العالم الاول . وها هي الدول المصدرة للمواد الاولية تعد نفسها وتتكتل لمواجهة البلدان المستوردة لهذه المواد وهي تحذو في ذلك حذو منظمة الاوبيك وتتشبه صراحة في عزمها على استعمالها سلاح المواد الاولية بطريقة استخدام العرب لسلاح النفط .

(٢) ادراك الدول المنتجة (عربية وغير عربية) لمدى اتساع هامش المناورة الذي تملكه في تقرير السياسات البترولية في وجه الشركات والدول المستهلكة التي كانت في

السابق تحتكر لنفسها السيطرة على اتخاذ القرار بالنسبة لكافة الامور الهامة المتعلقة بالنفط . لقد أبرزت حرب اكتوبر عموما واستخدام سلاح النفط خصوصا ان هامش المناورة هذا أوسع بكثير مما كان متوقعا ، ووجدت الانظمة المعنية في هذه المناسبة فرصتها الذهبية للاستفادة من هذا الهامش وتأكيد دورها ووجودها في صنع السياسات البترولية وتحديد طبيعتها ومستقبلها .

(٣) خلق الجو الملائم لاندفاع الدول المنتجة والمصدرة للمواد الخام عموما باتجاه اعادة صياغة الانظمة التجارية والمالية والتسعيرية الخ... المعمول بها حتى حينه بحيث تأخذ هذه الانظمة بعين الاعتبار مصالح الدول المنتجة والاستقلال النسبي الجديد الذي حققته فلا تبقى على حالها وكما فرضتها الدول المستهلكة والشركات الكبرى لخدمة مصالحها وتصعيد ارباحها فحسب .

(٤) ابراز الوجه الحقيقي لسياسات امريكا النفطية في المنطقة بدون أي رتوش او مساحيق . لقد أدى استخدام سلاح النفط العربي الى مجاهرة امريكا — على أعلى المستويات وبمنتهى الصراحة — بعزمها على اتباع سياسة مجابهة وصدام مع الدول المنتجة بغية اخضاعها وتفكيك تضامنها ورذعها منذ البداية حتى لو تطلب ذلك العدوان المسلح على سيادتها وأراضيها وثرواتها . وقد أصبحت تهديدات فورد وكيسينجر وشليزينجر (وزير الدفاع الامريكي) باحتلال منابع النفط العربي على درجة من الشهرة تغنينا عن أي تعليق* .

أما الانجازات ذات الطابع التكتيكي المباشر فتتلخص بالنقاط التالية :

(١) التبدل الطفيف الذي طرأ على موقف الولايات المتحدة من النزاع العربي — الاسرائيلي . ولا شك أن سلاح النفط كان واحدا من أهم العناصر المؤدية الى هذا التطور . وكان أهم مظهر لهذا التبدل مبادرة كيسينجر للتوسط مباشرة في النزاع على أمل الوصول الى تسوية سياسية على أساس دبلوماسية الخطوة خطوة (فشلت هذه الدبلوماسية بسبب تصلب اسرائيل وعنادها على حد التفسير الرسمي المصري) . هناك أيضا بعض التبدلات الطفيفة التي طرأت على مواقف عدد من أعضاء مجلس الشيوخ الامريكي (المعروف بولاء أكثريته ولاء شديدا لاسرائيل وأنصارها في أمريكا) بحيث أصبحوا على استعداد أكبر لاعادة النظر ولو قليلا في حيثيات النزاع في المنطقة . يضاف الى ذلك التأثير الذي تركه سلاح النفط على قطاعات هامة من الرأي العام الامريكي وقطاعات من رجال الاعمال بشكل خاص بحيث أصبح كل هؤلاء يحسبون حسابا أكبر للقوة الاقتصادية العربية المكتسبة حديثا وتأثيرها المحتمل على الاقتصاد الرأسمالي العالمي .

(٢) تحرك دول السوق الاوروبية المشتركة واليابان خلال حرب اكتوبر باتجاه قربها أكثر فأكثر من التفسير العربي لقرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ والمطالب العربية بضمان حقوق الشعب الفلسطيني . الا أن هذا التحرك لم يعط كل النتائج المطلوبة اذ تركت الدول الاوروبية واليابان الساحة كليا للولايات المتحدة ومكنتها من احتكار دور « صانع السلام » في الشرق الاوسط بدون أية محاولة من قبلها للمشاركة الفعالة في هذا الدور وبالمبادرات التي ينطوي عليها . وقد تم كل ذلك بحجة عجز دول السوق الاوروبية واليابان عن الضغط على امريكا والتأثير على سياستها في المنطقة فاكتفت هذه الدول بتسجيل المواقف والادلاء بالتصريحات « المتوازنة » وحتى المؤيدة صراحة

---

* انظر « شؤون فلسطينية » ، عدد ٤٦ ، حزيران (يونيو) ١٩٧٥ ، ص ١٩٨ — ١٩٩ ، ٢٠١ .

للسياسات العربية الرسمية . ولا شك ان من شأن «الضغط» النفطي على هذه الدول دفعها الى اتباع سياسات اكثر ديناميكية ازاء تحقيق التسوية السلمية في المنطقة والى بلورة سياسة اكثر استقلالا عن امريكا في ميداني الطاقة والعلاقات الخارجية ، واكثر مقدرة على مقاومة الضغوط الامريكية الآتية عبر معاهدة الحلف الاطلسي . ويستدعي هذا الواقع تركيز الانتباه الدبلوماسي العربي على الدول الاوروبية واليابان لحملها على التحرك بالاتجاه المذكور وفضح الحجة القائلة بعجز هذه الدول عن التأثير على امريكا والضغط عليها باعتبارها لا اكثر من اعذار واهية يقصد بها دعم السياسة الامريكية (مهما كانت) ضمنا والظهور بمظهر المحايد او المتعاطف او المؤيد للعرب علنا .

(٣) قيام حوالي ٣٠ دولة افريقية بقطع علاقاتها الدبلوماسية مع اسرائيل واعلان الدول الاسلامية وكتلة الدول غير المنحازة دعمها غير المشروط للقضية العربية . طبعا هذا لا يعني ان سلاح البترول وحده هو المسؤول عن هذه التطورات الهامة في صفوف الدول النامية . هنـــاك ايضا الشعور العميق بالمصالح المشتركة وبالمصير المشترك الذي يربط كل الدول النامية ببعضها . ومن نافل القول ان هذه الاجراءات ادت الى تصعيد عزلة اسرائيل الدولية والدبلوماسية الى درجة لم يسبق لها مثيل قبلا مما ترك آثارا سلبية هامة داخل اسرائيل نفسها .

ننتقل الان الى مناقشة الاتجاهات العامة التي نتوقع بأن تسير وفقا لها التطورات القادمة على جبهة البترول نتيجة استخدام سلاح النفط العربي على النحو الذي رأينا ونتيجة الآثار التي افرزتها هذه الخطوة . يبدو أن هناك اتجاها متعاظما نحو اقامـــة علاقات ثنائية بين الدول المستهلكة والدول العربية المنتجة بسبب الاختلاف في اوضاع مصادر الطاقة بين بلد مستهلك واخر . وينطبق هذا بصورة خاصة على البلدان التي لا تتوفر فيها مصادر جيدة للطاقة مثل اليابان التي تجد نفسها مدفوعة بحكم الضرورة الى تحسين علاقاتها بالدول المنتجة . كذلك بذلت كل من فرنسا وايطاليا (واليابان) جهودا كبيرة لضمان حصولها على حاجاتها من النفط على امتداد فترات طويلة الامـــد نسبيا ولايجاد اسواق جديدة لمنتجاتها في البلدان النفطية . واخذ هذا الجهد شكل عقد مفاوضات واتفاقيات مع الدول المعنية تبلغ قيمتها مليارات الدولارات . ويعني ارتباط مثل هذه الدول الصناعية بالبترول العربي لآجال طويلة اضعاف قدرتها على رفـــض تزويد الدول العربية بالاسلحة التي تحتاج اليها خاصة وان الدول المستهلكة المذكورة تعاني عجزا كبيرا في ميزان مدفوعاتها وتتكبد نفقات مرتفعة جدا لانتاج اسلحتهـــا . لا شك ان الدول العربية القريبة من اسرائيل وايران مهتمة ليس بتسليـــح نفسهـــا فحسب ، بل بتنويع مصادر سلاحها ايضا وستسهل الاتفاقات الثنائية هذه العمليـــة (اذا عرفت الدول العربية كيف تستفيد من الفرصة المتاحة بمهارة) كمـــا يمكنها أن تساعد في انتقال التكنولوجيا الحديثة (الحربية وغير الحربية) والمواد الاستراتيجية الى العالم العربي . بعبارة اخرى أصبحت الفرص مفتوحة امام العالم العربي اكثر من أي وقت مضى لبناء قدراته العسكرية بشكل لائق وتحديث نفسه بسرعة وعلـــى أساس من التصنيـــع الثقيـــل والمتوسط . امـــا علـــى الصعيد السياسي فمن شأن استثمار الرسائيل العربية في الدول الاجنبية والصناعية منهـــا خاصة ـــ ان كان في مجالات التسليف الطويل الامد او التوظيفات ـــ ان يؤدي في المستقبل الى ارتباط هذه الاستثمارات بشروط سياسية ضمنية او صريحة ـــ بالاضافة الى الضمانات التقليدية للاستثمارات ـــ على الدول المعنية احترامها اذا لم ترغب في انقطاع الرساميل المذكورة عن اسواقها . بعبارة اخرى ستجد الدول المحتاجة الى الاستثمارات العربية نفسها

مضطرة لاخضاع بعض اوجه سياستها الخارجية لمصالحها الاقتصادية المرتبطة بالعالم العربي .

في الواقع اذا تحقق مثل هذا النمو في العالم العربي وتعاظمت قدراته المالية وقوي مركزه الدولي فانه لن يضطر الى اللجوء مباشرة لسلاح النفط (عن طريق حجبه كليا او جزئيا عن العالم) من أجل تحقيق اهدافه السياسية وممارسة التأثير الدولي الذي يتناسب مع وزنه وطاقاته . عندئذ سيصبح سلاح النفط لا اكثر من واحد من الاسلحة الكثيرة المتوافرة لدى العالم العربي ولا يجري اللجوء اليه الا في الحالات القصوى . الا ان مثل هذه التطورات ما زالت مرتبطة بالمستقبل البعيد . في الوقت الحاضر يبقى سلاح النفط اهم سلاح متوفر عربيا اذا استخدم بالتنسيق الكامل مع المجهود العسكري العربي .

لكن يجب الا يغيب عن بالنا الجانب الاخر من هذا الموضوع وهو الدول النامية وشعوبها . اذ باستطاعة الدول الصناعية الكبرى التكيف مع التأثيرات التي ولدها ارتفاع اسعار البترول على اقتصادياتها وعلى موازين مدفوعاتها . اما أمل الغالبية العظمى من الدول النامية في تحقيق مثل هذا التكيف فهو مثل أمل ابليس في الجنة . وينطبق هذا الاعتبار بصورة خاصة على الدول الاكثر فقرا والتي يصل تعدادها الى حوالي ٤٠ بلدا تضم ما يقارب من مليار نسمة . هذه الدول مضطرة للانفاق بما يفوق قدراتها استيراد الطاقة والاغذية والاسمدة التي تتصاعد اسعارها باستمرار . تترتب واجبات مهمة على الدول العربية ازاء هذه البلدان وشعوبها عند اتخاذ اي قرار في المستقبل بالعودة لاستخدام سلاح النفط او دفع اسعاره او تخفيض انتاجه . ولا شك ان استشعار البلدان العربية لهذا الواجب وتقديرها له سيؤدي الى تلاحم اكبر بين العالم العربي وبقية دول العالم الثالث مما سيكون له تأثيراته الايجابية الهامة على النزاع العربي — الاسرائيلي او على اي نزاع حاد قد ينشأ بين الدول الرأسمالية الصناعية والدول المنتجة للمواد الخام عموما وللبترول على وجه التحديد .

يبدو لنا ان العودة الى استخدام سلاح النفط العربي مسألة لا مناص منها في المستقبل القريب . ففي حال استمرار الولايات المتحدة بتسليح اسرائيل بكثافة ورفضها الضغط بصورة جدية لاخراج جيوش الاحتلال من الاراضي العربية ، وفي حال اندلاع حرب جديدة في المنطقة او حتى في حال العودة الى توازنات حالة اللاسلم واللاحرب المعروفة لن تتمكن اية دولة عربية من الامتناع عن شهر سلاح النفط مجددا او اقحامه في المعركة مرة اخرى . وأمام هذا الاحتمال المرجح لا بد من اتخاذ اجراءات وقائية وتحضيرية من الان لضمان اكبر قدر ممكن من النجاح عندما تحين الساعات الحاسمة بالنسبة لسلاح النفط . ومن اهم هذه الاجراءات الضرورية في رأينا : (أ) المحافظة على مستوى اسعار النفط الحقيقية وليس الاسمية فقط (أي حماية العائدات) في وجه الضغوط التي تمارسها الدول المستهلكة لتخفيض الاسعار حتى لو استدعى ذلك خفض مستوى الانتاج . الواقع هو أن الاسعار الحقيقية تتجه حاليا نحو التدهور بسبب التضخم المتصاعد الذي يعاني منه النظام الرأسمالي والتقلب الدائم في أسعار العملات الرئيسية التي يجري التعامل بها في بيع البترول وشرائه . وجدير بالاشارة ان دول الاوبيك ناقشت مشروعا لضبط مستويات الانتاج وتنسيقها بهدف دعم المستوى الحالي لاسعار البترول (وهذا اضعف الايمان) . لكن حتى الان لم تتخذ أية اجراءات جذرية في هذا المجال وما زالت دول الاوبيك تستخدم الاجراءات المالية والتسعيرية المحض

للمحافظة على مستوى الاسعار الحالي بدون اللجوء الى خفض الانتاج* . ومما يبعث على الارتياح في الوقت الحاضر انه مـا من دولة بترولية ذات شأن في الاوبيك ، باستثناء المملكة العربية السعودية ، تميل الى فكـرة خفض اسعار النفط السائـدة حاليا . وعلى الرغم من التأثير الكبير الذي تمارسه السعودية في المنظمة لن يكـون بامكانها على ما يبدو كسر الاسعار بمفردها وبدون الاتفاق والتحالف مـع دول منتجة هامة اخرى . ولا يظهر ان مثل هذا التحالف وارد في المستقبـل المنظور لان مـزاج الاكثرية الساحقة من دول الاوبيك لا يميل الى الابقاء على المستوى الحالي للاسعـار فحسب ، بل يطالب برفعها لاجل تعويض الخسائر الناجمة عن تصاعد التضخم المالي العالمي . (ب) التعاون الحميم والسريع بين الدول العربية المنتجة للبترول (بمشاركة اكبر عدد ممكن من دول الاوبيك) مع البلدان المصدرة للمواد الخام بهـدف الضغط لادخال تعديلات اساسية وكبيرة على النظام الاقتصادي العالمي واصلاحه بحيث تتحقق علاقات اقل اجحافا واكثر توازنا ومساواة في عمليات التبادل التجارية مع البلـدان الصنـاعية المستهلكة للمـواد الاولية والبترول . (ج) التحـول الكـامل للمجازفات التـي ينطـوي عليهـا استخـدام سلاح النفـط مجـددا والاستعداد لتطويقهـا بكـافة الوسائل الممكنة . وسنذكر بعض الامثلـة عـن الاوضـاع الخطرة التي يمكن ان تنشأ في مثل هذه الحالة وضرورة التعامل معها بروية وبعـد نظر . في حال فرض حظر جديد على تصدير النفط ستتذرع الدول المستهلكة بارتفـاع الاسعار للقيام باعمال عدوانية على الاراضي العربية لذلك لا بد من اتفاق بين البلدان المعنية على تثبيت الاسعار عند حد معين خلال فترة الحظر لسلب الدول المستهلكة من ذريعتها . وينطبق هذا الاعتبار بصورة خاصة على فتـرات الانكماش الاقتصـادي الشديد في الدول الرأسمالية . كما ان استخـدام سـلاح النفط يفرض اعباء غـير متساوية على الدول العربية المنتجة بمعنى ان الدول ذات الانتاج الصغير نسبيا وعدد السكان الكبير ـــ العراق والجزائر مثلا ـــ ستعاني معاناة أشد نتيجة انخفاض الانتاج والعائدات من الدول ذات الانتاج الكبير اصلا وتعداد السكـان الضئيل . وفي حـال اضطرار العالم العربي الى استخدام سلاح النفط لفترة طويلة نوعا ما لا بد من توزيع الاعباء على اسس اكثر عدلا مما يسمح به الوضع القائم حاليا . هذا مـع العلم ان بقاء البترول في باطن الارض في الظروف الاقتصادية العالمية الراهنة هو أفضل بكثير من الاموال المودعة في البنوك . هناك ايضا مسألة دراسة امكانات اكتشاف احتياطي جديد من البترول خارج العالم العربي مما قد يكون له تأثير على استخدام سلاح النفط وفاعليته . وواضح ان مثل هذا التطور يعتمد على حجم الاحتياطي المكتشف والمـدة التي يحتاجها لتصنيعه**. وما اذا كان سيستخدم في الاستهلاك المحلي أم لاغراض التجارة في سوق البترول الدولية . وكتقدير اولي يبدو لنا انه من المستبعد ان يؤثـر الاحتياطي المعروف وأي احتياطي يجري اكتشافه خارج العالم العربي على فعاليـة سلاح النفط قبل ثمانينات هذا القرن . لكن مع حلول النصف الثاني من العقد القادم من المرجح ان تبدأ مصادر الطاقة الاخرى والبديلة بالتأثير على الامكانات التي ينطوي عليها سلاح النفط العربي . مما يعني انه على الدول العربية الاستفادة القصوى من هذا السلاح في اقرب الفرص الممكنة .

لا بد لاي عزم عربي بالعودة الى استخدام سلاح النفط من مواجهة خطرين كبيرين

---

* أنظر شؤون فلسطينية ، عدد ٤٦ ، حزيران (يونيو) ١٩٧٥ ، ص ٢٠٤ ـــ ٢٠٥ .

** نفس المصدر ، ص ٢٠٢ ـــ ٢٠٣ .

مترابطين : وكالة الطاقة الدولية (١٨ دولة مستهلكة بقيادة امريكا وباستثناء فرنسا) والتهديدات الامريكية باستخدام القوة المسلحة للرد على اي خطر نفطي عربي جدي . وكالة الطاقة الدولية ليست اكثر من أداة بخدمة السياسة الامريكية هدفهـــا تحطيم منظمة الاوبيك وما أصبحت تتمتع به من قـــوة واجبار الدول الاعضـــاء على تخفيض أسعار البترول . وكان توماس اندرس ـــ مساعد وزير الخارجية الامريكي المسؤول عن السياسة النفطية الامريكية ـــ صريحا حول هذه النقطة عندما دعـــا في مقـــابلة اجراها معه التلفزيون البريطاني (٦ نيسان ١٩٧٥ وقبـــل يوم واحد من الاجتمـــاع التحضيري لمؤتمر الدول المستهلكة والمنتجة للنفط الذي انعقد وفشل في باريس) الى انهاء الاوبيك باعتبارها « كارتيل دولية قوية اكثر مما يجب » وأهم ما تركز وكالـــة الطاقة الدولية على تحقيقه هو وضع خطة عملية تتشارك بموجبها الدول الاعضاء في اقتسام البترول المتوافر لديها في حال قيام اي حظر على شحن النفط او الحد من تدفقه بنسبة تزيد على ٧ بالمئة بالقياس الى المستويات السائدة وقتهـــا . وتريد الولايـــات المتحدة من وراء خطة المشاركة هذه اضعاف التأثيرات التي سيولدها استخدام سلاح النفط على الدول الاعضاء في الوكالة الاكثر تعرضا لمخاطره وذلك عن طريق توزيـــع الاعباء بصورة مناسبة فيما بينها . ويفرض هذا الترتيب على الدول العربية ضرورة خفض الانتاج بنسب اكبر بكثير مما فعلت في السابق عندما تعود الى قذف سلاح النفط في المعركة وذلك لالغاء مفعول الاجراءات الوقائية التي تعمـــل وكالـــة الطاقة علـــى تثبيتها منذ الان ومفعول كميات النفط المخزونة لدى الدول المعنية .

أما بالنسبة للتهديدات الرسمية الصادرة عن حكومة الولايات المتحـــدة فقد ورد أهمها وأكثرها عنفا في مقابلة شهيرة أجرتهـــا مجلة « بيزنيس ويك » مـــع كيسينجر* (١٣ كانون الثاني ١٩٧٥) . ولا شك ان هدف هذه التهديدات هو ردع العرب ومنعهم من العودة لاستخدام سلاح النفط لان الوزير الامريكي استبعد اللجوء للقوة نتيجـــة ارتفاع اسعار النفط فقط . خفف كيسينجر من وقع تصريحاته باستبعاده استخـــدام القوة ضد المملكة العربية السعودية التي يفترض بها أن تكون الهدف الاول لمثل هذا التدخل . صرح في مطار الرياض في ١٥ أذار ١٩٧٥ قائلا بأن الملك فيصل وغيره مـــن كبار المسؤولين لفتوا انتباهه الى مقالات صحافية ذكرت امكان حدوث تدخل امريكي مسلح في المنطقة . وأضاف كيسينجر قائلا بأنه اكد للملك فيصل والسلطات السعودية بصورة قاطعة بأن علاقات بلاده مع السعودية تستند الى الصداقة والتعاون ولا يمكن ان تشكل التهديدات ـــ ان كانت عسكرية او غيرها ـــ جزءا من هذه العلاقات القائمة على التعاون وليس المجابهة . على الرغم من هذا « التطمين » واضح انه على البلدان التي تنوي استخدام نفطها كسلاح سياسي ان تعد نفسها لاحتمال تدخل امريكي مسلح لمنعها من القيام بمثل هذا العمل . كما ينبغي عليها ان تعلن عن طبيعة استعداداتها من اجل مفعولها الردعي . وتقنع الخصم بأنها لن تتوانى عن استخدام اجراءاتها الرادعة (تدمير منشآت النفط) ان دعت الحاجة لذلك . بعبارة اخرى علـــى الدول العربيـــة المعنية اللجوء الى التكتيك الامريكي نفسه . فالحكومة الامريكية تهدد بسبب التأثيـــر الرادع لتهديداتها القائلة بأنها على استعداد للتدخل العسكري على أرض دولة نفطية أو أكثر اذا استخدمت الدول العربية سلاح النفط بطريقة موجعة للغرب . كذلك مـــا على الدول العربية الا التهديد باتخاذ الاجراءات الرادعة ـــ مثل نسف المنشآت النفطية وتخريبها ـــ في حال حدوث مثل هذا التدخل . ويحمل هذا الموضوع اهمية خـــاصة

* انظر « شؤون فلسطينية » ، عدد ٤٦ ، حزيران (يونيو) ١٩٧٥ ، ص ١٩٨ .

لان تهديدات كيسينجر حددت بأن اللجوء الى القوة لن يحدث الا اذا وصل الاقتصاد الغربي الى نقطة « الاختناق » نتيجة استخدام سلاح النفط . بطبيعة الحال الولايات المتحدة وحدها تقرر متى تصل الحالة الاقتصادية الى درجة الاختناق . ومعروف ان الاسباب التي يمكن ان تؤدي الى مثل هذه الحالة متعددة وقد لا يكون اهمها البترول . وليس من المستبعد على الاطلاق ان تلجأ الولايات المتحدة الى أعمال حربية من هذا النوع للخروج من حالة « اختناق » يكون سببها اشياء اخرى غير البترول مثل الازمة البنيوية المستعصية التي تعصف بالاقتصاد الرأسمالي بكامله . وقد أشار المعلق السياسي الليبرالي الامريكي المعروف اي. ف. ستون في مقال له بعنوان « الحرب من أجل النفط » الى هذا الاحتمال (الوارد جدا) ذاكرا نزعة النخبة الامريكية الحاكمة لاستعمال العنف واللجوء الى القوة عندما تشعر بالحصار الذي تفرضه عليها معضلات المجتمع السياسية والاقتصادية المعقدة . (يذكر ستون ان نزعة مشابهة تسيطر كذلك على الدوائر الحاكمة في اسرائيل) . ومما يزيد في اهمية هذا التحليل الخسائر والهزائم التي منيت بها الولايات المتحدة مؤخرا في اماكن مختلفة من العالم مثل الهند الصينية وقبرص وتركيا واليونان والبرتغال . وجاء السلوك العنيف بلا مبرر الذي سلكته امريكا في حادثة سفينة التجسس مايا غويز على الحدود الكمبودية اصدق شاهد على هذه النزعة . بعبارة اخرى الدول الامبريالية كثيرا ما تلجأ الى الحروب والمغامرات العسكرية لتخطي الازمات الداخلية والتناقضات التي تعصف بتركيبها الاجتماعي والاقتصادي . وما من شيء يمنع الولايات المتحدة من سلوك هذه الطريق بعد لوم العرب « بخنق العالم » ببترولهم . فاذا كانت الدول العربية تنوي حقا استخدام سلاح البترول في المستقبل عليها ان تخطط لذلك مسبقا وتتخذ الاجراءات اللازمة لحماية نفسها مما تعلن امريكا صراحة بانها على استعداد لتنفيذه عندما تحين الساعة الحاسمة . ومن اهم الاجراءات التي يمكن للدول العربية الاستعداد لاتخاذها ــ بالاضافة الى نسف الابار والحقول ــ تدمير محطات التجميع ومحطات الكهرباء في حقول النفط التي لا يمكن بدونها استخراج البترول ونقله خاصة وأن اعادة بناء هذه المحطات عملية صعبة ومكلفة وتستغرق وقتا طويلا نسبيا (من سنة الى سنتين) . ومن الاهمية بمكان توجه الاعلام العربي الى الرأي العام في الدول المستهلكة لاخباره بأن تدمير منشآت النفط في حال حدوث تدخل عسكري خارجي يعني انقطاع تدفق البترول العربي لمدة لا تقل عن سنة مما سينزل نزول الكارثة الماحقة على اقتصاديات هذه الدول وخاصة الاوروبية منها واليابان . من الاهمية بمكان ايضا استعداد الدول العربية ماليا لوقوع مثل هذا الاحتمال الذي سيؤدي الى انقطاع المداخيل النفطية بطبيعة الحال . بعبارة اخرى يستدعي استخدام سلاح النفط في المستقبل اخذ كافة هذه العوامل بعين الاعتبار والاستعداد لاسوأ الاحتمالات لان استخدام سلاح النفط برهن بما لا يترك مجالا للشك على فاعلية عالية وعلى استعداد العرب لشهره عندما تدعو الحاجة القصوى الى ذلك وقضية فلسطين تحدد دوما ساعة حلول هذه الحاجة بالنسبة لهم .

أسس الايديولوجية الصهيونية

ماهر الشريف

لقد استطاعت الايديولوجية الصهيونية خلق جسم مترابط من الافكار المنبثقة عن المعتقدات والاساطير والحوادث التاريخية حقيقية كانت أم مزيفة ، لتخفي بذلك تاريخ نشوئها والتناقض الصارخ القائم بين شكلها ومضمونها الطبقي . وتقوم هذه الايديولوجية الرجعية على « ديماغوجية اجتماعية بلا حياء ، وتؤثر على أناس مؤمنين غير ثابتين ايديولوجيا وغير واعين سياسيا »(١) . ويعتمد مبشروها في الترويج لها على العاطفة لا على الفكر ، كما يعتمدون على جهل البعض بالدوافع والظروف التاريخية التي رافقت ولادتها .

الايديولوجية الصهيونية هي بنية فوقية معقدة ، مبنية بشكل دقيق ، قادرة على التكيف حسب الظروف المختلفة ، بحيث أصبح وعي ملايين الناس تجاهها — يهودا أو غير يهود — عاجزا عن التمييز بين الحقيقة والميتافيزيقيا ، بين ما هو صحيح وما هو مزيف تاريخيا ، بين ما ينفع وما يضر بالجماهير اليهودية . وأصبح كل نقاش يدور حول جوهر هذه الايديولوجية وأصل نشوئها التاريخي ، لا يقوم بناء على وقائع مادية ملموسة ، وانما بناء على قضايا مجردة متعلقة بالايديولوجية مثل : الايمان ، التميز ، التراث الثقافي ، الطموح القومي ، الحقوق « التاريخية » ، اللاسامية الابدية . . . الخ. وهكذا يحل المفهوم المثالي والخلقي للتاريخ ، القائم على أساطير وتنبؤات تاريخية يفترض أنها ما زالت حية منذ القدم حتى يومنا هذا ، محل مفهومه المادي والديالكتيكي. ان محاربة الصهيونية كايديولوجية رجعية وكشف تضليلاتها ليس ضربا من اللاسامية كما يدعي أنصارها ، وذلك استنادا الى المعادلة التي وضعوها : معاداة الصهيونية يعني اللاسامية ، وانما العكس هو الصحيح تماما .

ان محاربة الايديولوجية الصهيونية ، تهدف الى منع جميع اليهود من تبني هذه الايديولوجية العنصرية والعدوانية . انها تهدف الى معارضة موضوعة « الحقد الابدي على اليهود » بالاخوة والتضامن الاممي بين الجماهير الكادحة قاطبة ، انها تهدف الى الفصل مع « لينين » بين « الصفات النبيلة والتقدمية للثقافة اليهودية » وبين الموضوعات الشوفينية العرقية التي تصفها الصهيونية بـ « التراث الثقافي للشعب اليهودي » ، لتخفي بذلك أنها موضوعات ايديولوجية ، وضعتها طبقة اجتماعية معينة — البرجوازية الكبيرة اليهودية — لتخدم أهدافها الطبقية وسخرتها لخدمة الامبريالية العالمية .

تنحصر الافكار الرئيسية للصهيونية كما صاغها « كلاسيكيوها » تيودور هرتزل وليو بنسكر وبورخوف وغيرهم بما يلي : « اليهود هم شعب الله المختار » و« اليهود هم شعب ذو مصير تاريخي وسمات خاصة لا تتصف بها الشعوب الاخرى » و« كل يهودي ينتمي الى « الامة اليهودية » » و« يجب على اليهود أن يطمحوا لموطنهم القديم — فلسطين — » .

اعتمادا على هذه الافكار الرئيسية يمكننا القول بأن الاساس الاول للايديولوجية الصهيونية ، هو الموضوعة القائلة بأن اليهود المتفرقين في العالم ، يشكلون أمة ، وان هذه الامة تتطلع منذ الفي سنة للعودة الى أرض فلسطين واقامة دولتها .

ان وثيقة اعلان قيام دولة اسرائيل الصادرة في ١٥ ايار ١٩٤٨ تدعي بأن « الشعب اليهودي الذي طرد من دولة اسرائيل قد بقي وفيا لدولته في جميع بلدان تشتته ، وانه كان يصلي دوما للعودة اليها ، متأملا باستعادة حريته القومية . ولقد كان اليهود الذين تملكهم هذا الرابط التاريخي يبذلون دوما الجهود الشاقة ، خلال قرون متعاقبة للعودة الى أرض أجدادهم واعادة بناء دولتهم »(٢) .

انه من غير المجدي التأكيد كثيرا على زيف موضوعة « الامة اليهودية » ، فالامم « ليست أزلية بمعنى أنها تتشكل في زمان ومكان معينين،ثم تخلد عبر العصور والازمنة، غير متأثرة بتبدل الظروف الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في العالم »(٣). ان الامة هي نتاج تطور اجتماعي تاريخي ، تنشأ نتيجة للروابط الاقتصادية المتكونة ، ولتحول الاسواق المحلية الى سوق وطنية موحدة ، مكونة لغة واحدة وأرضا واحدة وثقافة واحدة . ان الادعاء بأن اليهود يشكلون امة ثابتة عبر التاريخ لا يمكن له أن يثبت أمام أي مفهوم علمي للامة . فهذه « الامة » المزعومة ، تفتقر للحد الادنى من العوامل الضرورية — والمتفق عليها علميا — لوجود الامة . ان « بنسكر » نفسه يعترف بأن « الشعب اليهودي ينقصه أغلب العوامل التي تشكل الشرط الذي لا غنى عنه لوجود الامة »(٤). ومع هذا فهو يصر على ان « الامة اليهودية » موجودة بسبب « وحدة التكوين الروحي » لليهود ، و« ماضيهم التاريخي الواحد » و« دينهم الواحد » ...الخ وهكذا تحل العوامل الميثولوجية محل العوامل العلمية . فحتى وحدة الدين هي قضية نسبية تماما . فالدين لم يكن في يوم من الايام ميزة من ميزات الامة . فمواطنو أمة واحدة في بلد واحد ، يمكن أن ينتموا — وهم عادة ينتمون — الى مختلف المذاهب الدينية .

وتشكل موضوعة « الامة اليهودية » التي تتطلع منذ الفي سنة للعودة الى صهيون ، وبناء دولتها ، احدى التزييفات الفاضحة للتاريخ . فالرجوع الى المعطيات العلمية يثبت أن مجمل ما حصل في حياة ومصير الشعب اليهودي القديم مماثل الى حد ما ، لطبيعة قيام وتطور دول عهد العبودية . فقد كان ذلك العهد ، هو عهد الحروب القبلية المتواصلة التي كانت تنشب من أجل النهب وامتلاك العبيد والاستيلاء على أفضل الاراضي . وكانت اشكال الدولة تتعاقب ، والاقوام والقبائل تتخالط فيما بينها ، وتنتقل للعيش في البلدان المجاورة .

لقد سار الشعب اليهودي القديم أيضا ، على مثل هذا الدرب بوجه عام : كانت أراضي فلسطين في العهود القديمة تقطنها قبائل من الكنعانيين (قريبين جدا من اليهود من حيث الاصل لكنهم ليسوا يهودا) ، الذين كانوا قد بلغوا مستوى ثقافيا عاليا نسبيا . وهم بالذات الذين أسسوا مدينة القدس حسبما ذكر في مخطوطات تل العمارنة المكتوبة باللغة المسمارية والتي تعود الى نهاية القرن الخامس عشر قبل الميلاد(٥). وفي نهاية القرن العاشر قبل الميلاد غزت أراضي فلسطين قبائل يهودية من البدو الرحل ، يعتقد أنها قد أتت من الجزيرة العربية ، حيث استطاعت القضاء على قسم من الكنعانيين ، ودمجت فيها القسم الآخر . اما الفلسطينيون الذين لم تكن لهم أية علاقة بالساميين فلقد تم التغلب عليهم على أيام داوود ، وبعد ذلك تم دمجهم .

ان التاريخ يبين بأن فلسطين لم تكن في يوم من الايـــام الوطن الاصلي لليهـــود . والتوراة ملأى بالقصص التي تحكي عن عمليات غزو اليهود للارض الكنعانية . ومنذ تلك الازمنة الغابرة ، اختلط اليهود بالسكان المحليين . وكان الكنعانيون « على درجة أعلى من التطور الاجتماعي . أما القبائل اليهودية المؤلفة من الرحل والرعاة ، والتي كانت في مرحلة التحول الى زراعيين وحرفيين وتجار حضريين ، فقد أخذت تستوعب ثقافة وأشكال العلاقات الاجتماعية لدى الشعب المغلوب على أمره »(٦).

عندما غزا الرومان المملكة اليهودية كان « أكثر من ثلاثة أرباع اليهود يسكنون خارج فلسطين »(٧)، ولم يكن ارتباطهم بالمملكة اليهودية في فلسطين، ليظهر الا اثناء الحج الى القدس لتأدية فرائضهم الدينية .

ولقد ظهر بين اليهود المنتشرين في العديد من أنحاء الامبراطورية الرومانية اتجاهان: اتجاه للانعزال عن السكان الاصليين ، واتجاه للاندماج بهم والتكيف مع الواقع الجديد. ولقد كان اتجاه الانعزال يقوى سواء بفعل عوامل خارجية قسرية ، كاسكان اليهود في الغيتوات مثلا ، أو عن طريق سعي الاوساط الدينية اليهودية المحـــافظة ، للانعزال الذاتي ، أي عزل اليهود « شعب الله المختار » عن بقية السكان ، والركون الى الله ، وذلك خوفا على ضياع « خصوصيات » اليهودي .

ويجب الملاحظة ، بأن ايديولوجيي الصهيونية ، قد اعتمدوا فيما بعد ، على هذا الاتجاه الانعزالي القديم ، في ايجاد « حلهم » للمسألة اليهودية .

ولقد ساعد سقوط أنظمة القرون الوسطي ، وتطور الحريات السياسية في أوروبا ، خاصة بعد اعلان مبادىء الثورة البرجوازية الافرنسية الكبرى ، على تقوية اتجـــاه الاندماج والتكيف ، حيث بدأت الجماهير اليهودية تتحـــرر سياسيا وتنال حقوقهـــا الديمقراطية ، وتنتقل من التحدث بلغتها الى التكلم بلغة الشعوب التي تعيش بينها ، كما كانت تسعى للاندماج في حياة هذه الشعوب الاقتصادية والثقافية .

ومع تطور الرأسمالية ، ازدادت فئة العمال اليهود في صفوف البروليتاريا ، كما ازدادت مشاركتهم في الحركة الاشتراكيـــة الديمقراطية الثوريـــة ، مما أثار قلـــق البرجوازيات الاوروبية السائدة (خاصة البرجوازية الامبريالية الانكليزية) ، ودفعها للتعاون مع البرجوازية الكبـــيرة اليهودية ، للعمل سوية علـــى صرف نضال العمال الثوريين اليهود ، وابعادهم عن المساهمة في صفوف الحركة الثورية(٨)، خاصة في روسيا القيصرية .

لقد كان اتجاه الاندماج ، والنضال المشترك في سبيل التحرر الاجتماعي لجماهـــير الكادحين قاطبة ، هو الاتجاه المعبر عن الحل التقدمي للمسألة اليهودية . ولقد حظي هذا الاتجاه على دعم الحركة الثورية العالمية ، وتبناه « كارل ماركس » و« لينين » من بعده .

ان الاساس الثاني للايديولوجية الصهيونية ، هو موضوعة تميز اليهودي عن غيره من البشر بخصوصياته العرقية الفريدة . يقول « ناحوم سوكولوف » : « ليس ثمة أجناس نقية نقاوة مطلقة ، لكن اليهود ، دونما ريب ، أنقى أمـــة بين أمم العالـــم المتمدنة »(٩). ويؤكـــد ايديولوجيو الصهيونية علـــى أن تميز اليهودي بخصوصياته العرقية، هو سبب الحقد الدائم الذي يكنه غير اليهودي له.كما يؤكدون على أن جميع الشعوب التي يعيش اليهود بينها ، هي ذات نزعة لاسامية ظاهرة ام مخفية(١٠).

ويذهب « وايزمن » أبعد من هذا عندما يصر على ان « السبب الرئيسي للاسامية هو وجود اليهودي » بحد ذاته .

وهكذا ينتج حسب هذا الادعاء بأن اللاسامية هي ظاهرة أزليـــة ، رافقت ولادة اليهودية ولازمتها عبر كافة العصور المختلفة . كتب « ليو بنسكر » : « ان اليهودية والعداء لليهودية يسيران جنبا الى جنب عبر التاريخ منذ قرون عديدة . فاليهود هم الشعب المختار بسبب الحقد الابدي للبشرية »(١١). كما كتب أيضا : « ان اللاسامية هستيريا ألمت بالنفس البشرية حتى صار الناس يتوارثونها كالمرض ، وبانتقالها عن طريق الوراثة طيلة ألف عام ، صارت مرضا عضالا لا شفاء منه »(١٢).

ان اللاسامية الابدية ، ما هي الا بدعة ابتدعتها أدمغة ايديولوجيي الصهيونية . انه لمن الضروري اعادة الاعتبار للحقيقة ، وفضح الموضوعة القائلة بأن اليهود كانوا مضطهدين دوما . فالطبقة الغنية من اليهود لم تشارك جماهير الكادحين بؤسهم ، بل كانت دوما في وضع اجتماعي مميز ، حيث كانت تتمتع بامتيازات عديدة ، وقد ساهمت كجزء من الطبقات السائدة باضطهاد الجماهير الكادحة .

تورد « جالينا نيكيتينا » في كتابها « دولة اسرائيل » مثالا عن الامتيازات التي كان يتمتع بها اغنياء اليهود في روسيا القيصرية ، فتذكر انه « عند ادخال نظام التجنيد في روسيا سنة ١٨٢٧ ، لم ينطبق هذا النظام على الطبقات الغنية من اليهود ، وعندما أجريت الاصلاحات اليهودية ، كما يشير تقرير الوزير بلودوفوف ، كانت هناك دعوى لفصل السكان اليهـــود ذوي النفـــوذ من ناحية الاموال والتعليم عـــن الجماهـــير الغفيرة »(١٣).

وهكذا كانت ظاهرة تشرد كادحي اليهود ، تترافق مع ظاهرة امتلاك أغنيائهم للعديد من الامتيازات ، وقد طبعت هاتان الظاهرتان المتلازمتان تاريخ التجمعات اليهودية . ومع ان هاتين الظاهرتين (التشرد وامتلاك الامتيازات) ، قد تنبثقان عـــن معطيات تاريخية مختلفة ، حسب المكان والزمان ، الا انهما كانتا ترتبطان دومـــا بالدور الذي يحتله اليهود في كل مجتمع .

ان « طبيعة » اليهودي لا يمكن تحليلهـــا « انطلاقا من اعتبارات ميثولوجية بل من خلال الشروط الاجتماعية ونمط الحياة المعين الذي مارسه اليهود »(١٤)، اي من محيط العلاقات الاجتماعية والصراع الطبقي .

ان اللاسامية هي ظاهرة تاريخية ، ولدت نتيجة ظروف معينة ، وتتلاشى بتغير هذه الظروف .

لقد كان السبب الرئيسي للاساميـــة العصور القديمة والوسطـــى يكمن في الدور الاجتماعي الذي كان يلعبه اليهودي في تلـــك المجتمعات ، والذي تمثل عمومـــا بدور التاجر والمرابي . ولقد أثر تفاوت التقدم الاقتصادي والاجتماعي بين بلدان أوروبا، على أشكال اللاسامية وعلى فترات ظهور موجـــات العداء لليهود ، وعلى طبيعـــة القوى الاجتماعية التي كانت تشن الحرب ضدهم . ففي بعض البلدان قاد النبلاء الصراع ضد اليهود ، وفي بلدان أخرى قامت البرجوازية الفتية بهذا الدور ، أما في المانيا مثلا فلقد نظمت الجماهير الشعبية من الفلاحين والحرفيين المذابح ضدهم .

ان اللاسامية الحديثة ، لا يمكن تحليلهـــا دون أن نأخذ بعين الاعتبـــار ، الواقع الاجتماعي الذي يميز النظام الرأسمالي ، خاصة وجود طبقتين متناقضتين رئيسيتين : البرجوازية والبروليتاريا .

لقد أعطى « لينين » تعريفا دقيقـــا لظاهرة اللاسامية الحديثة حـــين قال : « ان اللاسامية هي اشاعة العداء ضد اليهود . فعندما شعرت الملكية القيصرية اللعينة ان نهايتها قد دنت ، حاولت تحريض العمال والفلاحين غير الواعين ضـــد اليهود . وقد نظمت شرطة القيصر ، المتحالفة مع ملاكي الاراضي الكبار ومع الرأسماليين ، المجازر ضدهم . لقد عمل الملاكون الاقطاعيون والمستغلون كل ما بوسعهم ، لحرف الحقد الذي يكنه لهم العمال والفلاحون المعدمون ، وتوجيهه ضد اليهود .

ويحدث في بلدان أخرى ، أن يؤجج الرأسماليون اللاسامية بالقاء غشاوة على عيون العمال ، وحرفهم عن النضال ضد عدوهم الحقيقي : رأس المال .

ان أعداء العمال ليسوا اليهود . ان أعداء العمال هـــم رأسماليو جميع البلدان . يوجد بين اليهود عمال يشكلون الاكثرية . انهم اخواننا ورفاقنا في النضال مـــن أجل الاشتراكية ، فهم مضطهدون مثلنا من قبل رأس المال . ويوجد بين اليهود ، كما يوجد بيننا ، فلاحون أغنياء مستثمرون ورأسماليون .

ويحاول الرأسماليون جهدهم ، لتأجيج العداء بين العمال من مختلف الاديان ومختلف القوميات ومختلف الاجناس . ان أغنياء اليهود ، مثلهم مثل أغنياء الروس وأغنياء العالم أجمع ، يدوسون بأقدامهم العمال ، يضطهدونهم ويفرقونهم »(١٥) .

وهكذا ، لا يمكننا البحث عن جذور اللاسامية الحديثة ـــ حسب تعريف « لينين » لها ـــ في « خصوصية » اليهودي ، وانما في سعي الطبقـــات البرجوازية السائدة ، لتفريق صفوف العمال ، وحرفهم عن النضال ضد عدوهم المشترك : رأس المال .

ان الموضوعة القائلة بأن الصهيونية قد ولدت نتيجة لظاهرة اللاسامية ، وانها الرد الطبيعي عليها ، قد اصبحت احدى الركائز الاساسية للايديولوجية الصهيونية .

ويعتمد ايديولوجيو الصهيونية على فكرة اللاسامية الابدية للادعاء بأن الصهيونية ، قديمة قدم تشتت اليهود في أرجاء المعمورة وانها « الشيء الذي كانوا [هم اليهود م.ش] يتوقون اليه على مر الاجيال ، لكنه الشيء الذي لـــم يكونوا يدركونه بفعـــل الصدفة فقط »(١٦) .

وهكذا فالصدفة كانت العائق الوحيد الذي أعاق اليهود عن ادراك الصهيونية ، التي لم تولد كحركة سياسية الا في أواخر القرن الماضي . ان محاولة ايديولوجيي الصهيونية تقليص حركة التاريخ على فعل الصدفة ونفي دور القوانين الموضوعيـــة وتأثير القوى الاجتماعية المحركة ، يثبت مرة أخرى انهم ينظرون للتاريخ من خلال مفهوم مثالي غير علمي وغير ديالكتيكي . ان هدفهم من وراء تزويـــر تاريخ الميلاد الحقيقي للصهيونيـــة السياسية ما هو الا لطمس الجوهر الطبقي لهذه الحركة ، والتستر على مخططاتها العدوانية ، وعلى دورها في خدمة الامبريالية العالمية .

ان تطور الايديولوجية الصهيونية قد حددته التغـــيرات الاجتماعية ـــ السياسية المرتبطة بقوانين تطور الامبريالية في نهاية القـــرن الماضي ، حيث تمكن القسم الاكثـــر ثراهة من البرجوازية اليهوديـــة من التحول الى برجوازيـــة احتكارية مرتبطة أوثق الارتباط بالرأسمال العالمي .

فالصهيونية هي الايديولوجيـــة والممارسة الرجعيـــة القومية للبرجوازية الكبـــيرة اليهودية .

يدعي ايديولوجيو الصهيونية ، أن المجازر التي شهدتها أوروبا الشرقية والوسطى ،

والتي ذهب ضحيتها الاف اليهود ، كانت وراء تطـور الحركـة الصهيونية وازدهار ايديولوجيتها !!

انه من الاكيد فيه بأن تلك المجـازر الوحشية قد ساعـدت على تطور الحركـة الصهيونية السياسية ، حيث استغل الصهاينة تلك المجازر لدفع اليهود للانضواء تحت لواء حركتهم ، خاصة وانه لم يكن يكفي الحركة الصهيونية امتـلاك الارض لاقامـة « الدولة الموعودة » ، وانما كان يلزمها ايضا اقناع الجماهير اليهودية الملاحقة ، بأن برنامجها الاستيطاني الكولونيالي قابل للتحقيق ، وانه الحل المنشود ، وذلك بهـدف دفعها الى الهجرة .

ومع ذلك ، يجب التأكيد على أن اللاسامية لم تساعد فقـط الصهيونية السياسية الامبريالية ، بل ساعدت أيضا حركات يهودية اخرى كانت تقدم حلولا مختلفة للمسألة اليهودية . واذا استطاعت الحركة الصهيونية ان تتطور وان تفرض نفسها اخـيرا ، فهذا يرجع لطبيعتها الطبقية ، التي شكلت منذ تأسيسها ، قاعدة ارتباطها بالاستعمار ، الامبريالي العالمي .

لقد أحس ايديولوجيو الصهيونية منذ البداية ، بأن النزعة اللاسامية تشكل فـائدة لهم ، حيث انها قد تساعد على ترويج ايديولوجيتهم بين الجماهـير اليهوديـة ، حتى رأيناهم « يمدون يدا لاعداء السامية من أجل عقد التحالف الذي لم يحدث أن أخلوا به مرة واحدة طيلة تاريخ وجود المؤسسة الصهيونية الدولية »(١٧). لقد كتب هرتزل في مذكراته : « في باريس اتسعت آفاق نظري الى اللاسامية التي بدأت أفهمها تاريخيا ، وأغفر لها كل شيء . وأكثر من هذا فانني اعترف بتفاهة ولا جدوى النضال ضدها . وعلاوة على ذلك فان هذه القوة الجبارة المتمثلة فيها لن تجلـب الضرر لليهود ، بـل أعتبرها حركة مفيدة لتطوير الشخصية اليهودية »(١٨).

أحيانا كثيرة ، يخلط الدارسون للايديولوجية الصهيونية بين أفكار الصهيونية كحركة للبرجوازية الكبيرة اليهودية وبين أفكار بعض المنظمات الدينية والمتصوفة اليهوديـة ومثال على هذا الخلط ما يورده «فيصل دراج» في مقاله « مسار الفكر الصهيوني »(١٩) حين يذكر بأن : « الافكار الصهيونية الداعية الى ضرورة وجود وطن مستقل لليهـود لم تكن في البدء واعية لبعدها الكولونيالي ، أي أنها لم تلد مباشرة وبشكل واع كحركة كولونيالية وانما ولدت كرد فعل صوفي ضد واقع سيء يسيـم اليهود شتى انـواع الاضطهاد » .

لقد كانت الافكار الصهيونية الداعية الى بناء وطن مستقـل لليهود واعية لبعدهـا الكولونيالي منذ البداية ، حيث كانت تعبر عن مصالح طبقـة البرجوازية الاحتكـارية اليهودية ، المتحالفة مع الامبريالية العالمية .

لقد كانت الايديولوجية الصهيونية تتناقض مع كافة الاتجاهات الدينية والمثالية التي كانت تطبع مختلف المنظمات اليهوديـة ، خاصة تلـك التي كانت توجـد في روسيا القيصرية . صحيح أن بعض هذه المنظمات ، مثل « عشاق صهيون » التي تأسست عام ١٨٨١ ، كانت تطرح فكرة الهجرة الى فلسطين للهرب من الملاحقات ، غير أنهـا كانت تعتبر فلسطين أرضا مقدسة ومكانا للصلاة والحج ، وليس كأرض هادفة الى اقامة دولة يهودية . لقد كانت الاتجاهات الدينية والصوفية اليهودية ، تعارض بشدة المشروع السياسي والكولونيالي الصهيوني ، حيث تراه متعارضا مع الارادة الالهية التي شتتت اليهود في أنحاء المعمورة . فأقامة الدولة اليهودية وعودة الشعب اليهودي لاعادة تعمير المعبد ، لا يمكن ان تتحقق الا بعد ظهور « المسيح المنتظر » .

لقد كانت منظمات « عشاق صهيون » تهدف الى دفع اليهود للهجرة الى فلسطين بهدف « استيطانهم في مستعمرات زراعية بفلسطين ، وذلك بناء على تصورات مثالية ، خالية من أي بعد سياسي . وقد كانت هذه المنظمة غير مهتمة أبدا ، بل حتى تعارض الصهيونية السياسية التي كانت تسعى لبناء دولة »(٢٠).

كذلك لاقت الصهيونية معارضة اخرى ، بظهور الاحزاب الاشتراكية اليهودية ، كحزب البوند وحزب العمال اليهودي الاشتراكي وحزب عمال صهيون ، وذلك بالرغم من أن أفكار الصهيونية السياسية قد استطاعت التغلغل في صفوف هذه الاحزاب ، وطبعتها بطابع قومي شوفيني .

ولقد لاقت الصهيونية السياسية معارضة كبيرة في دوائر المثقفين اليهود . فلقد أشار الكاتبان اليهوديان « أ. بونيوك » و « م. فرنيكيل » في كتابهما « اليهود والصهيونية » ، الذي صدر في روسيا القيصرية سنة ١٨٩٨ الى أن الصهيونية هي « ظاهرة سطحية في جوهرها ، ولا تتناول الاحتياجات الحقيقية والاهداف التي يبتغيها الشعب اليهودي »(٢١)، وقد عبرا عن ثقتهما بأنه عند تكوين الدولة اليهودية فأن البرجوازية اليهودية سوف تستولي على السلطة في يديها ، أما جماهير العمال فسوف تعزل عنها تماما وتتحول الى بروليتاريا مستغلة . كما أشار الى ان الصهيونيين هم « في حقيقة الامر قوميون ورجعيون » .

وفي الولايات المتحدة كان الصهيونيون « قلة تعارضهم كافة المنظمات اليهودية بما في ذلك اللجنة اليهودية الاميركية »(٢٢)، كذلك كان الامر بالنسبة لفرنسا « حيث واجهت أقلية الصهيونيين معارضة الاتحاد اليهودي الفرنسي »(٢٣)، أما في بريطانيا « فقد واجه الصهيونيون عداء اكثرية اليهود في البلاد ، بعضهم من أعيان اليهود في البلاد مثل ادمون مونتاغو الذي كان عضوا في الوزارة »(٢٤).

لقد لاقت الحركة الصهيونية ، صعوبات عديدة لارغام الجماهير اليهودية على الهجرة الى فلسطين . ولقد كانت الوقائع تدحض فكرة « الحنين الدائم للعودة الى فلسطين »، تلك الفكرة التي كان يشيعها ايديولوجيو الصهيونية . حتى أن « بنسكر » نفسه كان يتأفف من أن « كل ذكرى للوطن القديم قد انعدمت في نفوس اليهود » وأن الذي يمنع اليهود من تحسس ضرورة وجود كيان خاص بهم هو « واقع عدم تحسسهم للحاجة الى مثل هذا الكيان »(٢٥).

لقد كان عدد المهاجرين اليهود الى فلسطين ، في أواخر القرن الماضي ، ضعيفا جدا بالمقارنة مع عدد المهاجرين منهم الى دول اوروبا الغربية واميركا الشمالية . ففي عام (١٨٨٠) كان عدد اليهود في فلسطين (٢٣ الف) يهودي ، وفي نهاية القرن كان عددهم لا يتجاوز (٥٦ الفا) ، وذلك مع أخذنا بعين الاعتبار تأثير العامل الديموغرافي. وفي نفس الفترة ، هاجر ثلاثة ملايين يهودي الى بلدان اخرى ، خاصة الى الولايات المتحدة الاميركية(٢٦).

لقد كانت ظاهرة الهجرة اليهودية في تلك الفترة ترتبط بظاهرة هجرة عامة ، أخذت حدودا كبيرة في اوروبا . ففي الفترة الواقعة بين سنة ١٨٧٨ وسنة ١٩٠٤ ، وصل الى موانيء بلدان اوروبا الغربية اكثر من خمسة عشر مليون مهاجر ، قدم غالبيتهم من دول اوروبا الوسطى والشرقية ، خاصة روسيا وجاليسيا . ولقد كانت تلك الهجرات، التي ترافقت مع ظاهرة مماثلة هي الهجرة من الارياف الى المدن ، نتيجة من نتائج تطور الرأسمالية ودخولها طورها الاحتكاري . ولقد حظيت هذه الظاهرة باهتمام

لينين الذي كتب : « تنتزع الرأسمالية الاميركية ، ملايين العمال من اوروبا الشرقية المتخلفة . . . تنتزعهم من ظروفهم الشبيهة بظروف القرون الوسطى »(٢٧).

واذا كانت المنظمة الصهيونية العالمية قد وافقت في مؤتمرها الاول ، الذي عقدته في مدينة بال بسويسرا سنة ١٨٩٧ ، على فلسطين ، كوطن قومي لليهود ، على الرغم من معارضة « هرتزل » ، فذلك بهدف توحيد كافة الاتجاهات اليهودية ، وتجميعها في حركة عالمية ، تقودها البرجوازية الكبيرة اليهودية ، بحيث تكون قادرة على التصدي للعدو الاكبر للصهيونية الا وهو اندماج اليهود بالشعوب التي يعيشون بينها ، وانضمام العناصر الواعية منهم للحركات التقدمية والثورية ، التي كانت تناضل في سبيل التحرر الاجتماعي لجماهير الكادحين قاطبة . ويضيف الدكتور « اميل توما » عاملا اخرا كان وراء الاتفاق نهائيا على اختيار فلسطين وهو « نشوء ظروف تساوقت فيها مصلحة الامبريالية البريطانية والصهيونية »(٢٨).

يعتبر « ثيودور هرتزل » الاب الروحي للحركة الصهيونية . ولقد كان كتابه « الدولة اليهودية » الذي ظهر في الالمانية والافرنسية والانكليزية سنة ١٨٩٦ ، بمثابة القاعدة الفكرية التي انعقد على أساسها المؤتمر الصهيوني الاول .

ان العطاء الرئيسي لكتاب « هرتزل » هو أنه قد رسم القواعد المادية والوسائل المالية والعملية ، اللازمة لتحقيق هدف بناء « الدولة اليهودية » ، الى جانب وضعه للاسس الايديولوجية الرئيسية التي قامت عليها الصهيونية السياسية .

لقد كان هرتزل ينطلق من أرضيته الايديولوجية والمصالح الطبقية الرأسمالية . ولقد استطاع بسهولة أن يلمح الخطر الكبير الذي يهدد مصالح البرجوازية الكبيرة اليهودية، التي كانت تشكل جزءا من الطبقات السائدة ، خاصة وأن « المثقفين اليهود الذين لا يملكون الثروات يتوجهون جميعهم اليوم ، وبشكل طبيعي ، نحو الاشتراكية »(٢٩)، أما اليهود الذين يتحولون الى عمال فهم « يتحولون الى ثوريين ، ويشكلون العناصر الفعالة ، داخل الاحزاب التخريبية »(٣٠) [أي الاحزاب الثورية م. ش] . وفي الوقت ذاته ، لاحظ هرتزل أن القوة المالية لاغنياء اليهود ، لا تتوقف عن الزيادة . لذلك اقترح تجميع اليهود قاطبة ، ضمن معسكر واحد ، ترفرف عليه راية السلام والمحبة الطبقية.

وكمرحلة نحو اقامة « الدولة اليهودية » التي لن تعرف الصراعات الطبقية ، اقترح هرتزل تأسيس « الشركة اليهودية » كشركة قائمة على أساس الاسهم ، ولقد أعطى لهذا الموضوع الجزء الاكبر من كتابه ، وذلك لانه كان يتوجه في المقام الاول الى « طبقة كبار الماليين اليهود » ، حيث أظهر لهم أن مشروعه سيدر عليهم أرباحا خيالية ، فالايدي العاملة ستكون هناك [أي في الوطن الموعود م. ش] رخيصة جدا ، وفقراء اليهود سيهاجرون في البداية ، للقيام بالاعمال الجسمانية الشاقة لتهذيب المكان استعدادا لاستقبال الميسورين منهم . وسيكون العمل منظما « على صعيد عسكري »(٣١)، وسيتربى الاولاد منذ البداية « في الاتجاه المطلوب »(٣٢) [أي اتجاه الشوفينية والعنصرية م. ش] .

ويظهر الطابع المعادي للديمقراطية ، وازدراء الجماهير الشعبية ، في كتابه بصورة جلية تماما فالديمقراطية « ستكون عاجزة في قراراتها، وستقود الى المهاترات البرلمانية، بدون القوة المعاكسة والمفيدة للملك »(٣٣)، والجماهير الشعبية هي « أسوأ من البرلمانات ، لانها معرضة لتبني كافة المعتقدات الخاطئة »(٣٤)، لذلك فالسياسة يجب

دوما « ممارستها من فوق »(٣٥)، ولهذا كله يجب بناء أجهزة قمعية متينة ف « الضباط وقوى البوليس يجب أن تمثل تقريبا عشر المهاجرين الذكور »(٣٦).

ويتوجه هرتزل منذ البداية الى مختلف قادة الدول الامبريالية ، فيعدها « بفوائد مباشرة » اذا دعمت مشروعه الكولونيالي ، خاصة وأن الدولة الصهيونية ستكون بمثابة مركز متقدم للامبريالية ضد آسيا ، مركز متقدم للمدنية ضد البربرية » .

يختلف الدارسون في تحليل الجذور الطبقية للايديولوجية الصهيونية . فبعضهم يدعم الفكرة القائلة بأن هذه الايديولوجية هي أيديولوجية البرجوازية اليهودية الصغيرة « المختنقة بين الاقطاعية المنهارة والرأسمالية الاخذة في الانحطاط »(٣٧)، وبالنسبة للبعض الاخر هي أيديولوجية البرجوازية اليهودية الكبيرة ، فهرتزل لم يوجه كراسه « الدولة اليهودية » الى : « البرجوازية اليهودية الوسطى التي يقال أنه انتمى اليها ، بل أصدره بمثابة نداء الى المتمولين سعيا وراء رعايتهم لمشروعه ، والواقع أن الكراس كتب على أن يصدر في البداية تحت عنوان : الدولة اليهودية نداء الى عائلة روتشيلد »(٣٨).

اننا نعتقد بأن الرأي الثاني هو الاسلم . ولا ينفي في ذلك أن أيديولوجيي الصهيونية الاوائل كانوا ينتمون الى طبقة البرجوازية اليهودية الصغيرة أو الوسطى ، فالانتماء الطبقي للبشر لا يكون بالضرورة وبصورة ميكانيكية متوافقا مع أيديولوجيتهم . ومن جهة أخرى ، فأن أعتماد الصهيونيين الاوائل على بعض الافكار الدينية والمثالية اليهودية القديمة ، في خلق أيديولوجيتهم ، لا ينفي أن الصهيونية هي أيديولوجية سياسية معاصرة ، نشأت في قرن محدد ، ونشطت في ظروف تاريخية ملموسة ، وذلك عندما ظهرت الطبقة الاجتماعية القادرة على انجاز مشروعها الكولونيالي الامبريالي — طبقة البرجوازية اليهودية الكبيرة — . فالافكار والايديولوجيات لا يمكن ان تظهر أبدا ، قبل ظهور القوى الاجتماعية القادرة على تجسيدها .

تحتل الايديولوجية الصهيونية مكانا بارزا في ترسانة الوسائل التي تستخدمها القوى الامبريالية للنضال ضد الافكار التقدمية والاشتراكية ، وللتأثير الفكري على الجماهير الشعبية .

وتملك الحركة الصهيونية العالمية ، ماكنة دعائية ضخمة « فتحت تصرفها ، وفق المعطيات الرسمية لنشرة « الصحافة اليهودية في العالم » الصادرة في لندن ، أكثر من ٨٥٠ صحيفة ومجلة .. »(٣٩). وتوجه الحركة الصهيونية العالمية ، نشاطها الدعائي ضد البلدان الاشتراكية ، وخاصة ضد الاتحاد السوفييتي ، وضد الحركة الشيوعية العالمية ، وضد النضال الوطني التحرري الذي تخوضه الشعوب العربية ، وخاصة الشعب العربي الفلسطيني .

تعاني الايديولوجية الصهيونية ، حاليا أزمة حادة ، تشهد عليها اعترافات زعماء الصهيونية الحاليين أنفسهم . وتتجلى هذه الازمة على جميع الاصعدة السياسية والاجتماعية والاخلاقية ، خاصة وأن هذه الايديولوجية الرجعية والشوفينية ، قد قامت على بنى مخالفة للعلم وغير متماسكة نظريا ، ولا يمكنها أن تصمد أمام تطور حركة التاريخ التقدمية . غير أن هذه الازمة الايديولوجية ، لا تعني أبدا أن الحركة الصهيونية ستنتهي من نفسها ، فهي لا تزال قادرة على الحاق الضرر بالحركة التقدمية والاشتراكية العالمية ، مما يتطلب تصعيد النضال ضدها ، وفضح الاسس الايديولوجية التي تقوم عليها .

الحواشي :

١ ــ بولشاكوف ، **معاداة الشيوعية مهنة الصهيونيين** ، ص ٧ ، منشورات نوفوستي ، موسكو ١٩٧٢ .
٢ ــ **اسرائيل وقائع وارقام** ، منشورات وزارة الخارجية الاسرائيلية ، باريس ، ص ٨ .
٣ ــ لطف‌الله حيدر ، الجذور الطبقية للحركة الصهيونية ، **شؤون فلسطينية** ، عدد ٣٦ ، ص ١٠٢ .
٤ ــ ليو بنسكر ، **التحرر الذاتي** ، ص ٣٤ ، باريس .
٥ ــ مارك ميتين ، **الصهيونية شكل آخر من أشكال الشوفينية والعنصرية** ، دراسة ، منشورات نوفوستي ، موسكو .
٦ ــ المصدر ذاته .
٧ ــ اورده ليون ابراهام ، **المفهوم المادي للمسالة اليهودية** ، ص ٢٢ ، دار الطليعة ، بيروت .
٨ ــ راجع بهذا الصدد مقال « أ.ن.سعد » ، ملاحظات اولية حول الايديولوجية الصهيونية من حيث نشأتها واصولها المجتمعية ، **شؤون فلسطينية** ، عدد ١٢ ، آب ١٩٧٢ .
٩ ــ ناحوم سوكولوف ، **تاريخ الصهيونية** ، باريس ، الجزء الاول ، ص ١٨٤ .
١٠ ــ هرتزل ، **الدولة اليهودية** ، ص ٢٢ ، باريس .
١١ ــ بنسكر ، **التحرر الذاتي** ، ص ٣٧ ، باريس .
١٢ ــ المصدر ذاته ، ص ١٢ــ١٣ .
١٣ ــ جالينا نيكيتينا ، **دولة اسرائيل** ، ص ١٨ ، دار الهلال ، القاهرة .
١٤ ــ فيصل دراج ، الماركسية والاتحاد السوفياتي في مرآة الصهيونية ، **شؤون فلسطينية** ، عدد ٣٧ ، ص ١٢٨ ، ايلول ١٩٧٤ .
١٥ ــ لينين ، التحريفات اللاسامية ، خطاب مسجل ، القي عام ١٩١٩ نقلا عن **المراسلات الصحفية الدولية عام ١٩٢٣** ، عدد ٢٧ ــ ٢٨ ، ص ٣٧٥ .
١٦ ــ يوري ايفانوف ، **احذروا الصهيونية** ، ص ٦٣ .
١٧ ــ المصدر السابق ، ص ٨٥ .
١٨ ــ اورده يوري ايفانوف ، المصدر ذاته ، ص ٨٦ .
١٩ ــ فيصل دراج ، مسالة الفكر الصهيوني ، **فلسطين الثورة** ، ٢٩ كانون ١٩٧٤ ، عدد ١٢٤ .
٢٠ ــ **الموسوعة اليهودية** ، مقال « الصهيونية » ١٩٠٣ ــ ١٩٠٦ ، نيويورك ــ لندن .
٢١ ــ أوردته جالينا نيكيتينا ، المصدر السابق ، ص ١٩ .
٢٢ ــ أ. ن. سعد ، **شؤون فلسطينية** ، عدد ١٢ ، آب ١٩٧٢ ، ص ٢٩ .
٢٣ ــ المصدر ذاته ، ص ٢٩ .
٢٤ ــ المصدر ذاته ، ص ٢٩ .
٢٥ ــ ليو بنسكر ، **التحرر الذاتي** ، ص ٣٥ ، باريس .
٢٦ ــ شلومو سيتون ، **اسرائيل هجرة ونمو** ، باريس ، منشورات كوجاس ، ١٩٦٣ .
٢٧ ــ لينين ، **المؤلفات الكاملة** ، جزء ١٩ ، ص ٤٨٩ ــ ٤٩٠ ، باريس .
٢٨ ــ اميل توما ، **جذور القضية الفلسطينية** ، ص ٤٨ ، حيفا .
٢٩ ــ تيودور هرتزل ، **الدولة اليهودية** ، ص ٣٧ ، باريس .
٣٠ ــ المصدر ذاته ، ص ٤٠ .
٣١ ــ المصدر ذاته ، ص ٥٤ .
٣٢ ــ المصدر ذاته ، ص ٥٥ .
٣٣ ــ المصدر ذاته ، ص ٩٢ .
٣٤ ــ المصدر ذاته ، ص ٩٣ .
٣٥ ــ المصدر ذاته ، ص ٩٣ .
٣٦ ــ المصدر ذاته ، ص ٥٨ .
٣٧ ــ ابراهام ليون ، **المفهوم المادي للمسالة اليهودية** ، ص ١٨٥ ، دار الطليعة ، بيروت .
٣٨ ــ أ. ن. سعد ، المصدر السابق ، ص ٤٠ .
٣٩ ــ مارك ميتين ، المصدر السابق .

البارون هيرش والحركة الصهيونية

فارس المنصوري

البارون موريس ده هيرش (١٨٣١ — ١٨٩٦) هو أحد مشاهير الشخصيات في القرن التاسع عشر . فقد احتل مكانة بالغة الاهمية في كل من التاريخ الاقتصادي للقرن الماضي ، وفي تطور الحركة الصهيونية ، على حد سواء . وذاع صيته في أنحاء العالم كواحد من أغنى رجال عصره وأكثرهم بذخا . كما ان اسمه ارتبط بالفضيحة المالية الكبرى التي أثيرت حول مشروع انشاء شبكة السكك الحديدية في البلقان، ذلك المشروع السيىء الصيت الذي تولى البارون انجازه وحصد من ورائه غناه الفاحش . ثم ان هيرش كان أبرز يهودي في عصره ، وهو الذي توجه تيودور هيرتزل ليقابله ويعرض عليه مشروعه بانشاء دولة يهودية . فقد أنفق هيرش عشرات الملايين من الجنيهات الاسترلينية على مساعدة اليهود وتهجيرهم من أوربا الشرقية لاعادة توطينهم في الارجنتين . ولذا توجت صوره بيوت الآلاف من اليهود الذين حفظوا له جميله. ويتذكر حاييم وايزمن ان صورة البارون كانت تحلي أحد جدران منزل والديه في مدينة منسك الروسية ، وقد علقت بجوار صورة الفيلسوف الاندلسي ميمون . وقد غالى بعض اليهود في اكرام هيرش ، فأطلقوا اسمه الكامل مع لقبه على أبنائهم . فكان الابن يدعى: البارون موريس ده هيرش .. فلان ، مما يسبب الاحراج له طول حياته . وما زال الوقف الذي انشأه هيرش تحت اسم : اليانس اسرائيليت اونيفيرسل* يقوم بدوره في مساعدة اليهود ، وفي ضخ الاموال باسرائيل . ولتخليد ذكراه ، أطلقت السلطات الاسرائيلية اسم البارون على أحد شوارع القدس الجديدة ، وكذلك على شارع في بتاح تكفا . كما ان الجالية اليهودية في نيويورك حرصت على أن يحمل شارع في تلك المدينة اسم البارون الذي نافس معاصره البارون ادمون ده روتشيلد (١٨٤٥ — ١٩٣٥) في تزعم يهود العالم واغداق الاموال عليهم . الا ان هذه الشهرة العريضة كلها لم يصلنا منها اليوم الا الصدى الضعيف ، مما يثير بالغ الاستغراب . فعلى حد علمنا ، لا يوجد الا كتاب واحد فقط وضع عن البارون الشهير ، وهو الذي كتبه الاقتصادي الاسرائيلي كورت غرونفالد ، ونشره في اسرائيل في عام ١٩٦٦ ، أي في الذكرى السبعين لوفاته ، بعنوان «هيرش التركي — دراسة عن البارون موريس ده هيرش، المقاول والمحسن». وفي هذا الكتاب المختصر (١٣٩ صفحة) الذي لا يكاد يشفي غليل الباحث ، لا يترك لنا المؤلف غرونفالد مجالا للشك حول الاسباب الكامنة وراء الغموض الذي يحيط بالبارون الشهير . فهو يعترف صراحة بأن الضباب الذي لف اسم البارون بطياته في هذا العصر الحالي ، لم يكن محض مصادفة ، وانما كان مقصودا ، اذ يذكر في مطلع كتابه الواقعة التالية : في عام ١٩١٠ ، اتصل أحد المؤلفين(١) بالاوصياء على تركة هيرش ، وأبلغهم عزمه على تأليف كتاب عن البارون الراحل ، ملتمسا منهم تزويده بالاوراق والوثائق

---

* Alliance Israélite Universelle.

١ — لا يذكر غرونفالد اسمه ، ولكن لعله الالماني الكونت ايفون كورتي الذي ألف كتابين عن آل روتشيلد.

اللازمة . الا ان الاوصياء أخبروه انهم لا يريدون المساهمة في مثل هذا المشروع . ويذكر غرونفالد ايضا بأن ارشيف البارون اختفى تماما ، ولم يبق من مراسلاته ذات الحجم الضخم الا النزر اليسير ، مما اضطره الى أن يعتمد في مصادره على الكتب والوثائق المنشورة بدلا من الرجوع الى المراجع الاولية كالرسائل والوثائق الشخصية غير المنشورة ، مثلما كان يتمنى ان يفعل عندما بدأ دراسته لحياة البارون وانجازاته في ميداني المقاولات والاعمال الخيرية .

ما هو اذن سر هذا الغموض الذي يحيط بذكرى البارون الاسطوري الذي عاش حياته تحت الاضواء ؟ قبل الاجابة على هذا السؤال في سياق دراستنا المختصرة لحياة البارون ودوره في الحركة الصهيونية ، علينا اولا ان نلقي نظرة على جذور الرأسمالية اليهودية التي شكل هيرش نقطة الذروة فيها،وذلك من خلال الخلفية التاريخية للاحداث التي بلورت الاقتصاد الاوروبي في القرن الماضي . ففي الفترة الواقعة بين التوقيع على معاهدة وستفاليا عام ١٩٤٨ (وهي المعاهدة التي جلبت السلام الى الربوع الالمانية بعد حرب الاعوام الثلاثين الطاحنة التي دمرت البلاد) وبين الحروب النابليونية في اواخر القرن الثامن عشر ، شهدت المانيا المنقسمة الى ممالك وامارات عديدة ، ظاهرة جديدة هي ظاهرة يهودي البلاط . فالمانيا لم تمتلك عملة نقدية موحدة ، بل كان كل أمير وملك يصدر عملته الخاصة للتداول داخل منطقة حكمه . وهذه الفوضى الاقتصادية أبرزت الحاجة الى اشخاص مؤهلين للقيام بأعمال الصيرفة ، مما دعى الحكام الى الاستعانة باليهود ليشغلوا هذه المناصب . فكان يوجد في كل بلاط الماني يهودي يتولى أعمال الصيرفة . وعلى ممر الزمن ، تطور عمل صراف البلاط ، فأصبح مستشارا ماليا للحاكم ، بل ودائنا له في معظم الاحوال ، مما أكسبه نفوذا اقتصاديا متزايدا . ثم جاءت الحروب النابليونية لتعصف بأوروبا من اقصاها الى ادناها ، وكبقية الحروب الاخرى على مدى التاريخ ، كانت هذه فرصة ممتازة لمستغلي الفرص المناسبة لان يضاعفوا ثرواتهم . فبرزت في هذه الحقبة أسرة روتشيلد الشهيرة التي توزع ابناؤها في فرانكفورت وباريس ولندن وفيينا ونابولي ليتحكموا بالاقتصاد الاوروبي ، وبرزت غيرها أسر يهودية عديدة .

وفي هذه الفترة ايضا ، برزت عائلة هيرش في شخص مؤسسها موسى ، الذي سنجد اول ذكر له في وثيقة يرجع تاريخها الى ١٨٠٣ (أي اوج الحكم النابليوني) ، وفي هذه الوثيقة الصادرة عن السلطات الالمانية المحلية، نجد توصية «باليهودي المحمي هيرش ، من اهالي مقاطعة كوننغز هوفن (بجنوب المانيا) بسبب سلوكه الحسن » . وهذا السلوك الحسن هو الذي جعل السلطات تضفي عليه حمايتها وتسمح له ولابنائه بامتلاك الاراضي في المملكة البافارية . وعلينا هنا ان نتوقف لحظة في سردنا لحياة هيرش ، لنلقي نظرة سريعة على اوضاع اليهود في المانيا آنذاك. كانت المانيا قد طردت الجالية اليهودية من اراضيها في العصر الوسيط ، ثم عادت وسمحت لبعضهم بالاقامة فيها في العهود المتأخرة . الا ان السلطات قيدت حرية اليهود ولم تمنحهم حقوق المواطنة كاملة . فقد حرمت عليهم التجول في انحائها بدون اذن رسمي ، وحتمت عليهم الاقامة في أحياء معينة دعيت الغيتو ، ومنعتهم من امتلاك الاراضي الزراعية ، ومن الخدمة بالجيش ، ومن العمل في السلك الحكومي . وفي ولاية فرانكفورت ، لم يسمح القانون لليهود بعقد أكثر من اثني عشر زيجة في السنة ، وذلك بقصد الابقاء على عدد الجالية قليلا . وفي هذه الظروف الخانقة ، انصرف معظم اليهود الى الاشتغال بالمال ، لا سيما وان الكنيسة لم تحبذ اشتغال المسيحي بالربا . وفي مجال المال برز اليهود ، وحصلوا

على حماية السلطات المحلية التي كانوا يعيشون في ظلها. ثم جاءت الحروب النابليونية، فازدادت حاجة الحكام الالمان الى مواهب اليهود المالية ، والى ثرواتهم . وترقى موسى هيرش في سلم الثراء عن طريق تجهيز الجيش بالمؤن والمعدات وتقديم السلف الى الحكام . ولما مات موسى ، خلفه ابنه يعقوب كصراف للبلاط، ونال المزيد من الامتيازات . فقد منح حرية التجول في انحاء المملكة البافارية ، ثم حصل عام ١٨١٨ على لقب النبالة الوراثي ، فأصبح يلقب بالبارون ، وهذا اللقب توارثه عنه ابناؤه . وكان يعقوب قد نال رضى السلطات وثناءها عندما جهز سرية مؤلفة من ٧٥ مقاتلا على نفقته الخاصة . ولما توسع في الثراء ، فتح مصرفا في مدينة انسباخ ، وحصل على حقوق الاقطاع التي تتيح للنبلاء من مالكي الاراضي الزراعية ان يترأسوا المحكمة الجزائية في مقاطعتهم . ثم اخيرا استقر يعقوب في ميونخ ، عاصمة المملكة البافارية ، وهناك اسس مؤسسة مالية كبيرة ، وأضاف الى ممتلكاته مصنعا للبيرة واخر للسكر.

وعندما مات يعقوب هيرش في ١٩٤٠،كان قد ترك مركزين لعائلته: احدهما في مدينة فيرتزبرغ ، وقد ترأسه ابنه يوئيل الذي جعل من بيته مركزا ليهود المدينة وذلك لاحتوائه على معبد . وعرف عن يوئيل تزعمه لابناء جاليته ، وبذله المساعي لدى السلطات لنيل المزيد من الحريات المدنية لليهود . وكذلك عرف عنه اهتمامه بالزراعة مثل أبيه ، فان يعقوب كان قد أوقف جزءا من ثروته على المشاريع الخيرية لمنفعة اليهود ، وخصص قسما من هذا الوقف لهدف معين هو : تشجيع اليهود على العمل في الزراعة. أما الفرع الثاني من الاسرة ، فقد استقر في ميونخ حيث عمل الابن الثاني يوسف صرافا للبلاط لدى ملك بافاريا ، لودفيك الاول ، وبقي في منصبه الهام هذا تحت حكم كل من الملكين المتعاقبين على عرش بافاريا : ماكسيميليان الثاني ولودفيك الثاني . وقد حافظ يوسف على ود كل من بروسيا والنمسا عندما حول قصره الفخم الى مستشفى للجرحى من البلدين اثناء اندلاع الحرب بينهما عام ١٨٦٦ .

ولد موريس هيرش في ميونخ في ٩ كانون الاول ١٨٣١ ، وابوه هو يوسف ، حفيد المؤسس موسى . أما أمه ، فكانت ابنة أحد اصحاب البنوك اليهود في فرانكفورت ، وتنتمي بصلة القرابة الى بعض من أغنى العوائل اليهودية في الاراضي الناطقة باللغة الالمانية . فأحد اجدادها كان الصراف الخاص لامبراطور النمسا ، وايضا في الوقت نفسه حاخام المجر .

وكانت الام شديدة التعلق بابنها ، فأشرفت على تربيته وتعليمه بنفسها ، وحرصت على ان يتلقى الدروس الدينية ويتعلم العبرية . الا ان موريس بالرغم من تربيته الدينية ، لم ينشأ متدينا ، وعلى مدى حياته اقتصرت محافظته على التعاليم اليهودية ، على الامتناع عن ممارسة هوايته المفضلة : الصيد ، في يوم كيبور ، اقدس المناسبات الدينية اليهودية . كما انه لم يكن بالرجل الذي يمكن وصفه بالمثقف المفكر ، بل حرص على ان يعرف كرجل عمل وفعل ، اذ طالما ردد : أفضل الصبي الذي يعمل في مزرعة أبيه ، على ذاك الذي يقضي وقته في القراءة والكتابة . كما انه قال لهيرتزل في مقابلتهما الشهيرة : لا اريد أن ارفع المستوى العام لليهود ، فكل مشاكلنا تنبع من طموحنا الى المقامات العليا . فلدينا مفكرون أكثر مما يجب ، وهدفي هو ان اثبط ميل اليهود للاندفاع الى الامام . على اليهود الا يحرزوا تقدما كبيرا ، فكل الكراهية التي تنهال علينا متأتية من ذلك .

انصرف هيرش الى ممارسة مهنة اجداده منذ بداية شبابه . وفي ١٨٥٥ تزوج من كلارا بشوفسهايم المنتمية الى عائلة يهودية بلجيكية تأتي بعد آل روتشيلد في الثراء ،

فقد لعبت اسرة بشوفسهايم دورا هاما في انشاء شبكات السكك الحديدية في اوروبا، وقدمت أكبر سلفة الى الخديوي اسماعيل ، حاكم مصر الارعن. وكانت تمتلك المصارف في كل من الاستانة والقاهرة ولندن وسان فرانسيسكو . وقد قضى هيرش فترة تدريبه في المؤسسات المالية التي امتلكتها أسرة زوجته ، ووجد في كلارا خير عون على تحقيق طموحه المالي ، وذلك لتمتعها بحدة الذكاء وقوة الشخصية . ولما كانت قبل زواجها قد عملت سكرتيرة خاصة لابيها البنكير الكبير ، فقد ألمت بشؤون المال ، ولذا أصبحت سكرتيرة زوجها ومستشارته في اعماله .

عاش موريس هيرش في عصر تميز بأمرين ، هما : نشوء الرأسمالية على انقاض الاقطاعية الموروثة عن القرون الوسطى ، وانتقال اوروبا من عصر الحكم المطلق الى العهد اللبرالي . فان الثورات التي انتشرت كالحريق في دول اوروبا عام ١٨٤٨ ، وأسقطت بين من أسقطت ، البرنس ميترنيخ ، مستشار النمسا الشهير ، وشيخ الرجعيين في القارة ، هذه الثورات عممت التفكير اللبرالي بين الشعوب ، وبالتالي أعانت اليهود على نيل حقوقهم المدنية . ثم ان الثورة الصناعية التي كانت قد اخذت تغير وجه المجتمع الانكليزي في القرن الثامن عشر ، امتدت الان الى اوروبا الغربية . فتأسست المصانع ، وتكاثرت البنوك ، ومعظمها من النوع الذي تسيطر عليه عائلة واحدة هي عموما يهودية والمانية اللغة . وواكبت الثورة الصناعية التي انجبت الرأسمالية ، عصر استخدام البخار كطاقة محركة. فانتشرت شبكات السكك الحديدية في القارة ، وكان المقاولون الذين أشرفوا على انشاء وتشغيل هذه الخطوط هم عموما من أصحاب البنوك اليهود ، كآل بشوفسهايم في بلجيكا ، وآل روتشيلد في فرنسا ، وآل غنزبرغ في اوروبا الشرقية ، الخ...

وبدأ اول ظهور للبارون هيرش على مسرح المال عندما أصبح أحد الاشخاص القلائل الذين تمكنوا من خداع بسمارك ، مستشار بروسيا الحديدي . فقد ذهب ليقابل بسمارك ويبين له الفوائد الاستراتيجية والسياسية لبروسيا ، اذا ما هي حصلت على حقوق تشغيل خط لوكسمبرغ الذي كانت الحكومة الفرنسية قد تخلت عنه بسبب خسارته . فلما استمال بسمارك الى فكرته ونال موافقته ، توجه الى باريس ، غريمة برلين ، وعرض عليها تحمس بسمارك للسيطرة على خط لوكسمبرغ . وفورا دخلت الحكومة الفرنسية في اتفاقية مع هيرش حول الخط المذكور ، لتحول بين بسمارك وتحقيق مأربه . وكانت هذه الاتفاقية مربحة جدا لهيرش ، الا ان بسمارك لم يغفر له حيلته قط ، وان لم يتمكن ابدا من ان يجعله يدفع الثمن عليها .

وكان هيرش قد انتقل للسكنى في بروكسل حيث حصل على الجنسية البلجيكية (وهي الجنسية الثانية من أصل اربع جنسيات حصل عليها هيرش في حياته) والسبب الذي يذكره مؤرخ سيرته لهذا الانتقال من ميونخ ، هو رغبة حماة هيرش البلجيكية في ان تكون ابنتها قريبة منها . وفي بروكسل دخل هيرش في شراكة مع بلجيكي يدعى الكونت لانغران دومونسو . وكان هذا الممول غير اليهودي قد ولد في اسرة مغمورة ، الا انه تمكن من شق طريقه بنجاح كبير في عالم المال ، ولا سيما بعد ان اقنع البابا بيوس التاسع (الذي أنعم عليه بلقب الكونت) بأن يساعده في تأسيس سلسلة من الشركات والمؤسسات برأس مال كاثوليكي ، وذلك لانتزاع السيطرة الرأسمالية من أيدي اليهود ونقلها الى الكاثوليك . وفعلا تمكن دومونسو من تأسيس امبراطورية مالية كبرى ، ضمت حوالي ٣٢ مصرفا ومؤسسة للرهونات والتأمين والعقار . ولكن الغريب العجيب هو ان هذا الرأسمالي الكاثوليكي الكبير ، الذي أساسا بنى

امبراطوريته المالية بهدف منافسة اليهود وضرب نفوذهم المالي ، كان هو الذي دخل شريكا مع عدد من أشهر الرأسماليين اليهود في زمنه ، ومنهم آل هيرش وروتشيلد وبشوفسهايم ! ولكن تحالف الاثرياء هذا لم يدم طويلا . ففي عام ١٨٧٠ ووسط ظروف غامضة لم تفسر تماما حتى اليوم ، انهارت الامبراطورية المالية الكبرى التي أسسها دومونسو ، وهرب الى البرازيل ، تاركا المحكمة تحكم عليه غيابيا بالسجن لمدة خمسة عشر عاما . ثم مات في روما عام ١٩٠٥ ، أي بعد مرور ٣٥ عاما على تلك الفضيحة المالية التي لا يضاهيها في الشهرة الا انهيار أمبراطورية ملك الثقاب السويدي كرويغر واعلان افلاسه في قرننا الحالي .

ما هي الاسرار الكامنة في التحالف المالي بين الخصمين اللدودين : اليهودي والكاثوليكي ؟ وهل كان هيرش وصحبه وراء سقوط دومونسو ؟ في الواقع تشير الدلائل الى ان هيرش كان أكبر مستفيد من تصفية امبراطورية دومونسو المالية ، لا سيما وان الشخص الذي أشرف على عملية التصفية كان الدبلوماسي البريطاني اليهودي السير هنري دراموند وولف الذي ربطته علاقة وثيقة بهيرش . ثم ان هيرش « ورث » عن دومونسو المشروع الكبير الذي سيدخله التاريخ كأحد اكبر المقاولين في القرن التاسع عشر ، وهذا المشروع هو انشاء شبكة خطوط حديدية في الجزء الاوروبي من الدولة العثمانية . فهذا المشروع الضخم يشكل البداية الفعلية لاسطورة هيرش : هيرش التركي ، كما أسماه معاصروه بسبب توليه هذا المشروع الذي استغرق انشاؤه عشرين سنة ، فاحت اثناءها رائحة الفضائح والتصقت بأسماء بعض من أبرز رجالات اوروبا والدولة العثمانية .

ففي ٧ تشرين الاول عام ١٨٦٩ صدر الفرمان التاريخي في الاستانة بمنح البارون موريس ده هيرش امتياز انشاء وتشغيل شبكة من الخطوط الحديدية في البلقان ، وذلك بعد ان كان هيرش قد وزع الرشاوي الضخمة على كبار المسؤولين الاتراك لنيل الامتياز . وليس هنا المجال للاستفاضة في الحديث عن هذا المشروع الذي لم تلتصق الفضائح بمشروع آخر بقدر ما التصقت به . ولذا نكتفي بالقاء نظرة سريعة عليه من خلال كتابات المؤرخين ، وبينهم الاسرائيلي غرونفالد ، مؤلف سيرة هيرش . فحتى غرونفالد المتعاطف مع هيرش لا ينفي التجاء البارون الى الاساليب الملتوية في أعماله . ولكنه يخفف من أثر الاتهامات الموجهة الى هيرش ، ولا سيما من قبل المؤرخ هالفارتن الذي تحدث في كتابه عن «الامبريالية» الصادر في ١٩١٤ عن عناصر « المكر والخداع والاكراه والسرقة التي احاطت بالمشروع » . فغرونفالد ينفي عن هيرش صفة الخداع ، قائلا انه عندما حصل على الامتياز لم يتوقع حدوث (ما حدث فعلا) من دسائس ومؤامرات وانغماس في المسألة الشرقية . ولكن هل كان هيرش بهذه السذاجة حقا ؟ « فالمسألة الشرقية » هي العبارة التي اعتاد سياسيو اوروبا استعمالها آنذاك عند الاشارة الى رجل اوروبا المريض الذي ينتظر الجميع وفاته بفارغ الصبر ليتقاسموا تركته ، ولذا ليس من المعقول ابدا الزعم بأن هيرش باشر مشروعه بقلب طاهر وذهن بريء ، بل ان جوان هاسليب ، المؤلفة البريطانية المعاصرة ذكرت بوضوح ، في سياق سيرتها عن السلطان عبد الحميد ، ان « هيرش حصل على الامتياز عن طريق توزيع البقشيش في الاوساط المناسبة » وهذه الرشاوى لم تكن بالسر الخفي ، فقد اعترف الصدر الاعظم بأن الرشوة التي قبضها بلغت ٤٠٠ الف ليرة عثمانية ، وقس على ذلك . ثم ان المشروع تم تنفيذه بأسلوب يتنافى مع مصالح الدولة العثمانية . فبسبب علاقة هيرش الوثيقة بأمير ويلز ، ولي عهد بريطانيا (وهو الذي اعتلى العرش بعد اعتزال أمه الملكة فكتوريا) راعى البارون الاعتبارات السياسية والاستراتيجية البريطانية في طريقة

التنفيذ ، مما جلب عليه عداء المانيا التي كانت بعد توحدها تحت تاج ملك بروسيا ، قد بدأت تبرز كمنافسة خطيرة للامبريالية البريطانية . فنشرت صحيفة المانية بايعاز من بسمارك مقالا تحدثت فيه باستهجان عن « أفراد مختارين من بين الشعب المختار ، أخذوا يستغلون تركيا ، زاعمين انهم تحت الحماية الالمانية » . وحتى فرنسا أبدت امتعاضها بسبب طغيان العنصر الالماني بين العاملين على تنفيذ المشروع ، مما جعلها تعتبره مشروعا يخدم المصالح الالمانية . اما في الواقع ، فالعنصر الطاغي كان يهوديا ، والانتماء الى المانيا لم يكن الا على صعيد اللغة فقط . والمجال لا يتسع هنا لايراد جميع الاتهامات التي وجهت الى هيرش ، ولذا يكفي المرور سريعا عليها :

لقد تساءل الناس : لماذا جعل هيرش الخط الحديدي مليئا بالانحناءات والانعطافات التي لا تخدم غرضا سوى انها تزيد من ارباحه ، باعتبار ان الاتفاقية التي وقعها مع السلطات العثمانية تحتسب الاجرة حسب المسافة ، وكل ميل اضافي يعني المزيد من المال الذي سيدخل جيب البارون . فالاستانة لا تبعد عن ادرنه الا مسافة ١٤٨ ميلا بالطريق العادي ، بينما بلغ طول الخط الحديدي بين المدينتين ١٩٨ ميلا ، منها ٢٤ ميلا تقع داخل الاراضي البلغارية .

ثم اتهام آخر: لماذا اقيمت المحطات في الاماكن غير المأهولة ؟ فهناك مدن بلا محطات، ومحطات بلا مدن .

الجواب : تفادي تكاليف الانشاء المرتفعة في الاماكن المأهولة .

واتهام ثالث : ان هيرش لم يدفع تعويضا كافيا للاهالي الذين أجلوا عن بيوتهم وأراضيهم بسبب اختراق الخط لممتلكاتهم . فقد كتب أحد المنتقدين يقول : « ان المحسن المعروف (أي هيرش) يرفض التعويض عن البيوت التي هدمت وذلك لان المتضررين ليسوا من اخوته في الدين » . وفي معرض الدفاع عن نفسه ، أعلن هيرش انه دفع التعويض المطلوب ولكنه يأسف لأن هذه الاموال لم تذهب الى مستحقيها من الفقراء الذين فقدوا بيوتهم وحقولهم ، وانما دخلت جيوب الباشوات المرتشين .

وقد انبرى للدفاع عن هيرش رجل له مكانته ، وكان هذا الرجل هو سفير الولايات المتحدة في الاستانة : اوسكار ستراوس . فقد كتب في مذكراته ان هيرش حوّل طلب التعويض الى الحكومة العثمانية ، ولكن لما توجه عدد من المتضررين الى زوجة هيرش وعرضوا عليها سوء حالتهم ، فانها أشفقت عليهم وأصرت على أن تدفع لهم التعويض من جيبها الخاص . بقي أن نذكر أن أوسكار ستراوس كان يهوديا ومرتبطا بالحركة الصهيونية . المهم هنا هو ان غرونفالد نفسه لا ينكر توزيع هيرش الرشاوي يمينا ويسارا فحتى الكونت بويست ، مستشار النمسا ووزير خارجيتها ، قبض ٨٠٠ الف فرنك مقابل السماح لهيرش باصدار السندات وبيعها في الاراضي النمساوية . وكذلك دفع هيرش المقسوم لكل من المسؤولين الاتراك الكبيرين : داود باشا ونديم باشا ، فأصيبا بالثراء المفاجيء من جراء ذلك ، ولم يفلتا من يد القضاء الا عندما غادرا اراضي الدولة العثمانية نهائيا ليتمتعا بالعيش الرغيد في المنفى .

وكانت هذه الفضائح هي بين الاسباب التي دفعت بالمصلح العثماني الشهير ، مدحت باشا ، الى الاستقالة من منصب الصدر الاعظم . وقد كتب نجله أحمد مدحت بك في السيرة التي الفها عن أبيه بأن هيرش تقصد أن يجعل خطه الحديدي يمر وسط الغابات الغنية بالاشجار ذات الخشب الثمين ، وذلك لينهب الخشب وينقله الى الخارج . ويذكر غرونفالد نفسه بأن الرشاوي التي اتهم هيرش بدفعها بلغت في مجموعها حوالي

مئة مليون فرنك ، وهو مبلغ هائل بمقاييس ذلك الزمن . فاذا علمنا انه بالرغم من هذه الرشاوي الضخمة خرج هيرش من هذا المشروع وهو أغنى رجال العالم ، أدركنا كم كانت أرباحه عظيمة . ولم يكن السلطان عبدالحميد غافلا عن تصرفاته ، بل انه فكر في اعتقاله ، الا أن الدولة العثمانية الضعيفة بقيت عاجزة عن اتخاذ أي اجراء لايقاف حركة النهب المنظم الذي فرضه هذا المقاول المحتال عليها . بل ان هيرش بعد هذه الفضائح كلها ، ابتاع لنفسه وساما عثمانيا رفيعا كمكافأة على خدماته !

ويستشهد غرونفالد بقول أحد المسؤولين عن المشروع عندما وقف امام القضاء في فيينا مدافعا عن نفسه ، قائلا : « ان السكك الحديدية لا تشيد بواسطة المواعظ الاخلاقية » . ثم يضيف مبينا ان المحكمة برأته . ويستنتج غرونفالد من ذلك أن التورط في أعمال مشبوهة هو أمر لا مفر منه في مشروع ضخم مثل خط البلقان . ولكن اذا كان غرونفالد متحفظا في تبرئة البارون ، فقد أبدى كاتب يهودي آخر اعجابه بالبارون لانه تغلب على الصعاب والعقبات في « بلاد شبه همجية مثل تركيا » ولانه قام بدور « ممدن » فيها !

تم انجاز المشروع بعد مرور عشرين سنة على البدء فيه . وتولى السفير الاميركي ستراوس دور الوساطة النهائية بين السلطات العثمانية والبارون لتسوية الخلاف بينهما . وكانت الحكومة التركية تطالب هيرش بدفع ١٣٢ مليون فرنك اليها ، ولكنها أسقطت مطالبتها عندما حصلت على ٢٢ مليون فرنك ، وبذا طوي الخلاف ، وغسل هيرش يديه من الارتباط بتركيا . لقد خرج من المشروع السيىء الصيت ملطخا بعار الفضائح ، ولكنه كان أيضا أغنى من أي وقت مضى ، وأعظم نفوذا . وقد حدث في هذه الفترة أن وقعت معركة أخرى بين الكتلتين الرأسماليتين : اليهودية والكاثوليكية . فقد برز مقاول فرنسي يدعى يوجين بونتو ، كان خبيرا في السكك الحديدية وسبق له أن عمل تحت امرة آل روتشيلد ، ثم انفصل عنهم وألف شركة تسيطر عليها مجموعة كاثوليكية ، هدفها المعلن هو تخليص الاقتصاد الفرنسي من سيطرة اليهود والماسونيين الاحرار ، فتحالف أثرياء اليهود ، وعلى رأسهم آل روتشيلد وهيرش ضد بونتو ، وأشاعوا بأن بونتو يتعاون مع اليهود في الخفاء . وبعد مضاربات حاسمة هزت البورصة ، انهارت مشاريع بونتو وانتهى ماليا . وهكذا مرة أخرى انتصر الرأسمال اليهودي في معركة فاصلة ضد الكاثوليك . وكانت هذه معركة ثانوية بالنسبة لهيرش ، فهو اثر انتهائه من الخط البلقاني ، دخل الآن مرحلة جديدة من حياته . فبعد أن نال الشهرة العريضة كمقاول عالمي ، أصبح الآن المحسن الكبير الذي يتبرع بالملايين . فكتبت صحيفة المانية معادية له ، تفسر انصرافه الى الاعمال الخيرية بأنه الى حد ما نابع من تأنيب الضمير المتأتي من فضائح الخط البلقاني . ولكن هذه الصحيفة كانت ساذجة جدا ، باعتبار ان المستفيدين الوحيدين من تبرعات البارون كانوا اليهود وليس غيرهم . على ان هيرش استمر يلعب دور الرجل الانساني الكبير ، حتى انه عندما مات ابنه لوسين عن ٣١ سنة ، قال : لقد فقدت ابنـي ولكن ليس وريثي ، فوريثي هو الانسانية !

وقد شاركت زوجته في أعماله الخيرية بين اليهود ، لا سيما وانها من عائلة عرفت بحدبها على أبناء جلدتها . وقد كرس هيرش كل جهوده بعد انتهائه من المشروع التركي ، لتهجير اليهود من أوروبا الشرقية وتوطينهم في العالم الجديد ، أي في الارجنتين والبرازيل وكندا والولايات المتحدة . وكان قد طلب من السلطات الروسية أن تسمح له بالانفاق على اليهود في بلادها وذلك لرفع مستواهم الاجتماعي ، ولكن هذه

السلطات أصرت على أن تتولى هي بنفسها الاشراف على عملية الانفاق. فرفض هيرش هذا الشرط ، ولم يبق أمامه الا أن يسحب اليهود من روسيا ليعيد توطينهم في الخارج . ولما كان مقتنعا بامكان اليهود أن يصبحوا مزارعين ممتازين أن أتيحت لهم الفرصة ، فقد ابتاع ٧٥٠ الف هكتار في الارجنتين ، وأقام عشرين مستعمرة استوطنت فيها ٣٥٠٠ أسرة . الا أن معظم هؤلاء انتقلوا فيما بعد للسكنى في المدن .

وكان منهاج هيرش يتضمن تهجير ٣ ١/٢ ملايين يهودي من أوروبا الشرقية على مدى ربع قرن ، الا أن العمر لم يمتد به ليشهد تحقيق هذا الحلم . فقد مات في مزرعته بالمجر في ٢٠ نيسان ١٨٩٦ ، بالغا من العمر ٦٥ سنة. ونقلت رفاته الى باريس لتدفن هناك. أما زوجته فقد ماتت بعده بثلاثة أعوام*. ولم يترك البارون وريثا شرعيا . فان ابنه الوحيد لوسين كان قد مات أثناء حياته ، بعد أن خلف ابنة غير شرعية تزوجت بعد ذلك من أحد أصحاب البنوك اليهود . وللبارون ايضا ابنان غير شرعيين استطاع أن يحصل لهما على لقب النبالة ، وان لم يمنحهما اسمه . وقد مات أحد الابنين (وأمهما ليست معروفة) في ١٩١٢ ، اما الآخر المولود في ١٨٧٩ ، ويدعى الكونت بينديرن ، فقد أصبح نائبا في مجلس العموم البريطاني ، ثم نزح للاقامة في امارة ليختنشتاين ، المشهورة بأمرين : صغر حجمها (فهي من أصغر دول العالم) وقلة ضرائبها .

مات البارون الشهير ، وحمل معه الى القبر أسرارا كثيرة لم تشاركه فيها الا زوجته . ولما كانت المؤسسات المالية الضخمة التي أنشأها في حياته ، أو ورثها عن أبيه ، تابعة له شخصيا ولا يشاركه فيها أحد باستثناء زوجته ، فان الوثائق والاوراق المتعلقة بمعاملاته ونشاطاته بقيت بمنأى عن الفحص . فلم تطلها عين غريبة أبدا ، ومع وفاة أرملته كلارا ، اختفى الارشيف بكامله ، واثبط الاوصياء على تركة هيرش أي محاولة لتأليف الكتب عن البارون . أي أنهم أرادوا أن تنتهي شهرة البارون مع حياته ، ولذا تضاءل ذكره على مدى السنين الى أن كاد يصبح نسيا منسيا هذه الايام . ولا ريب أن هذا هو ما أراده البـــارون شخصيا ، اذ أدرك ان أي استفاضة في دراسة حياته وانجازاته ، ووضعها تحت المجهر الفاحص الدقيق ستكشف من الفضائح ما سيظل عالقا باسمه وأسماء الكثيرين من معاصريه ، ومعظمهم من مشاهير الناس ، الى الابد. وهذه الفضائح ستكون مسندة بالادلة الثابتة ، وليس مجرد شبهات وشكوك . وبعد هذه النبذة عن حياة البارون ، علينا الآن أن نفحص سجله الصهيوني . اننا نعلم ان هيرش قابل تيودور هيرتزل قبل سنة واحدة من وفاته (أي وفاة البارون) . وهذه المقابلة الشهيرة جرت في قصر البارون بباريس ، في حزيران ١٨٩٥ ، وفيما يلي ملخص لوقائعها كما سجلها هيرتزل في مذكراته :

انه (أي هيرتزل) في غاية القلق . فهل سيستجيب البارون الشهـــير الى دعوته بانشاء الدولة اليهودية يا ترى ؟

انه يحمل معه خطة كاملة للمشروع في ٢٢ صفحة . فما الامـــل في تبني البارون للفكرة ؟ وكان هيرتزل قد ابتاع قفازا جديدا للمناسبة التاريخية ، الا أنه جعده عمدا لئلا يبدو جديدا** ومع انه كان من اسرة غنية، الا ان فخامة الرياش في قصر البارون

---

* أنفقت زوجته ١٥ مليون دولار على المشاريع الخيرية اليهودية ، بعد وفاة البارون ، كما أوصت بانفاق عشرة ملايين دولار أخرى من تركتها بعد وفاتها .

** كان لهرتزل ولع بشراء القفازات الجديدة للمناسبات التاريخية، وذكر ذلك في مذكراته . انه ايضا ابتاع قفازا جديدا لمقابلته مع القيصر الالماني فيلهلم .

أخذت بلبه وزادت من قلقه وتخوفه . فقد وجد نفسه يحدق في لوحات فنية وتحف لا يوجد مثيل لها الا في أشهر متاحف العالم . وكان هيرتزل هو الذي طلب المقابلة ، فقد كتب الى البارون يطلب منه موعدا ليحدثه « حديثا سياسيا يهوديا » . فلما رد عليه البارون طالبا منه أن يحرر ما يريد عرضه عليه ويرسله اليه ، ثارت ثائرة هيرتزل الحساس ، وأجابه برسالة قال فيها انه واثق بأن البارون لن يقرأ المادة ان هو بعث بها اليه في شكل رسالة ولذا يريد أن يحدثه بالامر شفهيا ، ثم اضاف قائلا ان البارون قد اشتهر حتى الآن بأعماله الخيرية ، الا انه هو (أي هيرتزل) سيريه كيف بامكانه أن يصبح أكثر من مجرد محسن . فوافق البارون على مقابلته وعين موعدا يصادف عيدا يهوديا . وعند ذلك انكب هيرتزل على تسجيل مقترحاته التي سيعرضها على البارون ، وقسمها الى ثلاثة أبواب تحت العناوين التالية : المقدمة — رفع مستوى الجنس اليهودي — الهجرة . وعندما حل اليوم الموعود حمل أوراقه واستقل عربة اجرة الى قصر البارون ، وهو يرتعش من القلق ، وها هو الآن ينتظر في قاعة البلياردو حضور البارون . وجاء البارون اخيرا وحيا هيرتزل بمودة وقاده الى مكتبه . وهنا بادره هيرتزل قائلا باستعجال لاهث : « هل يمكنك أن تعطيني ساعة ؟ اذا لا ، فأفضل الا أبدأ » . فابتسم هيرش بهدوء وقال : « تفضل » . فبدأ هيرتزل يعرض مشروعه ، ولكن بعد خمس دقائق رن جرس التليفون . فتأكد هيرتزل بأن هذه هي حيلة من البارون لانهاء المقابلة ، بحجة ارتباطه بعمل مستعجل طارىء . ولكن هيرش رفع السماعة وقال : لا أريد أن يزعجني أحد .

هذه المفاجأة السارة حفزت هيرتزل بمصل الشجاعة، فاندفع يقول بحماس : « خلال الفي عام من تشتتنا كنا بدون قيادة سياسية موحدة . وهذه كانت مصيبتنا الاساسية التي أضرت بنا أكثر مما أضر بنا الاضطهاد ، وجعلت التعفن ينال منا من الداخل . ولو كانت لدينا قيادة سياسية موحدة ، لتمكنا من التقدم نحو حل للمشكلة اليهودية » . ثم وصل الى موضوع الهجرة ، فقال : « سيمر وقت طويل قبل ان نبلغ أرض الميعاد . موسى احتاج الى أربعين سنة . ونحن سنحتاج الى ربما عشرين او ثلاثين سنة » .

ثم انتقد البارون عندما قال : « ان مبدأ الاحسان هو خاطىء تماما برأيي ، فانك تربي الناس على الاستجداء ، والاحسان يفسد طباع قومنا » .

ولدهشة هيرتزل ، هز هيرش رأسه موافقا وهو يقاطعه بهدوء : « انت على حق في ذلك » .

وتشجع هيرتزل أكثر وأكثر ، وأخذ ينتقد تجربة البارون في توطين اليهود بالارجنتين قائلا ان اليهود ما زالوا غير مستعدين لان يصبحوا مستعمرين ، « فأولا يجب تقويتهم ، كما لو كان للحرب ، ويجب تعليمهم بهجة العمل وممارسة الفضيلة » .

وهنا فاجأ البارون زائره عندما تفوه بالعبارة التي سبق أن استشهدنا بها في صفحة سابقة : « لا أريد أن أرفع المستوى العام لليهود ، فكل مشاكلنا تنبع من طموحنا الى المقامات العليا . فلدينا مفكرون أكثر مما يجب ، وهدفي هو أن أثبط ميل اليهود للاندفاع الى الامام . على اليهود ألا يحرزوا تقدما كبيرا ، فكل الكراهية التي تنهال علينا متأتية من ذلك » .

ثم انتقد ضيفه بسبب أفكاره التي اتخذت شكل الرؤيا . فهب هيرتزل من مكانه صائحا : « انك لا تعرف ما معنى أن يكون المرء صاحب رؤيا، اذ فقط من الاعالي بامكان المرء أن يفهم غرائز الانسان الحيوية » .

وهنا أخذ هيرش يرفع صوته ، بينما بلغ صوت هيرتزل حد الصياح وهو يقول : « اني سأذهب الى القيصر الالماني . انه هو سيفهم ، اذ أن تربيته غرست فيه المقدرة على التفكير بالاشياء الكبيرة » .

ورمشت عين البارون عند سماعه ذلك ، بينما واصل هيرتزل صياحه قائلا انه سيشتري من القيصر حق اليهود بمغادرة أوربا . فسأله هيرش : « من أين ستحصل على المال ؟ »

فأجابه هيرتزل بدون تردد أنه سيجمع قرضا يهوديا قوميا بمبلغ عشرة ملايين مارك الماني . عند ذلك قال هيرش : « اليهود الاغنياء لن يدفعوا شيئا ، فالاغنياء تافهون ولا يهتمون بمعاناة الفقراء » . فأجابه هيرتزل بحنق : « انك تتحدث مثل الاشتراكيين » .

فأجابه البارون بنفس النبرة « بل أنا اشتراكي . وأنا على أتم استعداد لاعطاء كل شيء شريطة أن يفعل الآخرون مثل ذلك » .

وانتهت الزيارة عند هذا الحد ، مع ان هيرتزل لم يغط أكثر من ست صفحات من مجموع التقرير الذي كان قد أعده لهذه المناسبة والذي بلغ طوله ٢٢ صفحة .

وفي اليوم التالي أرسل رسالة طويلة الى البارون يبلغه فيها بأنه اذا هو (أي البارون) سيخيب أمله فيه مثل بقية الاغنياء اليهود ، فانه هو ، هيرتزل ، سيتوجه الى الجماهير اليهودية مباشرة . ثم قال ان الفرق بينهما هو : « انك يهودي المال ، وأنا يهودي الروح » . وأضاف ان المشكلة في أيام موسى كانت الغذاء والماء ، أما في هذه الايام فالمشكلة هي المال والمال والمال . فالمال ضروري لنقل المهاجرين وتوطينهم . ولم ينس هيرتزل في رسالته أن يأتي على ذكر علم الدولة العتيدة ، وكان ذلك من المواضيع العزيزة على قلبه، فقد كتب: « الناس يعيشون ويموتون في سبيل العلم، لانه حقا الشيء الوحيد الذي يبدون استعدادهم للموت بالجملة في سبيله، شريطة أن يتولى أحد تربيتهم على ذلك » .

ثم أكد لهيرش أن الشعب اليهودي في هذه اللحظة من تاريخه يحتاج الى رؤيا متجددة أكثر من أي شيء آخر : « تأمل اذا شئت ، في كل ما احتمله اليهود خلال الفي عام ، من أجل الرؤيا . فالرؤيا وحدها تشد نفوس البشر ، والذي لا يعرف كيف يتعامل مع الرؤيا ، قد يكون شخصا ممتازا وجديرا وعمليا ، بل وحتى محسنا على نطاق واسع ، لكنه لن يصبح زعيما للرجال ، ولن يخلف وراءه أثرا » .

وواصل محاضرته ليذكر لاول مرة فكرته الداعية الى الخروج الجماعي Exodus الى أرض الميعاد . ان مشكلة النقل ستكون بلا مثيل في العالم الحديث (كتب هيرتزل) والحاجة تدعو الى انشاء هيئة أركان من بين المثقفين في صفوف الكادحين اليهود ، وهؤلاء سيكونون كوادر الجيش . انهم سيسعون الى الارض لاكتشافها ومن ثم الاستيلاء عليها . وعرض على هيرش أن يصبح قائدا عاما لهذا الجيش ، اذا ما هو أبدى استعداده لدفع خمسين مليون مارك حالما يتم جمع مئة مليون مارك من مصادر أخرى . وذكر ان المبلغ الاجمالي المطلوب سيصل الى عشرة مليارات ، بينما المطلوب للبداية هو مليار مارك فقط . « بهذا المبلغ سنبني البيوت والقصور ومساكن العمال والمدارس والمسارح والمتاحف وبنايات الحكومة والسجون والمستشفيات والملاجىء ، وباختصار : المدن . وسنجعل الارض خصبة الى حد انها ستستأهل لقب أرض الميعاد » . وأخيرا كتب : « المال اليهودي متوفر لتسليف الصينيين ، ولبناء الخطوط الحديدية للزنوج في افريقيا ، ولابعد المشاريع مكانا . أفلا يوجد المال لاعمق حاجة لليهود أنفسهم ، ولأكثرها اضطرارية ومرارة ؟ »

ولم يرد هيرش على هذا الكتاب ، فأتبعه هيرتزل بآخر قال فيـــه : « اننا سننحط درجات أخرى نحو الحضيض ، ستزداد الشتائم علينـــا ، وكذلك البصاق والسخرية والضرب والسرقة والقتل ، الى أن ننضج للفكرة » .

هذه المرة أجابه هيرش على رسالته ودعـــاه الى زيارته ، ولكنه مات قبل أن تتم المقابلة . فرثاه هيرتزل في مذكراته : « كان هو الوحيد بين اليهود الاغنياء، في استعداده لعمل الكثير للفقراء . ربما لم أعرف كيف أتصرف معه . ان منشوري (الدولة اليهودية) قد صدر منذ أشهر ، وقد وزعت النسخ على الجميع ، الا هو لم أرسل له نسخة . ان تعاونه كان من شأنه أن يساعد دعوتنا على احراز النجاح السريع ، ولذا اشعر بأن دعوتنا قد أصبحت الآن أضعف مما كانت في السابق . كنت دائما أعتقد بأني قادر على كسب هيرش لخطتنا » .

ومما يدلنا على مكانة هيرش بين اليهـــود البارزين هو أن هيرتـــزل لم يتصل بآل روتشيلد ويطلب معونتهم الا بعد موت هيرش . كما يبدو واضحا من مذكرات هيرتزل انه كان يأمل في الحصول على الكثير من هيرش . وهذا يطرح السؤال الرئيسي حول موقف هيرش من الحركة الصهيونية ، ذلك الموقف الذي تتضارب الآراء حوله . فهناك من يدعي بأن البارون كان مدفوعا بدافع انساني صرف عندما عمل على توطين اليهود في الارجنتين ، وان تهجير اليهود من أوربا الشرقية وأعادة توطينهم في العالم الجديد كان بلا أي هدف سياسي . وفي تدليلهم على ذلك ، يشير أصحاب هـــذا الرأي الى رفض هيرش مساعدة اليهود على الاستيطان بفلسطين ، وذلك عكس ادمون ده روتشيلد الذي يرجع اهتمامه بفلسطين كمأوى للمهاجرين اليهود الى عـــام ١٨٨٢ . ويضيف هؤلاء أن هيرتزل نفسه لم يكن اختياره النهائي قد وقع على فلسطين بعد عندما قابل هيرش . فقبل اسبوع من المقابلة الشهيرة ، كان هيرتزل يسجل في مذكراته الحجج المؤيدة والمضادة لاختيار فلسطين . والحجة المؤيـــدة الوحيدة التي وجدهـــا كانت الاسطورة القوية . أي التعلق اليهودي التاريخي بفلسطين كأرض الميعاد لهم . أما الحجج المضادة فكانت : ١) قرب روسيا وأوربا . ٢) عدم وجود فرصة للتوسع . ٣) الطقس الذي لم يعتد اليهود عليه .

ان غرونفالد ، مؤلف سيرة هيرش ، هو أحد معتنقي الرأي القائل بأن هيرتزل لم يكن قد استقر نهائيا على اختيار فلسطين عندما قابل البارون ، ولذا لا يمكن القول بأنه عرض فكرة الاستيطان بفلسطين على هيرش ، وان الاخـــير رفضها . وللتدليل على ذلك ، يستشهد غرونفالد بما ذكره هيرتزل في كتابه « الدولة اليهودية » الذي صدر بعد المقابلة بستة أشهر عندما كتب : « سنأخذ ما يعطى لنا ، وما يختاره الرأي العام اليهودي » .

أما الكاتب الصهيوني أ. غولدبرغ فقد بين في كتابه « رواد وبناؤون » بأن الفرق بين هيرتزل وهيرش هو الفرق بين رجل الرؤيا والفيلسوف والحالم (أي هيرتزل) وبين الرجل الواقعي العملي الذي لا يفكر بالخطط البعيدة المدى ، وانما بالاصلاح الفوري والعلاج السريع للمشكلة اليهودية . فالمعروف عن هيرش انه كتب مقالا نشرته احدى المجلات ، عين فيه البلدان الواقعة تحت الدرس كأماكن استيطان ، وهي الارجنتين واستراليا وكندا ، بينما لم يأت على ذكر فلسطين مطلقا . ويميل غرونفالد الى الظن بأن هيرش كان واقعا تحت تأثير صديقه المقرب كارل نيتر (١٨٢٦ ــ ١٨٨٢ أحد أثرياء اليهود ، وقد ساهم مع هيرش في تأسيس جمعية الاليانس ، وكذلك أسس المدرسة الزراعية ميكفه اسرائيل بالقرب من يافا) فان نيتر كان قد نشر مقالا عارض فيه اختيار

فلسطين ، مشيرا الى الصعوبات التي ظل المهاجرون الالمان والاميركان يعانون منها*. ولما أثار هذا المقال ثائرة المستوطنين اليهود في فلسطين ، الذين كانوا أساسا يعارضون مشروع الارجنتين بشدة ، ذهب نيتر الى فلسطين ليصالحهم ، ثم مات بعد ذلك بفترة قصيرة . ومن الجدير بالذكر ان شمارياهو ليفين الذي قاد الطلاب اليهود في مظاهرات ضد مشروع الارجنتين ، اعترف هو نفسه في كتاب له صدر عام ١٩٢٧ بعنوان « شباب في ثورة » بصعوبة الظروف التي كان المستوطنون اليهود الاوائل يعانون منها في فلسطين ، قائلا ان هذه الظروف لم تسمح بدعوة اليهود الذين طردوا من موسكو عام ١٨٩١ الى الاستقرار في فلسطين .

ويذكر غرونفالد ان هيرش كان على علاقة وطيدة بجمعية هوفيفي صهيون ، وهي الجمعية الصهيونية التي سبقت حركة هيرتزل ، وان البارون اعترف بالصلة التاريخية التي تربط اليهود الى فلسطين . ولكنه يفسر فتوره تجاه المشروع الفلسطيني بنفوره من وقوع الدولة اليهودية العتيدة تحت السلطة العثمانية ، تلك السلطة التي كانت له معها تجربة غير سارة . ثم يبين غرونفالد ان موقف اللورد ناتانيل روتشيلد (البريطاني) كان مماثلا لموقف هيرش وذلك لنفس السبب ، ولكنه تحول بعد ذلك ليصبح أحد اتباع هيرتزل المتحمسين . أما ابن عمه الفرنسي البارون ادمون فقد قاد حركة تسلل هادئة في فلسطين تحت ستار الهجرة الطبيعية التي لا تحمل في طياتها هدفا سياسيا ، وهذه الحركة جعلت يهود فلسطين يلقبوه : ابو اليشوف . ولكن غرونفالد يعود فيقول ان ادمون استمر يعارض الصهيونية السياسية حتى انه أرسل مبعوثا شخصيا يدعى سيلفين ليفي الى مجلس الحلفاء الاعلى المنعقد في فرساي عام ١٩١٩ ، ليعارض فكرة الدولة اليهودية**. (قصة غير معقولة) . ولم يكن خوف هيرش من توطين اليهود في فلسطين ناجما عن نفوره من العثمانيين ، فحسب ، بل كانت خشيته الرئيسية هي من قرب روسيا . فهيرش ، مثله في ذلك مثل بقية اليهود آنذاك (واليوم) كان يعتبر روسيا عدوة اليهود اللدود ، ويتوقع أن ترث يوما ما أملاك الدولة التي لقبها أحد القياصرة : رجل أوربا المريض . فروسيا القيصرية ذات مطامع واضحة في سوريا ، لا سيما انها نصبت نفسها حامية للمسيحيين الاورثوذكس ، وتغلغلت في فلسطين بواسطة الارساليات . وبينما استمرت رقعة الدولة العثمانية في التقلص والتضاؤل على مدى القرن التاسع عشر ، كانت الامبراطورية الروسية تتوسع على نطاق هائل . ففي الغرب ابتلع الروس بولنده وفنلنده واقتطعوا جزءا من رومانيا . وفي الجنوب اكتسحوا أقاليم القفقاص وضموا جورجيا وارمينيا وداغستان وغيرها ، وكان توسعهم هذا على حساب الامبراطوريتين الآفلتين : العثمانية والفارسية . وفي الشرق القريب ضموا الاقاليم الواقعة شرقي بحر قزوين ، أي تركستان وأوزبكستان وبلاد القرغيز الخ . . . وفي الشرق الاقصى توسعوا على حساب الصين ، فضموا بلاد المغول واقليمي أمور وأوسوري الى أن تاخمت حدود امبراطوريتهم المترامية الاطراف جزر اليابان وكوريا . وهكذا أصبحت الامبراطورية الروسية تأتي بعد الامبراطورية البريطانية مباشرة في حجم الممتلكات .

الا أن سادة بطرسبرغ لم يكتفوا بذلك ، بل كانوا يطمعون بالتوسع في اتجاه البحر

---

* هؤلاء المهاجرون كانوا من المسيحيين الاتقياء الذين اختاروا العيش في فلسطين لانها وطن المسيح ، ولم يكن لهم أي هدف سياسي . وقد طردهم اليهود من البلاد حال تأسيس اسرائيل .

** CF. S. S. Sabatay, An Early Zionist Affair, *Jerusalem Post*, January 1, 1965.

الابيض المتوسط ، حيث توجد المرافىء ذات المياه الدافئة . ولما كانوا يعتبرون انفسهم ورثة الاباطرة البيزنطيين ، فالدولة العثمانية التي قامت على انقاض الامبراطورية البيزنطية بقيت عدوتهم التاريخية على مدى القرون ، وظل القياصرة يحلمون باسترجاع القسطنطينية .

هذا كله كان جليا كل الجلاء بالنسبة لرجل مفرط الذكاء وواسع المعلومات مثل هيرش . وهو بقدر تعلقه بأبناء جلدته ، كان يكره الروس من أعماق قلبه ، ولعل النادرة التالية تبين ذلك بوضوح : اجتمع البارون مرة مع يهودي روسي ثري ، وأخذ هذا اليهودي يتباهى بانجازاته ، قائلا انه يشغل عددا كبيرا من العمال (الروس) في مصنعه ، وأنه قد بنى مستشفى لليهود .. وعند ذلك قاطعه هيرش بسخرية مريرة : يا ليتك شغلت اليهود في مصنعك ، وبنيت مستشفاك للروس . فهل اذن كان خوف هيرش من روسيا هو الذي جعله يتردد في توطين اليهود بفلسطين ؟ انه اولا كان على علاقة سيئة مع السلطات العثمانية ، وذلك بسبب مشروع الخط الحديدي السيىء الصيت ، مما كان سيشكل حائلا بينه وبين الاشراف المباشر على مستوطناته ، فيما لو هو اختار فلسطين موقعا لها . ونحن نعلم من دراستنا لشخصية البارون كم هو مولع بدوره كملك غير متوج لليهود المقيمين في مستعمراته بالارجنتين ، فهل كان بمقدوره ان يلعب نفس الدور فيما لو هو وجه سيل الهجرة نحو فلسطين ؟ وحتى لو افترض هو ، بينه وبين نفسه ، بأن الحكم العثماني سائر في طريقه الى الزوال ، فهل هناك ضمان بأن روسيا لن تمد ظلها ليقع على فلسطين ؟

لقد اتفق الملايين على تهجير اليهود من البلاد التي اضطهدتهم ، فهل يجازف في توطين هؤلاء اللاجئين في منطقة تقع ضمن المطامع الروسية الواضحة ؟

ويقول ك. ن. بودينهامر في كتابه « مقدمة الى اسرائيل » ان هيرش كان يفكر في تحويل مستوطناته في الارجنتين الى دولة ، الا ان صهره البارون بشوفسهايم حثه على صرف النظر عن ذلك ، لئلا يكون له تأثير سلبي على حركة اليهود الرامية الى الحصول على حقوقهم المدنية في الدول الاوربية التي يعيشون فيها . فما هو مدى صحة هذا الادعاء ؟ ان غرونفالد يظن (أو على الاقل يقول انه يظن) بأن المبدأ الاساسي في تفكير هيرش هو مساعدة اليهود المضطهدين على الهجرة جماعيا ، وتحرير انفسهم بأنفسهم . وهذا التحرير الذاتي لا يتم الا بالعودة الى الارض ، الى التربة . (أي ان هيرش سبق الف داليد غوردن ، شاعر العمل بالنسبة للصهيونيين ، عندما بشر بالعودة الى الطبيعة الام) . وبرأي غرونفالد ، تدل هذه الدعوة على وجود بذرة صهيونية أصيلة في تفكير هيرش . الا أنه في موقع آخر من كتابه يصف بطل سيرته بأنه مواطن عالمي لا يأبه للحركات القومية ، ولا يؤمن بوجود وطن قومي ينتمي اليه . ويستشهد بعبارته اللاتينية المأثورة التي كان يرددها عندما يسأله أحدهم عن جنسيته الاصلية (اذ كان يحمل أربع جنسيات) وهي تعني : حيث أكون مرتاحا ، هناك موطني ..

أما الصحفي البريطاني اليهودي لوسين وولف ، فقد كتب يصفه اثر مقابلة صحفية معه ، فقال انه يمتلك قلبا يهوديا حقيقيا ، وهو فخور بقوميته اليهودية ، و« شوفينيته اليهودية واضحة » . كما ان هيرش أبدى اعتزازه وفخره بمساهمة اليهود الكبيرة في الحضارة ، ولا سيما في ميادين الطب والعلوم والموسيقى والادب ، وذلك في مقال نشرته له احدى المجلات . وقد شدد في هذا المقال على احتمال زيادة هذه المساهمة في عالم تسوده الحرية . وفي هذا المقال نرى التناقض الاصيل في شخصية البارون . فهو من ناحية يعلن نفوره من المفكرين اليهود ، وينادي بالعودة الى الارض ، ويفضل الفلاح

الذي يرعى الغنم ويهتم بالحقل ، على الغلام المولع بالقراءة والكتابة، ومن ناحية اخرى يتباهى بطول باع اليهود في العلوم والفنون والآداب . ثم لنتذكر حديثه مع هيرتزل ، عندما أبدى نفوره من طموح اليهود واندفاعهم الى الامام . الم يكن هو نفسه أكبر نموذج للطموح والاندفاع ؟! انه لم يكتف بثرائه الفاحش ، وبالنفوذ العظيم الذي ناله بواسطة هذا الثراء ، بل ظل طول حياته يسعى وراء الاوسمة والالقاب . وليس لنفسه فقط ، وانما حتى لاولاده غير الشرعيين ، ولحفيدته غير الشرعية ! وحتى الدولة العثمانية التي كان يجاهر باحتقارها ، هذه الدولة اشترى منها وساما رفيعا ! وهو عندما فكر في تزويج ابنه لوسين ، لم يقع اختياره الا على فتاة بريطانية ارستقراطية* (غير يهودية) ، فظل يلاحقها ليقنعها بأن تقبل بابنه زوجا لها بعد أن لوح أمامها بثروته الطائلة . الا أن هذه الفتاة رفضت العرض شاكرة ، وتزوجت بعد ذلك اسكويث الذي أصبح رئيسا لوزراء بريطانيا .

هنا اذن يكمن المفتاح في شخصية هيرش ذات التناقضات الحادة . فبالرغم من الحياة الباذخة التي كان يعيشها ، كانت نوبات البخل فيه تثير عجب الناس . فانه مثلا كان ينزل في الفنادق الممتازة ، ولكنه لا يتناول وجبات الطعام فيها لانها غالية . وكان يتبضع في فيينا وليس في باريس لان العاصمة الاولى أرخص . وكان دائما يوبخ موظفيه بسبب المصروفات التي يتكبدوها بحكم العمل ، ويتهمهم باستغلاله . بل حتى عربات الاجرة ، لم يكن يستقلها الا بعد المساومة والمفاصلة . ويتذكر احد معارفه كيف وقف البارون مدة دقائق طويلة تحت المطر الشديد ، وهو يجادل سائق العربة حول الاجرة ، دون أن يأبه لتبلل ملابسه وتعرضه للاصابة بالرشح .

اذن كيف يمكن توفيق هذا البخل المضحك مع حياة البذخ التي كان يحياها ، ومع الملايين التي تبرع بها ؟

الجواب على ذلك هو أن البخل كان متأصلا في طبيعته ، أما البذخ فلم يكن الا الوسيلة التي التجأ اليها ليخفي مركب النقص في نفسه . ومركب النقص هذا كان وليد الرفض الذي واجهه في الاوساط التي تمنى من صميم قلبه أن ينتمي اليها . فبالرغم من كل ثرائه ونفوذه ، ظلت بعض الاوساط الارستقراطية التي طمع في الانتساب اليها ، ترفضه بازدراء . وقد حدث أن رفض ناد ارستقراطي في باريس ، طلب العضوية الذي تقدم به ، فثارت ثائرة البارون ، واشترى البناية التي يقع فيها النادي المذكور ليجليه عنها . ولعله كان مثل غاتسبي الكبير ، لا يقيم الحفلات الكبرى حبا بها ، وانما ليجتذب الى داره تلك الطبقة العليا التي افتتن بها .

ولعله أيضا مركب النقص نفسه هو الذي جعله يتردد في مساعدة هيرتزل . فان هيرتزل اليهودي** ، الذي كان يشعر بالمرارة في قلبه لفشله كمؤلف ، ويحس بمكانته المتواضعة أمام البارون الشهير ، هيرتزل اختار أن يلعب دور النبي القائد ، وصاحب الرؤيا ، فارضا بذلك على هيرش أن يلعب دور رجل المادة الضعيف الخيال ، والقليل الطموح . وشتان بين صاحب الرؤيا ، وصاحب المادة ! ولم يكتف هيرتزل باتخاذ هذا الموقف المترفع ، بل انه طعن البارون في أعز شيء على قلبه . فقد انتقد مشروعاته

---

* Margot Asquith: My Autobiography (Penguin Books, London, 1936)

** ان الرواية المدونة الوحيدة لما قيل في مقابلة هيرتزل مع هيرش هي تلك التي ضمنها هيرتزل في مذكراته. ولذا علينا أن ندخل في اعتبارنا احتمال بعدها عن الصحة ، ولو ان هذا الاحتمال ضعيف ، وذلك لاتفاق أقوال كل من الرجلين مع شخصيته ونظرته الى الحياة ، مما يحمل على الظن بأن هيرتزل كان عموما امينا في روايته .

الخيرية الكبيرة ، ومع ان البارون وافقه على رايه ، الا أن أقوال الصحفي المغمور حزت في نفسه . ولعله كان يرد التحية لهيرتزل ، عندما غمز من قناة المفكرين اليهود .

اننا من خلال دراستنا للمبارزة اللفظية بين الرجلين ، نشعر بأن التناقض بينهما مبعثه الغيرة والحسد المتبادلين ، قبل أي شيء آخـــر . فلنبدأ بالبارون : انه شديد الاعتزاز بمكانته كرأسمالي كبير ، وكزعيم لليهود . وقد سبق له أن انفق الملايين على تهجير ابناء جلدته ، واعادة توطينهم ، ورفع مستواهم الاجتماعي ، مما جعل صورته تحلي جدران مئات البيوت في أكثر من قارة . ثم انه ينحدر من أسرة لعبت دورا قياديا في مساعدة اليهود على نيل حقوقهم المدنية ، اضافة الى أعمالهم الخيريـــة في أوساط الفقراء اليهود . ولكن بعد ذلك كله يأتي هذا الشاب المغمور (كان هيرتزل في الخامسة والثلاثين من عمره عند المقابلة) ليحاضره في أمور كانت تشغل بال هيرش حتى قبل مولد هيرتزل . بل ويلعب دور النبي وصاحب الرؤيا التاريخية امامه ، وكأن هيرش لم يفكر في انشاء دولة يهودية !

انه ببساطة ينتزع صولجان القيادة من يده ويلغي كل تاريخه المجيد في مساعدة ابناء جلدته . ومع ذلك ، فهو لا يملك الا ان يحسد هيرتزل . فهيرتزل شاب ، وهو عجوز . وهيرتزل صاحب رؤيا ، بينما هو لا يعدو أن يكون صاحب مال ، أي رجل مادة . ومهما كان اليهودي بعيدا عن التدين ، فهو يظل يكن التعظيم للانبياء ، لا سيما وان التاريخ اليهودي زاخر بهم ، وكان الويل دائما يلحق بمكذبيهم . ثم ان هيرتزل يحمل برنامجا كاملا شاملا ، بينما لم يكن هيرش قد وصل الى تلك المرحلة بعد . صحيح انه فكر في استحصال الاستقلال لمستعمراته في الارجنتين ، الا أن تلك الفكرة لم تنضج بعد في ذهنه .

اما بالنسبة لهيرتزل ، فحسده كان منصبا على ثراء البارون ونفوذه العظيمين . فقد أدرك بأن الرؤيا مهما كانت عظيمة ، فهي لا تجترح المعجزات التي يجترحها المـــال والنفوذ . وهو في الدور الذي اختاره لنفسه كنبي لليهود ، يحتاج الى المال ، بقدر ما يحتقر هؤلاء الذين سيمولوه . انه يلفت نظر البارون بوضوح الى الفرق بينهما ، عندما يقول : الرؤيا وحدها تشد نفوس البشر ، والذي لا يعرف كيف يتعامل مع الرؤيا ، قد يكون شخصا ممتازا وجديرا وعمليا ، **بل وحتى محسنا على نطاق واسع ، لكنه لن يصبح زعيما للرجال ، ولن يخلف وراءه أثرا** » .

ويواصل هيرتزل العزف على هذه النغمة ، فيعرض عـــلى هيرش منصب القيادة العامة لجيش الدولة العتيدة ، مقابل خمسين مليون مارك ! نكتة ؟ أفلا يعلم هيرتزل ان هيرش لم يحمل في حياته بندقية سوى بندقية الصيد ، ثم انه في ســـن لا تسمح له بالانخراط في السلك العسكري ، وأخيرا وليس أقل اهمية ، فالدولة اليهودية المقترحة كانت ما تزال في طيات الغيب ؟

ثم اننا نلاحظ تلميحات هيرتزل المستمرة الى وجود مصادر اخرى للمـــال فيما لو امتنع هيرش عن المساعدة . فهيرتزل يعرف مدى التنافس بين هيرش وروتشيلد على تزعم اليهود . وهذه التلميحات تغيظ هيرش وتجعله يقول : « اليهود الاغنياء لن يدفعوا شيئا ، فالاغنياء تافهون ، ولا يهتمون بمعاناة الفقراء » .

وطبعا يعرف هيرش حق المعرفة انه ليس الثري اليهودي الوحيد الذي ابدى اهتماما بمساعدة ابناء جلدته . الا ان طعنه بالاغنياء اليهود يشـــير الى اهتمامـــه بمشروع هيرتزل ، ورغبته في أن يلجأ هيرتزل اليه ، واليه فقط ، بقدر ما يشير الى غيرته من آل روتشيلد .

ثم هناك تهديد هيرتزل باللجوء الى « القيصر الالماني الذي غرست فيه تربيته المقدرة على التفكير بالاشياء الكبيرة » أي مرة أخرى يخز هيرتزل مضيفه في مكان حساس ، وذلك من خلال التركيز على المقدرة على التفكير بالاشياء الكبيرة، وكأن ذلك خارج طاقة البارون . وفي مذكراته ، سجل هيرتزل ملاحظته بأن عيني البارون برقتا عند سماعه اسم القيصر ، وفسر ذلك بأنه ناجم عن اعجاب هيرش بجرأته في حمل القضية اليهودية الى أكبر شخصية أوربية . ولكن سوكولوف في كتابه عن « تاريخ الصهيونية » طرح تفسيرا مخالفا لبريق ، أو رمشة عين هيرش ، اذ بيّن ان ردة فعل البارون كانت في الواقع ساخرة . فهو بحكم علاقته الوثيقة بأمير ويلز ، (ولي عهد بريطانيا الذي اعتلى العرش بعد المقابلة بستة أعوام باسم ادوارد السابع) كان يعلـــم ان الدولة التي ستساعد الحركة الصهيونية حقا ، ستكون بريطانيا وليس المانيا . كما كان يعرف مدى النفور بين ادوارد ، وخاله الامبراطور الالماني ، والاثر الذي سيتركه ذلك على العلاقات بين البلدين . ولذا لم يشاطر هيرتزل آماله بالحصول علـــى مساعدة فيلهلم . ويلمح سوكولوف الى أن تردد هيرش في مساعدة هيرتزل كان مبعثه سلوك الاخير ، عندما لم يثن على انجازات البارون ذلك الثناء الذي كان المحسن الكبير يتمنى سماعه . وهنا علينا ان نطرح السؤال التالي : هل كان هيرش سيساعد هيرتزل فيما لو امتدت به الحياة ؟

الجواب على ذلك نجده واضحا في رسائل للامبراطور فيلهلم ووزارة خارجيته ، عثر عليها قبل سنوات . وكانت هذه الرسائل معنونة الى أرشيدوق بادن ، وهو قريب الامبراطور الذي قام بدور الوساطة بين هيرتزل والعاهل الالماني . من هذه الرسائل نفهم بأن هيرش يؤيد الاستيطان اليهودي في فلسطين ، وبأن الامبراطور نفسه يميل الى تأييد الصهيونية ، الا انه لا يميل الى هيرش ، اذ وصفه بأنه رجل سيىء الصيت . وهذه الرسالة مؤرخة في ٢٦ كانون الثاني ، عام ١٩٠٤ ، أي بعد وفـــاة هيرش بثماني سنوات ، وقبل وفاة هيرتزل بأشهر قليلة .

اذن فبالرغم من التناقض بين شخصيتي هيرش وهيرتزل ، فان هيرش كان في نهاية المطاف سينضم الى هيرتزل ، فيما لو امتدت به الحياة . لقد كانت له تحفظاته : وقوع فلسطين تحت السلطة العثمانية ـــ قربها من روسيا ـــ اضمحلال دوره هو أمام بروز هيرتزل المتزايد . ولكن هذه التحفظات كانت ستزول من نفسه تدريجيا ، كما زالت من نفوس الكثيرين من اليهود الذين لم يتحمسوا لدعوة هيرتزل في البداية ، ثم انتهوا الى أن يصبحوا من أخلص أتباعه . فالبارون لم ينس يهوديته ولا لحظة واحدة . وهذه الحقيقة يشدد غرونفالد عليها ، ولا ينسى تذكير القارىء بأنه مهما كان التضارب كبيرا في الرأي حول مدى انتماء هيرش للحركة الصهيونية ، فان الارجنتين اصبحت موردا بشريا لاسرائيل ، حتى درج القول بين الصهيونيين بأن : The Way Leads From A(rgentine) to Z(ion).

أي ان الارجنتين كانت مجرد محطة استراحة بين أوربا الشرقية وفلسطين، لا أكثر .

الحزب الاشتراكي الفرنسي والقضية الفلسطينية : نظرة تاريخية

الدكتور فيصل دراج

العالم ليس جامدا ومحكوما بقوانين سرمدية، بل خاضع وباستمرار لقوانين الحركة والتطور ، والتغير هذا لا يخضع فقط الى موضوعية القانون التاريخي بل هو مشروط ومحكوم ايضا بممارسة الانسان وحركته ، فالممارسة الثورية تسرع وتنشط التطور والحركة ، ويعني هذا على المستوى السياسي ان موقف ونظرة أية قوة سياسية الى القضية الفلسطينية لا يعتمد فقط على قانون الحركة التاريخية الموضوعية بل يعتمد ايضا على الممارسة الثورية للشعب الفلسطيني التي تدفع هذه الحركة وتسرّعها باتجاه معين .

أمر آخر يجب ان ننوه اليه ، هو سيادة المنطق الشكلي على محاكمات البعض السياسية ، وهذا يعني ان هذا البعض ينظر الى موقف القوى السياسية ازاء القضية الفلسطينية كموقف نهائي غير خاضع للتبدل او التغير ، وبالتالي فمن هو ليس معنا هو مع عدونا بالضرورة ، ويعامل بالتالي كقوة عدوة . ان هذه المحاكمة تنسى ان العالم هو عالم متحولات وليس عالم جوامد ، وانه يتغير ويتبدل محكوما بحركة النضال المتصاعدة .

كما يمكن ان نلمس حقيقة اخرى في ضوء العمل الفلسطيني في اوروبا الغربية . وتقدم الحقيقة هذه جملة معطيات . المعطى الاول ، ان العمل الفلسطيني كان محكوما بعاطفية بدائية ، فقد احتضن كل من كان يقول « فلسطين ستنتصر » دون ان ينظر الى موقع هذا المؤيد سياسيا ، ولا الى دوره الحقيقي في النضال السياسي في بلده ، ولا الى السلبيات والمعطيات الضارة الناتجة عن التعامل معه ، فالبعض كان يتعامل مع الشراذم المتطرفة موصدا بذلك الباب أمام أية امكانية للتعامل مع الشيوعيين والقوى الديمقراطية الاخرى .

أما المعطى الاخر فيتجلى من خلال برغماتية فجة ، تتمثل بالتعامل والتنسيق مع القوى « الشراذم » المقتنعة مسبقا بقضيتنا ، أما القوى التي تحتاج الى حوار وايضاح فقد بقيت خارج أطار الذاكرة ، لأن العمل معها يحتاج الى بعض الجهد والمواظبة . كل ذلك جعل العمل الدعائي الفلسطيني محدود المردود لانه لم يكن يتجه الى القوى الفاعلة سياسيا والمعبرة عن الشارع السياسي ، بل اتجه فقط ــ مع بعض الشواذ ــ الى القوى السياسية الهامشية والتي تقع على تخوم وخارج الحياة السياسية الفاعلة.

ان العمل الدعائي الهادف فعلا الى مردود ايجابي ، يجب ان يتجه الى القوى الفاعلة سياسيا والحاملة في طياتها بذور المستقبل وهويته ، من هنا تأتي أهمية التركيز على الحزب الاشتراكي الفرنسي كفصيل من فصائل اليسار الفرنسي وكقوة مؤثرة على الحقل السياسي في فرنسا .

التعريف بالحزب الاشتراكي

يمثل الحزب الاشتراكي تيار الاشتراكية الديمقراطية ، وهو عضو في الاممية الثانية (الاممية الاشتراكية) . والحزب في شكله الراهن نتيجة لتطور طويل لجملة جمعيات اشتراكية ـــ ديمقراطية أهمها الـ (SFIO) (الفرع الفرنسي للاممية العمالية) . وبسبب خصوصية الحركة العمالية الفرنسية يعتبر هذا الحزب أكثر أحزاب اوروبا الغربية الاشتراكية يسارية ، ويعود هذا الوضع بلا شك (يسارية الحزب) الى قوة ونشاط الحزب الشيوعي الفرنسي الذي استطاع من خلال نضال طويل ان يجعل مفاهيم الحزب الاشتراكي أكثر راديكالية .

ويرتبط الاشتراكيون الفرنسيون الان بتحالف مع الشيوعيين متوج بـ « البرنامج المشترك » . ولم يكن التحالف هذا معطى مباشرا أبدا بل نتيجة لنضال مستمر من قبل الشيوعيين والعناصر اليسارية في الحزب الاشتراكي ، حيث ان هذا الحزب كان يحتوي دائما وحتى توقيع البرنامج المشترك على اتجاهين ، الاول يهدف الى تحالف جبهوي مع الحزب الشيوعي ، والاخر يريد تحالفا مع الراديكاليين والديمقراطيين المسيحيين . لكن الاختيار الاول أخذ يتقدم على الاخر بدءا من عام ١٩٦٥(١).

وجد في فرنسا ومنذ عام ١٨٩٣ اربعة تجمعات اشتراكية بالاضافة الى الاشتراكيين المستقلين ، وقد استطاعت هذه التجمعات ان تتجاوز تفرقها نسبيا في ايار ١٩٠١ في مؤتمر عقد في مدينة ليون نتج عنه قيام حزبين اشتراكيين . الاول الحزب الاشتراكي الفرنسي ويضم المستقلين المناهضين لاية ميول ماركسية ، ويركز هذا الحزب على العمل النقابي الثوري . أما الحزب الثاني فيضم أنصار غيد وفيان وهو حزب ماركسي معاد لاية مشاركة في حكومة بورجوازية وبالتالي لاية مساومة مع الاطراف البرجوازية. لكن الاممية الثانية عادت فأجبرت هذين الحزبين على الاندماج في نيسان ١٩٠٥ مولدة بذلك الفرع الفرنسي للاممية العمالية (SFIO) الذي اعتبر نفسه حزب الطبقة العاملة المعادي للبرجوازية بكل مؤسساتها . لكن هذا التنظيم كان هشا بسبب عدم تجانسه الايديولوجي والاتجاهات السياسية المختلفة التي تحكمه ، لذلك شهد باستمرار انشقاقات عديدة في صفوفه أهمها انشقاق عام ١٩٢٠ ، الذي حرمه من زعيم مرموق جوريس ومن صحيفة الومانيته وثلاثة ارباع أعضائه . حيث شكل المنشقون الحزب الشيوعي الفرنسي . لكن الفرع الفرنسي للاممية العمالية عاد فنظم صفوفه في عام ١٩٢٤ تحت قيادة ليون بلوم وتحول الى حزب جماهيري وتحالف مع الشيوعيين في عام ١٩٣٦ لمناهضة الفاشية . لكن هذا التحالف انتهى بانتهاء الحرب بسبب نمو الاتجاهات الاصلاحية في الحزب الاشتراكي . وتحول الحزب ابان الحرب الباردة الى قوة سياسية يمينية،وخلال حكم الجمهورية الرابعة كان الحزب الاشتراكي محورا لاية أغلبية حكومية ، كما دعم السياسة الفرنسية الداخلية والخارجية ، وأيد الحلف الاطلسي والبناء الاوروبي ، ومارس سياسة معادية للسوفييت والشيوعية . وبعد وصول ديغول الى الحكم ناهضه الاشتراكيون بكل عنف وقوة . وفي خلال رحلتهم اليمينية هذه وجد الاشتراكيون في الحزب الراديكالي نصيرا ومؤازرا طبيعيا .

لعب فشل السياسة الكولونيالية الفرنسية والتي دعمها الاشتراكيون بحزم دورا رئيسيا في زعزعة وتفسخ الحزب الاشتراكي ، فانشق عنه جناحه اليساري الذي شكل فيما بعد الحزب الاشتراكي الموحد «P S U» ، في حين بدأ الـ (SFIO) بالاقتراب من الشيوعيين . تابع الاشتراكيون بعد ذلك مسارهم المتقلب والشائك حتى تولى رئاسة حزبهم فرنسوا ميتران في ١٦ حزيران ١٩٧١ ، الذي بدأ مباشرة بالعمل من أجل

خلق حزب قوي يتبنى سياسة التحالف مع الشيوعيين كاستراتيجية من أجل انتصار الاشتراكية في فرنسا .

ويحتل الحزب الاشتراكي الان مكانا هاما في الحياة السياسية ، ويمثل في الانتخابات البرلمانية حوالي ٢٣ ٪ ، كما حصل سكرتيره العام في انتخابات رئاسة الجمهورية في ١٩ ايار ١٩٧٤ على ٤٩ ٪ من الاصوات ، وتشير الدلائل الان على نمو مؤيديه وشكله التنظيمي ، ومن الجدير بالذكر ان ميتران جابه ديغول في انتخابات رئاسة الجمهورية عام ١٩٦٥ وحصل على اكثر من ٤٧ ٪ من الاصوات . ويطرح الحزب خطه السياسي من خلال مجلته الاسبوعية « لونيته » L'Unité التي أسسها في خريف ١٩٧١ ، وله مجلة نظرية هي المجلة الاشتراكية الجديدة « لا نوفيل ريفو سوسياليست » .
La nouvelle revue socialiste.

أما على مستوى التنظيمات الجماهيرية فدور الحزب الاشتراكي محدود ، فاتحاد الطلبة الاشتراكيين بدأ في التكون عام ١٩٧١ ، وعلى الرغم من عدم سيطرته على (CFDT) الا ان تأثيره عليها ملموس ، وله تأثير على فيدرالية التعليم القومي ، وعلى اتحاد المعلمين والرياضة . ومهما يكن من أمر فانه من الصعب رؤية حاضر ومستقبل الحياة السياسية في فرنسا بدون الحزب الاشتراكي.

موقف الحزب الاشتراكي من الصهيونية منذ بداية القرن وحتى قيام اسرائيل

نسجت الحركة الصهيونية علاقات وطيدة مع الاشتراكيين منذ بداية هذا القرن ، ويعزى ذلك الى عوامل موضوعية أهمها الموقف الانساني للحزب الاشتراكي من جموع اليهود التي كانت ترزح تحت ثقل اللاسامية . لذلك كان من الطبيعي ان يهرع العديد من اليهود الى صفوف هذا الحزب الذي يرفع صوته عاليا ضد اضطهادهم ، أي ان قيم الحزب الانسانية ومنطلقاته العلمانية خلقت جسورا واسعة بين الطرفين . وقد تجلى هذا الموقف ازاء قضية دريفوس التي وصفها ليون بلوم بـ « تعاسة كبرى سقطت على اسرائيل ، عاناها اليهود بدون ان ينبسوا بكلمة بانتظار ان يمحو الزمان والصمت آثارها »(٢). ان كلمات الزعيم الاشتراكي هذه تعكس التعاطف الموضوعي والايجابي مع اليهود. ولا يعني هذا الموقف ضمن شروطه التاريخية تحيزا للصهيونية وانما يتطابق مع قيم الاشتراكيين المدافعة عن تحرر الانسان . لكن هذا الموقف المدافع عن اليهود انسحب بعد ذلك على الحركة الصهيونية ، وهكذا وقع الحزب في تطابق باطل ، تطابق بين اليهودي والصهيوني . ومما لا شك فيه أن شبح اللاسامية الثقيل في تلك الفترة سهل عملية التطابق تلك ، فالصهيوني لم يكن يرى كقوة سياسية كولونيالية عرقية ، بل مناضلا من أجل تحرره وانعتاقه ، أي ان ركام اللاسامية قد أعطى اشارة مرور سهلة للمشروع الصهيوني ، وان بؤس اليهودي هو الذي منح المشروع الصهيوني « شرعيته » وحركته .

ان هذه الخلفية التاريخية من ناحية والموقع الايديولوجي والاجتماعي للحزب من ناحية ثانية ، بالاضافة الى **اوروبية** هذا الحزب ، كل ذلك مهد لعلاقة وطيدة بينه وبين الحركة الصهيونية ، وقد لعب ليون بلوم دورا هاما في خلق وتطوير هذه العلاقة ، فالصلة بين بلوم والحركة الصهيونية بدأت في عام ١٩١٦ واستمرت حتى موته . وقد ساهم بلوم في عام ١٩١٦ وكان آنذاك وزيرا في خلق صلة بين سوكولوف ممثل الحركة الصهيونية ووزارة الخارجية الفرنسية ، وكانت هذه الصلة تهدف الى جعل فرنسا تساهم في خلق « وطن قومي لليهود » في فلسطين حال تحررها من النير العثماني . وقد ناضل بلوم منذ اوائل العشرينات من أجل دعم ودفع الحركة الصهيونية الى الامام ،

كما انه كان عضوا نشطا في جمعية فرنسا ـ فلسطين ومساهما في تحرير المجلة الصهيونية « فلسطين » ، والجدير بالذكر انه كان آنذاك زعيما للحزب الاشتراكي . معنى ذلك ان بلوم تبنى كليا الحركة الصهيونية وآمن بكل منطلقاتها(٣). لذلك فقد بذل كل ما في وسعه من أجل الصهاينة خاصة عند توليه رئاسة الحكومة ابان فترة الجبهة الشعبية . ونسج من خلال ذلك علاقة وثيقة ومستمرة مع وايزمان رئيس المنظمة الصهيونية العالمية ، ولا شك ان تأثير هذا الاخير كان عميقا على الزعيم الاشتراكي .

يقول بلوم في أحد رسائله « لم أرفض أبدا أي طلب لوايزمان ، وعندما عرفته كنت أجهل الصهيونية تماما ، فجعلني أعرفها وكسبني الى جانبه »(٤).

عاد بلوم الى فرنسا بعد انتهاء الحرب ، وبدأ يستفسر عن تطور الحركة الصهيونية في فرنسا ، كما سارع الى تأمين التنسيق بين الحركة الصهيونية والفرع الفرنسي للاممية العمالية (SFIO) وكان يعتقد آنذاك ان الجهد الرئيسي يجب ان يتمحور حول أمرين : اولهما استقطاب الرأي العام ، وثانيهما العمل من أجل تأمين موقف الجامعة العربية ازاء المشروع الصهيوني(٥).

ولا شك ان يهودية بلوم وموقعه الايديولوجي ، فقد كان يهوديا كما نعلم ، سرعت ووقفت وراء نشاطه اللامتناهي في خدمة الصهيونية وفي جعل الاشتراكيين يتبنون بشكل كامل المواقف الصهيونية(٦)، لهذا نرى بلوم يهتم ويمارس في كل حقول العمل الصهيوني ويدفع منظمته للعمل معه . لذلك فقد ساهم بعد الحرب في «أسبوع الطفولة اليهودية الشهيدة » والواقع في ٥ تشرين الاول ١٩٤٥ ، كما تدخل لدى الحكومة الفرنسية من أجل تسهيل عمل اللجان الصهيونية في فرنسا والنمسا. اذ ان الصهيونية كانت بالنسبة له تعبيرا عن « متطلبات الجماهير اليهودية العادلة » .

وقد لعب بلوم والاشتراكيون دورا نشطا ايضا في دفع الحكومة البريطانية الى تبني مواقف الصهاينة ، واعتبر أكثر من مرة موقف بريطانيا غير عادل ازاء الهجرة اليهودية، فكتب مرة « كيف لا نسمح لمن تبقى من يهود لوبلان وغيتو فارصوفيا ، وليتامى ضحايا غاز أوشفيتز إن يذهبوا الى الارض التي يريدونها وطنا جديدا »(٧). وكان بذلك ولا شك يردد الدعاية الصهيونية الهادفة الى جعل اغتصاب فلسطين عملا قوميا تحرريا ، أي حركة تحرر ولدت وانتصرت بعد طرد الغزاة البريطانيين !!. كما كان بلوم ومن لف لفه يلون عنق حقيقة اخرى ، فارهاب شتيرن والارغون لم يكن بالنسبة لهم موجها ضد سكان البلاد الاصليين ، بل كان عملا قوميا وجهه « المناضلون اليهود » ضد المعتدي البريطاني الذي يحول بينهم وبين « وطن مستقل » . فالعمل الارهابي هو ممارسة يائسة قهرية ضد غزو خارجي مستبد « اني اقول ان الارهاب ليس الا شكلا يائسا من التمرد ، وان الحكومة البريطانية هي المسؤولة عن اثارة هذا الارهاب بسبب اقفالها المستمر لساحات الامل أمام يهود فلسطين وصهاينة العالم كله »(٨).

ان التركيز هنا لا يتم على ليون بلوم من حيث هو فرد ، بل من حيث هو زعيم للحزب الاشتراكي أي الـ (SFIO) آنذاك ، أي كفرد يعكس في مواقفه وممارساته موقف المؤيدين له ، ويتدخل من خلال ثقله السياسي ودوره القيادي في صياغة وتعديل هذه المواقف بحيث تصبح دعما لامشروطا للمشروع الصهيوني .

كما يضاف الى ذلك أمر آخر متأت عن ما سميناه « اوروبية » الحزب الاشتراكي ، أي رؤيته للصراع في فلسطين كصراع بين الشرق والغرب ، أي بين حملة الثقافة الاوروبية الكولونيالية ومناهضي هذه الثقافة وشكلها السياسي . لذلك فان رؤية بلوم

للصراع كانت وحيدة الجانب ، رؤية ملتزمة بالمشروع الصهيوني كظل اوروبي ضد ثقافة الصحراء و « الاظلام العربي » ، لذلك فقد كان يندد باستمرار بـ « تعصب العالم العربي » و« فاشيته » . ان رؤية بلوم وفريقه على الرغم من « انسانيتها » الاوروبية مثلت امتدادا للرؤية الصليبية بكل تبريراتها الحضارية . وقد تجلى ذلك في تهجم بلوم وحزبه على قرار اقتسام فلسطين ، لانه اعتبر ارض فلسطين برمتها وطنا تاريخيا لليهود ، كما كان يطالب بالقدس كعاصمة للدولة اليهودية .

ولقد تركت مواقف بلوم بصماتها الواضحة على موقف الفرع الفرنسي للاممية العمالية ازاء الصهيونية ، فقد كان مارك جاربلوم بعد الحرب مناضلا في صفوف « الحزب العمالي الفلسطيني الصهيوني » وممثلا لهذا الحزب في فرنسا ، ومناضلا في الوقت نفسه في صفوف الـ (SFIO) ، أي أن هناك تطابقا في موقف التنظيمين ، خاصة ان كليهما ينتمي الى الاممية الاشتراكية . لهذا كان من الطبيعي ان يتبنى الاشتراكيون الفرنسيون في مؤتمر النقابات العالمي في ١٩٤٥ الموقف التالي : « يجب وضع الامكانيات للشعب اليهودي حتى يتابع بناء فلسطين كوطن قومي له ، وذلك عن طريق الهجرة والاستيطان الكولونيالي والتطوير الصناعي » .

كل ذلك جعل من الساسة الاشتراكيين أمثال بلوم ، ليون جوهو ، بيير اوليفيه لابي ، دانيل ماير دعاة مخلصين للحركة الصهيونية في فرنسا ، ومحامين بدأب عن ممارساتها وتطلعاتها العدوانية .

وهكذا فان الاشتراكيين الفرنسيين قد لعبوا دورا لا يستهان به ، في الدعوة للصهيونية ، وفي دعمها لتحقيق مشروعها الكولونيالي — العرقي ، حتى ظهر بشكله النهائي في عام ١٩٤٨ ، أي باغتصاب فلسطين .

الحزب الاشتراكي والتحالف اللامقدس

منذ قيام اسرائيل وحتى نهاية ١٩٧٢ بقي التكافل قائما بين الحركة الصهيونية والاشتراكيين ، أي ان الاشتراكيين مارسوا دعما مستمرا لاسرائيل باعتبارها كيانا اشتراكيا وحضاريا في الشرق ، وكما يعرف فان غزو مصر « حملة السويس » والتي شاركت فيها فرنسا تمت عندما كان الاشتراكيون ممسكون بزمام الحكومة . ان دعم الاشتراكيين لاسرائيل لا يعود فقط الى العلاقة التاريخية بينهما ، بل يرتبط ايضا بسياستهم الكولونيالية والتي أخذت كل أبعادها في حرب الجزائر .

غاصت القضية الفلسطينية ما بين ٤٨ — ١٩٦٧ في بحر من الصمت في العالم الاوروبي ، لانها أرشفت كقضية لاجئين وليس حركة تحرر وطني ، لذلك لن نعثر في مواقف الحزب على أمور ذات دلالة ، فالحقيقة الوحيدة عند الاشتراكيين هي اسرائيل ككيان مقدس يجب صيانته ورعايته حتى النهاية .

أخذت القضية الفلسطينية تطفو على السطح من جديد بعد حرب ١٩٦٧ بفضل المبادرة التاريخية للشعب الفلسطيني المتمحورة على البندقية . ويمكن ان نتلمس موقف الاشتراكيين من القضية الفلسطينية بشكل لامباشر ، أي من خلال ردود فعلهم ازاء الحرب من خلال الصحف التي تقاسمهم مواقفهم السياسية ومواقفهم الايديولوجية . ولنر الان ما تقوله مجلة النوفيل ابزرفاتور بتاريخ ٧ حزيران ١٩٦٧ : « وحتى لو انتصر الاسرائيليون غدا في سيناء ، وغزة والسويس ، الن يظل عليهم ان يدافعوا فيما بعد ، ضد تحالف الجيوش العربية وان يذودوا عن مدنهم حجرا حجرا ، كما دافعت

ستالينغراد ، وكما دافع الحي اليهودي في فارصوفيا »(٩). وهكذا فان العـــدوان الاسرائيلي يأخذ هنا بعدا انسانيا وبطوليا مع دفقة كبيرة من العاطفية المتاجرة بأحزان الحرب العالمية الثانية ، بل ان حرب اسرائيل تصبح موجهة ضد فاشية جديدة .

أما كلود آفلين فقد ذهب الى وضوح أكثر « ان ثمة بين اوائل رجال المقاومة مـــن يعتقدون بأن فرنسا لا تستطيع ان تظل ساكتة بعد الان ... ، اذ ان عبد النـــاصر يطمع الى ان يتمم ما بدأه هتلر »(١٠).

وهذا المنطق بلا شك امتداد لاطروحات الفكر الصهيوني الميتافيزيقية ، فكل مناهض للصهيونية مناهض بالضرورة لليهودية ، اي لاسام وبالتالي فاشي ، وضمن هذا الاطار فان التاريخ لا وجود له ولا الفلسطينيين أيضا ، فالمحاكمة تبنى على خلفية فكريـــة « أوروبية » ، فهناك حضور لليهودي المضطهد وحضور نظير له الفاشية ، ولتبرير الدعم المطلق للصهيونية تخرج الفاشية من رموسها وتلبس لعبد الناصر والعرب ، مما يوحي بأن « متاهة اليهودي » ما تزال قائمة وافناءه محتمل . ومنطق المحاكمة هذه ذات الكابوس الكولونيالي ينفي اي وجود للشعب الفلسطيني . وأكثر من ذلك فـــان منظري الاشتراكيين جعلوا من حرب حزيران محاولة عربية لاغتصاب «أرض» اسرائيل وحدودها الشرعية « ومنذ زمن طويل تعزف الحكومات المولعة بالعظمة والامجاد ، مبدأ « أرض الوطن ذات المساحات القابلة للتغير » »(١١).

أما « الاتحاد الفرنسي الديمقراطي للعمال C.F.D.T. » والذي يعتبر أحد الاجنحة اللامباشرة للحزب الاشتراكي ، فقد تدخل لدى رئيس الجمهورية طالبا أن « تستمر فرنسا في العمل وتوسعه في سبيل الحفاظ على حياة اسرائيل وانقاذ السلام »(١٢).

وقد حافظ موقف الحزب الاشتراكي المنحاز الى اسرائيل على سمته هذه عـــلى الرغم من انكشاف الوجه العدواني الفاشي لاسرائيل بعد الحرب ، وبعد مرور أكثر من خمس سنوات على عسف اسرائيل وتشبثها بالمناطق العربية المحتلة ، صرح فرنسوا ميتران زعيم الحزب ابان زيارته لاسرائيل في ١٩٧٢/٣/١٤ بما يلي : « كونوا واثقين بأننا سنكون أصدقاء مخلصين لاسرائيل عندما نصل الى الحكم، مخلصين لكم كفرنسيين واشتراكيين ... وان فرنسا والفرنســيين يعتبرون أنفســهم قريبين جــدا مــن اسرائيل(١٣). ثم عاد فصرح في ١٩٧٢/٣/٢١ فقال : « ان موقفنا واضح كل الوضوح ، فنحن مع الاعتراف بحق اسرائيل في الوجود ، ونأمل ان تصل الى شاطىء الامان ، كما اننا لسنا مع كل تخل غير مشروط ومسبق عن الاراضي المحتلة » ، واعلن انه يتفق مع مشروع ييغال آلون »(١٤). كما صرح ميتران « ان الحزب الاشتراكي لا يتفق مع قرار حظر الاسلحة الفرنسية لاسرائيل ، وانه من المستحيل ان نقبل ان تقوم فرنسا بمساعدة اعداء اسرائيل كما ان الحزب الاشتراكي ينظر بعطف وتفهم الى رغبـــة اسرائيل في اجراء تعديلات في الحدود والاحتفاظ بالقدس كمدينة موحدة »(١٥). ويمكن ان نلخص موقف ميتران اعتمادا على مقابلة له مع مجلة «كراسات برنارد لازار» في آذار ١٩٧٣ . يقول ميتران : ١ ــ كل سلام عادل لا يمكن ان يتم الا من خلال مفاوضات مباشرة بين الاطراف المعنية .

٢ ــ انني أعترف باسرائيل ، واعترف ايضا بالواقع القومي الفلسطيني والذي هو معطى تاريخي وجغرافي ، وموقفنا هذا من الطرفين مبدئي ولا يعتمد على اعتبـــارات تجارية مثل الديغوليين .

٣ ــ ان الحزب الاشتراكي يدافع عن حق يهود الاتحاد السوفييتي في الهجرة الى

اسرائيل وموقفي هذا معروف من خلال مراسلاتي مع السفير السوفييتي ابراسيموف .

٤ ــ ان الحزب الاشتراكي ضد أي تسليح فرنسي للعرب ، وان بيع طائرات الميراج الى ليبيا يهدد أمن اسرائيل ، لان ليبيا تشكل جزءا من الدول المتصارعة في الشرق الاوسط . ان بيع السلاح الى ليبيا يخالف القانون الفرنسي الرسمي ويعبر عن نفاق وخداع . ان بيع السلاح الى ليبيا وابقاء الحظر على بيع السلاح الى اسرائيل امر لا يمكن السكوت عليه .

٥ ــ ان وصولي الى السلطة ، يعني ان تكرس فرنسا كل امكانياتها من أجل سلام عادل في الشرق الاوسط(١٦).

ان ميتران يريد شرق اوسط يعيش في سلام ، سلام يكون على حساب العرب والفلسطينيين ، لان اسرائيل بالنسبة له كيان مقدس لا يمس كما ان ممارستها صحيحة ومفهومة ومبررة !!

اندلاع حرب رمضان وعدم انتصار اسرائيل وصمود الجيوش العربية اظهر من ناحية كلاسيكية منطق الحزب الاشتراكي و « أوروبيته » ، كما أظهر في الوقت نفسه عدم تجانس مواقف هذا الحزب . فبالنسبة لـ « جاستون دوفير ــ أحد زعماء الحزب الاشتراكي فان « المصريين مسؤولون عن اندلاع الحرب فهم بادروا بالهجوم ... وان الزعماء العرب اعلنوا أكثر من مرة عن نيتهم في ازالة اسرائيل ، وهذا ما سيفعلوه اذا ربحوا الحرب . وعندئذ ماذا سيحل بالاسرائيليين ؟ سيذبحون ؟ ومن سينجو منهم فهل عليه ان ينتظر ٢٠٠٠ عام حتى يجد وطنا ؟ »(١٧) . ثم يعود بذلك ليرسم رؤيته لاسرائيل « فهي دولة ديمقراطية ، انتخاباتها حرة ، كما ان الحريات السياسية والفردية محترمة فيها ، بينما أعداء اسرائيل دول ديكتاتورية » .

أما منطق بيير موري، الشخصية الثانية في الحزب فلا يختلف كثيرا عن منطق سابقه « فجيش اسرائيل يقاتل ضد أفنائه من قبل العدو ، الذي يرفض بعناد حق اسرائيل في الوجود منذ ١٩٤٨ . واسرائيل تعطي مثالا كاملا عن الديمقراطية الحقة ، كما ان الزعماء العرب عاجزون عن حل الامور سواء بالسلم أو بالحرب ، ويتوجب على أية مفاوضات ان تستند على الاعتراف باسرائيل وأمن حدودها ... ان الهجوم العربي الكثيف والمفاجيء يجعل مطلب اسرائيل بالاحتفاظ بالمناطق المحتلة مقبولا »(١٨).

وهكذا فان صهيونية الاشتراكيين تطفح بانفعال على السطح ، وعندئذ تتوارى كل ممارسات اسرائيل ولا يبقى في ساحة الرؤيا الا « اليهودي التائه » و « ديمقراطية اسرائيل المثلى » . وهذا ما أثار « المجاهد » الصحيفة الجزائرية ، عندما ردت على تصريحات دوفير بمقالة تحت عنوان « أبطال القضية الصهيونية »(١٩) ، مظهرة ان الحزب الاشتراكي ــ وعلى الرغم من مبادئه ــ يطرح من خلال تبريراته المتعددة كامل مسؤولية الحرب على كاهل العرب .

وعبر الحزب الاشتراكي عن موقفه الرسمي كما يلي : « ان الحزب لا يعتقد ان ميزان القوى هو الذي سيحل الامور ، ولن يكون استمرار الحرب مفيدا لاي من الطرفين »(٢٠). وكما يرى هنا فان الحزب لا يثير اطلاقا قضية الشعب الفلسطيني ، مما جعله يتعرض لنقد مباشر من الحزب الشيوعي الفرنسي شريكه في تحالف اليسار .

لم يكن موقف صحيفة الحزب الاسبوعية « لونيتيه » يختلف عن موقف التيار الصهيوني الرسمي في الحزب ، فهي تعتقد أن سبب الحرب هو « رفض العرب المتعنت

الاعتراف باسـرائيل وحقهـا في الوجود بسلام وأمان ، كما ان أي اعتراف يجب ان يتضمن ضمانات سياسية واقتصادية وبدون شك اقليمية » .

أما فرنسوا ميتران الذي يجد صعوبة كثيرة في الخروج من جلده الصهيوني فقد صرح بما يلي : « لو ان الجيوش العربية بدأت هجومها ـ في يوم السبت ـ منطلقة من غزة والجولان والاردن لوصلت الى قلب تل أبيب . فكيف نعرف ونميز الحدود الآمنة من تلك التي ليست آمنة »(٢١) .

يتناسى ميتران هنا جوهر القضية وطبيعة السياسة الاسرائيلية ليتحول الى مدافع ومبرر لسياسة اسرائيل التوسعية ، فهو هنا مسوغ ومبرر لضم الاراضي العربيـة المحتلة .

أظهرت حرب اكتوبر الطبيعـة السـياسية اللامتجانسـة للحزب الاشتراكي . فهو يمثل الجزء الاعظم من البرجوازية الصغيرة ، التي يسحقها شيئا فشيئا النظام الرأسمالي ، فهي لذلك تعاديه ، لكنها بحكم موقعها الطبقي المتأرجح وبسبب التربية الايديولوجية المعادية للشيوعية ترفض الحزب الشيوعي ، لذلك فان موقعها الطبيعي هو ضرب البرجوازية الصغيرة ، الحزب الاشتراكي . لذلك يمكن القول بأن الحزب الاشتراكي هو تراكم لفئات ترفض النظام الرأسمالي لكنها لا تملك الوضوح الكافي لتجاوزه ، وأن تم ذلك فهو من خلال وسيط (الحزب الشيوعي) .

وينعكس غياب وضوح الرؤيا هذا على مجالات عدة ، منهـا الصراع العربي ـ الاسرائيلي . ان موقف القيادة الموالية للصهيونية ، والذي في حزب المابام زميل له في الاممية الاشتراكية ، لا يعكس بالضرورة موقف الحزب كله . لذلك نجد في صفوف هذا الحزب الموالاة المطلقة لاسرائيل ، كما نجد العطف الكامل على القضية الفلسطينية . وقد ظهر هذا الموقف اللامتجانس بكل أبعاده ابان حرب اكتوبر . فبعد الدعم المطلق لاسرائيل الذي لمسناه في مجلة الحزب ، طلعت علينا المجلة نفسها بمقال آخر تقول فيه « ويعود استمرار الحرب الى رفض اسرائيل الاعتراف بالواقع القومي الفلسطيني والذي هو عنصر أساسي بأية تسوية شاملة في الشرق الاوسط »(٢٢) .

وقد انكشف موقف الحزب اللامتجانس الى العيان عندما صدّرت فيدرالية باريس للحزب الاشتراكي في ١٧ اكتوبر بيانا يخالف البيان الصادر عن الهيئة الادارية للحزب على المستوى الاقليمي والصادر في ١٣ اكتوبر . وبيان الهيئة الادارية والمعبر عـن الموقف الرسمي للحزب جاء كما رأينا مؤيدا لاسرائيل بدون شروط ، في حين جاء موقف فيدرالية باريس ـ والمعبر عن يسار الحزب CERES ـ ناقدا لاسرائيل ، فهو يقول « نأمل بعد وقف اطلاق النار ان تعيد اسرائيل مباشرة كل الاراضي التي استولت عليها، واقامة دولة فلسطينية ذات سيادة مطلقة ... واذا كان الرأي العام قد تضامن مع اليهود بسبب شهدائهم خلال الحرب ، فان مئات الالوف من الفلسطينيين الذين يعيشون في ظروف بائسة تشكل وصمة عار في جبين الانسانية .... ، ان رفض اسرائيل المستمر للتخلي عن الارض التي احتلتها في عام ١٩٦٧ جعل المجابهة مع العرب امرا حتميا »(٢٣) .

ان هذا الموقف يمثل الجناح اليساري والشاب من الحزب ، أي الجناح الذي تجاوز أقانيم منديس فرانس وغي موليه الكولونيالية ، الغائصة رغم « اشتراكيتهـا » في ايديولوجيا « الرجل الابيض » ذي المهمة التبشيرية في العالم « البدائي » .

الحقيقة وعملية التاريخ

لا تقبل الحقيقة دائما ارابيا ، بل تفرض ذاتها من خلال مصداقيتها الداخلية ، أي ان الذات لا تقبلها بالضرورة بسبب اقتناعها بها ، بل لان هذه الحقيقة تصبح جزءا موضوعيا من الحقيقة التاريخية التي تنمو يوما بعد يوم . يصدق هذا بشكل دقيق على موقف الحزب الاشتراكي من القضية الفلسطينية التي بدأت تفرض نفسها عليه على الرغم من تقاليده الصهيونية العريقة .

حدد الحزب الاشتراكي موقفه من الشرق الاوسط في برنامجه الحكومي الصادر في عام ١٩٧٢ بالشكل التالي « ١ ــ الاعتراف بحق اسرائيل في البقاء والامن ، وكذلك بحق جميع الامم الاخرى في الشرق الاوسط بما فيها الامة العربية الفلسطينية . ٢ ــ تثبيت الحدود بشكل نهائي وذلك عبر مفاوضات بين الجوانب المعنية ، مع الانسحاب من المناطق المحتلة . وتعتمد هذه المبادىء على قرار الامم المتحدة الصادر في عام ١٩٤٧ والذي كرس ولادة اسرائيل ، والقرارات الصادرة في عام ١٩٦٧ ».

ويلاحظ هنا ان الحزب الاشتراكي يشير الى حقوق الشعب الفلسطيني ولكن بشكل غامض يفقده أية دلالة محسوسة ، وعلى نقيض ذلك نرى ان موقفه ازاء اسرائيل دقيق كل الدقة ، فهناك « الحق في الوجود والامن » و « تثبيت الحدود » و « المفاوضات » . ان قراءة سريعة لدلالة المفردات المستعملة تظهر ــ الى حد ما ــ تطابقا بين هذه المواقف وموقف الحكومة الاسرائيلية .

كما ان اشارة الحزب الاشتراكي الى قرارات الامم شائهة ومحرفة ، فهو يتكلم عن « تثبيت حدود نهائية بالمفاوضات بين الاطراف المعنية ، ثم الانسحاب من الاراضي المحتلة » في حين ان قرار مجلس الامن حدد الانسحاب الشامل كشرط رئيسي للبدء في أي عمل آخر(٢٥).

طرأ على هذا الموقف تغير عند صدور برنامج مشترك بين الشيوعيين والاشتراكيين، فاصبح كما يلي : « العمل من أجل اعادة السلام والامن الى الشرق الاوسط ، مع احترام حق كل دولة من دول المنطقة بالوجود، واحترام سيادتها وخاصة دولة اسرائيل، وكذلك احترام الحقوق القومية للشعب العربي الفلسطيني »(٢٦).

ويعود اعتدال الاشتراكيين هنا الى الدور الذي مارسه الشيوعيون ــ ولا يزالون ــ في كبح المواقف الصهيونية عند الحزب الاشتراكي . وقد كان الموقف من الشرق الاوسط من أكثر المسائل تعقدا ابان محادثات الطرفين ــ الشيوعي والاشتراكي ــ وكاد ان يؤدي الى تعثر ومراوحة المحادثات وذلك بسبب تعنت صهيونيي الحزب الاشتراكي .

ان تطور القضية الفلسطينية كحركة وطنية تحررية تقاتل قوة رجعية كولونيالية ، أجبر حتى أحزاب الاممية الاشتراكية على الاعتراف « بواقع الشعب الفلسطيني » . ان هذا المعطى الجديد جعل منطق الاشتراكيين يسير باتجاه ايجابي رغم تعثراته ، وتتوارى هذه الفترات كلما تقدمت الحركة الفلسطينية . نعثر على دائرية الاتجاه الايجابي والعثرات في لحظتين اساسيتين لميتران في عام ١٩٧٤ .

تظهر اللحظة الاولى ، عندما أرسل رسالة بتاريخ ٢٤ نيسان الى هنري بولافكو ، السكرتير العام لحلقة برنارد لازار الصهيونية والناطقة باسم حزب المابام بشكل خاص واسرائيل بشكل عام . يقول ميتران في رسالته « ان مواقفي السابقة والتي دافعت عنها بثبات ودأب تشكل ضمانا لوجود ومستقبل دولة اسرائيل . واذا انتخبت رئيسا للجمهورية ، فان فرنسا ستكون على أعلى مستوى من المسؤولية من أجل الدفاع عن امن اسرائيل »(٢٧).

وكانت الحلقة المذكورة قد وجهت دعوة الى ميتران لحضور اجتماعاتها ، فاعتذر بسبب انشغاله بالحملة الانتخابية لرئاسة الجمهورية .

بعد هذه اللحظة التي يعتبر فيها ميتران عضو شرف في الحركة الصهيونية ، نصل الى لحظة اخرى أكثر تعقلا ، يبدو فيها كحكم يحاول قدر جهده ان يكون نزيها ، ففي مقابلة له في ١ كانون الاول ١٩٧٤ مع مجلة « نوفيل اوبزرفاتور » قال ميتران « اعترف الحزب الاشتراكي بالواقع القومي الفلسطيني ، واذا لم يقل على أي أرض ستعيش هذه الامة ، فانه كان يفكر بأرض ممكن الحصول عليها ويقرها القانون الدولي : بعض الاراضي التي احتلتها اسرائيل في حرب الايام الستة ، وتعتقد اسرائيل انه يتوجب على الفلسطينيين ان يحلوا مشاكلهم مع الاردن وفي الاردن ، وهذا كما نرى ليس معقولا ... ، يجب ان يعيش الاسرائيليون والفلسطينيون في دولتين متجاورتين تتبادلان الاحترام ، والا فان اقتتالهم سيؤدي الى الموت والفناء ... ، ان اسرائيل تخطىء عندما ترفض ان يكون للفلسطينيين وطن »(٢٨) .

ان ميتران أصبح يعترف بالوجود الفلسطيني وحقوقه القومية وكما قلنا فان هذا الموقف الجديد تدفع اليه الاحداث دفعا ، فهو ليس قناعة نظرية ذاتية ، بل تفهم لحركة الواقع التي تلغي كثيرا من المفاهيم المسبقة والمغلوطة ، ومعنى تلغي هنا هو ان تجعل هذه المفاهيم عاجزة عن التصريح عما تريده فعلا ، لذلك فهي حالة انفصام « تريد ان تسمع الفلسطينيين ، وترى كيف يفكرون ، لكن هذا لا يعني القبول بآرائهم أو رفضها »(٢٩) .

ان تطور موقف الحزب الاشتراكي يعني امرا واحدا هو ضرورة اقامة حوار مع هذا الحزب ، واقامة جسور اعلامية معه . فهو حزب يتطور في مواقفه السياسية ، وتطوره هذا سيترك صدى في بلد الحزب وخارجها .

---

١ — Les partis politiques dans la France d'aujourd'hui : François Borella Eds: Seuil 1973, p. 147-165

٢ — Michael R. MARRUS : Les Juifs de France à l'époque de l'affaire Dreyfus Eds: Calmann-Lévy, p. 11.

٣ — David Lazar : L'opinion française et la naissance de l'Etat d'Israël 1972, Eds : Calmann-Lévy, p. 150-170

٣ — Léon Blum : Pour la Justice Eds: Al Bin Michel - 1963, p. 442

٥ — L'opion française, p. 145

٦ — Le populaire, 21 août 1946

٧ — نفس المصدر .

٨ — نفس المصدر .

٩ — Le nouvel observateur 7-6-1967

١٠ — Le monde : 6-6-1967

١١ — Le monde : 30-5-1967

١٢ — Le monde : 28-29-5-1967

١٣ — Le monde : 16-3-1972

١٤ — Le monde : 23-3-1972

١٥ — L'Humanité : 17-3-1972

١٦ — Cahiers Bernard Lazare : Mars 1973 No. 39

١٧ — Le monde : 9-10-1973

١٨ — المصدر نفسه .

١٩ — المجاهد الجزائرية ، ١٩٧٣/١٠/١١ .

٢٠ — L'Humanité 12-10-1973

٢١ — Unité 12-10-1973

٢٢ — نفس المصدر .

٢٣ — Le monde 9-10-1973

٢٤ — Programme socialiste de gouvernement 1972

٢٥ — L'Humanité 12-10-73

٢٦ — Programme commun de gouvernement Eds: Sociales, p. 182-1972

٢٧ — Cahiers Bernard Lazare Avril-Mai 1974

٢٨ — Le nouvel observateur 1-12-1974

٢٩ — La nouvelle Revue Socialiste No. 5, 1974.

جنوب إفريقيا واسرائيل
علاقة خاصة

الدكتور سميح فرسون

بحلول نهاية ١٩٧٣ كانت اكثر من ٣٠ دولة افريقية قد قطعت علاقاتها الدبلوماسية مع اسرائيل . وكانت سبع منها قد قطعت علاقاتها الدبلوماسية بين حزيران (يونيو) ١٩٦٧ وتشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ ، بينما فعلت ذلك الدول الباقية خلال حرب اكتوبر العربية—الاسرائيلية للعام ١٩٧٣ ومنذ ذلك الحين، ووحدها جنوب افريقيا، مع ليسوتو وسوازيلاند ومالاوي ، وجميعها تعتمد على جنوب افريقيا ، حافظت على صلاتها الدبلوماسية مع اسرائيل . ومنذ تأسيس منظمة الوحدة الافريقية كان التضامن الافريقي الناشىء قد سبب قطع جميع العلاقات الدبلوماسية والثقافية وغيرها لعدد من الدول مع الدولتين الاستعماريتين البرتغال (قبل الثورة) وجنوب افريقيا*. وآخر عمل من أعمال قطع العلاقات الدبلوماسية بالجملة مع اسرائيل قامت به الدول الاعضاء في منظمة الوحدة الافريقية ، لا يعكس التضامن الافريقي فحسب بل يعكس ، كذلك ، نظرتها الى اسرائيل كدولة استعمارية عدوانية في الشرق الاوسط . وكون جنوب افريقيا والدول المعتمدة عليها وحدها حافظت على علاقاتها باسرائيل انما يزيد من تعزيز هذه الرؤية . وبالفعل ، في اذار (مارس) ، ١٩٧٤ ، تحركت حكومة اسرائيل لتعزز صلاتها باعلانها أنها في سبيل رفع مستوى بعثتها في جنوب افريقيا الى سفارة . وأشارت جنوب افريقيا هي كذلك الى نيتها رفع مستوى تمثيلها في اسرائيل الى مستوى سفارة .

* لم يقم اي بلد افريقي علاقات مع حكومة روديسيا العنصرية البيضاء بعدما اعلن ايان سميث الاستقلال من جانب واحد .

خلال فترة حرب اكتوبر ، كما في حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ، علق وزير مالية جنوب افريقيا، الدكتور ديدريكس ، فورا وعلى وجه التخصيص جميع القيود على تصدير الرأسمال الى اسرائيل . وجمع نحو ثلاثين مليون دولار وارسل المبلغ الى اسرائيل . ومع أن الدولة كانت محايدة رسميا في ما يتعلق بحرب الشرق الاوسط ، فان وزير الدفاع بوثا قال لاجتماع في بورت اليزابيث ، بجنوب افريقيا ، ان جنوب افريقيا ستجد طرقا « ضمن قدرتنا ، ودون اعلان حرب » لمساعدة اسرائيل . ومضى يقول : « ثمة شعور عميق نحو اسرائيل من جانب الوف الجنوب افريقيين في معركتها ضد قوى العسكرية الشيوعية التي تشكل خطرا علينا ايضا » (**فري بالستاين** ، كانون الاول — ديسمبر ، ١٩٧٤ ، ص ٩) وقدرت احدى صحف جنوب افريقيا ان نحو ١٥٠٠ شخص ذوي صلات جنوب افريقية اشتركوا في حرب اكتوبر كجزء من القوات المسلحة الاسرائيلية . وتطوع عدد كبير من الجنوب افريقيين للمشاركة في الجهود العسكرية وغير العسكرية في اسرائيل . وبالاضافة الى ذلك تلاحظ الروايات الصحافية ان بعض الاعتدة العسكرية الجنوب افريقية ارسلت الى اسرائيل خلال الحرب . « ابان الحرب ، اعلنت الحكومة المصرية انها اسقطت طائرة ميراج تملكها دولة أجنبية على جبهة السويس ، واشارت مصادر عسكرية في القاهرة الى ان هذه الدولة هي جنوب افريقيا . وفي حين ان كلا من جنوب افريقيا واسرائيل نفى التقرير ، فقد صرح رئيس جمهورية زامبيا ، كاوندا ، في اذار (مارس) ١٩٧٤ ان جنوب افريقيا لم ترسل طائرات ميراج لمساعدة اسرائيل ولكسب (الخبرة من أجل حروب مقبلة)

فحسب ، بل ان اسرائيل ارسلت ضابطا برتبة لواء الى جنوب افريقيا لتدريب القوات الجنوب افريقية على مقاومة الفدائيين » (**فري بالستين** ، ديسمبر ١٩٧٤ ، ص ٩) .

ان تبادل الزيارات للمسؤولين رفيعي المستوى بين البلدين أمر واضح وبارز . فخارج اميركا الشمالية وبعض بلدان شمال غربي اوروبا ، نلاحظ أن جنوب افريقيا هي البلد الوحيد الذي يتلقى مثل هذه الزيارات الرفيعة المستوى . وهي مماثلة بنوع خاص لنمط الزيارات بين اسرائيل والولايات المتحدة . قبل حرب اكتوبر ذهب اسحق رابين وحاخام اسرائيل الاكبر في زيارات «خاصة» لجمع الاموال الى جنوب افريقيا في حين جاء وزير داخلية جنوب افريقيا كوني مولدر الى اسرائيل في « زيارة خاصة » . كذلك زار اسرائيل في ايلول (سبتمبر) ، ١٩٧٣ ، الدكتور أ. رودي ، ناظر اعلام جنوب افريقيا . بيد أن اهم زيارة كانت زيارة الجنرال فان دن برغم ، رئيس مكتب امن الدولة (المسمى اختصارا بوس) ، وهو جهاز المخابرات الشهير بجنوب افريقيا ، وقد كشف النقاب عن هذه الزيارة في آب (اغسطس) ، ١٩٧٣ . وبعد حرب اكتوبر اشتمل الموكب ، بالاضافة الى موظفين تجاريين اسرائيليين رفيعي المستوى ، على الجنرال موشي دايان تلبية لدعوة « الاتحاد الصهيوني لجنوب افريقيا » و« مؤسسة جنوب افريقيا » ، وهي منظمة العلاقات العامة الخاصة التي خلقها رجال اعمال جنوب افريقيون لتحسين صورة بلدهم في الخارج . وفي اكتوبر ، ١٩٧٤ ، قام الجنرال حاييم هيرتزوغ ، الرئيس السابق لجهاز المخابرات الاسرائيلي ، بزيارة ايضا كضيف على حكومة جنوب افريقيا . في الماضي ، عندما كانت اسرائيل ما تزال تحتفظ بعلاقات عديدة مع دول افريقية سوداء ، كان الزائرون الاسرائيليون البارزون يجيئون الى جنوب افريقيا ، نظريا ، كضيوف على المنظمات الصهيونية المحلية ، وهي « حقيقة » حافظت بتهذيب على ابتعاد معين عن نظام التفرقة العنصرية الذي يشجبه الجميع . ويبدو ان البلدين تخليا عن هذا الوهم الدقيق والمؤدب فيما عززا صلاتهما سياسيا واقتصاديا واستراتيجيا .

من الناحية الاقتصادية نوعت اسرائيل وجنوب افريقيا ووسعتا نطاق علاقاتهما في العهد اللاحق لحرب اكتوبر . مثال ذلك ان غرفا تجارية جنوب افريقية ـ اسرائيلية اقيمت في اسرائيل وجنوب افريقيا . وقد صار التوظيف الاقتصادي المرئي للرأسمال الجنوب افريقي في اسرائيل معلوما أخيرا (اكتوبر ، ١٩٧٤) مع كشف النقاب عن فضيحة تحيط بانهيار احدى شركات الاستثمار ، وهي اسرائيل كوربوريشن (**تقارير مريب** MERIP العدد ٣٢) . وتشتمل المشروعات الجنوب افريقية الاخيرة على تمويل مجمع مكاتب وتسويق يتألف من ٢٦ طبقة في تل أبيب سيسمى « بيت جنوب افريقيا » ، ومجمع بتروكيميائي في حيفا ، ومجمع مصانع قرب تل أبيب ، والمنطقة التجارية الحرة التي يجري تشييدها في ايلات . وفي ايار (مايو) ١٩٧٤ رفع الحد الاعلى للتثمير المباشر من قبل الشركات الجنوب افريقية في اسرائيل من سبعة ملايين راند الى عشرين مليون راند . ومن الناحية الاخرى أعلنت شركة صناعات كور الاسرائيلية عن خطط لتأسيس مصنع مواد كيميائية زراعية في جنوب افريقيا بالشراكة مع شركة جنوب افريقية وبمساعدة مالية من حكومة جنوب افريقيا. ولعل أفضل مثل على المصالح الاقتصادية المتبادلة هو تصريح بنيامين فينشتاين ، الجنوب افريقي الذي اشترك في « مؤتمر المليونيريين » في حزيران (يونيو) ، بالقدس ، وقال ان الشركات الجنوب افريقية ستوظف اموالها في اسرائيل بغية صنع أقمشة قطنية مطبوعة يصار الى تصدير جزء منها الى الدول الافريقية المستقلة بغية تجنب المقاطعة الافريقية لسلع جنوب افريقيا . وقال ايضا : « ان اسرائيل هي بمثابة قاعدة مفيدة جدا للشركات الجنوب افريقية التي لا يمكن ان تورد مباشرة الى افريقيا » (**فري بالستاين** ، ديسمبر ، ١٩٧٤ ، ص ٩) . وبالاضافة الى ذلك تنظر المصالح التجارية الجنوب افريقية الى اسرائيل على انها قاعدة باب خلفي الى السوق الاوروبية ، خصوصا اذا لم يكن باستطاعة جنوب افريقيا ان تتوصل بالتفاوض الى اتفاق مباشر .

الامثلة الانفة الذكر لا بد وان تكون بالضرورة وصفا انتقائيا وجزئيا جدا للعلاقة بين جنوب افريقيا واسرائيل . كما أشار س. ل. سلزبيرغر في **النيويورك تايمز** ، فان الدولتين لاسباب كثيرة

تتعمدان التقليل من شأن علاقتهما ونطاقها (**النيويورك تايمز** ، ٣٠ نيسان — ابريل، ١٩٧١).

وهكذا ، خلافا لجميع العلاقات بين اسرائيل والدول الافريقية ، فان نمط وطبيعة العلاقات بين اسرائيل وجنوب افريقيا يشيران الى علاقة « خاصة » بين البلدين . وهي مماثلة في الجوهر للعلاقة الخاصة بين الولايات المتحدة واسرائيل ، علما بأن هذه الاخيرة هي على نطاق اوسع بكثير. وكما هي الحال مع الولايات المتحدة واسرائيل ، فان صلات وثيقة حميمة تربط الشعب بالشعب ، والمنظمة بالدولة ، والدولة بالدولة تقوم بين اسرائيل وجنوب افريقيا . ان العلاقة الخاصة بين اسرائيل والولايات المتحدة مدعمة دعما حسنا بالوثائق وقد أكدها بصورة دراماتيكية أعظم جسر جوي لنقل الاسلحة الحربية في تاريخ العالم ابان حرب اكتوبر ١٩٧٣ . وقد احيطت العلاقة الخاصة بين الولايات المتحدة واسرائيل بابحاث مستفيضة وليس من الصعب شرح قواعدها . ولكن ما هي قواعد العلاقة الخاصة بين اسرائيل وجنوب افريقيا ؟

قد يكون من السهل نسبيا انجاز وضع قائمة بالروابط العديدة بين اسرائيل وجنوب افريقيا . بيد أن تفصيل هذه العلاقات ببساطة دون محاولة فهم أساسها لا يفي بالغرض . ولهذا الامر دلالة خاصة اذ ان الحزب الوطني لجنوب افريقيا ، وهو الحزب الحاكم منذ ١٩٤٨ ، والذي كان زعماؤه رؤساء وزراء ذلك البلد ، له سجل باللاسامية وبالمشاعر الموالية للنازية (ر. ستينز، و أ. هيبل ، ١٩٦٩) . وكانت السياسات اللاسامية الوقحة للحزب الوطني التي استمرت حتى عام ١٩٤٥ يقودها خصوصا الدكتور هـ. ف. فيرفورد وزميله الحميم وسلفه الدكتور د. ف. مالان . ومع هذا فقد كانت حكومة مالان الجنوب افريقية هي التي منحت دولة اسرائيل الجديدة اعترافا «شرعيا»* (ر. ستينز، ١٩٧٣، ص ٥٤) عام ١٩٤٨ وكانت زيارة مالان لاسرائيل في حزيران (يونيو) ، ١٩٥٣ « المناسبة الوحيدة [اي الاولى] التي قام فيها رئيس حكومة اوروبية [كذا] بزيارة اسرائيل وهو ما يزال في منصبه » (ب. ليتفينوف ، استشهد به الدكتور جورج طعمه ، ١٩٧٣ ، ص ٢٠ — ٢١) . هذا التغيير الكامل والمفاجيء في مواقف الزعماء الجنوب افريقيين لا يمكن ادراكه كذلك الا عن طريق فهم الاصول التاريخية والبنية الراهنة للبلدين .

وهكذا ، لكي نجيب عن السؤال المتصل بأسس العلاقة الخاصة بين اسرائيل وجنوب افريقيا ، علينا ان نستقصي الوجوه التاريخية والبنيوية والايديولوجية في اطار الترابطات المباشرة وغير المباشرة . والفرضية العامة لهذه الدراسة هي ان طبيعة العلاقة بين البلدين هي نتيجة الاصول والادوار والاختبارات المماثلة التي ادت الى بنى اجتماعية معاصرة مماثلة والى علاقة مفيدة للبلدين موضوعة في نطاق الامبريالية المعاصرة .

الخلفية التاريخية

ان اصول الدولتين متشابكة في التاريخ الامبريالي البريطاني للقسم الاول من القرن العشرين . كانت هذه هي فترة التوسع الامبريالي الاوروبي والاستيطان الاستعماري . وكانت بريطانيا مهتمة بنوع خاص في تأمين طريقي الوصول الرئيسيين الى الاقطار الخاضعة لسلطانها الامبريالي في شبه القارة الهندية والى الصين . غير ان سلامة هذين الطريقين كانت مستحيلة دون السيطرة على المنطقتين الاستراتيجيتين : رأس الرجاء الصالح في جنوب افريقيا وقناة السويس والطرق الاخرى في الشرق العربي . وحتى قبل افتتاح قناة السويس كانت المصالح الاستراتيجية البريطانية في المنطقة بالغة الاهمية . فكما لاحظ الحاكم السابق لجنوب استراليا ، الكولونيل ج. غولر عام ١٨٥٣ : « لقد وضعت العناية الالهية سوريا ومصر في عين الفجوة بين انكلترا واهم مناطق تجارتها الاستعمارية والاجنبية — الهند ، الصين ، الارخبيل الهندي واستراليا ... وهي بحاجة ملحة جدا لاقصر خطوط المواصلات واكثرها سلامة الى الاقطار التي تملكها الان ... ان دولة اجنبية معادية وقوية في اي منهما ، لن تلبث ان تهدد بالخطر التجارة والمواصلات البريطانية من طريق الاخرى » (استشهد به جورج جبور ، ١٩٧٠) .

كذلك في ١٨٥٣ كتب الكولونيل س. هـ.

---

* كانت حكومة سمطس قبل ذلك قد اعترفت بدولة اسرائيل الجديدة اعتراف الامر الواقع .

تشيرتشل ، وهو ضابط اركان الحملة البريطانية الى سوريا ضد محمد علي المصري يقول : « ... لا بد ان يكون جليا لكل عقل انكليزي ، لاسباب واضحة ، انه اذا اريد دعم سيادة انكلترا على الشرق ، فيجب جعل سوريا ومصر تخضعان لها الى حد ما ، او لنفوذها ... وانه عندما لا تعود فلسطين تركية ، يجب اما ان تصير بريطانية او ان تؤلف جزءا من دولة مستقلة جديدة ... تكون قادرة على تعزيز الهدف العظيم الذي ستوجد من اجله ... وهو خلق وانماء ودعم علاقات تجارية في الشرق » (هـ. س. تشيرتشل ، استشهد به جبور ، ١٩٧٠ ، ص ٢٢ — ٢٣) .

كان الاستعمار الاستيطاني قد سبق ان برز كآلية اوروبية لفتح البلدان الافريقية والاسيوية للتسلل الاقتصادي والسياسي . وابتدأ الاستيطان الاوروبي في جنوب افريقيا منذ عام ١٦٥٢ عندما اسست شركة الهند الشرقية الهولندية محطة بحرية في رأس الرجاء الصالح . وسرعان ما اتسعت هذه المحطة البحرية متحولة الى مستعمرة من المزارعين الذين اغتصبوا الاراضي الاهلية ودفعوا الى الوراء او ابادوا افراد شعبي البوشمان والهوتنتوت الاهليين . ومع انحطاط هولندا وصعود بريطانيا ، احتلت انكلترا المنطقة في اوائل القرن التاسع عشر . واستمر التوسع الاستيطاني معظم القرن التاسع عشر الى ان عززت الحرب بين الانكليز والبوير السيطرة البريطانية عام ١٩١٠ . واثناء ذلك تم استعمار الافريقيين المحليين ، الذين يسمون الان البانتو ، واغتصاب اراضيهم .

وفي المشرق العربي برزت الدعوات الى الاستيطان الاوروبي في القرن التاسع عشر . فالدكتور طوماس كلارك كتب عام ١٨٦١ ملاحظا : « اذا كانت انكلترا ... تعتمد على تجارتها بوصفها حجر الزاوية لعظمتها ، واذا كان احد اقرب وافضل الطرق لتلك التجارة هو عبر محور القارات العظيمة الثلاث ، واذا كان اليهود في الاساس شعبا ... تجاريا ، فاي شيء طبيعي اكثر من ان يصار الى زرعهم على طول الطريق الرئيسية العظيمة للتجارة القديمة » . (الدكتور كلارك ، استشهد به جورج جبور ، ص ٢٣) .

وكتب مسؤولون بريطانيون امثال اللورد شافتسبري في ١٨٧٦ ، يضيفون التصديق على الحجة : « ستصير سوريا وفلسطين قبل مضي وقت طويل في غاية الاهمية ... فالبلد يريد الرأسمال والسكان . وبامكان اليهود ان يعطوه كلا الامرين . أوليس لانكلترا مصلحة خاصة في تشجيع هذه الاعادة الى الوضع السابق ؟ ... فان امبراطوريتها الممتدة من كندا في الغرب الى كالكوتا واستراليا في الشرق الجنوبي ستقطع الى نصفين ... عليها ان تحتفظ بسوريا لنفسها ... وان تعزز الصفة القومية لليهود وتساعدهم ... ليعودوا كقوة تخمير الى بلدهم القديم ؟... فالى انكلترا اذا ، وبطبيعة الحال ، يعود دور تأييد استيطان اليهود في فلسطين » (استشهد به جورج جبور ، ص ٢٣) .

غير انه لم يبرز برنامج عملي لاستيطان فلسطين الا عند صعود الصهيونية ، وهي حركة سياسية بورجوازية ليهود اوروبا . وكانت الصهيونية غارقة كليا في الايديولوجيا الاستعمارية لذلك الزمن . وقد ضرب الفلاسفة والساسة اليهود الصهاينة على نفس الوتر . وكتب موسس هيس ، احد اوائل المفكرين الصهيونيين ، يقول : « بعد انجاز العمل على قناة السويس ، فان مما لا ريب فيه ان مصالح التجارة العالمية ستتطلب تأسيس مستودعات ومستوطنات على طول الطريق الى الهند والصين ، مستوطنات من شأنها ان تحول الاحوال المهملة والفوضوية للبلدان الواقعة على طول هذه الطريق الى دول شرعية ومهذبة . ولا يمكن ان يحدث هذا الا تحت الحماية العسكرية للدول الاوروبية » . وقال هس مخاطبا اليهود : « ان دعوة عظيمة محفوظة لكم : ان تكونوا طريق مواصلات حية الى الشعوب البدائية لاسيا ... يجب ان تكونوا الوسطاء بين اوروبا واسيا القصوى ، وتفتحوا الطرق المغضية الى الهند والصين — تلك المناطق التي لا بد من فتحهما للمدنية في النهاية » (م. هيس ، استشهد به س. هالبروك ، ١٩٧٤ ، ص ٢٢) .

وهيرتزل ، مؤسس الحركة الصهيونية التي كان هدفها استعمار فلسطين ، لاحظ كذلك ان مستعمرة يهودية « سيكون لها فائدة اخرى [للدول الاوروبية] في الزيادة الهائلة لتجارة صادراتها ؟

فيما ان اليهود المهاجرين (هناك) سيكونون لفترة طويلة مقبلة معتمدين على المنتجات الاوروبية ، فانهم بالضرورة سيستوردونها »* (استشهد به في س. هالبروك ، ١٩٧٤ ، ص ٢٣) .

وباختصار فان « الاستعمار اليهودي لفلسطين سيقدم للامبراطوريات الاوروبية مخفرا اماميا مخلصا لحراسة الطرق الى الشرق ... لكبت القومية العربية ... ويزود اوروبا بالمواد الخام والاسواق » (س. هالبروك ، ١٩٧٤ ، ص ٢٢).

وبعدما تحول هيرتزل من بلد اوروبي باني للامبراطوريات الى بلد اخر طالبا المساعدة والدعم في محاولة استعمار فلسطين ، وقع اختياره اخيرا على بريطانيا التي كانت اكثر استجابة . وفي البداية استجدى مساعدة واهتمام سيسيل رودس رئيس وزراء مستعمرة الكاب في العقد العاشر من القرن التاسع عشر والمغامر الافريقي الذي ساعد في استعمار بريطانيا لروديسيا وجنوب افريقيا . فرفض رودس . غير ان الامر ترك لخليفة هيرتزل في قيادة الحركة الصهيونية العالمية ، حاييم وايزمان ، ليوجد الالتزام الامبريالي البريطاني بالبرنامج الصهيوني ، الذي توسط له ودعمه بقوة الجنرال ج. س. سمطس ، عضو الحكومة الامبريالية البريطانية ورئيس وزراء جنوب افريقيا. ويلاحظ ر. ستيفنز : بين القرارات المختلفة للعالم الغربي التي اثرت في حيوات ومصير شعوب ما يسمى بالعالم الثالث ، ما من قرار كشف بمزيد من الوضوح عن عين جوهر الاستغراق الغربي** او اظهر بصورة حاسمة اكثر ، طاقة العالم الغربي على تحويل دفع قوته الاساسية وجعلها شرعية تحت ستار القانون الدولي والاخلاقية ، اكثر من قرارين تم التوصل اليهما في لندن عام ١٩٠٩ وعام ١٩١٧ ، الاول يسمى قانون الاتحاد لجنوب افريقيا والثاني اعلان بلفور ... فلسطين وجنوب افريقيا — بلدان يبعد احدهما عن الاخر مسافة نحو ٢٥،٠٠٠ ميل لكن كلا منهما موضع اهتمام نفس السلطة ، وضحي بكل منهما باسم الشعوب الغربية والمصالح الامبريالية البريطانية وقد رتب تفاصيل التضحية نفس رجال الدولة ... في التحليل الاخير ربما كان يمكن تعقب قرار بريطانيا التضحية بحقوق الشعوب المحلية في جنوب افريقيا وفلسطين الى الاعتبارات الامبريالية . فالذي سيطر على تفكير الحكومة البريطانية عام ١٩٠٩ كان ان قناة السويس يمكن ان تغلق في وجه السفن البريطانية في زمن الحرب، وفي تلك الحال سيستعيد طريق رأس الرجاء الصالح اهميته التجارية والاستراتيجية السابقة ، وستكون جنوب افريقيا ودية شيئا ثمينا وحيويا . وفي اعقاب تفكك الامبراطورية العثمانية اعتبرت السيطرة البريطانية على فلسطين ، بمستوطنيها الصهاينة ، افضل ضمانة على ان طريق السويس لن تحرم بريطانيا العظمى منها ابدا في الواقع ... وكان سمطس من المؤيدين الاشداء للسيطرة البريطانية والاستيطان الصهيوني في فلسطين ، وكانت صداقته مع حاييم وايزمان ستكون اهم صداقة في حياته . وبالفعل كان بسبب سمطس بقدر ما كان بسبب اي شخص ان نظام الانتداب نفسه برز وليس امرا عديم الاهمية ان سمطس لعب دورا بارزا في تحويل ملكية كل فلسطين وجنوب افريقيا من شعب الى شعب بموجب ذلك النظام (ر. ستيفنز ، ١٩٧١).

لم يكن سمطس ووايزمان حليفين سياسيين في اطار التوسع الامبريالي البريطاني فحسب ولكنهما صارا صديقين حميمين ايضا . فقد اصبح سمطس اول رئيس وزراء لاتحاد جنوب افريقيا في حين اصبح وايزمان اول رئيس دولة لاسرائيل . وثمة اسباب كثيرة للصداقة التي ربطت سمطس ووايزمان ولتبني سمطس للصهيونية . « ليس اقل هذه الاسباب اعتراف وايزمان الصريح بان الصهيونية مرتبطة ارتباطا طبيعيا وعضويا بالمصالح الامبريالية البريطانية » (ر. ستيفنز ، ١٩٧٣ ، ص ٣٦) . ويكتب مؤرخ اعلان بلفور ، لينارد شتاين : « لدى عرض الصهاينة قضيتهم على البريطانيين ، لن يقتربوا منهم كمتوسلين ، ولا حتى

---

* جادل هيرتزل بأن الصهيونية ستساعد في حل بعض مشكلات الرأسمال — اليد العاملة لاوروبا : « لموازنة هذه الحالة ، تستطيع حركتي المساعدة على جبهتين : عن طريق تعريف البروليتاريا اليهودية الفائضة ، وعن طريق استخدام الرأسمال الدولي » (ث. هيرتزل ، استشهد به س. هالبروك ، ١٩٧٤ ، ص ٢٥) .

** Western Ethnocentrism

كمتوسلين لشيء يبدو انسجامه واضحا مع المصالح البريطانية . وكما كتب [اي وايزمان] لاسرائيل زانغويل في العاشر من تشرين الاول (اكتوبر) ، ١٩١٤ ، فقد اعتقد انه من البديهي ان انكلترا تحتاج الى فلسطين من اجل حماية طرق الوصول الى مصر ، وانه اذا ما فتحت فلسطين امام الاستيطان اليهودي فانه سيكون لانكلترا حاجز فعال ، وسيكون لنا نحن بلد » (ل. شتاين ، ص ١٤ — ١٥) .

احد الاسباب الاخرى التي جعلت الصهيونية تروق لسمطس كان ايديولوجيا ، فهي تسوغ استعمارها ، جزئيا ، بنفس الطريقة التي سوغ بها الاوروبيون توسعهم « التمديني » (انظر ح. وايزمان ، ١٩٢٩ — ١٩٣٠ ، استشهد به ر. ستيفنز ، ١٩٧٣ ، ص ٣٧) . وعلى الصعيد المحلي اعتبر سمطس اليهود الجنوب افريقيين جزءا مهما من الوحدة البيضاء في الدفاع عن « المدنية » الجنوب افريقية ، اي البيضاء .

كان الامر ذا الدلالة في نمو الصهيونية ونجاحها هو دور سمطس في صياغة اعلان بلفور والدفاع عنه . ويقول ل. شتاين ان سمطس « يجب ان يعتبر بين مهندسي الاعلان » (ل. شتاين ، ص ٤٨٢) . فقد كان عضو الحكومة الحربية التي اصدرت الاعلان الشهير . وقد لاحظ الجنرال سمطس نفسه اسهامه المهم في صياغة اعلان بلفور بعدما ساعد في وضع قانون اتحاد جنوب افريقيا . بيد ان اهم اسهاماته في قضية الصهيونية كانت في ممارسة نفوذه في الدفاع الشديد عن فكرة وطن قومي ودولة يهوديين في فلسطين . ويفصل ر. ستيفنز هذا النشاط السياسي والدبلوماسي في الخلفية والعلاقة غير الاعتيادية مع وايزمان من عام ١٩١٧ وحتى فترة مداولات الامم المتحدة ، وقرار تقسيم فلسطين ، وتأسيس دولة اسرائيل في ١٩٤٨ . ويبدو ان سمطس ظل احد اشد انصار البرنامج الصهيوني طوال الفترة التي تخللت الحربين العالميتين عندما تمكنت المقاومة الشعبية العربية الفلسطينية من حمل الانتداب البريطاني على نقض وتعديل موقتين للسياسات البريطانية المؤيدة للصهيونية (ر. ستيفنز ، ١٩٧٣) . وبناء على تعليمات سمطس ، لعب الوفد الجنوب افريقي في الامم المتحدة دورا حاسما في نجاح خطة التقسيم التي ادت الى تأسيس دولة اسرائيل .

قبل موت سمطس احتفل الصهيونيون الجنوب افريقيون ومسؤولو الدولة الاسرائيلية واثنوا بحماسة على اسهامه الشخصي واسهام حكومة جنوب افريقيا . وفي مادبة اقيمت اعرابا عن التقدير والاعتراف بالجميل ، اعلن سمطس قائلا: « ما من بلد بالنسبة لسكانه بذل ، ماديا ، من اجل الوطن القومي [الصهيوني] اكثر مما بذلت جنوب افريقيا وفقا لامكاناتها » . وقال انه يشعر بسرور خاص عندما يفكر ان اخر عمل قام به كرئيس لوزراء الاتحاد كان الاعتراف بدولة اسرائيل . « وقد وضع ذلك اسرائيل على الخريطة ، ولكنه وضع جنوب افريقيا ايضا على الخريطة » (استشهادات من جويش كرونيكل الجنوب افريقية ، اوردها ر. ستيفنز ، ١٩٧٣ ، ص ٥٦) .

اسرائيل وافريقيا : تعاون وتناقض

ان احد اسباب رغبة جنوب افريقيا وخصوصا رغبة اسرائيل في التقليل من شأن علاقتهما ، كما لاحظ سالزبرغر ، كان مرتبطا بالحقائق الجديدة للقارة الافريقية . ففي اواخر الخمسينات ، ولدت عشرات من الدول الافريقية المستقلة الجديدة . كانت هذه الدول امم العهد اللاحق للاستعمار البالغة الوعي والحساسية والريبة ازاء الدول الاوروبية وانظمة الاقلية البيضاء العنصرية . وكانت تنتقد وتعادي بنوع خاص نظام التفرقة العنصرية لجنوب افريقيا . والى ذلك ، كانت دول افريقية تنضم الى منظمة الامم المتحدة وترجح الميزان في الجمعية العامة لتلك المنظمة لمصلحة العالم الثالث ، وبخاصة الدول الافرو — اسيوية . ومنذ الصد الافرو — اسيوي لاسرائيل في مؤتمر باندونغ عام ١٩٥٥ ، شنت اسرائيل جهدا سياسيا — دبلوماسيا عاقد العزم لاقامة صلات متعددة الوجوه مع الدول الافريقية المستقلة حديثا . وفي فترة قصيرة صارت هذه الصلات متوترة بسبب رفض اسرائيل الاشتراك بصدق واخلاص في نضال افريقيا السوداء ضد نظام التفرقة العنصرية في جنوب افريقيا . وحاولت اسرائيل القيام بعملية توازن خطرة موجهة نحو المحافظة على علاقتها الخاصة بجنوب افريقيا وعلاقات متعددة الوجوه مثمرة مع دول افريقيا السوداء . وتعذر الدفاع

عن هذا السبيل بصورة متزايدة لا سيما في اطار منظمة الوحدة الافريقية وبنوع خاص بعدمااتضحت سياسات اسرائيل المؤيدة للامبريالية والمناوئة للثورات . كانت هذه الوجوه بين العوامل الخلفية المسهمة في القطع الجماعي للصلات الرسمية بين الدول الافريقية واسرائيل وتعزيز الروابط الاسرائيلية — الجنوب افريقية ابان حرب اكتوبر، ١٩٧٣ ، وبعدها . فلننظر في هذه التطورات بمزيد من التفصيل .

الامتداد الاسرائيلي في افريقيا : ان اسباب الجهد الاسرائيلي لاقامة علائق مع افريقيا الواقعة جنوب الصحراء الكبرى ، وهي الاسباب التي حللها كل من المتعاطفين مع اسرائيل ونقادها ، تشتمل على اعتبارات دبلوماسية واستراتيجية واقتصادية . فهؤلاء المحللون يقولون ان اسرائيل حاولت ان تخرج من العزلة الاستراتيجية والتطويق اللذين فرضهما عليها العالم العربي المعادي ، وان تنمي اسواقا لسلعها وخدماتها بغية خفض او تحطيم المقاطعة الاقتصادية العربية ، وان تجند التأييد الدبلوماسي الافريقي ، وان تجمع الاصوات الى جانبها في الامم المتحدة المتغيرة بسرعة (انظر ل. لوفر ، ١٩٦٧ ، وعواطف عبد الرحمن ، ١٩٧٤) .

نددت مقررات مؤتمر باندونغ باسرائيل واكدت حقوق الشعب الفلسطيني . فاثار ذلك القلق الاسرائيلي في حالة دولية متغيرة . واعتبر راسمو السياسة الاسرائيلية ان امن الدولة بات في خطر. وهنا يجب ان تكفي الاشارة الى تصريح غولدا مئير ، وزيرة الخارجية آنذاك ، في الكنيست لدى عودتها من رحلة الى افريقيا عام ١٩٥٨ : لا نستطيع ان نقصر صداقتنا على اوروبا واميركا خصوصا وان ثلثي اعضاء الامم المتحدة هي بلدان نامية . ولذا من الطبيعي ان تسعى اسرائيل الى كسب تأييد بقية العالم ، ان هدف علاقاتنا بالدول الجديدة هو تثبيت وتعزيز مركزنا في العالم الجديد (كتبت عن هذا التصريح **الجيروساليم بوست** ، ١ نيسان — ابريل ، ١٩٥٨) . وكذلك الامر ، قال ديفيد بن غوريون عام ١٩٦٠ في خطاب بالكنيست ان الدول الافريقية ليست قوية ولكن اصواتها في المنظمات الدولية مساوية في قيمتها لاصوات الدول الكبيرة . وان هدف الصداقة الاسرائيلية — الافريقية هو في اسوأ الاحوال تحييد افريقيا عن النزاع العربي — الاسرائيلي ، وفي أفضل الاحوال تأمين الدعم الافريقي للموقف الاسرائيلي (**الايكونوميست** ، ٢٧ آب — اغسطس، ١٩٦٠) . والى ذلك فان **الحولية الاسرائيلية** (The Israel Yearbook) (١٩٦٠/١٩٦٥ ، ص ٣٩) ، استشهدت بقول بن غوريون ان الامن الوطني هو النقطة المركزية التي ترتكز حولها السياسة الخارجية الاسرائيلية . واحد وجوه هذه السياسة هو اقامة علاقات ودية مع جميع الدول وخصوصا في اسيا وافريقيا .

قدمت اسرائيل نفسها لافريقيا بوصفها بلدا صغيرا لا ينتمي الى الغرب الرأسمالي ولا الى الشرق الشيوعي ، وبوصفها معتمدة على نفسها، مما يجعلها نموذجا للتطور والتقدم السريعين ، وكمثال على الديموقراطية والاشتراكية الحقيقيتين (ل. لوفر ، و أ. ريفكين ، ١٩٦١) . وكانت تعزز هذا الادعاء الايديولوجي حساسية البلدان الافريقية المستقلة حديثا ازاء مستعمريها الاوروبيين السابقين . وهكذا تحولت هذه البلدان بسهولة اكبر نحو اسرائيل من اجل الرأسمال والطاقة البشرية الماهرة والمعونة الفنية. وفي بعض الحالات سهلت مركز اسرائيل الاتفاقيات القنصلية والتجارية القائمة والموروثة من العهد الاستعماري (اسعد عبد الرحمن ، ص ٣٥) . وكان هذا التطور من السرعة بحيث انه صار لاسرائيل ، بحلول ١٩٦٣ ، عدد من البعثات الدبلوماسية في افريقيا يفوق عدد البعثات الدبلوماسية لجميع البلدان الاخرى باستثناء بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة .

بين عام ١٩٦٠ واوائل السبعينات ، اقامت اسرائيل علاقات قوية وواسعة النطاق مع افريقيا الواقعة جنوب الصحراء الكبرى . والجدولان الاحصائيان ١ و ٢ في الملحق ادناه يلخصان طبيعة هذه العلاقات ونطاقها. ولن ننظر هنا الا في الوجوه البارزة . فالعلاقات التجارية بين اسرائيل والقارة الافريقية ارتفعت من لا شيء تقريبا في اواخر الخمسينات الى ٧٢ مليون دولار في ١٩٧١ . وارتفعت الصادرات الاسرائيلية من ١٠،٢٥ ملايين دولار في ١٩٦٠ الى ٤٧،٢٥ مليون دولار في ١٩٧١. الا ان الواردات الاسرائيلية من افريقيا لم ترتفع

الا بصورة معتدلة في الفترة نفسها ، من ١٨ مليون دولار الى ٢٥٤٥ مليون دولار . ولا بد من الملاحظة ان جنوب افريقيا لها اكبر حصة من هذه التجارة : ٨ر٠٨٠ر٠٠٠ دولار من الواردات الاسرائيلية من افريقيا من اصل مجموع ٢٥ر٢١١ر٠٠٠ دولار ، او ٣٢ر١٪ ، و ٩ر٣٩٨ر٠٠٠ دولار في الصادرات من مجموع ٤٧ر٤٢١ر٠٠٠ دولار الى افريقيا ، او ١٩ر٨٪ . وتنبغي الاشارة ايضا الى ان اقوى العلاقات التجارية بين اسرائيل وافريقيا مالت الى ان تكون مع دول جنوب الصحراء الكبرى الاوثق ارتباطا وتحالفا مع المصالح الرأسمالية الغربية : جنوب افريقيا ، ليبيريا ، اثيوبيا ، جمهورية افريقيا الوسطى ، كينيا واوغندا . هذه الارقام التجارية لا تعكس الى حد كاف نطاق المصالح الاقتصادية الاسرائيلية في افريقيا . فمن الامور المهمة ايضا : نشاطات الشركات الصناعية والهندسية والاستشارية الاسرائيلية التي يبلغ مجموع عقودها مئات الملايين من الدولارات . مثال ذلك أن سوليل بونيه ، شركة البناء شبه العامة، كان لها في ١٩٧٠ عقود افريقية بقيمة ٤٤ مليون دولار . وفيريد ، شركة انماء موارد المياه ، كان لها عقود بقيمة نحو ١٠٠ مليون دولار بحلول ١٩٧٠ وكانت تستخدم نحو ١٠ الاف افريقي في نيجيريا والنيجر وسيراليون وكينيا . وتشتمل الشركات الاخرى التي لها مصالح واستثمارات في افريقيا على مشروعات كيميائية ، وللانماء الزراعي ، وللتصميم الصناعي وللاسبستوس — الاسمنت (المصادر هي نشرات الحكومة الاسرائيلية وغيرها من المعلومات المجموعة في مركز الابحاث الفلسطينية ، في بيروت ، لبنان) .

ربما كانت اكثر الجهود الاسرائيلية نجاحا هي الاشتراك في شركات ومشروعات افريقية — اسرائيلية مشتركة . فبالاضافة الى الارباح ، كانت هذه المشروعات تستخدم ٥٠٠ خبير اسرائيلي على متوسط سنوي . وبين عام ١٩٥٧ وعام ١٩٦٣ كانت اسرائيل قد دخلت في شراكة مع ٤٢ شركة افريقية بقيمة ٢٠٠ مليون دولار . وبحلول ١٩٦٦ كانت اسرائيل قد صارت مشتركة في نحو ٢٠٠ شركة بقيمة ٥٠٠ مليون دولار (س. ديكالو ، استشهدت به عواطف عبد الرحمن ، ص ٧١) . وكانت اكثر هذه الشركات تعقيدا هي مشروعات سوليل بونيه . انظر الجدول رقم ٣ من اجل التفاصيل . بيد ان احد الامثلة الشهيرة عن مثل هذه المشروعات المشتركة هو شركة سفن النجمة السوداء الغانية . فقد كانت شركة سفن اسرائيل ، تسيم تملك ٤٠ ٪ من شركة النجمة السوداء ، والحكومة الغانية تملك ٦٠٪ . وكانت اسرائيل قدمت المعرفة الفنية ايضا . وكان هذا نمط نموذجي للطريقة التي صنعت بها اسرائيل ، التي يقل فيها الرأسمال ، الكثير من الاستثمارات الافريقية المربحة وسيطرت عليها .

في ١٩٦٠ ، لم تكن اسرائيل قد وقعت غير اتفاقية معونة فنية واحدة في افريقيا ، ولكن العدد ، بحلول ١٩٧١ ، كان قد ارتفع الى ٢٤ (انظر الجدول رقم ٤) . بيد ان اهم ما في العلاقات مع الدول الافريقية هو ان برامج المعونة الفنية الاسرائيلية لافريقيا هي انواع ثلاثة : تدريب الافريقيين في اسرائيل ، خبراء اسرائيليون يعملون في افريقيا ، ومؤسسات تدريب فني في افريقيا . وبين عام ١٩٥٨ وعام ١٩٦٩ تم تدريب ٦٢٧٢ افريقيا في اسرائيل . وكان هذا نحو نصف مجموع عدد الاشخاص الذين دربوا في اسرائيل خلال الفترة ذاتها . ويظهر الجدول رقم ٥ حقول التدريب المختلفة للافريقيين في اسرائيل لعام ١٩٦٩. وتجب الملاحظة ان الحقل الذي يضم اكبر عدد من المتدربين كان قيادة النقابات والتعاونيات . كذلك ارسلت اسرائيل ، بين عام ١٩٥٨ وعام ١٩٧٠ ، نحو ثلثي خبراء معونتها الفنية الاجنبية — ٢٤٨٣ من اصل ٣٩٤٨ — الى افريقيا . ويشير الجدول رقم ٦ الى ان الحقل الذي عمل فيه اكبر عدد من الخبراء الاسرائيليين كان منظمات الشبيبة يليه الزراعة . وكان هذا يعود جزئيا الى المؤسسات التعاونية والاستيطانية التي حاولت اسرائيل تصديرها بتشجيع ودعم غربيين . وكانت هذه مؤسسات شبه عسكرية تتبع نموذج الجادناع، كتائب الشبيبة ، والناحال ، منظمات الشبيبة العسكرية، لاسرائيل . وفي اسرائيل نفسها اوجدت مؤسسات عدة لتيسير مثل هذه المعونة . وابرز هذه المؤسسات واهمها المعهد الافرو — اسيوي للدراسات العمالية والتعاون في تل ابيب. واخيرا، زودت اسرائيل الجيوش والحكومات الافريقية بخبراء ومستشارين عسكريين ، كما دربت الضباط

العسكريين ورجال الشرطة الافريقيين على ترابها هي . وهذه هي الناحية التي نجد اكبر صعوبة في العثور على معلومات عنها . غير ان احد باحثي الجيش الاميركي «لمركز ابحاث الانظمة الاجتماعية»، المسمى اختصارا «كريس»، وهو الدكتور سيلفربرغ كتب اطروحة لدرجة استاذ علوم في الجامعة الاميركية بواشنطن ، العاصمة ، محللا «المساعدة العسكرية وشبه العسكرية الاسرائيلية لافريقيا الواقعة جنوبي الصحراء الكبرى : رائدة لدور العسكريين في الدول النامية » . وتشير المعلومات التي يقدمها الى ان هذا الجهد شمل خمسة عشر بلدا افريقيا . فقد اسست اسرائيل وادارت كليات طيران وبحرية وشرطة في غانا ، وقد قدم الكثيرون من الضباط الاسرائيليين في هيئات تدريس الكليات العسكرية والبوليسية لاثيوبيا . ومنذ ١٩٦٦ ، وحتى ١٩٧٣ ، كانت اسرائيل تتولى المسؤولية الكاملة للتدريب العسكري في اوغندا . وتلقى الرئيس الاوغندي عيدي أمين والرئيس الزائيري الجنرال موبوتو التدريب في اسرائيل . وفي ١٩٦٥ اعلنت وزارة دفاع سيراليون ان اسرائيل وافقت على تقديم خبراء لتدريب جيشها (مواطف عبد الرحمن ، ص ٧٧) .

والامر الاكثر خطورة هو ان المستشارين العسكريين الاسرائيليين كانوا ناشطين في تشاد واثيوبيا في عمليات مقاومة الثوار ضد حركة التحرير الوطني التشادية . (افريكاسيا ، ٢٠ تموز (يوليو) ١٩٧٠) وضد جبهة التحرير الارترية في اثيوبيا . وكتبت **الواشنطن ستار** الصادرة في العاصمة الاميركية في السادس عشر من ايار ، ١٩٧١ : « جانب المعونة العسكرية الاميركية ، يتلقى هيلاسيلاسي كذلك كميات كبيرة من المعونة من الاسرائيليين . والاسرائيليون ، رسميا ، لا يدربون الا شرطة المقاوير الارترية ، وهي قوة متحركة ، لكن النفوذ الاسرائيلي ملموس صعدا على طول سلسلة القيادة الاثيوبية . وفي أعقاب موت الجنرال تيشومي ارغيتو في كمين في تشرين الثاني (نوفمبر) الماضي ، وضع معظم هذا الاقليم تحت القانون العرفي ، ويقول الدبلوماسيون ان المستشارين الاسرائيليين حثوا الفرقة الثانية الاثيوبية على الثأر لموت ارغيتو بسلسلة من الاجتياحات التي قام بها المشاة في جميع أنحاء البلاد حيث احرقت عشرات القرى احراقا تاما وقتل مئات ، وربما الوف » (استشهد بها في (**ساوث افريكا اند اسرائيل** ، ١٩٧١ ، ص ٣٧) .

لقد احتفظت اسرائيل في افريقيا بشبكة عمليات مخابرات واسعة النطاق ، وافضل جهد اسرائيلي معروف يتركز في اسمرا ، بارتريا . وتلاحظ جماعة الابحاث الافريقية Africa Research Group ان العمليات السرية الاسرائيلية « مرتبطة بعمليات اكبر لوكالة الاستخبارات المركزية والمخابرات الغربية » (ARG, «David and Goliath Collaborate in Africa», 1969, p. 14).
وتلاحظ ايضا ان اسرائيل متورطة في « عالم المؤامرات السري والمناورات السياسية الخفية » (**المصدر نفسه** ، ص ١٤) .

خلال الستينات، باعت اسرائيل اعتدة عسكرية، وخصوصا رشيشات عوزي ، للكثير من البلدان الافريقية ، وبنوع خاص البلدان الوثيقة الارتباط بالمصالح الغربية . وتوكد الاعتدة الاسرائيلية والتدريب الاسرائيلي على قوات النخبة والقوات الضاربة التي هي فعالة ضد الفدائيين و« المتمردين » ، اي القوى الثورية . وفي هذا المجال كانت اسرائيل تلعب دورا مكملا للبرامج المضادة للثورات الاوسع بكثير التي طورتها الولايات المتحدة (انظر م. كلاير ، **حرب بلا نهاية** ، ١٩٧١) . وكان هذا مفيدا بنوع خاص في قارة حاولت فيها الولايات المتحدة المحافظة على « بروفيل منخفض » . وكانت كل من جنوب افريقيا والولايات المتحدة (فضلا عن الدول الاوروبية الاستعمارية . سابقا الاخرى) لا تقبل بجهود اسرائيل في افريقيا فحسب بل تدعمها بنشاط أيضا . فقد اعتبرت ان مثل هذه الجهود تسهم في الصراع ضد حركات التحرير الوطني الافريقي والحركات الثورية (« الشيوعية الاممية ») التي تهدد بالخطر مصالحها المنفصلة والمتحدة لبعضها البعض (انظر س. سميث ، ١٩٧٤ و. ل. لوغر) .

داود وجليات يتعاونان في افريقيا. هذا هو عنوان مقالة تنقل على أفضل نحو جهود اسرائيل والولايات المتحدة لمناهضة الثورات والشيوعية في افريقيا. وتوجد جهود مماثلة بوسائل مختلفة بين الولايات

المتحدة وجنوب افريقيا (رغم بعض النقد الامريكي الرسمي للتفرقة العنصرية) في كل من جنوب افريقيا والدول السوداء المعتمدة عليها في الجزء الجنوبي من القارة (انظر هـ. س. روجرز ، ١٩٧٢) . هذان النموذجان المتوازيان للتعاون المرتبط بالولايات المتحدة هما في الواقع جزءان من مركب ثلاثي يربط اسرائيل وجنوب افريقيا بصورة غير مباشرة . ويحتل هذان البلدان الاخيران مركزين مماثلين ويلعبان دورين مماثلين في اطار الرأسمالية الدولية ، وبنوع خاص من الامبريالية الامريكية ، في افريقيا .

وكان كلاهما ناشطا في الحقل العسكري وحقل المخابرات ضد الثوريين الافريقيين في مناطقهما الافريقية الخاصة . فقد تدخلت جنوب افريقيا بطرق متنوعة ، بما في ذلك الاعمال العسكرية في روديسيا . والى ذلك لعبت اسرائيل دورا بارزا في الجهود الايديولوجية والمتصلة بالتنظيم المضاد للثورات في افريقيا . وفي ١٩٥٩ كتب ارنولد ريفكين وهو كان أحد باحثي هيئة الخبراء الامريكيين، وقبل موته ، رئيس « مشروع افريقيا » في معهد ماساشوستس التكنولوجي ، ان الشكل الاسرائيلي المعتدل للنمو الاشتراكي يمكن ان يكون بمثابة مثال مهم للامم المتحدة النامية الثائرة ضد الغرب : « قد يثبت النموذج الاسرائيلي انه « قوة ثالثة » اقتصادية من نوع ما — بديل يختلف عن النمط الغربي ، ولكنه يقينا اكثر انسجاما مع مصالح العالم الحر من أي نموذج شيوعي » (ورد ذكره في « داود وجليات » ، ص ٢) .

ويلاحظ الى ذلك : « ان دور اسرائيل كقوة ثالثة قد يعززه ايضا الاستخدام الواسع الخيال لاسلوب البلد الثالث . فان دولة من دول العالم الحر ترغب في توسيع تدفق مساعدتها لافريقيا قد تحول بعضها عن طريق اسرائيل نظرا لمؤهلات اسرائيل الخاصة ومقبوليتها بالنسبة لامم افريقية كثيرة » . (أ. ريفكين ، ١٩٦١ ، ص ٨٩ ، مذكور أيضا في ARG ص ٢) .

ولم تعكس مقترحات ريفكين السياسة النامية فحسب ولكنها شجعتها أكثر . فقد كانت برامج العمل السري الامريكية تحول الاموال والمعرفة الفنية الى « القوى الثالثة » منذ اندلاع الحرب الباردة . وفي افريقيا ، مولت الولايات المتحدة والى حد أقل البلدان الرأسمالية الاوروبية ، الكثير من النشاط الاسرائيلي : لقد ساعدت فرنسا مشاريع الشبيبة في ساحل العاج ، ويقال ان بريطانيا العظمى والمانيا الغربية قدمتا المعونة لمشاريع في اماكن اخرى من افريقيا » . (ل. لوفر ،ص ٥٠) . « ان انجاز اسرائيل في كون اكثر من نصف جهدها ممولا من مصادر غير اسرائيلية هو ، على الارجح ، فريد في التاريخ المتشابك لعمليات المعونة الفنية اللاحقة للحرب » (ل. لوفر ، ص ٦٢) .

وفي حين ان الاموال لهذه البرامج لا تأتي جميعها مباشرة من مصادر غربية ، فان بعضها مستمد من البلدان المضيفة الافريقية التي تلقت هي نفسها « معونة » غربية . وبرامج «المعونة» هذه هي التي كانت احدى الطرق الاكثر فعالية لخلق الاعتماد على البلد الواهب . يلاحظ ل. لوفر : « ان على الارجح اكثر من مجرد صدفة ان اكبر الزيادات كانت في الصادرات الى تلك البلدان الافريقية (اثيوبيا ، غانا ،كينيا ، نيجيريا ،واوغندا على سبيل المثال) التي لها أيضا برنامج تعاون عني ناشط مع اسرائيل ، (ل. لوفر ص ٢١١) ، هناك الكثير من النصوص حول قضية المعونة الفنية والاعتماد والاستعمار الجديد ، (انظر على سبيل المثال A. G. Frank, 1971) ان الحقل الاكثر اثارة للاهتمام بين حقول التعاون الامريكي — الاسرائيلي (والاوروبي — الاسرائيلي) المستخدم لاسلوب « القوة الثالثة » هو ذلك الذي يتناول تهريب زعماء ومنظمي النقابات الافريقية . فقد كان « المعهد الافرو — اسيوي للدراسات العمالية والتعاون » الاسرائيلي المؤسسة الرئيسية لتدريب الزعماء العماليين ، وقد دشن هذا المعهد في اوائل الستينات بمنحة تبلغ ٦٠ الف دولار من « الاتحاد الامريكي للعمال — مؤتمر المنظمات الصناعية » (AFL - C 10) والى ذلك تلقى بين عام ١٩٦٠ وعام ١٩٦٢ اكثر من ٣٠٠ الف دولار في شكل منح مالية ودراسية من الاتحاد الامريكي الانف الذكر ومن زميله المتحالف معه « اتحاد العمال البريطاني » (BTU) . ومنذ ذلك الحين كشفت مصادر مختلفة عن أن برامج العمل الدولية للاتحاد الامريكي قد وحدتها وكالة الاستخبارات

المركزية وتسللت اليها . فان هدف البرامج الدولية للاتحاد الامريكي هو موازاة لاستراتيجية العمل الدولية لوكالة الاستخبارات المركزية وموحد معها (انظر فيليب أجي ، ١٩٧٥ ، من اجل بحث مفصل لاستراتيجية عمل وكالة الاستخبارات المركزية في اميركا اللاتينية ، وخصوصا الملحق رقم ١ من أجل قوائم تضم منظمات العمل الدولية المنتسبة الى وكالة الاستخبارات المركزية ، ج. موريس ، ١٩٦٨ ، د. داود ، ١٩٧٤) . وبالفعل ، ساعد الاتحاد الامريكي في تنظيم اتحاد دولي للعمال (الاتحاد الدولي للنقابات الحرة) هو على وجه التحديد مناهض للشيوعية وناشط في مقاومة نقابات واتحادات موازية اوحى بها الشيوعيون وتقوم بنشاط سياسي (ف. آجي ، د. داود) . ويلاحظ زاك وهو مسؤول في الاتحاد الدولي للنقابات الحرة : « التوكيد هو على التعاون مع أقسام اخرى من المجتمع ، ويكرس وقت قليل نسبيا لمهارات بناء النقابات العمالية كقوة فعالة في البلاد » (أ. زاك ، ١٩٦٧) .

وباختصار ، فان المعهد الاسرائيلي لتدريب الزعماء النقابيين يدرب على وجه التخصيص قيادة لا سياسية ومناهضة للشيوعية لنقابات العمال الافريقية . وتكتب جماعة الابحاث الافريقية : « ان نقابات العمال الافريقية هي أدوات سياسية للغاية والتدريب الذي يحصل في اسرائيل يسعى الى نزع السياسة منها عن طريق اعتماد توجيه « تعاوني » اكثر منه توجيه طبقة عاملة ثورية » (**داود وجليات** ... ص ٦) .

ومن جهة ، كسبت الاعمال الاسرائيلية ووظيفة اسرائيل الامبريالية في افريقيا تأييد جنوب افريقيا والغرب الرأسمالي . ومن جهة اخرى ، فيما اميط اللثام اكثر فأكثر عن هذه الاعمال وهذا الدور ، فقد كسبت عداء افريقيا السوداء التي صارت بصورة متزايدة مناهضة للامبريالية (خصوصا في الاجتماعات والمنتديات العالمية) ومعادية للتفرقة العنصرية في جنوب افريقيا وحكم الاقلية البيضاء في روديسيا .

اسرائيل ، والتفرقة العنصرية وافريقيا . انهارت لعبة التوازن الاسرائيلية في ١٩٧٣ وحولت نفسها منذ ذلك الحين الى تحالف مكشوف مع الانظمة الافريقية الرجعية ، وبخاصة جنوب افريقيا ، بيد أن هذا التحالف لم يكن مفاجئا ولا خلوا من الاضطراب في الماضي . وقد بذر تغلغل اسرائيل في افريقيا السوداء منذ الستينات بذور النزاع في علاقاتها مع جنوب افريقيا حتى عام ١٩٧٣ . كانت هذه هي اعوام النجاح الاسرائيلي في القارة السوداء . وكان الاسفين الذي وسع فجوة التناقضات بين الدول الافريقية واسرائيل وقرب اسرائيل من جنوب افريقيا هو الموقف الاسرائيلي من عدد من المسائل الافريقية . وكانت هذه المسائل هي القضايا الافريقية للتحرير الوطني ، ومناهضة حكم الاقلية البيضاء ، ومناهضة سياسة التفرقة العنصرية .

في نظر الافريقيين السود ، صار نمط الاعمال الاسرائيلية اوضح بصورة متزايدة واكد ارتباط اسرائيل بالقوى الامبريالية والرجعية المحلية . مثال ذلك ، ان اسرائيل صوتت ضد الاستقلال الجزائري في الامم المتحدة عام ١٩٥٦ ، وضد برنامج الامم المتحدة لاجراء انتخابات عامة في الكاميرون عام ١٩٥٩ . كذلك صوتت اسرائيل ضد شجب تفجير فرنسا لقنبلة نووية في الصحراء الكبرى . وعام ١٩٦٠ امتنعت اسرائيل عن التصويت على استقلال تنغانيكا ، رواندا وبوروندي ، بعد سنة واحدة فقط من تصويتها ضد الاقتراح الليبيري لمنح الحكم الذاتي للمستعمرات الافريقية .

كما أن تأييد اسرائيل للحركات الانفصالية في افريقيا أكسبها بعض العداوة . فقد دعمت اسرائيل بيافرا في نيجيريا (هـ. س. روجرز ، ص ٤٢) مما حدا بعدة صحف نيجيرية لدعوة الحكومة النيجيرية الى اعادة النظر في علاقاتها باسرائيل. وحول أزمة الكونغو ، وقفت اسرائيل موقفا غامضا . فقد علم الافريقيون بزيارة طومباس تشومبي ، شقيق مويز تشومبي زعيم حركة كاتانغا ، الى اسرائيل التي قال خلالها انه بحث مع المسؤولين الاسرائيليين الاعتراف بكاتانغا مستقلة (**ميدل ايست ريكورد** ، ١٩٦١ ، ص ٣٦ — ٣٧ ، جيء على ذكرها في عواطف عبد الرحمن). كذلك امتنعت اسرائيل عن التصويت لقبول الوفد الكونغولي في الامم المتحدة . ودعمت اسرائيل بنشاط متمردي الانيانيا الانفصاليين في جنوب

السودان (**الصنداي تايمز** ، استشهد بهـا روجرز ، ص ٤٢) . وهذا التورط الاخير الـذي اشتمل على تدريب متمردي الانيانيا وامدادهـم بالاسلحة كان مرتبطا ارتباطا مباشرا باهتمامـات اسرائيل الاستراتيجية ــ العسكرية فـي العالم العربي .

كان احد اهم وجوه الاعمال الاسرائيلية فـي افريقيا هو التعاون مع الجهود البرتغالية الراميـة الى المحافظة على حكمها الاستعماري في غينيـا ــ بيساو والموزمبيق وانغولا . وقد أشار الزعيم الثوري الغيني الراحل العظيم أميلكار كابرال على وجه التخصيص الى تدريب اسرائيل للقـوات البرتغالية التي تشن حربا استعمارية ضد الشعوب الافريقية وتزويدها بالاعتدة . كذلك لاحظ التدريب الاسرائيلي للعناصر الغينية المناوئة للثورة علـى التسلل الى الصفوف الثورية . وندد بتحـالف البرتغال واسرائيل والولايات المتحدة (**الديلـي ستاندارد** الصادرة في تنزانيا ، ٧ اكتوبر ، ١٩٧٢، استشهدت بها عواطف عبد الرحمن، ص ١٠٢) .

وفي تصريح ادلى به لويس كابرال ، شقيـق أميلكار من المكتب السياسي للحزب الافريقي من أجل استقلال غينيا والرأس الاخضر ، قـال : « فيما يتعلق بالدور الذي يلعبـه الامبرياليـون الاميركيـون والصهيونية وناتو دعما للبرتغـال ، احب أن اذكركم ... بأن معظم أسلحة البرتغاليين هي اسرائيلية » (ذكرها روجـرز ، ١٩٧٢ ، ص ٤١) .

مثل هذا النشاط الاسرائيلي في افريقيا لم يكن مجهولا لدى حكومة جنوب افريقيا التي تدعـم جميع الجهود المضادة للتحرير والمناوئة للثـورات في افريقيا . وبالفعل ففي تموز (يوليو) ، ١٩٦٧ ، اثر حرب حزيران (يونيو) من تلك السنة ، صرح وزير العمل الجنوب افريقي بان اخفاق العرب في هزم اسرائيل يعزز مركز جنوب افريقيا اذ انـه سيجعل الزعماء الافريقيين المتطرفين يعيدون النظر في تهديداتهم لحكومة جنوب افريقيا (ذكر ذلك في عواطف عبد الرحمن ، ص ١٠١) .

بيد أن الانسجام الاسرائيلي ــ الجنوب افريقي تمزق منذ عام ١٩٦١ ، عندما اقدمت اسرائيـل ، بعد امتناعها عن التصويت في الامم المتحدة السنة السابقة ، على التصويت في تشريـن الثانـي (نوفمبر) من ذلك العام الى جانب مقترحـات خاصة لفرض عقوبات اقتصادية على نظام التفرقة العنصرية في جنوب افريقيا . وربما كان هذا تصويتا لم يكن بوسع اسرائيل تجاهله نظرا لرغبتها فـي اقامة علاقات مع الدول الافريقيـة السوداء . وصدرت عن حكومة جنوب افريقيا ردة فعل غاضبة، وأعلن فيرفورت انه اذا كانت اسرائيل ترى عيبا في سياسات جنوب افريقيا فان استمرار اسرائيل في العالم العربي هو أيضا خطأ (استشهد به في. س. منصور ، ١٩٦٦ ، وذكر في عواطف عبـد الرحمن) . ولكـن رغـم هذا ، ورغم قـرار الجمعية العامة للامم المتحدة الآنف الذكر والداعي الـدول الاعضاء الى قطع العلاقات مع جنـوب افريقيا ، ومقاطعة سلعها ، والامتناع عن تصدير السلع اليها ، فان العلاقات التجارية والاقتصادية بين اسرائيل وجنوب افريقيا نمت بسرعة (انظـر الجدول رقم ٧) وصارت تشكل اكبر حصة مـن التجارة الاسرائيلية ــ الافريقية . وكذلك ، علـى الرغم من خطاب اسرائيلي في تشرين الثاني ١٩٦٧ في الامم المتحدة هاجم التفرقة العنصرية بجنـوب افريقيا علنا ، فان المنظمات في كل من البلديـن ضغطت من اجل توثيق العلاقات وتحسينها بينهما. وقد لاحظت افتتاحية لصحيفة **دي فادرلاند** حـول زيارة بن غوريون الى جنوب افريقيا لجمع الاموال في ١٩٦٩ ان « بقاء اسرائيل في الشرق الاوسـط هو جزء جوهري من امننا » (استشهد بها جورج طعمه ، ١٩٧٣) .

ابان حرب يونيو ، ١٩٦٧ وفي اعقابها جمـع « نداء الطوارىء الاسرائيلي » في جنوب افريقيـا في غضون اسابيع ٢٨ مليون دولار في شكل تبرعات. وتخلت حكومة جنوب افريقيا من القيود العاديـة التي تفرضها على العملة . وفي اب (اغسطس) من ذلك العام قال وزير النقل الجنوب افريقي ان تصريح الحكومة السابق عن الحياد « لا يعني اننا لم نعطف على اسرائيل . فبعد كل شيء ، هنـاك اوجه شبه بين جنوب افريقيا واسرائيل . فكلانـا دولتان تواجه بلداننا معادية في القارة الافريقيـة ولدينا حق في الاستقلال والبقاء . ونظرا لـذاك العطف ، اتفقنا على ان الاموال من جنوب افريقيا يجب ان ترسل للمساعدة في تخفيف الضيـق في اسرائيل » American Jewish Yearbook, 1968, p. 325.

نمت العلاقات الاقتصادية بين جنوب افريقيا واسرائيل في حقول اخرى غير التجارة . مثال ذلك تجارة الماس الخام البالغة الاهمية بالنسبة الى اسرائيل . فمناجم جنوب افريقيا تنتج نحو ٨٠٪ من انتاج الماس العالمي في حين تحتل اسرائيل المرتبة الثانية بعد بلجيكا في تصدير الماس المصقول على نطاق العالم . في حين يأتي الماس الخام الذي تبتاعه اسرائيل من مصادر مختلفة ، فانه يشترى بصورة رئيسية من منظمة البيع المركزية التي تسيطر عليها جنوب افريقيا . وقالت **رائد ديلي ميل** في الثالث من شباط (فبراير) ، ١٩٧٢ ان « واردات الماس المشترى من جنوب افريقيا الى اسرائيل فاقت قيمتها ١٠٠ مليون دولار عام ١٩٧١ ومثلت نحو نصف امداد اسرائيل ... كانت العلاقات مع جنوب افريقيا ودية جدا وكان السيد شنيتزر ، رئيس بورصة الماس الاسرائيلية ، واثقا من انه سيحافظ على الامدادات لاحتياجات الصناعة النامية » (ورد في جورج طعمه ، ص ١٦) .

والالماس المصقول هو اكبر صادرات اسرائيل ، ووفقا للاحصاءات الاسرائيلية يمثل ٤١٫٨٪ من مجمل الصادرات غير الزراعية للبلاد و ٣٥٪ من صادراتها الاجمالية عام ١٩٦٩ . وبالاضافة الى ذلك كان تصدير الرأسمال الخاص من جنوب افريقيا الى اسرائيل وبالعكس آخذا في النمو (انظر **ساوث افريكان فايننشال غازيت** ، اعداد ١٩٧١ و **فايننشال ميل** الصادرة في جوهانزبرغ ، ٤ ايلول — سبتمبر ، ١٩٧٠) .

حوفظ على العلاقات السياسية — العسكرية بين اسرائيل وجنوب افريقيا وعززت خصوصا بعد حرب يونيو ١٩٦٧ . واشار س.ل. سالزبرغر من **النيويورك تايمز** (٣٠ نيسان — ابريل ، ١٩٧١) ، الى هذه الشراكة الوثيقة (ولكن المخفية) : فجنوب افريقيا تصنع الرشيش الاسرائيلي عوزي بموجب رخصة ممنوحة عن طريق بلجيكا . وكتب عن تقارير غير رسمية مفادها ان النسخ الزرقاء لطائرة ميراج النفاثة التي حصلت اسرائيل عليها ، وضعت في متناول جنوب افريقيا وان العسكريين الجنوب افريقيين كانوا يذهبون الى اسرائيل لتلقي دروس خاصة في التكتيكات الاسرائيلية . واشير الى تعاون اخر فيما يتعلق بصناعات الطائرات الاسرائيلية والجنوب افريقية ومحاضرة الجنرالات الاسرائيليين في جنوب افريقيا ، في دراسة A R G (**جنوب افريقيا واسرائيل** ، انظر ايضا **تريكونتيننتال بوليتين** ، حزيران — يونيو ، ١٩٦٨). كما ان تقرير الوكالة التلغرافية اليهودية ، في ٢٠ كانون الثاني (يناير) ، ١٩٧٠ ، يلاحظ : « لقد ابتدأت الحكومة الجنوب افريقية تنظم تصدير الدبابات الى اسرائيل مشيرة الى « مرحلة جديدة لتعاونهما » . والدبابة الجنوب افريقية ماردة تزن خمسة وستين طنا «مجهزة بمدفع ثقيل ومصممة وفقا لطراز الدبابة الجديدة البريطانية » (استشهد بها في **جنوب افريقيا واسرائيل** ، ص ١١ — ١٢) . وكما يستنتج سالزبرغر : « تبقى الحقيقة الاساسية وهي ان هذا البلد ، جنوب افريقيا ، الذي ليس له اصدقاء كثيرون في الخارج ، يعتبر اسرائيل واحدا منه . ولبعض الوقت كانت سياسة اسرائيل الرامية الى كسب ود الامم الافريقية السوداء موضع استياء جنوب افريقيا . وقد نسيت هذه السياسة الان اعتقادا منها بان وقوف اسرائيل ضد روسيا ومن ينوب عن روسيا في الطرف القصي من هذه القارة يساعد في التحضير للوقوف موقفا مماثلا ، اذا دعت الحاجة ، عندما يأتي اليوم لمثل هذا الموقف في اقصى الجنوب » (**نيويورك تايمز** ، ٣٠ نيسان — ابريل ١٩٧١) . يعني موقف مماثل ضد اي نضال للتحرير الوطني المناوىء للامبريالية .

في ١٩٦٩ ، لا بد ان تكون اسرائيل شعرت بالاطمئنان الكافي في افريقيا للامتناع عن التصويت في الامم المتحدة حول مقررات تونج ، وتفرض عقوبات اقتصادية وعسكرية ضد ، نظام الاقلية البيضاء في روديسيا ، حليفة جنوب افريقيا . واثار هذا من جديد التساؤلات بين الدول الافريقية السوداء . ومن هذا فان اخر شائبة اعترت الاتفاق الجنوب افريقي — الاسرائيلي قبل ١٩٧٣ كانت تتعلق بدعوة يوثانت عام ١٩٧١ ، البلدان التي تقاوم الاستعمار والعنصرية الى تقديم تبرعات للجنة التحرير الافريقية بواسطة منظمة الوحدة الافريقية . وتعهدت اسرائيل بدفع مبلغ ١٠ الاف ليرة اسرائيلية . ومع ان لجنة التحرير رفضت هذا التعهد — على اساس ان اسرائيل نفسها هي بلد عنصري واستعماري هدفه زيادة تسلله في افريقيا

السوداء لمصلحة الامبريالية — فقد غضبت جنوب افريقيا وردت بتقييد التحويلات المالية الى اسرائيل . وسارعت اسرائيل الى التفسير قائلة ان مثل هذه الاموال ليست لحركات التحرير بل للجنة الامم المتحدة من اجل صندوق تعليم اللاجئين .

بالاضافة الى العوامل الآنفة الذكر التي اماطت اللثام عن موقف اسرائيل حول قضايا الوحدة الافريقية المتنوعة ، فان انتقاد دور اسرائيل الموالي للامبريالية (فكرة حصان طروادة الامبريالية) في افريقيا من قبل المصادر السوفياتية والمسؤولين على الاصعدة الشعبية والرسمية وغير الرسمية اسهم في بلورة نظرة جديدة الى اسرائيل في البلدان الافريقية . كذلك فان الانتقادات القوية التي وجهها الزعماء الصينيون اسهمت في توضيح تلك النظرة . وادت الصلات الوثيقة بصورة متزايدة التي تربط بعض الدول الافريقية مثل الكونغو — برازافيل والى حد اقل تنزانيا بالبلدان الاشتراكية الى اعادة تقييم . وقطعت الكونغو علاقاتها الدبلوماسية باسرائيل حتى قبل حرب ١٩٧٣ .

والى ذلك فان التيسير السابق للعلاقات الاسرائيلية بافريقيا الناطقة بالفرنسية بسبب العداء الفرنسي للعرب اخذ يتغير جذريا بعد حرب يونيو ١٩٦٧ . وفرنسا نفسها اتخذت موقفا اكثر انصافا وان لم يكن اكثر موالاة للعرب . وقد يكون هذا اثر على بعض البلدان الافريقية المرتبطة بفرنسا . واخيرا ، وليس الاقل اهمية ، هو الجهد الناشط الذي بذلته الدول العربية على الصعيدين الافريقي والدولي للنضال ضد اسرائيل وفضح طبيعتها . ولذا يجب ان يكون واضحا الان كيف صار متعذرا الدفاع عن مركز اسرائيل في افريقيا ، الامر الذي ادى الى قطع العلاقات مع الدول السوداء وتعزيز العلاقات الخاصة مع الانظمة الرجعية ، وبخاصة جنوب افريقيا .

الاستعمار الاستيطاني : اوجه شبه بنيوية

بالاضافة الى العامل التاريخي ، وعامل الادوار والصلات الدولية ، فان العامل الثالث المسهم في العلاقة الخاصة بين اسرائيل وجنوب افريقيا هو بناهما الاجتماعية المتشابهة . وينبثق هذا التوازي من طبيعتهما كدولتين من دول الاستعمار الاستيطاني . وعلى الاقل ، فان البنى الاجتماعية المتماثلة تميل الى توليد ايديولوجيات وآراء عالمية متشابهة ، مما يفضي الى تعاطف وتفاهم متبادلين . وتسهل الاوضاع الداخلية والخارجية اوجه الشبه البنيوية هذه ، فتولد ضغوطا ايديولوجية وعملية من اجل التحالف النشيط .

لم يدرس الاستعمار الاستيطاني والدول التي شيدها المستعمرون دراسة كافية ولم يحللا تحليلا نظريا (تشتمل المحاولات الاخيرة المتسمة بنفاذ البصيرة على ب. ل. فان دن برغ ، ١٩٦٧ ، أ. ايمانيويل ، ١٩٧٢ ، جورج جبور ، ١٩٧٠ ، ابراهيم أبو لغد و بهاء ابو لبن ، ١٩٧٤) . وفي هذا القسم سنحلل المعالم البارزة للبنى الاجتماعية المتماثلة في اسرائيل وجنوب افريقيا .

لقد درست طبيعة الاستعمار الاستيطاني لجنوب افريقيا من الناحيتين التاريخية والمعاصرة دراسة وافية من منظورات مختلفة . ودرست اسرائيل الى درجة اقل ، ربما بسبب التميز الغربي التقليدي . ولكن منذ يونيو ، ١٩٦٧ ، وبروز « اليسار الجديد » على الصعيد الدولي ، جرى تحليل اسرائيل مباشرة من هذه الناحية . وافضل مثال هو كتاب المؤرخ والعالم الاجتماعي الفرنسي ماكسيم رودنسون المعنون **اسرائيل : دولة استعمار استيطاني** ؟ (انظر ايضا ا. لوبل ١٩٧٠) .

المستعمرون الاستيطانيون ، كما يجادل ايمانيويل ، هم عامل مستقل مهم في فهم الظاهرة الاستعمارية . فالمستعمرون انفسهم « يتدخلون بين الرأسمالية الامبريالية وشعوب البلدان المستغلة » وهم في الاساس معادون للاثنين (ايمانيويل ، ص ٣٦) .

وتتناقض مصالح المستعمرين الاستيطانيين مع كل من مصالح سكان البلاد المحليين ومالية رأسماليين « البلد الام » . وعندما يبدأ تفاهم بين الدولة المستعمرة والسكان الوطنيين في البروز (مؤدية عادة الى استقلال سياسي للسكان الوطنيين) ، يشعر المستعمرون بالخطر ويقاومون بعنف . « هذا العنصر التقهقري والرجعي قاد الصراع [تاريخيا] على جبهتين — بعناد وحماسة ضد السكان الوطنيين ... ونسبيا ومن حين لاخر ،

ولكن احيانا كثيرة بعنف بالغ ، ضد الرأسماليين الكبار « في الوطن الام » (ايمانيويل، ص ٣٩).

يحاول المستعمرون الانفصال عن الوطن الام واقامة نظامهم التفوقي الخاص الذي تكون سمته الميزة الاضطهاد الشديد للسكان الوطنيين . وروديسيا هي اخر مثل على هذه الظاهرة . وقد أعلن الجنرال الفرنسي سالان ، الذي قاد انصار « جزائر فرنسية » ، من فرنسيين جزائريين يسمون Pieds Noirs ، ومنظمة الجيش الفرنسي السري ، « خلال مقابلة في راديو لوكسمبورغ ان نوع الوجود الفرنسي في الجزائر الذي كان في ذهنه في ذلك الحين كان (مثل روديسيا ، ولكن دون تفرقة عنصرية) » (ايمانيويل ص ٤٨) . وفي حين ان الصراع العنيف بين المستوطنين الجنوب افريقيين وبريطانيا كان اقتصاديا في الجوهر ، فقد كانت له صلة ايضا بالسياسة البريطانية المتعلقة بالسكان الوطنيين . وعندما فاز البيض المحليون اخيرا بالاستقلال والسيطرة على الدولة ، فرضوا احدى البنى الاكثر جورا واستبدادا في التاريخ : التفرقة العنصرية : « في ما يتعلق باسرائيل ، كثيرا ما ينسى الناس انه اذا كان هذا البلد يمثل رأس حربة للامبريالية في السياق الدولي الراهن المعين من العداء بين الكتلتين الكبريين ، فليس هذا الا نتيجة ظروف خاصة . فطبيعته الحقيقية هي ان يكون كتلة من المستوطنين « البيض » الصغار تنتشر اكثر فاكثر لتستعمر منطقة متخلفة . وهذا هو الذي يجعل نزاعهم مع شعوب المنطقة قاسيا الى هذا الحد ، حتى حيث تعيش تلك الشعوب في ظل انظمة موالية للغرب هي نفسها تابعة للامبريالية ... ورغم تحالف اسرائيل مع الامبريالية الاميركية ... فهي دولة استعمارية انفصالية . وقد كان اساسها موضع صراع طويل ودموي مع انكلترا التي لعبت دور البلد الام الامبريالي » (ايمانيويل ، ص ٤٧ ، هذا هو الصراع الذي شجع الصهاينة على وصف اسرائيل بانها مناهضة للامبريالية ، والصهيونية بانها حركة تحرير يهودية) .

لدى انفصال المستعمرين ، او استقلالهم ، تكون الصفة المميزة المحورية لانظمة الاستعمار الاستيطاني هي علاقتها بالسكان الوطنيين والارض. فمن الناحية السياسية ، يؤسس المستعمرون الاوروبيون ما يسميه فان دن برغ « ديموقراطية هيرنفولك » ، ثنائية سياسية مع ديموقراطية برلمانية للمستعمرين المستوطنين ونظام استعماري للسكان الوطنيين (انظر ب.ل. فان دن برغ ، ١٩٦٥ ، ايضا ب. ل. فان دن برغ ، ١٩٦٧). وهذا « نظام برلماني تقصر فيه ممارسة السلطة وحق الاقتراع ، في الواقع ، واحيانا كثيرة بموجب القوانين ، على الجماعة المسيطرة » (فان دن برغ ، ١٩٦٧ ، ص ٢٩) . وباختصار ، فان المستعمرين يحكمون انفسهم حكما ديموقراطيا ويفرضون استبدادهم السياسي والاجتماعي والاقتصادي على السكان الوطنيين .

اكتساب الاراضي ، الاستيطان الاستعماري يحتاج الى الاراضي . وهكذا ينفجر عداء فوري مع السكان الوطنيين عندما يأخذ المستعمرون الارض (ينتزعونها او حتى يشترونها) . ولضمان الحصول على المستعمرة ، يقتضي الامر المزيد من المهاجرين، وهكذا يزاد ضغط السكان والارض على السكان الوطنيين . وتتبع ذلك مقاومة السكان الوطنيين . ولكن يتم اطلاق عملية ديناميكية : توسعية استعمارية ، هجرة ، وطرد او اخضاع وفصل عنصري للسكان الوطنيين . وتعبر هذه العملية الديناميكية عن نفسها في سلسلة من المعارك والحروب التي تبلغ اوجها في السيطرة على الارض، وطرد السكان الوطنيين واخضاعهم . واحيانا تصير نزاعات كهذه ابادة جماعية للشعب . في اميركا الشمالية تسمى هذه الحروب الحروب الهندية ، وفي جنوب افريقيا « حروب الكفير » «Kaffir Wars» وفي الشرق الاوسط النزاع العربي — الاسرائيلي (ولا ننكر هنا ان عوامل اخرى دخلت الصورة هنا) .

تفاصيل هذه العملية الديناميكية تختلف في حالات الاستعمار الاستيطاني المختلفة ، لكن الجوهر والنتاج لا يتغيران . ففي جنوب افريقيا تم اكتساب الاراضي بقوة تدعمها الدولة الامبريالية (واحيانا تتجاهلها) . وبالفعل ، بدءا من القرن التاسع عشر ، ادى النزاع بين المصالح الامبريالية البريطانية وجالية المستوطنين الافريكانيين الى المزيد من التوسعية الواسعة النطاق (انظر روايات عن هذا النزاع في ل. ماركاند ، ١٩٦٦ ، و. فاتشر

١٩٦٥ ، ب. ل. فان دن برغ ، ١٩٦٧) . ولا حاجة الى القول ان هذه التوسعية كانت على حساب السكسان الوطنيين ، اولا البوشمان والهوتنتوت ، وفيما بعد البانتو . وقد دفع الافريكانيون ، الجنوب افريقيين السود الى اراض معينة « حفظت » لهم . وقد خصص « قانون اراضي السكان الوطنيين » لعام ١٩١٣ للسكان السود ٧٪ من الاراضي (زيدت فيما بعد الى ١٣٪ عام ١٩٣٦) التابعة لجنوب افريقيا ، علما بان الافريقيين كانوا يفوقون الافريكانيين البيض عددا باربعة اضعاف . وتكرر هذا النموذج في روديسيا باستثناء انه تم في فترة اقصر من الوقت ، بدءا من عام ١٨٩٠ وكانت نسبة الافريقيين الى البيض اقرب الى ٢٠ الى ١ .

في العالم العربي ، كانت التفاصيل مختلفة بعض الشيء . فالمستعمرة الصهيونية الاولى في فلسطين ، رغم دعم بريطانيا الامبريالية لها ، لم تنجز بالغزو اذ انها كانت ستولد حربا مع امبراطورية قديمة العهد وقوة اقليمية ، هي الامبراطورية العثمانية . فقد تم اكتساب الصهاينة الباكر للارض عن طريق عملية شراء مولها الصهاينة الاوروبيون والمتعاطفون معهم . ولكن كل هذه النشاطات لم تكن ذات بال قبل ان يفرض الانتداب البريطاني على فلسطين في اعقاب الحرب العالمية الاولى . « بحلول ١٩٠٠ كان نحو ٥٠ الف يهودي يسكن فلسطين ، جميعهم تقريبا مركزون كاقليات في مناطق مدينتي القدس ويافا حيث لم يكونوا يزرعون الارض ولا يطالبون بملكيتها (ج. ابو لغد ، ١٩٧١ ، ص ١٤٠) .

وقد سهل الانتداب البريطاني على المستوطنين امر اكتساب الاراضي ، وكان بذلك يتصرف باتساق مع قصد اعلان بلفور اقامة « وطن قومي » للصهاينة . واطلق هذا نمط قدوم المهاجرين الاستيطانيين وتجريد الفلاحين الفلسطينيين من اراضيهم . وشعر السكان العرب بخطر هذه العملية وقاوموها بطرق عدة ، بما في ذلك شن ثورة شاملة ضد البريطانيين والصهاينة بين عام ١٩٣٦ وعام ١٩٣٩ . ومع هذا ، بحلول ١٩٤٧ ، عندما احال البريطانيون المسالة الفلسطينية على الامم المتحدة ، لم يكن امتلاك الصهاينة واليهود للاراضي في فلسطين يزيد على ٧٪ من المساحة بكاملها (انظر تحليلا دقيقا « لديناميكيات تحويل ملكية الاراضي » لـ ج. رودي ، ١٩٧١) . ولكن في ١٩٤٨ كان عدد السكان المستوطنين في فلسطين يدنو من ٧٠٠ الف نسمة ، نحو ثلث مجموع سكان البلاد (انظر ج ، ابو لغد ، ١٩٧١) . ولم يتم الامتلاك الصهيوني للاراضي بالجملة في فلسطين الا بعد الحرب الفلسطينية ١٩٤٧ — ١٩٤٨ . وهنا ايضا تم امتلاك الاراضي بالقوة . لا بد من الاشارة الى ان الامم المتحدة التي كان الغرب يسيطر عليها آنذاك وفرت الاساس الرسمي لدولة الاستيطان الصهيوني ، دون الرجوع الى رغبات السكان المحليين ، في قرار لتقسيم فلسطين اتخذ في التاسع والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) ، ١٩٤٧ . وفي ما عدا جنوب افريقيا ، لم تصوت لخطة التقسيم غير امة افريقية واحدة وامة اسيوية واحدة . وقد اقر القرار بفضل تصويت بلدان اوروبا ونصف الكرة الارضية الغربي ، ووسعت دولة الاستيطان الجديدة الصهيونية اراضيها في فلسطين من الـ ٦٥٪ التي خصصتها لها الامم المتحدة الى ٧٧٪ في ١٩٤٨ . واستمر التوسع الاسرائيلي في ١٩٦٧ في اعقاب حرب يونيو . فقد استولت اسرائيل على اراضي بقية فلسطين واراضي دولتين مجاورتين . وضمت اسرائيل اليها، من جانب واحد ، القدس العربية والمناطق المحيطة بها . واسس الاسرائيليون اكثر من دزينتي مستوطنات جماعية وشبه عسكرية ، لا في بقية فلسطين (الضفة الغربية) فحسب بل ايضا في الاراضي السورية والمصرية . وبالفعل ، فان الاموال التي جمعت في جنوب افريقيا ساعدت الجهد الاستعماري الاسرائيلي : « لقد انجز الصندوق في جنوب افريقيا مشروعا في منطقة بانياس في هضبة الجولان ، وبمناسبة الذكرى السبعين ، شرع في مشروعات عدة ، منها انماء نؤوت هاكيكار » (تقرير بعنوان « سبعون سنة من الصندوق الوطني اليهودي » جيء على ذكره في جورج طعمه ، ص ٤٧) .

لطالما ادعت الايديولوجيا الصهيونية حق الاستيطان في ما تسميه ارض اسرائيل ، التي تشتمل على فلسطين التاريخية واراض عربية من لبنان وسوريا والاردن .

وما ان تقام دولة مستوطنين على ارض وطنية

حتى يبدأ تنفيذ عملية اكتساب الاراضي عن طريق قوانين دولة المستوطنين . وهناك قوانين من شأنها تحويل ملكية الاراضي الوطنية وتنظيم اكتساب الاراضي . كما انها تجعل مثل هذا النمط « شرعيا » ، مثال ذلك « قانون ملكية الغائبين » لعام ١٩٥٠ في اسرائيل ، فهذا القانون وتشريعات اخرى مثل المادة ٢٥ من « تنظيمات الطوارىء » ، التي تجيز للحكومة العسكرية ان تطرد الفرويين وتغلق مناطقهم ، اسهمت في نقل الاملاك العربية الى ايدي المستوطنين الاسرائيليين (انظر رواية هذه العملية في « **العرب في اسرائيل** » ، ١٩٦٩ لصبري جريس ، المحامي الفلسطيني) . وكان هذا النمط من اغتصاب الاراضي والتشريعات القانونية التمييزية المتعلقة بالاراضي ، من الوضوح بحيث دفعت اساتذة الجامعات الاسرائيلية الى الاحتجاج والى انتقاد هذه القوانين (جاكوب لاندو « **العرب في اسرائيل** » ، ١٩٦٨ ، ص ١١٧) . ولم ينته هذا النمط بعد حرب يونيو ١٩٦٧ . فمنذ ذلك الحين صادرت الحكومة الاسرائيلية المنازل العربية داخل مدينة القدس القديمة ، اولا في كانون الثاني (يناير) ثم في نيسان (ابريل) ، ١٩٦٨ . وخسر ٣٠٠٠ و ٥٠٠٠ فلسطيني اراضيهم ونقلوا فيما بعد الى الضفة الشرقية للاردن . ولم تكن هذه العمليات « القانونية » لاستيلاء المستوطنين على الاراضي تختلف في الجوهر او النتيجة عن قوانين اراضي الوطنيين في جنوب افريقيا وروديسيا .

الهجرة : فضلا عن اكتساب الاراضي ، فان الاستعمار الاستيطاني معني بهجرة مستوطنين جدد للمساعدة في ضمان وتقوية مجتمع المستوطنين . وهذا جهد يناقض السكان الوطنيين مناقضة مباشرة . ولذا فان وجود الوطنيين هو مشكلة . وكما يقول باتريك كيتلي من الروديسيين البيض : « لا يسع المرء الا الشعور ... ان الروديسيين البيض يحملون في اعماق قلوبهم امنية صامتة وهي ان يختفي الافريقيون » (استشهد به في ا. ب. تشيلدرز ، ١٩٧١) .

« الامنية الصامتة » في جنوب افريقيا تتخذ شكل فصل جغرافي واجتماعي عنصري قسري للسود . وكذلك فان الصهاينة في خطبهم وسياستهم يظهرون هذه « الامنية الصامتة » نفسها . لقد صاغ احد اوائل الفلاسفة الصهيونيين ، وهو اسرائيل زانغويل ، الشعار القائل ان فلسطين هي ارض بلا شعب تعطى الى شعب بلا ارض (اي اليهود الاوروبيين) . وفي ١٩٣٨ كتب ت. ر. غايويل : « ان تاريخ السياسة الصهيونية نحو العرب هو تاريخ هذا الوهم ، ولكنه وهم مؤيد بتعصب ، ان عرب فلسطين **لا وجود لهم** ، على الاقل كأمة منفصلة لها اهدافها للبقاء الوطني الذي لا بد من اخذه في الاعتبار ... » (استشهد به في تشيلدرز ، ص ١٧٧) .

وبالفعل ، فحتى عام ١٩٦٩ قالت غولدا مئير ، رئيسة وزراء اسرائيل آنذاك ، في احدى المقابلات: « لم يكن الامر وكأنه كان هناك شعب فلسطيني في فلسطين يعتبر نفسه شعبا فلسطينيا فجئنا نحن وطردناه واخذنا بلده منه . لم يكن له وجود » (**الصنداي تايمز** ، لندن ، ١٥ يونيو ، ١٩٦٩) .

كان الاستعمار الاستيطاني الصهيوني ، مدفوعا بايديولوجيا دينية — تاريخية ومقرونا بالرغبة في ان تكون له امة حديثة يوجد فيها يهود من جميع الطبقات ، معنيا على نحو خاص بالرغبة في بلد خلو من الوطنيين ، اي خلو من العرب . ويحلل تشيلدرز في مقالته التاريخ والخطط والحروب (العسكرية والاقليمية والنفسية) التي جعلت من الممكن وجود فلسطين ، على حد تعبير بن غوريون، « مفرغة تقريبا من اصحابها السابقين » . (**الحولية الاسرائيلية** ، ١٩٥٢ ، ص ٣٨ ، انظر التفاصيل في الكولونيل لورنس ، المؤرخ العسكري الاسرائيلي ، « **حد السيف** » ، ص ٨٧ ، م. بيغين ، « **الثورة : قصة الايرغون** » ، ١٩٥١ ، ص ١٦٢ — ١٦٥ ، ا. كويستلر ، « **الوعد والتحقيق** » ، ١٩٤٩ ص ٨٩ ، ١٦٠ ، ٢١٥ ، ا. او بالانس ، « **الحرب العربية — الاسرائيلية ، ١٩٤٨** » ، ص ٥٢ ، ٦٣ ، ول . هايمان ، **مارين كوربس غازيت** ، يونيو ، ١٩٦٤ ، ك. بيلبي ، ١٩٥٠ ، ص ٤٣) . وفي ١٩٦٧ — ١٩٦٨، صرح موشيه دايان ، وزير دفاع اسرائيل آنذاك ، علنا وفي مناسبات عدة على التلفزيون الاميركي ان اسرائيل يجب ان تكون يهودية مثلما هي بريطانيا بريطانية وفرنسا فرنسية . وبكلام اخر ، يجب ان تكون خلوا من الوطنيين . وقد رفضت اسرائيل ان

تعيد مئات الالوف من اللاجئين العرب الفلسطينيين بعد حرب ١٩٤٨ ومرة ثانية بعد حرب ١٩٦٧ . وبعد هذه الحرب الاخيرة ، سمح لقسم رمزي من اللاجئين بالعودة الى بيوتهم على الضفة الغربية . وكان اللاجئون غير المحادين هم الذين صودرت املاكهم بموجب قانون ملكية الغائبين .

وتسهل دول المستوطنين مجيء مهاجرين مؤهلين : أوروبيين بيض لجنوب افريقيا ويهود لاسرائيل . ويعطي قانون العودة الاسرائيلي الحق لاي اسرائيلي (محدد شرعيا وفقا للقوانين الدينية) في الاستقرار في اسرائيل واكتساب المواطنية. وكما هي الحال في جنوب افريقيا ، فالمهاجرون يحصلون على مساعدة اجتماعية واقتصادية في الاسكان . وفي الوقت ذاته تميز قوانين المواطنية ضد السكان الوطنيين (انظر جورج جبور ، ص ٦٤) . وباختصار فان حركات الاستعمار الاستيطاني تغتصب الارض الوطنية ، وتطرد او تحصر السكان الوطنيين وتشجع مجيء مهاجرين مستوطنين مؤهلين . وهم يسوغون هذا في اطار ايديولوجيا تشتمل على افكار تقول انهم يمدنون السكان الوطنيين ، ولكن كثيرا ما يكون هذا التسويغ توراتيا . ويبرز هذا بنوع خاص في جنوب افريقيا واسرائيل .

كانت الكنيسة المصلحة الهولندية ، كنيسة المستوطنين الافريكانيين ، اعتمادا على بعض عبارات العهد القديم ، تعتقد ان عدم المساواة بين الاجناس هو امر مقدر من الله . اما السود ، الذين تعتبرهم الكنيسة من سلالة حام ، فمقدر لهم ان يخدموا البيض . وفكر البوير في الغاء الاستعباد بوصفه مناقضا لمفاهيم الكتاب المقدس (انظر جورج جبور ، ١٩٧٠ ، ص ٥٨) . ونظر الافريكانيون الى السود على انهم ادنى مرتبة منهم ومنحطين وغير متمدنين .. ورسالة البيض هي تمدينهم .

والصهاينة ، ايضا ، يعتمدون على مقاطع من التوراة لتسويغ ادعائهم واستعمار فلسطين . فبالاضافة الى وظيفة الصهاينة لحمل المدنية الى منطقة اسيوية متخلفة (كما كتب هيرتزل في مذكراته) فقد اعتبروا فلسطين ارض الموعد ، المعطاة لهم من الله . وليس استعمارهم البلاد اكثر من مجرد استعادة ما هو لهم توراتيا وتحقيق النبوة التوراتية . وتستمر تصاريح زعمائهم في التكلم عن ارض اسرائيل التي تشتمل على الكثير من الاراضي الحالية التي احتلت منذ حرب ١٩٦٧ .

النظام الاستعماري للسكان الوطنيين . كما يشير فان دن برغ ، يقيم المستعمرون المستوطنون «ديموقراطية هيرنفولك» ويفرضون فيها على السكان الوطنيين — الذين يبقون منهم تحت سيطرتهم — نظاما استعماريا يتميز بثلاث صفات رئيسية :

(أ) حرمان الحقوق السياسية والسيطرة السياسية (ب) الفصل الاجتماعي ، (ج) الاستغلال الاقتصادي . ووسائل تحقيق السيطرة السياسية على السكان الوطنيين وحرمانهم حقوقهم السياسية هي مباشرة وغير مباشرة معا . فبفضل الادعاء المتناقض بالديموقراطية البرلمانية ، تلجأ انظمة المستوطنين ، اكثر الاحيان ، الى وسائل دقيقة وغير مباشرة لكبح الحريات السياسية للسكان الوطنيين . وفي جنوب افريقيا وروديسيا حيث السكان السود الوطنيين يشكلون الاكثرية العددية ، يحرم الوطنيون صراحة حق التصويت . وفي اسرائيل ضمن حدود ١٩٤٨ حيث يشكل ما تبقى من السكان الوطنيين اقلية (نحو ١٢٪) ، فانهم لم يحرموا الحقوق السياسية ولكنها قيدت الى حد كبير .

لقد قيدت حرية التعبير والاجتماع تقييدا شديدا عن طريق قانون المنشورات والتسلية لعام ١٩٦٣ وقانون قمع الشيوعية لعام ١٩٥٠ في جنوب افريقيا . وتحدد « الشيوعية » بانها اي مبدأ « يهدف الى احداث اي تغيير سياسي ، صناعي ، اجتماعي او اقتصادي ضمن الاتحاد عن طريق تشجيع الاضطراب او اختلال النظام ، وعن طريق اعمال او اهمال غير قانونيين او عن طريق التهديد بمثل هذه الاعمال او هذا الاهمال » (انظر جورج جبور ، ١٩٧٠ ، ص ٦٧) . وقد عنى مثل هذا التحديد الواسع للقانون قمع اي نشاط للسكان الوطنيين . ففي سنة ١٩٦٣ وحدها ، حظرت ٧٥٠٠ منشورة . اما القوانين الاسرائيلية التي تكبح حرية التعبير عند السكان الوطنيين فهي اكثر حذرا وتحفظا ولكنها لا تقل عن قوانين جنوب افريقيا فعالية . فالمنشورات الفلسطينية المستقلة في اسرائيل اما لا يسمح باصدارها او تقيد ويسيطر

عليها . وافضل مثل موضح لهذا النمط هو حال منشورة الارض (انظر ج. لاندو ، ص ٩٦ ، وصبري جريس ، ١٩٦٩) .

ويتلص المستعمرون كذلك حرية التجمع والتنظيم السياسي للسكان الوطنيين . ففي جنوب افريقيا نجد ان « قانون التنظيم غير الشرعي » لعام ١٩٦٠ (وهو مماثل لقانون اخر في روديسيا) و « قانون حظر التدخل غير اللائق » لعام ١٩٦٦ ، لا يخولان السلطة اعلان منظمات افريقية وطنية مثل « مؤتمر عموم افريقيا » و « المؤتمر الوطني الافريقي » غير شرعية فحسب ، ولكنهما ايضا منعا الجماعات العنصرية المختلفة من المشاركة في نشاطات سياسية مشتركة . والى ذلك يفرض « قانون المحافظة على النظام » قيودا على حرية الاجتماع . فما من افريقي يستطيع عقد اجتماع او الخطابة فيه او ترأسه دون اذن كتابي من مندوب الحكومة الابيض في المنطقة . وفي حين ان هذه هي قوانين معلنة للسيطرة السياسية على السكان الوطنيين في جنوب افريقيا ، فان اسرائيل تستخدم اجراءات غير رسمية ولكن تمكن ملاحظتها لتقييد وتقليص النشاط السياسي الفلسطيني المستقل . وقد احبطت الحكومة الاسرائيلية جميع المحاولات لتأسيس احزاب عربية مستقلة (انظر ج. لاندو ، ص ٥٤ ، صبري جريس ، ١٩٦٨) . وتشتمل الاساليب الاسرائيلية ضد النشاط السياسي للسكان الوطنيين على اعتقال الزعماء وسجنهم ، مضايقة القائمين بنشاط سياسي مضايقة قانونية ومن انواع اخرى ، الامتناع عن تسجيل الجمعيات الخ ... احد الامثلة على ذلك هو « الجبهة العربية » ، المؤسسة عام ١٩٥٨ ، وقد سميت في ما بعد الجبهة الشعبية : « اتخذت السلطات الاسرائيلية بدورها خطوات لتثبيط النشاطات السياسية للجبهة التي اعتبرت انها ممكن ان تكون تخريبية . ورفضت الادارة العسكرية ان تمنح بعض اعضاء الجبهة النشيطين تصاريح سفر ... حتى ان بعضهم احتجز للتحقيق » (لاندو ، ص ٩٤) .

اشتمل الرفض الاسرائيلي تسجيل الجماعات الوطنية النشيطة سياسيا على جماعة الارض الوطنية عام ١٩٦٠ ، وقد اعتقل زعماء الارض وضويقوا وابعدوا عن البلاد بتهم مختلفة تشمل « النشاطات التخريبية » . ورفضت السلطات الاسرائيلية تسجيل قوائم انتخابية عربية مستقلة . ورفع اعضاء احدى هذه القوائم امرهم الى القضاء لكن المحكمة الاسرائيلية ايدت القرار على اساس ان « الجماعة عرضة لتخريب الدولة بمحاولتها استغلال اي منفذ في القانون لتحقيق اهدافها السياسية » (استشهد به لاندو ، ص ١٠٠) .

وتخضع الاندية والجمعيات الرياضية والثقافية والتربوية العربية لمراقبة دقيقة ويتعرض زعماؤها للمضايقة والاعتقال والتحقيق الخ . وبالفعل ، يبدو وكأن السياسة الاسرائيلية ترمي الى منع واحباط اي نمو للحركات السياسية العربية المستقلة ، مهما كانت غير خطرة . ففي ١٩٥٨ — ١٩٥٩ ، على سبيل المثال ، تأسست لجنة طلبة عرب في الجامعة العبرية بالقدس ولكن الجامعة واتحاد الطلبة الاسرائيليين رفضا الاعتراف بها . وحكم على امين عام اللجنة بالسجن بتهم القيام « بنشاطات تخريبية » . وكانت السلطات دائما تحبط تشكيل احزاب سياسية عربية مستقلة . وكما لاحظ أمون لين ، رئيس دائرة الشؤون العربية في ائتلاف حزبي سياسي اسرائيلي يدعى الرصف Alignment : « ثمة خطر عظيم في عين وجود حزب عربي غير متحد مع اي حزب يهودي » (لاندو ، ص ٧٢) . وكلمة « متحد » يجب ان تعتبر تعبيرا ملطفا لعبارة « خاضع لسيطرة » . ذلك ان « السلطات الاسرائيلية ، كالسلطات الجنوب الافريقية ، كانت جميعا تؤيد جميع المتعاونين معها وانصارها من السكان الوطنيين ، واعطاءهم الدعم الكامل . وبهذه الطريقة حاولت ان تصور السكان الوطنيين كمشاركين في العملية الديموقراطية » (جورج جبور ، ص ٧٣) .

ربما كانت احدى الآليات الاكثر فعالية للسيطرة السياسية والاجتماعية على السكان الوطنيين في جميع دول الاستعمار الاستيطاني بما فيها جنوب افريقيا واسرائيل هي تقييد وتنظيم حرية تحركهم . ويسوغ مثل هذا التقييد بحجج مختلفة ، بما فيها الامن . فالتفرقة العنصرية الجنوب افريقية تحصر السكان الوطنيين في مناطق معينة عن طريق قوانين عدة ، مثل « قانون مناطق الجماعات » ، و «قانون

مناطق المدن الموحدة للبانتو » ، و« قانون تعديل تشريعات البانتو » . وتسيطر السلطات سيطرة شديدة على مغادرة المناطق الافريقية ، المعزولة للسود ، ودخولها . ولا يستطيع الافريقيون السفر او الاقامة في المناطق البيضاء (اكثر من ثلاثة ارباع البلاد) الا اذا استطاعوا ان يثبتوا سببا رسميا لذلك . ويجب ان يتم هذا بواسطة وثائق سفر رسمية .

وفي اسرائيل تفرض مثل هذه القيود على العرب الفلسطينيين . منذ خلق دولة اسرائيل في ١٩٤٨ ، عاش اكثر من ٨٠٪ من عرب فلسطين ، لفترة من الوقت على الاقل ، تحت الحكم العسكري . والقوانين التي تحكم هذه « المناطق العسكرية » هي قوانين حالة الطوارىء التي اصدرها الانتداب البريطاني في فلسطين عام ١٩٤٥ . وسنت اسرائيل في ١٩٤٩ قوانين اضافية : «قوانين مناطق الامن». وتعطي مواد هذا القانون الحاكم العسكري حقوقا شبه دكتاتورية لا في تقييد حرية الحركة فحسب بل في تقييد جميع الحريات المدنية . وليس ثمة ملاذ للسكان الوطنيين غير السلطات العسكرية — الادارية العليا . وقد طبقت هذه القوانين وهذا الحكم العسكري في المناطق التي فيها اعظم كثافة سكانية للعرب : الجليل ، النقب ، و « منطقة المثلث » في المنطقة الوسطى من البلاد . ودام هذا الحكم العسكري من ١٩٤٨ حتى ١٩٦٦ ، عندما اعيد الى سيطرة الشرطة . وخلال حرب ١٩٦٧ ومنذ ذلك الحين اعيد فرض الحكم العسكري في هذه المناطق ، كما في منطقة الضفة الغربية . ولم يكن هذا الحكم مطبقا قرب الحدود الاسرائيلية فحسب ، بل ايضا في المناطق البعيدة عن الحدود . وكان الخروج من هذه « المناطق المغلقة »والدخول اليها يتم بواسطة جوازات مرور عسكرية بالنسبة الى السكان الوطنيين . ويتوسع صبري جريس في شرح نظام السيطرة هذا الذي تمارسه السلطات الاسرائيلية ضد السكان الوطنيين . وينبغي تجديد هذه الجوازات دوريا في اجراء متعب ، مستهلك للوقت ، واذا حرم العربي هذا الجواز لا يمكنه الرجوع الى احد . وكثيرا ما كانت تمنع اذونات السفر بغية منع العرب من التنافس مع الاسرائيليين على العمل ، خصوصا في المدن (د. بيرتز ، ١٩٥) .

في ١٩٤٨ ارغم العرب الذين ظلوا في مناطق المدن على الانتقال الى مناطق معينة مخصصة لهم، مع التخلي على ممتلكاتهم . هذا الوضع الشبيه بالغيتو القسري ادى الى عزل عرقي للاقلية العربية المخلوقة حديثا . وبرزت هذه العملية الى جانب نظام الحكم العسكري كأساس للعزل العرقي الاجتماعي للعرب .

وكما هي الحال في جنوب افريقيا هناك ، بالطبع، عدد رمزي من السكان الوطنيين في وظائف رسمية وتأسيسية معينة ، ولكن هؤلاء وطنيون «مأمونون» و « مخلصون » . ويلاحظ لاندو ، وهو استاذ جامعي اسرائيلي يكتب عن العرب في اسرائيل بصورة مؤاتية : « كان معظم المرشحين (العرب الذين يزكيهم حزب الماباي) ... من الطبقات العليا للاعيان المحليين والمتعاونين بصورة وثيقة مع الحكومة الاسرائيلية والماباي » (لاندو ، ص ١١٣) . كما ان الاعضاء العرب في البرلمان الاسرائيلي « في حالات كثيرة ... يتوقعون على الارجح موافقة الماباي مقدما على الاسس العامة لخطبهم على الاقل » (لاندو ، ص ١٩٥ — ١٩٦). وتذمر احد هؤلاء المتعاونين « من ان المتحالفين العرب في ائتلاف الرصف لا يستشارون ابدا ، مع انهم يؤمرون حول كيفية التصويت » (استشهد به لاندو ، ص ١٧٩) .

هذا النمط لتشجيع ودعم القيادة الوطنية المحافظة والمتعاونة لا يختلف عن النمط الجنوب افريقي لدعم الزعماء القبليين الافريقيين السود .

واخيرا فان السيطرة السياسية والاجتماعية على السكان الوطنيين هي ضرورية للاستغلال الاقتصادي لهؤلاء القوم . فالسكان الوطنيون في كل من جنوب افريقيا واسرائيل متركزون في فئات العمل الدنيا : الاعمال الحقيرة ، وغير الماهرة ، وشبه الماهرة . وهذه القيود هي اما موضع ممارسة او احيانا يوفرها القانون . وبالفعل ، لا يدفع للسكان الوطنيين في اسرائيل غير جزء مما يكسبه المستوطنون لنفس العمل (صبري جريس ، استنادا الى مناقشات برلمانية ، انظر ايضا ب. بوراث ، ١٩ ، و أ. كوهن ، ١٩٦٤) . ويمارس هنا ايضا النمط المعتاد لكون العربي اخر من يستخدم واول من يصرف من عمله .

ونموذجيا ، فان العمال العرب اما يحرمون حق تنظيم انفسهم او ان هذا الحق يقيد تقييدا شديدا . وفي جنوب افريقيا ، يحدد « قانون التوفيق الصناعي » لعام ١٩٥٦ العمال الافريقيين بطريقة تحرمهم حق التنظيم النقابي . وفي اسرائيل كان لمنظمة المستوطنين النقابية القوية ، الهستدروت ، تاريخ عداء طويل للعمال العرب . ففي ايام الانتداب ، كان شعار الهستدروت ينادي بالعمل لليهود فقط ، وبعد خلق دولة اسرائيل ، صار الشعار الجديد ينادي باستخدام « العمال المنظمين » . وبما ان العمال العرب لم يكونوا منتظمين في نقابات وغير مسموح لهم بالانتماء الى الهستدروت ، فقد عنى هذا الشعار الاخير رفض توظيف العرب وفي ١٩٦٠ سمح للعرب اخيرا بدخول الهستدروت ، ومع هذا فان قوة كسبهم المادي ما تزال جزءا ضئيلا من قوة كسب العمال الاسرائيليين المساوين لهم . « كان العامل العربي ... محصورا في الاعمال الكريهة التي لا يقبل بها العمال اليهود ، كالعمل في البواليع او البناء . ولم تكن الاجور التي تدفع للعمال العرب مساوية ابدا للاجور التي تدفع لليهود ، حتى وان كان العرب يقومون بالعمل نفسه . وعمليا ، كان الكثير من الاعمال مغلقا في وجه العمال والموظفين العرب ... وكان العمال العرب مجبرين على أخذ اقسى الاعمال واكثرها تحقيرا » (أ. كوهين، استشهد به في صبري جريس ، ١٩٦٨) .

ومعظم العمال العرب في اسرائيل هم من النوع « المتنقل من مكان الى مكان » ويقطع احيانا مسافات طويلة ليصل الى عمله ولا يعود الى منزله الا دوريا . ومنذ ١٩٦٧ صار نحو ٧٠ الف عربي من الاراضي المحتلة يسافرون كذلك يوميا من والى اسرائيل للعمل . وقد استخدم هؤلاء العمال العرب كأيد عاملة رخيصة جدا في اسرائيل (انظر س. ريان ، ١٩٧٤) .

ويظهر بوضوح تمييز مماثل في الحقل التربوي . ففي جنوب افريقيا ، رغم بعض التقدم ، نجد أن ٦٠٪ من السكان الوطنيين الذين هم في سن المدرسة الابتدائية خارج المدرسة ، في حين ان المعدل في اسرائيل هو نحو ٣٠٪ (جورج جبور ، ص ٨٣ ، صبري جريس ، ص ١٤٦ F F) .

كما ان مؤسسات ومنشآت التربية الخاصة بالوطنيين هي بشكل واضح احط مستوى وتشكو حرمانا في الثقافة الوطنية . ويقول جريس ان التلاميذ الوطنيين الذين درسوا في مدارس ابتدائية لا يكادون يعرفون قراءة وكتابة لغتهم الوطنية . ويجري تعليم التاريخ الوطني بطريقة مشوهة في حين يصور تاريخ المستوطنين على نحو مجيد (صبري جريس ، ص ١٤٦ — ١٥٥) .

وفي الختام نقول ان «ديموقراطية الهر نفولك» التي اقامها المستوطنون المستعمرون في كل من جنوب افريقيا واسرائيل متماثلة تماما في هدفها وصفاتها العامة ، وان لم يكن في جميع التفاصيل. وتميل البنى الاجتماعية المتشابهة ، والمعضلات في معاملة السكان الوطنيين ، والتسويغات لاستيطانهم والتواريخ اللاحقة الى ايجاد ايديولوجيات مماثلة ، واراء عالمية مماثلة، وتعاطف متبادل . واحد الامثلة الجيدة على ذلك هو الفترة التالية في **برسبكتيف** (اب — اغسطس ١٩٦٧) ، مجلة « مؤسسة جنوب افريقيا » : « اثارت الحرب الاخيرة في الشرق الاوسط اهتماما محموما وقلقا شديدا في اجزاء كثيرة من العالم ، ولكنها لم تثر الا في قلة من الاماكن مثل الشعور العميق بالتورط الشخصي الذي اثارته في جنوب افريقيا . غير ان العطف على اسرائيل لم يكن محصورا في الجالية اليهودية . فالجنوب افريقيون البيض بوجه عام اعتبروا انفسهم معنيين شخصيا بمحنة الاسرائيليين ... وكانوا جميعا يعون التشابه بين حالة اسرائيل ، التي يحيط بها جيران معادون ، وحالة جنوب افريقيا ... وفي هذه الظروف ، بدا من الطبيعي تماما ان ينظر الجنوب افريقيون البيض بوجه عام الى الاسرائيليين بوصفهم رفاق الخطر ، وان يسعوا الى اسعافهم ومساعدتهم تبعا لذلك » (استشهد به في A R G ، ١٩٧١ ، ص ٩ — ١٠) .

قبل ذلك ، في اعقاب التصويت الاسرائيلي ضد سياسة التفرقة العنصرية في الامم المتحدة الذي اغضب الجنوب افريقيين ، تساءلت صحيفة **دي ترانسفالر** : « وهل هناك اي فرق حقيقي بين الطريقة التي يحاول بها شعب اسرائيل ان يحفظ نفسه وسط شعوب غير يهودية والطريقة التي يحاول بها الافريكاني البقاء هو نفسه ؟ ان شعب

اسرائيل يرتكز على العهد القديم ليشرح لماذا لا يرغب في الاختلاط بأقوام اخرى : والافريكاني يفعل هذا ايضا » . (ورد في ستيفنز ، ١٩٧١ ، واعيد طبعه في كتيب ، ص ٢٥) .

وهاجم الدكتور غيرفورت التصويت فادلى بتصريح قال فيه ان اليهود : « اخذوا اسرائيل من العرب بعدما عاش العرب هناك الف سنة . وفي ذلك اوافقهم على ان اسرائيل ، كجنوب افريقيا ، هي دولة تفرقة عنصرية » **راند ديلي ميل**، ٢٣ تشرين الثاني — نوفمبر ، استشهد به ستيفنز ، ١٩٧١ ، ص ٢٥) .

وباختصار ، ينبغي النظر الى اوجه الشبه البنيوية بين النظامين الاجتماعيين الجنوب افريقي والاسرائيلي على انها عامل اخر ترتكز اليه العلاقة الخاصة بين الدولتين .

وكان العداء الذي ظهر علنا ورسميا من جانب الجنوب افريقيين نحو الاسرائيليين عداء مؤقتا في الواقع ، واحد الاسباب هو ان اليهود الجنوب افريقيين المنظمين ، والموالين بقوة للصهيونية ، سعوا الى تسوية الخلافات ، ويقول ستيفنز ان المصالحة بين جنوب افريقيا واليهودية المنظمة ادت ، في الواقع ، الى تقوية جهود اليهودية المنظمة للدفاع عن جنوب افريقيا في الخارج . وحتى قبل التصويت في الامم المتحدة سنة ١٩٦١ ، « كان مجلس النواب اليهود الجنوب افريقيين قد نصح المنظمات اليهودية في الخارج بالامتناع عن التعليق على المشكلات الجنوب افريقية ... وكجنوب افريقيا ، امتنعت جميع المنظمات اليهودية غير الحكومية التي لها صفة استشارية في الامم المتحدة ... من بحث مسألة التفرقة العنصرية » (ستيفنز ، ١٩٧١ ، ص ٢٩ — ٣٠) .

لقد لعبت الجالية اليهودية الصهيونية في جنوب افريقيا دورا مهما في توثيق العلاقات بين اسرائيل وجنوب افريقيا . وفي اسرائيل قام الصهيونيون الجنوب افريقيون المهاجرون ، وابرزهم وزير الخارجية السابق أبا ايبان والسفير الاسرائيلي السابق في الامم المتحدة ميخائيل كوماي ، بممارسة الضغط ايضا من اجل علاقات اقوى بين البلدين . وكانت هاتان الجاليتان هما اللتان ساعدتا الى حد كبير في تطوير الصلات الاقتصادية والتنظيمية والبشرية والثقافية المتبادلة . وهذا الوجه ايضا يعزز اساس العلاقة الخاصة .

لقد تفحصت في هذه المقالة اساس علاقة غير اعتيادية ، كانت حتى الاونة الاخيرة مخفية ، بين دولة اسرائيل وجنوب افريقيا ، واظهرت ان لهذه العلاقة جذورا تاريخية عميقة وحميمة ، تنطوي على صلات مالية واقتصادية وتجارية وعسكرية مباشرة ، كما تنطوي على تعاون دولي غير مباشر خاصة في ما يتعلق بفريق ثالث ، هو الولايات المتحدة . والى ذلك يوجد للدولتين نظامان اجتماعيان وايديولوجيان مماثلان خصوصا في ما يتعلق بالسكان الوطنيين . وفوق ذلك تجتهد جماعات معينة داخل كل من البلدين بنشاط لتقوية الروابط بينهما .

ومما لا ريب فيه ان العلاقة بين الدولتين خلال عقد الستينات واجهت صعوبة فيما تغلغلت اسرائيل في افريقيا السوداء وعززت علاقاتها بها . ولكن بالنظر الى الموقفين المعاديين والمستقبلين بسرعة لافريقيا السوداء وجنوب افريقيا ، باءت لعبة التوازن الخطرة التي قامت بها اسرائيل اخيرا بالفشل بصورة دراماتيكية في ١٩٧٣ عندما اقدمت جميع دول القارة تقريبا على قطع علاقاتها الدبلوماسية مع ذلك البلد .

هذه الدراسة لا تتناول الاوضاع المفضية الى قيام علاقة خاصة بين دولة ودولة فحسب ، بل تتناول ، كذلك ، تلك الاوضاع التي ترتبت عليها — وهي دولية واقليمية والى حد اقل ثنائية — والتي ادت الى قطع العلاقات الدبلوماسية بالجملة . وتعتبد كل من العمليتين على الاخرى . والطريقة التي تم بها قطع العلاقات الدبلوماسية بالجملة مع بلد واحد لم يسبق لها مثيل في التاريخ . ولا تهتم الدراسات الراهنة للعلاقات الدبلوماسية والدولية اهتماما جديا كافيا بتحليل القطع السريع والفجائي للعلاقات الدبلوماسية .

بين الدراسات القليلة المتوافرة ، يبحث ليرتش وسعيد (١٩٧٣) دلالة قطع العلاقات كعنصر اكراهي في العلائق الدولية . وتؤكد المحاولات الاخيرة لتحليل العمل الدراماتيكي الذي قامت به الدول الافريقية توكيدا كبيرا على دور شخصية

واسلوب رؤساء الدول، وعلى الدافع الفظ لكسب المنح والقروض المالية من البلدان العربية المنتجة للنفط والثرية حديثا ، وعلى محاولة الزعماء لاسترضاء الجماعات السياسية الداخلية (جيتلسون ، ١٩٧٤) . ويشير جيتلسون الى « التضامن الواضح » في اعمال الدول الافريقية ضد اسرائيل ولكنه يقول « ان مثل هذا الاجماع في العمل كان ممكنا لان اسرائيل ليست دولة كبرى » وان « الحالة التي احاطت بحرب [١٩٧٣] كان لها فعل متغير معترض عجل في احداث تأثير كرة الثلج » (جيتلسون ، ١٩٧٤ ، ص ٤٧٥؛ انظر ايضا جيتلسون ، ١٩٧٣) .

مثل هذه التفسيرات ليست تحليلا كافيا لاسباب القطع الجماعي للعلاقات الدبلوماسية ولا للعملية المزدوجة المفضية الى قيام دول عديدة بقطع العلاقات وتعزيزها مع قلة معينة . كما ان مثل هذا التحليل يتجاهل التضامن النامي لبلدان العالم الثالث على نطاق عالمي — في المنظمات الدولية الرسمية وفي كتل التصويت على السواء — في النضال ضد الدول الامبريالية الجديدة ، وحليفاتها والدول التابعة لها . وربما كان اعتبار هذا الصراع المتعدد الجوانب مظهرا من مظاهر التناقض الاساسي في العالم اليوم ، هو خطوة اولى في فهم التحولات المعاصرة التاريخية في علاقات الامة — الدولة — والانماط المتغيرة لقطع العلائق الدبلوماسية والتضامن . وفي نطاق هذا التصور العقلي يمكننا ان نفهم فهما كافيا علاقات اسرائيل بجميع الدول الافريقية — الشمالية منها والواقعة جنوب الصحراء الكبرى .

الجدول الاول

صادرات اسرائيل الى افريقيا الواقعة جنوبي الصحراء الكبرى بالوف الدولارات الاميركية*

البلد	١٩٦٢	١٩٧١
جمهورية الكونغو الشعبية	٧	١
انغولا	٧	—
كاميرون	٤	٩
جمهورية افريقيا الوسطى	٤	٢
تشاد	٣	٥
الداهومي	١٥	٩٨
اثيوبيا	٩٧٧	٣٠٥٧٤
الغابون	٣٩	١٦٦
غانا	١٠٤٣٥	٣٠١٠٣
غينيا	١٥	١٦
ساحل العاج	٥٥٤	١٠٢٥٥
كينيا	٣١١	٤٠١٨٧
ليبيريا	٦٨٦	٣٠٣٤٧
مالاغاسي	٢٢٠	٢١
مالي	١٢	١٣
موريشوس	—	٢٥٣
موزمبيق	٢٣	غيرمحدد
ناميبيا	غيرمحدد	غيرمحدد
النيجر	١٠	—
نيجيريا	٢٠٢٥٥	٤٠٩٥٠
رواندا	—	٧٦
روديسيا (مع مالاوي وزامبيا)	٧٢٩	
(مع مالاوي)		١٦٦
السنيغال	٥٥	٣١
سيراليون	—	٧
الصومال (الفرنسي)	غيرمحدد	٧٠
جنوب افريقيا	٢٠٠٠٨	٩٠٣٩٨
تنزانيا	٤٠١	١٠٤٠٢
توغو	٥	٣٢
أوغندا	١٩	٧٠٩٨٥
فولتا العليا	—	٣٠
زائير	٣	٢٠١٣٣
زامبيا		٣٠٠٢٠
غيرها	٨٤٢	١٠٩٧٤
المجموع	١٠٠٧٢٩	٤٧٠٤٢١

* تقديرات .

الجدول الثاني

واردات اسرائيل من افريقيا الواقعة جنوبي الصحراء الكبرى
بالوف الدولارات الاميركية*

البلد	١٩٦٢	١٩٧١
الكاميرون	٣٠	غيرمحدد
جمهورية افريقيا الوسطى	٦١٢	٣٠٢٩٠
جمهورية الكونغو الشعبية	٣٤٣	١٩٣
الداهومي	غيرمحدد	١
اثيوبيا	١٠٥٣٩	٢٠١٩٤
الغابون	٣٠٦٤٤	٨٣٧
غانا	٨٨٨	٨٤٧
غينيـــا	٢٤٦	١١٨
ساحل العاج	٣٧٠	٤١٣
كينيـــا	١٠٥٤٠	١٠٠١٢
ليبيريا	٢٠٧٥٢	٣٠١٨٠
مالاغاسي	٢٢	١٣
مالاوي	غيرمحدد	٣٢٦
مـــالي	٦	٨
موزمبيق	٢٨٩	غيرمحدد
النيجر	غيرمحدد	٢
نيجيريا	١٨٦	٣٠
روديسيا		٥٥
(مع مالاوي وزامبيا)	٢٩٠	
السنيغـــال	١	—
جمهورية الصومال	٥٠	—
الصومال (الفرنسي)	غيرمحدد	٢
جنوب افريقيا	٥٠٥٣٨	٨٠٠٨٠
تنزانيـــا	١٤٥	١٩٧
اوغندا	٢٥٤	١٠٤٣٥
زائير	غيرمحدد	١٣٦
زامبيا		٣٨
غيرها	غيرمحدد	٢٠٨٠٤
المجموع	١٩٠٩٢٥	٢٥٠٢١١

* تقديرات .

الجدول الثالث

قيمة نشاطات سوليل بونيه المشتركة مع الحكومات الافريقية ١٩٥٧ — ١٩٧٠
بالوف الدولارات الاميركية

البلد	قيمة المشاريع المنجزة (١٩٥٧— ١٩٦٩)	قيمة المشاريع الراهنة (١٩٧٠)
اثيوبيا	١٩٠٤٠٠	—
غانا	١٧٠٥٠٠	—
ساحل العاج	٢٠٠٧٤٠	٢٠٣٥٠
كينيـــا	٩٠٥٠٠	١٠٩٠٠
النيجر	٢٠٤٠٠	١٧٠٢٠٠
نيجيريا (المجموع)	٦٧٠٤٥٠	١٠٧٢٥
سيراليون	١٣٠٢٥٠	—
الصومال (الفرنسي)	٥٠٥٠٠	١٠٣٠٠
تنزانيـــا	١٢٠٢٠٠	٧٠١٠٠
اوغندا	٢٧٠	٩٠٥٣٠
زامبيـــا	٧٠٣٠٠	—
المجموع	١٧٥٠٥١٠	٤٣٠٦٥٥

الجدول الرابع

البلدان الافريقية التي وقعت اتفاقيات معونة فنية مع اسرائيل

البلد	السنة
بوروندي	١٩٦٢
الكاميرون	١٩٦٢
جمهورية افريقيا الوسطى	١٩٦٢
تشاد	١٩٦٤
الداهومي	١٩٦١
الغابون	١٩٦٢
غامبيا	١٩٦٢
غانا	١٩٦٢
ساحل العاج	١٩٦٢
كينيـــا	١٩٦٦
ليسوتو	١٩٧١
ليبيريـــا	١٩٦٢

مالاغاسي	١٩٦١
مالي	١٩٦٠
النيجر	١٩٦٣
رواندا	١٩٦٢
سيراليون	١٩٦٢
سوازيلاند	١٩٦٢
تنزانيا	١٩٦٣
التوغو	١٩٦٤
اوغندا	١٩٦٢
فولتا العليا	١٩٦١
زائير	١٩٧١
زامبيا	١٩٦٦

الجدول الخامس

المتدربون الافريقيون في اسرائيل

بحسب حقل التدريب (١٩٦٩)

الحقل	العدد
التعاونيات والعمال	١٢٨
الزراعة والهندسة الزراعية	١١٣
الانماء البيئوي	٦٧
قيادة الشبيبة	٤٧
الطب والصحة	٣٩
طلبة جامعات وكليات	٣٥
الادارة	٣٤
غيرها	١٢
المجموع	٤٧٥

المصادر : مكتب اسرائيل المركزي للاحصاءات ، **فورين ترید ستاتیستیکس** ، المجلد الخامس ، العدد ١٢ ، كانون الثاني — آذار (يناير — مارس) ، ١٩٧٣ ، الجزء الاول والثاني ؛ **جنوب‌افريقيا واسرائيل** ، ١٩٧١ ، ماخوذة من **دايركشن اوف ترید** ، مارس ، ١٩٧٠ .

الجدول السادس

الخبراء الاسرائيليون في افريقيا

بحسب حقل الخبرة (١٩٦٩)

الحقل	العدد
منظمات الشبيبة	٦٨
الزراعة	٤٤
الادارة	٢٠
البناء	١١
الفني	١٠
الاجتماعي	٣
المجموع	١٥٦

الجدول السابع

التجارة بين اسرائيل وجنوب افريقيا

بالوف الدولارات الاميركية

وفقا للمصادر الاسرائيلية	التجارة من اسرائيل الى جنوب افريقيا	التجارة من جنوب افريقيا الى اسرائيل
١٩٦٥	٢٧٧٠٠	٤٧٣٠٠
١٩٦٦	٢٧٣٠٠	٤٧٥٠٠
١٩٦٧	٤٧٠٠٠	٣٧٤٠٠
١٩٦٨	٥٧٧٠٠	٥٧٢٠٠
١٩٦٩	٨٧١٨٠	٥٧٧٩٠
١٩٧٠	١٠٧٦٠٠	غيرمحدد
١٩٧١	٩٧٤٠١	٧٧٩٧٤
١٩٧٢	٨٧٨١٥	١١٧٥٨٩
١٩٧٣ (الاشهر التسعة الاولى)	٩٧٢٠٢	٢٤٧٨٦٣

مراجع البحث

عبد الرحمن ، عواطف، **اسرائيل وافريقية** (بيروت، مركز الابحاث في م.ت.ف. ، ١٩٧٤ .

Abu-Lughod, I. & B. Abu-Laban, eds. *Settler Regimes in Africa and the Arab World*, Wilmette, III. : Medina University Press, 1974.

Abu-Lughod, I. *The Transformation of Palestine*, Evanston, III. : Northwestern University Press, 1971.

[صدر الكتاب بالعربية عن مركز الابحاث بعنوان « تهويد فلسطين »].

Abu-Lughod, J. «The Demographic

in I. Abu-Lughod & B. Abu-Laban, eds, *Settler Regimes in Africa and the Arab World*, Wilmette, III. : Medina University Press, 1974.

Heiman, L. «All's Fair...,» *Marine Corps Gazette*, June 1964.

Herzl, T. *The Diaries of Theodore Herzl*, New York : Grosset and Dunlap, 1962.

[صدر الكتاب بالعربية عن مركز الابحاث بعنوان « يوميات هرتزل »] .

Hepple, A. *Workers Under Apartheid*, London, 1969 (pamphlet).

Israel Yearbook, 1952, 1960/1965.

Jabbour, G. *Settler Colonialism in Southern Africa and the Middle East*, Beirut : PLO Research Center, 1970.

Jerusalem Post, April 1, 1958.

Jiryis, S. *The Arabs in Israel*, Beirut: Institute for Palestine Studies, 1969.

[صدر الكتاب بالعربية عن مركز الابحاث بعنوان « العرب في اسرائيل »] .

Klare, M. *War Without End*, New York : Vintage, 1972.

Koestler, A. *Promise and Fulfilment*, New York : Macmillan, 1949.

Landau, J. *The Arabs In Israel*, London: Oxford University Press, 1968.

Laufer, L. *Israel and the Developing Countries*, New York: Twentieth Century Fund, 1968.

Lerche, C. O. & A. A. Said, *Concepts of International Politics*, Englewood Cliffs, N. J. : Prentice-Hall, 1963.

Lobel, E. «Palestine and the Jews», in A. El-Kodsy and E. Lobel, *The Arab World and Israel*, New York : Monthly Review Press, 1970.

Lorch, N. *Edge of the Sword*, Jerusalem : Massada Publishers, 1968.

Marquand, L. *The Story of South Africa*, London : Oxford, 1966.

MERIP Reports, No. 32, Washington & Boston : Middle East Research and Information Project, Inc., November 1974.

Middle East Record, 1960.

Morris, G. *The CIA and American Labor*, New York : International Publishers, 1968.

New York Times, April 30, 1971.

O'Ballance, E. *The Arab-Israeli War*, 1948, London : Faber & Faber, 1956.

Peretz, D. *Israel and the Palestine* Transformation of Palestine», in I. Abu-Lughod, ed., *The Transformation of Palestine*, Evanston, III. : Northwestern University Press, 1971.

Africa Research Group, «David and Goliath Collaborate in Africa», *Leviathan*, September, 1969.

Afrique-Asie, July 20, 1970.

Agee, P. *Inside the Company: CIA Diary*, London : Penguin, 1975. «Agent Meany», *New Republic*.

American Jewish Yearbook, 1968.

Ben-Porath, Y. *The Arab Labor Force in Israel*, Jerusalem : Falk Institute, 1966.

Begin, M. *The Revolt : Story of the Irgun*, Tel Aviv : Hadar Publishing Co. 1964.

Bilby, K. *New Star in the Near East*, Garden City, N. Y. : Doubleday, 1950.

Childers, E. B. «The Wordless Wish: From Citizens to Refugees», in I. Abu-Lughod, *The Transformation of Palestine*, Evanston, III. : Northwestern University Press, 1971.

Cohen, A. *Israel and the Arab World*, Paris, 1964.

Decraene, P. «Is the Romance with Israel Over?» *Africa Report, May/June*, 1973.

Dowd, D. *The Twisted Dream*, Cambridge, Mass. : Winthrop Publishers, 1974.

Economist, August 27, 1960.

Emmanuel, A. «White Settler-Colonialism and the Myth of Investment Imperialism», *New Left Review*, No. 73, May-June, 1972.

«Financial Credit Agreement between South Africa and Israel», *Africa Diary*, August 20-26, 1970.

Financial Mail, Johannesburg, September 4, 1970.

Frank, A. G. *Latin America : Underdevelopment or Revolution*, New York: Monthly Review Press, 1971.

Free Palestine, December 1974.

Gitelson, S. A. «Israel in Africa : Success and Setback», *Jerusalem Post*, January 12, 1973.

«Why do Small States Break Diplomatic Relations With Outside Powers ? Lessons from the African Experience», *International Studies Quarterly*, Vol. 18, No. 4, December 1974.

Halbrook, S. «The Philisophy of Zionism : A Materialist Interpretation»,

[صدرت الدراسة في شؤون فلسطينية ، عدد ٢٨

South African Financial Gazette, 1971. «South African Trade Mission Visits Israel», *Africa Diary*, February 26 - March 4, 1971.

Standard of Tanzania, October 7, 1972. Stein, L. J. *The Balfour Declaration*, New York : Simon & Schuster, 1961.

Stevens, R. «Settler States and Western Response», Manuscript, 1971.

«Smuts and Weizmann», *Journal of Palestine Studies*, Autumn, 1973, vol. III, No. 1.

«Zionism, South Africa and Apartheid: Paradoxical Triangle», *Phylon*, Vol. 32, No. 2, 1971.

[صدر الكتاب بالعربية عن مركز الابحاث بعنوان « الصهيونية وجنوب افريقية والتمييز العنصري »] .

Sunday Times, London, June 15, 1969.

Tricontinental Bulletin, June, 1968.

Tomeh, G. J. *Israel and South Africa*, New World Press, 1973.

Van Den Berghe, P. L. *Race and Racism*, New York : Wiley, 1967.

South Africa, A Study In Conflict, Middletown, Conn: Wesleyan University Press, 1965.

Vatcher, W. *White Laager*, New York: Praeger, 1965.

Zack, A. *Labor Training in Developing Countries*, New York : Praeger, 1967.

Arabs, Washington, D. C. : Middle East Institute, 1958.

Rivkin, A. *Africa and the West*, New York : Praeger, 1961.

«Israel and the Afro-Asian World», *Foreign Affairs*, April 1959.

Rodinson, M. *Israel : A Colonial Settler State ?*, New York : Pathfinder Press, 1973.

Rogers, H. S. «Imperialism in Africa», *The Black Scholar*, January 1972.

Ruedy, J. «Dynamics of Land Alienation», in I. Abu-Lughod, ed., *The Transformation of Palestine*, Evanston, III: Northwestern University Press, 1971.

Ryan, S. «Israeli Economic Policy in the Occupied Areas : Foundations of a New Imperialism», *MERIP Reports*, No. 24, Washington & Boston: Middle East Research and Information Project, Inc., January 1974.

[صدرت الدراسة في شؤون فلسطينية ، عدد ٣٧ و٣٨ .

Silverburg, S. «Israeli Military and Paramilitary Assistance to Sub-Saharan Africa : A Harbinger for the Role of the Military in Developing States,» M. A. Thesis at American University, Washington, D. C.

Smith, S. *U. S. Neocolonialism in Africa* , New York : International Publishers, 1974.

South Africa and Israel, Research Report by Madison Area Committee on South Africa, 1971

حزب العمال البريطاني وقضية فلسطين

ديفيد واتكنز

« المجلس العمالي للشرق الاوسط » تجمع لعدد من نواب حزب العمال البريطاني الرافضين للسياسة المنحازة التي يتبعها حزبهم في الصراع العربي — الاسرائيلي . وقد قام ستة من أفراد هذا التجمع ، برئاسة العضو في البرلمان ديفيد واتكنز ، بزيارة لبنان وعددا من الاقطار العربية في اواخر ١٩٧٤، واطلعوا على حقائق الامور والمواقف والسياسات الفلسطينية والعربية . ثم قام رئيس المجلس باعداد دراسة تستعرض مواقف حزبه من قضية فلسطين وتضع الاسس لتفهم صحيح لهذه القضية . وقد خص ديفيد واتكنز شؤون فلسطينية بنشر الترجمة العربية للدراسة في الشهر نفسه الذي تنشر في نصها الاصلي في لندن .

تأسس المجلس العمالي للشرق الاوسط في عام ١٩٦٩ ، كتعبير عن القلق المتنامي في صفوف حزب العمال البريطاني ، من التوجه الرسمي المتحيز للحزب حيال مشكلات الشرق الاوسط . ان باب الانتساب الى هذا المجلس مفتوح أمام جميع أعضاء حزب العمال البريطاني ، وغاياته هي السعي الى اقرار السلم والعدالة في الشرق الاوسط ، والى تطبيق قرارات الامم المتحدة ، وذلك بتقديم رؤيا بناءة ومتوازنة للنزاع العربي — الاسرائيلي ، الى اعضاء الحركة العمالية البريطانية .

ينبع هذا الخط من تفكير اشتراكي ينسجم تماما مع ما التزم به حزب العمال في دستوره من تعهد بخدمة السلام ، وتسوية النزاعات الدولية ، والدفاع عن الحقوق الانسانية ، وذلك بتعزيز هيئة الامم المتحدة ودعمها . ورغم ان الصهيونية قد أصبحت ثابتة على نهجها المعادي للامم المتحدة ، فان توجه حزب العمال أضحى أشد مساندة للصهيونية ، مما يعني ان تأييد حزب العمال للصهيونية يتناقض وفلسفة الحزب الاساسية .

لقد كانت الصهيونية منذ انبثاقها ونشأتها المبكرة ، فلسفة قومية ، الامر الذي يجعلها تتناقض أصلا والمفاهيم الاساسية للاشتراكية الديموقراطية . وهذا الامر يلزمنا بان نبحث وندرس ، لكي نعرف كيف أتيح للصهيونية ان تحقق كل هذه السيطرة القوية على حزب العمال البريطاني . وهذا هو ما ترمي اليه الدراسة الحاضرة ، اي متابعة ودرس مسيرة التطور للنفوذ الصهيوني في الحزب .

بدأ أتدخل البريطاني في النزاع الهائل في الشرق الاوسط ، في الحرب العالمية الاولى ، وهو تدخل لا يقدم صورة مشرقة في اي حال . فالاقطار العربية التي كانت حينئذ جزءا من الامبراطورية التركية ، قطعت لها عهود بالاستقلال، لقاء قيامها بمساندتنا في الحرب . وفي ذلك الوقت نفسه ، كانت كل من بريطانيا وفرنسا تبرمان اتفاقية سايكس — بيكو لتقطيع هذه الاقطار واقتسامها بين الطرفين بعد انتهاء الحرب ، بما يخدم اغراضهما الامبريالية . ثم جاء تصريح بلفور ، في عام ١٩١٧ ، بعد مفاوضات سرية بين الحكومة البريطانية وبين الحركة الصهيونية ، وهو تصريح كان منطلقا لسلسلة من الاعمال انتهت بتأسيس دولة صهيونية على تراب فلسطين .

كان تصريح بلفور فاتحة عهد التواطؤ والمحاباة. وهذه هي أول مرة تقوم فيها المؤسسة البريطانية

ببيع شعب لا تملك عليه حق السيادة ، لصالح جماعة اخرى افضل تنظيما .

لا يمكن تشييد السلام في الشرق الاوسط ، الا على دعائم العدالة . ان هذا السلام القائم على العدل ، سوف ينهي بؤرة للتوتر تهدد بحريق عالمي خطير، كما سيفتح الباب امام امكانات عظيمة لتحقيق التقدم ، سواء في الغرب او في الشرق ، في النصف الشمالي من الكرة الارضية او في نصفها الجنوبي على السواء . وعلى الحركة العمالية في بريطانيا أن تبرهن على ان جل ما تبتغيه في الشرق الاوسط ، هو المساهمة بخدمة التزامها بقضية العدالة والتقدم ، وليس المساندة الفورية والآلية لاي من الفريقين .

وقت لاعادة التفكير

كانت حرب الشرق الاوسط في اكتوبر — تشرين الاول ١٩٧٣ ، نهاية عصر ، اذ انهت هذه الحرب أسطورة الجيش الاسرائيلي الذي لا يقهر ، كما انهت حقبة مديدة من التوسع الصهيوني الذي بدا لفترة طويلة وكأنه لم يكن يواجه اية مقاومة . واستنهضت هذه الحرب معارضة شبه اجماعية للسياسات الاسرائيلية بين أمم آسيا وافريقيا الناشئة ، كما كشفت للعالم الغربي ان حقائق الموقف في الشرق الاوسط تختلف كليا عن المعطيات التي يعرفها ويؤمن بها على نطاق واسع . لكن هذه الحرب كانت بالنسبة لقادة حزب العمال البريطاني مناسبة اخرى لاعادة تأكيد التزامهم الكامل والفوري بالخط الاسرائيلي ، مما ألحق بالحزب اضرارا في الوطن (بريطانيا) ، وأذى كبيرا على صعيد العالم الثالث . ومع ذلك فلقد كانت حرب اكتوبر ١٩٧٣ ، فاتحة أول تحد ناجح للهيمنة الصهيونية على حزب العمال البريطاني، وانتشار قناعة على نطاق واسع في صفوف الحزب، بانه لا بد من مراجعة السياسة حيال فلسطين وشعبها .

كتب الدكتور جون هـ. دينيس ، المرجع الموثوق والمشهور عالميا ، والاميركي البارز الذي تولى المفوضية العامة لوكالة هيئة الامم المتحدة لاغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين طيلة خمس سنوات ، يقول : « لقد وجدت ، بصفتي المفوض العام للاونروا ، ان هناك تفاوتا كبيرا بين الفهم الشائع عالميا لمشكلة اللاجئين الفلسطينيين ، وبين حقيقة القضية ، بل ووجدت ان هناك تناقضا في عدة نواح وأوجه ، بين ذلك الفهم والواقع . وحين بدأت بدراسة الجوانب الاساسية للعلاقات العربية — الاسرائيلية ، اكتشفت الامر نفسه ، أي هذا الابتعاد عن فهم الحقيقة ، بل والتعارض معها ، وخاصة فيما يخص بالفهم السائد لسبب النزاع »(١).

الواقع ان الحركة الصهيونية بذلت مجهودات جبارة وناجحة على امتداد العالم قاطبة ، لخلق الموقف المشار اليه ، اي موقف عدم الفهم ، أو الفهم المعاكس للحقيقة . وحققت الحركة الصهيونية في حزب العمال البريطاني نجاحا لم تعرف له مثيلا في اي مجال اخر . لكن الحقيقة بدأت بالتقدم والانكشاف على مدى العالم كله . وبالنسبة للحركة العمالية في بريطانيا ، أزفت ساعة الامتحان الحاسم للنفوذ الصهيوني ، وضرورة ارساء دعائم سياسة تقوم على معطيات اكثر انفتاحا وشمولا وملاءمة من السياسة السائدة حتى الان .

كان من مقاصد وسياسات الفروع البريطانية للحركة الصهيونية العالمية ، على الدوام ، التسلل الى حزب العمال البريطاني . اما غاية الصهيونية فلقد كانت ولا تزال ، طرد الشعب الفلسطيني من أرض وطنه ، واقامة دولة استيطانية يهودية على تلك الارض . وكان الصهيونيون ولا يزالون ينطلقون في نشاطهم من فرضية أن معهم حقا الهيا بالوصول الى هذا الهدف ، وعلى أساس ان تحقيق هذه الغاية يبرر اللجوء الى اية وسيلة . والحقيقة ان الغاية التي سعت اليها الصهيونية ، مثلها كمثل الوسائل التي استعملت لتحقيقها ، تتناقض والمبادىء الاساسية للديموقراطية الاشتراكية . وبرغم ذلك فسان التسلل الصهيوني الى حزب العمال البريطاني حقق نجاحا مدهشا ومثيرا الى ابعد الحدود .

لقد وصل الامر بأعضاء حزب العمال البريطاني ان يؤمنوا بأن الصهيونية والاشتراكية صنوان ، وان العرب غزاة ومعتدون . الا ان الفلسطينيين هم الذين طردوا من ارضهم . كان الفلسطينيون يشكلون ٩٢٪ من سكان فلسطين في عام ١٩١٧ ، أما اليوم فان مليونا ونصف المليون من الفلسطينيين

يعيشون كلاجئين ، ومليونا اخر منهم يعيش في ظل الاحتلال العسكري الاسرائيلي . وهؤلاء الفلسطينيون لم يطبق عليهم أبدا مبدأ حق تقرير المصير ، وهو المبدأ الركن في فلسفة حزب العمال البريطاني ، لم يطبق عليهم في تصريح بلفور في عام ١٩١٧ ، ولا في قرار الامم المتحدة لتقسيم فلسطين في ١٩٤٧ ، ولا في عام ١٩٤٨ عندما اعلنت اسرائيل وجودها ، طاردة أول فوج من اللاجئين . ولا يزال من الاهداف الرئيسية للسياسة الصهيونية حتى يومنا هذا ، عزل وابعاد الفلسطينيين عن اية مفاوضات مقررة لتحقيق السلام العادل والدائم .

وهكذا فان حزب العمال البريطاني يجد نفسه منذ اكثر من نصف قرن ، تحت تأثير قناعة بضرورة ان « يفصّل » مواقفه وسياساته بما يتمشى و « الزي » الصهيوني . وتجاهل الحزب ، أو — كما هو أسوأ — جهل ، أن اقامة دولة اسرائيل ، قد أنزلت بالشعب الفلسطيني ظلما مريعا لا تقبله المبادىء الاشتراكية الاساسية . وهكذا فان تأييد حزب العمال البريطاني ، لاسرائيل والصهيونية ، قاده الى وضع ناشز ، يتعارض مع مبادئه الاساسية ، وتتجلى فيه ازدواجية المواقف في قضايا انسانية واخلاقية كبيرة . وأصبح حزب العمال البريطاني منعزلا بصورة متزايدة عن الرأي العام العالمي ، وعلى الاخص في دول العالم الثالث . ولا بد الان من اعادة تقويم لهذه المواقف تتناول كل النواحي الاساسية للقضية .

الصهيونية والاشتراكية

انتظمت كل من الصهيونية العالمية والاشتراكية البريطانية في اطار حركة سياسية ، في ظروف متشابهة ، الامر الذي يفسر الى حد بعيد نفوذ الاولى (الصهيونية العالمية) في الثانية (الاشتراكية البريطانية) . ونشأت الحركتان في الوقت نفسه تقريبا . ففي عام ١٨٩٧ التقى في بال في سويسرا مائة وسبعة وتسعون مندوبا في المؤتمر الصهيوني الاول . وفي عام ١٩٠٠ ، التقى في لندن ، مائة وتسعة وعشرون مندوبا في مؤتمر تأسيسي لانشاء حزب العمال البريطاني . وفي كل من الحالتين ، كان هناك التقاء وتجمع بين الناس الذين تتعرض مصالحهم لعداء النظام القائم ، بهدف خلق الاداة التي تمكنهم من رسم مستقبلهم . ولكن كان هناك اختلاف كبير وحاسم في الخلفية والتجربة، بين الصهيونيين في اوروبا الشرقية ، وبين الاشتراكيين في بريطانيا .

كان المندوبون الذين التقوا في لندن ، خليطا متنوعا من الناس . وكما يحدث بين افراد أية جماعة من الناس تلتقي على هدف عمومي واحد ، فلقد برزت بينهم اختلافات في الاراء ، سواء حول طبيعة الهدف ذاته ، او حول الوسائل المبتغاه لتحقيق الهدف . وكان ما يوحد هذا الحشد من الناس هو اجماعهم على ازالة الفقر ، والمرض ، والجهل ، والاستغلال البشع ، وهذه كلها كانت من نصيب جماهير الشعب البريطاني العامل . لكنهم كانوا أصحاب رؤيا اوسع ، اذ ادركوا ان الاستغلال والقمع يمتدان بعيدا الى ما وراء حدود وطنهم . ولهذا اعلنوا معارضتهم لحرب البوير التي كانت في أوجها في ذلك الحين ، لانها كانت امتدادا للامبريالية والاستغلال ، كما كانوا معادين بالغريزة للاحياء « المقفلة » — الجيتو ، وللمذابح المدبرة التي كانت تنظمها الامبراطوريات الاستبدادية في القارة الاوروبية ، لان هذه النواحي كانت تجليات وتعبيرات عن الحالة العامة .

أما الصهيونيون الذين اجتمعوا في مؤتمر بال فلقد كانوا ايضا شديدي التوق قبل كل شيء لتخليص شعبهم مما يعانيه من اضطهاد ، انما ، وبسبب خلفيتهم المختلفة كثيرا ، فان نظرتهم كانت شديدة الاختلاف . كان القادة الاوائل للحركة الصهيونية ، على وجه الحصر ، من ابناء تجربة « الجيتو » ، والذهنية الناشئة والمتولدة في جو « الجيتو » . وكان اليهود في وسط وشرق اوروبا يتعرضون للقمع والاضطهاد ، ومحرومين حتى من تلك الحقوق المدنية الهزيلة التي كانت مباحة لهم في امبراطوريات استبدادية مثل النمسا — المجر وروسيا القيصرية . وكان المندوبون المجتمعون ، وجميعهم من اصحاب هذه الجذور « الجيتوية » ، بلا المام بالنظام البرلماني ، وعلى غير دراية بالمعارضة المنظمة ، التي كانت تقوم في بريطانيا على حركة اتحاد النقابات ، وكانت تقود نحو « دمقرطة » البرلمان .

كان ثيودور هرتزل مدفوعا بخلفيته هذه حين ألف كتاب « دولة اليهود » ، الذي طرح فيه فكرة اقامة دولة يهودية والدعوة الى عقد المؤتمر . وهذا ما كتبه موشي مينوحين في شهادته البارزة

الاهمية عن تنافر وتعارض الصهيونية مع القيم العالمية لليهودية : « ان ما عانته بحق جماهير العالم غير اليهودي ، وما رزحت فيه وثارت عليه من وهن وجور واستغلال ، لم يعانه هو بل تهرب منه كليا . انه لم يكن قادرا على ، ولا راغبا في ان يرى تطور التاريخ ، ولا أن يكافح من اجل اعتاق العالم كله ، والاخاء الانساني الذي كان يتقوى ويتدعم بالتأكيد ، وان كان مصحوبا بألم عظيم »(٢).

لقد اقتنع هرتزل بان جميع اليهود ، وهيثما كانت مواطنهم ، كانوا هدفا للاضطهاد من جانب غير اليهود ، ومن اجل هذا الوضع سك عبارته المشئومة « المسألة اليهودية » ، وتصور حل هذه « المسألة » باقامة دولة يهودية يجمع فيها اليهود من أربع رياح الارض . وهذه الفكرة كانت مصدر وحي المندوبين الذين اجتمعوا في مؤتمر بال ، لكن هؤلاء — كما هرتزل من قبلهم — فاتهم استيعاب الرؤيا الشاملة للامور ، وهكذا اطلقت الصهيونية في مجرى عنصري زادت في قوته التطورات واحداث العقود التالية .

ومن الامور الواردة والمسجلة « ان شخصين اشتراكيين حضرا المؤتمر الصهيوني الثاني »(٣). وهذه بينة ساطعة على ان الاشتراكية لم تكن سوى جزء ضئيل الاهمية في الصهيونية . على ان الثورة الصناعية كانت في سبيلها الى النمو في اوروبا الشرقية ، وخلقت طبقة عاملة يهودية أضيفت الى اصحاب الدكاكين والحرفيين المستقلين والنزر اليسير من أصحاب المهن ، الذين كانوا يشكلون الاغلبية السكانية بين اليهود . وفيما شرع هؤلاء العمال بتنظيم صفوفهم ، عاجلتهم الصهيونية ، فغمرتهم بتأثيرها ، وسيطرت على منظماتهم .

يبدو ان اسم « بوعالي زيون » ظهر لاول مرة في مينسك في عام ١٨٩٧ ، ويعني « عمال صهيون ». وفي عام ١٩٠٥ تأسست منظمة « عمال صهيون » كحزب قام بايفاد سبعة واربعين مندوبا عنه في العام التالي الى المؤتمر الصهيوني السادس . وفي عام ١٩٠٧ ظهر الاتحاد العالمي لعمال صهيون ، الذي اعلن في عام ١٩٠٩ برنامجا رسميا دعا الى القضاء على الرأسمالية ، والى اخضاع وسائل الانتاج للملكية الاشتراكية ، والى « الحل الاقليمي للمسألة اليهودية ، وذلك بالاستيطان الجماعي في فلسطين »(٤). وتقدم الاتحاد العالمي لعمال صهيون بثلاثة طلبات للانتساب الى الدولية الاشتراكية في المرحلة السابقة على العام ١٩١٤ ، في الاعوام ١٩٠٧ و ١٩٠٨ و ١٩١١ ، وجميع هذه الطلبات رفضت ، ولقد وصف رواد الدولية الاشتراكية ، الصهيونية ، بانها وليدة القومية وليست وليدة الاشتراكية .

وتكون الهستدروت ، الاتحاد العام للنقابات اليهودية ، في فلسطين في عام ١٩٢٠ . وكان الهستدروت منظمة فريدة ، واكثر بكثير من كونه قيادة لنقابات متحدة — كان منظمة سينديكالية ، سياسية ، عسكرية ، وقبل كل شيء صهيونية ، مكرسة لاحلال العمال اليهود المهاجرين محل العمال العرب . وأصبح الهستدروت في ظل زعامة ديفيد بن جوريون ذا تأثير قوي في الحركة الصهيونية منذ الثلاثينات ، وكذلك حين أصبح بن جوريون أول رئيس وزراء لاسرائيل . امتد نفوذ الهستدروت في كل النواحي ، ولعب بن جوريون دورا رئيسيا في ترتيب العلاقة الدولية الفوقية القائمة حاليا بين دولة اسرائيل وبين الحركة الصهيونية العالمية . هذه العلاقة تؤدي وظيفة مزدوجة ، فهي من ناحية تمنح المواطنة الاسرائيلية لجميع اليهود بصرف النظر عن اوطانهم وجنسياتهم ، ومن ناحية ثانية توفر لاسرائيل منظمة قوية ذات مدى عالمي واسع تضع نفسها في خدمة مصالحها .

التسلل الى حزب العمال البريطاني

كان المجتمع اليهودي في بريطانيا ، مع اطلالة القرن العشرين ، منقسما طبقيا بالحدة نفسها التي انقسم بها بقية ابناء بريطانيا . فمن ناحية كانت هناك أقلية صغيرة من الاسر الثرية ، كانت جزءا لا يتجزأ من المؤسسة الحاكمة . ومن الجهة الاخرى كانت هناك تجمعات بأحجام مهمة في لندن وبقية المدن ، تتكون في الغالب من المهاجرين أو من أبناء واحفاد المهاجرين الذين غادروا بلاد — الجيتو ولجأوا الى بريطانيا سعيا وراء مجتمع أكثر حرية . وكان هؤلاء يشعرون بنسب ضعيف يربطهم باليهود من ابناء الطبقة الحاكمة . وكان ارتباطهم الاوثق مع بقية ابناء الطبقة البريطانية العاملة ، واظهروا درجة قوية من المساندة لحزب العمال الوليد . وكانوا يمثلون بالنسبة لنشطاء « عمال

صهيون » تحديا محتملا وتهديدا كامنا .

تأسست الحلقات الاولى الصغيرة من « عمال صهيون » بين ابناء الطبقة العاملة اليهودية في بريطانيا ، في عام ١٩٠٢ ، احداها في ايست اند في لندن ، والاخرى في ليدز ، وكان عمر هذه التجمعات قصيرا ، لكن في غضون سنوات قلائل ، وبعد عدة انشقاقات وبدايات زائفة او مغلوطة ، تكونت منظمة قومية . وانعقد مؤتمر في ليفربول في ديسمبر — كانون الاول ١٩٠٦ ، أعلن عن هذه المنظمة باعتبارها الفرع البريطاني لعمال صهيون ، و « تبنى برنامجا اشتراكيا صهيونيا جذريا ، لا يشتمل على عدد من المبادىء النظرية فحسب ، بل وكذلك على خطة للنشاط العملي في جميع حقول العمل والنشاط في فلسطين »(٥). وهكذا فان التسلل الصهيوني الى الحركة العمالية بدأ في العام ذاته الذي شهد انتخابات عامة جذرية في بريطانيا أتت بحزب العمال البريطاني الى البرلمان لاول مرة.

حاييم وايزمان الذي استقر في مانشستر عام ١٩٠٤ ، صب كراهيته على اليهود الاثرياء « المندمجين » ، لكنه لم يبد أدنى اكتراث أو اهتمام بمطامح الشعب العامل . ولقد روى ريتشارد كروسمان كيف انه اثناء بحثه في مراسلات وايزمان في ارشيف رحوبوت في اسرائيل ، لم يجد فيها غير اشارة وحيدة الى الاحوال الاجتماعية في مانشستر ، التي عاش فيها وايزمان لعدة سنوات ، بل وكانت اشارة عابرة الى « ما يبدو على العمال من نظرة حزينة وهم في طريقهم الى المصنع »(٦).

وقبل ان يقيم وايزمان في بريطانيا ، تعاطى التدريس في سويسرا ، ويروي كروسمان عن جدال وقع هناك بين وايزمان وبين منظمة الطلبة الروس الماركسيين ، وان وايزمان ابلغ هؤلاء « بكل برودة، ان الثورة العالمية كلام فارغ وتهرب ، وان الطريقة الوحيدة التي يستطيع بها اليهودي ان يحقق الحرية لنفسه ولشعبه هي بالعودة الى صهيون ، وتحويل فلسطين الى دولة قومية يهودية »(٧).

وبرغم عدم ايمان وايزمان بهذه الحقيقة ، وتقديره لهذه المسألة، فلقد كانت الحركة الصهيونية مجالا للصراع الطبقي، مثلما كانت الدول الصناعية الاوروبية تماما ، وكان طلائعيو عمال صهيون في بريطانيا ماركسيين متحمسين بالقدر نفسه الذي كان فيه وايزمان معاديا للماركسية . « لقد ناضلوا من اجل تحسين الوضع الاجتماعي للجماهير العاملة والتزموا بمفهوم الصراع الطبقي » . و« اتخذوا موقفا سلبيا من الوسائل التي يلجأ اليها الاتحاد الصهيوني في نشاطه » ، ومع ذلك أرادوا البقاء في صفوف هذا الاتحاد أطول مدة ممكنة « ليتمكنوا من التصويت الحر والنقد النزيه » . وكان بين أهداف عمال صهيون في بريطانيا « دمقرطة الحركة الصهيونية »(٨).

وعلى هذا يتبين لنا ان « عمال صهيون » في بريطانيا وجدوا انفسهم في سنواتهم الاولى، يقاتلون على جبهتين . وكانوا ساعين للتسلل والتسرب الى الحركة الصهيونية من ناحية ، وكذلك الى الحركة العمالية في بريطانيا من الناحية الثانية . وكان عليهم ان يجدوا صيغة ما لحل التناقض بين نظرتهم الى الشعب العامل من كل الاجناس والطوائف من جهة ، وبين توجههم نحو اليهود وحدهم من جهة اخرى . ومع مرور الوقت ، حلوا هذا التناقض بالتخلي عن نظرتهم المتعددة العروق والاجناس ، وبقصر توجههم على القومية اليهودية التي تدعو اليها المنظمة الصهيونية . وحيث ان « عمال صهيون » كانت في الاساس حركة سياسية لا حركة نقابية صناعية ، فان تأثيرها على النقابات العمالية كان ضئيلا ، لكنها تمتعت بتأثير اقوى بكثير على حزب العمال الذي كان هدفه الاوحد نجاح وتقدم الصهيونية .

المقاييس المزدوجة

شن « عمال صهيون » قبل اندماجهم بحزب العمال عام ١٩٢٠ ، حملة مستمرة للتأثير على هذا الحزب . « ولقد شنوا على نطاق واسع حملة توعية حول المطامح الصهيونية الاشتراكية في فلسطين وغيرها » وبلغت الحملة ذروتها في اعلان تصريح بلفور عام ١٩١٧ ، عندما « نظم عمال صهيون عددا كبيرا من الاجتماعات في جميع انحاء بريطانيا ، أعدت للقاء خطابات من قبل قادة الحركة العمالية البريطانية »(٩).

وبعد عيد الميلاد مباشرة في العام ١٩١٧ ، تبنى مؤتمر خاص لحزب العمال بيان الحزب الشهير بشأن اهداف الحرب . وأدرجت في ذلك البيان اشارة تنص على وجوب ان تصبح فلسطين « دولة

حرة » في ظل ضمانة دولية ، يمكن للراغبين من الشعب اليهودي العودة اليها ، ليحققوا فيها خلاصهم ، بمعزل عن اي تدخل من قبل الاجناس والاديان المغايرة » . لقد اخفق الحزب في أن يدرك أن ما كانوا يفعلونه بالضبط ، هو تقديم فلسطين الى جماعات تنتمي الى دين مغاير وجنس مغاير ، كانت تستهدف ليس فقط التدخل في حياة السكان المحليين الفلسطينيين ، بل وطردهم خارجا . ومما يضفي على المسألة روح المفارقة والسخرية ، العبارة التالية التي وردت في البيان : « ليس هناك من معنى لاعلان حقوق الشعوب في تقرير المصير ، اذا ما ترك هذا الحق تحت رحمة انتهاكات جديدة ، ولم يشمل بحماية سلطة دولية فوقية » .

لكننا نعلم من وقائع التاريخ عن اعتداءات الصهيونيين القاسية وانتهاكاتهم الفظة لحقوق شعوب فلسطين والبلدان المجاورة في ان تقرر مصيرها، وازدرائهم لـ ، وخروجهم على ، مساعي السلطة الدولية الفوقية ، هيئة الامم المتحدة ، لحماية هذه الحقوق . وهكذا تبنى حزب العمال — بتأثير النفوذ الصهيوني — مواقف ازدواجية حيال الشرق الاوسط في عام تصريح بلفور ، رغم انه يمكن القول — بهدف التلطيف والتخفيف — ان المقاصد الحقيقية للصهيونية لم تكن قد فهمت على نطاق واسع في ذلك الوقت ، كما لم يكن قد توفر استيعاب والمام بما في مصطلحات ومفردات اللغة الصهيونية من التواء .

ومنذ انضمام « عمال صهيون » الى حزب العمال البريطاني ، تدفق سيل عارم من القرارات على مؤتمرات الحزب ، كما كان انضمامهم نقطة انطلاق لولادة العديد من منظمات الواجهة الصهيونية : المكتب السياسي ، جماعة الدراسات الفلسطينية في حزب العمال ، مجلس فلسطين العمالي السياسي ، بالاضافة الى جماعات شبيبة متنوعة ، وأصدقاء اسرائيل في حزب العمال ، الى آخره .. الى آخره !

واستنادا الى السجلات ، لم يكن هناك اي نائب من حزب العمال ، قد أثار في مجلس العموم قضية فلسطين ، لكن العام ١٩٢٠ شهد بداية سيل ثابت من الاسئلة الموحى بها من الصهيونية ، في مجلس العموم . ولم يمض وقت طويل ، ففي العام ١٩٢٢ القى أول خطاب في مجلس العموم عن قضية فلسطين من مقاعد العمال . والواقع ان مجلس العموم لم يكن حتى ذلك الحين ، اي بعد مرور أربعة أعوام ونصف العام على تصريح بلفور ، قد تطرق الى اية مناقشة حول فلسطين على الاطلاق. وكان الناطق العمالي في تلك الجلسة المستر جوزيا ودجوود ، النائب عن منطقة نيوكاسل ابن ليم (الذي أصبح فيما بعد اللورد ودجوود) . ولقد بسط المستر ودجوود الراي عن الصهيونية باعتبارها القوة التي ستجلب الديموقراطية والتقدم الى فلسطين ، وان جماهير الشعب العربي ترحب بها في فلسطين ، ولا يعارضها سوى أصحاب الاراضي الاقطاعيون. وان العرب العاديين « وقفوا ينتظرون المنافع الهائلة التي سيقطفونها بسبب التنمية التي سيوفرها الشعب اليهودي في فلسطين »(١٠).

الواقع ان هذا « الخط » ، وما لحقه من تنويعات ، أصبح منذ ذلك الحين أحد أبرز الموضوعات الصهيونية المألوفة ، وساهم الى حد بعيد في التأثير على قناعات جيل كامل من اعضاء حزب العمال . ومع ذلك ، فبينما كان هذا الخط في ذروة طرحه على أوسع نطاق في بريطانيا في العشرينات والثلاثينات من هذا القرن ، كانت الهستدروت في فلسطين حريصة على ان تكفل عدم تشغيل عمال من غير اليهود في مصادر العمل القائمة برأسمال يهودي ، وفي حال شراء ارض من مالكها العربي ، كانت حريصة على استبدال العمال العرب فوق هذه الارض بعمال من المهاجرين اليهود .

وفي وقت اقرب الينا ، اي في العهد الذي نعيشه ، شهد هذا « الخط » بعض التنويع ، وأضيف اليه « تأكيد » بأن المقاومة الفلسطينية قاصرة على جماعات صغيرة محدودة من «الارهابيين» وانها بلا سند من الشعب . ان اي شخص أتيح له أن يختلط بالفلسطينيين على مختلف مستوياتهم الاجتماعية ، سواء في الشرق الاوسط او في بريطانيا او في أي مكان آخر ، ودون ان نستثني الشبيبة التي تشق طريقها ضد جميع أشكال التمييز والتحيز ابتداء من المدارس القائمة على نظام المناوبات في مخيمات اللاجئين ، وانتهاء بالجامعات ، ان أي شخص أتيح له أن يحتك بهؤلاء الناس ، يعرف مقدار الكذب في « التأكيد »

الآنف الذكر من ناحيته . ويمكن القياس على هذه الحالة بالخط المألوف الذي تنهجه المؤسسة البريطانية ، بشأن الاضطرابات التي تحدث في ميدان الصناعة والتي يقوم بها ملايين العمال ، اذ تصور الامر على انه محدود ومحصور بفئة قليلة من « المتطرفين » ، وان الاغلبية الساحقة من العمال قانعة ومرتاحة وتحترم الوضع القائم .

كانت حكومة الاقلية العمالية الاولى التي تسلمت الحكم في اعقاب الانتخابات العامة في شهر ديسمبر — كانون الاول ١٩٢٣ ، قليلة التعاطي — نسبيا — بقضية فلسطين . كان الانتداب قد بدىء العمل به قبل ذلك بوقت قصير ، ويبدو انه في أعقاب مرحلة انشاء الانتداب التي شهدت نشاطا كثيفا ، جاءت مرحلة تقتضي الانتظار لمراقبة تطور الموقف . وحدث في أوائل أيام هذه الحكومة التي كان عمرها قصيرا ، ان سئل وزير الدولة لشؤون المستعمرات ، المستر جي. هـ. توماس ، عما اذا كان أي قرار قد اتخذ بشأن مستقبل فلسطين ، فأجاب باعلان استمرار التزام الحكومة بسياسة تطبيق تصريح بلفور . ومن الاهمية بمكان في هذا المجال قوله أيضا أن الحكومة توصلت الى هذا القرار « بعد تقدير دقيق للموقف من كافة جوانبه » ، ثم انه حرص على ان يضيف انه لا يجب ان يحدث شيء يمس بالحقوق المدنية والدينية للجماعات غير اليهودية في ذلك البلد(١١).

الذين عارضوا الصهيونية

على انه كان هناك بين أعضاء حزب العمال من فهموا طبيعة الصهيونية في وقت مبكر ، أي منذ الايام الاولى التي بدأت بتوجيه ضغطها على الحزب . وسعى هؤلاء الى كشف التناقضات في الموقف الذي كانت الصهيونية تقود الحزب اليه بدهاء . وكان هؤلاء قلة في عددهم من ناحية ، ولم يعطهم الحزب — من الناحية الاخرى — غير أقل التفات واكتراث . ودخلت ثلاثينيات هذا القرن قبل أن يرتفع أي صوت في مؤتمرات حزب العمال ، لكن كان هناك نواب عماليون لم يترددوا في رفع أصواتهم في البرلمان ، منذ عهد حكومة الاقلية الاولى .

ها هو المستر تي. اس. بي. وليامز ، النائب العمالي عن لامبيث كينجتون ، والطبيب ، والجندي الذي قضى في وقت سابق عدة سنوات في الشرق الاوسط ، يطلب اعادة تقدير الموقف برمته . وقال في خطاب بارز الاهمية : « اذا نظر المرء الى الشرقين الادنى والاوسط ، أمكن له ان يقول بصدق اننا استطعنا بشكل عام ان نرسم سياسات تقوم على التشاور ومحاولة تلبية رغبات السكان في هذه البلدان ، باستثناء بلد واحد هو فلسطين . ذلك اننا في فلسطين نتجاهل كليا رغبات شعبها (...) ان تعداد السكان يبلغ حوالي ٧٥٠ ألفا ، بينهم ٦٥٠ ألفا من المسلمين . وان نحو ٥٠ او ٦٠ ألفا من المسيحيين ، والبقية من اليهود . ومما لا ريب فيه قطعيا ان المسلمين والمسيحيين في فلسطين معادون بقوة لمجمل السياسة الصهيونية في فلسطين . كما ان هناك عددا لا بأس به من اليهود الارثوذكس يعارضون هذه السياسة . ان أكثر من تسعين بالمائة من شعب فلسطين يعادي السياسة التي ننتهجها في ذلك البلد (...) ومن الجلي ان السياسة الراهنة تقوم على ادارة شؤون البلد بما يخدم مصالح أقلية متمتعة بامتيازات . واني لاقول موجها كلامي الى الوزير ، ان هذه سياسة أقل ما يمكن ان يقال فيها انها مناقضة لمبادىء حزبنا » .

وحين تطرق الدكتور وليامز في الخطاب نفسه الى عرض بلفور تأسيس « وطن قومي » للمهاجرين اليهود في فلسطين ، أكد ان الحجة ضد الصهيونية هي ان الشعب الفلسطيني موجود فعلا في وطنه القومي ، وانه لا توجد أية أهمية لكون هذا الشعب من المسيحيين او اليهود او المسلمين . وخلص الى القول : « اذا كنت على صواب فيما أقول ، فمن الجلي انكم ترتكبون ظلما شديدا باخضاعكم رغبات هؤلاء الناس [الفلسطينيين] الموجودين في وطنهم القومي ، لرغبات اولئك الذين لم تكن [فلسطين] وطنا قوميا لهم في أي يوم من الايام »(١٢).

وكان هناك شخص آخر رفع راية العدالة في الشرق الاوسط ، هو المستر ف. سيمور كوكس ، نائب بروكستو ديفيجن أف نوتنجهامشير . فبلا جدوى حاول هذا النائب ، خلال عهد حكومة الاقلية العمالية الثانية ، أن يقنع الحكومة بنشر المراسلات السرية التي تبودلت في عامي ١٩١٥ و١٩١٦ بين سير هنري مكماهون المفوض البريطاني الاعلى في

مصر ، وبين حسين ، شريف مكه ، الناطق المسلم به باسم القضية العربية ، تلك المراسلات التي توصلت الى اتفاقية تعهدت فيها بريطانيا بالاعتراف بـ ومساندة استقلال العرب ، بعد اندحار تركيا ، لقاء دعم العرب لبريطانيا في الحرب [العالمية الاولى] .

وادعى ونستون تشرشل ، عام ١٩٢٢ ، عندما كان وزيرا للدولة لشؤون المستعمرات ، ان عهود مكماهون لم تشتمل على فلسطين(١٣). وأشار سيمور كوكس الى أن ادعاء تشرشل لا يستند الى ما جرى في المراسلات ، واقتبس مقاطع تظهر حيازته لنسخ مضبوطة من المراسلات التي كانت حتى ذلك الحين وثائق مكتومة . ومن الواضح الان ، ان تشرشل كان يضلل البرلمان بمحاولته تبرير السياسات الازدواجية ازاء الشرق الاوسط ، التي انتهجتها الحكومات الائتلافية برئاسة ديفيد لويد جورج خلال الحرب وفي أعقابها .

وبين سيمور كوكس ان العهود قطعتها بريطانيا للعرب قبل تصريح بلفور بعامين ، وان تلك العهود كانت تتعارض بصورة مطلقة مع ادعاء الصهيونيين ان لهم حقا في أن يجعلوا من فلسطين دولة يهودية، تماما مثلما هي انجلترا انجليزية . وأضاف سيمور كوكس : « ان كل وضعنا في بلاد الشرق ، كما يمكن لاي شخص أن يقر ويعترف ، لا يستند الى قوتنا العسكرية المجردة ، ولكنه يقوم على ايمان الشعوب الشرقية بأن حكمنا لهم يرتكز — اجمالا — على مبادىء العدالة . لكن العرب لديهم احساس متزايد بأننا حصلنا على معونتهم في الحرب لقاء ما قطعناه على انفسنا من عهود ووعود ، وان الحرب قد انتهت دون ان نبدي الرغبة بالوفاء بعهودنا ، بل قمنا بطمس وكتمان المراسلات »(١٤).

« بيان منصف ومتوازن »

كان سيدني ويب وزير الدولة لشؤون المستعمرات في حكومة الاقلية العمالية الثانية . كان في ذلك الحين قد اعتزل مجلس العموم في انتخابات عام ١٩٢٩ ، لكنه وافق على تسلم وزارة الدولة لشؤون المستعمرات ، والانضمام الى مجلس اللوردات باسم البارون باسفيلد . وفي أغسطس — آب ١٩٢٩ ، أي بعد تأليف الحكومة بأسابيع قليلة، تسبب الاستفزاز الصهيوني بحوادث عنف في فلسطين ذهب ضحيتها أكثر من ٢٤٠ قتيلا وحوالي ٦٠٠ جريح من كلا الطرفين اليهود والعرب ، وهكذا وجد سيدني ويب نفسه متورطا في المشكلة . ثم انه اصبح على الفور هدفا للضغوط الصهيونية .

كتبت بياتريس ويب في يومياتها في الثاني من سبتمبر — أيلول ١٩٢٩ : « استيقظ مذعورا على الاحداث المفجعة في فلسطين ، وحوله كان اليهود وأنصار اليهود ، من الكبار والصغار ، يتحركون ويضجون ويئزون وهم في حالة من الهياج والاسى العنيف ، مطالبين بالانتقام والتعويض . ومما هو جدير بالملاحظة ، انه لم يكن هناك قط أي ممثل للعرب ، ولا حتى نصير واحد للعرب ، ظهر ولو صدفة وعرضا » .

كتب الدكتور دراموند شيلدز (الذي حمل لقب سير فيما بعد) ، نائب منطقة ادنبره ايست ووكيل وزارة الدولة لشؤون المستعمرات ، كتب في وقت لاحق يقول انه « لم تكن هناك قط اية فرصة للراحة او التهرب » من قضية فلسطين : « وكان ممثلو الصهيونيين في لندن يطلبون بلا انقطاع اجراء مقابلات مع وزير الدولة ، ومعي ، ومع رئيس قسم فلسطين (...) وكانت هناك حملة دعاوية صهيونية عنيفة في الصحافة وفي البرلمان . لم تكن هناك أية وكالة عربية او تمثيل للعرب في لندن في ذلك الحين ، ولم يكن هناك أي طرف يعرض القضية العربية على الرأي العام (...) ولم يكن هناك سوى صوت الجانب الصهيوني في قضية فلسطين يردده في كل مكان ، وكان هذا الجانب الصهيوني يوجه ضغطه بلا هوادة على مكتب المستعمرات ، سواء من خلال أعضاء البرلمان او غيرهم (...) ومن اليسير ان نتخيل ان سيدني ويب وجد المسألة مويصة . لقد كانت هذه قضية تعطل فيها أي حوار عقلاني »(١٥).

وحاول ويب ان يكون عقلانيا في الكتاب الابيض الذي أصدره ، الوثيقة الرقم ٣٦٩٢ ، والذي نشر في اكتوبر — تشرين الاول ١٩٣٠ . كان هذا الكتاب بيانا سياسيا بارزا ، نتج عن تحقيق دقيق وتقويم متمعن بعد دراسة وافية لدقائق الامور على الطريقة الفابية ، بريادة الجمعية الفابية . واحتوى الكتاب الابيض على اول اعتراف من الحكومة البريطانية بما نزل بالفلسطينيين من مظالم ، وأكد بقوة ان الحكومة ملزمة بحماية مصالح الفلسطينيين مثلما هي ملزمة بتأييد الهجرة اليهودية . وعرض

الكتاب ضرورة توفير أموال لاشغال الري والتجفيف في الاراضي . وقال دراموند شيلدز تحت ذلك العرض : « لا بد من عمل شيء للطبقة الدنيا من العرب الريفيين الذين اصبحوا بلا ارض ، والذين أصبح قسم منهم في ذلك الوضع نتيجة لقيام اليهود بشراء الارض لصالحهم وانتفاعهم . ولا بد بعد ذلك من توزيع الارض بين اليهود والعرب » . ولخص شيلدز رأيه في الكتاب الابيض بهذه العبارة: « لقد قدم الكتاب الابيض كما يوسع المرء ان يتوقع من وثيقة خرجت من بين يدي سيدني ويب ، بيانا منصفا ومتوازنا بشأن الوضع في فلسطين » .

وأعلن الكتاب الابيض : « لقد حاول البعض أن يجادل ، تعزيزا للادعاءات الصهيونية ، بأن الفقرات المتعلقة بالوطن القومي اليهودي هي المحور الرئيسي لصك الانتداب ، وبأن الفقرات التي تستهدف ضمان مصالح غير اليهود ، انما هي اضافات ثانوية تقيد ، الى حد ما ، ما يزعم بأنه الغرض الاساسي الذي وضع صك الانتداب لتحقيقه . ان حكومة جلالته كانت ولا تزال تعتبر هذا المفهوم لصك الانتداب خطأ كليا » .

كان الكتاب الابيض بالنسبة للصهيونيين كفرا ولعنة . فبالنسبة اليهم ان السياسة الوحيدة التي يقبلونها على انها منصفة ومتوازنة ، تعني الانصياع غير المشروط لمطالبهم . ولهذا كان رد فعلهم على الكتاب الابيض عدائيا ، وتصدت له المنظمة الصهيونية العالمية على امتداد فروعها ، بالنقد والهجوم . ونظمت تظاهرات ضد القنصليات البريطانية في كل مكان بدءا من وارسو وانتهاء بشيكاجو . وانهمرت على الحكومة برقيات الشجب ، في غضون ساعات قلائل من نشر الكتاب الابيض ، الامر الذي يدل على ان مرسليها لم يكونوا حتا قد تمكنوا من قراءة الوثيقة التي عاجلوا بادانتها .

وكانت هناك ايضا حملة صحافية كثيفة منظمة ، وانضمت المؤسسة البريطانية الى الحملة ، رغبة في اصطياد الفرصة واستغلال اية مناسبة او مسألة يمكن ان تسيء الى حزب العمال وتشوه صورته . وكان الخط الذي قامت عليه الحملة « ان بريطانيا لا يجوز ان تحنث بكلمتها » . وكانت المؤسسة البريطانية قد حنثت بكلمتها اذ الحقت مراسلات مكماهون باتفاقية سايكس — بيكو السرية لتقسيم الشرق الاوسط ، الى مناطق تخضع للادارتين البريطانية والفرنسية ، ثم أتبعت المراسلات بتصريح بلفور ، ووقفت الان تعارض الكتاب الابيض الذي هو اول مسعى بريطاني لمعالجة عواقب هذه الارتدادات وحنث العهود ، وهكذا حملت مطالبة « المؤسسة » بالتزام بريطانيا بكلمتها ، كل معاني الرياء والنفاق .

وتعرض اعضاء البرلمان لضغوطات كثيفة من جانب الصهيونيين . وعندما طرح الكتاب الابيض للنقاش في البرلمان في السابع عشر من نوفمبر — تشرين الثاني ، وقف سيمور كوكس ليكشف كيف ان « داغار » الصحيفة الصهيونية الصادرة في فلسطين كانت تعمم على أعضاء البرلمان ، وتحثهم على « فتح أبواب شرق الاردن كليا أمام العرب الذين لا يملكون أراض ، وأمام استيطان اليهود » (انظر هانزارد ، المجلد الرقم ٢٤٥ ، الاعمدة ١٦٣ — ١٦٧) ، وكان ما كشفه سيمور كوكس غيضا من فيض الضغط الصهيوني على النواب . وانطلقت مدفعية الخطابة الصهيونية في حومة الجدال . ووقف لويد جورج يرغي ويزبد ويوجه أقسى توبيخ للحكومة ، لكن خطابه المنمق كان فارغا من أي مضمون ، وقام بدحضه وتعريته دراموند شيلدز في خطاب باهر . (أنظر هانزارد [سجلات مجلس العموم]، الاعمدة ٨٨ — ١٠٤). والواقع ان النقاش في مجمله لم تظهر فيه اية حجج مقنعة ضد الكتاب الابيض .

الا أن رامزي مكدونالد لم يكن من ذلك الطراز من رؤساء الوزارة الذي يقف الى جانب وزيره المعني ليشد أزره ، وكانت هناك بالاضافة الى هذا تطورات أخرى تجري وراء الكواليس . كان النجم الصاعد في حزب العمال في ذلك الحين البروفسور هارولد لاسكي ، الذي كانت تربطه علاقات وثيقة بقادة الحركة الصهيونية في الولايات المتحدة . وقام لاسكي بمقابلة ارثر هندرسون وزير الخارجية سرا ، ثم قابل مكدونالد الذي طلب اليه « أن يؤكد لاصدقائه الامريكيين ان الحكومة البريطانية سوف تبذل كل ما في طاقتها لتتصرف بطريقة منصفة » . لكن لاسكي رفض ان يفعل هذا « ما لم يقم مكدونالد بعزل سيدني ويب ، او ان يسحب الكتاب الابيض »(١٦).

والذي حدث ان الاشراف على السياسة المتعلقة بفلسطين نقل من يد سيدني ويب ، الى لجنة من

مجلس الوزراء باشرت على الفور باجراء اتصال بقادة الصهيونية ، وشرعت باعداد رسالة مطولة الى حاييم وايزمان ، كانت في الواقع تذكرا كاملا للكتاب الابيض وتخليا عنه . وأصبحت مسودة الرسالة جاهزة في فبراير — شباط ١٩٣١ . وكتب لاسكي الى صديقه فيلكس فرانكفورتر احد قادة الصهيونية في الولايات المتحدة ، والذي أصبح فيما بعد قاضيا في المحكمة العليا ، يقول : « لقد أنهيت وهندرسون المسودة النهائية للوثيقة ليلة الثلاثاء »(١٧). وفي الحادي عشر من فبراير — شباط ، وقف الرائد البحري جي. م. كنوورثي (الذي أصبح فيما بعد اللورد سترابولجي) ، وهو نائب مكرس لخدمة الصهيونية ، وكان يعرف جيدا كل خفايا اعمال اللجنة الوزارية المشار اليها المعنية بقضية فلسطين ، وقف يسأل مكدونالد اذا كان لديه اي بيان بشأن السياسة في فلسطين ، وما اذا كان هناك كتاب ابيض آخر قيد الاصدار (هانزارد ، المجلد الرقم ٢٤٨ ، العمود ٣٨٩) .

اجتمعت الحكومة بضع ساعات قبل أن يحين موعد الرد على السؤال ، وهيمنت على اعضاء الحكومة حالة شاملة تقارب الرعب . وكان الرد : « جوابا لسؤال في البرلمان طرح بعد الظهر ، يود رئيس الوزراء أن يوضح ان لجنة وزارية تقوم بتبادل الاراء مع قادة الصهيونية فيما يتعلق بتفسير بعض الفقرات في البيان السياسي الذي قدمته الحكومة أمام البرلمان في اكتوبر — تشرين الاول الماضي . والاقتراح الوارد يقتضي تضمين التفسيرات التي تم التوصل اليها في رسالة توجه الى الدكتور وايزمان ، وهذه الرسالة ستسلم للصحف . واذا كانت هناك حاجة قصوى لتقديمها الى البرلمان ، فان رئيس الوزراء يشير الى انه سوف يوزع نسخا من تلك الرسالة مع اجراء التصويت . وانه سوف يوافق في الحالة الاخيرة فقط على نشر الرسالة ككتاب ابيض »(١٨).

والذي حدث ، ان الرسالة نشرت بعد ذلك بيومين في هانزارد ، ردا على كتاب خطي من كنوورثي (هانزارد ، المجلد الرقم ٢٤٨ ، الاعمدة ٧٥١ — ٧٥٧) ، واكتمل التقرير بسيدني ويب .

كان سيدني ويب من اعظم رواد الاشتراكية البريطانية . ووقف ذكاؤه اللامع وقدرته العقلية على توليد الافكار العملية، أكثر من أي شيء آخر ، وراء تحويل حزب العمال الى أداة تسعى لتحقيق الاشتراكية عبر الديموقراطية البرلمانية ومن خلال ارادة الشعب . وكان من رأيه دائما ان السياسة يجب ان تبنى على دراسة معمقة وعن كثب للوقائع ، لا على الاراء المسبقة والمعلومات الناقصة . وحين سعى الى تطبيق هذا المبدأ على فلسطين ، قام الصهيونيون بتدمير جهوده لانهم كانوا قد شددوا قبضتهم الخانقة على الحزب الذي كان ويب قد صنع الكثير من اجل انشائه وبنائه ، ووجد ويب نفسه محقرا على الملأ .

وفكر سيدني ويب بالاستقالة . وشعر أصدقاؤه الحميمون وزملاؤه بالاشمئزاز من الطريقة الجائرة والخسيسة التي عومل بها ، لكنه لم يستقل ، حرصا على وضع حكومة الاقلية العمالية الدقيق ، وولاء لقضايا أشمل ، وكان أسف محبيه عظيما لانه لم يستقل . كتبت بياتريس في يومياتها في الرابع عشر من ديسمبر — كانون الاول ١٩٣٠ : « يرغب سيدني في الاعتزال . وحيث انه لا بد من وجود وزيري دولة في مجلس اللوردات ، فان استقالته ستزعج مكدونالد ، كما انها سوف تحتسب انتصارا لليهود على العرب ، الامر الذي قد يخلق متاعب في فلسطين » . لقد كان بوسعه أن يستقيل. وان يحول المسألة الى حملة كفاحية واسعة ، لكن مثل هذه الطرائق في العمل والنشاط لم تكن من طبعه ومزاجه ، ثم انه كان ، على أي حال ، يقترب من بلوغ الواحدة والسبعين ، وكان في الواقع راغبا في التقاعد حتى قبل وقوع هذه الاحداث الخطيرة .

وكان هذا انتصارا للصهيونيين ، وكمثل أي انتصار آخر لهم ، فانه أدى الى وقوع المزيد من الاضطرابات في فلسطين . أما بالنسبة لمكدونالد ، فان تواطؤه مع الصهيونيين سبق تواطؤه مع قادة حزبي المحافظين والاحرار ، وان خيانته لسيدني ويب تلتها خيانته لحزب العمال مما قاد الحزب الى الهزيمة الفادحة في الانتخابات العامة في اكتوبر — تشرين الاول ١٩٣١ .

الصهيونيون يمسكون بخناق الحزب

تمكن الصهيونيون خلال الثلاثينات والاربعينات من هذا القرن ، من تشديد قبضتهم اكثر واكثر على حزب العمال البريطاني ، الى درجة انه صار في وسعهم ان يرسموا سياساته ازاء الشرق

الاوسط . وكان العالم قد بدأ بالتنبه — في أواخر الثلاثينات — الى المراحل المبكرة من عملية اضطهاد النازيين للالمان اليهود . وكان حزب العمال البريطاني على نفور من الفاشية عموما ، لكن هذا الجانب بالذات من النازية — أي موقفها الاضطهادي من اليهود ، لاقى الاهتمام الاعظم ، واستغل الصهاينة بكل براعة هذه المسألة لما يخدم مصالحهم الخاصة . كانت أساليب الصهيونيين الاكثر تقدما في فلسطين ، في تجريد الاهالي من أراضيهم ، مستورة وراء التأكيد الكاذب بأن الشعب العربي العامل يرحب بهم ، وان شيوخ الاقطاع وحدهم يعارضونهم ، وانهم انما كانوا يبنون مجتمعا اشتراكيا في فلسطين . وفي مؤتمرات حزب العمال السنوية ، كانت هناك أصوات ترتفع معترضة وشاجبة، عاكسة أصداء التوجه المتوازن والمعقول الذي رسمه سيدني ويب ، لكن هذه الاصوات كانت كسابقتها ، ضئيلة في عددها ، هزيلة في ما تخلفه من اهتمام وتأثير .

وفي عام ١٩٣٦ اشتعلت « الثورة العربية » في فلسطين ، وفي اكتوبر — تشرين الاول من ذلك العام ، وقف اليكس جوسيب في مؤتمر حزب العمال في ادنبره ، يتحدث باسم اتحاد نقابات عمال الاتاث ، فقال : « ايمانا بأن مصالح الشغيلة اليهود والعرب في فلسطين واحدة ، وان المستغلين من الرأسماليين والاقطاعيين اليهود والعرب هم أعداء كل منهما ، فان هذا المؤتمر السنوي لحزب العمال يعرب عن عميق أسفه لان عمال فلسطين سمحوا لانفسهم بأن يستغلوا كأدوات بيد قامعيهم المشتركين ، ويحثهم على رص الصفوف للوقوف أمام الطبقات التي تستغل كلا الجنسين ».

وبعد أن أشار جوسيب في خطابه الى اضطهاد الفاشيين لليهود ، مضى الى القول : « ان العرب يقيمون في فلسطين منذ اكثر من الف عام . ولم يطلب أحد موافقتهم . ولم يقم احد بأخذ رأيهم بعين الاعتبار ، واني كعدو للامبريالية اقف أمامكم لاعلن ، باسم الاغلبية الساحقة من اعضاء اتحادنا، اننا نشجب بأقصى قدر من القوة ، هذه المكيدة التآمرية التي تدبرها الحكومة البريطانية ، مستفيدة من المصاعب التي أحاقت برفاقنا اليهود ، من أجل ان تخدم مصالحها الخاصة » .

ولقد أثنى على هذا الاقتراح هـ. لستر هتشينسون نائب حزب العمال عن دائرة روشولم ، الذي قال : « ان ما يجري في فلسطين ، هو صراع يقف في جانب منه العمال والفلاحون العرب ، وفي الجانب الاخر تكتل يتألف من الاقطاعيين العرب ، والامبرياليين البريطانيين والرأسماليين اليهود الصهيونيين (...) اني لأؤمن بأن المبدأ الصهيوني باقامة وطن قومي لليهود ، هو في أساسه مفهوم رجعي ، من وجهة نظر اشتراكية » .

لكن الاقتراح تلاشى عند رفع الايدي . وانتصر اقتراح صهيوني ، بصورة كاسحة ، وقدم بالنيابة عن اللجنة التنفيذية الوطنية ، ونال تزكية أخرى من عمال صهيون(١٩).

وفي مايو — أيار ١٩٤٠ ، بينما كانت المانيا النازية تكتسح غرب اوروبا بالحرب الخاطفة ، تشكلت الحكومة الائتلافية في بريطانيا برئاسة ونستون تشرشل ، وتولى وزراء حزب العمال عددا من الوزارات المهمة . وبعد تشكيل الائتلاف الحاكم بأيام قلائل ، انعقد مؤتمر حزب العمال في بورنماوث . واقترح سي. هامرسلي عن فرع حزب العمال في وذنجتون ، تعديلا لاقتراح صهيوني : « ان الوطن القومي اليهودي في فلسطين لا يمكن ان يوفر حلا كافيا للمشكلة اليهودية ، ومن الجهة الاخرى ، ان يتمكن من تأمين الاعتراف بحقوق العرب » .

ومرة اخرى ، أثنى لستر هتشينسون على تعديل هامرسلي باسم حزب العمال في روشولم ، وقال : « اني اعتقد بأن فلسطين نموذج ممتاز للسياسة الامبريالية « فرق تسد » . ففي مطلع الحرب الماضية حصل البريطانيون على دعم العرب ضد الاتراك ، بعد أن قطعوا لهم عهودا باقامة مملكة عربية مستقلة . وحين احتاج البريطانيون مساندة المتمولين اليهود في الولايات المتحدة الامريكية ، دفعوا بفكرة الوطن القومي اليهودي في فلسطين . ولقد حققوا لليهود وطنا قوميا ، والآن عادوا الى العرب من جديد . اننا نريد أن نقول ان الحركة العمالية لن تجيز هذا اللعب بشعب ضد شعب آخر ، بالطريقة التي يجري بها هذا التلاعب في فلسطين وفي الهند وفي ايرلندا » .

أفقد هزم التعديل ، وفاز الاقتراح الاصلي الصهيوني « بأكثرية ساحقة للغاية »(٢٠).

وفي مؤتمر عام ١٩٤٤ الذي انعقد في ديسمبر —

كانون الاول في القاعة المركزية في وستمنستر ، تبنى الحزب السياسة التالية المقترحة في تقرير اللجنة التنفيذية الوطنية : « فلسطين : هنا في هذه القضية توقفنا في منتصف الطريق ، حائرين بين السياسات المتنازعة . لكن الذي أمكن لنا تأكيده هو عدم توفر أي أمل أو معنى في « وطن قومي يهودي » ما لم نكن مستعدين لنتيح لليهود ، اذا ما رغبوا ، ان يدخلوا الى هذا البلد الصغير [فلسطين] بأعداد تؤمن لهم أن يصبحوا اكثرية السكان . لقد كانت الحجة قوية لسلوك هذا السبيل قبل الحرب . أما الان فلقد أصبحت الدواعي قاطعة وثابتة ، بعد الفظائع الشريرة التي تتجاوز في وحشيتها حدود الوصف ، الناجمة عن المخطط الالماني النازي المبيت والمتعمد لقتل جميع اليهود في اوروبا . وان لدينا هنا في فلسطين أيضا ما يدعو بالتأكيد — لاسباب انسانية ولاقامة تسوية مستقرة — الى نقل السكان . فلنشجع العرب على الخروج من البلد فيما نشجع اليهود على دخولها . ولنعوض العرب بسخاء ثمن أراضيهم ، ولتكن اقامتهم في اي مكان اخر حسنة التنظيم ، وكريمة التمويل . ان لدى العرب مساحات شاسعة من الاراضي ، وليس لهم ان يطالبوا بابعاد اليهود عن هذه المساحة الصغيرة من فلسطين التي تقل مساحتها عن مساحة ويلز . والواقع ان علينا فعلا ان نقوم بدراسة امكان توسيع الحدود الراهنة لفلسطين ، بالاتفاق مع مصر وسوريا وشرق الاردن . ويتوجب علينا بالاضافة الى هذا كله ، السعي لدى حكومتي الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفياتي لنيل تعاطفهما الكامل مع هذه السياسة في فلسطين ، ودعمها التام في اطار التنفيذ »(٢١).

وهكذا نرى ان هذا البيان المذهل قد مضى في دعمه وتأييده للصهيونية الى حدود تجاوزت حتى الاهداف المعلنة للحركة الصهيونية نفسها ، رغم ان الحركة الصهيونية كانت قد صرحت اخيرا ، وذلك في عام ١٩٤٢ في مؤتمر انعقد في فندق بلتيمور في نيويورك ، بمطلبها تأسيس دولة يهودية في فلسطين . وكانت هناك وراء مطلب بلتيمور ، كما كتب جون هـ. ديفيس في كتابه « السلام المراوغ » (الصفحة ٣٤) : « استراتيجية لاسقاط السياسة البريطانية ذات الطابع الدفاعي ، وذلك باستقدام قيادة صهيونية هجومية من الولايات المتحدة » .

كما سجل مؤتمر بلتيمور استبدال حاييم وايزمان كقائد للحركة الصهيونية العالمية بشخص اخر اكثر قسوة ، هو دافيد بن جوريون الذي كان قد دعا منذ وقت بعيد الى فتح أبواب شرق الاردن أمام العرب الذين كان بن جوريون منهمكا بتجريدهم من أراضيهم في فلسطين طيلة أعوام وأعوام . وكان هذا الرأي لبن جوريون قد جرى تعميمه على اعضاء البرلمان البريطاني في مطلع الثلاثينات ، عندما كان الكتاب الابيض الذي أصدره سيدني ويب ، موضع بحث ومراجعة . وعلى هذا نرى ان قرار حزب العمال البريطاني في عام ١٩٤٤ الذي أوردنا نصه قبل قليل ، كان انعكاسا امينا لسياسة بن جوريون الحقيقية ، التي أمكن لبن جوريون أن يمررها ويعلنها ، نتيجة لنفوذه المهيمن داخل حزب العمال البريطاني .

حكومة ١٩٤٥

لم تكن قد انقضت غير أيام قلائل من تسلم الحكومة العمالية للسلطة بعد النصر العظيم في الانتخابات العامة عام ١٩٤٥ ، عندما تعرضت الحكومة العمالية لهجمة صهيونية . ذلك ان دافيد بن جوريون توجه على رأس وفد ، الى وزارة المستعمرات الجديدة في « جورج هول » طالبا بلغة استفزازية ، تأمين الهجرة الفورية لمائة الف يهودي الى فلسطين ، واصدار بيان علني فوري يؤكد ضرورة تحويل فلسطين الى دولة يهودية . ومن ناحية اخرى جاءت رسالة من واشنطن بعث بها الرئيس ترومان ، الى كليمنت اتلي رئيس الوزراء البريطاني ، تكرر الطلب الخاص بالمائة الف مهاجر .

المائة ألف كان رقما تخمينيا لعدد اليهود الذين بقوا على قيد الحياة في معسكرات الشغل النازية، والذين كانوا قد اصبحوا بلا وضع قانوني محدد ، انهم ضحايا النازية الذين أصبحوا مخالب الصهيونية . ولم يكن طلب تهجيرهم الى فلسطين نابعا من الرغبة في انقاذهم مما هم فيه من عناء ، بل جزءا من الهدف الابعد الرامي الى تأمين استيطان غير محدود او مشروط في فلسطين، وكانت الادارة الحاكمة في الولايات المتحدة حريصة على عدم هجرتهم الى الولايات المتحدة ، ولهذا فانها كانت تدعم بكل سعادة المطلب الصهيوني بتهجيرهم الى فلسطين ، ودون ان تراعي ما ستتحمل

بريطانيا من اعباء في هذا الشأن .

خرجت الولايات المتحدة من الحرب العالمية الثانية ، وهي بلا منازع اعظم قوة اقتصادية وعسكرية في العالم . وخرجت بريطانيا منتصرة وعلى رأسها اكليل الغار ، انما مفلسة . وبقي معظم الشعب البريطاني عقدين من الزمان تقريبا يتغذى بأوهام العظمة الامبريالية ، لكن الحقيقة ان دور بريطانيا كحكم في الشؤون الدولية كان قد انتهى فعلا .

وتعرض النفوذ البريطاني في الشرق الاوسط للهجمات من كل حدب وصوب . لقد سعى الفلسطينيون الى تقليص هذا النفوذ رغبة بتحقيق استقلالهم . وسعت الاقطار العربية الاخرى الى الحد منه لانها كانت تنتقل من الكولونيالية الى الاستقلالية . واراد الصهيونيون الانتقاص منه لانهم كانوا عازمين على انشاء دولة يهودية . ورغبت الولايات المتحدة بتقليصه لانها كانت مطية للنفوذ الصهيوني ، ولانها كانت ترتاب في حزب العمال البريطاني ، ولانها كانت تعد الترتيبات الخاصة بالحرب الباردة . وأصبحت بريطانيا في ظل هذا الوضع ، عاجزة عن فرض اية تسوية .

واذا صرفنا النظر عن القيود التي فرضتها الحقائق السياسية لعالم ما بعد الحرب على حجم بريطانيا ، فان الحكومة العمالية في بريطانيا واجهت كذلك معضلة اخلاقية شبيهة بالمأزق الذي وقعت فيه حكومات الاقلية العمالية قبل الحرب . فمن ناحية ، كانت الحكومة ملتزمة بما أصدره الحزب من سياسات تضمنت بيانات صهيونية ، قبل استلام السلطة ، ومن الناحية الاخرى ، ان تطبيق هذه السياسات الان وبعد أن اصبح العمال في السلطة ، وعلى حساب شعب فلسطين ، أمر يتعارض كليا وفلسفة الحزب الاساسية القائمة على العدالة الاجتماعية . وفي النهاية لم يكن أمام وزير الخارجية ارنست بيفن ، غير ان يعلن اخفاق جميع مجهودات الحكومة « التي بذلتها بداب متواصل » ، بحثا عن حل ، وان المخرج الوحيد المفتوح امام الحكومة هو طرح المشكلة على هيئة الامم المتحدة(٢٢). وأدى تتابع الاحداث التالية الى اعلان اسرائيل لقيامها ذاتيا ، بالتواطؤ الخفي مع ادارة ترومان في الولايات المتحدة ، في الرابع عشر من مايو — أيار ١٩٤٨ .

واشتدت الحملة الصهيونية على الحكومة البريطانية العمالية ، خلال تلك الفترة ، سواء داخل حزب العمال او خارجه . وفي المؤتمر السنوي المنعقد في يونيو — حزيران من عام ١٩٤٦ في بورنماوث ، دعا قرار لعمال صهيون بشأن فلسطين الى « المساواة التامة بين حقوق جميع السكان من يهود وعرب » ، ودعا مع ذلك الى هجرة يهودية غير مقيدة الى فلسطين ، والى انشاء دولة يهودية(٢٣). وبعد الجدال سحب هذا الاقتراح ، لكن المؤتمر التالي الذي انعقد في مارجيت في (مايو — أيار من السنة التالية (١٩٤٧)، تبنى قرارا مطولا لعمال صهيون اورد القرارات الصهيونية المتخذة بين ١٩٣٩ و ١٩٤٤ ، وبينما تحاشى هذا القرار ان يذكر بصراحة مطلب اقامة دولة يهودية في فلسطين ، فانه طلب الى الحكومة « أن تلتزم في تصرفاتها بروحية هذه البيانات ، سواء في غضون الفترة الفاصلة الى ان تتخذ هيئة الامم المتحدة قرارا نهائيا ، او لدى عرض الحكومة البريطانية لموقفها امام الامم المتحدة »(٢٤).

عند تقديم ذلك الاقتراح ، جرى تطويق القرار بشأنه بطريقة اجرائية قد تكون موحى بها — وقد لا تكون — من خطة الحزب . ان تقرير المؤتمر يذكر على الصفحة ١٨٢ : « فيما يتعلق باقتراح عمال صهيون المقدم ، طرح احد المندوبين المسألة السابقة ، ونال تزكية ، وجرى تبنيه » .

وراء الكواليس

كان الصهيونيون ، بالاضافة الى نشاطهم العام العلني الكثيف ، يمارسون ضغوطات ثقيلة وراء « الكواليس » . هارولد لاسكي الذي كان قد لعب ذلك الدور الرئيسي بالخفاء ضد سيدني ويب ، كان عضوا في اللجنة التنفيذية الوطنية لحزب العمال البريطاني منذ ١٩٣٦ ، ثم اصبح رئيسا للحزب بين عامي ١٩٤٥ و ١٩٤٦ . وعاود الان نشاطه وتحركه ضد بعض اعضاء الحكومة بالطريقة نفسها التي تحرك بها في ١٩٣٠ . وفي خريف ١٩٤٥ كتب الى صديقه الامريكي الصهيوني فيلكس فرانكفورتر ، يبلغه انه كان يحاول تنظيم «معارضة داخلية لمحاربة اتلي — بيفن اللذين خانا اليهود » . والواقع ان ما كان يحاول تحقيقه هو ان ينظم اللجنة التنفيذية الوطنية بصورة تجعل منها قوة ضاغطة على الحكومة لاكراهها على انتهاج الخط

الصهيوني فيما يتعلق بمسألة فلسطين .

والحقيقة ان هارولد لاسكي لم ينجح في مساعيه هذه ، رغم انه « حصل على ترخيص » من اللجنة التنفيذية الوطنية للحزب ، في مناسبتين ، كي يتوجه مع وفد من الحزب الى ارنست بيفن ليعرض امامه « بلغة حازمة وغير ودية » قضيته التي لم يتمكن من جمع آراء اللجنة وراءه حولها . ولقد هدد بالاستقالة من اللجنة التنفيذية الوطنية للحزب مرتين . وفي سبتمبر — ايلول ١٩٤٧ ، دعيت لجنة الشؤون الدولية الفرعية التابعة للجنة التنفيذية الوطنية ، الى اجتماع بتحريض ووسوسة لاسكي ، و « بناء لاقتراح ناي بيفن المدعوم بقوة من جانب شينويل »، أوصى الاجتماع اللجنة التنفيذية الوطنية للحزب بكامل هيئتها ، بأن تحث الحكومة على انتهاج الخط الصهيوني . وفي عام ١٩٤٧ كتب لاسكي الى فرانكفورتر يقول انه تبادل رسائل « غاضبة وعقيمة » مع اتلي ، و « مهاترات واتهامات قاسية » مع بيفن ، و « ان ارنست بيفن قد وصل في عدائه للسامية الى مرحلة بعيدة للغاية »(٢٥).

وكان ذلك الزعم (اي اتهام بيفن باللاسامية)، مجرد طرف صغير من الحملة الشرسة التي شنت ضد بيفن . وان كاتب سيرة لاسكي نفسه ، اي كينجزلي مسارتن ، كان صهيونيا قضى كل السنوات الطوال التي تولى خلالها تحرير صحيفة « نيوستيتسمان » في بناء هذه الصحيفة كبوق للصهيونية . وفي كتابه الذي سجل فيه سيرة لاسكي ، كتب كينجزلي عن بيفن يقول : « ان كراهية وزير الخارجية لليهود لم تكن مخفية ، لكنها كانت تتكشف بصورة مرعبة في نيويورك بالذات . وهذا الامر قدم تعزيزا للرأي القائل ان ارنست بيفن كان يتمنى سحق اليهود » .

الواقع انه لم يتوفر اي سند ملموس لهذا الادعاء . وحين زار بيفن نيويورك ليشارك في اجتماعات هيئة الامم المتحدة ، وضع نفسه في المكان غير المناسب ابدا ، واصبح ضحية لحملة صهيونية عاتية عالية التنظيم مشحونة بالتهديد والتهويل . رفض عمال ميناء نيويورك تفريغ حوائجه الشخصية ، وحين توجه لحضور مباراة في البيسبول ، استقبلته تظاهرات عنيفة فجرى تهريبه خوفا على سلامته . ونشرت الصحافة الامريكية على اوسع نطاق رأيا يقول انه « كان من العسير الاختيار بين المجرمين المعاديين للسامية ارنست بيفن وادولف هتلر »(٢٦).

من الاساليب الصهيونية المفضلة ، المعادلة بين معارضة الصهيونية وبين معاداة اليهود كيهود ، ودمغ نقاد الصهيونية بتهمة « اللاسامية » أو « معاداة السامية » . والواقع ان من الاثار المترتبة على النازية ، ان الاتهام باللاسامية أصبح سلاحا ماضيا من اسلحة التشهير والتهويل . ومؤخرا ، وبعد تكاثر عدد اليهود انفسهم المتسائلين عن الادعاءات الصهيونية ، يبدو ان الاتهام بمعاداة السامية قد استبدل بالاتهام الاكثر صراحة في عنصريته ، وهو اتهام « مناصر للعرب » الذي يمكن مقارنته بـ « مناصر للعبيد »*.

والواقع ان الصهيونيين ، في غمرة الاحداث والتطورات التي انتهت بانشاء دولة اسرائيل على تراب فلسطين ، لم يسيئوا معاملة معارضيهم فقط ، فكثيرا ما حدث ان اساءوا معاملة أصدقائهم بالمقدار نفسه . كان هربرت موريسون أحد أشد الصهيونيين حماسة في الحكومة العمالية عام ١٩٤٥ ، وكتب رواة سيرته يقولون : « لقد استخدم الصهيونيون موريسون الى حد بعيد » . لكن استغلالهم الوقح له ، انكشف مؤخرا بتلم الكولونيل ريفلين رئيس تحرير مجلة الجيش الاسرائيلي الشهرية . والقصة ان الهاجناه ، الجيش اليهودي السري ، اعتاد تهريب الاسلحة الى فلسطين بواسطة اشخاص متعددين . وحين جاء هربرت موريسون ، ادخلت الهاجناه حقيبة ملآى بالاسلحة باعتبارها احدى حقائب موريسون، ودون ان يعرف موريسون ، وتسلمها الارهابي كاتريل كاتز »(٢٧).

الصهيونية في مدها العالمي

عندما تواطأ حزب المحافظين البريطاني مع كل من فرنسا واسرائيل في عام ١٩٥٦ لغزو مصر ، قرر حزب العمال معارضة حرب السويس برغم النفوذ الصهيوني القوي في الحزب . وكان ذلك

---

* المترجم : الكلمة الانجليزية تعني الزنوج انما مع شيء من التحقير والازدراء وهي Nigger.

الموقف رصيدا ايديا للحزب . وكانت غاية اسرائيل ضم سيناء وقطاع غزه . وجاء العدوان نتيجة لتأميم مصر لقناة السويس ، ومثل بالنسبة للمحافظين الضربة القاضية لعصر الامبريالية .

انعقدت جلسة طارئة للامم المتحدة ، ووجهت نداء لوقف الاعمال الحربية ، ووجه الرئيس ايزنهاور رئيس الولايات المتحدة ضغوطا كثيفة دعما لذلك النداء . وانسحب البريطانيون والفرنسيون بسرعة ، لكن الاسرائيليين واصلوا احتلال التراب المصري لمدة اربعة اشهر ، ولم ينسحبوا الا بعد صدور خمسة قرارات اخرى من الجمعية العامة للامم المتحدة . ولقد وصف القائد الكندي لقوة الطوارىء التابعة للامم المتحدة ، الجنرال اي. ل. م. بيرنز ، في كتابه « بين العرب والاسرائيليين » (هاراب ، لندن ، ١٩٦٢ ، الصفحة ٢٤٣) ، كيف قام الاسرائيليون ، اخيرا وبعد ان قرروا الانسحاب ، بتدمير منهجي متعمد لكل شيء وراءهم .

وفي عام ١٩٦٧ ، اي بعد عشرة أعوام من التهيئة الاعلامية والعسكرية ، شنت اسرائيل حرب ١٩٦٧ الخاطفة . ونجحت حملة اعلامية صهيونية واسعة باقناع العالم بان « اسرائيل الصغيرة المسكينة » تتعرض لخطر الافناء . وكان حزب العمال مرة اخرى في سدة الحكم في بريطانيا . وبلغ الضغط الصهيوني حدودا هستيرية ، بمؤازرة معظم كتلة المحافظين وصحافتهم الذين كانوا لا زالوا يتوجعون من ضربة السويس المذلة . وبرغم ذلك، فان الحكومة العمالية ، حين جاء وقت العمل ، اعترفت بحقيقة تلاشي النفوذ البريطاني ، الا انها سعت مع ذلك الى التصرف بصورة غير متحيزة . ولانطلاقه من هذه القاعدة السليمة ، تمكن حزب العمال من تقديم ورعاية القرار المشهور الصادر عن مجلس الامن الدولي ، صاحب الرقم ٢٤٢ ، وان يؤمنوا تبنيه بالاجماع .

سجلت حرب ١٩٦٧ المد الاعلى للصهيونية ، ووجوه الذين انتقدوها بهجمات وحملات تشهير لم يسبق لها مثيل . وحين وقف ويل جريفيش عضو البرلمان عن مانشستر اكستشينج ، وأحد دعاة العدالة في الشرق الاوسط ، ليتكلم في مجلس العموم ، قوبل بمقاطعات وهتافات معادية بلا انقطاع . وذكر سجل هانزارد [محاضر البرلمان البريطاني] انه أفسح مجالا لسبعة معترضين على كلام جريفيش ، وانه كان هناك بالاضافة الى ذلك ، اكثر من ثلاث وعشرين محاولة أخرى لمقاطعته واخراسه(٢٨). وهناك النائبة العمالية السيدة مرجريت ماكاي التي اعتزلت النشاط في الانتخابات التالية بعد الحملة البذيئة والسفيهة التي تعرضت لها .

والواقع انه كان في مجلس العموم في العام ١٩٦٧ ، وحتى في الوقت الذي بلغ فيه المد الصهيوني اقصى درجات ارتفاعه وزخمه ، رجال ونساء من حزب العمال ، اقتفوا بمسلكيتهم الآثار المجيدة لسابقيهم من النواب الذين حرصوا على تحدي الصهيونية . وهؤلاء عبدوا الطريق أمام هزيمة المحاولة التي جرت لاخضاع الحزب وجعله يتحرك طبقا للسياسة الصهيونية في اكتوبر ١٩٧٣. وكان خطاب جريفيش شديد التأثير على نواب العمال الجدد بصورة خاصة ، الذين جاءت بهم الى البرلمان ، الانتخابات العامة في عامي ١٩٦٤ و ١٩٦٦ ، والذين صعق الكثيرون منهم بما شاهدوه من غطرسة صهيونية .

قرار مجلس الامن الرقم ٢٤٢

بعد حرب يونيو — حزيران ١٩٦٧ ، وفي نوفمبر — تشرين الثاني من ذلك العام ، تبنى مجلس الامن الدولي بالاجماع القرار ٢٤٢ . تقدمت بالقرار ورعته حكومة العمال البريطانية ، وكان تبنيه بالاجماع ، والموافقة عليه من كل من الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفياتي ، رغم معارضة كل منهما الشديدة لسياسات الدولة الاخرى في الشرق الاوسط ، انتصارا للدبلوماسية البريطانية في ظل قيادة حزب العمال . ولا يزال هذا القرار يمثل الاساس الممكن الوحيد لايجاد تسوية . وفيما يلي النص الكامل لذلك القرار : « ان مجلس الامن ، اذ يعرب عن قلقه المتواصل بشأن الوضع الخطر في الشرق الاوسط ، واذ يؤكد عدم القبول بالاستيلاء على اراض بواسطة الحرب ، والحاجة الى العمل من أجل سلام دائم وعادل تستطيع كل دولة في المنطقة ان تعيش فيه بأمن ، واذ يؤكد ايضا ان جميع الدول الاعضاء بقبولها ميثاق الامم المتحدة قد التزمت بالعمل وفقا للمادة ٢ من الميثاق .

١ — يؤكد ان تحقيق مبادىء الميثاق يتطلب اقامة

سلام عادل ودائم في الشرق الاوسط ويستوجب تطبيق كلا المبدأين التاليين :

أ ــ سحب القوات المسلحة الاسرائيلية من أراض احتلتها* في النزاع الاخير ،

ب ــ انهاء جميع ادعاءات او حالات الحرب واحترام واعتراف بسيادة ووحدة اراضي كل دولة في المنطقة ، واستقلالها السياسي وحقها في العيش بسلام ضمن حدود آمنة ومعترف بها وحرة من التهديد او اعمال القوة .

٢ ــ يؤكد ايضا الحاجة الى :

أ ــ ضمان حرية الملاحة في الممرات المائية الدولية في المنطقة ،

ب ــ تحقيق تسوية عادلة لمشكلة اللاجئين ،

ج ــ ضمان المناعة الاقليمية والاستقلال السياسي لكل دولة في المنطقة عن طريق اجراءات بينها اقامة مناطق مجردة من السلاح .

٣ ــ يطلب الى الامين العام تعيين ممثل خاص للذهاب الى الشرق الاوسط كي يقيم ويجري اتصالات مع الدول المعنية بغية ايجاد اتفاق ، ومساعدة الجهود لتحقيق تسوية سلمية ومقبولة وفقا لنصوص ولمبادىء هذا القرار .

٤ ــ يطلب الى الامين العام ان يرفع تقريرا الى مجلس الامن حول تقدم جهود الممثل الخاص في أقرب وقت ممكن . »

ذلك هو نص القرار ٢٤٢ . وجرى تعيين الدبلوماسي السويدي البارز دكتور غونار يارنغ ممثلا خاصا ، وبدأ على الفور باقامة اتصالات مع الدول المعنية . الا انه لم يحدث اي تقدم . كان من رأي الدول العربية ان الاولوية يجب ان تكون لتحقيق الانسحاب الاسرائيلي من الاراضي المحتلة . ورفض الاسرائيليون الانسحاب ، بحجة انهم سوف يصبحون معرضين لتهديد الدول العربية التي كانوا قد كشفوا لتوهم عن تفوق عسكري كبير عليها .

---

* المترجم : هكذا ورد وفقا للنص الانجليزي ، لكن النص الفرنسي يقول كما هو معروف « من الاراضي المحتلة » .

الاحتلال

قام الاسرائيليون بضم القدس العربية ، وهدم منازل العرب ، وبناء عمارات ضخمة تتكون من شقق لسكنى المهاجرين اليهود . واعلنوا انهم لن يتخلوا قط عن قطاع غزة الذي يشكل واحدة من أكثر المناطق العربية الواقعة على ساحل البحر الابيض المتوسط ازدحاما بالسكان . كما أعلنوا عزمهم على عدم الانسحاب من الجزء الشرقي من شبه جزيرة سيناء التي استولوا عليها من مصر . وشرعوا باقامة مدينة يهودية جديدة في شرم الشيخ على الطرف الجنوبي لسيناء . وبالاضافة الى ذلك أعلنوا عزمهم القاطع على عدم الانسحاب من مرتفعات الجولان التي استولوا عليها من سوريا .

ورفض الاسرائيليون التفاوض مع الدول العربية عبر هيئة الامم المتحدة ، وطلبوا اجراء مفاوضات ثنائية مباشرة مع كل دولة عربية على حدة ، وطبقا لشروطهم . وكان الامر مشابها لعرض ادولف هتلر التفاوض مع بريطانيا بعد معركة دنكرك .

ومع مرور الوقت ، كانت الاف المنازل العربية في المناطق المحتلة تتحول الى انقاض لتقوم في أماكنها مستوطنات يهودية جديدة . وأمام رفض يهود الدول الغربية القوي للهجرة الى اسرائيل ، نظمت الحركة الصهيونية حملة كبيرة لتأمين هجرة يهودية على نطاق واسع من الاتحاد السوفياتي ، لكنالة استيطان المناطق المحتلة.وصف الاسرائيليون هذه السياسة بأنها « سياسة خلق الوقائع » ، وغدا واضحا ان ما يريدونه في الحقيقة هو الحاق المناطق المحتلة . وقرأنا وصفا لهذا الموقف كتبه جون بولوك ونشره في الاول من يونيو ــ حزيران ١٩٧٣ في « الديلي تلجراف » البريطانية اليومية الموالية لحزب المحافظين ، والتي لا يمكن في اي حال من الاحوال الادعاء بأنها معادية للصهيونية ، وهي التي لم تنس قط المهانة التي تعرض لها حزبها في حملة السويس عام ١٩٥٦ ضد مصر . وذكر بولوك في تقريره ان الاسرائيليين انشأوا سبع عشرة مستوطنة جديدة في مرتفعات الجولان ، وان جنرالا ظريفا في الجيش الاسرائيلي تساءل : « لماذا لن تكتبوا عن المناطق المحتلة بعد تسعة عشر عاما حين تحتفل بعيدها الخامس والعشرين ، تماما مثلما تحتفل اسرائيل بعيدها الخامس والعشرين هذا العام ! »

القنيطرة هي البلدة الرئيسية في مرتفعات الجولان ، وكانت عاصمة اقليمية نشطة تضم حوالي تسعين الفا من السكان . ان حوالي ربع مساحة البلدة أصبح يستخدم كحقل تدريب ميداني للجيش الاسرائيلي . ووصف بولوك كيف تحولت المنازل والمساجد والدكاكين الى خرائب وانقسماض . واضاف : « لكنه لم يحدث قتال في القنيطرة ، ذلك ان سكانها السوريين هربوا ، وان الجيش السوري توقف على مسافة منها . فالقنيطرة جرى تدميرها بطريقة متعمدة ومنهجية وفعالة لمنع سكانها من العودة اليها » .

ولم يكن مثيرا للدهشة ظهور مقاومة ردا على الاحتلال . ووصف بولوك ردة فعل الجيش الاسرائيلي على المقاومة في منطقة الضفة الغربية لنهر الاردن : « عندما تقع « الحوادث » ، يضرب نطاق وحصار حول مناطق ، ويخضع النساس للتفتيش ، وتصبح الحياة بصورة عامة غير مستساغة . وفي حالات معينة يفرض حظر التجول بطريقة اعتباطية كيفية على قرى بأكملها ، ليس بسبب الحاجة لمنع التجول ، وانما كعقاب جماعي. وان منع القرويين من مغادرة منازلهم يعني الموت للدواجن والمواشي ، والاهمال للحقول » . وكان في تقديره اكثر من ثلاثمائة شخصية عربية بارزة من قادة مجتمع الضفة الغربية المعروفين والمحترمين ، قد انتزعوا من بيوتهم تحت جنح الظلام من جانب الجيش الاسرائيلي ، وجرى طردهم عبر نهر الاردن .

بلغ عدد المبعدين حتى الحادي والثلاثين من ديسمبر — كانون الاول ١٩٧٤ ، ١٤٥٢٢ شخصا. ففي ذلك التاريخ التقى كاتب هذه السطور بصحبة شهود اخرين ، عددا من هؤلاء المبعدين في بيروت، واستمع الى اقوالهم .

كان نموذجا لهؤلاء المبعدين ، رئيس بلدية مدينة صغيرة في الضفة الغربية . لقد أبلغ بأن يتوجه لمقابلة في مكتب الحاكم العسكري الساعة الحادية عشرة والنصف ليلا . وامتثل لدى وصوله الى هناك ؛ ووجد نفسه « مشحونا » مع اخرين في احدى ناقلات الجيش ، وهو معصوب العينين . وخلال الرحلة التي امتدت ساعات ، كان الحراس الاسرائيليون المرافقون يسيرون على المبعدين المنبطحين على أرض الشاحنة ويدوسونهم بأقدامهم ثم ألقوا بهم في الصحراء ، الى الجنوب من البحر الميت ، وتركوهم هناك . ولحسن حظهم ، عثرت عليهم بعد مضي عدة ساعات دورية للجيش الاردني . اما المنازل والوظائف والاعمال والممتلكات فقد « طارت » ، وأما الزوجات والاطفال فبقوا بلا معين او معيل ، وعليهم أن يتدبروا شأنهم كيما اتفق .

اسرائيل والمجتمع العالمي

وقف معظم العالم يعلن تعاطفه مع اسرائيل ومساندته لها في أيام حرب يونيو ١٩٦٧ . لكن سلوكها أدى الى تبديد هذه المساندة ، وتآكل ذلك التعاطف ، بحيث غدت وحيدة فعلا في المجتمع العالمي . والواقع انه يمكن قياس هذا الانقلاب في مركزها الدولي من محاضر الجمعية العامة للامم المتحدة التي توجت قراراتها بهذا الخصوص ، باصدار القرار الرقم ٢٩٤٩ في ديسمبر — كانون الاول ١٩٧٢ .

كان ذلك القرار اقوى قرار يتخذ ضد اسرائيل حتى ذلك التاريخ في الامم المتحدة ، فيما يتعلق بنقد احتلالها المستمر واستيطانها المتواصل لاراضي الدول العربية المجاورة . ودعا القرار اسرائيل الى اعلان التزامها بمبدأ عدم ضم الاراضي بالقوة،وأكد أن احترام حقوق الفلسطينيين هو عنصر ملازم لاقامة أي سلام عادل ودائم في الشرق الاوسط ، كما دعا القرار اسرائيل الى الكف عن سياساتها وممارساتها التي تؤثر في التكوين الديموغرافي والخصيصة الطبيعية للمناطق العربية المحتلة . اتخذ ذلك القرار بأغلبية ٨٦ صوتا ، ضد سبعة أصوات ، وامتناع ٣١ صوتا. أما المعارضون السبعة فكانوا اسرائيل بالاضافة الى ست من جمهوريات اميركا اللاتينية هي : كوستاريكا ، الدومينيك والسلفادور ونيكاراجوا وهايتي وارغواي . جاء الدعم الكاسح للقرار من اوروبا (شرقها وغربها) ، وآسيا وافريقيا . وحتى الولايات المتحدة الامريكية نصيرة اسرائيل الدائمة ومزودتها بما تحتاجه من أموال وأسلحة على نطاق هائل ، امتنعت عن التصويت .

ولقد تحدث المندوب الاسرائيلي الدائم في الامم المتحدة ، يوسف تكواع ، عدة مرات اثناء ذلك النقاش . بادىء ذي بدء هددت اسرائيل بترك

الجمعية العامة اذا ما وافقت على القرار . وبعد ذلك هدد المستر تكواع بأن اسرائيل سوف تسحب موافقتها على القرار الرقم ٢٤٢ ، وانها ستوقف كذلك أي تعاون مع بعثة الدكتور غونار يارنغ السلمية . ووصف تكواع القرار بعد الموافقة عليه ، بأنه « وثيقة غير شرعية » . ولم يذهب وزير خارجية اسرائيل ابا ايبن الى الهيئة الدولية ، وعلل ذلك بأن ذهابه الى الامم المتحدة ، سوف يعطيها اهمية تفتقر اليها »(٢٩).

ان ذلك الجزء من القرار الذي دعا اسرائيل لتعلن التزامها بمبدأ عدم ضم الاراضي عن طريق استخدام القوة ، لم يكن اكثر من دعوة لقبول المبدأ الاساسي الاشد اهمية في ميثاق الامم المتحدة . تقول اسرائيل أنها انشئت من قبل الامم المتحدة ، ومع ذلك فانها رفضت بازدراء المبدأ الاساسي في شرعة الامم المتحدة . ومثل ذلك كان تهديدها بسحب موافقتها على قرار مجلس الامن الرقم ٢٤٢ . والواقع ان « موافقة » اسرائيل على ذلك القرار ، كانت دائما تحاط بكلام مطاط وعبارات مراوغة موارية ، وشروط كثيرة بحيث لا تصبح موافقة . ومثل ذلك ايضا تهديدها بوقف الاتصالات والتعاون مع الدكتور غونار يارنغ في مهمته السلمية . والواقع ان اسرائيل كانت قد رفضت اي مشاركة بمهمة يارنغ منذ فبراير — شباط ١٩٧١ . وهكذا أصبح مسلك اسرائيل الاعتيادي هو التلاعب بقرارات الامم المتحدة بما يخدم مصالحها الخاصة ، والرفض المفعم بالازدراء للمجتمع العالمي بأسره حين تقتضي مصالحها الخاصة ذلك ، وهذا كله مرفق في الغالب بدعاوة مسمومة ضد أي شخص قد يوجه للدولة الصهيونية أي نقد .

وجد الصهيونيون حليفا اخر على المسرح العالمي. ونقلت « الجويش كرونيكل » في عددها الصادر يوم ٢٩ ديسمبر ، ان هارولد ويلسون زعيم حزب العمال وزعيم المعارضة في بريطانيا في ذلك الحين، واثناء زيارته لاسرائيل في عيد الميلاد في عام ١٩٧٢، « شبه وقفة بريطانيا في النقاش الذي دار في الجمعية العامة للامم المتحدة مؤخرا بذلك الموقف في ميونيخ عام ١٩٣٨ » . وفي ذلك اليوم نفسه ، ١٩٧٢/١٢/٢٩ كتبت « الجويش ابزرفر » تحت « مانشيت » ضخم : « الحاج هارولد » ان قادة اسرائيل السياسيين « تلقوا هذا الاسبوع أنباء مريحة ومفرحة من بريطانيا بواسطة هارولد ويلسون . فلقد أبلغ زعيم المعارضة البريطانية أعضاء لجنة الخارجية والامن في الكنيست الاسرائيلي ، ان حزب العمال البريطاني يدعم ، من حيث المبدأ ، الاراء الاسرائيلية في الشرق الاوسط » وفي غضون ساعات قلائل من تصريحه ذاك ، كانت القاذفات الاسرائيلية الثقيلة تقصف من الجو عدة قرى في سوريا .

في اكتوبر ١٩٧٣ ، وبعد ست سنوات من الجهود العقيمة لحل المشكلة برعاية الاسرة الدولية ، شنت كل من مصر وسوريا هجوما على المناطق المحتلة من وطنهما ، في مسعى يستهدف اجبار الامم المتحدة على تقديم مبادرة جديدة من أجل التسوية . وبموجب اتفاقية فصل القوات التي تم التوصل اليها ، أخلت اسرائيل جانبا من مرتفعات الجولان المحتلة بما فيه مدينة القنيطرة. لكنهم قبل ان يغادروا القنيطرة ، قاموا بهدم كل ما كان قد تبقى من أبنيتها عند احتلالها عام ١٩٦٧، لقد هدموا كل شيء وساووه بالارض تماما . ونهبوا كل ما هو ثمين في الكنائس والمساجد . ونبشوا وسلبوا القبور في المدافن المسيحية ، حيث كان العرف يقتضي احيانا دفن بعض القطع الثمينة الى جانب جثث الميت . ولقد قطعوا الايدي التي تحمل أساور ، كما اقتلعوا الاسنان المذهبة من جماجم الموتى في القبور . وأورد « الان كاس » في « الفاينانشال تايمز » في الثامن عشر من سبتمبر ١٩٧٤ ، انه شاهد على احد جدران القنيطرة عبارة بالعبرية تقول : « تريد القنيطرة . سوف تأخذها انقاضا » .

مواجهة الحقائق

بدأ العالم بالتنبه الى أن الفلسطينيين قد ارتكبت بحقهم واحدة من أقسى المظالم في القرن العشرين : فان الاقلية التي بقيت من الفلسطينيين ضمن حدود اسرائيل هم مواطنون من الدرجة الثالثة في اطار مجتمع عنصري ، أما اولئك الذين يعيشون تحت الاحتلال العسكري فانهم يرون بأم اعينهم ما يجري كل يوم من عمليات تدمير واستيطان في وطنهم ، لكن القسم الاعظم من الفلسطينيين يعيش في المهاجر والمنافي كلاجئين ، بعد أن جردوا بالقوة من كل ما يملكون ، من

منازلهم ، ومن مصادر رزقهم ، ومن وطنهم . لقد أصبح الشعب الفلسطيني على هذه الحالة نتيجة لاعمال الصهيونيين وان مبادىء الاشتراكية الديموقراطية لا يمكن ان تقبل بهذا . ومع ذلك فان هناك مساندة واسعة في داخل صفوف حزب العمال للابقاء على هذا الوضع . وتشكل هذه الازدواجية في المفاهيم والمقاييس تحديا وانتهاكا لاخلاقية الحزب الاساسية ، وتهديدا لمصداقية الحزب خارج بريطانيا .

ان مساندة حزب العمال لاسرائيل قد حتمت عليه الوصول الى تبني مفاهيم ومواقف مزدوجة في قضايا عالمية مهمة كالكولونيالية، والتمييز العنصري والتوسع الاقليمي ، واحترام قرارات هيئة الامم المتحدة .

وان الحزب على حق في هجومه على قمع الافريقيين في افريقيا ، لكنه لا يتحدث عن قمع الفلسطينيين في فلسطين . وان الحزب يدين ما ترويه التقارير من تمييز عنصري ضد اليهود في الاتحاد السوفياتي ، لكنه لا يدين التمييز العنصري الذي يمارسه اليهود انفسهم بحق الفلسطينيين . وان الحزب يشجب ويستنكر ضم جنوب افريقيا لجنوب غرب افريقيا ، لكنه لا يفتح فمه بشأن ضم اسرائيل للقدس العربية ، وهو الضم الذي اجمع مجلس الامن الدولي على ادانته . وان حزب العمال يبدي تعاطفا مع حركات التحرير المناضلة ضدالكولونيالية ، لكنه لا يبدي شيئا من التعاطف مع كفاح الفلسطينيين من اجل وجودهم الوطني. وان الحزب ينتقد انتهاك قرارات الامم المتحدة ، لكنه يغلق فمه حين تكون هذه الانتهاكات من جانب اسرائيل ، رغم أن اسرائيل انتهكت قرارات الامم المتحدة اكثر من أي بلد اخر في العالم ، وأجمعت الامم المتحدة على ادانتها في كثير من الاحيان .

ان الفقرة الرابعة في دستور حزب العمال التي تعرف اهداف الحزب ، تنص في البند الفرعي السابع على ما يلي : « على الصعيد العالمي ، ان يتعاون مع المنظمات العمالية والاشتراكية في البلدان الاخرى ، وان يدعم منظمة الامم المتحدة ووكالاتها المتعددة والمنظمات الدولية الاخرى لتقدم السلام ، وضبط وتسوية النزاعات الدولية بأساليب التوفيق والتحكيم القضائي ، وتوطيد الحقوق الانسانية والدفاع عنها ، وتحسين اوضاع العمل ومستوياته الاجتماعية والاقتصادية لشعوب العالم أجمع » .

وبرغم ذلك فان حزب العمال يساند الدولة الصهيونية التي أهانت الامم المتحدة مثلما أهانت المبادىء التي تقررها الفقرة السابقة من دستور الحزب . وان الحزب يقيم أوثق العلائق الشخصية والصلات التنظيمية مع الاشخاص الاسرائيليين والمنظمات الصهيونية ، لكنه لا يقيم أدنى صلة مع الحركات الاشتراكية المتطورة بثبات في العالم العربي .

وليس النزاع مع الصهيونية هو في أي حال النزاع الوحيد الذي يشغل العالم العربي ، الذي يشكل منطقة واسعة ومهمة تمتد من ساحل الاطلسي لشمال افريقيا الى الخليج . ان في ذلك العالم العربي صراعات داخلية عظيمة ، وفوارق هائلة بين مستويات الغنى والفقر ، وان الافكار والحركات الاشتراكية في حالة تقدم . ويطمح الاشتراكيون العرب الاكثر تقدما الى اقامة ديموقراطية برلمانية ، وان حزب العمال البريطاني بالنسبة اليهم مثال نموذجي يجسد ذلك الطموح ، لكن ارتباط الحزب بالصهيونية يفزعهم ويثبط همتهم. ويزداد موقفهم صعوبة بسبب الماركسيين في العالم العربي . فان ازدواجية مواقف حزب العمال البريطاني تمنح الماركسيين أمضى سلاح ليظهروا وكأنهم هم الذين يمثلون الاشتراكيين الديموقراطيين لانهم طليعة المجابهة مع الصهيونية والامبريالية الغربية .

ان للاشتراكيين العرب ثقة كبيرة بحزب العمال لانهم يدركون انه الحزب البريطاني الوحيد الذي عارض الكولونيالية باستمرار ، وناضل من اجل انهائها . واذا لم يحرر الحزب نفسه من القبضة الصهيونية ، فانه سوف يضيع فرصة مهمة لتشجيع الاحتمالات العظيمة الموجودة لنمو وتطبيق أفكاره ، في منطقة من العالم ترتدي أهمية حيوية لبريطانيا ولاية حكومة عمالية في بريطانيا .

موقف سخيف

ان ازدواجية المعايير حيال الشرق الاوسط ، قادت اللجنة التنفيذية الوطنية لحزب العمال البريطاني الى اتخاذ موقف سخيف ولا منطقي من «المجلس العمالي للشرق الاوسط» . فاللجنة

التنفيذية الوطنية للحزب تقبل « عمال صهيون » المنظمة الملتزمة بدعم اسرائيل كمنظمة منتسبة الى الحزب [حزب العمال البريطاني] ، لكنها [اللجنة التنفيذية الوطنية لحزب العمال البريطاني] رفضت مرارا وتكرارا طلبات انتساب قدمها « المجلس العمالي للشرق الاوسط » ، هذا المجلس الذي يتبنى اراء أكثر توازنا ، والذي يحمل أعضاؤه صفة تمثيلية اكبر ، والذي يساند هيئة الامم المتحدة .

تأسس « المجلس العمالي للشرق الاوسط » في يناير ١٩٦٩ . وكان الداعي لانشائه ، القلق المتزايد الذي كانت تستشعره أوساط في حزب العمال بشأن التوجه الرسمي المتحيز للحزب ازاء مشكلات الشرق الاوسط . باب العضوية في هذا المجلس مفتوح امام جميع الافراد الراغبين من اعضاء حزب العمال الذين يتقبلون اهدافه ، ودستوره ، وأحكامه . والبند الثاني من دستور المجلس يوضح اهدافه كما يلي : « دعم وتعزيز أهداف حزب العمال بالعمل من أجل السلام والعدالة في الشرق الاوسط ، ومن أجل تطبيق قرارات الامم المتحدة المتعلقة بالشرق الاوسط ، وذلك بتقديم رؤيا بناءة ومتوازنة للنزاع العربي — الاسرائيلي ، الى اعضاء الحركة العمالية » .

وان البند الثامن من دستور المجلس يخوله حق الانضمام الى منظمات اخرى . وفي أول مؤتمر سنوي لاعضاء المجلس انعقد في ديسمبر — كانون الاول ١٩٦٩ ، اتخذ قرار اجماعي بالانضمام الى حزب العمال . وارسل طلب بهذا الخصوص الى الامانة العامة لحزب العمال حسب الاصول .

وفي الخامس والعشرين من مارس — اذار ١٩٧٠ ، وردت المجلس رسالة من مقرر اللجنة التنفيذية الوطنية للحزب تقول : « ان اللجنة التنفيذية الوطنية ترفض طلب الانتساب الذي تقدم به المجلس العمالي للشرق الاوسط » . وكان تعليل الرفض ان اهداف المجلس « تختلف فقط فيما تؤكد عليه من اهداف الحزب الوطنية » ، وانه « كان هناك شعور بأن دستور الحزب وأحكامه تغطي بصورة كافية الاهداف التي يعلنها مجلسكم ، ومن أجل ذلك فان كل عضو في حزب العمال يقر ويؤيد البند السابع من الفقرة الرابعة في دستور حزبنا » . وهكذا فانهم رفضوا انتساب المجلس العمالي للشرق الاوسط بحجة ان غاياته واهدافه تتفق مع غايات واهداف حزب العمال !! وهذا مبدأ عجيب يمكن ان يفهم منه ان جميع المنظمات المنتمية الى الحزب حاليا ما كان يجب ضمها .

وبعثت اللجنة التنفيذية للمجلس العمالي للشرق الاوسط تطلب الى اللجنة التنفيذية لحزب العمال استقبال وفد من المجلس ليناقش معها حيثيات رفض طلب الانضمام . وجاء رد اللجنة التنفيذية للحزب مقتضبا وفظا : « قررت اللجنة التنفيذية الالتزام بقرارها عدم السماح للمجلس العمالي للشرق الاوسط بالانضمام » . وأرسل المجلس العمالي للشرق الاوسط يطلب احالة القضية الى المؤتمر السنوي لحزب العمال لطرح المسألة أمام نقاش المندوبين . وأبلغ المجلس « بأن طلب الانضمام لن يحال الى المؤتمر السنوي ، حيث ان العرف قد جرى على أن تحيل اللجنة التنفيذية الوطنية الى المؤتمر السنوي طلبات الانضمام التي لاقت قبولا » .

وأعاد المجلس العمالي للشرق الاوسط محاولة الانضمام في عام ١٩٧١ ، ومرة اخرى في عام ١٩٧٢ . وفي كل مرة كان الجواب يأتي بالرفض ودون تفسير اخر . وان السبب الذي أعطي للرفض ، كالحيلولة دون الاستجواب في المؤتمر السنوي ، كان ذريعة واهية ، وعلى الرغم من رفضها المتكرر ، اضطرت اللجنة التنفيذية الوطنية فيما بعد الى الاعتراف بعض الشيء بأنه لم يعد في وسعها تجاهل الشعور المتنامي في الحزب الذي بلوره المجلس العمالي للشرق الاوسط . وفي عام ١٩٧٣ دعي « المجلس » لعرض وجهات نظره امام لجنة الشؤون الدولية التابعة للجنة التنفيذية الوطنية لحزب العمال ، فقدم « المجلس » مذكرة بهذا الخصوص في ابريل من ذلك العام .

بداية النقاش العظيم

لقد تضمنت مسودة وثيقة السياسة الخارجية المنشورة من جانب اللجنة التنفيذية الوطنية لحزب العمال ، لتقديمها الى المؤتمر السنوي للحزب لعام ١٩٧٣ ، توصيات جديدة مهمة . ان الصيغة في معظمها تنم عن النفوذ الصهيوني السائد في اوساط لجنة الشؤون الدولية ، لكن الوثيقة تشير مع ذلك الى « ما يقوم به فرقاء النزاع

في الشهور الاخيرة من ارهاب وارهاب مضاد » ، وتصف هذه الاحداث بأنها « ظواهر تكشف عما هو خاطىء ، وبالاحرى عن العلة الجذرية المتمثلة في الاخفاق في ايجاد حل منصف وانساني لمشكلات المجتمع الفلسطيني » . فالواقع ان هذه العبارة تجسد رفض الموضوعة الصهيونية الاساسية ، كما أكدت الوثيقة على « الحاجة لاشتراك المجتمع الفلسطيني بصورة كاملة في أية تسوية يراد انجازها » .

لقد أقرت هذه الوثيقة في المؤتمر السنوي ، وبهذا أصبح حزب العمال ملتزما لاول مرة ، بمراعاة مصالح الفلسطينيين ، وفيما كان مندوبو المؤتمر يقفلون عائدين الى بيوتهم ، اندلعت حرب ١٩٧٣ ، وأصبحت السياسة الجديدة للحزب موضع امتحان مبكر لنواياها ومراميها .

لقد كانت حكومة المحافظين قد أعلنت سياسة الوقف الفوري لامدادات الاسلحة الى فريقي النزاع . وكانت هنالك حملة صهيونية عاصفة غايتها دفع بريطانيا للوقوف الى جانب اسرائيل ، وكانت الحركة الصهيونية تنظم عملية كبيرة لنقل عشرات ملايين الارطال من الاسلحة الى اسرائيل للاغراض الحربية . وفي مجلس العموم تبدل الجو واتفق بين جميع الاحزاب على اجراء مناقشة في الثامن عشر من اكتوبر — تشرين الاول استنادا الى اقتراح بالتأجيل — وهي وسيلة اجرائية لتحاشي التصويت — في ظروف كان فيها قرارا حساسا بصورة بارزة .

وقبل موعد جلسة النقاش في مجلس العموم بيوم واحد ، تلقى نواب حزب العمال مذكرة من « عريف » الحزب تكشف بجلاء عن محاولة قوية لاخضاع نواب الحزب للسياسة الصهيونية . وتقول المذكرة : « أود ان ألفت انتباهكم مسبقا الى انه خضوعا لقرار من حكومة الظل ، يمكن تقديم جدول اعمال من ثلاثة خطوط لاجل النقاش » . وكان رد الفعل مثيرا ، فان أكثر من ثمانين عضوا أوضحوا على الفور رفضهم لفرض مثل هذا الجدول للنقاش . وقدم أعضاء مكتب العريف توصية اجماعية الى حكومة الظل برفض ذلك الجدول . وعندئذ اتخذت حكومة الظل القرار غير الاعتيادي، بأن يقترع وزراء حكومة الظل ضد الحكومة ، على ان تترك لبقية نواب الحزب حرية الاقتراع .

والذي حدث انه كانت هناك حرية كاملة في الاقتراع بالرغم من استمرار الضغوط الصهيونية. وعند توزيع الاصوات اقترع خمسة عشر نائبا عماليا في المعسكر غير الصهيوني ، وامتنع خمسة وسبعون نائبا عماليا بقي الكثيرون منهم في مقاعدهم في قاعة البرلمان خلال عملية توزيع الاصوات للدلالة على استيائهم من الطريقة التي عولجت بها المسألة .

وما حدث في البرلمان اظهر ان العناصر الصهيونية سوف تسعى لكفالة عدم توجه المؤتمر السنوي الى الالتزام بسياسة تكون اقل تحيزا لجانب واحد فيما يتعلق بفلسطين ، او اساءة تأويلها ، فيما تشعر القيادة البرلمانية بعدم ارتباطها بالقرار . لكن هذه الاحداث نفسها تبين ايضا ان مثل هذه الاساليب في العمل سوف تثير معارضة قوية . ولقد بدأ فعلا النقاش الكبير الذي يستهدف جعل حزب العمال يعترف بأن التسلل الصهيوني الى صفوفه قد تسبب « بخلق وقائع » معينة دفعت الحزب الى الانحراف عن مبادئه ، كما بدأت بالتأكيد الحملة العظيمة التي ترمي الى اعادة الحزب الى خطوطه المبدئية .

خاتمة

ان تطورات الاحداث في الشرق الاوسط تستدعي اعادة نظر بموقف حزب العمال الموالي للصهيونية ، واعادة تأكيد لمبادىء الحزب الاساسية. فالصهيونية لم تتمخض عن دولة مسالمة واشتراكية في الشرق الاوسط ، بل مجتمع عسكري تسببت سياساته العدوانية بصراع بين اليهود والعرب ، حيث عاشوا معا لقرون طويلة خلت في سلام . وانه لصراع يتسبب بتهديد متواصل للسلم العالمي .

وان مساندة حزب العمال لاسرائيل والصهيونية قادت الحزب الى موقع باطل جعل الحزب في حالة نزاع مع مبادئه الاساسية تشبه حالة النزاع بين الصهيونية واليهودية . ولقد أصبح الحزب في عزلة

---

* المترجم : أي Chief Whip ، وهو عضو البرلمان الذي يعهد اليه حزبه متابعة الاتصال بنواب الحزب من اجل ان يحضروا الجلسات (المهمة) وأن يلتزموا بخط الحزب (عند النقاش أو التصويت مثلا) .

متزايدة عن الرأي العام العالمي ، وانه يكاد يصبح محل سخط وازدراء في العالم الثالث الذي طالما نظر الى الحزب باعتباره نصيرا للمضطهدين والواقعين في اغلال الكولونيالية .

وان على الحزب ان يعترف ، وان يعلن اعترافه هذا ، بأن المظالم التي أنزلت بالشعب الفلسطيني هي قلب النزاع في الشرق الاوسط ولبه . ان هناك شعبا قد جرد من موطنه ، وهو لن يسكت بعد الان على هذا الظلم الذي صبر عليه طويلا . ومن الواجب الاعتراف بالكيان الوطني لهذا الشعب ، واشتراك ممثليه في مفاوضات السلام .

ويتوجب على حزب العمال ان يؤكد اهتمامه بايجاد تسوية عادلة ، وذلك باقامة اتصالات مع العرب مثل اتصالاته مع الاسرائيليين ، وان يستخدم نفوذه لجعل الاسرائيليين يفاوضون الفلسطينيين . ان المؤسسة الفلسطينية الواضحة التي ينبغي التفاوض معها هي منظمة التحرير الفلسطينية التي تستقطب مساندة الشعب الفلسطيني ، تماما مثل حالة المجلس الوطني الافريقي في روديسيا ، او مثلما كانت — قبل الاستقلال — حالة الحركة الوطنية الافريقية في كينيا ، وجبهة التحرير الوطني في الجزائر ، وجبهة فريليمو في موزامبيق .

ان صفحات التاريخ لا يمكن اعادتها الى الوراء . ان المشكلة اليوم هي كيفية التوفيق بين حقوق الفلسطينيين من جانب ، وبين احتياجات اليهود الذين يعيشون في اسرائيل ، بحيث يتمكن اليهود والعرب من العيش معا في سلام وكرامة . ان الانتصار في الحروب لم يؤمن لاسرائيل السلام ، وان السلام لا يمكن تشييده الا على دعائم العدالة . لقد بدأ الخلاف بالنزاع بين اليهود والعرب ، ولن ينهي هذا النزاع غير اتفاق اليهود والعرب .

---

١ — جون هـ. ديفيس ، « **السلام المراوغ** » (جون موراي ، لندن ، ١٩٦٨) ، الصفحة ٩ ، **التوطئة** .

٢ — موشي مينوحين ، « **انحطاط اليهودية في عصرنا** » ، الطبعة الثانية ، (مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٦٩) ، الصفحة ٣٦ .

٣ — س. ليفنبرج ، « **اليهود وفلسطين** » (باول زيون ، لندن ، ١٩٤٥) ص ١٢٣ .

٤ — **المصدر نفسه** ، ص ١١١ .

٥ — **المصدر نفسه** ، ص ١٢٧ .

٦ — ريتشارد كروسمان ، « **أمة تولد من جديد** »، (هاميش هاميلتون ، لندن ، ١٩٦٠) ، ص ٣٣ .

٧ — **المصدر نفسه** ، ص ٢٠ — ٢١ .

٨ — س. ليفنبرج ، « **اليهود وفلسطين** » ، ص ١٢٦ .

٩ — **المصدر نفسه** ، ص ١٢٨ — ١٢٩ .

١٠ — **هانزارد** ، السلسلة الخامسة ، المجلد رقم ١٥١ ، الاعمدة ١٥٧٥ — ١٥٨٤ ، في التاسع من مارس — آذار ١٩٢٢ .

١١ — **هانزارد** ، المجلد رقم ١٧٠ ، العمود ٦٣ ، في الخامس والعشرين من فبراير — شباط ١٩٢٤ .

١٢ — **هانزارد** ، المجلد الرقم ١٧٦ ، الاعمدة ١٩٥١ — ١٩٥٨ ، في التاسع والعشرين من يوليو — تموز ١٩٢٤ .

١٣ — هانزارد ، المجلد الرقم ١٥٦ ، الاعمدة ١٠٣٢ — ١٠٣٥ ، في الحادي عشر من يوليو — تموز ١٩٢٢ .

١٤ — **هانزارد** ، المجلد الرقم ٢٣٨ ، الاعمدة ١٠٨٥ — ١٠٩٦ ، في السابع من مايو — أيار ١٩٣٠ .

١٥ — دراموند شيلدز ، « **سيدني ويب وزيرا** » (مقالة) أدرجت في كتاب « **آل ويب وأعمالهم** » الذي قامت بتحريره مرجريت كول (مولر ، لندن ، ١٩٤٩) ص ٢١٣ .

١٦ — كينجزلي مارتن ، « **هارولد لاسكي** » ، (فيكتور جولانز ، لندن ، ١٩٥٣) ص ٢٠٩ — ٢١٠ .

١٧ — **المصدر نفسه** .

١٨ — **تفاصيل اجتماع الحكومة** المنعقد في الحادي عشر من فبراير — شباط ١٩٣١ .

١٩ — **تقرير رسمي عن المؤتمر السنوي** ، ص ٢١٧ — ٢٢١ .

٢٠ — **تقرير المؤتمر** ، ص ١٧٣ — ١٧٤ .

٢١ — **تقرير المؤتمر** ، ص ٩ .

٢٢ — **هانزارد** ، المجلد الرقم ٤٣٣ ، الاعمدة

٩٨٥ — ٩٩٤ ، في الثامن عشر من فبراير — شباط ١٩٤٧ .

٢٣ — **تقرير المؤتمر** ، ص ١٥٣ — ١٥٤ .

٢٤ — **تقرير المؤتمر** ، ص ١٦٩ — ١٧٠ .

٢٥ — كنجزلي مـارتن ، «**هارولد لاسكي**» ، ص ٢١٤ — ٢١٨ .

٢٦ — كريستوفر سايكس ، « **طرق متقاطعة الى اسرائيل** » ، كولينز ، لندن ، ١٩٦٥ ، ص ٣٥٧ .

٢٧ — برنارد دونوج وجـي. دبليـو جونـز ، « **هربرت موريسون ، سيرة رجل سيـاسي** » وايدنفيلد ونيكولسون ، لندن ، ١٩٧٣ ، ص ٢٥٦ — ٢٥٧ .

٢٨ — **هانزارد** ، المجلد الرقم ٧٤٧ ، الاعمدة ١٤٢ — ١٥٣ ، في الحادي والثلاثين من مايو — أيار ١٩٦٧ .

٢٩ — نقلا عن **جويش ابزرفـر** ، في التاسـع والعشرين من ديسمبر — كانون الاول ١٩٧٢ .

صدر عن مركز الابحـاث

فلسطين

في مذكرات القاوقجي

١٩٣٦ — ١٩٤٨

اعداد الدكتورة خيرية قـاسمية

سعر النسخة ١٢ ل.ل. يضاف اليهـا اجـور البريد الجـوي .

اطلب نسختك من : قسم التوزيع في مركز الابحـاث

ص.ب ١٦٩١ — بيروت

مراجعات

Edgar O'Ballance, **Arab Guerilla Power : 1967 - 1972** (London : Faber and Faber, 1974).

تمثل هذه الدراسة التي وضعها الميجر « ادجار اوبالانس » بعنوان « قوة الفدائيين العرب : ١٩٦٧ ــ ١٩٧٢ » ، حلقة في سلسلة تقع في خمسة عشر كتابا نشرها المؤلف في ربع القرن الاخير . وتختص هذه المؤلفات بمعالجة مواضيع عسكرية الطابع تشمل ابحاثا محددة عن جيوش معينة او عن حروب اقليمية او أهلية تغطي شريطا عريضا من البلدان المختلفة على امتداد رقعة واسعة من الكرة الارضية: فقد كتب «اوبالانس» عن « الحرب الهندية الصينية : ١٩٤٥ ــ ١٩٥٤ » وعن « كوريا : ١٩٥٠ ــ ١٩٥٣ » وعن « الملايو : حرب العصيان الشيوعي بين ١٩٤٨ ــ ١٩٦٠ » وعن « الجيش الاحمر الروسي » و« الجيش الاحمر الصيني » ، كلا على حدة ، وعن « الحرب الاهلية اليونانية : ١٩٤٢ ــ ١٩٤٩ » وعن « حرب العصابات » بشكل عام . وعن « حكاية الفرقة الاجنبية الافرنسية » بالاضافة الى سبعة كتب (آخرها الدراسة موضع المراجعة) عن حركات مسلحة وثورات وحروب وقعت في الوطن العربي سواء في شمال العراق او الجزائر او فلسطين او اليمن زيادة على كتبه الخاصة بالحروب العربية ــ الاسرائيلية الثلاث الاولى .

وكي نجنب انفسنا ، منذ البداية ، مغبة اغفال السمات الايجابية الرئيسية التي يتمتع بها الكتاب، نسارع الى القول بأن دراسة « اوبالانس » :

اولا : تمتاز بتسلسل منطقي وزمني وتقسيم جغرافي يجعل محتوياتها تنساب الى ذهن القارىء عبر احد عشر فصلا دونما أي تشويش ، وتظهر معالم هذا التسلسل وذاك التنسيق لو كنا نعرض للمادة المتضمنة في الدراسة . لكن استعراض السيد ماهر الكيالي للكتاب المذكور في العدد ٤٣ من شؤون فلسطينية (مارس ٧٥) يغنينا عن ذلك الان .

ثانيا : تتمتع الدراسة بمادة ومعلومات غزيرة تشهد على اطلاع المؤلف واتصالاته وعلى المامه ، بالتالي ، وفي كثير من الاحيان ، بأدق التفاصيل . على ان ذلك لا يعني ان الدراسة خالية من الاخطاء ، الفادحة أحيانا ، على مستوى المعلومات .

ثالثا : « تفاخر » الدراسة بأنها نجحت في معالجة الموضوع بقدر من الموضوعية يجعلها اقل تحيزا من غيرها لصالح وجهة النظر الاسرائيلية ــ الصهيونية ــ الغربية المناهضة لوجهة النظر العربية . وسنتوسع في ايضاح اشارتنا الى بعض اوضح المغالطات حول هذه المسألة في اواخر هذه المراجعة .

تعاني الدراسة ، على الرغم من سعة اطلاع الكاتب ، من التشويش في المعلومات ومن أخطاء عديدة تتضمنها صفحات الكتاب . ومن الامثلة على هذا التشويش وتلك الاخطاء ، ما ورد في (صفحة ١٧) من أن الملك عبدالله بن الحسين قد اغتيل في العام ١٩٤٩ مع ان اغتياله كان يوم ٢٠ تموز ــ يوليو ١٩٥١ . كذلك قوله بأن حركة فتح تأسست في المانيا الغربية معددا أسماء ياسر عرفات وهاني الحسن وخليل الوزير على أنهم كانوا الطلبة الذين أسسوها (ص ٢٦) !!! وفداحة الخطأ في المعلومات هنا لا تحتاج الى اكثر من مجرد الاشارة اذ ان منشأ فتح وأسماء مؤسسيها لم يعودوا خافين على ذوي المستوى العادي من الاطلاع . ثم ان ايهام القارىء بأن امير دولة الكويت السابق

كان ، في تلك المرحلة المبكرة ، خالقا ومحركا لحركة فتح ، قول فيه كثير من الجهل (ص ٢٧) . ثم ان « اوبالانس » يخلط بين « فرقة عبد القادر » وهي احدى الوحـدات التابعـة « لجبهة التحريـر الفلسطينية » وبين كونها تنظيما قائما بحد ذاتـه (ص ٣٢) .

ومن الامثلة الاخرى على الاخطاء المتفشية في الكتاب قول المؤلف في (ص ٥٣) بأن حزب البعث في العراق قد قام باعتقال الدكتور جورج حبش في العام ١٩٦٦ و« معلومات » كهذه لا اساس لها من الصحة اذ لم يعتقل الدكتور حبش في العراق لا في العام ١٩٦٦ ولا في أي عام آخر.ولا يضاهي هذا الخطأ في المعلومات سوى قول المؤلف بأن « الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين » تبنت الدعوة الى اقامة « دولة مزدوجة القومية » في فلسطين (ص ٧١) ، وقوله بأن احمد جبريل ، الامين العام « للجبهة الشعبية ـ القيادة العامة » ، هو رئيس « جبهة النضال الشعبي الفلسطيني » (ص ٧٢). ثم يقع المؤلف في تناقض فادح عندمـا يقول ان علاقات « الجبهة الشعبية » كانت علاقات خاصة وجيدة مع الحكومة السورية (ص ٧٦) واغلب الظن انه يخلط هنا مـا بين « الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين » وبين « الجبهـة الشعبية ـ القيادة العامة » . ولعـل اوسع الفجوات في معلومات المؤلف هي تلك التي جعلته يقول بأن « الجبهة الشعبية » اتصلت بشكل مباشر بالملك فيصل ، عاهل السعودية ، طالبة منه دعمها ماليا (ص ٧٨ ـ ٧٩) ، وغني عن الذكر ان علاقات « الشعبية » مع المملكة السعودية كانت دومـا علاقات قطيعة كاملة . هذا وتتكرر الشواهد على تشويش « اوبالانس » وعدم تمييزه بين « الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين » التي يتزعمها الدكتور جورج حبش وبين « الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة » التي يرئسها احمد جبريل في الصفحة (١١٨) .

ولا تتوقف الاخطاء عند هذا الحد . ففي الصفحة (١٥١) يشير المؤلف الى اعتقال السلطات الاردنية لثلاثة من زعماء الفدائيين اثناء مجازر أيلول ـ سبتمبر ١٩٧٠ مشيرا الى أن أحدهم ينتمي الى فتح في حين ينتمي الآخران الى « الجبهة الشعبية » . مع العلم أن القياديين المشار اليهم هم صلاح خلف (أبو اياد) وهو أحد زعماء فتح ، وابراهيم بكر وهو قائد فلسطيني مستقل ، وفاروق قدومي وهو قائد في فتح. وفي الصفحة (٢٠٨) يقدم «اوبالانس» أكثر من دليل على نقص معلوماته عن « الجبهة الشعبية » وجذورها . فهو يقـول ، مثلا ، ان الدكتور حبش قد طرد من « حركة القوميين العرب » في العام ١٩٧٠ ، مع ان الحركة كانت قد اضمحلت قبل ذلك . أم تراه يقصد « حزب العمل العربي الاشتراكي » الذي شكل نوعا من الامتداد التنظيمي للحركة ؟ كما انه يقول ان الجبهة « تخلت » عن عمليات خطف الطائرات في العام ١٩٧٠ مع انهـا « جمدت » تلك العمليات ولم تتخل نهائيا عنها . ومن أفدح الاخطاء في هذا المجال اعتباره الدكتور وديع حداد « قائدا في قطاع غزة » مع ان عمل الدكتور حداد ـ كما اثبتت العمليـات الارهابية الاسرائيلية التي استهدفت حياته بالصواريخ الموجهة في بيروت منذ العام ١٩٦٩ ـ لم يكن في غـزة فحسب بل وليس له ايـة علاقة نضالية مباشرة بغزة . والشيء ذاته ينطبق على « اتهام » المؤلف للدكتور أنيس صايغ ، وهو شخصية فلسطينية مستقلة ويعمل مديرا لمركز الابحاث في بيروت ، بالانتماء الى الجبهة الشعبية . ثم يعود اوبالانس فيقول بأن وديع حداد ، الذي سبق وان صنفه « كقائد في غزه » (ص ٢٠٨) ، هو نائب زعيم « الجبهة الشعبية » وانه التجأ « طلبا للامان » الى اوروبه الشرقية (ص ٢١٣) !!! كما انه في مكان آخر (ص ٢١٨) يقف ، بدون داع ، محتارا ازاء الجبهة التي قادت الهجوم الانتحاري الياباني على مطار اللد . هذا مع العلـم ان « الجبهة الشعبية » و« الجيش الاحمر الياباني » أعلنا أكثر من مرة مسؤوليتهما المشتركة عن تلك العملية .

وعلى الرغم من ان كاتبا عربيا واحدا على الاقل يعتبر « ادجار اوبالانس » من اشهـر المؤرخين المعاصرين المعروفين بالدقة والامانة ورجاحة الرأي العسكري ، [كما جاء في مراجعة ماهر كيالي للكتاب في مجلة شؤون فلسطينية عدد ٤٣] ، فاننا نبدي تحفظنا الشديد على تقييم كهذا . وقول الاستاذ كيالي في ختام مراجعته للكتاب « ان بعض الملاحظات والاراء الشخصية للمؤلف ، وان كانت قليلة ، قد تضلل القارىء لا سيما الغربي ، ففيها احكام جائرة وغير صحيحة»، ان هذا القول في رأينا

هو اضعف ما يمكن ان يوصف به تحيز «اوبالانس». وليس معنى قولنا هذا ، ان المؤلف قد استخدم ، بالمقارنة مع غيره من الكتاب الغربيين ، اقذع العبارات واشدها للهجوم على العرب ، وانما تصدنا القول بأن كتبا مثل كتاب اوبالانس واسلوبا مثل أسلوبه المستخدم في هذه الدراسة يشكل خطرا أكثر من غيره على القضية العربية ويمثل بالتالي تحيزا أفدح من زاوية قدرته على الاضرار بوجهة النظر العربية . فالهجوم غير المباشر ، و« تحرير » المغالطات بشكل هادىء ، والدس من خلال التظاهر بالسذاجة او البراءة ، هذه كلها تساعد على « بيع » افكار الكاتب « الشخصية » والتي هي « احكام جائرة وغير صحيحة » للقارىء (لا سيما الغربي) — كما ذكر اعلاه .

ويبدو ان المثل القائل : « يعرف الكتاب من عنوانه » فيه **كل** الصحة **احيانا** . فان يجعل المؤلف عنوان كتابه : « قوة الفدائيين العرب » مسالة لا يجوز ان تمر ببساطة ويجب ان تفهم ، ضمن سياق المغالطات التي يمتلىء بها الكتاب ، على انها محاولة لطمس الهوية الفلسطينية في أكثر المواضع حساسية من الزاوية الاعلامية . ثم ان توقف المؤلف في عرضه عند العام ١٩٧٢ ، وعند هجوم ميونيخ على وجه اكثر تحديدا ، ان هذا التوقف عند هذه النقطة الزمنية بالذات كأنما يقصد به ان يترسخ في ذهن القارىء ذلك الحدث الدموي الذي دفع اليه الفدائيون دفعا . وهو في تبريره لتوقفه عند هذا الحدث يقول انه — أي الحدث — مثل « بداية جديدة » في العمل الفدائي . وينسى « اوبالانس » ، أو يتناسى ، أن يقول لنا كيف تشكل كارثة ميونخ بداية جديدة ، وما هي معالم هذه المرحلة الجديدة التي يشير اليها (ص ١٢) .

ثم ان المؤلف يحرص على أن تكون النتيجة الرئيسية التي يصل اليها واضحة : الحركة الفدائية الفلسطينية « لا استراتيجية لها » و« فشلت كليا » وبدأت مرحلة « انحدارها العام » (ص ٢١٢ ، ٢٢٩) .وهو بهذا يقع في تناقض مع نفسه عندما يذكر في مكان آخر بأن المستقبل وحده هو الذي سيقرر فيما اذا كان العمل الفدائي « ظاهرة مؤقتة » او « بداية ليقظة عربية » جديدة (ص ١٢ — ٢٣٣ — ٢٣٤) .

كذلك يقرر «اوبالانس» — ولا ندري ان كان ذلك ناجما عن سذاجة كلية او تساذجا متخابثا — ان « الغرور والتقدير السيىء (من جانب الفدائيين) هو الذي أدى الى الحرب الاهلية (في الاردن) والقتال في لبنان » (ص ١١) . اي أن المؤلف — هكذا وبكل بساطة — يتجاهل دور أعداء العرب والعرب الاعداء في التحضير لتلك المجزرة وتنفيذها. كذلك فان عدم ذوبان النازحين الفلسطينيين في المجتمع العربي يتحول — في نظر « اوبالانس » — الى « اهمال » من العرب للفلسطينيين (ص ١٥). ايضا قوله ان « نصف لبنان عربي ونصفه مسيحي » كأنما يقصد القول بأن العربي هو فقط المسلم من ابناء العروبة او كأنما المسيحي بالضرورة غير عربي (ص ١٦) . كذلك فان الغمز والمغالطة واضحين في قوله بأن الفدائيين لم يكونوا « محبوبين بشكل عام » في لبنان (ص ١١٣) . ثم هو يتحدث عن اطلاق السوريين نيرانهم بشكل مستمر على « العمال الاسرائيليين » من فوق الهضبة السورية قبل ١٩٦٧ ، دونما اية اشارة الى ان احتلال اسرائيل للاراضي المنزوعة السلاح هو الذي ادى الى ذلك الموقف الوطني من جانب سورية . ايضا فان الكاتب حريص على وصف ما تقوم به اسرائيل بكلمة « قتل » في حين ما يقوم به الفلسطينيون والعرب بكلمات من نوع « اجرام » و« عدوانية » و« ارهاب » (الصفحات ١٩ ، ٢٠ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٩٤ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢١٣ ، ٢١٩ ، ٢٣١ على سبيل المثال لا الحصر) . ولا يفوت « اوبالانس » اغتنام كل فرصة للتشكيك في موقف الاتحاد السوفياتي من الثورة الفلسطينية بشكل يحس معه القارىء بضحالة التحليل الذي يقدمه المؤلف (ص ٧٦ ، ١٢٣ ، ٢١٢) . ثم ان الكذب — حسبما يقول « اوبالانس » — يكاد يكون صفة ثانية للفدائيين عندما يكتبون بياناتهم ، دون ان يسمح لنفسه بالشك ، ولو للحظة في مصداقية البيانات الاسرائيلية (ص ١١٧) . كذلك تتحول السياسة الاسرائيلية — بقدرة قلم المؤلف — الى سياسة « شجاعة » لانها « تحول اللاجئين الى عمال » (ص ١٩٨ ، ٢٠٣) . أما استشهاد غسان كنفاني فأمر يحيط به — وفقا « لامانة » المؤلف — غموض كبير لا يعرف معه ان كانت اسرائيل وراءه ام « الجبهة الشعبية الثورية لتحرير فلسطين » (ص ٢١٣) !!! واخيرا لا يفوت

المؤلف ان « يقرر » بأن العربي انسان لا يهمه الا « حبه الفردي للحياة وتحسين وضعه المالي » وان العرب يشتهرون تقليديا بصفات « البلادة او اللامبالاة » (ص ٢٣٠) .

وبعد ، ثمة فجوة كبيرة بين ما يتصوره وما يقوله الناشر في معرض وصفه للمسائل الرئيسية التي يعالجها الكتاب وبين ما يقوله الكاتب ذاته عن طبيعة محتويات الكتاب . فالناشر ، في سعيه لتشويق القارىء ، لاسباب معروفة ، لمطالعة الكتاب ، يسارع — وعلى الصفحة الداخلية للغلاف الخارجي للدراسة — الى الادعاء بأن المحتويات تجيب على الاسئلة المركزية التالية :

١ — ما الذي جعل الفدائيين يخطئون ، في تقدير الوضع ؟

٢ — ما هي التقديرات الخاطئة التي أدت الى اصطدامهم الكارثي مع الجيش الاردني ؟

٣ — كيف تم دفعهم خارج « أرض فتح » في لبنان ؟

٤ — ولماذا كانت الحركات الفدائية غير قادرة على تحقيق وحدة فعالة فيما بينها ؟

٥ — وكذلك — والكلام للناشر — يوضح الكاتب « المسائل التي تهز العالم العربي » ، يحلل الشخصيات المنغمسة في العمل ويستقرىء الماضي ويصف الحاضر ويعالج المستقبل .

أي بعبارة موجزة : يعدنا الناشر بدراسة تحليلية .

وعلى صعيد آخر: يصف المؤلف كتابه — بتواضع يعكس الحقيقة — بأنه « سرد » للوقائع (ص ١٢) وهو فعلا ، سرد ، يتمتع بالالمام بالتفاصيل من جهة ، ويعاني — كما رأينا — من كثير من الاخطاء والمغالطات من جهة ثانية .

د. أسعد عبدالرحمن

الدكتور صادق جلال العظم ، **الصهيونية والصراع الطبقي**
(دار العودة ، بيروت ، ١٩٧٥)

يعتمد المؤلف ، في كتابه هذا ، اسلوب المنهج العلمي المستمد ، مباشرة ، من المصادر الرئيسية، للنظرية المادية الجدلية ، في التاريخ والمجتمع ، ويتخذ منه اداة للبحث والتنقيب عن جذور «المسالة اليهودية » ومسبباتها المادية والتاريخية ، ثم يواصل ملاحقة تطوراتها المتعاقبة ، في احضان المجتمعات الاوروبية ، منذ العصر الاقطاعي الوسيط ، وحتى عام ١٩٤٨ ، عام اعلان قيام « دولة اسرائيل » ، مرورا بالمرحلة البرجوازية القومية والراسمالية الاحتكاري ، كاشفا النقاب ، خلال متابعته هذه ، عن الاصول الطبقية البحتة ، لما سمي « بالمعضلة اليهودية » ، وعن بذور النزعة العنصرية التي تحمل لواء العداء للسامية اولا ، وعن الزوايا المتباينة التي نظرت ، من خلالها ، كل طبقة الى تلك المسالة ، والمواقف والوسائل المختلفة التي عالجتها بها ، وفق مصالحها واطماعها ، واوضاعها ، سواء اكانت هذه الطبقة طبقة سائدة ، او في طريقها نحو استلام زمام الحكم ، او متوسطة او محرومة كليا ثانيا .

قسم المؤلف كتابه الى اربعة فصول ، يتناول ، في كل فصل منها ، مرحلة معينة من مراحل تكون المسالة اليهودية والنزعة العنصرية المضادة للسامية ، وليقوم ، بعدها ، بتشريحها والكشف عن مدى عمق العلاقة العضوية الجدلي ، الذي

يربط هاتين ، المسألة اليهودية ، والنزعة اللاسامية ، فيما بينهما ، بالصراع الطبقي الدائر في اوروبا ، وما ينتج عنه من تنافس مستعر بين الدول الاستعمارية ، لفتح اسواق جديدة امام بضائعها ، والاستيلاء على اراض تنشيء عليها مستعمراتها بقصد حماية طرقها التجارية الهامة ، وتوفير المواد الخام لمصانعها ، من تلك الاراضي ، والتخلص ، ايضا ، من الفائض النسبي للبروليتارية ، بتشغيلها في تلك المستعمرات .ولقد دعم المؤلف رؤيته واستنتاجاته بالوثائق والمذكرات والوقائع التاريخية ، وسنعرض مضمون كل فصل على حدة ، لنضع ملحوظات اولية ارتأينا ضرورة ابدائها ، ثم ننتهي الى مناقشة النزعة التي سيطرت على الكتاب ، مع التأكيد على ان هذه الملاحظات لا تقلل من شأن هذا الكتاب القيم ، ولكن تحرص على اثارة نقاط تخضع للحوار ، تحت شعار الموضوعية الشديدة وضغط المنهج العلمي الذي تعامل معه المؤلف ووجه خطه التحليلي .

١ ــ الفصل الاول . التابع التاريخي للمسألة اليهودية : في هذا الفصل يبدأ المؤلف بحثه ، التاريخي والمادي ، عن جذور المسألة اليهودية، والنزعة اللاسامية المقترنة بها ، ومسبباتهما ، في طيات علاقات الانتاج التي هيمنت على [المجتمع الاقطاعي خلال العصور المظلمة والوسطى] (ص ١٦) ثم يستعين بماركس ، ليبرر « منهجه الثوري » ، فيقتطف من كراسه المعروف « المسألة اليهودية » الفقرة التالية : [لن نبحث عن سر اليهودي في دينه ، بل سنبحث عن سر هذا الدين في اليهودي الحقيقي] (ص ١٧) ويضيف ماركس في كراسه نفسه [ان الفرق بين الانسان الديني والمواطن ، انما هو الفرق بين التاجر والمواطن ، بين المياوم والمواطن ، بين الملاك العقاري والمواطن ، بين الفرد الحي والمواطن](٢). وهدف ماركس الواضح من وراء تعريفاته هذه هو الكشف عن المفارقة الشاسعة بين الانسان الديني او المواطن ، ككلمات مجردة وعمومية ، وبين التاجر والملاك والعامل ، اي الانسان الذي يؤثر عليه وضعه الاجتماعي ومصالحه الاقتصادية والمعيشية، وبجملة افضل ، الانسان المشخص ، وهكذا ينقلنا المؤلف الى نوعية التفاعل الحياتي الجدلي بين الانسان « المشخص »(٣) اليهودي والمجتمع الذي يحيا فيه ومنه ، ويرى ، اي المؤلف [ان الاطراف التي سيطر عليها الرأسمال البضاعي ، هي المجتمعات الزراعية المنفصلة عن بعضها البعض ، والتي يقوم التجار بالتوسط التبادلي بينها ، والتي يستحيل على الرأسمال البضاعي ان يوجد ويتكون بدونها] (ص ١٧) وبما ان [الجاليات اليهودية في المجتمعات الوسطى « الزراعية » قامت بهذا الدور التجاري ، فقد حدد ماركس مكانها الاجتماعي بدقة ، في قوله ان اليهود كانوا يعيشون ، في مسام هذه المجتمعات مثلهم في ذلك مثل بقية الشعوب التجارية في العالم القديم] (ص ٢١) ثم يستشهد المؤلف ايضا بماركس ، مقتطعا فقرة من كتابه رأس المال [وكلما كان الانتاج متخلفا كلما زادت كمية الثروة النقدية المتركزة بين ايدي التجار] (ص ٢٢) . ولقد مارس اليهود نشاطا اقتصاديا اخر هو الربا . [والربا كالتجارة ، يستغل نمطا معينا للانتاج ولا يخلقه ، بل يحاول المحافظة عليه ، مباشرة ، كي يتمكن من استغلاله مجددا وعلى الدوام] (ص ٢٢) وبما ان هذه الجاليات كانت تمارس وظيفة ضرورية ، ومحرمة في الوقت نفسه في المجتمعات الزراعية الاقطاعية ، فقد تمكنت من الاستمرار في الوجود ، ولم تنقرض ، او تندمج كليا في الحياة الانتاجية السائدة والغالبة في محيطها ، وبما ان وظيفتها كانت هامشية ، اي انها تستغل نمطا معينا للانتاج ولا تخلقه ، في حياة المجتمع واساليبه ، في انتاج الثروة ، لذلك يكون من الطبيعي [ان تتصف العلاقات بين هذه الجاليات والمجتمعات المضيفة لها ، بالتعايش المتوتر والحذر] (ص ٢٨) وهذا التفاعل او الاتجاه التاريخي العام ، لهذا النوع من العلاقات غير المستقرة ، راجع الى عدم رغبة المجتمع المضيف في هضم الجاليات كليا بسبب وظيفتها الضرورية ، التجارة والربا ، لمجتمع زراعي ، من جهة ، وعدم ارتياحه لها ، بسبب غربتها عن اسلوب حياته الاساسي ، ونمط انتاجه السائد من جهة اخرى ، لتلك الاسباب مجتمعة ظلت [العلاقة بين الكنيسة الكاثوليكية واليهود خلال العصور الوسطى ، من هذا النوع المتوتر والقائم على علاقات التحمل والتسامح] (ص ١٩) ، فالكنيسة من ناحية ، كانت تعكس ، في تعاليمها وممارساتها تركيب المجتمع الاقطاعي وقيمه . [لذلك كانت

تنظر باحتقار شديد وعداء متأصل ، الى كل ما يمت بصلة الى التجارة والمال والربا] (ص ١٩) ، كما كان الزبائن الاساسيون [للمرابين اليهود ، هم النبلاء والاقطاعيون من ملاك الارض ، والحرفيون والفلاحون ايضا] (ص ٢١) وكان هذا سببا اساسيا من اسباب العداء ، بين الجاليات اليهودية والنظام الاقطاعي ، اذ كان الاسياد يجدون انفسهم مضطرين للتنازل ، لصالح المرابي والتاجر ، عن جزء هام من فائض القيمة، كما كان المرابي يستولي ، ايضا ، على جزء اخر من فائض القيمة الذي ينتجه الحرفيون ، وبصورة خاصة الفلاحين . اذن ، فبذور المسالة اليهودية والنزعة العنصرية ، كما يكتشفها الدكتور العظم، تكمن في نوعية علاقات الانتاج المسيطرة على مجتمعات العصر الوسيط الاقطاعية ، وقد وجدت التربة الملائمة لانمائها ، في المرحلة التالية التي تتسم بطابع ظهور البرجوازية ، وبدء عملية تطور العلوم والصناعة الحديثة التي ولدت الرأسمال الاحتكاري ، ولقد استمر الراسمال التجاري والربوي اليهودي في تأدية دوره ووظيفته ، وفي الازدهار والتوسع ، حتى [نهاية العصور الوسطى ، اي حوالي القرن الحادي عشر للميلاد] (ص ٢٣) وستتبين لنا ، خلال رصد حركته ، في الفترة اللاحقة ، عملية انهياره في كل منطقة اوروبية اخذت تخرج من اقتصاد العصر الوسيط الزراعي ، ومن ثم هجرته ، وهذا يعني هجرة اليهود الطوعية والقسرية باتجاه المناطق الاكثر تخلفا ، اقتصاديا واجتماعيا ، اي حيث ما زال نمط الانتاج الاقطاعي سائدا ، ولم تتهدم اسسه بعد ، في روسيا واوروبا الشرقية .

مع بدايات القرن الثاني عشر الميلادي ، أخذت تتبدى ، بوضوح ، اثار التحولات البطيئة والمتراكمة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية [في اوروبا الغربية] (ص ٢٤) ، وبعبارة اخرى [نمت البرجوازية التجارية المسيحية ، داخل رحم مجتمع الاقطاع ، استجابة لحاجة الانتاج الصناعي المتوسع في المدن ، لبيع سلعه ومنتوجاته عن طريق تصديرها](ص ٢٥) ، وكما يصف ماركس الراسمال الربوي [انه يفقر نمط الانتاج ويصيب القوى المنتجة بالشلل ، عوضا عن ان يطورها ، كما انه لا يغير نمط الانتاج ، بل يتعلق به بقوة كالطفيليات فيزيد من بؤسه] (ص ٢٥) لذا ادى بروز البرجوازيات التجارية المحلية ، في اوروبا الغربية ، ابان تلك الفترة ، الى صراع عنيف ودام ضد ممثلي الرأسمال البضاعي القديم ، وحيث ان المجرى التاريخي لا بد الا ان يسير الى الامام ، حتميا ، ولا يمكن ايقافه ، [كسر الاحتكار السابق للتجارة من قبل اليهود ، واخرجوا ، تدريجيا ، من السيطرة عليها في اوروبا الغربية](ص ٣٤) فاتجه قطاع منهم نحو التمركز في ميدان الربا الخالص ، وتعامل كبار المرابين اليهود مع الملوك والامراء والنبلاء ، وتعاطى صغارهم العمل مع الجماهير الشعبية من حرفيين وفلاحين ، نتيجة لهذا الوضع ، اصطدم الرأسمال اليهودي ، بكافة الفئات والطبقات الاجتماعية ، وخصوصا البرجوازية النامية ، مما عرض اليهود لاسوأ انواع الاضطهاد والمذابح الدموية ، واخذ يؤدلج هذا الصراع ، على نحو فكري ، بحيث يبدو وكأنه صراع ديني جنسي او عرقي ، ولكن [الربا رافعة قوية ، في نفس الوقت ، في تطوير الشروط المسبقة للراسمال الصناعي ، من حيث انها تقوم بالدور المزدوج التالي ... اولا انشاء ثروة نقدية مستقلة ، تأخذ مكانها الى جانب ثروة التاجر بصورة عامة ، وثانيا الاستيلاء على شروط العمل ، اي تدمير مالكي شروط العمل القديمة] (ص ٣٥) من هنا تولد اتجاه اخر بين اليهود الاغنياء ، عدا عن هجرة اليهود الفقراء الى اوروبا الشرقية المتخلفة، هذا الاتجاه الهام [الذي سلكه قطاع من اليهود في اوروبا الغربية ، بعد اقتلاعهم من مواقعهم الاقتصادية القديمة ، كان الاندماج في النظام الراسمالي ، والدخول بشكل او باخر ، في صفوف طبقته السائدة والمشاركة في صنعه وتطويره] (ص ٣٦) ، وبصورة عامة ، يمكننا القول ، انه مع مجيء القرن التاسع عشر ، كانت الشرائح العليا من البرجوازية اليهودية مندمجة بصورة طبيعية في الطبقة الرأسمالية ، كما كانت الشرائح الادنى والافقر منها ، التي لم تهاجر ، مندمجة ايضا ، ولكن بشكل اقل . وعبرت البرجوازية اليهودية الجديدة عن التلاؤم الذي حققته مع النظام الراسمالي على اصعدة مختلفة ، منها الصعيد الاقتصادي ، فلم تعد بارزة [برؤزا خاصا في عالم المال كما كانت في السابق] ، (ص ٣١)

والصعيد الاجتماعي [ازداد عدد اليهود من ابناء البرجوازيـــة الذين تخلوا عن دينهم واعتنقـوا المسيحية] (ص ٣١) والصعيد الثقافي [انتجت البرجوازية اليهودية وقادت حركة الهاسكالا ، اي عصر التنوير اليهودي] (ص ٤٠) ، كما هـي الحال مع عصر التنوير الاوروبي ، والصعيـد الرابع السياسي [اعطت البرجوازية اليهوديـة ولاءها الكلي للحركات القومية ، في البلـدان الموجودة فيها ، واعتبرت ذلك جزءا من عمليـة تحررها الاجتماعي العام] (ص ٤٠) ، هـذا على الرغم من أن عملية تكون طبقة عاملة يهودية، كانت [عملية بطيئة وهزيلة نسبيا ، كما يقـول لينين] (ص ٤٣) .

اما في اوروبا الشرقية التي هاجر اليهود اليها، فحملت [البرجوازيات المحلية النامية ، بالتحالف مع الامراء الاقطاعيين ، لواء معاداة الساميـة ، باعتبارهـا الانعكاس الايديولوجي والسياسـي الفوقي ، لاندفاعها المادي باتجاه توسيع اعمالها] (ص ٤٥) فوقعت هجرة يهودية معاكسة الـى اوروبا الغربية [حركت نوازع لا سامية قوية في صفوف الطبقات الوسطى] (ص ٤٦) ولقد وصل هذا الوضع حالة التفجـر مع تدفق الجماهـير اليهودية من روسيا ، وهي في معظمها ذات طابع حرفي وبرجوازي صغير ، يقاسم الطبقة الوسطى الاوروبية لقمة عيشها وينافسها في اعمالها وهذا يفسر اولا ، قيام عناصر قيادية من البرجوازيـة اليهودية المندمجة ، في اوائل هذا القرن ، بدعـم قوانين الحد [من الهجرة اليهودية التي سنتهـا حكومات الدول الاوروبية الغربية] (ص ٤٢) ، ثانيا ، تقديم اليهود الفقراء [نسبة مئوية مرتفعة من قادة الحركات الثورية] (ص ٤٢) في اوروبا الشرقية .

كان لا بد لنا من هذه الاستفاضة في استعراض المقدمات الطويلة التي وضعها المؤلف ، في هـذا الفصل ، حيث يركز دعائم نظريته واطروحاته التي سيوردها فيما بعد عبر الفصول الباقية ، ولكـن لا بد لنا ، ايضا من التنويه ببعض الملاحظـات النقدية التي ستدعم نقدنا الاجمالي .

اولا — ان المؤلف استند بصورة مكثفة جدا على المصادر الكلاسيكية للنظرية الماركسية ، واخرجها ايضا من قالبها الاساسي والتاريخي ، وليس في هذا عيب فكري او دراسي ، ولكن نتج عن ذلك اننا كثيرا ما كنا نتابع فقرات المؤلف ، وكأنهـا تقارير انشائية ، لا تحصن موقفه الدراسي ، بقدر ما تنهك تسلسل موضوعاته ، وتلجئه، بالضرورة، الى استنباطات ميكانيكية بحتة ، وسنتعرض لهذه النقطة خلال نقدنا العام لهذا الكتاب ، والبديل الاساسي هو ان يأتي المؤلف بنماذج وقرائن مـن نصوص تاريخية تسجيلية محضة ، يستنتج منها ، جدليا ، ويقيم عليها نظريته ، هذه ملحوظة اولى.

ثانيا — لقد بنى المؤلف اطروحاته على اسس بحث المسالة اليهودية ، منـذ العصر الوسيـط الاقطاعي ، ولم يرجع الى اسباب تبني اليهـود لوظيفتهم التجارية والربوية ، هذه الاسباب مـن أين نبعت ، ومن أي مخلفات اجتماعية اقتصادية تاريخية انحدرت ، ولو طالعنا بهذا الصدد كتاب بديع امـين(٤) [المشكلة اليهوديـة والحركـة الصهيونية] ، لانتهينا مع المؤلف الى احتمالات اخرى تقودنا الى نتائج ونظرية مختلفة ،ومتعارضة مع احتمالات ونتائج ونظرية المؤلف ، سنعرض لها خلال نقاشنا لفصل قادم .

ثالثا — صحيح ان المؤلف وضع مقولة ماركس [لن نبحث عن سر اليهودي في دينه ، بل سنبحث عن سر هذا الدين في اليهودي الحقيقي] وهـي مقولة نصادق على صحتها مائة في المائة ، غير أن ماركس اعاد تأكيد هذه الصيغة ، وقام باتمامها، باتجاهها المنطقي الجدلي حين سجل فـي كتـابه العائلة المقدسة [انمـا يفسر انتعاش الديـن اليهودي بالعوامل العملية للمجتمع المدني الـذي انعكس وهميا في ذلك الدين](٥)، وباضافة المقولة التالية المعروفة جيدا لماركس « ان علاقات الانتاج القديمة تقف حجر عثرة امام تطور القوى المنتجـة النامية » نستطيع ، من ذلك ان نتبين الاهميـة الفائقة التي كان سيجدها المؤلف ، لو فتش عن تاثيرات الدين اليهودي في خلق المسالة اليهودية ، ولنقرا المقطع التالي الذي كتبه انطونيو غرامشي في مقاله « علامات استدلال اولية »(٦)، لنفسـر ونحدد ما نعنيه بالضبط بمقولة الدين في مفهومنا ، يقول غرامشي [لاحظ مسالة الدين ماخـوذا ، ليس بمعناه اللاهوتي ، وانما بمعناه العلمانـي ، كوحدة ايمان تجمع بين رؤية العالم ، وبين نمـط السلوك المتولد عنها ... لماذا نطلق على وحدة

الايمان هذه تسمية الدين ، اليس الاحرى بنا ان نسميها ايديولوجية ... او بصراحة اكثر سياسية] ان التغاضي عن العملية الجدلية والرابطة العضوية بين البناء الفوقي الاخلاقي والديني ، كما حددناه من جهة ، والبناء التحتي دفع بالمؤلف الى بلورة نظرة ميكانيكية احادية الجانب ، وغير مرجحة من قبل دارسين مثله ، وسنناقش هذه النظرة الميكانيكية تفصيليا لاحقا ، وفي الحقيقة اننا لا نريد العودة الى المسائل الدينية ولكن علينا ان نلمس ونشخص اثر « التدين »(٧) في المسألة اليهودية ونمط السلوك اليهودي واثره ايضا في اثارة النزعة اللاسامية .

٢ ــ الفصل الثاني : المنشأ الامبريالي للمشروع الصهيوني : مهمة صعبة ، وغاية في التعقيد ، تلخيص هذا الفصل ، بالرغم من قصره ، هذا اذا اردنا الدقة في العرض ، ومتانة التسلسل والاسلوب ، اذ ان المؤلف يزحمه بالوثائق والمذكرات والاستشهادات ، ولكنها مهمة ينبغي القيام بها ، لا محالة لو حزمنا امرنا على استخراج المحور الرئيسي في نظرية يعمل المؤلف على بنائها ، حول المسألة اليهودية ، وهدفه اعادة ترتيب هذه المسألة في رؤية متماسكة ، مع انه وضع اسس هذه النظرية في الفصل السابق ، بمنحى تقريري ميكانيكي ، الا انه يواصل تدعيم اتجاهه هذا بلغة الارقام والوثائق .

يعرض المؤلف ، هنا ، لواقع المسألة اليهودية وعملية تفاقمها ، خلال اوضاع اليهود ، في عهد نضوج البرجوازية الرأسمالية ، ودخولها الى مرحلة الرأسمال الاحتكاري المتوسع باضطراد نحو فتح اسواق ، وانشاء مستعمرات جديدة ،لتصريف البضائع واستيراد المواد الخام ، وحماية الممرات الاستراتيجية [ولايضاح ما يعنيه ، لا بد من الاشارة الى ان الفكرة التقليدية ، عن العودة الى الارض المقدسة او الموعودة لم تكن تعني عند اليهود ، في مطلع العصور الحديثة ، اكثر من تطلع عاطفي ديني عام ، ورغبة عند بعض المتدينين اليهود في الاقامة في فلسطين للتعبد] (ص ٤٩) وهذه الحال لا تمثل اكثر من [تطلع الجماهير المسيحية او المسلمة اتجاه بيت لحم او مكة] ، (ص ٥٠) ويورد الدكتور العظم فقرة من كتاب الصهيونية وحقوق الانسان العربي(٨) للدكتور اسعد رزوق حيث يقول [ان اهتمام اناس غير يهود بالمسألة اليهودية ، او من اصطلح على تسميتهم بصهيونية الاغيار ، هو ظاهرة تاريخية ودينية تصدر عن بواعث سياسية وامبريالية ، الى جانب الباعث الديني الموروث] ، (ص ٥٢) ويعود الدكتور العظم على هذا الفهم الذي يبديه الدكتور رزوق ، لنفي الجانب الديني كلية منه ، لانه يبصر في [الواقع ان صهيونية الاغيار لم تكن في يوم من الايام ، حليفا مستقلا للقوى الامبريالية ، بل كانت جزءا لا يتجزأ منها ، وأداة هامة من ادواتها] ص ٥٣ ، وعلى هذا الاساس الوحيد، لم يكن اهتمام كروميل ، او نداء نابوليون بونابرت الى اليهود الذي [دعا فيه جميع يهود آسيا وافريقيا للانضواء تحت رايته من أجل اقامة القدس القديمة] ص ٥٧ غير اطماع [كان موضوعها الرئيسي من سيهيمن على القسم الاكبر والاهم من التجارة العالمية يومها] ص ٥٤ ، أما في الربع الثاني من القرن التاسع عشر ، فقد اشتد التنافس بين الدول الامبريالية [على توسيع نفوذها في اراضي الامبراطورية العثمانية وحماية مصالحها فيها] ص ٥٩ وهذا ما دفع اللورد شانتسبوري [لان يعمل ويخطط مع بالمرستون رئيس وزراء بريطانيا ووزير خارجيتها حينذاك ، على دفع المشروع الصهيوني لاستعمار فلسطين ، الى الامام] ص ٦٠ ومن الشخصيات المهمة والمؤثرة التي شاركت في هذه المداولات [الكولونيل تشارلز هنري تشرشل الذي شغل منصب القنصل البريطاني في دمشق] ، ص ٦٤ كما صدر ، في ذلك الحين ، كتاب لدكتور يدعى توماس كلارك يحمل عنوانا [ينتهي الوضوح بالنسبة لموضوعنا، هو الهند وفلسطين : أو احياء اليهود من وجهة نظر علاقة ذلك بطريق الشرق الادنى الى الهند]، ص ٦٧ ، وبهذا فان الامثلة التي قدمناها تكفي [لتبيان المنشأ الامبريالي والاستعماري للمشروع، قبل ان تعمره البرجوازية اليهودية اي اهتمام جدي] ، ص ٦٩ ، لهذا الغرض أسست جمعيات غير يهودية ، هدفها ترحيل اليهود الى فلسطين ، مثل جمعية استعمار فلسطين التي رعتها الامبراطورة اوجيني زوجة نابوليون الثالث ، وفي بريطانيا لم تفقد [الطبقة الحاكمة اهتمامها الجدي بالمشروع الصهيوني منذ ان نضجت الاسس المادية] ص ٧١ ، وشارك دزرائيلي بكتاب قدمه كاقتراح

للسيطرة على قناة السويس تحت عنوان « المسألة اليهودية في المسألة الشرقية » ، وكل هذه المشاريع كانت تستهدف وجود الشعب الفلسطيني واقتلاعه من أرضه ، تؤكد ذلك كل المخططات المقدمة ، ومنها مخطط متفورد، احد متنفذي الجهاز البريطاني لادارة المستعمرات الذي نشره في كتاب عام ١٨٤٥ وقال فيه [ان الضغط الذي يولده ادخال كتلة ، بهذا الحجم من الغرباء ، على السكان الفعليين قد تترتب عليه نتائج مؤذية ، لذا يستحسن ان يتم اعداد البلاد ، بحث الحكومة العثمانية على العمل على جعل السكان يتراجعون صوب تلك البلاد] ص ٦٦ العربية الشاسعة .

هذا الفصل يحتوي على براهين قاطعة يأتي بها المؤلف ليثبت ان اليهود لم يولوا عناية فائقة لمشروع استعمار فلسطين ، بقدر ما حملت الاطماع الاستعمارية ، كبار المستعمرين على الترويج له ، بين اليهود انفسهم ، بغية تحقيق هذه الاطماع ، وفي نفس الوقت ، ينحي الدكتور العظم العامل الديني ، ولا يراه عنصرا مؤثرا في تحريك النزعة الصهيونية في نفوس اليهود نحو استعمار فلسطين، ولكن هذا التفسير الذي يطرحه علينا الدكتور العظم لا يشفي وحده . فمثلا لم يهتم الدكتور بالجانب الاخلاقي من المسألة ، والا كيف نستطيع ان نفسر موقف الكاتب جورج اليوت المدافع عن حق اليهود في بناء قوميتهم من خلال الدين ، وكيف نستطيع ان نفوت موقف الكاتب الانجليزي سير ولتر سكوت الذي كان منحازا تماما الى الجانب اليهودي باعتبار اخلاقي محض(٩). هذا من ناحية ومن ناحية اخرى يجب ان نرى في الدين اليهودي البناء الفوقي المتغير بمتغيرات البناء التحتي . يقول ماركس بهذا الصدد [في مرحلة معينة من مراحل تطورها ، تتناقض قوى الانتاج مع علاقات الانتاج اذ ذاك تبدأ حقبة الثورة الاجتماعية ، ان تغير القاعدة الاقتصادية يؤدي الى انقلاب سريع في مجمل البنية الفوقية ، وعندما نعالج مثل هذه الانقلابات ، لا بد لنا من ان نميز باستمرار بين الانقلاب المادي الذي يمكن رصده بدقة وبين الاشكال القانونية والسياسية والدينية والفنية والفلسفية ، باختصار الاشكال الايديولوجية حيث يعي البشر هذا النزاع ويخوضونه حتى النهاية](١٠). ولكن الكاتب لم يعر أي انتباه لهذا الجانب ، بحيث ينتقلنا فجأة ، وبدون ممهدات فكرية او سياسية ، الى القول بأن وعيا قوميا بدأ يحرك اليهود في ستينات القرن التاسع عشر ، هذا ما سيراه المؤلف في الفصل التالي ، ولكن كيف نستطيع ان نفهم جملة يقولها الكاتب اليهودي اسرائيل زانغويل(١١) مثل الجملة التالية [الدين التليد الذي وحدنا حتى الان يجب ان لا نخسره وهو على اعتاب تجاوزه الديانات التي انبثقت عنه ... من يدري فقد يولد ثانية فينا اذا صبرنا] كما يؤمن ايضا بأنهم اي اليهود [علمنا العالم الدين كما علمته اليونان الجمال والعلم وان الله قد اختار عرقا واحدا ليكون رسله وتلاميذه]. لسنا هنا في مجال الاصرار على ان الدين اليهودي هو المحرك الاساسي للنزعة الصهيونية ، ولكن المتغيرات الاقتصادية ، التي اجتاحت اوروبا في القرن الماضي ، دفعت اليهود الى التفكير في وضعهم كيهود يحملون رسالة معينة الى العالم كما تحمل أوروبا ذلك بادعاءاتها ، ولا بد ان المتغيرات الاقتصادية كان لها التأثير على الدين اليهودي ، ذلك التأثير الكافي لخلق ايديولوجية جديدة ، مهما كان نوعها .

٣ — الفصل الثالث : الصهيونية اليهودية :

في هذا الفصل يصف المؤلف عملية تبني الطبقة البرجوازية اليهودية للمشروع الصهيوني ، لانها رأت فيه امكانية التخلص من فائض نسبي من البروليتارية اليهودية والبرجوازية الصغيرة اليهودية ، هاتان الطبقتان اللتان كانتا تشاركان في خوض صراع ضد اخصامهما من البرجوازية الكبيرة اليهودية وغير اليهودية ، فبعد ان وعت البرجوازية اليهودية مصالحها العميقة في هذا المشروع للتخلص من اليهود الفقراء الذين كانوا ، ايضا ، عرضة لنقمة [الطبقة البرجوازية الصغيرة الاوروبية التي رأت فيهم خصما من خصومها الذين ينافسونها] (ص ٨١) على حصتها من السوق الداخلية ، مما زاد من اشتعال نار الحقد على السامية ، وجدت البرجوازية اليهودية ، بعد حين ممثلين لها في الفكر الديني ، كيهودا القالي ، وكالشر في بريطانيا وموسى هس في فرنسا ، للترويج لاطروحاتها ، ولقد أصدر هذا الاخير كتابا ادعى فيه [ان هذا الحل ، أي استعمار فلسطين ، لا يريح البرجوازية اليهودية، الباقية محلها في اوروبا بل من شأنه أن يرضي القوى الاجتماعية الواقفة وراء حركة معاداة السامية] (ص ٩٤) . ويورد

المؤلف كلاما سجله لينين على لسان سيميل رودس ، احد دعاة الاستعمار ، حول الوضع المتفجر في أوروبا ، بعد أن كثرت البرجوازية عن انيابها أمام مطالب البروليتاريا [يقول رودس اذا كنتم تريدون تجنب الحرب الاهلية فعليكم ان تصبحوا امبرياليين] (ص ٩٤) . وقام كبار أقطاب المال اليهود من امثال مونيفيري والبرت كوهين وكل من آل روثشلد وفولد وغيرهم ، [بتأسيس جمعية هدفها استعمار فلسطين] (ص ٩٢) . وحولت هذه الدعوة الى دعوة ايديولوجية بكتابات هس حيث يقول في كتابه المذكور موجها كلامه الى اليهود [تحولوا الى مثقفي (بكسر القاف) القطعان العربية المتوحشة ومثقفي الشعوب الافريقية] (ص ٩٧) . لنا ملحوظة واحدة على هذا الفصل فان المؤلف يمهد به ليصبه في مقولة تنسجم مع سياق « رؤيته » للمسالة اليهودية ، وهذه المقولة تشير الى ان البرجوازية اليهودية أخذت تتحرك ضمن [طابع قومي برجوازي] (ص ٩٩) . ونحن لا نتفق مع المؤلف على هذه المقولة النهائية ، وان كنا نؤيد ان البرجوازية اليهودية ادركت مصالحها الوغيرة ، كبرجوازية ، في استعمار فلسطين وخلق أسواق خاصة بها ، ذلك ان الوعي القومي يتطلب روابط اخرى مثل اللغة والتاريخ والمصير المشتركين ، ولم تتوفر هذه الشروط أبدا لليهود ، بل بالعكس [ان القادة الصهاينة كانوا يشعرون بخطر تعرض دعوتهم الى الفشل والانهيار بسبب اتساع الحركة الاندماجية كما تقول بديعه امين(١٢)] . ثم ان [أي دراسة جدية لقضية ما ، لا يمكن ان تتوصل الى نتائج مرضية ، اذا لم تأخذ بعين الاعتبار جميع الظروف والملابسات ، سواء أكانت اقتصادية او سياسية او ثقافية تكتنف تلك القضية(١٣)] ، وهذا ما لم يتطرأ اليه المؤلف الا بشكل طفيف وعابر ، لا يبرهن على تأكيداته حول الطابع القومي ، ومن هنا فانه ليس من المعقول « ان نقبل قول هرتزل من ان اللاسامية هي ثمرة تحرر اليهود »(١٤) ، ثم هل يمكننا اعتبار الصهيونية على انها الحركة القومية للبرجوازية اليهودية ، في اوروبا ، كما يعتقد الدكتور العظم ، ام ان الحركة الاستعمارية هي التي خلقت الحركة الصهيونية(١٥) ولنذكر هنا ايضا موقف لينين من حق الشعوب في تقرير مصيرهم ، ورفضه القاطع ، في ذات الوقت ، اعطاء [الاستقلال الذاتي للحزب الرجعي اليهودي المسمى بالبوند](١٦) ورفض الحزب البلشفي الاعتراف بالبوند بوصفه الممثل الوحيد للبروليتاريا اليهودية(١٧) ، ولو كان لينين رأى في ذلك الاستقلال استقلالا حقيقيا لحزب يعبر عن شعب في وضع قومي ، لتغير موقفه تغيرا تاما .

الفصل الرابع : الحركة الصهيونية : في هذا الفصل يرسم المؤلف الملامح العامة لتبلور كل من النظرية والحركة الصهيونية المنظمة في اطار [قومي برجوازي واضح] (ص ٩٩) ، ويؤكد ان كتاب ليو بنسكر « التحرر الذاتي » ، [عبر فيه من تبلور الاتجاه القومي ، كما فعل هرتزل في كراسه الدولة الصهيونية] (ص ١٠١) على الرغم من ان المؤلف يرى المشروع الصهيوني أكثر فائدة [لليهود المندمجين « ويعني بالتحديد الطبقة البرجوازية » أكثر من المواطنين اليهود المؤمنين لانهم سيتخلصون بذلك من مزاحمة البروليتاريا اليهودية المزعجة] (ص ١١٠) ، لذلك فان تشامبرلين ، الذي كان معروفا بمواقفه العرقية ، وبقيادته للحملة الداعية [الى سن القوانين العنصرية الموجهة ضد المهاجرين اليهود الى بريطانيا ، أظهر نفسه في البرلمان البريطاني ، من أكثر الناس حماسة للصهيونية ، حيث كال المديح لهرتزل وأعلن اقتناعه بالحل الصهيوني المقترح للمسالة اليهودية] (ص ١٣٠) . وهذا الموقف بعينه ينطبق ، يومها [على اللورد آرثر بلفور الشهير] (ص ١٣٠) . وهكذا ايضا استفادت الحركة الصهيونية من النزعة اللاسامية في دفع اليهود نحو الالتحام بها ، كما فعل فلاديمير جابوتنسكي الذي ناوض اعداء الثورة البلشفية الذين [سيرتكبون المذابح ضد اليهود مهما كانت الظروف] (ص ١٣٧) والمحور المركزي الذي كانت تدور حوله مفاوضات هرتزل واتصالاته بالحكومات الاوروبية [هو التعاون العملي بين الحركة الصهيونية والدول المعنية ، لتتخلص من عناصر الشغب اليهودية الممثلة بالمناضلين والاشتراكيين المثقفين ، كذلك تعزيز قدرة الدولة المقصودة ، وتوسيع سيطرتها ، الا ان هرتزل الذي كان يفضل حماية الامبريالية الالمانية ، كان يدرك في نفس الوقت ان الدولة المرشحة اكثر من غيرها للقيام بهذه المهمة هي بريطانيا] (ص ١٥٣) ، وبهذا انتهى الامر بصدور وعد بلفور عام ١٩١٧ أي

[في الفترة الواقعة بين ثورتي فبراير واكتوبر الاشتراكية ، ولم يكن صدوره معزولا على الاطلاق عن سقوط النظام القيصري] (ص ١٦٤) في روسيا ، لان الامبراطورية البريطانية أرادت خلق خنادق ومعسكرات أمامية في وجه المد الثوري العمالي ، وتمكنت الوكالة اليهودية من توسيع دائرة نفوذها حيث اصبحت [تضم ممثلين عن يهود امريكا غير المنتمين ، رسميا ، الى الحركة الصهيونية] (ص ١٧٧) ، وبذلك جرى ربط أهداف متعددة — السياسة القومية ، والامن ، والاستراتيجية — بهدف [الاستيطان] (ص ١٧٩) ، كما تعاونت الحركة الصهيونية مع الانظمة الفاشية والنازية بقصد اشعار اليهود بعزلتهم وتوحدهم وحثهم الى الهجرة نحو فلسطين ، وينهي المؤلف كتابه بالقول بأنه [على الرغم من ضخامة جهاز القمع العسكري البريطاني الصهيوني لم تهدأ مقاومة الشعب العربي الفلسطيني التي اتخذت شكل ثورة مسلحة عام ١٩٣٩] (ص ١٨٣) . ولكن تمكن مجتمع [المستوطنين المتفوق عسكريا وتنظيميا وسياسيا] (ص ١٩١) وله تاريخ طويل من التعامل والخبرة الاقتصادية ، من تحقيق اهدافه بطرد اكثرية الشعب الفلسطيني ، وليس غريبا [ان تظهر اسرائيل بمظهر « الجيتو » الرجعي المدجج بالسلاح والمرتبط عضويا بالمصالح الامبريالية ، والمستعد دوما للتوسع العنيف ، ولضرب أي تحرك ثوري او وحدوي في المنطقة من شأنه ان يهدد استراتيجية هيمنة نظام العلاقات الامبريالية] (ص ١٩١) .

من هذا الاستعراض المطول ، لهذا الكتاب المهم ، وبعض تعليقاتنا التفصيلية عليه ، نرى ان الحركة الصهيونية لم تكن حركة ذاتية القدرة والتوجه ، بل على العكس ، فلقد خلقتها ظروف واوضاع اجتماعية واقتصادية عاشتها اوروبا ، وأنمتها تطورات اقتصادية لاحقة ومحددة ، ومن ثم وجهتها أهداف ومصالح امبريالية معينة ، ولكنها ، أي المسألة اليهودية تبقى مسألة جانبية ونسبية ملحقة بالمجتمع الاوروبي ، الا ان الكاتب لم يكتشف او يحاول تبيان الجوانب الاخرى للمسألة اليهودية والحركة الصهيونية ، فبدت ، من خلال عرضه لها وكأنها مسألة حتمية التكون والنمو ، ثم الحل بطريقة انشاء الكيان الصهيوني ، بدون ادنى علاقة لارادة اليهود فيها ، وبدون أي تأثير من تعاليمهم ومعتقداتهم الفكرية والاسطورية والفلسفية ، وبذلك تغاضى المؤلف عن جوانب مهمة انعكس فيها العنصر الاقتصادي والتطورات التاريخية ، كما كان لها الاثر ، بدورها ، على البنية التحتية التي نبعت منها ، ونعني بتلك الجوانب الثقافية والدينية والايديولوجية ، وهي التي كانت تبقي وتربط رباطا متوترا ، اليهود ، كيهود ، بالمجتمعات الاوروبية وعلاقات الانتاج السائدة فيها ، ومن هنا ، أي من تنحية المؤلف للجوانب الفكرية والدينية والارادية من المسألة اليهودية ، تولدت تلك النزعة التقريرية الميكانيكية التي سيطرت على سياق المعالجة ، بحيث بدت الحركة الصهيونية وكأنها حركة بدون بواعث وعوامل محركة يهودية ، ولكنها حركة ضرورية تفرزها المجتمعات الاوروبية . في نفس الوقت الذي يناقض فيه المؤلف نفسه ، حين يصر على تبلور الخاصية القومية لليهود ، في ستينات القرن الماضي ، في لدن هذه الحركة التي ليس لها القدرة الذاتية ولا الفكر الايديولوجي الكامل والناضج ، وهذا انتقال كيفي مفاجيء ، حذر منه ماركس ولينين وغرامشي ، لتراكم عارض وغير جوهري ، وفي الحقيقة ان الفصل الاخير ، لم يأت حسبما شاء توجه المؤلف الفكري ، ولكنه جاء على النقيض ، بتبيان افرادية وانعزالية ارادة كل من هرتزل وبنسكر عن اليهود ، كما ان المؤلف على الرغم من استشهاده بمقولة ماركس بأن لا نبحث عن سر اليهودي في دينه بل نبحث عن سر الدين اليهودي في اليهودي الحقيقي ، لم يقم باستعمالها على الاطلاق ، مما عرض بحثه ، للسقوط في النزعة الميكانيكية الخالصة كما ذكرنا آنفا ، فانصب بحثه على نمطية علاقات الانتاج وحدها ، بدون ان يسبر افرازات هذه العلاقات واثرها في اليهود ، ثم أثر هؤلاء على علاقات الانتاج وتعاملهم معها ، ولقد اوضحنا في السابق ، ان الدين اداة سياسية ، ايضا ، في ايدي الافراد ، وهي منهج اخلاقي عملي لتجنب مواقف معينة او اتخاذها ، أم ان اليهود لم يندمجوا في المجتمعات الاوروبية ، على الرغم من مرور عصور طويلة ، لانهم مرابون فحسب ، بدون صيانة فكرية وعقائدية لموقفهم هذا ، فهو أمر غير معقول على الاطلاق حتى ضمن

اطار المنهج العلمي الحقيقي ، واخيرا نعترف ، بدافع علمي ، ان الشخصية القومية للمجتمع الصهيوني أخذت الان تدخل في مرحلة النضج والتبلور الواقعي ، كما يشير الى ذلك علماء الاجتماع السوفيات(١٨)، حيث يؤكدون ان المستوطنين اليهود وضعوا في اطار وبوتقة محددين في فلسطين ، وبدأ هذا الاطار وهذه البوتقة يفعلان فعلهما في الافراد ، لصهرهم ، في مصالح مشتركة تاريخ مشترك ، لغة مشتركة ، أهداف مشتركة ، وتوجه مشترك ، ومصير مشترك ، في مواجهة الامة العربية بمجموعها . وعلى الامة العربية ان تدرك هذا جيدا ، لا ان تتغاضى عنه .

الحواشي :

١ — الارقام الصغيرة الموضوعة لوحدها بين قوسين تشير الى مراجع رجعنا اليها نحن شخصيا ، نعني هنا بالمصادر الرئيسية للنظرية المادية الجدلية ، مؤلفات ماركس ، انجلز ، لينين ، وغيرهم من كلاسيكي هذه النظرية .

٢ — كراس ماركس المعروف باسم المسألة اليهودية ، صدر عن دار الجيل بدون تاريخ ، ولم يشر فيه الى اسم المترجم .

٣ — نعني بهذه الكلمة ما يعنيه ماركس في الجمل السابقة .

٤ — صدر كتاب بديعة امين عن دار الطليعة ، الطبعة الاولى ، تشرين الاول ١٩٧٤ .

٥ — العائلة المقدسة ، او نقد النقد النقدي ، كارل ماركس ، فريدريك انجلز ، ترجمة حنا عبود ، دار دمشق للطباعة والنشر ، ص ١٤٢.

٦ — قضايا المادية التاريخية ، انطونيو غرامشي، ترجمة فواز طرابلسي ، صدر عن دار الطليعة ص ١٣ .

٧ — التدين ، هذه الكلمة نستعملها كما حددها غرامشي ، كوحدة ايمان تجمع بين رؤية العالم وبين السلوك المتولد عنها .

٨ — صدر عن مركز الابحاث الفلسطينية، سلسلة دراسات فلسطينية ، رقم ٤٨ .

٩ — راجع بهذا الصدد كتاب « الشخصية الصهيونية في الرواية الانكليزية » ، هاني الراهب ، صدر عن مركز الابحاث الفلسطينية ، سلسلة كتب فلسطينية ، رقم ٥٦ .

١٠ — مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي ، ماركس ، الترجمة الفرنسية ، باريس ، ١٩٥٧ ، ص ٤ ، ٥ .

١١ — الشخصية الصهيونية ، في الرواية الانكليزية ، ص ٥٧ .

١٢ — كتاب بديعة امين ، ص ١٢٠ .

١٣ — نفس المرجع ، نفس الصفحة .

١٤ — كتاب بديعة امين ، ص ١٢٥ .

١٥ — كتاب بديعة امين ، ص ١٣٥ .

١٦ — كتاب لينين ، خطوة الى الامام خطوتان الى الوراء ، ترجمة دار التقدم ، ص ١١ .

١٧ — خطوة الى الامام ، خطوتان الى الوراء ، ص ٣١٤ .

١٨ — راجع بهذا الخصوص « نشرة أخبار » ، نشرة يصدرها المكتب الصحافي بالسفارة السوفياتية في بيروت ، وفق مواد وكالة انباء نوفوستي ، التاريخ ١ ايلول ١٩٧٢ .

هاني الزعبي

سلمى حداد ، المساعدات الاميركية العسكرية لايران
(دار القدس ، بيروت ، ١٩٧٤).

صدر عن دار القدس كتاب « المساعدات الاميركية العسكرية لايران » للانسة سلمى حداد ، وفيه تعالج قصة العلاقة الاميركية — الايرانية والصداقة المتبادلة بينهما والقائمة على اساس الدعم العسكري للشاه مقابل الدعم السياسي للمواقف الاميركية في منطقة الخليج العربي ، وفي مواجهة الاتحاد السوفياتي والدول العربية .

ويقع الكتاب في مئة صفحة من الحجم المتوسط مع ملحق يعطي صورة مفصلة ، وبالارقام ، عن الدعم العسكري وتاريخه واسبابه في كل مرحلة من المراحل التي مرت على المنطقة وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية .

تحاول الكاتبة في مقدمة الكتاب اعطاء لمحة سياسية لتوضيح مضمون العلاقة الاميركية — الايرانية ، وشكلها ، ومعنى الدعم العسكري لنظام الحكم « الشاهنشاهاني » وذلك بأسلوب صحفي مبسط ادى الى وقوعها في عدة عثرات سياسية ، سنأتي على ذكرها فيما بعد . الا ان المقدمة رغم ذلك ، أعطت صورة عامة عن تلك العلاقات ، وكيف اتخذت عدة اشكال في فترات متقطعة . يتضح منها ان ايران تشكل القاعدة الامبريالية الاساسية للولايات المتحدة الاميركية في منطقة الخليج العربي في وقت تزداد فيه التهديدات الاميركية باحتلال منابع النفط . فايران تكمل الدور الذي تلعبه اسرائيل وباساليب مختلفة في منطقة اخذت تبرز اهميتها الاستراتيجية والاقتصادية في السنوات الاخيرة . وايران هي احدى الدول التي فرزتها الولايات المتحدة على خانة البلدان التي يمكن تحويلها للعب دور امبريالي فرعي في العالم . فالسياسة الاميركية التي اصيبت بهزائم متعددة ومتكررة في عدة مناطق من العالم وخاصة في منطقة جنوب شرق اسيا ونتيجة للنكسات العسكرية التي لحقت بجيوش اميركا المدججة بالسلاح في مواجهة حركات التحرر الوطنية في البلدان المتخلفة ، أخذت هذه السياسة تتجه منذ سنوات قليلة نحو الانسحاب التكتيكي التدريجي — العسكري المباشر من بعض المناطق المتوترة في العالم متمسكة في الوقت نفسه باهدافها الاستراتيجية السياسية . ولذلك بدأت بمد بعض الدول المتخلفة بالدعم الاقتصادي والعسكري كمقدمة لتقوم هذه الدول بدعم المخططات السياسية الاميركية في المناطق الحساسة من العالم . ومن هنا نفهم الدور الامبريالي الفرعي الذي تمارسه كل من البرازيل في اميركا اللاتينية ودولة جنوب افريقيا واسرائيل في الشرق الاوسط والان ايران في منطقة الخليج العربي .

اما بالنسبة للتصريحات التي ادلى بها الشاه مؤخرا حول عزمه على دعم العرب في المعركة المقبلة مع اسرائيل ليست الا محاولة للتعمية ، اذ سرعان ما كذب ناطق رسمي ايراني هذه الاشاعات ثم الحقها بتصريح اخر نفى فيه عزم ايران عن قطع دعمها البترولي لاسرائيل باعتبار « ان السياسة شيء والتجارة شيء » . وهذا خطأ طبعا لانه لا يمكن فصل السياسة عن الاقتصاد مثلما لا يمكن فصل السياسة عن الحرب . من هنا نرى انه لا مجال للمراهنة على تغيير الموقف الايراني من اسرائيل وبالتالي من الام الحنون : الولايات المتحدة الاميركية .

بعد ان تقدم الكاتبة المعلومات الجيدة حول المساعدات الاميركية لايران ، ومخططات الامبريالية في منطقة الخليج العربي ، تحاول ان تعطي صورة سياسية عن شبكة العلاقات القائمة في المنطقة من خلال شبكة العلاقات الدولية والاطراف المتصارعة عالميا ، وانعكاس ذلك الصراع على وضع المنطقة . وهنا لا بد لنا من تسجيل بعض الملاحظات على الكتاب لعدم موافقتنا على المضمون والموقف السياسي رغم نوايا الكاتبة الحسنة . الا ان النوايا لا تبرر الاخطاء التي وقعت فيها .

فالكاتبة مثلا ، تعبر عن دهشتها كيف ان الولايات المتحدة تدعم بعض الزعماء في العالم لا يتمتعون بشعبية في بلادهم نفسها ، عدا عن العداء مع الدول المجاورة ، كايران واسرائيل .

كما انها تدعو رؤساء اميركا الى وعي مصالح بلادهم القومية في المنطقة . وتطرح مشروع تعاون رؤوس الاموال العربية والايرانية مع التقنية

الاميركية . فتقول : « ولا يمكن للشاه ان يربح صداقة الدول المجاورة واحترامها الا اذا تخلى عن احلامه التوسعية ، وعمل في حدود امكاناته وطاقته . وعندئذ يمكن للولايات المتحدة ان تتخلى عن سياستها ، وان تستنبط سياسة خارجية متينة متوازنة بالنسبة الى الدول العربية وايران معا . ان مثل هذه السياسة تتيح امام الولايات المتحدة المجال للتعاون بشكل اكمل مع دول المنطقة ، وتنفيذ مشاريع تنمية مختلفة يمكن أن ينجم عنها دمج رأس المال العربي والايراني بالتقنية الاميركية بشكل يفيد العالم كله » (ص : ٨١) .

وتلح الكاتبة في عدة مرات على ضرورة تغير السياسة الاميركية ، معتبرة ان تباشير هذا التغير قد بدأت ، واعطت عدة امثلة على ذلك . الا انها لم تدرك انه بمقدار ما تتغير سياستنا نحن اتجاه الولايات المتحدة وبمقدار ما نقترب نحن من معسكر الامبريالية ونبتعد عن معسكر حركات التحرر الوطني والاشتراكية ، تبدأ السياسة الاميركية بالتغير في اتجاهنا . وتقول في هذا المعنى : « ان الاختيارات المفتوحة امام مخططي سياسة الولايات المتحدة في الشرق الاوسط محدودة جدا . فالولايات المتحدة آلمت الجماهير العربية كثيرا ، وتجاهلت لفترة طويلة حاجاتها الاساسية ، ولهذا فان اي تحول في السياسة الاميركية يتطلب امرين معا : ازالة آثار الاخطاء السابقة ، والتهيئة لعلاقات مستقبلية افضل » (ص : ٧٧) .

وتؤكد في بعض صفحات الكتاب ، ان السياسة الاميركية هي مجرد اخطاء باخطاء ، وليست من صلب المصالح الرأسمالية الامبريالية . بل انها ترى ان تحسن علاقات الغرب مع الاتحاد السوفياتي يعود فقط الى تلك الاخطاء وزلات اللسان التي يقع فيها بعض المسؤولين الاميركيين . فتقول : « ومن المفارقة التي تدعو الى السخرية ، ان الاخطاء المستمرة للسياسة الاميركية هي المسؤولة عن نجاح السياسة السوفياتية في المنطقة ، والنتيجة هي ان الولايات المتحدة فقدت امتيازاتها واحدا بعد الاخر » (ص : ٤١) .

وتحاول ايضا ان تستعمل كل وسائل الاغراء لجذب الولايات المتحدة الينا سواء بالنسبة الى النفط وحاجة السوق الاميركية اليه ، ام بالنسبة الى السوق العربية الاستهلاكية للبضائع الاميركية المصدرة الينا . وتعتبر ان هناك تناقضا بين اقوال رؤساء اميركا وأفعالهم وخاصة نيكسون ، فتقول : « ففي تقرير حول السياسة الاميركية لعام ١٩٧٠ وضع الرئيس نيكسون مبادىء واهدافا مثالية للسياسة الاميركية في الشرق الاوسط ، تجعل كل من عايش التطبيق الفعلي لهذه السياسة ينفجر غاضبا من جسامة التناقض بين الطرح النظري المتزن والتدابير العملية المتحيزة » (ص : ٣٩) . وتقول في مكان اخر : « ولو ان الولايات المتحدة اتبعت سياسة مختلفة لجنبت كل من العرب والاسرائيليين الكثير من الالام والتضحيات ، ولوجدت نفسها في مركز افضل في هذه المنطقة » (ص : ٣٥ — ٣٦) .

قلنا ان نوايا الكاتبة الحسنة ومواقفها التقدمية لا تبرر الاخطاء . فالعلاقات الدولية تحكمها المصالح قبل اي شيء اخر ، ومصالح الدول ليست انعكاسا لأمزجة البشر الذاتية بل نتاج النظام القائم وانعكاس لمصالح الطبقة الحاكمة ، هذا اولا . ثانيا ان الاخطاء في العلاقات الدولية وخاصة بين دولة كبيرة ودولة صغيرة ليست ناجمة عن صدف وسوء تقدير ، الا في حالات استثنائية جدا ، بل تعكس نوعية العلاقة بين الدولتين والمصالح المتبادلة بينهما . ثالثا ان الولايات المتحدة لا يمكن المراهنة عليها ، ولا يمكن التعويل على سياستها ولا يمكن الموازنة بينها وبين دولة اشتراكية ، لأن السياسة الاميركية مرهونة بتأمين مصالحها في المنطقة وحماية مصالحها تعني سيطرتها على مرافقنا الاقتصادية وبالتالي توجيه مواقفنا السياسية .

وليد نويهض

تعليق على تعقيب علي ماهر رشدي الشوا ورد حسين أبو النمل

في عدد حزيران ١٩٧٥ من « شؤون فلسطينية » الغراء ، عقب علي ماهر رشدي الشوا على تقرير كان الزميل حسين ابو النمل قد نشره في عدد أيار ١٩٧٤ من المجلة نفسها . ولاهتمامي بتاريخ قطاع غزة ، وبسبب ورود اسمي ، سرا ، ضمن رد الاخ حسين ، حيث ذكر انه اعتمد في بعض معلوماته عن رشدي الشوا على تقرير نشرته « الطليعة » القاهرية في عددها العاشر لسنة ١٩٧٤ ، وهو التقرير الذي كتبته ، في حينه ، عن رشاد الشوا، لذا رأيت لزاما علي الاسهام في هذا الموضوع .

وحتى نبدأ الموضوع من رأسه ، ارى العودة الى تقرير الاخ حسين موضوع الخلاف . حيث لاحظت ما يلي :—

١ — لم يكن رشدي الشوا عضوا في حزب الدفاع ، كما يدعي التقرير .

٢ — كان فهمي الحسيني رئيسا لبلدية غزة في بعض سنوات الثلاثينات ، وان لم يكن في يوم من الايام عضوا في الحزب العربي .

٣ — يحتم علي واجب النقد الذاتي وشرفه ، الاعتراف بالوقوع في الخطأ ، اذ أن الشخص الذي قصدته في تقريري بمجلة « الطليعة » ، وتسببت في وقوع الزميل ابو النمل في خطأ معلومات ، كان حمدي الحسيني وليس فهمي . وتفاصيل القصة ان السلطات البريطانية قسمت غزة الى أربع مناطق انتخابية ، واعطى المندوب السامي البريطاني نفسه حق اختيار واحد من المرشحين الاول في المناطق الاربع لتولي رئاسة البلدية . وقد حدث ان نال حمدي الحسيني المركز الاول في دائرته ، ونال رشدي الشوا المركز الاول في دائرته ايضا ، فولى المندوب السامي رشدي الشوا رئيسا للبلدية وولى حمدي نائبا للرئيس ، بالرغم من ان حمدي نال نسبة اعلى في الاصوات من تلك التي نالها رشدي الشوا .

٤ — يذكر تقرير الزميل حسين ان الشوا أقيل اثر ثورة ١٩٥٢ المصرية ، وسلمت البلدية للشيخ عمر صوان ، وكان منير الريس عضوا في البلدية. والحقيقة أن رشدي لم تتم اقالته من البلدية ، بل اوعزت الادارة المصرية الى المجلس البلدي بتقديم استقالته ، بحيث يصبح معها رئيس البلدية مستقيلا بالتبعية . وتعهد احد وجهاء غزة لاعضاء المجلس البلدي ، نيابة عن الادارة المصرية ، باعادة تعيينهم جميعا ان هم استقالوا ، لان المقصود هو ضرب رشدي الشوا فحسب . ولم تكن رغبة الادارة المصرية في ضرب رشدي ، آنذاك ، صادرة عن موقف تقدمي البتة ، بل انها ارادت كسر شوكة رشاد الشوا ، الذي توسع في كشف اخطاء الادارة المصرية وسلبياتها ، وهي اخطاء وسلبيات حقيقية في معظمها ، وبغض النظر عن شخصية قائلها . وكان الشيخ صوان هو رأس جماعة الاخوان المسلمين في القطاع ! اما المرحوم منير الريس فقد عينته الادارة المصرية نائبا لرئيس البلدية . ولم يلتف التيار الوطني حول ثورة يوليو الا بعد تأميم قناة السويس في تموز ١٩٥٦ ، اذ كانت الثورة المصرية تضغط ، وحتى اذار ١٩٥٥ ، لاجبار اللاجئين على القبول بمشروع سيناء لتوطين اللاجئين ، وهو المشروع الذي تم الاتفاق عليه بين مصر والولايات المتحدة عام ١٩٥٣. فاي تيار وطني ذلك الذي يقصده الزميل حسين ؟ علما باننا لم نسمع ان المرحوم منير الريس وقف ضد مؤامرات التوطين هذه . وبعد وفاة الشيخ صوان احلت الادارة المصرية المرحوم منير الريس محله . وان كان لم يقم بتطهير البلدية بعد توليه رئاستها ، ربما بسبب الحساسيات العائلية .

٥ — يذكر الزميل حسين في تقريره ان علاقة منير الريس « مع الناس لم تكن تخضع للمقاييس التي تحكم علاقة الزعامة التقليدية بجماهير غزة ، اي العلاقات الاقطاعية ، ذلك ان منير الريس لا يعتبر من العائلات (المالكة) في القطاع » . وهذا مغاير للحقيقة ، فالمرحوم منير كان يعطي الاولوية للولاء للادارة المصرية صاحبة الفضل في وصوله الى رئاسة البلدية ورئاسة الاتحاد القومي في وقت لاحق . ثم هو مالك زراعي كبير ، وان فقد بعض املاكه في سبيل سد التزامات « القيادة » . على انه يختلف عن المرحوم رشدي ، في مجال العلاقات مع الناس ، فالريس سلك محورين لعلاقاته بالناس ، الاول عشائري ، والثاني في اتجاه القوى السياسية الجديدة في القطاع من شيوعيين ، قبعثيين ، واخيرا القوميين العرب ، حسب ظهورهم

في القطاع ، وبترتيب تحالف الريس مع كل منهم .

٦ — اثناء رئاسته للبلدية ، أبان الاحتلال الاسرائيلي لغزة (١٩٥٦ — ١٩٥٧) ، عجز منير الريس عن التصدي لاعتداءات الجنود الاسرائيليين على بيوت واعراض الاهالي . وهنا قاد الوسيط نفسه ، الذي سبق وأقنع اعضاء المجلس البلدي بالاستقالة ، قاد حشدا من وجهاء غزة الى منزل المرحوم رشدي الشوا ، حيث طالبوه بضرورة توليه رئاسة البلدية انقاذا للبلد ، وقد كان . ولعب الشوا دورا لا يمكن انكاره في وقف هذه الاعتداءات ، واصبح المرحوم الريس نائبا له .

٧ — اما ان منير الريس قام « بتشكيل جبهة وطنية بالتعاون مع الاحزاب الموجودة حينذاك في القطاع » ، فهو مجاف للصحة ، اذ شهد القطاع ابان الاحتلال الاسرائيلي الاول للقطاع جبهتين هما: « الجبهة الوطنية » و « جبهة المقاومة الشعبية »، ضمت الاولى الشيوعيين وبعض المستقلين ، في حين جمعت الجبهة الثانية بين البعث والاخوان المسلمين ، ولم يكن المرحوم الريس عضوا في اي منهما .

٨ — اما المرحوم محمد علي المشرف (وليس شرف) فلم يصعد لرفع العلم ، بل كان يسير ضمن المظاهرة المطالبة بعودة الادارة المصرية وسقوط مؤامرة التدويل ، وقد سحب بجانبه دراجته ، حينما اصابته رصاصة من القوات الدولية التي فاجأت المظاهرة بوابل من الرصاص .

٩ — ولم تكسر الجماهير باب السجن لتخرج منير الريس « الذي قام بعدها بفتح بقية الزنازين وافرج عن المعتقلين الموجودين فيها » . بل ان القوات الدولية هي التي افرجت عن جميع المعتقلين السياسيين الموجودين في قطاع غزة .

١٠ — وللمؤامرة التي قادها سعدي الشوا لفصل قطاع غزة عن مصر قصة اخرى . وسعدي هذا أخ غير شقيق لرشدي ، ساءه ما أصاب أخاه في « السجن الحربي » من اهانات . وبسبب تفكيره اليميني وولائه السابق للاسرة الهاشمية ، أجرى سعدي اتصالا بالنظام الهاشمي لتدبير انقلاب في القطاع . وتحالف لتحقيق هذا الهدف مع مصطفى ابو مدين ، الذي لم يكن سوى مندوب لدى المخابرات المصرية ، فوشى به . وانتظرت المخابرات الفرصة للقبض على سعدي متلبسا . وجاءت الفرصة حين وصل بعض الفدائيين الحناجرة (قبيلة ابو مدين) بمنشورات من الاردن للتمهيد للانقلاب . وكانت المنشورات من نمطين : الاول كتب باسلوب الشيوعيين والثاني في صياغة « وطنية » ، حسب تعبير المخططين الاردنيين ! ونصت الخطة على توزيع المجموعة الاولى من المنشورات التي تهاجم الادارة المصرية ، بما يدفع الادارة الى اعتقال الشيوعيين ، فتفقد بذلك سندها الشعبي الرئيس آنذاك . وعندها تقوم مجموعة الانقلاب المنتظر بتوزيع المجموعة الثانية من المنشورات . وتنفذ انقلابها دون ما مقاومة تذكر ، بعد ان تكون الادارة المصرية قد ضربت اصدقائها الشيوعيين بنفسها .

وعند القبض على سعدي وجد لديه بندقية ومسدس غير مرخصين ، ومنشور كانت السلطات الاسرائيلية قد وزعته في القطاع عند احتلالها له . وطبعا ، اتهم سعدي بحيازة اسلحة بدون ترخيص ، بهدف استخدامها في قلب نظام الحكم بالقوة بالاضافة الى حيازة منشورات اسرائيلية وتعامل مع العدو !

ويقتضي الامر الاشارة الى ان مصطفى أبو مدين غرر بسعدي وشجعه ، بعد ان كان الاخير غض النظر عن الانقلاب بعد افراج السلطات المصرية عن أخيه رشدي . ويتأكد ذلك عندما قرر المتهم سعدي الشوا امام المحكمة انه سلم قياده لمصطفى ، وعندما قرر مدير المخابرات المصرية في قطاع غزة ، في شهاداته امام المحكمة ، ان المخابرات المصرية علمت بأمر الانقلاب قبل وقت من اعلام مصطفى ابو مدين لها !

١١ — الاخ ناهض منير الريس لم يكن في يوم من الايام « عضوا قياديا في حزب البعث في قطاع غزة » ، تماما كما لم يكن زهير الريس (الذي يقصده الاخ حسين ، أغلب الظن ، بنسبه منير الريس) عضوا قياديا في الحزب الشيوعي . اما منير الريس فلم يوثق صلاته بحركة القوميين العرب الا بعد خلاف عبد الناصر مع البعثيين في اواخر العام ١٩٥٩ ، واحتضان الادارة المصرية لحركة القوميين العرب الكامل في القطاع ، مما دفع منير الريس من نقل صداقته من البعثيين الى القوميين .

١٢ — تم تعيين حيدر عبد الشافي وفاروق

الحسيني في اللجنة التنفيذية الاولى لمنظمة التحرير ، في أعقاب المجلس الوطني الاول عام ١٩٦٤ ، المنعقد في القدس ، وليس في المؤتمر المنعقد في غزة في العام ١٩٦٥ .

١٣ — يزعم التقرير ان منير الريس تحالف مع القوميين العرب في العام ١٩٦٦ ، اثناء انتخابات التنظيم الشعبي ، مقابل تحالف « جميع القوى والشخصيات الاخرى التي دعمتها الاجهزة الرسمية المصرية » . وهذا قلب للحقائق المعروفة للقاصي والداني من ابناء القطاع . فالاجهزة الرسمية ، وبخاصة اجهزة الامن المصرية ، ظلت تحتضن حركة القوميين العرب منذ وفدت الى القطاع ، اواخر العام ١٩٥٧ ، وحتى وقوع نكسة ١٩٦٧ .

١٤ — يقول الزميل حسين ان احد اعضاء اللجنة التنفيذية سقط في انتخابات التنظيم الشعبي حين رشح نفسه عن احدى دوائر مدينة غزة . وفي حدود علمي ، لم يقم اي من اعضاء اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير بترشيح نفسه في تلك الانتخابات كما لم يعين مدير جديد لمكتب منظمة التحرير في القطاع بعد تلك الانتخابات ، اذ ظل الاخ مجدي ابو رمضان مديرا للمكتب المذكور منذ انشائه ، في العام ١٩٦٤ ، وحتى نكسة ١٩٦٧ .

١٥ — « اثر احتلال اسرائيل لقطاع غزة عام ١٩٦٧ شكلت في القطاع جبهة وطنية من كافة القوى الموجودة في القطاع ، باسم (طلائع المقاومة الشعبية) . وقد لعبت الجبهة الدور الاساسي في نضال قطاع غزة من شهر تموز ١٩٦٧ وحتى شهر شباط ١٩٦٨ » . هذا ما يقرره ، بيقين يحسد عليه ، الزميل حسين . علما بأن « طلائع المقاومة الشعبية» لم تضم كافة القوى الموجودة في القطاع، بل اقتصرت على القوميين العرب واثنين من اصدقائهم هما : فاروق الحسيني وابن عمته منير الريس . كما لم تتشكل الطلائع الا في تشرين الثاني وليس تموز ١٩٦٧ . وثمة جبهة غيرها لعبت الدور الاساسي في نضال القطاع في المدة المشار اليها ، هي « الجبهة الوطنية المتحدة » .

ومهما يكن من أمر هذه التحفظات ، فهي لا تسلب المرحوم منير الريس وطنيته ، التي مارسها بطريقته الخاصة .

عبد القادر ياسين

صدر عن مركز الابحاث كتاب

كفاح الشعب الفلسطيني

قبل العام ١٩٤٨

بقلم

عبد القادر ياسين

٢١٤ صفحة بثلاث ليرات لبنانية . تضاف اليها اجور البريد الجوي

اطلب نسخك من المكتبات او مباشرة من مركز الابحاث ، قسم التوزيع

ص.ب ١٦٩١ — بيروت

تقارير

[١]

تحليل لاتجاهات الدعاوة الصهيونية في شهر ابريل (نيسان) ١٩٧٥

سنعالج في تقرير هذا الشهر موضوعين : في القسم الاول سنعرض للخط الصهيوني بشأن أحداث ابريل ــ نيسان ــ في لبنان، التي تصدت فيها ميليشيا الثورة الفلسطينية والقوى الوطنية والتقدمية الحليفة لاعتداءات ومؤامرات الكتائب. وسنفرد في هذا القسم مساحة لتقارير الصحف الغربية الموالية للصهيونية،من بيروت،حول أحداث لبنان، وكذلك حول مشكلة كيفية نشر المعلومات الدقيقة والصورة الصحيحة عنمجريات الامور خلال أزمات مماثلة. واما القسم الثاني والاخيرفسنخصصه للحملة الصهيونية الدعاوية الكثيفة المرتبطة بما يسمى اعادة تقييم السياسة الامريكية في منطقة « الشرق الاوسط » بعد انهيار جهود ومهمة كيسينجر . وبالاضافة الى التعرف على الموضوعات والاساليب الصهيونية المستخدمة في هذه الحملة التي لم تعرف بضخامتها مثيلا من قبل تقريبا ، فاننا سوف نبين كيف ان المنطق الاساسي في هذه الحملة الصهيونية صحيح ، ولا يستدعي رد فعل خاص .

احداث ابريل ــ نيسان في لبنان : في الواقع ان أية احداث بارزة وخطيرة يشهدها العالم العربي ، تكون مناسبة لنشر الدعاوة الصهيونية. هذه هي الحالة في كل ما تتعلق بالنزاعات العربية الداخلية ، لكن الاهتمام الصهيوني يكون أكبر بكثير حين تكون المسألة مجابهة بين حركة المقاومة الفلسطينية وبين قوات الرجعية العربية . فان أحداثا مثل وقائع ايلول الاسود في الاردن ، أبهجت الدوائر الصهيونية بصورة قوية ظاهرة . لكن الذي كان اكثر أهمية هو الاستفادة منها من زاوية المفاهيم الدعاوية الصهيونية على ضوء ما تقدمه الدوائر الصهيونية والناطقون والمعلقون الصهيونيون لها من تفسيرات وتحليلات وتأويلات تفيدهم فيما يشحنون به الرأي العام العالمي .

ان الصورة المألوفة التي يرسمها الصهيونيون لعلاقات المقاومة الفلسطينية بأية حكومة عربية معنية تقوم على الخطوط التالية : تتألف حركة المقاومة من مجموعة من « المخربين » والعناصر الاجرامية ، وهي تسعى للاطاحة بالنظام القائم تنفيذا لاغراضها الخاصة ومصالحها غير المشروعة، وان الحكومة العربية المعنية تتسامح معها وتسكت عليها (اذا كان هناك اي تسامح او سكوت على الاطلاق) بسبب قوة المقاومة عسكريا ، او لان هذه الحكومة رهينة خطها الايديولوجي المتطرف الذي يفرض عليها دعم المقاومة الفلسطينية .

والواقع ان الدعاوة الصهيونية استخدمت هذا الخط ــ كليا او جزئيا ــ في كل حالة من الحالات المتعددة مع الاردن او مصر او لبنان ، او سوريا، أي في بلد توافر فيه أي شكل من التواجد لحركة المقاومة الفلسطينية . (ونشير هنا عرضا الى التناقض الفاضح بين هذا التصوير للامور وبين اطروحات الدعاوة الصهيونية الاخرى المعروفة : مثل اطروحة التزام جميع الدول العربية بابادة اليهود . على أن هذا التناقض الجلي يجب الا يعطى وزنا كبيرا حيث ان من المألوف في الاغراض الدعاوية استخدام موضوعات وخطوط متناقضة طالما لا تطرح في سوق الاعلام في الوقت نفسه وفي المجال نفسه) .

وينبغي ان نسجل قبل كل شيء انه لم يكن لدى الناطقين الصهيونيين **الرسميين** ما يقولونه علنا تعليقا على احداث لبنان . وكان السبب واضحا: وهو عدم اتاحة الفرصة للرأي العام العالمي ليقترب من الربط الصحيح بين المخططات الصهيونية وبين هذه الاحداث نفسها. واذا كان هذا الصمت المطبق للناطقين الصهيونيين الرسميين حيال احداث لبنان، يساعد في عدم ربط السلطات الاسرائيلية بالاحداث، الا انه لا يستطيع تغطية مصلحتها الحقيقية في نشوء اي وضع في أي مكان يحمل في طياته تهديدا محتملا للمقاومة .

لقد زودت أحداث لبنان في ابريل الماضي المدفعية الاعلامية الصهيونية بفرصة ذهبية لاطلاق اكاذيبها. ان جهل الرأي العام العالمي بحقيقة الوضع السياسي في لبنان ، أتاح للمغلقين الصهيونيين الاستفادة من ميزة كبيرة ، ذلك انهم تمتعوا تماما بحرية التشويه وقلب الامور وتحريف الحقائق اكثر من المعتاد ، وقاموا باعادة « تأكيد » كل ما في الترسانة الصهيونية من خرافات واساطير خبيثة كانوا قد نشروها ضد المقاومة الفلسطينية « الشريرة ذات الطبيعة التخريبية » .

وسنعرض فيما يلي كيفية معالجة الخط الصهيوني لاحداث لبنان في الصحافة الصهيونية نفسها ، ثم في الصحافة الغربية عموما ، سواء تلك الصحف الصريحة في ولائها للصهيونية ، او الاخرى « الموضوعية » .

ومع ان التعليقات الصهيونية محدودة كما، وهذا يعود جزئيا الى الاسباب التي أوضحناها منذ قليل ، الا ان التعليقات الصهيونية التي اتيح لها النشر فعلا ، كانت في الحقيقة ذات نغمة مثيرة ! تقوم الخلفية الاساسية لتلك التعليقات ، على الخطوط العامة نفسها التي أشرنا اليها بين التوسين آنفا ، انما كانت هناك تنويعات في الخطة والتنفيذ . فهذه **الجيروزاليم بوست** مثلا، في افتتاحيتها المنشورة يوم الثامن عشر من ابريل تذكر ان الاقتتال في لبنان كان نتيجة مباشرة « لنشاطات الارهابيين في لبنان » الذين « لم يتقيدوا بالاتفاقية التي عقدوها مع الحكومة اللبنانية لتنظيم وجودهم في الدولة » . وان بيار الجميل قرر لهذا السبب « انه اذا كانت حكومته لا تهب للدفاع عن السيادة اللبنانية ، فانه وكتائبه سوف يقومون بالعمل » . وتغفل الافتتاحية أي ذكر لمجزرة عين الرمانة المتعمدة، الا ان السطور التي اقتبسناها تكشف بعد ذاتها عن تسليم اسرائيلي ضمني بأن الكتائبيين هم الذين بادروا الى الاقتتال .

واذا كانت افتتاحية **الجيروزاليم بوست** تشيد ضمنا بدفاع الكتائبيين عن « سيادة لبنان » ، الا انها تتجاهل كليا بالطبع ما تقوم به اسرائيل من اعتداءات مدبرة ومتواصلة على سيادة لبنان . والاكثر اهمية ان التعليق يظهر الكتائبيين باعتبارهم الطليعة المسلحة لكل شعب لبنان الذي بدونهم كان سيصبح أعزل وبلا قوة دفاعية أمام « الارهابيين المسلحين » . ثم أن المقاومة الفلسطينية كانت عازمة على خلق « مجابهة اسلامية ـ مسيحية » : « لقد سعى الارهابيون في قمرة الصدام الى اثارة الشعور الاسلامي ، وتصعيد الحادثة لتتحول الى مجابهة اسلامية ـ مسيحية ، تماما كما كانوا قد فعلوا في عام ١٩٧١ عندما حاولوا تحريض الفلسطينيين في الاردن وخلق مجابهة بين الجنسين والفلسطينيين . ومثلما رفض الفلسطينيون في الاردن من قبل جرهم الى صدام لم يكونوا مهيأين له في عام ١٩٧١ ، فان مسلمي لبنان لم يتقبلوا هذا الاسبوع المساهمة في حملة الارهابيين التصعيدية مع الكتائبيين بحيث تتحول الحادثة الى قضية اسلامية ـ مسيحية . فلقد آثر المسلمون ان يكونوا لبنانيين اولا » .

ان هذه « القبركة » الخيالية المتقنة ، والتي تتسلح بالاستناد الى مقارنات تاريخية كاذبة وزائفة ، وهذا القلب الكلي لحقائق الواقع ، كل هذا يبدو حكاية مقبولة ومعقولة ظاهريا بالنسبة للقارىء المحدود الاطلاع والذي يفتقر الى الالمام جيد بمعطيات التوازن الطائفي القائم في لبنان .

وهناك مقالات اخرى تعكس هذه المقولة نفسها، مقولة لبنان الموحد الذي يحاول انقاء التهديد الفلسطيني لسيادته . ومن هذا القبيل التحليل الاخباري الذي كتبه « مراسل الشؤون العربية » عنان صفدي في « **الجيروزاليم بوست** » في عددها الصادر يوم الثامن عشر من ابريل . فلقد ذكر صفدي « ان بيروت بدأت باتخاذ موقف متصلب ازاء النفوذ المتزايد لمنظمة التحرير الفلسطينية »

وفي المقالة نفسها التي تدور حول فكرة الانهيار المزعوم للوحدة العربية ، شخص صفدي الصراع على انه « بين اللبنانيين والفلسطينيين » . ومرة اخرى يؤكد صفدي الفكرة عينها الواردة في الافتتاحية السابقة ، ان الكتائبيين هم طليعة وطنية مسلحة للشعب اللبناني : « امام العجز الرسمي اللبناني عن كبح النشاط الارهابي المستقل ، انشأ حزب الكتائب — وهو تجمع مسيحي رئيسي يضم حوالي خمسة عشر الفا من الوطنيين اليمينيين — ميليشيا خاصة أصبحت من القوة بحيث سعت الى معركة مسلحة مع الفلسطينيين » . (خط التشديد من عندنا) .

مرة اخرى هناك اغفال كامل لمجزرة عين الرمانة ، ومرة اخرى هناك التسليم الضمني بمبادرة الكتائب الى افتعال المعركة ، وان كان ذلك « دفاعا » عن السيادة اللبنانية . بل أن صفدي كان اكثر جرأة من افتتاحية الصحيفة ، في الكشف عن المرامي النهائية للقيادة الكتائبية : « ان الموقف شبيه بالوضع الذي كان عليه الاردن في سبتمبر — ايلول ١٩٧٠ حين توجه حسين لسحق الدولة ضمن الدولة التي كان الفلسطينيون قد أنشأوها على التراب الاردني » .

تدور الموضوعة الرئيسية في المقال بعدئذ حول الكتائبيين باعتبارهم حماة السيادة اللبنانية حيال حكومة ضعيفة عاجزة وحركة ارهابية عدوانية قوية ، تقوم — هذه الحركة اي المقاومة الفلسطينية — ولاسباب غير موضحة ، بجهود تستهدف اثارة صراع طائفي في البلد . ومن المؤكد انه اذا قيض للكتائبيين وحلفائهم الرجعيين ان يحاولوا من جديد تنفيذ مخططاتهم ذات الوحي الصهيوني ، ونشأت مجابهة عريضة ، فان هذا سيكون الخط الذي سيركز عليه الصهيونيون رسميا هذه المرة ، وعلى الاخص اذا اقتضى الامر قيامهم بتدخل فعال . ذلك أنهم في الوقت الراهن يرسون الاساس الاعلامي التمهيدي لتدخل اسرائيلي عسكري محتمل في الشؤون اللبنانية مستقبلا . واذا ما حدث هذا فعلا في أي يوم من الايام ، فنحن على يقين من أن الاسرائيليين سيقومون بتدخلهم تحت شعار «الدفاع عن السيادة اللبنانية» .

كان ذلك عن الاعلام الصهيوني بشأن احداث لبنان . أما وسائط الاعلام الغربية التي تبنت عموما خطا مواليا للصهيونية ، فانها لم تلتزم بصورة دقيقة بالخط الاعلامي الصهيوني الموضح آنفا . وبدلا من ذلك ، فانها في تقاريرها المتحيزة عن الاحداث اللبنانية ، كانت « تعزف » على مقولة ان المقاومة الفلسطينية التي هي قوة « فلتانة » جامحة استفزازية وفوضوية ، تسببت باشعال أحداث ابريل لاسباب غير واضحة او موضحة . وان هذه هي تقريبا وجهة نظر الكتائب نفسها ، وهي وجهة نظر ربما كانت الى حد ما ، انعكاسا لما تقوله المصادر الاخبارية للمراسلين المعينين في لبنان .

أمامنا مجلة **نيوزويك** في موضوعها الذي نشرته في عدد الثامن والعشرين من ابريل ، التي لا تترك مجالا للشك في نفس قارئها في أن الفلسطينيين **كانوا ينشدون القتال** . لقد استهلت المجلة مقالها بالفقرة التالية : « بين مزدحم بركابه الفلسطينيين ، كان يشق طريقه في شوارع عين الرمانة الضيقة ، وهي الضاحية البيروتية التي يغلب فيها المسيحيون . وكان الركاب في حالة من الهياج والصخب العاصف ، وينشدون أهازيج وشعارات منظمة التحرير الفلسطينية . لقد كان الامر تحديا مكشوفا . وسرعان ما قبل الطرف الاخر التحدي ، وقامت ميليشيا حزب الكتائب ذي الاغلبية المسيحية ، بفتح النار على الباص » .

ومرة اخرى حين تعود **نيوزويك** في المقالة نفسها الى مجزرة عين الرمانة ، تظهر الفلسطينيين على أنهم الطرف المعتدي بلا ريب . فلقد نشب النزاع الاصلي عندما « أوقفت ميليشيا الكتائب فدائيا فلسطينيا عند حاجز على الطريق . ونشأ عن ذلك نشوب نزاع انتهى بنقل الشخص الفلسطيني الى المستشفى بعد ان اصيب بطلقة . وبعد فترة وجيزة ، جاءت الى المنطقة نفسها سيارة بيجو كانت تغطي لوحة رقمها بشعار منظمة التحرير الفلسطينية ، وكانت تطلق النار بغزارة » .

ومثالا على الصورة الايجابية التي يرسمها المقال للكتائبيين ، الوصف الذي يقدمه لبيار الجميل بنفسه ، انه « رجل نحيل وزاهد متقشف ، كان بطلا للكفاح من اجل الاستقلال في الثلاثينات والاربعينات ... » اما صورة الفلسطينيين في المقابل ، وبالذات منظمة التحرير الفلسطينية ، فهي : « تبقى مصدر القلاقل الرئيسي في العالم العربي » .

على ان امثال هذه الكتابات المتحيزة ، لم تكن وقفا على صحف معروفة بتبنيها للخط الصهيوني بوجه عام ، كمجلة « **نيوزويك** » . ذلك أن « **التايمز** » اللندنية ذات النهج الموضوعي نسبيا ، نشرت سلسلة من الرسائل من مراسلها في بيروت ، روت حكاية مجزرة عين الرمانة بطريقة ما كان يمكن أن يرويها غير الكتائبيين أنفسهم . ولقد اشتمل التقرير الذي كتبه مراسل الصحيفة في بيروت بول مارتن ، والذي نشر يوم الرابع عشر من ابريل ، على الاتهامات الاستفزازية وغير المسنودة التي يطلقها بيار الجميل بشأن محاولة فاشلة جرت لاختطاف ابنه امين . فالصحيفة تورد هذا الاتهام باعتباره يقينا ثابتا وحقيقة ساطعة . وعلى هذا الشكل كانت رواية بول مارتن لمجزرة عين الرمانة ، مطابقة تقريبا لرواية الكتائبيين : « وفقا لافادات شهود عيان ، حاول الفدائيون المرور من جانب الكنيسة في قافلة من سيارات الجيب . وكان الكتائبيون قد حولوا المرور عن ذلك الشارع ، فاحتجزوا سيارة جيب فدائية ونشب عراك . وبعد حوالي ساعة وصلت الى المكان تعزيزات من الفدائيين ، فيما كانت ميليشيا الكتائب قد استغلت الوقت باتخاذ مواقع مسيطرة في البنايات المحيطة وعلى أسطح العمارات ، ولقد مات معظم الفدائيين في النيران الغزيرة التي أمطر بها الكتائبيون الباص » .

وفي وسعنا ان نقدم نماذج مماثلة من التقارير التي نشرتها **الديلي تلجراف** يوم ٤/١٧ وغيرها من الصحف الغربية الموالية للصهيونية و«الموضوعية»، (مع ان هناك استثناءات لافتة للنظر **كالواشنطن بوست** في عددها يوم ٤/١٩) .

ويصعب على المراقب في بعض الحالات التأكد مما اذا كان هذا التحريف والقلب للحقائق ، ناتجا عن سياسة متعمدة من جانب الصحف ومراسليها بقصد التشويه المقصود ، أم أن الامر نتيجة للجهل والاكتفاء بتقديم وجهة نظر واحدة عن الاحداث ، هي وجهة النظر الكتائبية ، اننا على يقين من أن التشويه في حالة **نيوزويك** متعمد ووليد الخط الثابت الموالي للصهيونية الذي تنتهجه المجلة ، لكن من العسير علينا قول الشيء ذاته بخصوص « **التايمز** » اللندنية مثلا .

وسواء كان هذا التشويه نتيجة للتعمد المرسوم ، ام الجهل ووحدانية الرأي ، فانه في الحالتين يرسم صورة للفلسطينيين باعتبارهم ضد اللبنانيين ، ومثيري مشاكل ، وحشدا منفلتا من الرجال المسلحين الذين يعجز قادتهم عن ، اولا يريدون ، ضبط « المتطرفين » منهم . والواقع ان هذا التقرير للفلسطينيين نفسه ، هو الذي قدمته من قبل تبريرا لاحداث سبتمبر الاسود في الاردن .

من المسلم به ان ما تقوله هذه الصحف عن الفلسطينيين لا يمت الى الواقع بصلة ، لكن هذا ليس موضوعنا ، والمهم ان تتخذ خطوات لكبح انتشار هذه الاضاليل مستقبلا . انه لا يمكن فعل الكثير في حالة مجلة **كالنيوزويك** الحاسمة في ولائها الصهيوني ، انما هناك كلام كثير يقال حول ضرورة تقوية العلاقة مع معظم الصحف الاجنبية في بيروت ، بحيث يتاح لمراسليها الاطلاع على الاوضاع والاحداث بصورة مباشرة بما يمكنهم من تقديم تفسيرات اكثر دقة لاحداث كالتي عصفت بلبنان في ابريل الماضي ، كي لا يبقى الميدان حكرا للدوائر الرجعية توزع فيه ما تشاء من قصص واضاليل وتفسيرات زائفة .

« اعادة التقييم » الامريكية والضغط الصهيوني:

هناك سبب مهم للمساحة الضئيلة نسبيا التي افردتها الصحافة الصهيونية باللغات الاجنبية لاحداث لبنان ، ذلك هو انهماكها شبه الكامل بانهيار محادثات كيسينجر بين اسرائيل ومصر ، وما أعقب ذلك من أحاديث عن اعادة الولايات المتحدة تقييم سياستها في منطقة «الشرق الاوسط»، بدءا من مارس — اذار المنصرم ، وخلال ابريل — نيسان ، ثم عبورا في مايو — أيار ، ومع أن اي تحليل سليم للعلائق بين اسرائيل والولايات المتحدة لا بد وان يقطع بأنه ليس من المحتمل احداث أي تغير أساسي في السياسة الامريكية ازاء المنطقة في المستقبل القريب ، الا ان الدوائر الصهيونية تتناول موضوعة « اعادة التقييم » بجدية كبيرة عموما ، ولو من باب الحرص الفائق على المصالح الصهيونية والمخططات الاسرائيلية على المدى القصير .

والواقع ان اعادة الولايات المتحدة تقييم سياستها في منطقة الشرق الاوسط — الناشئة عن « زعل » ادارة فورد من «عدم المرونة» الاسرائيلية

خلال محادثات كيسينجر ـ غدت موضوعا رئيسيا لوسائط الاعلام الصهيوني .

ان التساؤل المعلن عن علاقات الولايات المتحدة باسرائيل ، قد ألهب حملة دعاوية صهيونية من عيار ثقيل وذات ابعاد غير اعتيادية ، في الولايات المتحدة بوجه خاص ، وفي انحاء العالم الاخرى بدرجة أقل بكثير . والواقع ان ما أعطى هذه الحملة زخما دافعا قويا للغاية هو ما تمكن الدهاء الدبلوماسي المصري من تحقيقه بصورة ظاهرة ، وذلك باقناع قطاعات واسعة من الرأي العام الغربي بعناد وتصلب اسرائيل ، وبرغبة مصر الحثيثة في تحقيق السلام . ولقد تحقق هذا الى حد كبير بسبب اعلان السادات من جانب واحد عزمه على تمديد انتداب قوة الطوارىء التابعة للامم المتحدة لثلاثة أشهر اخرى ، وعلى فتح قناة السويس للملاحة الدولية في اوائل يونيو ـ حزيران .

لكن الصهيونيين كانوا قد بدأوا يستشعرون ـ حتى قبل اعلان الولايات المتحدة عزمها على اعادة النظر بسياستها في المنطقة ـ أنهم في موقف دفاعي . يتبدى هذا في المقال الافتتاحي لصحيفة **الجيروزاليم بوست** صبيحة الرابع والعشرين من مارس ، تحت عنوان « هكذا كسب فهمي » ، اذ اشتكت الصحيفة من أن مصر قد أمسكت بالمبادرة الدبلوماسية ، وذلك لانها نشرت روايتها عن انهيار مهمة كيسينجر قبل اسرائيل بعدة ساعات ، وانها تمكنت بذلك من استرعاء انتباه الصحافة العالمية . وتخلص **الجيروزاليم بوست** الى القول : « لقد أصبح من الظواهر الدارجة في الاونة الاخيرة ، توجيه النقد الى نقص الجهد الاعلامي الاسرائيلي . أما اليوم ، وبعد انهيار المحادثات ، فهناك اقرار عام بأن قدرة اسرائيل على اقناع الرأي العام العالمي ، وبالذات اعضاء الكونجرس الامريكي على وجه الخصوص ، بعدالة قضيتها ، قد أصبحت ذات اهمية من الدرجة الاولى » .

ولم تكد تنقضي سوى أربعة أيام على هذا الكلام ، حتى كانت **الواشنطن بوست** تنشر تقريرا من واشنطن في الثامن والعشرين من مارس ، تورد فيه « ان الرسميين الاسرائيليين في الولايات المتحدة شرعوا بتنظيم حملة لمكافحة ما يقال في الولايات المتحدة ومصر ، عن تسبب عدم المرونة الاسرائيلية بانهيار جهود كيسينجر للتفاوض من اجل اتفاقية اخرى في سيناء » . وطبقا لما ورد في هذا التقرير ، فان الاسرائيليين قدموا في غضون محادثات السلام سلسلة من التنازلات البارزة ، بينما « بقيت مصر ترفع بعناد مطالبها الاصلية » . ويشير التقرير الى ان بعض الرسميين الاسرائيليين كان يقول للاميركيين ان مصر لم تقبل الدخول في هذه المحادثات الا لتحقيق غرض وحيد ، وهو اساءة العلاقات الامريكية ـ الاسرائيلية .

واتخذت حملة اسرائيل لتبرير موقفها اثناء المباحثات مع كيسينجر ، ولالقاء اللوم على مصر بالتسبب بفشل المباحثات ، وفي وقت لاحق لمجابهة اعادة النظر بالسياسة الامريكية في المنطقة ، اتخذت هذه الحملة أشكالا متعددة ومتنوعة ، بما في ذلك النشر الكثيف لموقف اسرائيل في الصحف اليومية والمجلات الاسبوعية ، وكذلك في أجهزة الاذاعة والتليفزيون ، وفي الاجتماعات العامة ، وفي التقارير الموجزة التي ترسل الى الصحف بصورة خاصة . ولقد نقلت « **نيوزويك** » في الرابع عشر من ابريل عن الجنرال الاسرائيلي حاييم هرتسوج قوله : « ان ميدان المعركة الرئيسي الان هو مسرح الرأي في الولايات المتحدة » . ولقد سجلت **نيوزويك** المكاسب الاعلامية السابقة التي حققتها مصر ، ثم وصفت « الحملة الاسرائيلية المضادة » بما يلي : « ... اجتمع في نيويورك اكثر من سبعمائة من قادة يهود الولايات المتحدة في الاسبوع الماضي ، لتنظيم حملة واسعة على نطاق الامة بأسرها ، بهدف تعبئة الدعم لاسرائيل . وفي غضون ساعات قلائل كانت النوادي اليهودية في الكليات الجامعية على امتداد الولايات المتحدة من ادناها الى اقصاها تعقد اجتماعات مع الجماعات الطلابية البروتستانتية والكاثوليكية ، وكانت اللجنة العمالية اليهودية تجري اتصالات بالاتحادات النقابية ... بل وفي بعض المدن قامت الجماعات اليهودية بتهيئة حملة اعلانية في الاذاعة والتليفزيون ... وفيما كانت هذه الحرب الشريعة قيد التنفيذ ، كان القادة اليهود يسعون الى ان يستردوا لاسرائيل صورتها كضحية مضطهدة مطوقة ومحاصرة تخوض معركة شاقة أمام اعداء اقوياء . ولقد قيل لمراسلي **نيوزويك** في مختلف انحاء الولايات المتحدة عدة مرات في الاسبوع

المنصرم ان العرب ينفقون ٥٠ مليونا من الدولارات على حملة تستهدف التأثير في الرأي الاميركي ، وان اسرائيل غير قادرة على مجاراة العرب في هذه الحملة في العلاقات العامة » .

ان القراء المواظبين على قراءة تقريرنا التحليلي الاعلامي هذا ، يلاحظون في الفقرة التي اقتبسناها من مقال **نيوزويك** ، بعض الخطوط الاعلامية الصهيونية المألوفة ، مثل مقولة « اسرائيل المسكينة » ومقولة « قوة عرب دولارات النفط » . لكن جوهر الهجمة الدعاوية الصهيونية كان مختلفا . لقد كان التركيز هذه المرة ينصب على فكرة انه **ليس من صالح الولايات المتحدة** تقليل الدعم الاميركي لاسرائيل ، لان هذا لن ينتج عنه سوى تصليب الموقف المصري ، وتلاشي احتمال التوفيق الناجح بين اسرائيل ومصر ، وبالتالي تشجيع المصريين والسوفيات على شن حرب جديدة .

وكما كان الوضع في حملة اسرائيل على اليونيسكو (التي عالجناها في تقرير سابق) ، كانت هناك في هذه المرة ايضا درجة ملحوظة من الالتزام بالخط من جانب جميع الصحف اليومية والمجلات الاسبوعية المستقلة والمتنوعة ظاهريا ، المساعدة للموقف الصهيوني . ومرد هذا ان الخط الاعلامي الصهيوني للحملة ، كان قد رسم بعناية في اسرائيل ، وما كان على جميع الصحف الصهيونية والموالية للصهيونية غير تطبيقه بحذافيره .

وهناك معلقون في محاولتهم التنكر لاعادة النظر بالسياسة الاميركية وتشويهها ، سعوا الى اظهار ان كيسينجر وحده هو المسئول عن توتر العلاقات بين اسرائيل والولايات المتحدة ، لما لحق بمكانته وسمعته من اذى بعد انهيار « مهمته السلمية » . وفي هذا الاطار كتب مراسل « **الجويش ابزرفر** » من واشنطن في الرابع من ابريل ، يتحدث عن « المعركة بين كيسينجر وبين مساندي اسرائيل » . ولقد قصر بعض الجماعات اليهودية الاميركية هجومه **على وجه الحصر** ، على كيسينجر فقط ، فيما اتخذ اخرون خطة الهجوم على كيسينجر وعلى الرئيس فورد معا مع السعي لتقوية الموقف المساند لاسرائيل في اوساط الرأي العام الاميركي ، وفي اوساط الكونجرس حيث تتخذ القرارات النهائية بشأن تقديم المساعدات الاميركية لاسرائيل ، وحيث تجد اسرائيل انصارا يدعمونها بلا هوادة .

ولقد جرى « العزف » على النغمة الاعلامية الصهيونية — نغمة انه اذا انقصت الولايات المتحدة دعمها لاسرائيل ، او حتى فكرت بانقاصه ، فسيحمل ذلك اضرارا كبيرة على المصالح الاميركية ، وسيؤدي الامر الى نشوب حرب جديدة — جرى العزف على هذه النغمة وتكرارها مرارا وتكرارا وبلا انقطاع . ولقد نقل تقرير **الجويش ابزرفر** المشار اليه آنفا (١٩٧٥/٤/٤) تصريحا للشيخ هنري جاكسون الموالي للصهيونية قال فيه ان « تلميح الخليفة الرئيسي لاسرائيل باحتمال اقتطاع بعض المساعدات ، امر كفيل بأن يمس بالتوازن العسكري ، وسيزيد بالتأكيد من احتمالات النزاع المسلح ... ولن ينتج عن هذه التلميحات غير التسبب بزعزعة اضافية للموقف الراهن المشحون بالخطر » .

وفي ذلك اليوم نفسه ، أي الرابع من ابريل ، ظهر تحليل اخباري مطول في « **الجيروزاليم بوست** » ينتهي الى تأكيد الاستنتاج ذاته ، انما باللعب هذه المرة على اثارة المخاوف الاميركية من الاتحاد السوفياتي : « ان قصر نظر واشنطن ، وردة فعلها الفاضية على اسرائيل ، أديا الى تصليب الموقف المصري ، والى جعل الاتفاق أبعد منالا ، والى صب الماء في طواحين الروس » .

والكلام نفسه نجده في تعليق **للنيويورك تايمز** الموالية للصهيونية يوم العاشر من ابريل . والصحيفة تقول ان أي تهديد بالاقتطاع من المساعدات الاميركية لاسرائيل ، او حتى مجرد طرح الفكرة ، سيؤدي الى تصليب موقف مصر ، والى تقليل فرص السلام : « ان هناك خطرا من الركون اكثر من اللازم الى الضغط النفسي [على اسرائيل] . فكلما أتحنا للحكومات العربية أن تتصور دعما أميركيا أقل لاحتياجات اسرائيل الامنية — أو حتى لموقف اسرائيل التفاوضي — كلما أصبح احتمال ان تقوم هذه الحكومات بخطوات حقيقية نحو المساومة ، أضعف » .

وفي هذه الاثناء ،كان اعضاء الكونجرس الاميركي أصحاب السجل الحافل بتقديم كل عون لاسرائيل ، يواصلون انتقاداتهم لكيسينجر وللرئيس فورد ، **بسبب حتى مجرد التفكير** بممارسة اي

ضغط على اسرائيل،وذلك بتأخير امدادات الاسلحة او بأية وسيلة اخرى . ولقد حذر الشيخ كرانستون (من كاليفورنيا) من أن « حملة البيت الابيض القائمة على الغمز والتلميح ضد اسرائيل، سوف تصعد خطر الحرب ، لانها سوف توهم الزعماء العرب بأن الدعم الامريكي لاسرائيل يضعف » . (انظر **الجويش ابزرفر** في عددها الصادر يوم الحادي عشر من ابريل) .

ويبدو أن رجال الدعاوة الصهيونيين قد شعروا في منتصف ابريل بأن حملتهم الاعلامية على اعادة التقييم الامريكية ، **قد حققت نجاحا كبيرا** . فلقد نشرت **الجيروزاليم بوست** في الخامس عشر من ابريل تقريرا مسهبا من مراسلها في واشنطن ، عرض فيه لمقالة ظهرت في مجلة **نيويورك** الموالية للصهيونية ، التي تحدثت عن انتصار اسرائيل في « المعركة على واشنطن » . وبناء لما كشفت عنه مجلة **نيويورك** على ذمة **الجيروزاليم بوست** : « لا يزال الكونجرس يقف بكل حزم الى جانب اسرائيل ... وان جميع الاستفتاءات الرئيسية تبين ان تاييد الراي العام الامريكي لاسرائيل وصل الى ذروة قياسية ... وان الحركة العمالية الامريكية بما فيها الاتحادات النقابية الرئيسية تساند اسرائيل بثبات ... وان جميع الصحف الكبرى ، والمعلقين وصناع الراي العام رفضوا دفع اسرائيل بانها الطرف المتصلب ... وان حملة التعبئة الاسرائيلية الهادئة في الضغوطات المعاكسة على الادارة [الامريكية] تقترب من قطف الثمار المرجوة : العودة النهائية الى العلاقات الحميمة بين واشنطن والقدس » .

وفيما تمضي المقالة بعدئذ الى التسليم بأنه لم يتم بعد التوصل الى بلورة صيغة توفيقية لهذه العلاقات ، الا انها تعدد الاسباب التي تجعل هذا الامر قريب المنال في المستقبل القريب . وتتضمن هذه الاسباب التي تحتم عودة العلاقات الودية الوطيدة بين الولايات المتحدة واسرائيل ، وفقا لمقالة « **نيوزويك** » ، بين أسباب اخرى ، احتمال أن تخلق مجابهة طويلة بين الدولتين الحليفتين ، هبوبا لرياح « اللاسامية » في الولايات المتحدة . هذا « السبب » هو بالطبع دعاوة محضة . أما السبب الاخر الذي تورده المجلة ، فهو بالضبط الخط الاعلامي الذي ذكرنا من قبل انه محور الحملة الصهيونية الدعاوية المضادة : « على أن أسوأ النتائج التي يمكن أن تنشأ عن الابقاء على الاحتكاك الامريكي — الاسرائيلي ، قد يكون قيام العرب والسوفيات باجراء حسابات خاطئة : انهم قد يستنتجون ان واشنطن ستتخلى عسكريا ودبلوماسيا عن اسرائيل . وان هذا كفيل بتعبيد الطريق أمام العودة العربية الى الخيار العسكري، واستئناف الحرب » .

وعلى الرغم من التفاؤل الصهيوني بأن النتيجة المفترضة لاعادة التقييم أصبحت وشيكة ، فان اعادة التقييم هذه امتدت فانقضى ابريل ثم دخل مايو والنتيجة لم تتكشف . وكانت ردة الفعل الاسرائيلية تصعيد ضغطها داخل الولايات المتحدة . وفي الرابع والعشرين من ابريل نشرت صحيفة **الجيروزاليم بوست** تحليلا عكست فيه بوضوح الخط الذي تبناه أنصار اسرائيل في الولايات المتحدة ، في هذه الاونة ، وكررت فيه بلا ضجر موضوعة خطر الحرب . وكشفت التحليل عن « التوترات » التي قد تنشأ عن «الارتياب» بين الدولتين ، الذي « قد يشعل نار الحرب ، في ظل الموقف الهش في الشرق الاوسط » .

ومع ان هذا الكاتب ينظر بشك عظيم الى اي احتمال لتدهور جدي في العلاقات الامريكية — الاسرائيلية ، في هذه المرحلة التاريخية ، فان هناك بعض الدلائل على أن الاحداث التي وقعت مؤخرا خلقت على المدى القصير تباعدا حقيقيا تماما بين الدولتين ، وان كان تباعدا عارضا ونفورا مؤقتا وسطحيا . ولقد حدث هذا التباعد بدرجة ذات شأن تياسا على الجهود الحثيثة التي بذلها الصهيونيون للتاثير في الراي العام الامريكي والكونجرس الامريكي وقيادتهما ضد الادارة الامريكية . وفي هذا الاتجاه ظهرت مقالة في **النيويورك تايمز** في الثاني والعشرين من ابريل ، بقلم مراسلها في اسرائيل ، يورد فيها ميل الرسميين الاسرائيليين الى الاعتقاد « بأن كل قصة اعادة تقييم السياسة الامريكية هي مجرد « مقلب » دبلوماسي » [أي ان الامر صوري وليس جديا] ، وذلك لانهم على ثقة جازمة بأن فورد وكيسينجر يتصرفان دون مساندة من الكونجرس . وتعيد المقالة القول في موضع اخر ان الرسميين الاسرائيليين ينظرون الى اعادة

النظر الامريكية بالسياسة حيال الشرق الاوسط ، باعتبارها « مناورة دبلوماسية صغيرة » ، وانهم لذلك لا « يقبضونها » بجدية كبيرة .

هذا الاعتراف الاسرائيلي بعدم الاكتراث ، اذا اضيف اليه هجومهم المستمر على فورد ، وحملة التخويف التي يبثونها على نطاق الولايات المتحدة، تسبب كما هو واضح باغضاب الادارة الامريكية بصورة عنيفة . يؤكد هذا ما نشر في **الانترناشينال هيرالد تريبيون** في الثلاثين من ابريل بقلم اثنين من الصحافيين الامريكيين وثيقي الصلة بالبيت الابيض. انهما يصفان « المعركة بين فورد وبين اللوبي الاسرائيلي » . وطبقا لما ورد في هذا المقال . فلقد كان فورد وكيسينجر شديدي الانزعاج بسبب سلسلة المقالات التي تنشر في الصحيفتين الكبريين في اسرائيل ، **هآرتس ، ومعاريف** شبه الرسمية، وهي مقالات تضمنت هجوما مستمرا على كسلا الرجلين ، ودعت كيسينجر الى الاستقالة . الا ان ما هو أخطر شأنا ، والذي أزعج البيت الابيض بصورة خاصة ، هو الافتراض الاسرائيلي الاساسي الكامن في خلفية الحملة الدعاوية الاسرائيلية ، وهذا الافتراض هو اعتقاد اسرائيل بأن « في وسع رجال الاعلام الموالين لاسرائيل التحكيم في الرأي العام الامريكي وفي الكونجرس وتوجيههما ضد الادارة . والحقيقة ان الكثيرين من أخلص أصدقاء اسرائيل في الكونجرس يعيبون — في نطاق خاص — الحملة الاسرائيلية » .

وتخلص المقالة الى سرد المخاطر التي ستتعرض لها اسرائيل اذا ما واصلت حملتها على الادارة الامريكية بشدة ، وبملاحظة انه برغم ما تتمتع به اسرائيل من دعم عظيم في اوساط الكونجرس ، الا ان هناك مع ذلك شعورا بأنه اذا قدمت الولايات المتحدة لاسرائيل كل ما تريد وتشتهي من عون ومساعدات ، فالنتيجة الوحيدة لهذا هي زيادة معضلة الشرق الاوسط عمقا وتعقيدا .

على ان الحملة الاعلامية الاسرائيلية تثير عدة نقاط مهمة : أولا ، انها تبين انه برغم النكسات الجدية التي تعرض لها جهاز الاعلام الاسرائيلي خلال الشهور الاثني عشرة الاخيرة ، فانه لا يزال أهلا لشن حملات دعاوية فعالة ومؤثرة من الوزن الثقيل . واذا كان هذا الامر ينطبق بصورة خاصة على الولايات المتحدة حيث يتمتع الصهيونيون بأساس عريض للنشر والتحريض ، الا انه صحيح أيضا بالنسبة لاوروبا الغربية ، كما ظهر في الحملة الصهيونية المعادية لليونسكو .

وليس من الواضح بصورة دقيقة في هذه الاونة، ما اذا كانت الحملة الاعلامية الصهيونية شديدة التأثير ، فليس معروفا درجة نجاحها في توجيه ضغوط ثقيلة على الرأي العام والحكومة الامريكيين في آن واحد معا ، في الوقت نفسه الذي يتعرض فيه الرأي العام والحكومة الامريكيان فعلا لضغوطات متعددة من قبل مختلف الفرقاء النشيطين في الشرق الاوسط . وقد تكون الاستراتيجية الصهيونية بالهجوم على ادارة فورد ، وفي الوقت نفسه مناشدة الرأي العام والكونجرس الامريكيين، ذات نتيجة عكسية ، وقد تكون تسببت في استمرار عملية اعادة التقييم التي تجري بتوجيه البيت الابيض بالطبع .

وهناك نقطة اخرى مدعاة للطرح والتساؤل ، وهي ما اذا كانت القضية كلها ، قضية اعادة النظر بالسياسة الامريكية في المنطقة ، والاستجابة الاسرائيلية ، تستحق اهتماما كبيرا وتسوغ بذل عناية خاصة . ينبغي القول أولا ان هذه الحملة الاعلامية الصهيونية لا تبرر ولا تستوجب شن حملة دعاوية عربية مضادة ، اللهم الا ما يقتضيه التوضيح الاعتيادي للامور المتصلة بالموقف العربي. ومع اننا قد أبدينا شكنا مرتين في هذا التقرير باحتمال اقدام الولايات المتحدة على اجراء تخفيضات ذات شأن في دعمها لاسرائيل ، وباحتمال ان تكون هناك ضغوط جدية على اسرائيل ، الا ان هناك ناحية اخرى من المسألة تستحق التقدير : ذلك انه حدث هذه المرة ان المنطق الصهيوني الذي انطرح على الجمهور الاميركي يحتوي على بعض الصحة ، بعيدا بالطبع عن اللغة والمصطلحات الصهيونية التي سبك بها ذلك المنطق ، فاذا كانت اعادة النظر بالسياسة الامريكية ستؤدي فعلا الى اقتطاعات مهمة من المساعدات التي تقدم لاسرائيل (اقتطاعات يكون لها تأثير على قدرة اسرائيل الدفاعية) ، بسبب التصلب الاسرائيلي ، فان الامر سيشجع فعلا العناصر المناضلة في العالم العربي على أن تقتحم دروب الحرب من جديد لاستعادة الاراضي العربية المحتلة . أما اذا لم يستتبع التصلب الاسرائيلي اجراء تخفيضات مهمة في

العون الامريكي لاسرائيل ، فان اسرائيل تكون قد برهنت على صحة ما قالته عن « صورية » سياسة اعادة النظر وعدم جديتها ، ولا تكون بالتالي قد خسرت شيئا .

الاحتمال الاول ، اي تعرض اسرائيل العنيدة ، لكن المستضعفة ، لهجوم عربي ، ليس من صالح الولايات المتحدة حتى ولو لم يحقق العرب في هجومهم اكثر من نصر عسكري جزئي . ان اسرائيل تعرف هذه الحقيقة جيدا ، وكانت تقولها ضمنا وبالتلميح . ومن الجلي ان الصهيونيين والناطقين بلسانهم يفرطون في المبالغة حين يشيرون الى ان مجرد **التفكير** بتقليص الدعم الامريكي لاسرائيل يزيد من خطر الحرب ويبقى مع ذلك ان النقطة الاساسية صحيحة .

ادريس الخالدي

[٢]

اوضاع العمال الفلسطينيين في برلين الغربية

يتناول هذا التقرير ظاهرة هجرة العمال والشباب الفلسطينيين الى المانية الغربية ، فيتعرض لمسائل السكن والاقامة وما يسمى « باللجوء السياسي » وطبيعة الاعمال التي يتداولها الفلسطينيون هناك ، كما يتناول الوضع الاجتماعي والنفسي للعمال والشباب الفلسطينيين هناك .

اكتسب طابع عمل الفلسطينيين في برلين مميزات خاصة تتعلق ببعض المسائل السياسية كالتشجيع على الهجرة بهدف اجهاض او اضعاف الثورة الفلسطينية . ولكن هذا العمل لا ينفصل عن طبيعة « العمل الاسود » الذي ساد في العواصم الاوروبية ، او عن العمل الاسود المبطن بالشرعية بعد تدخل الدولة لضبطه ومراقبته . فقبل حوالي ٤ سنوات كانت مدينة برلين ، كغيرها من العواصم الاوروبية ، مرشحة بمكاتب « العمل الاسود » التي تقوم بتأمين الايدي العاملة الرخيصة ، واستغلالها بأبشع الصور ، حيث قلصت اجرة العامل الى ادنى حد ممكن حتى بلغت في معظم الحالات نسبة ٤٠ ـ ٥٠ ٪ من الحد الادنى الرسمي للاجور (٢٥ ماركا بدلا من ٦٥ ماركا)، خالية من كافة الضمانات العائلية او التعويض وعلى اساس تعاقد يومي وفي اصعب مجالات العمل واقذرها .

اشتغل الفلسطينيون من خلال «السوق السوداء» لانهم لم يحصلوا على اقامات شرعية نتيجة قطع العلاقات الدبلوماسية بين المانيا الاتحادية والدول العربية بعد حرب ١٩٦٧ . وقبل ذلك حصلوا على اقامات سياحية لم تخولهم الحق في العمل .

واجهت مكاتب « العمل الاسود » معارضة من قبل العمال المواطنين المحليين لتأثيرها على سوق الايدي العاملة المحلية ، ومعارضة شكلية من قبل الادارات الحكومية . ولكنها اغلقت قبل ٤ سنوات نتيجة الازمة الاقتصادية التي حلت بالنظام الرأسمالي العالمي والتي دفعت السلطات الى اتخاذ بعض الاجراءات الوقائية لمواجهة نتائج الازمة من بطالة وارتفاع كلفة المعيشة وانخفاض الاجور ، ولضبط عدد ونسبة العمال الاجانب في البلاد ، ولكن اغلاق تلك المكاتب لم يغير عملية استغلال العمال الاجانب بصورة جذرية من حيث ارتفاع الاجرة ارتفاعا ضئيلا وبقاء التعاقد على اساس يومي ومدد الاقامات الشرعية التي بقيت محدودة جدا .

وكان لهذه الاجراءات انعكاس سلبي على وضع الفلسطينيين ، فقبل ذلك كانوا يعملون من خلال تلك المكاتب بينما يحتاجون الان لاقامة شرعية. وبدأ التشجيع على « اللجوء السياسي » في تلك الفترة حيث تجاوب له بعض العمال الفلسطينيين بناء على الوعود الكاذبة والامل بتحسين اوضاعهم وبعد فترة قصيرة اندفع جميع العمال والشباب الفلسطينيين في هذا التيار وقدموا طلبات اللجوء

السياسي .وان كان السبب الاساسي لهـــذا الاندفاع هو البحث عن العمل الا ان العملية لم تقتصر على هذا بل تعدتها الى انتشار الدعـــاية في صفوف الشباب الفلسطينيين في المخيمات وباقي مراكز تجمعهم . مما شجع الكثيرين على السفر بحثا عن « الحظ الموعود » ولكنهم صدموا بالوضع حيث لا تسنح لهم فرص العمـــل في المجـــالات المتخصصين فيها ولا يحصلون على حق اكمـــال تعليمهم في الجامعة او المعاهد التقنية والفنية كما ظن بعضهم ، بل وجدوا انفسهم مضطرين للعمل في المطاعم وورش البناء ومختلف الاعمال المرهقة في المصانع والمناجم ودفعوا باتجاه تقديم طلبـــات « اللجوء السياسي » مقابل لا شيء بل تحقيرهم واهانة كرامتهم الشخصية والقومية .

لماذا مدينة برلين ؟ يصعب التحديد لماذا أصبحت مدينة برلين ، وليس غيرها من مدن اوروبـــا الغربية المركز الاول لاستقطاب العمال الفلسطينيين ولكن من المعروف أن في مدينة برلين اكبر واخطر وكر للصهيونية من بين باقي منظماتها في عواصم اوروبا الغربية . ولهذه المسألة علاقة بعمليـــة التشجيع على الهجرة التـــي استهدفت الشعـــب الفلسطيني . ولكن هناك عوامل اخرى تجعـــل امكانية السفر الى برلين اسهل بكثير من السفر الى عواصم اوروبية اخرى نذكر منها :

١ ــ قدرة الاستيعاب للايدي العاملة الاجنبيـــة التي تمتاز بها برلين وخاصة في قطاع البناء حيث أن معظم العاملين في هذا القطاع هم من بـــين العمال الاجانب ومنهم الفلسطينيون .

٢ ــ مشاكل الحدود بينها وبين القسم الشرقي منها . فالفلسطينيون لا يستطيعـــون الحصـــول بسهولة على تأشيرة مرور الى العواصم الغربية، بل يحصلون على تأشيرات مرور في اراضي المانيا الديمقراطية . ويتسللون الى برلين الغربية عبـــر المداخل التي يسيطـــر عليها البـــوليس الالماني الشرقي الذي لا يشترط وجود تأشيرات دخول الى اراضي المانيا الغربية ، اذ تعتبر برلـــين منطقة ترانزيت دولية .

٣ ــ انخفاض سعر التذكرة بواسطة الطيران الشرقي التي تصل الى حوالي نصف سعر التذكرة بواسطة الطيران الغربي حتى بعد مضاعفتها وهذا عامل ثانوي ولكنه مؤثر ، فلو استطاع الكثـــير من الشباب الفلسطيني ان يدفع حوالي ١٨٠٠ ليرة ثمن تذكرة ذهاب واياب لفضلوا البقاء هنا حتى لو حصلوا على اقامة عادية في برلين .

كيفية الحصول على الاقامة : يدخل الفلسطينيون برلين بصورة غير شرعية ولا يستطيعون مواجهة بوليس الاجانب الا عن طريق محامي يتوكل قضيـــة طلب الاقامة على أساس « اللجوء السياسي » والا تعرضوا للطرد والاعتقال . ويتولى اكثر من عشرة محامين قضايا طلبات اللجوء السياسي ، وهـــم يقتصرون باعمالهم على هذه العملية كمورد رزقهم الوحيد ، علما بأن المركز لا يدفع اكثر من ٢٥ ــ ٥٠ ماركا لقاء كامل اتعابهم ، ويحصلون بالاضافة الى ذلك على مكافآت خاصة من قبل الدوائـــر الرسمية ، عدا عن الرعاية والدعم مـــن قبـــل المخابرات الصهيونية . ولتسهيل مهامهم يوظفون لديهم عناصر فلسطينية او عربية يدفعون لهـــا معاشات مغرية على أن تكون متمكنة من اللغـــة الالمانية ولها علاقات مع الفلسطينيين . وتعطي الاقامات المؤقتة للفلسطينيين بناء على رسالة من المحامين يعلنون فيها تبنيهم لقضيـــة لجـــوئهم السيـــاسي .

أ ــ اللجوء السياسي : تكتسب هذه العملية **ظاهريا** طابع الاهمية والخطورة . اما جوهريا فـــلا يتعدى كونها المخرج الوحيد المتاح للفلسطيني الذي لا خيار له . قبل اغلاق مكاتب العمل السود لم تتعد طلبات اللجوء السياسي عدد اصابع اليد وبعد ذلك انتشرت في صفوف الفلسطينيين ولكن الامر الخطير هنا يكون في استقطاب عـــدد اكبر مـــن الفلسطينيين وخاصة الشباب في محاولة تمييـــع الحياة الاجتماعية للتجمعات الفلسطينية ، لقـــاء وعود واحلام خادعة لا يحقق منها شيء .

من المميزات الواضحة لعملية اللجوء السياسي، انه من النادر جدا ان تجد حالة من حالات اللجوء قريبة الى الواقع . فاذا أطلعنا على ملفات طالبي « اللجوء السياسي » نرى فيها الروايات المختلقة التي لا تثير من حيث عدم حقيقتها سوى الضحك ، ولكنها تورط ينجر اليه الفلسطينيون مما يسيء الى سمعة القضية الفلسطينية . فهذا يدعي انه « كان ملازما ثم فر من الخدمة » واخر « مناضل مطلوب للاعدام » الخ .. الخ .... وفي احيان كثيرة لا يعرف الفلسطيني ماذا يختلق من روايات ليتولى

المحامي ومساعدوه الفلسطينيو الجنسية — امر اختلاق قصة اكثر « إثارة » واساءة الى القضية. فملفات اللجوء أصبحت مادة غنية للدعاية الصهيونية والمنظمات النازية في المانيا وغيرها . وبشكل خاص عندما تتطور القضية الى مرحلة حضور محاكم اللجوء السياسي الرسمية في معسكرات خاصة في غرب المانيا .

ب — **معسكرات اللجوء السياسي :** يرسل الفلسطيني الى غرب المانيا لحضور محكمة «اللجوء السياسي» التي تقام في معسكرات خاصة معظمها تحت اشراف القوات المسلحة للولايات المتحدة وتحت أسماء جمعيات « دولية » مختلفة كرعاية حقوق الانسان وغيرها من العناوين المضللة . وتجمع هذه المعسكرات اناسا من قوميات مختلفة وخاصة الاوروبيين الشرقيين .

وفي معسكر مدينة — الترندورف — يقيم معظم الفلسطينيين . وهم يتعرضون الى شتى أنواع التحقير والاذلال ، كالقيام باعمال السخرة ، تنظيف الشوارع والحدائق ومسح غرف الموظفين ومكاتبهم مقابل الطعام والنوم فقط . وهذا مما يؤدي دائما الى تخلي بعض الشباب عن طلبات لجوئهم السياسي قبل حضور المحكمة ويفرون عائدين الى برلين حيث يبدأون المحاولة من جديد للحصول على عمل وذلك لتأجيل الذهاب الى المحاكمة .

في الواقع تميز الشباب الفلسطيني في ذلك المعسكر بالتمرد بعكس باقي مجموع اللاجئين من البلاد الاخرى . فقد شب حريق في المعسكر أحرق الغرف والاثاث وسبب خسائر اخرى خلال شهر كانون الثاني عام ١٩٧٣ . وحمل الشباب الفلسطينيون مسؤولية الحادث وتعليقا على الحادث ذكرت بعض الصحف الموالية للصهيونية هناك ان الشباب الفلسطيني يأتي الى هذا المعسكر تحت اسم اللجوء السياسي ولكنهم في الحقيقة مخربون ومندسون ، وأن معظم الشباب هناك ما زالوا على علاقة تنظيمية مع فصائل منظمة التحرير . وان كانت هذه الصحف قد عبرت عن حقدها الاعمى تجاه الشباب والعمال الفلسطينيين فانها تكلمت عن وجه من الحقيقة بأن العمال الفلسطينيين غير جادين في مسألة اللجوء السياسي .

ج — **محاكم « اللجوء السياسي » :** من مهام المحكمة ان تطلب من « اللاجيء السياسي » اثبات ما ورد لديه من ادعاء عن ضرورة لجوئه . والواقع اثبت انه من النادر ان تجد فلسطينيا اثبت ضرورة لجوئه . ونتائج المحاكمات انتهت الى رفض هذه الطلبات ولكن مع بقاء فرصة الاستئناف التي تعطي المدعي سببا للاقامة مدة اطول . ومن مصلحة السلطات الالمانية عدم الرفض القطعي لهذه الطلبات فهي بشكل اساسي تحافظ على وجودهم على أساس اقامات مؤقتة تعفيهم من تحمل المسؤولية تجاه عملهم او تحسين ظروف معيشتهم. فالمسألة كاملة الوضوح : ان القائمين على رأس هذه العملية يدركون عدم جدية اللجوء السياسي للفلسطينيين ، ولكنهم يحاولون كل جهدهم لاعطائها الصفة القانونية والحقوقية . كما يستفيدون بالخداع والتزوير من انتزاع «اعترافات وتوقيعات» على استمارات وبيانات ووثائق تحتوي على عدم حق الفلسطيني بالمطالبة بفلسطين او بأي املاك له فيها او الايمان بأن فلسطين هي موطنه.

الاقامة والعوامل التي تحدد مصيرها : يحصل العمال الفلسطينيون على اقاماتهم ويجددونها من خلال تلك العملية الانفة الذكر . اما العامل الاساسي الذي يحدد مصير هذه الاقامة فهو حاجة البلد الى الايدي العاملة خاصة الرخيصة منها ، وليس نتائج طلب اللجوء السياسي . وتتعرض الاقامة لعدة تبدلات وتمر بمراحل مختلفة : فتعطى الاقامة في الفترة الاولى لمدة اقصاها ٣ أشهر تسميها الدوائر الرسمية مرحلة انتظار «المحاكمة» والنظر في القضية . ولكنها بالفعل مرحلة اختبار للمقيم لمعرفة ان كان سيعمل ام لا . فان لم يعمل يحصل على « مساعدة اجتماعية » من مركز بلدية الحي الذي يعيش فيه حيث يقدم هذا المركز تقريره عن المقيم الى دائرة البوليس ليشرح حالته وعن عدم امكانية توفير العمل له فهنا يصبح المقيم مرشحا لان يرسل الى غرب المانيا ليقيم في معسكرات اللجوء السياسي . او تجدد له الاقامة في برلين للانتظار . رفض بعض الشباب امر السفر الى غرب المانيا واضطر للخروج عن القانون بمختلف الوسائل . ومن يحصل على العمل لا يأتيه الامر بحضور المحاكمة خلال سنة او سنتين وان دعي وفشلت دعوته يستأنفها وتجدد اقامته

مدة أطول طالما ما دام يحافظ على مركزه في العمل .

لا يغيب عن بالنا ان هناك من « يربح » دعوى اللجوء السياسي ويحصل على بطاقة سفر جديدة بدل البطاقة الفلسطينية ولكنهم قلة تعد على الاصابع . ونوع هذه البطاقة تعطى عادة في المانيا للفجر الذين لا وطن لهم ولا يحق للذين يحصلون عليها مغادرة البلاد قبل مرور (٥) سنوات على الحصول عليها .

من شروط طلبات اللجوء السياسي انه يحظر مغادرة البلاد خلال فترة الاقامة . ولكن العمال والشباب الفلسطينيين دائما في حركة تنقل بين برلين واماكن اقامتهم الدائمة في الدول العربية ، ولا تعلم السلطات بهذا الامر لانهم يغادرون عبر اراضي برلين الشرقية ، وهذه الظاهرة واضحة جدا وتعلم السلطات بها عن طريق معلومات خاصة . ومع ذلك فان الفلسطيني الذي يغادر برلين لاسباب مختلفة يعود اليها ويحصل من جديد على الاقامة دون التعرض للمشاكل بسبب طلبه « اللجوء السياسي » !

مسائل العمل : يحصل العمال الفلسطينيون ، كما ذكرنا ، على اكثر الاعمال مشقة داخل الورش والمصانع والمطاعم وغيرها تحت أقسى الشروط والظروف بدءا من طبيعة التعاقد وحجم الاجور الى الضمانات وكيفية الحصول على العمل او كمية المساعدة الاجتماعية اثناء البطالة وكيف تسترد منهم بأبشع أنواع الاستغلال وعمل السخرة ولان التعاقد يقوم على أساس يومي مع الاجانب يلجأ الرأسماليون الى تقليص اسبوع العمل الى ثلاثة أيام في اوقات الازمات الاقتصادية . والعمال الفلسطينيون هم من اوائل الذين ينطبق عليهم هذا النظام مما يجرهم للوقوع في أزمات معيشية حادة دون أدنى حد من التعويض . وبذلك يشكل الفلسطينيون قسما من قوة العمل الاحتياطي التي تستخدم ويستغنى عنها تبعا لتقلبات ازمات العمل . ويجري تمييز العامل الالماني عن العامل الفلسطيني في كافة المجالات من حيث حجم الاجور واجازات المرض حيث يسمح للالماني بتمديد اجازته المرضية حسب حاجته ولا يسمح للعامل الفلسطيني تمديدها اكثر من ثلاثة اسابيع حيث يفصل اوتوماتيكيا من عمله .

أما ضريبة العمل فتتميز طريقة تحصيلها من الفلسطينيين بالاشكال التالية : اولا — يدفع العامل الفلسطيني الضريبة نفسها التي يدفعها العامل الالماني ، علما بأن اجرته القصوى لا تعادل الحد الادنى للاجرة الرسمية . ثانيا — يعود للمواطن الالماني قسم من الضريبة بطريقة غير مباشرة عن طريق الخدمات الاجتماعية المختلفة — تعليم — طب — الخ ... اما الفلسطيني فلا يعود عليه اي شيء من هذه الخدمات الاساسية . ثالثا — يظل قسم من الضريبة من حق العامل الالماني وتعود اليه كمدفوعات مباشرة كلما حان وقت استردادها — كضمان الشيخوخة او في حال تغير مكان العمل او الهجرة الى الخارج . بينما يحصل الفلسطيني على قسم ضئيل جدا من الضريبة التي يدفعها .

ان مقدار ما توفره اجهزة الدولة في برلين من أصل الضرائب المتوجب عليها اعادته للعمال الاجانب ومن بينهم الفلسطينيين يبلغ حوالي عشرة ملايين مارك سنويا . ويعجب العامل الفلسطيني حين يحصل من الدولة على بطاقات سفر مجانية ومساعدة اجتماعية فيظن ان الدولة تتكرم عليه خاصة وانه ينظر الى الموضوع من منظار فردي ولا يرى خلفيته في استغلال جموع العمال الاخرين .

البطالة والمساعدة الاجتماعية : ليس للعمال الفلسطينيين بالرغم من « اللجوء السياسي » أية أفضلية في الحصول على العمل ، بل يفضل عليهم أي عامل اجنبي . ودائرة العمل لا تقدم لهم الفرصة الا عندما يزداد الطلب على العمال . وهناك على الدوام حسب سجلات مراكز «المساعدة الاجتماعية» نسبة ٣٣ ٪ من طالبي اللجوء السياسي بدون عمل . ويكون العدد التقريبي حوالي ٥ الاف من أصل ١٥ الفا ممن يحصلون بشكل دوري على المساعدة الاجتماعية . اذ أن اغلبية العمال قد مروا بفترة حصلوا خلالها على المساعدة الاجتماعية قبل عثورهم على العمل . وهم يعودون للحصول على هذه المساعدة اذا ما فقدوا عملهم من جديد .

والمقصود « بالمساعدة الاجتماعية » ان تغطي الحاجات اليومية الضرورية . ولكن حجم هذه المساعدة لا يغطي ثلث الحاجة كحد ادنى من

المصاريف اليومية . وننظر الى تكاليف المـــواد الاساسية فنرى ان رغيف الخبز يكلف ٢ مارك ــ علبة بيض صغيرة ٢ مارك ــ كلفة مواصلات مرة واحدة في اليوم ١٤٤ مارك الحد الادنى لكلفة وجبتي الغذاء والعشاء ٧ مارك . علبة الدخان ٣٤٣ مارك ، شراب واحد في اليوم ١٤٤ مارك . فتبلغ تكاليف هذه الحاجيات اليومية الضروريـة مبلغ ١٦٤١ مارك . هذا ما عدا الحاجات الاخرى لفطور الصباح زبدة ، جبنة ، او قهوة الخ .. اما قيمة « المساعدة الاجتماعية » اليومية فـلا تتعدى ٦ ماركات ، واضافة الى ذلك هناك ٨٠ ماركا في الشهر لقاء اجرة البيت . علما بأن الحد الادنى لاجرة السكن في حال المشاركة مع الاخرين تبلغ ١٢٥ ــ ١٥٠ ماركا . والوضع في برلين صعب جدا لدرجة ان العاطل عن العمل لا يستطيع ان يحافظ على وجوده دون ان يحصل على المال من اهله في الوطن او ان يستدين من معارفه والا فانه سيعاني الجوع الحقيقي والاهانة او يلجأ الـى السرقة . وللحصول على المساعدة على العاطـل الفلسطيني ان يكرر زيارته مرة ومرتين وثلاثة وكأنه يستجدي حسنة . وينتظر لانهاء المعاملة حوالـي ٤ ــ ٥ ساعات . وتلك عملية مقصودة من اجـل التأكد من تواجد طالب المساعدة تحت انظارهم منعا « للاحتيال والخداع » .

يحصل الفلسطيني على المساعدة خلال مـدة اقصاها ٦ اسابيع وبعدها يبدأ مركـز البلديـة بالماطلة والتمنع عن دفع المبلغ الضئيل المذكور ، ويبدأ الضغط من أجل تشغيل العاطلين عـن العمل لديهم في اعمال البلدية : تجميع الاوساخ من الاحياء وتنظيف الشوارع ومسح المكـاتب وغيرها . ولمدة ٤ او ٦ ساعات يوميا . كل هذا مقابل اجر قدره ١/٢ مارك للساعة الواحدة . فيبلغ الاجر اليومي ٢ ــ ٣ مارك . مع العلم ان اجرة ساعة العمل في هذا المجال ٨ ماركات ويعتبر يوم العمل ٨ ساعات فيحصل العامل مبلـغ ٦٤ ماركا . وتضاف اجرة ساعات عمل السخرة هذه الى قيمة المساعدة الاساسية فتبلغ ٨ ــ ٩ ماركات في اليوم . ويشكل عمل السخرة هـذا المصدر الرئيسي لما يسمى بالمساعدة الاجتماعية وفي غيبة وعي العامل والشاب الفلسطيني تنظم الدوائـر الرسمية هذه العملية : فدائرة العمل بالاتفاق مع مركز البلدية يحافظان على نسبة معينة عاطلة عن العمل لكي تستخدم في اعمال السخرة . وتسم ضئيل من انتاج هذا العمل يقـدم كمساعدات للفلسطينيين انفسهم على شكل بطاقـات سفـر مجانية اثناء طردهم من البلاد او لقاء اتعـاب المحامين والمحاكم التي تتولى أمر طلباتهم اللجوء السياسي والمساعدة الاجتماعية . ولا يـدرك الفلسطيني، غالبا، مصدر المساعدات التي يحصل عليها.فبعض العمال الفلسطينيين يذهب الى القول ان النظام الالماني يعطيهم الامتيازات الخاصـة مجانا . ومن هنا انتشرت الدعاية في صفـوف الشبـاب الفلسطيني خـاصة في مخيمـات لبنـان فاندفعوا في تيار الهجرة . ولكن معظمهم لا يستقر هناك واذ يعود قسم منهم على الفور ومنهم من يتـردد الـى برلـين ٣ او ٤ مرات في السنة الواحـدة .

وهناك نوع اخر من المساعدة تعطى على أساس فقدان العمل . ولا تدفع في هذه الحال الا بعد ان يكون العامل قد اشتغل مدة حدها الادنى ١٠ اسابيع.وقيمة المساعدة هي ٤٠٠ مارك، في الشهر الواحد وتحسم هذه المساعدة من اصل الضريبة التي يدفعها العامل على أساس تغطية الـ ١٠ اسابيع الاولى من العمل حتى لو استمر العامل في عمله مدة سنة او سنتين ، ثم يبدأ الضغط عليه للعمل بالسخرة لدى مركز البلدية لقاء ٤٠٠ مارك فـي الشهر بحجة عدم وجود فرصة اخرى للعمل .

الحالة الاجتماعية : يتكون المسافرون الـى برلين من فئات اجتماعية مختلفة والنسبة الكبرى منهم قادمة من مخيمات الفلسطينيين في لبنان وقسم من الضفة الغربية والاردن .

١ ــ فئات العمال : وقد اضطروا الى السفر بحثا عن الرزق نظرا لقلة فرص العمل والتضييق على مجالات عملهم خاصة في لبنان والاردن وتبين أن جميع هؤلاء يفضلون البقاء في اماكن اقاماتهم الاصلية لو فتحت لهم ادنى فرص للعمل لانهـم لمسوا بتجربتهم ان بقاءهم في برلين ليس فيه أي امتياز . فالسفر الى ليبيا او السعودية والكويت يقدم لهم فرصا اكبر في سد حاجاتهم وحاجـات ذويهم المسؤولين عنهم . بينما في برلين لا يستطيع العامل ان يرسل الى اهله وعائلته اكثر من ١٥٠ ــ ٢٠٠ مارك شهريا في حال استلامه العمـل

بشكل دائم وهذا غير وارد . فيضطرون لسلوك حياة التقشف الشديد . حيث يحرمون أنفسهم من التمتع بالاجازة الاسبوعية ولا ينالون اية فرصة للترفيه (كالذهاب الى السينما) وبدلا عن ذلك فهم يتبادلون الزيارات فيما بينهم والاكتفاء بشرب الشاي والتحدث عن الوطن ويلتفون حول المذياع محاولين التقاط موجة من احدى المحطات العربية. وبالرغم من أنهم يمكثون في برلين سنة او سنتين فهم لا يجيدون اللغة الالمانية ولا يختلطون بالعمال الالمان ولا يدركون ما يجري حولهم وبالتالي لا يمارسون أية نشاطات نقابية او سياسية على الاطلاق ، لان السلطات الالمانية تمنعهم من القيام بمثل هذه النشاطات .

ب ــ **فئات الشبيبة** : قسم ضئيل من هؤلاء الشباب يتحمل مسؤوليات عائلية اما الاغلبية فقد اندفعت للسفر الى برلين لا بسبب البحث عن عمل بل كنزوة شباب وحب الاستطلاع عدا عن انجرارهم وراء الوعود والاغراءات بأن الوضع في برلين سيحقق لهم احلامهم . ولكنهم لمسوا بالفعل مرارة العيش هناك . ويبدو انهم وقعوا في تلك الدوامة التي من الصعب التخلص منها ، فأكثر من مرة يعود الشباب الى موطنهم ولكنهم لا يجدون عملا. فمنهم عمال فنيون متخصصون في مجالات معينة لكنهم لا يجدوا مجالا للعمل في تخصصهم بل يعملون في المطاعم والورش كغيرهم من فئات العمال والشباب . وبعضهم تركوا مقاعد الدراسة الثانوية او الجامعية املا في أن يكملوا تعليمهم في برلين وفشلوا في هذه المهمة ايضا .

ولا نستطيع فصل حالاتهم النفسية عن مجمل اوضاع الثورة الفلسطينية التي تواجه المؤامرات والتهديد اليومي عدا عن الهجمات الاسرائيلية على المخيمات في شمال لبنان وجنوبه بهدف تفتيت الحياة الاجتماعية والوحدة السياسية للفلسطينيين.

وما يميز فئة الشباب بشكل عام هناك انهم يختلطون بالبيئة الاجتماعية ويتكيفون معها الى حد كبير بحيث تؤثر على نفسيتهم وعقليتهم حتى ان معظم اذا عادوا الى المخيمات يحسون «بغربة». غير أن قسما من الذين عادوا واستقروا هنا استطاعوا ان يتخلصوا من وهم برلين ولكن بعد ان كلفهم ذلك الكثير من المشقة والمعاناة .

مسائل السكن : تعتبر مشكلة السكن من اهم مشكلات العمال والشباب الفلسطينيين حيث يسكن معظمهم في بيوت جماعية او بالاحرى مناسمات جماعية حيث يشارك ثلاثة او اربعة افراد غرفة صغيرة غير مزودة بالماء او المراحيض ويشاركون جميعهم مع الاخرين في حمام واحد ومطبخ واحد لكل طابق . ويدفعون الاجرة تبعا لعدد الاشخاص. والشيء المميز لهذه المنامات أن معظمها بدون طلاء ودائما معرضة للرطوبة وخالية من اجهزة التدفئة الضرورية . بالاضافة الى تضييق مجال الزيارات حيث تعترض ادارة المنامات عن دخول الزائرين ، وهكذا يعيش المستأجرون في هذه الاماكن بعزلة شبه تامة .

والبعض الاخر يحصل على شقق مفروشة غير صحية ومنافية لقوانين البلد حول المساكن، وبدل ايجارها يبلغ حوالي ٣٠٠ مارك عدا مصاريف الكهرباء والغاز . فيضطر المستأجر ان يتشارك مع أشخاص آخرين ، هذا اذا سمح صاحب البيت. ويتم الحصول على هذه الشقق عن طريق مؤسسات صغيرة وكبيرة تدير عددا من الشقق المفروشة وتمارس شتى أنواع الغش . يدفع الفلسطيني لهذه المؤسسات عمولة اضافية تبلغ ١٥٠ ماركا لقاء السكن . ثم يدفع « التأمين » ٢٠٠ مارك . هذا بدون أي تعاقد بين الطرفين مما يسمح لهذه المؤسسات بطرد العمال من هذه المساكن بدون دفع مبلغ التأمين تحت حجج كاذبة : كالادعاء بأن الشباك مكسور او فرن الغاز معطل . وعادة يستغلون جهل العمال للغة الالمانية ويحصلون منهم على امضاءات تتعهد بالتنازل عن التأمين او دفع تعويض لاضرار لا وجود لها ، تجرهم الى المحاكم وتحمل العقوبات . ولا يحصل الفلسطيني (الا في النادر) على شقق يستطيع التصرف بها ويعقد يحدد شروط علاقته بالملاك . واذا طالعنا الصحف التي تعلن عن وجود شقق للايجار ، وهناك الكثير، لوجدنا ان معظمها يشترط عدم قبول الاجانب . واذا اتصل احدهم بالارقام او بالعناوين المذكورة فلا يجد فرصة للسؤال لانه اجنبي . هناك شائعة تقول أن برلين تعيش ازمة سكن ولكن من الواضح ان هناك دائما حوالي ١٥ الف شقة غير مسكونة وتحجب عن المواطنين المحليين والاجانب بهدف رفع بدل ايجارها .

الخاتمة : تتضح من هذا التقرير العام عدة

مسائل هامة :

١ — ان السبب الرئيسي لسفر الفلسطينيين الى برلين هو البحث عن العمل وليس بهدف « اللجوء السياسي » كما تحاول ان تركز وسائل الاعلام النازية في المانيا الاتحادية . ويجري هنا خلط من بعض الجهات المسؤولة حول عملية اللجوء السياسي فيصل بعضهم الى حد اعتبار الفلسطينيين هناك في عداد الخونة لقضيتهم وثورتهم . وقد سرت بالفعل هذه الروح في صفوف سكان المخيمات حتى بدأ المسافرون الى برلين يحسون بالحرج عندما يعودون الى بيوتهم .

٢ — يستغل العمال والشباب الفلسطيني في مراكز العمل ومعسكرات اللجوء السياسي واعمال السخرة أبشع الاستغلال من دون امكانية المطالبة بتحسين اوضاعهم او حق تكوين منظمات نقابية او اجتماعية كالنوادي وغيرها . وان عملية « اللجوء السياسي » لا تضع ذلك الحاجز بين منظمات الثورة والفلسطينيين المقيمين هناك لعدم جديتها ، فيفتح ذلك المجال امام تدخل منظمات الثورة في شؤونهم ومتابعة اخبارهم وعدم اهمالهم او احراجهم .

٣ — لا يملك الشاب او العامل الفلسطيني هناك الجرأة على القول بأنه مقيم بسبب اللجوء السياسي وهذا ما ولد لديهم حساسية تجاه بعضهم البعض . حيث سرت روح التشكيك بوفائهم لقضيتهم . وان الازمات التي تمر فيها الثورة الفلسطينية تعطي دائما انعكاسا سلبيا على نفسية المقيمين هناك . فينبغي بالتالي زيادة النشاط السياسي في صفوفهم لابقائهم على علم بما يجري على واقع الثورة لكي يتعمق ايمانهم بثورتهم ويزيد ارتباطهم بها .

٤ — ان النتيجة السلبية الوحيدة التي يحصل عليها اعداء الشعب الفلسطيني تنحصر في انتزاع تلك التصريحات الفردية التي تعلن عدم اعترافه بالثورة وايمانه بوطنه فلسطين وهي بالرغم من عدم جديتها تظل مجالا لاستغلال الدعاية الصهيونية لها . ويظل الهدف وراء كل هذه العملية فصم وحدة الشعب الفلسطيني وزيادة تشتته ، فينبغي التحرك قبل أن ينجح ذلك الهدف وقبل ان تنتزع البطاقات الفلسطينية من يد الشباب والعمال هناك .

عدنان الغول

[٣]

جاك دوكلو : مناضل نموذجي

في الخامس والعشرين من شهر نيسان الماضي ، خسر الحزب الشيوعي الفرنسي احد ابرز قادته : جاك دوكلو ، الذي توفي في الثامن والسبعين من عمره وهو لا يزال يقف في صميم المعركة السياسية من اجل قضية الديمقراطية والتقدم الاجتماعي .

ولد جاك دوكلو في عام ١٨٩٦ في قرية صغيرة في جنوب فرنسا ، انحدر من اسرة فقيرة متواضعة ، لذلك بدأ يعمل عند بائع حلويات وهو لم يجاوز اثني عشر عاما بعد . وعندما اندلعت الحرب العالمية الاولى شارك فيها دوكلو جنديا وجرح .

وبعد انتهاء الحرب انغمس دوكلو في النضال السياسي ، مدافعا عن الطبقة العاملة مدفوعا باحساس عميق بوحشية النظام الرأسمالي . ومن خلال نضاله اليومي الدائب وصل دوكلو الى اختياره السياسي الواعي ، فانتسب الى الحزب الشيوعي عام ١٩٢١ اي عام تأسيسه . وليجعل اختياره منتجا وفاعلا دخل الى مدرسة الكوادر ليصبح عضو لجنة مركزية عام ١٩٢٦ . وفي انتخابات ذات العام هزم ليون بلوم زعيم الحزب الاشتراكي آنذاك ، لكن دوكلو لم يكن مناضلا يعرف الطريق السهل ، هاجم النزعة العسكرية

« أي النظام » وهو نائب فلوحق وحكم عليه بالسجن .

وعند اقتراب الفاشية وصعودها كرس دوكلو كل عمله لمقارعتها في فرنسا خاصة وفي اوروبا عامة . فذهب الى لشبونة سرا ، وانطلق بعد ذلك الى مدريد عندما كانت ظلال الموت تخيم على اسبانيا . وكان دوكلو رفيق درب ومؤازرا لديمتروف في معركته ضد الفاشية الهتلرية .

لم يكن دوكلو يعرف التعب والكل ، كان كتلة من الحركة والنشاط المبدع ، فهو حاضر باستمرار في بلده ، وحاضر ايضا في كل بلد يناطح الظلام .

في عام ١٩٣٦ أسهم دوكلو بشكل رئيسي في اقامة الجبهة الشعبية للوقوف في وجه الفاشية . ولما دخلت الجحافل النازية فرنسا كان دوكلو متخفيا في سويسرا فعاد مباشرة ، حيث بدأ ينظم الحملة السياسية والاعلامية للحزب في طول فرنسا وعرضها ، ثم بدأ يقود المقاومة المسلحة مع جورج بوليتزر ، كل ذلك في ظروف بالغة الصعوبة أعطى فيها الحزب الشيوعي ٧٠ ألف شهيد .

لم يكن دوكلو رجلا سياسيا محترفا فقط ، أي رجل حركة ، ورجل تنظيم ، بل كان انسانا موسوعيا أيضا ، كان ذاكرة الحزب وذاكرة الوطن ، أرخ لفرنسا كما أرخ لحزبه وللحركة الشيوعية العالمية ، فمذكراته تغطي الحياة السياسية خلال اكثر من نصف قرن ، ومن كتب دوكلو « هجوم السماء ، قصة الكومونة ، فوضوية الامس واليوم ، من نابليون الثالث الى ديغول ، الظل والنور ، باكونين وماركس » وقد ساهم قلم دوكلو بغزارة في الحياة السياسية من خلال مقالاته التي كان ينشرها في جريدة الحزب « الاومانيته » . كما كان مدير تحرير مجلة « الديمقراطية الجديدة » ومجلة صوت الشرق .

دوكلو لم يكن لا السياسي المترفع البطر ولا المثقف المتحذلق ، بل كان مزيجا متجانسا من الممارسة والنظرية ، كان يتكلم الى الشعب ويفهم الشعب لانه ينتمي اليه ويناضل من أجل مصالحه ، لذلك لم يخسر تقريبا في حياته جولة انتخابية . أصبح نائب رئيس البرلمان الفرنسي بين عام ١٩٣٦ — ١٩٣٩ وأعيد انتخابه بعد ذلك في مجلس الشيوخ حيث احتفظ بمقعده حتى وفاته .

وكان مرشح الحزب الشيوعي لرئاسة الجمهورية في عام ١٩٦٩ ضد بومبيدو حيث حصل على ٢٢٫٧٪ من أصوات الفرنسيين . من آخر جولاته الشهيرة ، معركته مع وزير الداخلية الفرنسي بونياتوفسكي حول الفاشية والشيوعية ، حيث نعت فيها دوكلو بونياتوفسكي بأنه « فاشستي جبان » . وبغياب دوكلو تتوارى ذاكرة الحزب وانسان قاد الحزب منذ نشأته الى جانب موريس توريز ومارسيل كاشان .

بالنسبة لنا نحن الفلسطينيين يتوارى قائد حزب صديق ، الحزب الشيوعي الذي بدأ يهاجم الصهيونية منذ اوائل الخمسينات « النقد الجديد شباط — ١٩٥٣ » ، والذي وقف الى جانب النضال العربي في بلد يحكمه اعلاميا الاعلام الصهيوني . وفي الخامس من حزيران ١٩٦٧ كانت صحيفة الحزب « الاومانيته » الوحيدة التي هاجمت اسرائيل بينما كان جهاز الاعلام الفرنسي برمته يتغنى بالانتصار الاسرائيلي . وقد صرح مارشيه سكرتير الحزب في أيار ١٩٧٣ « اننا لا نؤيد فقط حقوق الشعب الفلسطيني ، بل سنناضل معه حتى يستعيد هذه الحقوق » كما صرح مؤخرا بأن « الشعب الفلسطيني شعب حقيقي وموجود وله حقوق قومية مشروعة » .

وقد كرست دوريات الحزب في هذا العام والعام الماضي الكثير من صفحاتها للدفاع عن القضية الفلسطينية وهتك حقيقة اسرائيل (يمكن مراجعة مجلتي النقد الجديد وفرنسا الجديدة) .

ان حياة دوكلو رفيق بوليتزر ستكون صوتا هاديا لكل مناضل ، وسوف يكون تراثه العظيم منهلا لا ينضب لكل المناضلين من أجل الحرية والاستقلال وكرامة الانسان .

ف. د.

[٤]

تطور العلاقات النيبالية الاسرائيلية

نيبال مملكة صغيرة داخل جبال الهملايا ، ولا توجد لها منافذ على البحار،ويقدر عدد السكان فيها بعشرة ملايين نسمة ، وتجاورها دولتان كبيرتان هما الصين الشعبية والهند ، وهكذا أثر الوضع الجيوبوليتيكي لنيبال على سياستها الخارجية اذ انها عملت من اجل اتباع سياسة عدم الانحياز ولا يخفى انها تجاور الصين الشعبية ذات النظام الشيوعي بالاضافة الى انها دولة كبرى ، كما تجاور الهند الدولة التي قامت بدور يعتد به في سياسة عدم الانحياز والتضامن الافروآسيوي بالاضافة الى قوتها المتزايدة ، الامر الذي أثر على الحركة الدولية لنيبال .

ركز المنطق الاسرائيلي تجاه نيبال على اشتراك الدولتين في العزلة وللاشتراك في الحركة الاشتراكية الاسيوية وان اسرائيل يمكن ان تقدم نماذج في التنمية تطبقها نيبال ، ويلاحظ ان هذا المنطق لا يستند الى وقائع سليمة ولكن اسرائيل نجحت في اقناع الكثيرين به ، فعزلة نيبال ناتجة عن عوامل طبيعية في المقام الاول اما عزلة اسرائيل فقد ترتبت على وضعيتها الاستيطانية وقيامها على القوة وطردها للسكان الاصليين ، اما الحركة الاشتراكية الاسيوية فقد سعت اسرائيل لاستغلالها لصالحها ، وفيما يتعلق بالنماذج التي يمكن ان تقدمها اسرائيل فانها لا تلائم نيبال وغيرها من الدول النامية لان النماذج الاسرائيلية جاءت نتيجة طبيعتها الاستعمارية الاستيطانية ومواجهتها للسكان الاصليين . اما النماذج الملائمة للدول النامية فهي التي ترتبط بظروف حداثة العهد بالاستقلال ومظاهر التخلف والتبعية الاقتصادية ومشاكل البروز في المجتمع الدولي ... الخ الامر الذي يوضح عدم ملاءمة التجربة الاسرائيلية لنيبال وغيرها من الدول النامية .

وفي يونيو ١٩٦٠ صدر بيان في القدس وكاتامندو خاص باقامة علاقات دبلوماسية وتبادل السفراء ، وقام السفير الاسرائيلي في رانجون بتقديم اوراق اعتماده كسفير غير مقيم في كاتامندو وذلك في ٧ سبتمبر ١٩٦٠ ويتمشى هذا التوقيت مع تكثيف التمثيل الدبلوماسي الاسرائيلي في افريقيا في اعقاب استقلال عدد كبير من الدول الافريقية .

وفي ١٢ أغسطس ١٩٦٠ قام كوارالا رئيس وزراء نيبال بزيارة اسرائيل وحضر المؤتمر الدولي لدور العلم في تقدم الدول النامية برحبوت ، وأشاد البيان المشترك بين الطرفين بالتجربة الاسرائيلية على أن يسافر وفد من الخبراء الاسرائيليين الى نيبال وتقام مؤسسات مشتركة في المجال الاقتصادي وتقدم اسرائيل منح دراسية لطلبة نيبال . وفي ١١ يونيو ١٩٦١ قدم سفير نيبال غير المقيم أوراق اعتماده لدى السلطات الاسرائيلية(١) ويدخل هذا في اطار تجسيد السياسة الاسرائيلية من خلال دبلوماسية القمة وذلك بالاتصال بين القيادة في البلدين واستخدام المؤتمرات العلمية كوسيلة من وسائل السياسة الاسرائيلية .

وتساعد اسرائيل نيبال في المجال الزراعي وقامت شركة سوليل بونيه الاسرائيلية باقامة شركة انشاء مشتركة بين حكومة نيبال واسرائيل تملك نيبال ٥١ ٪ من رأسمالها ، ويتدرب في اسرائيل نيباليون في المجالين المدني والعسكري .

أي ان اسرائيل تتبع اسلوبا عاما مع الدول الصغيرة في آسيا وافريقيا كالزيارات وحضور المؤتمرات وتقديم المساعدات واقامة بعض المشاريع الاقتصادية .

وقام الملك ماهندرا ملك نيبال بزيارة اسرائيل في سبتمبر ١٩٦٣ وركز البيان المشترك الصادر عن الزيارة على العمل من أجل تحقيق الوحدة الاقليمية للدول والتخلي عن التهديد باستعمال القوة(٢)، ويعكس هذا البيان خصائص السياسة الاسرائيلية في ذلك الوقت ، بالسعي نحو ضمان الوجود الاسرائيلي والتخلي عن التهديد باستخدام القوة ، كما يوضح ذلك فاعلية السياسة الاسرائيلية تجاه نيبال وذلك باقناع الاخيرة بمنطق السياسة الاسرائيلية .

وذكر مصدر اسرائيلي ان نيبال امتنعت عن التصويت على القرار الذي صدر ضد اسرائيل في

مؤتمر القاهرة لدول عدم الانحياز عام ١٩٦٤(٣) مما يوضح قوة علاقاتها مع نيبال .

وفي اطار تبادل الزيارات ودبلوماسية القمة قام زلمان شازار رئيس دولة اسرائيل بزيارة نيبال فيما بين ١٥ — ٢٢ مارس ١٩٦٦ وذهب شازار الى ان امل الدولتين هو ايجاد وضع عالمي من شأنه تمكين جميع الشعوب المحبة للسلام من تركيز أنشطتها وعلاقاتها في خدمة بلادها والافادة من مصادر العلم الحديث والتقدم التكنولوجي لتحسين أحوال البشر وان اسرائيل تشعر بتقدير خاص لصداقة دولة آسيوية مثل نيبال . وبين ما ذهب اليه شازار الفرق بين السياسة المعلنة لاسرائيل والسياسة الفعلية ، فالسياسة المعلنة تتمثل في الحديث عن السلام وتحسين احوال البشر والصداقة ، اما السياسة الفعلية فهي سعي اسرائيل لفرض نفسها من خلال القوة واستغلال الوسائل المختلفة لتأكيد هذا الفرض .

وركز البيان المشترك الصادر عن الزيارة على ادانة الاستعمار وتأييد الحركات المناهضة له والاشارة الى تحسن العلاقات بين الدولتين في المجالات المختلفة(٤)، أي ان اسرائيل تحاول ايجاد صيغة مشتركة بينها وبين آسيا وهي محاربة الاستعمار رغم ان اسرائيل تمثل الاستعمار الاستيطاني القائم على اغتصاب الارض وطرد السكان الاصليين .

عندما بحث العدوان الاسرائيلي في الجمعية العامة للامم المتحدة ١٩٦٧ أيدت نيبال مشروع قرار دول عدم الانحياز واعترضت على مشروع قرار دول امريكا اللاتينية اي انها تعتبر من الدول التي أيدت العرب في الامم المتحدة .

وفي ٦ اكتوبر ١٩٦٧ قال وزير خارجية نيبال في الامم المتحدة « ان اول مطلب لتحقيق السلام هو انهاء الاحتلال العسكري وتنفيذ قرارات الامم المتحدة وان نيبال تعترف باسرائيل كدولة ذات سيادة وتأسف للعداء المستمر الموجه اليها وعلى اسرائيل ان تعترف باستقلال جيرانها ووحدة اراضيهم وعلى الدول الكبرى ان لا تتدخل في المشكلة » .

وهذا بين مؤشرات السياسة الاسرائيلية على نيبال وفي نفس الوقت موقف دول عدم الانحياز من اسرائيل فاذا كانت اسرائيل دعيت الى انهاء الاحتلال العسكري فان نيبال تأسف للعداء الموجه اليها مع العلم ان هذا العداء ناجم عن قيام اسرائيل بالقوة وباعتبارها تمثل حركة استعمارية استيطانية ، وبشكل عام يمكن القول ان التصريح في مجمله يعكس ميوعة الموقف النيبالي في ذلك الوقت رغم تأييد نيبال لمشروع قرار دول عدم الانحياز واعتراضها على مشروع قرار دول امريكا اللاتينية .

وفي اطار العرض السابق قال مندوب نيبال في الامم المتحدة ١٩٦٨ ان الوقت قد حان لكي يعترف بأن اسرائيل موجودة ولا يمكن تحقيق السلام بدون انسحاب اسرائيل من المناطق المحتلة وتأييد نيبال لقرار مجلس الامن الصادر في نوفمبر ١٩٦٧ .

وقام ولي عهد نيبال بزيارة اسرائيل في سبتمبر ١٩٦٨ ، وفي فبراير ١٩٦٩ قال وزير خارجية نيبال ان بلاده ترحب بمحاولات الدول الاربع الكبرى لاحلال السلام في الشرق الاوسط وان السلام يمكن ان يتحقق في الشرق الاوسط من خلال تسوية عن طريق التفاوض واحترام سيادة جميع الدول في المنطقة وانهاء حالة الحرب ، اي ان نيبال ترحب بدور الدول الاربع الكبرى في الصراع بعد ان كانت تطالب بعدم تدخلها .

وفي ابريل ١٩٦٩ قال رئيس وزراء نيبال ان نيبال تؤكد قرار مجلس الامن الصادر في نوفمبر ١٩٦٧ وتؤيد دور الدول الاربع الكبرى(٥).

لم يطرأ أي جديد ذات مغزى على العلاقات الاسرائيلية النيبالية في الفترة اللاحقة ، ثم تردد ان اسرائيل ستبعث برئيس الدولة افرايم كاتزير لتمثيلها في احتفالات تتويج ملك نيبال يوم ٧٥/٢/٢٤ ، وتأكد ذلك فيما نشرته الصحف الهندية في ٧٥/٢/١١ . وجاء أول اعلان عن الغاء الزيارة في شكل تصريح لناطق رسمي باسم الخارجية الاسرائيلية في القدس مساء ١٩٧٥/٢/١٨ أعلن فيه ان زيارة الرئيس الاسرائيلي افرايم كاتزير الى نيبال للمشاركة في احتفالاتها قد تم الغاؤها لان الحكومة النيبالية قد أعربت عن قلقها بشأن احتمال قيام عناصر معادية بأعمال عنف . واضاف الناطق ان « جماعات هندية وصينية متطرفة » هي التي يتوقع أن تقوم بهذه الاعمال رغم ان هذه الاعمال لن تكون موجهة ضد اسرائيل .

وفي أعقاب ذلك نشرت الصحف الهندية نقلا عن مصادر رسمية هندية هجوما على تصريح الناطق الاسرائيلي ووصفت الاسباب التي أوردتها لالغاء الزيارة بانها « غريبة جدا » وان الهند لم تسع اطلاقا للتأثير في الجماعات السياسية الموالية لها في نيبال ، وجاء تلميح الى احتمال ان تكون الهند وراء القرار النيبالي بالقول ان الحكومة الهندية تشاورت مع الحكومة النيبالية بشأن ما يجب اتخاذه لمنع حدوث أي حرج . وذهبت الى ان الحجج الاسرائيلية لا وزن لها على الاطلاق بدليل انه لو كانت هناك جماعات هندية وصينية تريد حقا ان تثير اضطرابات فلماذا كانت اسرائيل هي الدولة الوحيدة التي رأت نيبال استبعاد حضورها .

وفسرت مصادر هندية ذلك بأن قرار الحكومة النيبالية قد يرجع الى الرغبة في عدم التسبب في أي احراج للشخصيات العربية التي ستحضر الى كاتاماندو للاشتراك في احتفالات التتويج كما ان نيبال تدرس احتمال الحصول على امدادات بترولية من بعض الدول العربية .

وهكذا يبين العرض السابق ان التصريح الاسرائيلي يعد تبريرا غير صحيح لالغاء زيارة رئيس دولة اسرائيل لنيبال وان موقف نيبال يرجع الى دور الدبلوماسية العربية بالاضافة الى المصالح النيبالية المتزايدة في الدول العربية ، وهذا في حد ذاته يعد فشلا للسياسة الاسرائيلية تجاه نيبال .

يبين العرض السابق اعتراف نيبال باسرائيل وقيام علاقات دبلوماسية بين البلدين ، كما انها أيدت الدول العربية بوجه عام في حرب ١٩٦٧ ، ويفسر موقف نيبال بدور السياسة الاسرائيلية واعتمادها على الاتصالات المباشرة والخبرة والتدريب ودور حزب المؤتمر النيبالي واشتراكه في الاشتراكية الاسيوية حيث تم الاتصال بينه وبين المباي الاسرائيلي ، والدعاية الاسرائيلية التي ارتكزت على ما يسمى باشتراك الدولتين في العزلة والنمو حيث يمكن لاسرائيل ان تقدم تجاربها .

ويعد الغاء زيارة رئيس اسرائيل لنيبال فشلا للسياسة الاسرائيلية وبداية لتطور في الموقف النيبالي من الصراع العربي الاسرائيلي في وقت بدأ فيه العرب يعملون على تحديث سياساتهم الخارجية حتى تصبح اكثر عصرية ويواجهون العالم بمنطق المصالح والعوامل المؤثرة ويعملون على الاستعانة بالكفاءات المتخصصة الاكثر تأهيلا للقيام بالعمل السياسي الخارجي الامر الذي يجب التأكيد عليه باستمرار مع الاهتمام بالدول الصغرى والكبرى على حد سواء من خلال الالمام بأهمية الدول ذات الاوزان المختلفة في السياسة الدولية .

---

١ — دكتور محمد علي العويني ، **العلاقات السياسية بين اسرائيل ودول جنوب وشرق آسيا ١٩٤٨ — ١٩٧٢** . رسالة دكتوراه — كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، جامعة القاهرة ، ص ٤٠١ .

٢ — الكتاب السنوي لحكومة اسرائيل ١٩٦٣/ ١٩٦٤ ، ص ١٥٥ .

٣ — الكتاب السنوي لحكومة اسرائيل ١٩٦٥/ ١٩٦٦ ، ص ١٧١ .

٤ — دكتور محمد علي العويني ، **مرجع سابق** ، ص ٤٠٢ .

٥ — فيما يتعلق بموقف نيبال منذ حرب ١٩٦٧ انظر **نفس المرجع السابق** ، ص ٤٠٣ — ٤٠٤ .
— Misha Ouvish, Israel, *American Jewish Year Book 1967*, p. 429.
— *News From Israel*, Vol. XIX, No. 17, September 1972, Published by the Consulate of Israel, Bombay, India, p. 3.

الدكتور محمد علي العويني

[٥]

اضواء على زيارة دايان لليابان

استقبلت الحكومة اليابانية وزير الحرب السابق الصهيوني موشي دايان استقبالا يليق بقادة عظماء منتصرين ، ذلك عكس ما فعلوه مع وزير دولة بترولية عربية لسنوات خلت عندما قام بزيارة لليابان باسم الدول العربية لكي يشرح للمسؤولين انذاك القضية الفلسطينية والعربية .

لقد اتيحت لدايان فرص كثيرة اثناء وجوده في اليابان ، فقد اجتمع برجال السياسة والاحزاب بشكل عام والقى محاضرات في عدة اماكن من بينها الاكاديمية الحربية « وزارة الحرب » وقد تناولت خطبه الطعن في العرب وقدراتهم واصفا اياهم بالعمل على تنفيذ خطة الابتزاز الدولي وايضا كان يغمز على السلطات اليابانية وينقدها لانها وضعت فريسة الابتزاز البترولي العربي ، مما جعل المسؤولين اليابانيين يعترفون بتسرعهم في تقديم العروض السخية لبعض البلدان العربية المنتجة للنفط وان اليابان في صدد تعديل ما وعدوا به الدول العربية على لسان المبعوثين الثلاثة الذين زاروا الشرق الاوسط اثر حرب اكتوبر ١٩٧٣ . وعلى اساس ذلك فقد ابلغوا دايان ان الحكومة اليابانية ستجد مذرا متذرعة بالصعوبات المالية .

وقد ابدى اكثر من مسؤول ياباني من بينهم رئيس الوزراء والمستر فوكودا رغبتهم في عدم تقديم العون التكنولوجي والاقتصادي لبعض البلدان العربية علما ان اليابان الرسمي والتجاري والحزب الحاكم يعرفون جيدا بان مصالحهم الكبرى هي مع الدول النفطية غير انهم بضغط امريكي وصهيوني يديرون ظهورهم لهذه الحقائق .

ومن المعروف بان زيارة موشي دايان لليابان كانت غير رسمية ولم تأت عن طريق الحكومة اليابانية ، بل عن طريق شركة فلوكسوا المستوردة للبصل من فلسطين المحتلة . ولكن المستر تاكيو ناكاناني — رئيس جمعية الصداقة العربية / اليابانية وهو من الحزب الحاكم ، ووزير مكارثي سابق قد شرح ذلك اثناء لقائه بوفد من منظمة التحرير الفلسطينية في القاهرة اثناء زيارته للشرق الاوسط لتوجيه دعوة الى السيد ياسر عرفات رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية والقائد العام لقوات الثورة الفلسطينية. بالاضافة الى هذه المعلومات فان الحكومة اليابانية اوعزت الى اجهزة التلفزة ، والصحافة ، لابراز زيارة موشي دايان بشكل ملموس في الوقت نفسه فقد اوعزت نفس السلطات لهذه المؤسسات ان تغفل ذكر الاخبار والعمليات الفلسطينية بل طلب منها التركيز على قضية اللاجئين الفلسطينيين ومن هذا المنطق فان المسؤولين والرسميين، وقعوا في غرام الصهيونية العالمية والامبريالية الامريكية ، وذلك على حساب قضية الشعب الفلسطيني العادلة والمشروعة لكي يعود اليه وطنه الام فلسطين .

وخير شاهد على عمق الصلات بين الكيان الصهيوني والحكومة اليابانية هو احتفال الحزب الحاكم ووزرائه بما يسمى بعيد « استقلال اسرائيل » في السادس عشر من ابريل (نيسان) ١٩٧٥ . فاصدرت الصحف الكبرى ملاحق ملونة خاصة بهذه المناسبة وحضر الاحتفال كبار رجال الدولة والحزب ورؤساء الشركات الكبرى : مثل شركة الصلب اليابانية وشركة ميتسوبيشي ، وطوشيبا وعلى رأس اولئك الامير ميكاسا شقيق الامبراطور،وغيرهم . وقد تحدث السفير الصهيوني الجديد « راماتي » محذرا اليابان من الخضوع للابتزاز العربي وكرر قول السفراء الصهاينة اسلافه بان خمسمائة شركة امريكية سوف تقاطع اليابان اقتصاديا فيما لو لانت للسياسة العربية .

ويتضح بشكل بارز عداء اليابان الرسمي السافر للقضية العربية الفلسطينية وذلك من خلال ملاحقة البوليس الياباني المستمرة لكل اولئك الاحرار الذين يساندون ويعطفون على الحق العربي الفلسطيني . ومن بين سلسلة الاجراءات التي تنتهجها سلطات الدولة ضد الاحرار اليابانيين تعيين عدد كبير جدا من رجال البوليس السري في عواصم اوروبا الغربية والشرقية الهدف منها تتبع نشاطات واخبار مؤيدي الثورة الفلسطينية والحق العربي.

ومنذ امد بعيد والحكومة اليابانية تبحث عن وسيلة تستطيع ان تنفذ من خلالها الى قلب زعماء

الصهيونية العالمية ، فقد وجهت جل انشطتهـا واهتمامها بواسطة تعيين ضباط امن سريين فـي سفاراتها بالبلدان العربية وبشكل خاص بدمشـق وبيروت حيث يوجد في هاتين العاصمتين العربيتـين حوالي مائة شخص ، ومن بينهم ، شركات يديرها يابانيون تحت اسم ابحاث او دراسات او مكاتب اعلامية وتجارية ، بعضهم تخرج من معهد سبلـين للغة العربية ، ومهمة هؤلاء متابعة ومراقبة انشطة اليابانيين الذين يعملون او يؤيدون منظمة التحرير الفلسطينية كذلـك مراقبـة اعمال وانشطـة الفلسطينيين في البلدان العربية والاجنبية لكي ترفع هذه التقارير الى رئاستهم وبدورها تحولها الـى دائرة الملحق العسكري الصهيوني في طوكيـو ، ثم يتم هضم هذه المعلومات بالتعاون مع الـ سي اي ايه ، الامريكيـة والمخابـرات الصهيونية والمخابرات اليابانية . وهذا يعتبر تدخلا صارخـا من جانب الحكومة اليابانية في الشئون العربيـة . وفي عام ١٩٧٣ في شهر فبراير اكتشفت السفـارة اللبنانية بطوكيو بان وزارة الخـارجية اليابانيـة تطلب تأشيرة لثلاثة اشخاص تبين أنهم موظفون في وكالة المخابرات اليابانية ، يريدون السفر للبنان من أجل متابعة انشطة الفدائيين الفلسطينيين ، وقد رفض قنصل لبنان ذلك واعتبره تدخلا فـي الشئون اللبنانية . مما دفع برئيس دائرة الشـرق الاوسـط ان يفقد اتزانه ويهدد ويتوعد .

اما في الجـانب الاخر فان موظفي كل مـن الخارجية اليابانية والاذاعـة والتليفزيون يعلنون عداءهم للعرب ويقولون بانهم لن يكونوا اصدقـاء للعرب بـل هم اصدقاء لاسرائيـل والصهيونيـة العالمية وان الدليل على ذلك يكمن في ازدياد حجم العلاقات الثقافية والاقتصادية والسياحية بين كلا الجانبين الياباني والصهيوني وذلك من خلال ارقام بنك اوف طوكيو ، أو من خلال التصريحـات والتصرفات للرسميين اليابانيين ، بل أن احزابا تدعي الديمقراطية تقدمت مشروعا للبرلمان تطالب فيه الحكومة التأكيد على صحة علاقات اليابـان باسرائيل وانها ينبغي ان تكون في نفس مستـوى العلاقات مع البلدان العربية . ويبرر هؤلاء ذلـك انهم بحاجة الى النفط العربي .

ودليل اخر نأتي به هو N. H. K. التـي تذيع بواقع عشرين لغة يوميا من بينها العربية وفي هذه البرامج يتركز الاهتمام الاعلامي المقروء والمرئي على اسرائيل ولخدمتها . ونحن نذكر على سبيـل المثال وليس الحصر فتح خط طيران بين طوكيو وتل ابيب من قبل شركة جال اليابانية الرسمية ، هذا ومعروف بان للشركة مكتبا في تل ابيب منذ عـام ١٩٧٢ .

وتقوم الشركـات الصناعية اليابانية وشركـة الطيران اليابانية (جال) هذه الايام بدعوة الالاف من الاسرائيليين للتدريـب في معاهدها وجامعاتهـا ومؤسساتها العلمية والتقنية على نفقتها الخاصة مع الملاحظة بان اعضاء سفارة العدو الصهيوني في طوكيو قد ازداد خلال السنتين الماضيتين بحيـث اصبح في دائرة الملحق العسكري اربعة مساعدين والملحق الثقافي ثلاثة مساعدين والملحق التجاري خمسة مساعدين في الوقت الذي توجه فيه الدعوة الى عدد يعد على اصابع اليد من المسؤولـين العرب بغية التضليل وذر الرماد في العيون .

ففي الاونة الاخيرة ، نشطت سفارة العـدو الصهيوني باليابان بالاتصال بالكتـاب واتحـادات العمال والصحفيين واساتذة الجامعات والمفكرين من اصحاب الرأي لدعوتهم لزيارة فلسطين المحتلة وعلى نفقة سفارة العدو دون الالتفات الى خلفيتهم السياسية او تأييدهم للقضية العربية والفلسطينية .. بالوقت ، الذي يعتقل او يمنع اصدقاء العرب والفلسطينيين من المخلصـين الاحرار اليابانيـين ويستقبل في الوقت نفسه اولئك اصدقاء الصهيونية ومؤيديها علانية وسرا .

أنور عبد الغني عبد الرحمن

[٦]
تجربة المسرح الفلسطيني في الارض المحتلة

قبل الاحتلال الاسرائيلي للضفة الغربية ، كانت الحركة المسرحية تخطو خطواتها الاولى على بداية الطريق ، فقد برزت من خلال المحاولة الجادة التي قام بها المخرج طارق مصاروة حيث اسس فرقة مسرحية تمكنت من تقديم عدة عروض كان من أبرزها مسرحية « مركب بلا صياد » للكاتب الاسباني اليخاندرو كاسونا ، ولم تلبث هذه الفرقة أن تبعثرت تحت وطأة هزيمة حزيران . كما أن بلديتي البيرة ورام الله ، أسهمتا في اضافة شيء ما الى الحركة المسرحية من خلال المهرجانات الصيفية التي كانت تقام في هاتين المدينتين ، حيث يتخلل هذه المهرجانات بعض اللقطات المسرحية التي لم تتطور الى اعمال مسرحية متكاملة ، وذلك لان الاهتمام كان منصبا في هذه المهرجانات على الاوبريت الغنائي والرقصات الشعبية .

وقد رافق هاتين الظاهرتين ظاهرة اخرى تتمثل بالاعمال المسرحية « الساذجة » التي كان يعرضها الطلبة الهواة في بعض المعاهد العلمية ، والتي كان جمهورها يقتصر على المدرسين والطلاب وأولياء امورهم في أحسن الاحوال .

بعد الاحتلال ، جرى تمايز واضح في داخل الحركة الثقافية والفنية في الارض المحتلة فبينما ظهر انحسار ملموس في بعض النشاطات الادبية والفنية التي كانت مزدهرة نسبيا قبل حزيران سنة ١٩٦٧ ، فقد اتسمت الحركة المسرحية بالتسرع والنضج الى حد أنها اصبحت أبرز ظاهرة فنية في أرضنا المحتلة ، ولا يجاريها أي فن من الفنون الاخرى في استقطاب الجماهير والتأثير فيها .

وليس من شك ان البذور التي القيت في تربة بلادنا قبل حزيران قد تركت أثرها على الحركة المسرحية في الارض المحتلة وان كان على نحو متواضع ، الا ان وجود عدد من الشباب الذين درسوا المسرح رغم قلة هذا العدد ، وتوفر عدد لا بأس من الممثلين الموهوبين ، وبالاضافة الى الارهاب الصهيوني الذي يمارس ضد شعبنا ، والذي دفع بالغالبية العظمى من هذا الشعب للتصدي للاحتلال بشتى الوسائل والاساليب، كل هذه مجتمعة أسهمت في بلورة الحركة المسرحية وتناميها .

لقد كان للمسرح النصيب الاوفر في التعبير عن مزاج الجماهير الفلسطينية ، بل تثقيفها وتوعيتها على ضرورة التحرك ضد الظلم والارهاب الذي يفرضه واقع الاحتلال ، وصولا الى تصفية هذا الواقع وتغييره .

في أوائل السبعينات تشكلت في مدينة رام الله مجموعة من الشبان وبينهم فتاة واحدة فقط ، واخذوا ينظمون امسيات يقرأون فيها أشعارا لناظم حكمت وغيره من الشعراء الثوريين ، مصحوبة بالموسيقى وبالحركات التعبيرية التي يؤديها بعض اعضاء المجموعة .

وفي هذه الاثناء بالذات ، كانت هنالك مجموعة اخرى في القدس تتلمس الطريق وتطمح في تأسيس فرقة مسرحية ، وكان يتزعم هذه المجموعة فرنسوا أبو سالم الذي درس الاخراج المسرحي في فرنسا ، وقد تم التنسيق بين المجموعتين ، وجرى اتفاق على تأسيس فرقة « بلالين » أول فرقة للمسرح الثوري في أرضنا المحتلة .

ان استعراض تجربة « بلالين » باعتبارها اقوى الفرق المسرحية في الارض المحتلة يعطي صورة كافية عن أبعاد المسرح الفلسطيني تحت الاحتلال ، ولكن ذلك لا يمنع من الاشارة السريعة الى بقية الفرق المسرحية ونشاطاتها .

فبعد ظهور فرقة « بلالين » ، أخذت تظهر فرق مسرحية متعددة ، فقد أسس عطية أبو رميلة فرقة المسرح التجريبي ، كما تأسست فرقة المسرح الفلسطيني التي قدمت مسرحية « مجمع القبضايات » بالاضافة الى فرقة « دبابيس » وفرقة « بلا ــ لين » التي انشقت عن فرقة « بلالين ». وفوق هذه كلها هنالك فرق اخرى مرتبطة بالنوادي والنقابات كما هو الحال في النادي الارثوذكسي في بيت ساحور ونقابة عمال البناء في رام الله والبيرة .

ان أبرز ما يميز الحركة المسرحية في الارض المحتلة هو اتجاهها الواقعي الثوري ، حيث ان أغلب المسرحيات التي تعرض تنطلق من أرضية الواقع الاجتماعي والقومي الذي يحياه الناس في ظل الاحتلال ، هذا الواقع الذي يجب رفضه والثورة عليه .

ومن هنا فان أغلب النصوص المسرحية التي قدمت كانت نصوصا محلية وضعها كتاب محليون او فنانون عاملون في صفوف الحركة المسرحية ، يستثنى من ذلك فرقة المسرح التجريبي التي قدمت مسرحية « الايدي الناعمة » لتوفيق الحكيم ، وفرقة بلا — لين التي قدمت مسرحية « القاعدة والاستثناء » لبريخت ، وفرقة بلالين التي قدمت من بين بقية اعمالها عملا واحدا مقتبسا وهو مسرحية « ثوب الامبراطور » لاحد الكتاب المصريين .

أما بقية مسرحيات بلالين التي قدمتها حتى الان: قطعة حياة ، العتمة ، نشرة أحوال الجو ، الكنز، تع تأحزفك يا صاحبي ، فهي تعتمد على نصوص محلية يكتبها في الغالب سامح العبوشي او فرنسوا ابو سالم ، ثم يجري التدرب عليها وتعديلها وتنقيحها مرارا من خلال عمليات التدريب والمناقشة الجماعية لمشاهدها وفصولها الى أن يجري اقرارها بصورة نهائية .

ولعل أبرز القضايا والمضامين التي طرحتها هذه المسرحيات تتلخص في النقاط التالية :

أ — انتقاد التخلف الاجتماعي وتسليط الضوء على نماذج اجتماعية رجعية ومتخلفة — قطعة حياة ، العتمة — .

ب — معالجة اوضاع المرأة في المجتمع الفلسطيني ، وضرورة اعطائها الفرصة لممارسة حريتها ومسؤولياتها في المجتمع — قطعة حياة ، العتمة — .

ج — نقد حاد للافكار الغيبية التي تسهم في اشاعة الروح الاتكالية بين الجماهير — نشرة احوال الجو — .

د — ابراز اهمية الارض وضرورة المحافظة عليها وعدم التفريط فيها وصيانتها من طمع الغرباء والغزاة — الكنز — .

هـ — تصوير للاوضاع القاسية التي تعيشها الجماهير في ظل الاحتلال ، وضرورة تجاوز هذه الاوضاع بتوحيد الجهود والتكاتف وتحمل المسؤولية — العتمة — .

و — ابراز الدور القيادي للطبقة العاملة في عملية بناء المجتمع وتطويره من حيث انها الطبقة الاكثر ثورية والمنتجة للخيرات المادية — العتمة —.

واما مستوى الحركة المسرحية في الارض المحتلة، فهو ما زال من حيث الشكل الفني يتسم بالتواضع، ويحمل العديد من أخطاء التجربة الاولى . خاصة وان أغلب المنتمين الى هذه الحركة هم من الهواة الذين لم يلتحقوا بأي معهد للتمثيل ، ومع ذلك فان الحركة المسرحية تتجاوز أخطاءها بسرعة وترفع باستمرار من المستوى الفني لاعمالها . هذا ويجب أن نأخذ بعين الاعتبار ظروف العزلة عن المسرح العربي والعالمي التي يفرضها الاحتلال على الحركة المسرحية الفلسطينية في الارض المحتلة ، بالاضافة الى تضييق السلطات المحتلة نفسها ومراقبتها لاغلب النصوص المسرحية .

ومع ذلك فثمة لمحات فنية تستحق الاهتمام والتقدير في تجربة المسرح الفلسطيني . ففي مسرحية العتمة يمتد التمثيل من خشبة المسرح الى القاعة ، حيث يكون عدد كبير من الممثلين « مندسين » بين الجمهور ، ويباشرون أدوارهم وكأنهم للوهلة الاولى جزء من الجمهور ، ثم ما يلبثون ان ينتقلوا الى خشبة المسرح . ويظل التفاعل بين القاعة وخشبة المسرح مستمرا الى اخر المسرحية . وحتى انه في بعض المواقف تجري عملية اشراك شيقة للجمهور ، الى حد أن هذا الجمهور يتحول نفسه الى جزء من المسرحية.

وثمة لمحة فنية اخرى برزت في مسرحية نشرة أحوال الجو . ففي هذه المسرحية يجري التمثيل على أربع خشبات ، خشبة المسرح الرئيسية ، وثلاث خشبات اخرى موزعة على النحو التالي : اثنتان في وسط القاعة . والثالثة في الركن الايسر المقابل للخشبة الرئيسية ، وقد رتبت المقاعد على نحو يتيح للمتفرجين ان يشاهدوا ما يجري على الخشبات الاربع ، وقد أضفى تنويع المكان وتنقل الممثلين من خشبة الى اخرى حيوية بالغة على مشاهد هذه المسرحية التي قوبلت بالاعجاب والتقدير .

ثمة جوانب اخرى في تجربة المسرح الفلسطيني في الارض المحتلة ، فقد قررت فرقة بلالين تأسيس « جريدة للمسرح » وتعني بذلك ان يقوم عدد محدود من الممثلين باجراء عرض مسرحي لا يتجاوز الخمس دقائق بالقرب من احدى المدارس او على ناحية اجد الشوارع او أي محتشد جماهيري اخر . وذلك بهدف تثقيف الجماهير وتقريب المسرح من دائرة اهتمامها ، ورغم ان الفرقة أجرت تمارين عديدة على هذه الفكرة الا أنها لم تنفذها حتى الان لاسباب تتعلق بظروفها وامكاناتها .

يضاف الى ذلك ان فرقة بلالين اسست مـــا يسمى « أصدقاء بلالين » وتتكون هذه المجموعة من شباب وشابات يهتمون بالمسرح ويحرصون علـــى تشجيعه ، حيث يقومون بالدعاية لاعمال الفرقة ، ويلصقون الاعلانات على الجدران ، ويوزعونهـــا على الجماهير ، ويساهمون في نقل ديكورات الفرقة وغيرها مما يتعلق بنشاطها . وقد أسهم الناقد الادبي محمد البطراوي في تنظيم عدة محـــاضرات عن المسرح كان يستمع اليها أعضاء الفرقة وعدد كبير من أصدقاء بلالين ، كما انه ظهر من بـــين مجموعة الاصدقاء هذه نقاد مارسوا تقييم الاعمال المسرحية المختلفة على صفحات الصحف المحليـــة الصادرة في القدس .

ولكي تغطي فرقة بلالين الفترات الواقعة بين عروضها المسرحية ، فقد قدمت الكثير من العروض الخفيفة التي اطلقت عليها مجازا اسم « بستان بلالين » وذلك لان هذه الاعمال كانت تجري فـــي الهواء الطلق داخل الحديقة الواسعة التي تحيط بمقر الفرقة ، والى جانب هذه العروض التي كان من أبرزها « يونس الاعرج » لناظم حكمت ، فقد لفت النظر نشاط فرقة الفنون الشعبية التابعة لبلالين ، بما قدمته من رقصات شعبية تحت اشراف الفنان زكريا شاهين ، وأيضا الاغاني الشعبية التي برع في تقديمها الفنان الشعبي مصطفى الكرد.

وقد تجلت قدرات فرقة بلالين ومـــدى التطور الفني الذي أحرزته في مسيرتها التي جاوزت الاربع سنوات ، من خلال المهرجان الكبير الذي نظمته في مدينة رام الله في صيف سنة ١٩٧٣ ، وقدمت خلاله ستة عشر عرضا . حازت على اعجـــاب وتقدير الجماهير العريضة نسبيا التي بادرت الى مشاهدة اعمال المهرجان من كافة المدن والقـــرى في الارض المحتلة ، وقد برزت في هذا المهرجـــان مواهب عدد من الممثلين .

ورغم النجاحات التي احرزتهـــا حركة المسرح الفلسطيني ، فثمة صعوبات جدية تعترض طريق تطورها . وعلى حل هذه الصعوبات يتوقف مستقبل تطور هذه الحركة نحو آفاق ارحب وأعمق . فان تكاثر الفرق المسرحية علـــى نحو ملفـــت للنظـــر وتشرذمها وانشقاقها كما حدث في فرقة بلالين أدى الى نوع من الفتور والتراجع لدى بعض العاملين في المسرح ، كما أدى الى خلق انطباع سلبي لدى الجمهور ، خاصة وان هذا الجمهور لا يملك تقاليد راسخة في الاهتمام بالمسرح ، وذلك لان المسرح نفسه حديث عهد بالنسبة لمجتمعنا الفلسطيني ، وقد ظهرت مؤخرا محاولات جادة للتنسيق بـــين الفرق المسرحية المختلفة على أمل توحيدها في فرقة واحدة ، او على الاقل الاستفادة المتبادلـــة من خبراتها وتجاربها .

وهنالك أيضا نقص فادح وخطير في الممثلات ، حيث أن الطبيعة المحافظة لمجتمعنا ما زالت تعيق الفتاة على الظهور علـــى خشبـــة المسرح تحت اعتبارات لا تخدم اطلاقا مصلحة جماهيرنا وشعبنا، وفي هذه الحالة فان الحركة المسرحية تظل تفتقر الى ركن أساسي من اركان العمل المسرحي .

كما ان الظروف المادية للفرق المسرحية تشكل هما اخر من هموم الحركة المسرحية ، فالممثلون ليسوا محترفين في غالبية الفرق الموجودة ، وهم مضطرون الى البحث عن عمل يعتاشون منـــه . وهذا يأتي على حساب اهتمامهم بالمسرح وانقطاعهم عنه مما يؤثر على مستوى أدائهم الفني .

وثمة صعوبة اخرى وهي عدم توفر القاعـــات المناسبة في الكثير من مدن الارض المحتلة ، ممـــا يعيق انتقال الفرق المسرحية التي تتواجد كلهـــا تقريبا في القدس ورام الله ، الى هذه المدن لتقديم عروضها المسرحية فيها ، علما بأن فرقة بلالين قامت بتقديم بعض اعمالها في عدد من القـــرى الفلسطينية وفي الهواء الطلق . كمـــا ان الفرق المسرحية تجد صعوبة في توفير مقرات لها للتدريب والاعداد ، مما يضطرها الى استئجار قاعـــات المدارس والاديرة لاجراء تمارينها ، وفي هذا ارهاق

مادي لميزانياتها المتواضعة .

يضاف الى ذلك أن مسألة النص المسرحي تشكل عبئا على كاهل الحركة المسرحية الفلسطينية ، حيث لا توجد نصوص محلية جاهزة ، وتزهو بعض الفرق وخاصة بلالين عن تقديم نصوص اجنبية جاهزة ، وذلك حرصا منها على الالتصاق بالواقع المحلي والتعبير عنه ، مما يضطرها الى تأليف نصوصها بنفسها ، وفي ذلك عدة محاذير منها التحسب من ضعف النصوص التي يكتبها اعضاء الفرقة ، وكذلك ارهاق الفرقة لنفسها بالقيام باعباء أكبر من طاقتها .

في الجانب الاخر ، هناك ظاهرة يجب الاحتراس منها تماما ، ذلك ان سلطات الاحتلال أقامت في القدس مركز بيت داود ، وقد افتتح هذا المركز دورات لتعليم المسرح والموسيقى والرقص ، وتأسست فيه فرقة مسرحية اطلقت على نفسها اسم « المسرح الحي » وقامت بعرض مسرحية « الحلاب » ، ويهدف هذا المركز الى اجتذاب الشبيبة الفلسطينية على أمل صرفهم عن الطريق الذي اختاره شعبهم بكل تصميم وهو طريق مقاومة الاحتلال وتحرير ارض الوطن ، وتقوم الحركة الوطنية الفلسطينية في الداخل بكشف المخططات الخبيثة التي تكمن خلف النشاطات الظاهرية لهذا المركز الصهيوني ، وذلك من أجل شل نشاطه وابعاد الشبيبة الفلسطينية عن أجوائه المسمومة.

وبعد ، فان الحركة المسرحية الفلسطينية في الارض المحتلة تحظى باهتمام الحركة الوطنية في الداخل ، كما تحظى باحترام وتقدير جماهيرنا الشعبية الفلسطينية ، وهي قادرة بالتزامها خط التعبير عن المصالح الاجتماعية والقومية للجماهير الشعبية ، ومعاداة الاحتلال الصهيوني وتعريته والتحريض عليه ، أن تستقطب قطاعات اوسع من الجماهير ، وبذلك تصبح شوكة في حلوق الغزاة ، وتستطيع ان تتطور لتصبح حركة مسرحية ناجحة الى حد كبير .

محمود شقير

شهريات

(١) المقاومة الفلسطينية

الوضع في لبنان : في الخامس عشر من أيار (مايو) الماضي قدم السيد رشيد الصلح ، رئيس الوزراء اللبناني ، استقالة حكومته معلنا في مجلس النواب تحميل الكتائب مسؤولية مجزرة عين الرمانة (في ١٣ نيسان ــ ابريل) والصدامات المسلحة التي تلت تلك المجزرة . وقد جاء في البيان الذي ادلى به أمام مجلس النواب « ان حزب الكتائب يتحمل المسؤولية الكاملة عن المجزرة وعن المضاعفات التي أعقبتها والضحايا والاضرار المادية والمعنوية التي لحقت بالبلاد نتيجة لها ، وقد ثبت ذلك منذ اللحظة الاولى للجريمة البشعة ، ومن خلال اصرار هذا الحزب على عدم استنكار الجريمة وممانعته في تسليم المسؤولين عنها طوال ثلاثة ايام ، ثم اقراره الصريح والعلني بالمسؤولية من خلال تسليمه اثنين من مرتكبي المجزرة ووعده بتسليم آخرين » واضاف البيان انه « منذ مدة طويلة دأب حزب الكتائب من خلال كل مواقفه على التحضير السياسي والمعنوي والمادي والعملي لمثل هذه الاعمال . فالمذكرات التي توالت لمناسبة ومن دون مناسبة تطرح مسألة الوجود الفلسطيني في لبنان وتدعو صراحة الى التصدي له ، وتحرض عليه ، والدعوة المستمرة الى الخروج على سياسة الدولة الرسمية المعتمدة حيال العلاقات اللبنانية ــ الفلسطينية واللبنانية ــ العربية ، وهي الدعوة التي تصاعدت بشكل مفتعل مع رسوخ دور لبنان في مساندة النضال الفلسطيني كما تجسد في الالتزام بمقررات مؤتمرات القمة العربية وفي سفر فخامة رئيس الجمهورية الى الامم المتحدة لعرض القضية الفلسطينية باسم العرب جميعا ، كل هذا التحضير السياسي الكثيف المتوسل اثارة النعرات الطائفية، كان يرافقه تحضير عسكري محموم تمثل في اقامة ميليشيا مجهزة بأسلحة يجري الحصول عليها بكثافة وبتسهيلات من جهة معروفة ... هذه الحقائق كلها مهدت لمجزرة عين الرمانة وتأكدت بعد المجزرة المذكورة حين اتضح ان حزب الكتائب يرمي الى توسيع الصدام وتحويله الى صدام شامل من خلال طلب توريط الجيش وزج الدولة في عملية مواجهة مع الاخوة الفلسطينيين ومع الكثرة الساحقة من اللبنانيين الذين لا يرون رأي الكتائب » .

لقد وضعت استقالة الصلح الازمة على أبواب مرحلة جديدة متطورة ، فهي من جانب فتحت المجال امام الكتائب في ظل غياب سلطة سياسية تمارس مسؤوليات الامن ، لتصعد استفزازاتها المسلحة وتسعر عدوانها ، خاصة وقد امتنع الرئيس الصلح منذ لحظة استقالته عن « تصريف الامور » وهي المهمة التي يخولها الدستور للحكومة المستقيلة بانتظار قيام حكومة جديدة . وهي من جهة ثانية وضعت الحلم الكتائبي بتدخل الجيش ليحسم الموقف ، لمصلحتها طبعا ، على شفا التجسيد العملي بعد ان كانت الحكومة المستقيلة ، او بتعبير أكثر دقة رئيسها بالتحديد ، قد أحجم عن انزال الجيش الى الساحة ليجنب البلاد أزمة شبيهة بتلك التي عصفت بها في ربيع ١٩٧٣ . وباستقالة الصلح الذي كان قد تجاوب مع الحركة الوطنية اللبنانية في عدم زج الجيش في الصراع انتعش الامل الكتائبي بتوريط الجيش في الصراع بعد ان انتفى المانع . كذلك فقد كشفت الاستقالة وما تبعها من احداث عمق الازمة التي يعيشها النظام اللبناني بمجمله ، وهي ازمة تسفر عن وجهها ــ بسبب الوضع الطائفي المستحكم (وهو وضع له جذوره الاجتماعية ــ الاقتصادية) ــ بأن تشكيل حكومة جديدة في ظل صراع القوى التقليدية

من جهة وتحالفاتها المصلحية من جهة ثانية يصبح أمرا يمر بمخاضات عسيرة وخطرة في كل مرة ، يستفيد منها على الاغلب حزب الكتائب الذي هو القوة الاكثر تنظيما وتشرشا في البنية الطائفيـــة في لبنان .

ان هذه الاعتبارات جميعها لا يمكن فصلها عن استئناف الكتائب تحرشاتها المسلحة بهدف ابقاء الوضع متفجرا منذ الساعات التي أعقبت استقالة حكومة السيد رشيد الصلح وفي الوقت نفسه الذي كان فيه الرئيس سليمان فرنجية يجري مشاوراته النيابية لتأليف حكومة جديدة . فعلى الرغم من ان حركة المقاومة كانت في صدد تهدئة الاوضاع وهو مسعى وصل قمته في اللقاء الذي تم عشية استقالة الوزارة (في ١٤/٥) بين الاخ ياسر عرفات والرئيس فرنجيه وحضره السفيـــران المصـــري والسعودي بهدف « البحث في مسألة وضع أسس ثابتة تحول دون تكرار الحوادث الاخيرة انطلاقا من تطبيق اتفاق القاهرة نصا وروحا » كما اوردت ذلك الانباء الصحافية ، على الرغم من ذلك فقد كان تسخين الازمة بعد استقالة الحكومة هـــدفا كتائبيا يأخذ الاعتبارات السابقة في الحسبان . فمنذ ليلة ١٨ أيار (مايو) بدأت عناصر كتائبية مسلحة تتمركز في الدكوانة تقصف مخيم تل الزعتر المجاور ، وفي الوقت نفسه ركزت الدعاوة الكتائبية على المطالبة بنقل المخيم الى خارج المنطقة . وقد أصدرت قيادة الثورة الفلسطينية بيانا (نشرته وفا ٢٠/٥) اعتبرت فيه ان « ما يجري فوق الساحة اللبنانية حلقات من مسلسل متكامل يخضع لخطة شاملة ، تذكرنا بالمخطط التآمري الذي تعرض له شعبنا وثورته في الساحة الاردنية ، وهو المخطط الذي تحاول الكتائب اللبنانية تمريره في لبنان » . واضاف البيان « ان الحديث عن ترحيل أهـل تل الزعتر ليس الا ذريعة وخديعة ـــ تذكرنا بمطالب مماثلة كان يسوقها عملاء النظام الاردني ـــ بقصد الاستفزاز وتصعيد التوتر ، بهدف التفجير الكامل للاوضاع وتجريد الساحة اللبنانية من التواجد الفلسطيني الثوري . وهذا ما يكشف عنه تركيزهم المستمر بالقصف والرماية بمختلف الاسلحة عـلى أهلنا في هذا المخيم » . وحذر البيان من ان الثورة الفلسطينية « لن تسمح لاية مؤامرة ان تمر ولا لاية قوة معادية ان تنال من الشعب الفلســطيني وثورته » .

كان الهدف الكتائبي من تصعيد الاشتباكات ومن حملة الرعب التي قادتها بعد ذلك وتجلت بعمليات الخطف والارهاب والتعذيب السادي الذي يتعرض له المواطنون والمقيمون والذي غلف بغلاف طائفي ، كان الهدف واضحا : (١) على صعيد المقاومة ، استنزاف جهدها ، أولا ، بمعارك متصلة وبأزمات متلاحقة تذكر بما قام به النظام الاردني في الفترة ما بين شهري حزيران وأيلول من العام ١٩٧٠ ، وثانيا احلال الصراع ، والصدام المسلح ، كمضمون للعلاقات الفلسطينيـــة ـــ اللبنانية بديلا للتعايش المحكوم بجملة الاتفاقات التي تنظم هذه العلاقات ، وثالثا محاولة الاساءة للثورة بتأليب جزء من الرأي العام ضدها وهي مضطرة ـــ في تصديها للقتال المفروض عليها ـــ للرد على العدوان بعمل مسلح مماثل يصيب بالضرر ليس الكتائب وحدها وانما قطاعات أخرى من الشعب اللبناني غير متورطة في القتال . وقد توضح هذا الهدف الاخير في تمركـز مسلحي الكتائب في بعض الاحياء السكنية (الدكوانة وعين الرمانة) وقصفهم المواقع الفلسطينية منها وهو أمر يحتم تعرض هذه الاحياء للقصف المضاد . (٢) اما على الصعيد اللبناني فان تفجير أزمة ـــ واطالتها ـــ تأخذ الطابع الطائفي من شأنه ان يعزز مواقع الكتائب الطائفية في القطاع المسيحي ، الامر الذي يعطي للصراع بمجمله ، سواء منه الموجه ضد المقاومة الفلسطينية او الحركة الوطنية التقدمية الحليف الطبيعي للمقاومة ، مضمونا طائفيا تظهر فيه الكتائب وكأنهـا المدافعة عـن مصالح الطائفة التي تنتمي اليها ، كما تبدو فيها ، بحكم انها الاقوى والاكثر تنظيما ، ناطقة باسم المسيحيين في البلد او باسم نصف لبنان . وان هـذا الهدف بالتأكيد هو الهدف الاستراتيجـي الذي تسعـى الكتائب اليه لانها بذلك تضمن ، من خلال هيمنتها المعنوية والسياسية ، كبح أي اتجاهات تقدمية في الاوساط المسيحية يمكن ان تمس البنية الاجتماعية ـــ الاقتصادية للوضع اللبناني الراهن الذي يتيح امتيازات واسعة للطبقة البرجوازية اللبنانية التي تنتمي اليها الكوادر القيادية العليا في الحزب . واذا نظر بعين الاعتبار الى اقتراب موعد الانتخابات النيابية اللبنانية ، ومن ثم اختيار رئيس للجمهورية عند انتهاء ولاية الرئيس الحالي في العام ١٩٧٦ ، يصبح تكريس الكتائب نفسها ناطقة باسم المسيحيين ومتمتعة بنفوذ منظم في صفوفهم مهمة مركزية راهنة

تجعل المغامرة الكتائبية في اشعال حرب طائفية أمرا مفهوما .

اما بالنسبة لتوريط الجيش في الصراع ، فقد رحبت الكتائب بحكومة العسكريين التي تشكلت في ١٩٧٥/٥/٢٢ ، ظنا منها ان الجيش بذلك قد زج في الصراع . وقد جوبهت حكومة العسكريين بردة فعل شعبية اتسمت بالحدة والرفض الحاسم . وازاء ذلك حاولت الحكومة ان تطمئن المقاومة بأن الحوار سيظل قائما معها . ففي المؤتمر الصحافي الذي عقده العميد موسى كنعان ، وزير الاعلام ، (في ٥/٢٤) قال « عندما استدعانا فخامة الرئيس كان توجيهه الاول هو استئناف الحوار . هذا الحوار واقول استئنافه او متابعته لانه في نظرنا لم يتوقف على كل المستويات من اعلاها الى ادناها ، هذا الحوار مع الاخوة الفلسطينيين كنا نحن العسكريين قد حملنا الجزء الاكبر منه في ما مضى وما زلنا نحمله وسنتابعه بروح منفتحة اخوية شأننا قبلا . هذا الحوار الذي كانت سدته الموقف الرسمي المعلن بلسان أعلى سلطة وطنية من على أعلى منبر دولي ، أعني الامم المتحدة ، هذه المهمة التي تولاها وبكل جدارة واعتزاز فخامة الرئيس في الامم المتحدة . هذه سدة الحوار ، اما لحمته فهي الاتفاقات الماضية والمعقودة مع الاخوان الفلسطينيين ابتداء باتفاق القاهرة وانتهاء باتفاقات ملكارت . هذه الاتفاقات التي يحرص الجانبان على الالتزام بها والتمسك بمضمونها والتي تهدي جميع المحاورين وهم يستقون منها ما يلزم من مواضيع ومن طريقة لمعالجة ما يطرأ . فليكن معلوما عند الجميع انه لم يتبدل شيء فالموقف الرسمي هو هو والالتزامات هي هي والاتفاقات هي هي » . كذلك حرص العميد سعيد نصرالله ، وزير الداخلية ، على اصدار بيان قال فيه « ان نضال الشعب الفلسطيني وثورته الرائعة أمانة في عنق لبنان لم يفرط بهما يوما ولن نسمح لاحد بالتصدي لهما ، فالقضية الفلسطينية تبقى قضية لبنان الاولى . ومن أجل ذلك لا بد لنا من ان نشدد على التنسيق وفقا للاتفاقات السارية المفعول » .

على الرغم من هذه « التطمينات » فان الوضع الشعبي لم يكن ليحتمل وجود حكومة عسكرية . وكان رفض الحكومة متعدد البواعث بدءا من الحرص على المقاومة ومرورا بالمحافظة على الحريات الاساسية للمواطنين والخشية على الحركة الوطنية التقدمية وانتهاء بالمحافظة على التقليد الديموقراطي البرلماني . وعلى الرغم من اختلاف البواعث فقد ظهر وكأن هناك جبهة موحدة رافضة مارست مختلف الوسائل لاسقاط الحكومة . وقد دعم ذلك بالتوسط السوري الذي اخذه على عاتقه السيد عبد الحليم خدام ، نائب رئيس الوزراء وزير الخارجية السوري ، واللواء ناجي جميل ، نائب وزير الدفاع قائد القوات الجوية السورية ، اللذان وصلا الى بيروت في ٢٤ أيار . وقد أسفر الضغط الشعبي والتوسط السوري عن حل استقالت به حكومة العسكريين في ٥/٢٦ بعد مضي ٦٥ ساعة على تأليفها . وبنتيجة استشارات نيابية سريعة قام بها الرئيس فرنجية تم تكليف السيد رشيد كرامي بتأليف وزارة جديدة .

ان الصورة حتى كتابة هذه الشهريات تبدو ملامحها كالاتي : على جانب المقاومة لم تتمكن الازمة من ابتزاز تنازلات منها ، كما ان المقاومة نجحت في تحييد السلطة (ظاهريا على الاقل) وحصرت الصراع مع الفئة الانعزالية المتمثلة في حزب الكتائب وحلفائها . ومن جهة ثالثة عززت الازمة وكرست التحالف ما بين حركة المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية التقدمية في لبنان . على الصعيد اللبناني ظهر واضحا ان اطالة أمد الازمة وهو هدف تسعى اليه الكتائب وعملت من أجله فعلا من خلال عمليات الرعب التي قادتها ووضع العراقيل في وجه تشكيل الحكومة ، يخدم في المدى القريب الكتائب نفسها اذ تتمكن في ظلها من القيام بحملات التعبئة الموجهة ضد كل ما هو تقدمي في البلد . غير ان استمرار الازمة الى الدرجة التي تصيب الاقتصاد بالشلل التام لا بد ان يجعل قطاعات مهمة في لبنان تعيد النظر في الموقف لغير مصلحة الكتائب . من جانب مقابل فقد تأكدت قدرة الحركة الوطنية اللبنانية على تعبئة اوسع الجماهير من اجل الدفاع عن مكتسباتها والتصدي لخصومها . كذلك فقد ظهر ان الشارع الوطني في لبنان قادر على ان يجر الى مواقعه المتقدمة حتى القيادات الاكثر تقليدية في البلد .

القيادة الفلسطينية — السورية الموحدة : في اثناء الازمة التي فرضت على المقاومة في لبنان تلقت اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية (في ٥/٢٢) رسالة من الحكومة السورية بأسماء

الوفد السوري الذي سيجري المباحثات مع وفد المنظمة بشأن الوحدة السورية الفلسطينية . وكان التوقيت اختيارا ذا معنى خاص تأكدت اهميته ودلالته في الاشارة ذات المغزى التي أوردها السيد عبد الحليم خدام اثناء زيارته الى بيروت عندما سأله الصحافيون ان كان يحمل رسالة من الفريق حافظ الاسد الى الاخ ياسر عرفات فأجاب بأن ثمة قيادة واحدة ولا رسائل ما بين القيادة الواحدة . كما تأكدت الاهمية نفسها في الاجتماع الطارىء الذي عقدته القيادة العسكرية الفلسطينية ـ السورية وتناولت فيه بالبحث الاوضاع في لبنان واتخذت القرارات المناسبة لمعالجة الوضع الراهن (وفا ٥/٢٤) . كذلك تشكيل الوفد السوري بحد ذاته كان اشارة الى الاهمية التي تعلقها سوريه على هذه المحادثات فقد تشكل الوفد من السادة : عبدالله الاحمر ، الامين العام المساعد للقيادة القومية لحزب البعث ، ومحمود الايوبي ، رئيس مجلس الوزراء ، ومحمد علي الحلبي ، رئيس مجلس الشعب ، ومحمد جابر بجبوج ، الامين القطري المساعد ، وعبد الحليم خدام ، وزير الخارجية ، ومحمد حيدر ، نائب رئيس الوزراء للشؤون الاقتصادية ، وباقر ياسين وفؤاد صباغ وسهيل سكرية ، اعضاء القيادة القومية ، واللواء مصطفى طلاس وزير الدفاع عضو القيادة القطرية ، وعبد الغني قنسوت ، عضو القيادة المركزية للجبهة الوطنية التقدمية . وفي المقابل شكل الوفد الفلسطيني من السادة خالد الفاهوم ، رئيس المجلس الوطني الفلسطيني ، رئيسا وعضوية عبد العزيز الوجيه وحامد ابو ستة ، وياسر عبد ربه وزهير محسن وعبد المحسن ابو ميزر ومحمد زهدي النشاشيبي ، اعضاء اللجنة التنفيذية .

وقد عقد الوفدان خلال شهر أيار اجتماعين في دمشق الاول في ٥/٢٥ صرح اثره الاخ عبد المحسن ابو ميزر ، الناطق الرسمي الفلسطيني ، بأن « الاجتماع كان ناجحا للغاية وسادته روح الاخوة النضالية والتفاهم المشترك لطبيعة المرحلة التي تمر بها القضية العربية . وقد استعرض الوفد الفلسطيني مع الاخوة المسؤولين في القطر العربي السوري تطورات الاحداث على الساحة اللبنانية واحتمالاتها وآثارها وكان هناك تطابق في الرأي بهذا الخصوص » . اما الاجتماع الثاني فقد عقد يوم ٥/٢٧ وذكرت « وفا » ان الجانب الفلسطيني عرض تصورا محددا للاهداف العامة لتجسيد المبادىء الوحدوية وثمن الدور الذي تلعبه سوريه لانهاء الازمة التي يجتازها لبنان بما يضمن سلامة لبنان وحماية الثورة .

المجلس الوطني الفلسطيني : اتخذ المجلس المركزي لمنظمة التحرير الفلسطينية ، وهو الحلقة الوسيطة ما بين المجلس الوطني الفلسطيني واللجنة التنفيذية ، قرارا في اجتماعه الذي عقده يوم ٥/١٩ بتأجيل انعقاد المجلس الوطني الذي كان من المقرر عقده في حزيران الماضي . وقد أوضح الاخ خالد الفاهوم هذا القرار بتصريح ادلى به لوكالة الانباء الفلسطينية « وفا » (٥/٢٠) قال فيه ان المجلس المركزي استمع الى عدة آراء حول الموضوع وقد أحيلت هذه الآراء الى اللجنة التحضيرية التي كلفها المجلس الوطني في آخر اجتماع له في حزيران ١٩٧٤ . وذكر ان معظم آراء اعضاء المجلس المركزي كانت تدور حول الابقاء على المجلس الحالي مع توسيعه بحيث يشمل ممثلين عن الكفاءات الفلسطينية المناضلة من مختلف أماكن تجمع الفلسطينيين ومع اجراء بعض التوسع في تمثيل المنظمات الشعبية الفلسطينية كما جرى التأكيد على ضرورة تمثيل الفلسطينيين في الاراضي الفلسطينية المحتلة في المجلس الوطني . وبالنظر الى بعض الاجتماعات السياسية الهامة التي ستتم في شهر حزيران وبشكل خاص لقاء سالزبورغ ومؤتمر القمة العربي المقبل رؤي باجماع كافة أعضاء المجلس المركزي انه من الافضل تأخير عقد المجلس الوطني لمدة اقصاها شهران بحيث يتم في أوائل تموز وأوائل آب المقبل بدلا من أوائل حزيران كما ورد في النظام الاساسي للمجلس الوطني .

العلاقات الدولية

● أصدر الرئيس موبوتو ، رئيس زائيري ، بيانا في ٥/١٥ أعلن فيه موافقته على انشاء مكتب لمنظمة التحرير الفلسطينية في كينشاسا وقد جاء ذلك في اثناء مقابلة تمت بينه وبين وفد فلسطيني يزور زائيري .

● قررت م ت ف أن يشارك وفد فلسطيني برئاسة الاخ عبد العزيز الوجيه ، عضو اللجنة التنفيذية ، في اجتماعات منظمة العمل الدولية التي بدأت أعمالها في جنيف في حزيران الماضي . ويضم

الوفد ممثلين عن الاتحادات الشعبية والمجلس الوطني الفلسطيني . وقد صوتت منظمة العمل الدولي يوم ٦/١٢ الى جانب قرار يقبل م ت ف عضوا مراقبا في المؤتمر وبمجرد التصويت على القرار انسحب الوفدان الاسرائيلي والاميركي من المؤتمر .

● أعلنت مالطا موافقتها على فتح مكتب ل م ت ف في فاليتا وقد جاء ذلك في البيان المشترك الصادر في ٥/٢٠ في كل من طرابلس وفاليتا عقب الزيارة التي قام بها دوم منتوف ، رئيس وزراء مالطا ، الى ليبيا .

● طالبت اللجنة التنفيذية ل م ت ف برد عربي حازم على الموقف العدائي الذي اتخذته دول السوق الاوروبية المشتركة بابرامها اتفاقية تجارية مع اسرائيل . وقد أعلن ذلك الاخ عبد المحسن ابو ميزر في تصريح ل « وفا » (٥/٢١) قال فيه « ان اقدام دول السوق على توقيع الاتفاقية قد شكل ضربة للغاية المتوخاة من الحوار العربي — الاوروبي ، وهي المساعدة على تطوير مواقف الدول الاوروبية الغربية بما ينسجم مع المصالح التي تربطها بالدول العربية ، وبما يخدم مبادىء العدالة والشرعية الدولية . لقد جاء توقيع الاتفاقية مع الكيان الصهيوني بمثابة دعم مباشر لاغتصاب الاراضي العربية والحقوق الوطنية للشعب العربي الفلسطيني ، كما انه يشكل تشجيعا مباشرا لسياسة اسرائيل التوسعية العدوانية » . وأعلن ابو ميزر « ان اللجنة التنفيذية ابلغت الدول العربية عبر اجتماع الخبراء العرب [الذي عقد آنذاك] في مقر الامانة العامة لجامعة الدول العربية بالقاهرة مطالبتها برد عربي حازم على هذا الموقف . وأوضحت اللجنة في طلبها بأن كل دعم مالي او اقتصادي تقدمه اية دولة عربية لدول السوق الاوروبية المشتركة بعد هذه الاتفاقية انما يشكل دعما غير مباشر لاقتصاد الكيان الصهيوني» .

● أعلن الاخ جمال الصوراني ، ممثل م ت ف في مصر ، اثناء زيارته الى جاكارتا (٥/٢٤) انه تم الاتفاق خلال اجتماعه مع السيد آدم مالك ، وزير خارجية اندونيسيا ، على افتتاح مكتب ل م ت ف في جاكارتا .

● ذكرت « وفا » (٥/٢٨) ان الحكومة الكمبودية طلبت من م ت ف ارسال وفد لاستلام المقر الذي كانت تشغله السفارة الاسرائيلية في بنوم بنه .

● صدر بيان (٦/٦) عن وزارة الخارجية والدفاع في سري لانكا يقول ان الحكومة وافقت على السماح للمنظمة بفتح مكتب لها في كولومبو . وأعلن البيان ان الحكومة في سري لانكا وقفت دائما الى جانب الحقوق الشرعية للشعب العربي الفلسطيني وانها اعترفت اخيرا بأن م . ت . ف . هي الممثل الوحيد لهذا الشعب .

● اجتمع الاخ ابو عمار (٥/١٦) في طرابلس اثناء زيارته الى ليبيا لافتتاح اسبوع فلسطين بالسيد اليكسي كوسيجين .

● في ٥/٢٢ تم لقاء في بيروت بين الاخ ياسر عرفات والسناتور الاميركي هوارد بايكر ، عضو لجنة العلاقات الخارجية . وقد ذكرت « النهار » (٥/٢٣) ان بايكر قال في اللقاء « جئت الى هنا لاسمع لا لاعطي نصائح . جئت لاسمع وجهة نظر رئيس اللجنة التنفيذية ل م ت ف ، لا لانقل أي شيء خاص . ان من اهداف جولتي الحالية في بعض دول الشرق الاوسط الاجتماع بك » . وقال الاخ ابو عمار « ان اميركا التي تدعي انها واقعية في سياستها تتصرف في شكل غير واقعي وغريب جدا تجاه قضية الشعب الفلسطيني وحقوق هذا الشعب. ان اميركا تتجاهل هذه الحقوق ولا تعترف بالفريق الفلسطيني الذي يشكل العنصر الاساسي في النزاع والذي من دونه لا يمكن تصور حل . واميركا لا تريد الاعتراف بحقوق الفلسطينيين ولا تريد رؤية الحقيقة » . وتحدث بايكر عما سماه الارهاب الفلسطيني ورد ابو عمار « لماذا الشعب الفلسطيني هو الشعب الوحيد في العالم الذي يسمي البعض نضاله من اجل تحرير بلاده ارهابا ؟ حين تضرب اسرائيل النساء والاطفال والمدنيين العزل بكل انواع الاسلحة أليس هذا هو الارهاب ؟ لماذا الضحية هي دائما المذنبة والمذنب الحقيقي هو البريء » . وأوضح ابو عمار الموقف الفلسطيني بكل تفاصيله وكان واضحا ودقيقا .

● استقبل ابو عمار على رأس وفد من م ت ف يوم ٦/٨ في بيروت وفدا من الحزب الشيوعي الفرنسي برئاسة السيد بول لوران ، عضو المكتب السياسي — امين سر اللجنة المركزية للحزب . وفي جلسة المحادثات التي عقدت في اليوم نفسه اكد

وفد الحزب الشيوعي الفرنسي (كما أوردت « وفا » ٦/٩) انه جاء ليتسق مع م ت ف التي تقود نضال الشعب الفلسطيني من أجل استعادة حقوقه الوطنية المشروعة . كما اكد الوفد أيضا بأن الشيوعيين الفرنسيين ومعهم قطاع واسع من الشعب الفرنسي يتضامنون مع نضال الشعب الفلسطيني العظيم من أجل استعادة حقوقه الوطنية المشروعة والعودة الى ارض وطنه . وفي الاجتماع الذي عقد يوم ٦/٩ ناقش الوفدان العلاقات الثنائية بين م ت ف والحزب الشيوعي الفرنسي وأكد الوفد الاخير تصميمه على تصعيد وتكثيف نشاطه السياسي والاعلامي لحشد اكبر قطاع من قطاعات الشعب الفرنسي لتأييد ومساندة حركة التحرير الفلسطيني بقيادة م ت ف .

● أعلنت « وفا » (٥/١٨) ان ابو عمار تسلم رسالة من السيد شو ان لاي ، رئيس الوزراء الصيني . وقالت الوكالة ان الرسالة « اتسمت بالوضوح والمودة ودعم الصين للثورة الفلسطينية » وحيت الرسالة انتصار الشعب الفلسطيني في كل المجالات وأكدت « حتمية الانتصار النهائي للقضية الفلسطينية العادلة » .

عصام سخنيني

(٢) القضية الفلسطينية دوليا

تركزت التطورات الدولية المتعلقة بالقضية الفلسطينية هذا الشهر في ثلاثة احداث هامة هي : القمة التي عقدت بين الرئيسين فورد والسادات في سالزبورغ النمسا ، افتتاح قناة السويس مجددا للملاحة الدولية ، واجتماع رئيس الوزراء الاسرائيلي رابين الى الرئيس فورد في واشنطن استكمالا لقمة فورد — السادات ولعملية اعادة تقييم السياسة الامريكية في منطقتنا التي كانت قد بدأت بعد فشل مهمة كيسنجر الاخيرة في تحقيق تسوية جزئية في سيناء . وسنتناول كل واحد من هذه الاحداث بالترتيب الوارد ذكره أعلاه .

قبل تناول قمة سالزبورغ نفسها لا بد من الاشارة الى عدد من التطورات التي طرأت قبل موعد انعقادها وعلى سبيل التمهيد لها وذلك من أجل وضع اجتماع القمة في سياقه الصحيح خاصة بالنسبة للتطورات المتلاحقة التي رافقته. وتلخصت هذه التطورات المهدة بما يلي :

(١) اللقاء الذي جرى بين كيسنجر وغروميكو في فيينا في النصف الثاني من شهر أيار حيث تناول الوزيران عددا من الموضوعات الدولية الكبرى بما فيها مشكلة الشرق الاوسط . ومما اضفى أهمية خاصة على هذا اللقاء كونه الاجتماع الاول من نوعه بعد الهزيمة التي لحقت بالولايات المتحدة في الهند الصينية . ويبدو مما تسرب حول الاجتماع (بالاضافة الى دلائل عديدة اخرى) ان التوجه الامريكي يميل نحو التصلب في مناطق نفوذ الولايات المتحدة نتيجة هزيمتها المذكورة . وقد ألمح رئيس وزراء النمسا (كرايسكي) الى هذا الامر بقوله لغروميكو اثناء استقباله على المطار « بأنه سيجد الطقس حارا جدا جدا في فيينا » . وأكد مصدر امريكي كبير في الوفد المرافق لكيسنجر ان الوزير الامريكي لم يعرض اية مقترحات ثابتة امام غروميكو . كما تبين ان كيسنجر اصر على تأييد بلاده للموقف الاسرائيلي الرافض لمشاركة منظمة التحرير في مؤتمر جنيف . وذكرت انباء صحفية ان كيسنجر هاجم المنظمة بعنف اثناء اجتماعه بالوزير السوفييتي واتهمها بالتطرف والارهاب . ونذكر هنا ان الزيارة التي يفترض ان يقوم بها غروميكو للقاهرة بهدف التشاور مع الزعامة المصرية قبل انعقاد قمة سالزبورغ قد ألغيت .

(٢) الجولة التي قام بها الرئيس السادات — اعدادا لاجتماعه بالرئيس فورد — والتي شملت زيارات لكل من سوريا والاردن والكويت والعراق

ويوغسلافيا والنمسا . وواضح ان هدف زيارة السادات للعواصم العربية الرئيسية كان الاعداد لمخاطبة فورد من موقع من يمثل وجهة نظر عربية موحدة ومتناسقة قدر الامكان . وقد أدلى الرئيس السادات بعدد من التصريحات الهامة خلال جولته هذه كان أهم ما فيها النقاط التالية :

(أ) تأكيده بأن هدف زيارتـه هو الخروج بموقف عربي موحد في مواجهة مشكلة تحقيق السلام في المنطقة على يد الولايات المتحدة .

(ب) انه ينوي طـرح سؤال اساسي علـى الرئيس فورد هو ما اذا كانت الولايات المتحدة تريد حماية اسرائيل داخل حدودها (أي حدود ١٩٦٧) ام داخل حدود الاراضي العربية المحتلـة في ذلك العام . واكد الرئيس المصري في هذا الصدد ان مصر تعترف باسرائيل داخل حدود ١٩٦٧ كحقيقة قائمة وموجودة . وقد أثار هذا التأكيد بعض ردود الفعل العربية القويـة وخاصة في ليبيا وداخـل صفوف المقاومة الفلسطينية . وعاد السادات الى ترداد ما كان قد قاله سابقا حول « مسك امريكا بـ ٩٠ ٪ من أوراق هذه اللعبة » لان الولايات المتحـدة تزود اسرائيل بكـل متطلبات الحيـاة والدفاع ، ومن هنا اعتماده على الرئيس فورد الذي « يستطيع ان يحل هذه المشكلة اذا أراد ذلك » .

(ج) اكد ان اسرائيل تسعى الى كسب الوقت وتأجيل مساعي التسوية الى السنة المقبلة ، أي سنة الانتخابات الرئاسية في الولايات المتحدة ممـا سيشل السلطات الامريكية دوليا ويجعلها غير قادرة على التحرك لفترة طويلة .

(د) وجه سؤالا الى « اخواننا الفلسطينيين » حول ماهية تصورهم لمؤتمر جنيف وما اذا كانوا قد اتفقوا فيما بينهم قبل الذهاب الى المؤتمر أم لا . واذا كانوا قد اتفقوا فعلى أي اساس . واكد بهذا الصدد ان مصر طلبت من الاتحاد السوفييتي دعوة منظمة التحرير للاشتراك في مؤتمر جنيف .

(هـ) هاجم الرئيس السادات الاتحاد السوفياتي متهما اياه بالاستمرار في رفض تسليح مصر والامتناع عن تمديد آجال الديون المستحقة عليها . كما هاجم ليبيا والاتحاد السوفياتي معا بسبب الصفقة التي عقدها البلدان معا . وقال بهذا الصدد ان الصفقة المذكورة تعطي السوفيات حق الوجود العسكري على الساحل الجنوبي للبحر الابيض المتوسط لمدة خمسين سنة وان الخبراء السوفيات سيبقون من ٢٠ الى ٥٠ سنة في ليبيا مما يعني سيطرة عسكرية اجنبية على البلاد . كذلك اكد ان الاسلحة التي حصلت عليها ليبيا « تفوق في تطورها خيال أي كان » وان لا مصر ولا سوريا قـد حصلت على اسلحة متطورة شبيهة بما ستحصل عليه ليبيا .

(و) استبعد السادات خطر نشوب حرب اخرى في الشرق الاوسط اذا تعثرت جهود السلام وفشل مؤتمر جنيف « لان فشله ليس نهاية العالم » وجدد ثقته الكاملة بالدكتور كيسنجر وسياسته .

(٣) على الجانب الامريكي ادلت المراجع العليا بتصريحات عديدة قبل انعقاد قمة سالزبورغ . ففي مقابلة مع صحيفة الدايلي نيوز (٣ حزيران) أكد الرئيس فورد امكانية عودة السياسة الامريكية الى دبلوماسية كيسنجر المتنقلة لتحقيق تسوية جزئية على جبهة سيناء لان التغلب على الصعوبات التي تعترض الوصول الى تسوية شاملة يستغرق وقتا طويلا ، وبالامكان تحقيق تسويات جزئية في هذه الاثناء . بالنسبة لقمة سالزبورغ قال بأنه يريد الاجتماع بالرئيس السادات « ليحصل منه شخصيا على تحليله واقتراحاته المتعلقة بالوضع في الشرق الاوسط » . أما كيسنجر فقد اكد من جانبه بأن فورد يريد الاستمرار في محاولة الوصول الى تسوية عن طريق التفاوض بين العرب واسرائيل . الا انه «لا ينوي فرض تسوية من عنده في الشرق الاوسط». وصرح وزير الدفاع شليزنغر بكلام ينصح باعتماد سياسة امريكية « اكثر تصلبا في مختلف المناطق الساخنة في العالم » . واكد بأنه على الولايات المتحدة ان تحافظ على مواقعها في الشرق الاوسط لانه « ما من قوة اخرى قادرة على الوقوف في وجه الاتحاد السوفياتي هناك ». وطمأن الوزير اسرائيل بقوله ان ميزان القوى في الوقت الحاضر يميل لصالح اسرائيل اكثر مما كان عشية حرب اكتوبر وان حكومته قادرة عـلى نقل الاسلحة والاعتدة اللازمة الى أسرائيل حتى لو منعت البرتغال اي استخدام لقواعدها لاجراء مثل هـذه العملية اذ ستصل المواد الحربية من امريكا بعد ٣٦ ساعة من اصدار الرئيس أمرا بذلك . وعاد شليزنغر الى توجيه التهديدات المعهودة الى الدول العربية المنتجة للبترول في حال قيامهـا باستخدام سلاح النفط مجددا . وبالاضافة الى كل هذه التصريحات

رفع ٧٥ عضوا في مجلس الشيوخ الامريكي رسالة الى الرئيس فورد دعته الى دعم اسرائيل بتأكيدها النقاط التالية : (أ) ان التطورات الاخيرة في الهند الصينية تبين حاجة الولايات المتحدة الى حلفاء مستقرين ويمكن الاعتماد عليهم في انحاء مختلفة من العالم (اسرائيل في الشرق الاوسط) . (ب) ان اسرائيل القوية هي الحاجز الاكثر ضمانة للحيلولة دون تزايد التسرب السوفياتي الى المنطقة .

(ج) ان تدفق الاسلحة السوفياتية الى العالم العربي لا بد وان ينقل توازن القوى لصالح الطرف العربي مما يعني ان اي حجب للمساعدات العسكرية الامريكية عن اسرائيل سيولد وضعا خطيرا ويشجع العرب على الحرب . لذلك لا بد لاسرائيل « من ان تحصل على المساعدات الاقتصادية والعسكرية الكافية لردع اي عدوان جديد » .

(د) ان يتضمن برنامج الحكومة للمساعدات الخارجية كل ما هو مطلوب لتلبية حاجات اسرائيل الاقتصادية والعسكرية .

(هـ) ان تقف حكومة الولايات المتحدة بصلابة الى جانب اسرائيل لان في هذا الموقف خدمة لمصالح امريكا القومية . كما انه يجب ألا تخرج مراجعة السياسة الامريكية في الشرق الاوسط عن هذا الموقف . وقد أثارت هذه الرسالة والمطالب التي تنطوي عليها ردود فعل عربية قوية بما في ذلك داخل مجلس الامة المصري . الا ان رئيس المجلس السيد مرعي قال بأنه لا ينبغي اعطاء مسألة الرسالة « حجما اكبر من حجمها الحقيقي » معتبرا ان صدورها الان غير مناسب لايجاد حلول سلمية في الشرق الاوسط وناشد مجلس الشيوخ مراعاة المصالح الامريكية في تصرفاته .

(٤) تمديد الحكومة السورية مدة انتداب قوة الطوارىء الدولية في الجولان ٦ اشهر اخرى . وقد تضمن هذا القرار شيئا من المفاجأة اذ ان المراقبين كانوا يتوقعون تمديدا سوريا لا يتجاوز الشهرين بحيث تنتهي مدة انتداب قوات الطوارىء في سيناء والجولان في وقت واحد .

(٥) تحديد الحكومة الاسرائيلية لموقفها العام من التسوية السياسية في المنطقة عبر وثيقة علنية جرى توزيعها على السفارات الاجنبية وتضمنت هذه الوثيقة النقاط التالية : (أ) يجب ان يكون هدف المفاوضات التوصل الى اتفاقات سلام ثنائية تأخذ شكل المعاهدات . (ب) ان هدف الرئيس المصري هو عزل اسرائيل واثارة التوتر بينها وبين الولايات المتحدة بهدف جذب امريكا والاتحاد السوفياتي الى فرض حل على اسرائيل مشابه للحل الذي فرضاه سنة ١٩٥٦ — ١٩٥٧ . (ج) ان رفض السادات التوصل الى حل شامل مع اسرائيل (اي في سيناء) لا يؤثر على استعداد اسرائيل للقبول باتفاق مرحلي ضمن اطار سياسة « الخطوة خطوة » . (د) ان عدم موافقة الرئيس السادات على الغاء حالة الحرب الا مقابل انسحاب اسرائيل من الاراضي العربية المحتلة يعني ان اسرائيل لن تحصل على علاقات دبلوماسية وتجارية ... الخ طبيعية مع جيرانها مما يعني بدوره انها عقدت صفقة خاسرة . (هـ) ان استمرار الدول العربية في تأييد منظمة التحرير — التي تنوي تصفية الدولة اليهودية — يزيد الوضع خطورة .

عند انعقاد قمة سالزبورغ صدرت بعض التحديدات بالموضوعات التي ستتناولها . ذكر كيسنجر ان اللقاء سيكون خطوة اولى باتجاه مبادرة السلام لان « اول ما يجب ان نفعله هو ان نعرف ماذا يريد كل من الرئيس السادات واسحق رابين » . كما أشار الوزير الامريكي الى ان لقاء القمة لن يتناول الجبهة المصرية فقط بل سيشمل الجبهات الاخرى ومشكلات الحدود وما يمكن ان يقدمه العرب من التزامات سلمية محددة تجاه اسرائيل لتحقيق التسوية السلمية . هذا بالاضافة الى وضع الفلسطينيين والقدس . ووصف كيسنجر هذا اللقاء بقوله انه « مهم جدا » لان الوضع في المنطقة متفجر ، وألمح الى ان الرئيس السادات يحمل معه مقترحات معينة ليعرضها على الرئيس فورد . اما الجانب المصري فقد حدد موضوعات اللقاء عبر صحافته بالقول انها تتناول الموقف العام في الشرق الاوسط واشتراك الفلسطينيين في اية مناقشات او مؤتمرات تجري لتحقيق السلام والعلاقات الثنائية بين البلدين والعلاقات الدولية بما في ذلك سياسة الانفراج . وتشمل العلاقات الثنائية هنا موضوع المساعدات الاقتصادية التي يمكن ان تقدمها الولايات المتحدة الى مصر .

وخلافا للتقاليد المتبعة لم يصدر اي بيان مشترك

على اثر اختتام لقاء السادات وفورد بل استعيض عنه بمؤتمر صحفي مقتضب وسريع لم يفسح فيه المجال الا لطرح عدد قليل جدا من الاسئلة على الرئيسين . ويمكننا ان نقول بشكل عام ، ان المؤتمر الصحافي ، ببيانه واسئلته ، لم يكشف اي شيء مما دار في المباحثات او عن حقيقة الجو الذي سادها كما انه لم يشر الى ما تم الاتفاق عليه او الاختلاف حوله بين الرئيسين . واهم نقطة برزت في المؤتمر قول فورد بانه سيطرح مشروعا للسلام في الشرق الاوسط بعد انتهاء اعادة تقييم السياسة الامريكية . وقد اشاد الرئيس السادات كثيرا بفورد واغدق عليه المديح واصفا اياه « بالرجل الشريف والمحب للسلام والمكافح من اجل السلام » كذلك اكد فورد انه لم يتخذ اية قرارات بالنسبة للمرحلة المقبلة وان العلاقات الثنائية بين مصر والولايات المتحدة متينة . اما المصادر المصرية الرسمية فقد ذكرت ان الرئيسين توصلا الى اتفاق حول الخطوة التالية لتحقيق السلام في المنطقة وهي اجراء انسحاب اسرائيلي جديد في سيناء يتبعه انسحاب مواز في الجولان ، ينعقد بعدهما مؤتمر جنيف . كما ذكرت هذه المصادر ايضا ان السادات حقق هدفه في اعادة تنشيط جهود السلام واعطاء العلاقات المصرية الامريكية ديناميكية جديدة و « تحطيم طابع المجابهة في المنطقة الذي يضع الولايات المتحدة كليا وراء اسرائيل والاتحاد السوفياتي كليا وراء العرب » . ولا بد من الاشارة الى ان التصريحات الرسمية وشبه الرسمية التي صدرت حول مؤتمر القمة تترك انطباعا بان الولايات المتحدة رفضت حتى الان اعلان اي شيء عن افكارها وخطتها بالنسبة للتسوية في المنطقة ، ورفضت اعلان اي شيء عن النتائج التي وصلت اليها (ولو مرحليا) في اعادة تقييمها لسياستها في الشرق الاوسط ، كما امتنعت عن القول ما اذا كانت ستسير باتجاه عقد مؤتمر جنيف او العودة الى دبلوماسية الخطوة خطوة على يد كيسنجر . يضاف الى ذلك عدم تحديد اي شيء حول حجم الحدود التي تريد امريكا حماية اسرائيل داخلها وحول حجم المساعدات الاقتصادية لمصر ونوعها وغياب اي بيان مشترك عقب انتهاء المحادثات . ان كل هذه الظواهر تدعو المراقب الى التشكيك باجواء النجاح التي عملت التصريحات المصرية واجهزة الاعلام المصرية على احاطة قمة سالزبورغ بهـا .

وجدير بالاشارة هنا ان معلومات كثيرة تسربت الى الاوساط الصحفية ونشرت حول ما جرى في اجتماع القمة . ولا شك ان بعض هذه المعلومات دقيق وبعضها الاخر قريب من الدقة في حين ان الكثير منها لا يتعدى التخمين والتكهن . وسنورد فيما يلي اهم المعلومات التي نشرتها الاوساط الصحفية حول قمة سالزبورغ . (أ) ذكرت مجلة نيوزويك الامريكية (٩ أيار) ان الرئيس الامريكي لم يقدم اية اجابة على سؤال السادات حول ما اذا كانت امريكا تريد حماية اسرائيل داخل حدود عام ١٩٦٧ ام داخل حدود الاحتلال الحالي . وقد قال فورد صراحة للسادات بانه غير قادر على الرد على هذا السؤال في الوقت الحاضر . وفي المقابل سأل ما اذا كانت مصر على استعداد لجولة ثانية من المحادثات للتوصل الى تسوية جزئية ، فكان جواب السادات بالايجاب . (ب) ان الرئيس فورد سيتولى شخصيا مسؤولية التحرك السلمي في المنطقة . (ج) ان الرئيسين اتفقا من حيث المبدأ على تحقيق انسحاب جزئي على جبهة سيناء تتبعه خطوة مشابهة على جبهة الجولان علما بان بعض الانباء ذكرت ان الرئيسين درسا بعض الامور المحددة على الخرائط فيما يتعلق بالانسحاب الاسرائيلي . (د) ان احتمالات عودة كيسنجر الى دبلوماسيته المتنقلة واردة جدا وسيتم اتخاذ قرار نهائي حول هذا الامر بعد اجتماع فورد برابين . (هـ) ان مصر قدمت تنازلا مهما بقبولها مبدئيا بتمديد تفويض قوات الامم المتحدة في سيناء لمدة تتراوح بين ثلاث وخمس سنوات . في حين انه كان قد رفض تمديد هذا الانتداب لاكثر من سنة اثناء جولة كيسنجر الفاشلة الاخيرة . (و) ان القضية الفلسطينية بحد ذاتها غير واردة كبند مستقل في اعادة تقييم الحكومة الامريكية لسياستها الشرق اوسطية . وعلى هذا الاساس تعهد فورد بان توكل حكومته للرئيس السادات امر التصرف بالموضوع الفلسطيني مما يعني ان كافة الاقتراحات الامريكية المتعلقة بالقضية الفلسطينية ستبلغ للسادات الذي سيبحثها بدوره مع الجهات الفلسطينية المعنية . وتتوقف بذلك الولايات المتحدة عن بحث الموضوع الفلسطيني مع اي جهة دولية اخرى وخاصة مع الاتحاد السوفياتي . (ز) ان

الولايات المتحدة لا تريد لمؤتمر جنيف ان يكون مجالا لاية مفاوضات جدية بين أطراف النزاع بل تجري المفاوضات خارج المؤتمر ويجري التوقيع عليها في داخله . ويبدو ان فورد ناقش فكرة تدعو الى تحويل مؤتمر جنيف الى مؤتمر شبه دائم لازمة الشرق الاوسط تستمر اعماله لفترة طويلة على غرار مؤتمر الامن الاوروبي او مؤتمر محادثات نزع السلاح . (ح) لم يطرأ أي تغيير خلال القمة او بعدها على الموقف الامريكي من منظمة التحرير. (ط) وعد فورد بالاهتمام بالوضع الاقتصادي المصري ومساعدة النظام على مواجهة العجز المالي الذي يعاني منه على ان تبدي مصر اعتدالا في مواقفها خلال مرحلة وضع أسس التسوية الجزئية في المنطقة .

بعد انتهاء قمة سالزبورغ مباشرة اعلن رابين في مؤتمر صحفي ان الحكومة الاسرائيلية قررت اتخاذ خطوة من جانبها لتخفيف التوتر في المنطقة وذلك عن طريق تخفيف قواتها المتمركزة شرقي قناة السويس في المنطقة المحدودة التسلح بمقدار النصف . أي ستسحب اسرائيل ١٥ دبابة و ٣٥٠٠ جندي وكل مدافعها بحيث تصبح القناة تقنيا خارج مرمى المدفعية الاسرائيلية . كما اعلن ان القوات الاسرائيلية لن تركز اية صواريخ في المنطقة المذكورة باستثناء تلك المضادة للدبابات وبين رابين ان الولايات المتحدة كانت على علم بهذه الخطوة الاسرائيلية كما اضفى على هذا القرار صفة « التنازل » والرغبة في تحمل قدر من « المجازفة » اسهاما من حكومته في المحافظة على سلامة الملاحة في قناة السويس وتسهيلا لمجهودات السلام في المنطقة . وعلق السادات اثناء وجوده في سالزبورغ على هذه الخطوة بقوله ان مصر ترحب بالاجراء الاسرائيلي وتعتبره خطوة باتجاه السلام. لكن من جهة اخرى نشرت صحيفة « النيويورك تايمز » الامريكية (١١ حزيران) استنادا الى مصادر عسكرية خبرا يفيد ان خفض القوات الاسرائيلية في سيناء الذي اعلنت عنه اسرائيل بضجة كبيرة شمل قوات كانت قد انسحبت منذ اشهر وقطع مدفعية لم تكن موجودة في خط الدفاع اصلا . وذكرت الصحيفة ان اسرائيل كانت قد خفضت عدد قواتها ودباباتها المسموح بها في منطقة التسلح المحدود منذ بضعة اشهر كما اكدت ان مصر والولايات المتحدة على علم تام بحقيقة الاجراء الاسرائيلي ولكنهما لن تثيرا اية ضجة بغية عدم تعكير الاجواء الحالية استعدادا للخطوات القادمة نحو تسوية جزئية جديدة في سيناء .

■ في الخامس من حزيران ١٩٧٥ افتتح الرئيس السادات قناة السويس للملاحة الدولية في احتفال فخم وكبير شبهته الصحافة باحتفالات الافتتاح الاول للقناة في القرن التاسع عشر . وقد حضر الافتتاح ولي عهد ايران (١٤ سنة) وقائد الاسطول السادس الذي شاركت سفينة القيادة التابعة له في الاحتفالات . ولم يشارك الرؤساء العرب في الاحتفالات . وجدير بالاشارة ان حضور سفينة القيادة التابعة للاسطول السادس مع قائد الاسطول كانا مفاجأة كبيرة للجميع . وقد دار لغط دبلوماسي حول هذا الموضوع خاصة وان دولا مثل الاتحاد السوفياتي وفرنسا وانكلترا شاركت في عمليات تنظيف القناة واعدادها للملاحة لم تدع لتكون ممثلة في حفلة الافتتاح على هذا المستوى الرفيع . وفي مقابلة اجراها التلفزيون اللبناني مع الرئيس السادات بمناسبة اعادة فتح قناة السويس قال السادات بالنسبة لهذا الحدث (أ) انه يستبعد اقدام اسرائيل على اية مغامرة عسكرية ضد القناة . (ب) ان عودة النازحين الى مدن القناة هو اخطار لاسرائيل والولايات المتحدةوالعالم بان هذه المدن اصبحت اليوم من عمق مصر واي عدوان عليها هو عدوان على عمق مصر نفسها وسيرد عليه بالوصول الى عمق اسرائيل (ج) ان قرار اعادة فتح القناة يهدف الى اخطار امريكا والشعب الامريكي والكونغرس ان مصر لا تخاف السلام وهي قادرة على صنع السلام . يضاف الى ذلك ان ابقاءها مغلقة يعني معاقبة الاصدقاء في كل انحاء العالم « في حين تريد مصر ان تساهم في رخاء العالم » . (د) ان السماح للسفن الاسرائيلية بعبور الممر المائي لن يتم الا في مؤتمر جنيف ومن خلال الحل النهائي للنزاع وبحضور جميع الاطراف المعنيين . وواضح ان التطورات التي سبقت فتح قناة السويس والنتائج المترتبة على هذه الخطوة (خاصة مشاريع تعمير المنطقة وتنميتها) هي خطوات تبعد مصر عن جو أية جولة عسكرية اخرى مع اسرائيل وتقربها اكثر من منطق التسوية السلمية برعاية الولايات المتحدة . يضاف

الى ذلك ان اعادة فتح الممر المائي يشكل انقلابا على الموقف المصري السابق القائل بان القناة لن تفتح الا بعد انسحاب القوات الاسرائيلية من سيناء او انسحابها جزئيا اخر على اقل تقدير بحيث لا تبقى الملاحة في القناة تحت رحمة التهديدات الاسرائيلية المباشرة . وجدير بالاشارة هنا ان الانباء ذكرت بأنه اثناء مهمة كيسينجر الفاشلة الاخيرة أعرب العسكريون المصريون عن رأي يقول بأن تأمين الملاحة في القناة يقتضي انسحاب اسرائيل من الممرات ومن الساحل الشرقي لخليج السويس. ولا شك ان فتح قناة السويس ضمن الشروط الحالية يعطي اسرائيل وامريكا ضمانات فعلية وعملية على « نوايا مصر السلمية » أقوى من اية تصريحات او وثائق مكتوبة . كما يبدو ان سياسة الخطوة خطوة تطبق الان بصورة مجزأة بحيث تتخذ مصر من جانبها خطوة (فتح القناة) تقابلها اسرائيل بخطوة من عندها (اعلان تخفيض القوات في المنطقة المحدودة التسلح) ويجري جدل الان حول ما اذا كانت الخطوة التالية ستكون مرور الشحنات الاسرائيلية غير الاستراتيجية في القناة (على سفن لا ترفع العلم الاسرائيلي) . وعلى هذا الصعيد شنت اسرائيل حملة اعلامية ودبلوماسية مدعومة امريكيا للضغط من اجل السماح لشحناتها المحملة على سفن لا ترفع العلم الاسرائيلي بعبور قناة السويس . ووصلت هذه الحملة الى ذروتها في اعلان رابين بان مصر ملزمة بموجب الاتفاقات السرية التابعة لاتفاقية فصل القوات على جبهة سيناء بالسماح لمثل هذه الشحنات بالمرور عبر القناة . وذكرت مصادر دبلوماسية امريكية ان مصر في الواقع قدمت مثل هذا التعهد الى الحكومة الامريكية . ولكن ليس الى الحكومة الاسرائيلية نفسها . ولم يصدر اي نفي مصري لهذه الانباء بل اورد الرئيس السادات تعليقا مبهما نوعا ما حول هذه المشكلة بقوله ان مرور الشحنات الاسرائيلية مرهون بسلوك اسرائيل . وقد ذكرت انباء صحفية ان سفينة تحمل بضائع الى اسرائيل ستمر في القناة — كنوع من التجربة — وستسمح لها مصر بالعبور على ان تتم المسألة كلها بهدوء وبدون اية ضجة اعلامية او تصريحات رسمية . وجدير بالذكر هنا ان وزير الدفاع الاسرائيلي شمعون بيريز كان قد صرح في ١٨ ايار بان اسرائيل تنظر الى اعادة فتح القناة كخطوة لتحسين الاقتصاد المصري وان اسرائيل ستتصرف « كجار مسؤول » وستفعل كل ما في وسعها لتأمين الملاحة بدون ازعاج . كما اكد ان الفكرة الاساسية التي ارتكزت اليها اتفاقات فصل القوات في سيناء هي فكرة اعادة فتح الممر المائي . وفي الوقت نفسه صرح الوزير اسرائيل غاليلي بان سياسة اسرائيل في تطوير شرم الشيخ واستيطانها ما زالت مستمرة .

■ عشية سفر رابين الى واشنطن اعلنت الحكومة الاسرائيلية الخطوط العريضة للموقف الذي تنطلق منه في مواجهة مساعي التسوية الراهنة ، وكان اهم ما جاء في الاعلان الاسرائيلي الرسمي قوله : (أ) بان اسرائيل غير مستعدة بقبول الشروط التي وضعها السادات خلال جولة كيسنجر الاخيرة كأساس لتحقيق انسحاب جديد في سيناء . (ب) بان اسرائيل مستعدة لاعادة النظر في موقفها حول هذا الموضوع اذا عدلت مصر موقفها وقدمت عروضا جديدة . (ج) بان الاحتمال الاكثر واقعية في هذا الوقت هو تحقيق اتفاق جزئي مع مصر من خلال مساعي الولايات المتحدة . (د) بانه اذا تم التوصل الى مثل هذا الاتفاق فان اسرائيل ستبذل جهدها للتفاهم مع الولايات المتحدة على عقد اتفاقات اخرى مشابهة مع الدول العربية المعنية الاخرى « لتحقيق سلام يرتكز على حدود يمكن الدفاع عنها ». وأعلن رابين نفسه بأنه لا يحمل جديدا الى واشنطن بل ينتظر من مصر ان تقدم هذا الجديد .

■ اما بالنسبة للجانب الامريكي فقد اعلن فورد في مؤتمر صحفي بانه يتوقع أن يحصل من رابين على « تقييمه الشخصي للوضع الشامل في الشرق الاوسط » وانه سيبحث مع رئيس الوزراء الاسرائيلي البدائل المتعددة المطروحة من اجل استئناف جهود السلام ومنها مفاوضات الخطوة خطوة وانعقاد مؤتمر جنيف . اما كيسنجر فقد صرح امام لجنة العلاقات الدولية في مجلس النواب الامريكي ان موقفا جديدا بناءا قد تطور في الاسابيع الاخيرة بين الفرقاء المعنيين في نزاع الشرق الاوسط وان امكانات تحقيق اتفاق مؤقت جديد قد تحسنت. كما الح الى ان احتمالات استئناف مساعيه الدبلوماسية المتنقلة اصبحت واردة جدا خاصة وان انعقاد مؤتمر جنيف يواجه مصاعب كثيرة وان

احتمالات الوصول الى اتفاق مؤقت بين مصر واسرائيل اصبحت الان اكثر منالا من اي وقت مضى . وذكرت مصادر دبلوماسية في واشنطن ان اسرائيل باتت على استعداد لقبول تعهد مصري بعدم اللجوء الى استخدام القوة لفترة يجري الاتفاق عليها (٣ — ٥ سنوات) بدلا من شرطها السابق الداعي الى انهاء حالة الحرب .

في الاسبوع الثاني من شهر حزيران وصل رابين الى واشنطن حيث عقد مباحثات مطولة مع الرئيس فورد وكيسينجر ووزير الدفاع الامريكي ولجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ ولجنة الشؤون الدولية في الكونغرس . ولا شك ان رابين يشعر نفسه في موقع قوة لان أيا من « النتائج الخطرة » التي كان من المتوقع ان تسفر عن فشل مهمة كيسنجر السابق لم تتحقق . على سبيل المثال على الرغم من تفشيل اسرائيل لمساعي كيسنجر الاخيرة (على حد التفسير المصري الرسمي لاسباب فشلها) جددت كل من مصر وسوريا مدة انتداب قوات الطوارىء الدولية في المنطقة واعيد فتح قناة السويس في الموعد الذي كان مقررا سابقا ولم يحدث اي تقارب مصري سوفياتي بل على العكس من ذلك شهدت علاقات مصر بالسوفيات تدهورا جديدا كما ان حدة التوتر على جبهات القتال لم ترتفع بصورة ملحوظة . بعبارة اخرى يرى المنطق الاسرائيلي ان التشدد الذي اتسم به — حتى الى حد افشال مسعى السلام الامريكي الرئيسي — لم يؤد الى اية نتائج مؤذية للموقف الاسرائيلي أو المصالح الامريكية وتوجهاتها السياسية الراهنة .

على اثر محادثات رابين مع الرئيس فورد ذكر بيان صادر عن البيت الابيض ان البحث تناول الوسائل الممكنة لاعادة الزخم الى مساعي التسوية عن طريق المفاوضات . ووصف البيان المحادثات بانها تميزت بروح الصراحة والود التي اتصفت بها دوما العلاقات بين البلدين . وقد قدم رابين الى فورد شروط حكومته لاستئناف المفاوضات مع مصر . ونفى الناطق الرسمي باسم البيت الابيض نية الرئيس فورد والوزير كيسينجر تقديم اي مشروع للتسوية الشاملة للنزاع في الشرق الاوسط في المستقبل القريب . الا ان المصادر الدبلوماسية في واشنطن ذكرت ان بوادر مفاوضات جديدة بين مصر واسرائيل باشراف الولايات المتحدة قد اصبحت واضحة من اجل الوصول الى اتفاق جزئي جديد بشأن سيناء . وواضح جدا ان التصريحات الامريكية التي صدرت في أعقاب المحادثات مع رابين لم تحتو على اي جديد بل كررت المواقف الامريكية المعروفة والسابقة . على سبيل المثال لم يتعد تعليق فورد على المحادثات قوله بان هدف حكومته هو ضمان استمرار السعي « نحو السلام العادل والدائم في المنطقة » وعدم ترك الركود يخيم عليها . كما ان كيسنجر لم يقل اكثر من ان مصر واسرائيل « قد تكونان متجهتين نحو استئناف المفاوضات حول اتفاق جزئي جديد في سيناء » والمح الى امكانية استئناف مهمته المتنقلة بين اسرائيل وبعض العواصم العربية . واكد كيسينجر ان حكومته لن تدخل في اية استشارات مع منظمة التحرير كما انها ستستمر في تقديم المساعدات العسكرية والاقتصادية لاسرائيل بمعزل عن اي اعتبارات سياسية مثل اعادة التقييم المتعلقة بالمنطقة حاليا . أما رابين فقد وصف محادثاته مع كبار المسؤولين الامريكيين بانها كانت صريحة وودية جدا وانه بين للرئيس فورد فوائد التوصل الى اتفاق مؤقت مع مصر يستمر لعدة سنوات ، كما اكد استعداد حكومته للاشتراك في مؤتمر جنيف اذا دعي الى الانعقاد ، ورفضها الدخول في اية مفاوضات مع منظمة التحرير . واشترط رابين للتوصل الى اتفاق مؤقت مع مصر تبديل الاخيرة لمواقفها المعروفة حول هذا الموضوع واكد في هذا الصدد تفهم فورد الكامل لحاجات اسرائيل العسكرية والاقتصادية واستجابتها لهذه الحاجات . وواضح من كل ذلك انه حتى هذه الساعة لم تظهر اية بوادر تشير الى حدوث اي تغير جدي في السياسة الامريكية نتيجة ما يسمى بعملية اعادة النظر في هذه السياسة وما انطوت عليه من اجتماعات ومباحثات ومفاوضات وتصريحات .

(٣) المناطق المحتلة

[١]

كان شهر ايار (مايو) الماضي شهرا حافلا بالعمليات الفدائية في المناطق المحتلة وخاصة الضفة الغربية . وقد تركز جزء أساسي من هذه العمليات في مدينة القدس ، الامر الذي أثار قلقا اسرائيليا تبدى من خلال موجات الاعتقال الجماعية وحملات التفتيش والمداهمة للسكان الفلسطينيين العرب .

واذا ما اعتبر شهر ايار شهر التصعيد العسكري من جانب المقاومة الفلسطينية* ، فانه يعتبر بالمقابل شهر تصعيد القمع الواسع من جانب سلطات الاحتلال الاسرائيلية ، فقد ادعى المراسل العسكري لصحيفة معاريف الاسرائيلية ، ان قوات الامن ألقت القبض في اوائل شهر ايار على « اكبر شبكة سرية » تابعة للمقاومة الفلسطينية منذ عام ١٩٦٧ ، وذلك في منطقة جنين . وقالت « معاريف » ان التحقيق الذي دار على اثر مصرع سائق اسرائيلي في اوائل الشهر — ايار — هو الذي أسفر عن اكتشاف هذه الشبكة التي تضم أكثر من اربعين شخصا اغلبهم من الشبان . وادعت الصحيفة انه عثر لدى عدد كبير منهم على مواد ناسفة وقنابل . وفي معرض ذلك قالت الصحيفة « ومعروف انه قد تمت عمليات اعتقال واسعة النطاق في الخليل ورام الله وجنين ونابلس من الذين سبق ان اعتقلتهم السلطات الاسرائيلية في حوادث مماثلة ». وقالت الصحيفة القدس التي نقلت هذه الانباء عن الصحيفة الاسرائيلية ، ان سلطات الاحتلال قد ضاعفت من رقابتها داخل الاراضي المحتلة وعلى الطرق المؤدية لاسرائيل ، لتلافي وقوع عمليات فدائية . كما قامت اعتقالات « وقائية » تحسبا لما تثيره ذكرى الخامس عشر من ايار . وفي هذا النطاق استدعى الحاكم العسكري لمدينة القدس مديري المدارس في المدينة وانذرهم بأنه سيتخذ أشد الاجراءات ضد الطلاب الذين يحاولون القيام بمظاهرات او « الاخلال بالامن » ، كما اعتقلت السلطات عددا آخر من المواطنين (القدس ١٩٧٥/٥/١٤) .

وكانت « القدس » قد ذكرت في عدد سابق لها، ان سلطات الاحتلال قد قامت بحملة اعتقالات واسعة في الضفة الغربية ، وفي رام الله حيث احرق باص اسرائيلي ينقل العمال ، ثم اغلاق عدة محلات وفرض منع تجول في المنطقة . وقالت انه قد القي القبض على عشرين عربيا في القدس يوم ٧٥/٥/١١ ، على أثر انفجار قنبلة يدوية في حي المصرارة . وبهذه المناسبة قالت « القدس » ان الانفجار لم يسفر عن خسائر مادية او بشرية ، اذ ان القنبلة كانت تستهدف منع العمال العرب من العمل في اسرائيل . فالمكان الذي انفجرت فيه يعرف كمحطة لتجمع العمال (القدس ٧٥/٥/١٢).

وعلى أثر حملة الاعتقالات التي قامت بها سلطات الاحتلال في منطقة جنين ، عقد المجلس البلدي جلسة جرى خلالها التداول بشأن حملة الاعتقالات ، ثم قام جميع اعضاء المجلس البلدي بمقابلة الحاكم العسكري للمدينة ، وطلبوا منه سرعة التحقيق مع المعتقلين والافراج عنهم، وخاصة المعلمين من مدرسة الزهراء الثانوية والطلاب الجامعيين وطلاب التوجيهي لقرب بدء الامتحانات السنوية (الشعب ٧٥/٥/١٢) .

وامتدت حملة الاعتقالات هذه الى قطاع غزة على اثر وقوع بعض العمليات العسكرية هناك . فقد ذكرت صحيفة معاريف الاسرائيلية ان قوات الاحتلال في غزة اعتقلت العشرات من العرب بتهمة الانتماء للمقاومة الفلسطينية . واشارت الصحيفة الى ان حوالي ٤٠ شخصا قد اعتقلوا كل شهر في المدة الاخيرة (الشعب ٧٥/٥/١٣) .

وفي نطاق حملة الاعتقالات هذه ، اعلن ناطق عسكري اسرائيلي انه جرى اعتقال ستة من السكان العرب في منطقة رام الله خلال الايام

---

* راجع جدول العمليات العسكرية التي قامت بها الثورة الفلسطينية خلال شهر ايار (مايو) في العددين السابق والحالي من « شؤون فلسطينية » .

الاخيرة للاشتباه باشتراكهم في نشاطات مسلحة . وكان قد اعتقل في اواسط شهر ايار ٦٩ عربيا في منطقة جنين للاشتباه بقيامهم بنشاطات مماثلة . وقال الناطق ان العرب الستة من منطقة رام‌الله ، اعتقلوا للاشتباه بقيامهم بعدة اعمال « تخريب » بينها اضرام النار في معمل اسرائيلي في قرية النبي صالح في الثامن من نيسان (ابريل) الماضي ، وزرع عبوة متفجرة نسفت سيارة ركاب كبيرة وهي في طريقها الى تل ابيب ، وهجوم على سيارة كبيرة تقل عمالا من منطقة رام الله الى اسرائيل في ٧٥/٤/٢٣ . وقال انه عثر على متفجرات مع عدد من المعتقلين . وكان قاضي التحقيق في مدينة الناصرة قد امر بتوقيف خمسة من « عرب اسرائيل » للتحقيق معهم بتهمة التجسس وحيازة اسلحة . وقال البوليس الاسرائيلي ان لهؤلاء الخمسة علاقة بمجموعة من ٦٩ عربيا من الضفة الغربية كانت قوات الاحتلال قد اعتقلتهم في الايام الاخيرة (الفجر ٧٥/٥/٢١) .

واعتقلت سلطات الاحتلال في منطقة الخليل اربعة اشخاص للاشتباه بانتمائهم لفتح . وقد اتهموا بوضع عبوة ناسفة في رغيف من الخبز في سوق محانيه يهودا قبل حوالي ٩ اشهر ، ووضع عبوة ناسفة اخرى قرب كنيس يهودي في التلة الفرنسية ، ووضع عبوة اخرى في باص رقم ١٢ بالقدس في نيسان الماضي .

وفي دير البلح وبعد أن القيت قنبلة يدوية باتجاه دورية اسرائيلية يوم ٧٥/٥/٢٤ قامت سلطات الاحتلال باعتقال عدد من المواطنين العرب في القطاع (القدس ٧٥/٥/٢٦) .

وصعدت سلطات الاحتلال من اجراءاتها التعسفية في منطقة رام الله على وجه التحديد . فبعد وقوع عدة احداث في المدينة ، تراوحت بين التفجير وحرق السيارات وكتابة الشعارات على الجدران ، فرضت سلطات الاحتلال حظرا على معاملات وتصاريح أهالي المنطقة وحرمتهم من السفر الى الاردن . وقامت السلطات العسكرية بتفتيش قرية كفر نعمة في قضاء رام الله بيتا بيتا ، واعتقلت كلا من المهندس الزراعي صقر الياس سلامه وشقيقه محمد محارب ، واعتقلت موسى جودت الديك وحيدر لطفي العبد من صفا . وجميع هؤلاء طلاب . وكان قد اعتقل في صفا كل من احمد ابو جابر وبكر محمد الحجة واحمد خليفة . ومددت سلطات الاحتلال توقيف رضا هبال العزاونة وعلي ابراهيم جودة وعمر الشيخ وجميل الخطيب وامين محمد الباجس وهم من موظفي سلطة المياه . كما اعتقلت المواطن محمد سلمان قوار من البيرة . (الشعب ٧٥/٥/٢٦) .

وفي قطاع غزة ، وعلى اثر الانفجار الذي وقع في خط سكة الحديد بين رفح وخان يونس ، اعتقلت سلطات الاحتلال خلال ٢٤ ساعة اعدادا كبيرة من المواطنين العرب (الشعب ٧٥/٥/٢٢) .

وبعد وقوع الانفجار في مدينة العفولة ، قامت سلطات الاحتلال بحملة اعتقال واسعة للمواطنين العرب في المنطقة واغلب هؤلاء من عمال المناطق المحتلة . وقدرت « الشعب » عددهم بالعشرات (الشعب ٧٥/٥/٢٨) .

اليهودي المتعاون مع المقاومة

كشف الناطق العسكري الاسرائيلي النقاب يوم ٧٥/٥/٢١ عن ان قوات الامن قد اكتشفت قبل شهرين مجموعة من رجال المقاومة في منطقة الخليل وبيت لحم ، وقامت باعتقال عشرين من اعضائها ومن بينهم الدكتور ابراهيم ابو هلال وهو طبيب اسنان من بيت لحم .

وقال الناطق العسكري ان هذه المجموعة تنتمي الى الجبهة الشعبية وان اعضاءها كانوا ينوون القيام بنشاطات مسلحة ولكن تم اعتقالهم قبل تنفيذها . وتم العثور في حوزتهم على كمية كبيرة من المتفجرات التي سرقت من الجيش الاسرائيلي من قبل مواطن اسرائيلي يدعى داني سعيل . وقد زودهم بهذه المواد المتفجرة وهرب الى الخارج قبل اربعة اشهر . وقد عثر في قرية دورا في منطقة الخليل قبل بضعة اسابيع على مخبأ للاسلحة يشمل بنادق من طراز ف.م وكمية كبيرة من الذخيرة (الفجر ٧٥/٥/٢٢) .

وفي اليوم التالي اوردت الصحف الاسرائيلية بعض المعلومات عن الشخص الذي تعاون مع الفدائيين ، ومنها : ان داني سعيل الذي يبلغ من العمر ٣٦ سنة قد هاجر من العراق الى اسرائيل سنة ١٩٥٠ وسكن في مدينة الرملة .

وتدعي الشرطة بأنه كان متهما بعدة قضايا جنائية وأمنية ، وانها قد اتهمته في السابق بالقيام بأعمال عدائية للدولة ثم اطلقت سراحه لعدم وجود ادلة ضده .

وقد التحق سعيل بحركة الفهود السود سنة ١٩٧٠ وكان متحمسا لهذه الحركة واشترك في عدة مظاهرات نظمها الفهود السود ضد الفقر واستغلال اليهود الشرقيين ، واشترك في جميع نشاطات الفهود السود في القدس . وانتقل بعد ذلك من القدس الى تل ابيب ليستمر في عمله السياسي ومن اجل تنظيم اوسع للحركة . وقد أسس فرعا لحركة الفهود السود في مدينة الرملة.

وحاول في تلك الاثناء تجميع جنود من الاحتياط لاستنكار ما يواجهه الجنود المسرحون من مشاكل من قبل الحكومة .

وبعد انسحابه من حركة الفهود السود في الفترة الاخيرة ، أقام حركة « القوة السوداء الثورية » للقضاء على التمييز القائم ضد العرب واليهود الشرقيين .

وقبل ستة اشهر سافر سعيل الى اوروبا ممثلا لحركته الجديدة لشرح قضية اليهود الشرقيين امام الجمهور الاوروبي . وفي ذلك الحين اصدرت الحركة الجديدة بيانا قالت فيه ان سعيل موجود في اوروبا ويقوم بجولة لشرح قضيتهم وسيعود قريبا الى البلاد (الفجر ٧٥/٥/٢٣) .

وعقبت مزال سعيل زوجة داني سعيل على تهمة زوجها بتسليم اسلحة للفدائيين الفلسطينيين والتعاون معهم فقالت ، انها ستطلب محاكمة الجميع ، الجيش الاسرائيلي ، الشرطة ، الصحافة ، وذلك لان هؤلاء جميعا لم يمكنوا زوجها من « الحياة بكرامة في اسرائيل » . وقالت مزال سعيل ان زوجها قد سافر الى الخارج ليفتح صفحة جديدة في حياته . ورفضت الافصاح عن مكان وجوده (القدس ٧٥/٥/٢٤) .

المزيد من الادارة المدنية

بالرغم من ان سلسلة المحاولات الاسرائيلية لاقامة مشروع للادارة الذاتية في الضفة الغربية لم تنقطع منذ صدور قرارات مؤتمر القمة العربي في الرباط ، الا ان الحماس الذي أبداه وزير الدفاع الاسرائيلي في دعوته وتحركه لبعث هذا المشروع ، قد خفت حدته في الفترة الاخيرة ، نتيجة الفشل المتلاحق لكل محاولاته في هذا المجال .

غير ان مشروع الادارة المدنية هذه لم يصرف النظر عنه لدى المراجع الاسرائيلية الداعية له . اذ ان الصحف الاسرائيلية عادت في الفترة الاخيرة لتكتب عن هذا المشروع .

فقد ذكر مراسل صحيفة « دافار » في الاراضي المحتلة ان السلطات الاسرائيلية بدأت محاولات جدية لتطبيق سياسة الادارة المحلية بالنسبة لسكان الاراضي العربية المحتلة . وقال ان الحكومة الاسرائيلية وافقت على هذه السياسة التي ستنفذ على مراحل بحيث يعين في النهاية مدراء عامون عرب في دوائر مختلفة الى جانب ضباط الحكم العسكري. واضاف ان بعض الذين يعالجون هذا الامر في سلطات الحكم العسكري يشكون في مدى نجاح هذه السياسة الجديدة ، وذلك نظرا لتحفظ عدد كبير من الوجهاء العرب تجاهها .

أما شمعون بيرس وزير الدفاع الاسرائيلي الذي كان المبادر لهذه السياسة فانه يعتقد بأنه يستطيع اعطاء السكان العرب الكثير من الصلاحيات الادارية . ويقول مراسل « دافار » ان سياسة الادارة المحلية مبنية على اساس امكانية تحول السكان العرب الى الحكم الذاتي في المستقبل بحيث تكون المناطق المحتلة (الضفة الغربية وقطاع غزة) مرتبطة باتحاد فدرالي مع اسرائيل . ويضيف المراسل ان بيرس لا يريد الصدام مع الحكم الاردني وانه سيبقي الحالة في الضفة والقطاع على ما هي عليه حاليا بالنسبة للعلاقات مع الاردن (نقلا عن دافار ، صحيفة الفجر ٧٥/٥/٩) .

وفي وقت لاحق ذكرت « الفجر » نقلا عن صحيفة يديعوت أحرونوت الاسرائيلية ان شمعون بيرس سيجري خلال الاسبوعين اللاحقين سلسلة لقاءات مع رؤساء البلديات وعدد آخر من شخصيات الضفة الغربية للتباحث معهم حول الاساليب المفضلة لتنفيذ مشروع الادارة المدنية . وجاء في الخبر ان بيرس سوف يشرح في تلك اللقاءات تفاصيل مشروعه الذي خلص من وضعه تقريبا . وكشفت « يديعوت احرونوت » في خبرها ان ضباط الحكم العسكري في الضفة الغربية يحاولون اقناع

رؤساء البلديات وكبار موظفي الدوائر الرسمية بأن المشروع يتعلق بانشاء اطار اداري مدني هدفه ادارة تلك الامور لتقليص تدخل الاسرائيليين في هذه المجالات ، وانه ليس للمشروع اي هدف سياسي وهو لا يهدف الى انشاء كيان تابع لاسرائيل في المناطق المحتلة . وتقول الصحيفة ان حملة الاقناع هذه هدفها تشجيع تلك الشخصيات ومنع فشل المشروع كما حدث في السابق (الفجر١٢/٥/١٩٧٥).

ونقلت جريدة « الشعب » تفاصيل اخرى عن خبر صحيفة يديعوت احرونوت قائلة ان بيرس قد بلور مشروعه للحكم الذاتي الذي يتضمن امكانية توسيع صلاحيات ثلاثة موظفين عرب من رام الله ونابلس يعملون في مجالات الزراعة والصحة والتعليم ، بشكل كبير . ويشرح ممثلو الحكم العسكري ذلك الى رؤساء بلديات الضفة الغربية بقولهم : ان المقصود هو اقامة « اطار اداري مدني » فقط ، يكون مسؤولا وحيدا عن ادارة الشؤون المدنية والادارية ، مع محاولة قصوى لتقليص تداخل الاسرائيليين في هذه المواضيع . ويضيف ممثلو الحكم العسكري ان المقصود ليس خطة ذات صبغة سياسية وانه لا يجب رؤية ذلك كمحاولة لخلق شخصية سياسية في المناطق المحتلة (الشعب ٧٥/٥/١٣) .

أكد كل ذلك بيرس في تصريح له مع راديو اسرائيل بقوله ان هناك نية لدى سلطات الحكم العسكري في المناطق المحتلة بمنح صلاحيات اكثر لسكان المناطق المحتلة في نطاق مشروع الادارة المدنية (الشعب ٧٥/٥/٢٢) .

واذاع راديو اسرائيل بعد ذلك انه تم تعيين عبد القادر عرفة مفتش عام لمكاتب الشؤون الاجتماعية في شمالي الضفة الغربية . وهو اول عربي يشغل هذا المنصب الذي كان يشغله في السابق ضابط اسرائيلي . كما عين مدراء جدد لمكاتب الشؤون في رام الله ، نابلس وجنين (الشعب ٧٥/٥/٢٣) .

اما في مجال التربية والتعليم فقد عرض على احد المواطنين العرب تسلم منصب « ضابط للتربية » في نطاق الخطوات التمهيدية لمشروع الادارة المحلية. وقالت « الشعب » التي أوردت هذا النبأ ان المدير المذكور يحاول الاسراع في احضار الموافقة الرسمية الاسرائيلية عن طريق احد التقليديين المعروفين في الضفة الغربية (الشعب ٧٥/٥/٢٧) .

ومن الجدير بالذكر ان شمعون بيرس قد قام في اواخر شهر ايار (مايو) الماضي بسلسلة زيارات شملت مختلف مدن شمالي الضفة الغربية . ورغم ما كان يوجهه من تحذير للسكان العرب خلال جولاته هذه فقد جوبه باستنكار شديد لسياسة القمع والارهاب والاعتقالات الجماعية التي تقوم بها اسرائيل ضد السكان العرب في المناطق المحتلة.

عيسى الشعيبي

[٢]

سلطات الاحتلال تواصل عمليات نهب الاراضي وطرد البدو من مشارف رفح

تقوم سلطات الاحتلال الاسرائيلي ، في الاونة الاخيرة ، بنشاط مكثف لخلق المزيد من الحقائق الاستيطانية في المناطق المحتلة ، وذلك بالاستيلاء على الاراضي العربية واقامة المستوطنات الاسرائيلية عليها . وعمليات الاستيلاء على الاراضي العربية لم تقتصر ، على اي حال ، على منطقة دون سواها ، بل شملت كافة المناطق المحتلة من مشارف رفح وقطاع غزة الى الضفة الغربية وهضبة الجولان . ولكن هذه العمليات تتزايد احيانا في منطقة دون سواها . ويلاحظ ان النشاط الاستيطاني الاسرائيلي يركز حاليا على منطقة مشارف رفح وذلك ، كما يبدو ، لخلق اوضاع معينة في شمال غرب سيناء ، على الحدود الدولية الفلسطينية المصرية لمجابهة اية اوضاع سياسية قد تنشأ في المستقبل .

يصف الاسرائيليون مشارف رفح بانها منطقة

« مساحتها وحدودها غير معرفة تماما ، تقع على جانبي خط الحدود الانتدابي ، بين قطاع غـزة ومنطقة العريش في سيناء . ويحد البحر المتوسط القسم الشمالي من مشارف رفح ، بينما يقع القسم الجنوبي منها ، جنوبي الطريق الرئيسي رفح — العريش. وأقرب مستوطنـة اسرائيلية للمنطقـة (اقيمت قبل حرب ١٩٦٧) هي كيرم شالوم . ويمكن القول ، بصورة عامة ، ان مشارف رفح هـي بمثابة « اصبع » يفصل قطاع غزة ويعزله عن شبه جزيرة سيناء » (هآرتس ، ١٩٧٢/٥/١٨) .

وكانت الحكومة الاسرائيلية قد اتخذت بعد حرب ١٩٦٧ قرارا (داخليا وليس رسميا) يقضي « بأن طرف المنطقة ذات المليون دونم ، وهي طـرف البلاد « المحررة » ، يجب ان يكون الحدود الغربية لاسرائيل مع مصر .

« واذا كان المقصود بلادا « محررة » — اضافت وأقرت الحكومة — فانه يجب عدم ترك حدودها مفتوحة للبدو الرحل ، ولجامعي السلاح والمتاجرين به ومهربي المخدرات وللشركاء المحتملين مع منظمات التخريب . لهذا يجب توطين المنطقة باستيطـان [يهودي] قروي ومدني كثيف ، يشكل حاجزا بين الصحراء ودولة اسرائيل » (آرييـه افنيري — دافار ، ٧٥/٣/٢٦) .

تشهد منطقة مشارف رفح ، في هذه الفترة ، الحملة شبه النهائية في طرد البدو وسلب اراضيهم، بعد ان تم اغلاق معظم الاراضي وابعاد اصحابها عنها بواسطة كافة وسائل الضغط والارهاب . ولم يبق من السكان هناك سوى عدد قليل ، بعد ان ابعدت حتى الان نحو ١٥٣٨ عائلة من المنطقة . ويبدو ان اسرائيل قد اقرت نهائيا عدم التخلي عن هذه المنطقة ، ولهذا تعمل على زرعها بالمستوطنات الاسرائيلية ، واخلائها من اصحابها الشرعيين .

الحجج والمبررات الاسرائيلية لعملية الاستيلاء

وكما درجت العادة في اسرائيل لتبرير مخططاتها التوسعية وعمليات النهب والطرد التي مارستها منذ قيامها بالعامل الامني ، كان لهذا العامل ايضا نصيب كبير في تبرير قيامها بسلب آلاف الدونمات وطرد الالاف من السكان العرب من تلك المنطقة . ولتبرير عمليات السلب هذه ، ادعى البعض بأن ابقاء الطريق مفتوحا بين قطاع غزة وسيناء ، يعتبر خطرا امنيا من الدرجة الاولى . وكشف النقاب ايضا عن ان هناك رأيا متفق عليه لدى العديد من الاسرائيليين « بانه لا يجوز باي حال السماح بعودة جيش عربي الى قطاع غزة ... ان وجود مدرعات عربية في القطاع اخطر كثيرا من وجود الجيش السوري في هضبة الجولان . وليس هذا فحسب ، بل ان بقاء القطاع نظيفا من اليهود لا يدعم حكم الفدائيين في المنطقة فقط ، بل يؤدي بالسكان الى ان يطلبوا في المستقبل ، الحكـم الذاتي والانفصال التام عن اسرائيل » (زئيف شيف — هآرتس ، ١٩٧٢/٣/٢١) .

وأضيف ايضا « مبرر امني » آخـر لعمليات السلب تلك، وهو ضرورة السيطرة الاسرائيلية على المنطقة للحيلولة دون نقل معظم الاسلحة والقنابل والمتفجرات الى القطاع عن طريق مشارف رفح « بالتعاون بين الفدائيين والبدو » ، اذ يقال ان هناك مستودعات سرية ضخمة من الاسلحة كـان الجيش المصري قد تركها في سيناء ، تشكل مصدرا كبيرا للسلاح الذي تزود به الفدائيون . وبواسطة فصل هذه المنطقة عن سيناء يتم القضاء على اكبر مصدر سلاح للفدائيين .

ومن الواضح ان هذه الاسباب والحجج لم تنطل على الكثيرين ، ولا حتى على الاسرائيليين انفسهم، الذين رأوا في هذه الخطوة محاولة لعرقلة مساعي السلام في المنطقة ، وقد تكون لها علاقة باقتراح هرتسل اقامة دولة يهودية في منطقة العريش . ولكن هذا لا ينفي وجود فئات اسرائيلية عديدة ، تطالب بضم هذه المنطقة الى اسرائيل ، واقامة حاجز من المستوطنات اليهودية فيها ، لتكون بمثابة الدرع الذي يواجه اي هجوم عربي محتمل . ومن الواضح ايضا ان الدوافع التي عملت على اتخاذ مثل هذا القرار ، هي اساسا سياسية وتوسعية، تقوم الحكومة الاسرائيليـة بتنفيذها ، بمـوجب « وثيقة غليلي » ، ولكن دون ضجة او تهليل .

كيف تمت عملية الاستيلاء ؟

بعد احتلال اسرائيل لقطاع غزة وشبه جزيرة سيناء بفترة قصيرة ، بدأت سلطات الاحتلال بتنفيذ مخططاتها الاستيطانية والتوسعية في تلك المناطق ، بصورة سرية ودون الاعلان عنها شيئا . ويبدو ان تنفيذ هذا المخطط تم من خلال الرأي السائد بأن

اقامة المستوطنات في تلك المنطقة لن يفيد شيئا من الناحية العسكرية ، اذ كانت القرى العربية منتشرة داخلها. ولهذا بدأت السلطات الاسرائيلية، بحملة تمويه واسعة ، فقامت بتسييج مساحات معينة من الاراضي في هذه المناطق بحجة الضرورة الامنية . واتبعت السلطات الاسرائيلية ، في البداية ، اسلوبا لينا ومرنا مع اصحاب هذه الاراضي ، فسمحت لهم بعد تسييجها بفلاحتها وزراعتها ، وبعد ذلك بفترة منعتهم من الدخول اليها ، ثم اجبرتهم على التوقيع على وثائق التنازل عنها . وهذا ما كشفته مذكرة قام وفد من حزب مبام بتسليمها الى رئيس الحكومة يتسحاق رابين ، مؤكدا فيها ان السلطات العسكرية « تستعمل الضغط والتهديد والاعتقال والاجبار على توقيع وثائق تنازل ، بما في ذلك تواقيع مزورة ، واجبار الاولاد (حتى ابناء ٩ سنوات) على توقيع وثائق تنازل كهذه » (معاريف ، ٧٤/٨/٢٩) .

وتم خلال عام ١٩٦٩ ، تسييج نحو ٢٠ الف دونم اقيمت عليها مستوطنات دكله وسدوت ونتيف هعسراه . وخلال عام ١٩٧٢ تم تسييج نحو ١١٠ آلاف دونم اخرى ، وباشرت سلطات الاحتلال باقامة المركز الاستيطاني الاقليمي افشلوم ، وهو عمليا المدينة « يميت » ، التي من المقرر ان تتوسع كثيرا بحيث ستصبح مركزا صناعيا ، وربما تتحول مع الوقت الى « مدينة ميناء جنوبية » تتم عن طريقها تجارة اسرائيل (دافار ، ٧٥/٣/٢٦). ومن جهة اخرى اعلن المقدم شموئيل ، الناطق باسم الحكم العسكري في قطاع غزة (الذي يشمل مشارف رفح) ان نحو ١٣٣ الف دونم من الاراضي العربية قد صودرت منذ ١٩٦٩ وحتى الان ، منها ٢٠ الف دونم مزروعة بالفواكه ، و٤٩ الف دونم ارض بور او مزروعة بأشجار النخيل و٥٨ الف دونم صالحة لزراعة القمح والشعير بصورة خاصة (المصدر نفسه) . كذلك هدمت عشرات البيوت وردمت عشرات الابار التي يحصل منها السكان على مياه الشرب .

حملة ضد مصادرة الاراضي

كانت السلطات الاسرائيلية ، كما ذكرنا ، قد بدأت بنهب هذه الاراضي وطرد اصحابها منها بصورة سرية ، بينما منعت الرقابة العسكرية نشر اية تفاصيل ومعلومات حول هذا الموضوع ، بحيث لم يعرف شيء عن هذه العمليات التي بدأت سنة ١٩٦٩ الا في سنة ١٩٧٢ ، عندما عقد ممثلون عن ١٤ مستوطنة تابعة لهاشومير هاتسعير (مبام) في منطقة القطاع اجتماعا في نيرعوز ، للاحتجاج على طرد العرب والاستيطان اليهودي في القطاع . وفي ذلك اليوم فقط (١٩٧٢/٣/٨) نشر الناطق العسكري باسم الجيش الاسرائيلي ، بيانا مقتضبا عن تسييج الاراضي في مشارف رفح (هآرتس ، ١٩٧٢/٥/١٨) . كما طالبت مجموعة من اعضاء الكيبوتس القطري (مبام) قيادة الحزب بشن حملة ضد مصادرة الاراضي العربية في مشارف رفح وطرد سكانها واعدادها لاقامة مستوطنات يهودية، واقترحت بأن يتولى الحزب طرح الموضوع في الكنيست والضغط على شريكه الرئيسي في الحكم ، حزب العمل ، لوضع حد لهذه الاعمال .

ومن الجدير بالذكر هنا ، ان الكيبوتس القطري (مبام) يدعو الى عدم التوسع والاستيطان في المناطق المحتلة ، ولكنه من جهة ثانية يقوم بانشاء مستوطنات تابعة له هناك . وكعادة هذا الحزب في تغطية وجهه الحقيقي نراه ، بعد ان قام بحملة ضد مصادرة الاراضي وطرد البدو من مشارف رفح ، يدعو الان الى الاستيطان الدائم في هذه المنطقة ، من خلال الافتراض ان قطاع غزة لن يعاد الى مصر ، وان « على اسرائيل ان تسعى لخلق منطقة استيطانية يهودية حاجزة بين القطاع وسيناء المصرية » (حبيب كنعان — هآرتس ، ٧٥/٣/٢٤) . ولكي يجد مبام لنفسه مبررا في ذلك، يدعي ان وجود البدو في هذه المنطقة لا يعرقل ابدا خطة الاستيطان فيها .

ومن ناحية ثانية ، قام السكان في مشارف رفح بحملة اعلامية واسعة اتصلوا خلالها بالصليب الاحمر ، وبعثوا ببرقية الى الامم المتحدة مطالبين فيها بالعمل على افشال المخططات الاسرائيلية التوسعية وابقائهم في اراضيهم .

وازاء هذه الحملة العنيفة ضد السلطات الاسرائيلية سواء في داخل اسرائيل او خارجها ، لم يعد بوسع المسؤولين الاسرائيليين تجاهل ما حدث او التغاضي عنه ، فلجأوا الى اتخاذ اجراءات استعراضية « مضادة » ، بحيث قام رئيس الاركان

« بتوبيخ » اثنين من كبار الضباط ونقل ضابط آخر من مركزه ، لايهام الرأي العام ، بأن العملية كانت مجرد مخالفة ، قام بها بعض العسكريين ، وان الامور ستعاد الى مجراها الطبيعي . ولكن الواقع يشير الى عكس ذلك تماما ، اذ ان السلطات السياسية هي التي أمرت الجهات العسكرية بتنفيذ ذلك (ويقال ان الجنرال شارون هو الذي نفذ عمليات الطرد تلك ، عندما كان قائدا للمنطقة الجنوبية ، ومن خلال « تجاوز صلاحياته »). كذلك اصدرت محكمة العدل العليا في القدس امرين مع وقف التنفيذ (الغيا فيما بعد) ضد حكومة اسرائيل وقائد المنطقة الجنوبية وقائد قطاع غزة وشمالي سيناء ، تطلب فيهما توضيح مبررات عدم السماح للقبائل البدوية التسع بالعودة الى اماكن سكناهم في مشارف رفح . وصدر الامران بناء على طلب تسعة من رؤساء القبائل الذين تقدموا بشكوى الى المحكمة (دافار ، ١٩٧٢/٨/٨) .

ويذكرنا هذا القرار الشكلي الذي لم يكن له أي مفعول بذلك القرار الذي اتخذته المحكمة نفسها في بداية الخمسينات ، ضد حكومة اسرائيل ، عندما أمرت باعادة اهالي قريتي اقرت وكفر برعم الى بلدتيهما ، بعد ان طردوا منهما ، ولكن كما هو معروف لا يزال هذا القرار الصادر من اعلى محكمة في اسرائيل ، حتى اليوم حبرا على ورق . ولم تكن السلطات الاسرائيلية عاجزة ، على اي حال ، عن تبرير هذا الاجراء التعسفي ضد القبائل البدوية ، اذ قدم الجنرال يسرائيل طال ، رئيس شعبة العمليات في ذلك الوقت ، جوابا خطيا الى محكمة العدل العليا ، شرح فيه اسباب اجلاء البدو عن مشارف رفح بقوله « ان مشارف رفح استخدمت خلال فترة طويلة بركانا وبؤرة لنشاط تخريبي نفذه سكان المنطقة او غرباء بمساعدة السكان . وقد قرر قائد المنطقة الجنوبية ، عزل قطاع غزة عن مصادر الاسلحة والذخيرة في سيناء ، للسيطرة على النشاط التخريبي في القطاع » . (يديعوت احرونوت ، ١٩٧٢/٩/١٩) .

المطالبة باعادة تخطيط مشارف رفح

انتقد البعض الوضع القائم في مشارف رفح بقوله ، ان كل ما يحدث هناك تم بدون تخطيط مسبق ومدروس ، بل بطريقة عشوائية ، وان أسلوب تسييج الاراضي واجلاء البدو كان غير سليم ، لانه بدلا من تخطيط قرى البدو من جديد بأوضاع ملائمة ، « كان اول ما فعلناه ابعاد [البدو] من اماكنهم وتركهم بدون مصادر عيش ، واثارتهم ضد الظلم الذي ارتكب ضدهم ... وبدلا من الاقتراح على البدو اراض اخرى قبل الاجلاء ، او الاقتراح عليهم تعويضات يقبلها العقل ، ابعدوا بالقوة عن الارض » (اريبه افنيري — دافار ، ٧٥/٤/١) .

ويبدو ، من جهة اخرى ، ان المطالبة باصلاح الوضع في هذه المنطقة ، اسفرت عن تحرك في هذا المجال ، اذ قدم الدكتور رعنان فايتس ، رئيس قسم الاستيطان في الوكالة اليهودية ، مشروعا الى اللجنة الوزارية لشؤون الاستيطان يقضي بدمج البدو في مشاريع تطوير منطقة رفح . ويهدف هذا المشروع الى اعادة اسكان كافة البدو الذين طردوا من مشارف رفح ، في قرى خاصة بهم ، تدمج مع الموشافيم والكيبوتسات التي اقيمت وستقام في هذه المنطقة . وسيتم اسكان نحو الف عائلة من التي تم اجلاؤها ، في بلدة ستقام في « المنصورة » شمال شرق مفرق افشلوم (معاريف ، ٧٥/٥/٧) .

ووزعت مؤخرا في الدهنية ، الكائنة في مشارف رفح ، اراض زراعية على عائلات البدو في المنطقة. ومن الجدير بالذكر هنا ان البدائل التي تقدم لصاحب الارض هي : (أ) ، مساعدة مالية لمرة واحدة بمبلغ ٧٥٠٠ ليرة اسرائيلية ، (ب) الحصول على وحدة سكنية في الحي الذي اقيم خارج المنطقة المسيجة ، (ج) الحصول على ٥ دونمات ارض (بدون بيت ووسائل انتاج) ، (د) ارض اخرى (بعل وبور) خارج مشارف رفح . وعلق احدهم على نوعية البيوت التي تقدم للبدو بقوله : « ان هذا البيت هو عار لدولة اسرائيل ولائحة اتهام بأيدي اعدائنا في الخارج ومعارضي الاستيطان في الداخل ، وان التعويض بمبلغ ٧٥٠٠ ليرة مضحك » (اريبه افنيري — دافار ، ٧٥/٣/٢٦) .

حمدان بدر

الاتحاد السوفياتي متفق مع الولايات المتحدة حول الانسحاب الى حدود حزيران ١٩٦٧ ، مع تعديلات طفيفة » (المصدر نفسه ، ٧٥/٥/٧) .

واضاف اخر معلقا على هذه الناحية بقوله ان الولايات المتحدة ترى وجوب وضع الحدود النهائية حسب « خطة دين راسك المؤلفة من ٦ نقاط » او حسب « خطة روجرز » والخطتان « تدعوان الى الانسحاب الكامل تقريبا » (المصدر نفسه). وعليه ، يعتقد البعض (دان مرغليت — هآرتس، ٧٥/٥/٩) ، ان ما تسعى اليه اسرائيل حقيقة هو تأجيل مؤتمر جنيف وترغب في أن لا يحدد غروميكو وكيسنجر في لقاء غيبنا ، بتاريخ ١٩/٥/ ٧٥ ، موعدا لانعقاده . واما الولايات المتحدة ، فمهتمة بالحصول على مقترحات جديدة حول « تسوية شاملة وليس جزئية . ويبدو ان اميركا متفقة حول ذلك مع الاتحاد السوفياتي ، وان ضغط الملك حسين أثر لجهة اتخاذها هذا الموقف الجديد . ويبدو ايضا ان اميركا تريد ان تعرف من اسرائيل الان ما هي الحدود التي تريدها » (المصدر نفسه) .

ومن ناحية ثانية ، ورغم ان البعض يعتقد ان الولايات المتحدة لم تتخل عن فكرة الحل الجزئي، يرى انها « في نطاق اعادة تقييم سياستها ستقرر ضرورة انسحاب اسرائيل الى حدود حزيران ١٩٦٧ ، مع تعديلات طفيفة » (اريئيل غيناي — يديعوت أحرونوت ، ١٩٧٥/٥/٩) . ولهذا ينبغي على حكومة اسرائيل تقديم مقترحات جديدة ، بدون الاعلان عنها مقدما . وذكر معلقون اخرون أن الولايات المتحدة فهمت الحلول الجزئية حسب مبدأ يتسحاق رابين : « قطعة ارض مقابل قطعة سلام » ، لانها ارادت لنفسها ثمنا جديدا من العرب ، مقابل كل « تنازل » اسرائيلي جديد ، ولكن هذه السياسة فشلت . ولذلك « بدأت السياسة الاميركية تعود الى خطة روجرز »(جدعون ساميط — هآرتس ، ٧٥/٥/١٥) .

اما بخصوص العلاقات مع الاتحاد السوفياتي فيرى معظم المعلقين الاسرائيليين ان مواقفه الاساسية من قضية الشرق الاوسط لم تتغير ، رغم وجود « نبرة جديدة » في التصريحات السوفياتية الاخيرة تجاه اسرائيل . ويعتقد هؤلاء ان الاتحاد السوفياتي يريد « اغراء » اسرائيل للذهاب الى جنيف ، ويتحدث عن « الضمانات » لها بهدف حملها على الانسحاب الى حدود عام ١٩٦٧ ، ولذلك حاول ايضا اقناع المسؤولين العرب وياسر عرفات بالاعتراف بحدود عام ١٩٦٧ . ولاحظ البعض تغييرا بسيطا في موقف الاتحاد السوفياتي من الانسحاب من الاراضي المحتلة بموجب القرار ٢٤٢ ، وبدا لهم انه يقبل الان بتعديلات طفيفة في الحدود ، ولكنهم يعتقدون ، رغم ذلك ، ان « هدف الاتحاد السوفياتي هو خلق حالة من الضغط على اسرائيل » (يوئيل ماركوس — هآرتس ، ٧٥/٥/٩) .

ضجة حول فتح السويس ... والجبهة الاردنية

بعد اعلان الرئيس السادات عن نيته بفتح قناة السويس في ٥ حزيران ، اثارت وسائط الاعلام الاسرائيلية ضجة حول عبور قوات مصرية الى شرق القناة ، بهدف حماية الملاحة فيها . واشارت بعض الدوائر الاسرائيلية الى ان مصر قد لا تقوم بذلك ، لان هذا العمل سيكون مناقضا « لخط الاعتدال » الذي اتبعه السادات حتى الان ، وان الولايات المتحدة تعتقد ان مصر لن تقوم بذلك للاعتبار نفسه ، وسترى في ذلك — فيما اذا وقع — خرقا لاتفاقية فك الارتباط من قبل مصر . ولكن جهات اخرى تعتقد ان مصر قد تستغل لقاء سالزبورغ « كستار للقيام بمثل هذه العملية » (اهود يعري — دافار ، ٧٥/٥/٧) . ويؤكد البعض ان مصر تفكر في الخيار العسكري وتخطط له بالتنسيق مع سوريا وغيرها من الدول العربية. « فاذا نجح السادات في دفع فورد الى الاعلان ان اميركا لا تؤيد احتلال اسرائيل ، واذا رفضت اسرائيل الانسحاب ، فستكون هذه افضل ارضية للحرب الخامسة بالنسبة للعرب » (عوديد زراي — هآرتس ، ٧٥/٥/٨) . ويبدو ان القصد من افتعال هذه الضجة هو تشويه « مظهر الاعتدال » الذي يبدو فيه السادات لاميركا ، « حيث ان واضعي السياسة الاميركية ، يصرون على اعتقادهم ، ان اسرائيل تظهر التصلب في حين يظهر العرب الاعتدال » (يوحنان لاهاف — يديعوت احرونوت ، ٧٥/٥/٦) .

ورافقت هذه الضجة حول قناة السويس ، ضجة

اخرى حول الجبهة الاردنية ، بينما « اتهمت » دوائر اسرائيلية مختلفة الاردن بتقريب قواته المدرعة الى نهر الاردن . كذلك كثر الحديث عن تقارب اردني — سوري ، وعن وعد سوري للاردن بتوفير مظلة جوية له ، وعن تصريح للملك حسين حول اشتراكه في الحرب القادمة . وثارت هذه الضجة بعد نشر معلومات حول قرار اميركا بيع ٢٠٠ صاروخ هوك للاردن ، الامر الذي استدعى تقديم « احتجاج » الى واشنطن بواسطة سفير اسرائيل هناك . وشكا العديدون من موقف الولايات المتحدة ، بعد الاعلان عن صفقة الصواريخ تلك ، لانها لم تجر اتصالا مسبقا مع اسرائيل حول هذه « السابقة » ، مما يدل على تغيير في سياستها تجاه هذا الموضوع من جهة ، بينما لا تزال « تؤخر » عقد صفقات اسلحة جديدة الى اسرائيل « بحجة » اعادة تقييم سياستها في الشرق الاوسط ، ولكنها رغم ذلك تبيع الاسلحة الى الاردن والسعودية ، من جهة ثانية (يديعوت احرونوت ، ٧٥/٥/٧) .

وهنا أيضا قد تكون هذه الضجة حول الجبهة الاردنية نوعا من «الضغط» على اميركا بهدف حملها على الاسراع في ارسال صفقات جديدة من الاسلحة لاسرائيل او لخلق ظروف اسهل بالنسبة لاميركا للقيام بمثل هذه الخطوة لحفظ « التوازن » .

ومن ناحية ثانية اشار بعض المراسلين الاسرائيليين في واشنطن ان تصريحات الملك حسين المعتدلة اثناء زيارته الاخيرة لواشنطن « جعلت حياة الديبلوماسيين الاسرائيليين صعبة » (شموئيل سيغف — معاريف ، ٧٥/٥/٩) . وقد يكون القصد من الحديث عن توتر عسكري على الجبهة الاردنية بالذات تشويه « طابع الاعتدال » هذا الذي تركه الملك حسين لدى الاميركيين . وعلى أية حال طالبت معظم الدوائر الاسرائيلية « بمزيد من الانتباه الى ما يجري على الجبهة الشرقية » (افتتاحية دافار ، ٧٥/٥/٥) .

صراع في المعراخ حول التسوية

تشير الانباء الواردة من اسرائيل مؤخرا الى وجود صراع داخل المعراخ (التجمع) الحاكم حول التسوية السياسية . وكل من أبرز علامات هذا الصراع الاتهامات التي وجهها وزير الخارجية السابق ابا ايبن الى الحكومة الاسرائيلية ، معتبرا انها المسؤولة عن فشل مهمة كيسنجر ومطالبتها بالقيام بـ « مبادرة سلام » جديدة . ففي مقابلة مع معاريف ٧٥/٥/٩) اعلن ايبن انه كان يعارض تسوية جزئية مع مصر ، « ولكن اذا كانت اسرائيل قد بدأت المفاوضات ، فقد كان عليها ان تقبل بالاتفاق ... ونتيجة لموقف حكومة اسرائيل هذا ، أصبحت العلاقات مع اميركا اسوأ مما يبدو للعيان. فهي لا تنسق مع اسرائيل قبل تزويد الاردن بالاسلحة ، كما كانت تفعل دائما . وبدلا من ان تنسق مع اسرائيل قبل لقاء فورد السادات ، نسقت مع مصر قبل مقابلة فورد رابين » . واضاف ايبن : « لقد كان جليا كالشمس ان مصر لن تقبل بالغاء حالة الحرب . وحتى في سنة ١٩٧١ قدم لي رجل قانون اسرائيلي مذكرة ، جاء فيها ان مصر ، فيما اذا وافقت على الغاء حالة الحرب لقاء انسحاب اسرائيلي من بعض المناطق في سيناء، فان هذا يعني حسب كل السوابق التاريخية انها تنازلت لاسرائيل عن بقية المناطق واعطتها الحق في ضمها » (المصدر نفسه) .

وذكر بعض المراسلين الاسرائيليين ان تصريحات ايبن هذه « لاقت ارتياحا واهتماما من قبل المسؤولين الاميركيين الذين يتوقعون ان يحدث ضغط داخل اسرائيل ، يدفع رابين الى جلب مقترحات جديدة الى واشنطن » (شموئيل سيغف — معاريف ، ٧٥/٥/١١) . وكان موشي دايان أيضا قد دعا الحكومة الاسرائيلية الى تجديد المفاوضات مع اميركا قبل ان تتوصل الى اتفاقات مع مصر ومع السوفييت ، فتجد اسرائيل نفسها امام الامر الواقع (معاريف ، ٧٥/٥/٥) .

وعلقت بعض المصادر على تصريحات ايبن « المعادية » للحكومة الاسرائيلية ، التي اثارت نقاشا واسعا داخل التجمع العمالي الحاكم ، بقولها ان ايبن يهدف من وراء تصريحاته تلك الى منافسة رابين على رئاسة الحكومة المقبلة . وذكر آخرون ان كيسنجر « التقى مع اعداء لرابين مثل ايبن ودايان ، اللذين يقدمان مقترحات مناقضة لمواقف الحكومة » (يديعوت احرونوت ، ٧٥/٥/٥) . وذكر ايضا ان الوزير السابق بنحاس سابير يعارض سياسة الحكومة الحالية ، وان حزب مبام ، المتحالف مع حزب العمل في اطار

المعراخ (التجمع) ، يهدد المعراخ بالانسحاب منه اذا لم تقم اسرائيل بمبادرة سلام جديدة ، ولم ترسم الحدود النهائية التي تريدها .

وأيد بعض المراسلين الاسرائيليين قول كيسنجر ان السبب الرئيسي لفشل وساطته في المفاوضات الاخيرة هو ضعف حكومة رابين ، فكتب احدهم (يوئيل ماركوس — هآرتس ، ٧٥/٥/٩) معلقا على هذا الموضوع بقوله : « هناك وزراء ليس لديهم رأي واضح . توجد لدى الون خطة محددة بخصوص الضفة الغربية . واما رابنوفيتش وبارليف وعوفر وتسادوك وشمطوف ويدلين [وزراء المالية والتجارة والصناعة والاسكان والعدل والصحة والمعارف والثقافة] فيدعون الى تنازلات اقليمية بعيدة المدى . وفي الحزب نفسه [العمل] اعضاء مثل دايان وايبن ، لديهما رؤيا واضحة ، ولكنهما لا يناضلان من اجلها داخل الحزب... » ولهذا ، في مثل هذا الوضع « من الصعب على رابين ان يقترح اجراء نقاش في حزبه حول خطة محددة قبل لقائه مع فورد ، لانه لا يشعر بأن لديه القوة الكافية لان يتحمل نتائج هذا النقاش المصيري . فحزبه مفكك ، ويخشى ان يتحطم الائتلاف الحكومي » (المصدر نفسه) .

ودعا اكثر من معلق يتسحاق رابين الى قيادة اسرائيل لمبادرة جديدة ، من خلال الاعتراف بأن مرحلة الحلول الجزئية قد انتهت ، خاصة وان الدلائل تشير الى ان اميركا فقدت الامل بمثل هذه الحلول . « ان اخطر وهم يمكن ان تقع اسرائيل فيه هو [اعتقادها] انها ستستطيع خوض الحرب القادمة بدعم اميركي حقيقي ، دون ان تدرك ان الخيار الوحيد اليوم هو : الاستعداد للتسوية الشاملة » (جدعون سامط — هآرتس ، ٧٥/٥/١٥) . واضاف المراسل نفسه ، مذكرا حكومته ، « لم تكن هناك سابقة رفض الجمهور الاسرائيلي بموجبها قرارا سياسيا اتخذته [الحكومة] وانسحاب اسرائيل من سيناء عام ١٩٥٧ يثبت ذلك ... ان الخيار امام رابين اليوم : اميركا او المغدال » (المصدر نفسه) . ولهذا يبدو ان ضعف موقف رابين داخل حكومته وخوفه من تفسخ الائتلاف الحكومي (حيث ان الحزب الديني القومي دخل الائتلاف بشرط اجراء انتخابات جديدة قبل التوقيع على اي انسحاب من الضفة الغربية) ، بالاضافة الى الوضع العام داخل الاحزاب الاسرائيلية الاخرى ، هو العامل الرئيسي في كون حكومة اسرائيل مشلولة ازاء اتخاذ قرارات حاسمة .

ورغم ذلك ، هناك اصوات اخرى في اسرائيل تنطلق في تعليقاتها من الدعوة لاستمرار تصلب الحكومة الاسرائيلية ، وهي لذلك ترى ان الحرب الخامسة حتمية : « لقد كان واضحا منذ نهاية الحرب الماضية ان الحرب القادمة لا مفر منها . وهذه الحرب ستبدأ عندما تكف اسرائيل عن الانسحاب بدون مقابل . وان حسين الذي أقام جيشا يلفت النظر ، سيشترك في هذه الحرب ... لذلك علينا ان نكون مستعدين في كل وقت ، وليس في « التواريخ » المحتملة فقط ... » (أوري دان — معاريف ، ٧٥/٥/٩) .

يوسف حمدان

[٢]

الفساد في المؤسسات الاسرائيلية يصل الى جهاز الامن
تقرير مراقب الدولة يكشف عيوب الادارة الاسرائيلية

كان جهاز الامن الاسرائيلي ، الذي يشمل وزارة الدفاع والجيش ، مسرحا في الاونة الاخيرة لعدة قضايا رشوة وفساد ، ادت الى خلق عاصفة واستياء شديدين بين السكان ووسائل الاعلام في اسرائيل ، بعيدا كل البعد عن ارتكاب مثل هذه الفضائح . وأدى اكتشاف قضايا الرشوة هذه الى اعتقال عدد من كبار العاملين في جهاز الامن بتهمة الحصول على رشوات من بعض الشركات والمصانع لتسهيل حصولها على المناقصات التي تعلن عنها وزارة الدفاع لشراء ما يلزمها من

امدادات عسكرية ومدنية . كذلك اعتقل اصحاب الشركات والمصانع صاحبة العلاقة . وكان من بين ابرز المعتقلين العسكريين الرائد مئير بن ــ اهرون، الضابط في قسم المشتريات في سلاح الجو ، والرائد (احتياط) يوئيل ميرون ، موظف كبير في وزارة الدفاع ، والعميد ثاني (احتياط) حاييم يارون رئيس قسم المعدات في سلاح الجو سابقا، ومردخاي هرئيل ، عضو بعثة وزارة الدفاع في الولايات المتحدة سابقا ، ويتسحاق روبين العامل في قسم النقل في وزارة الدفاع ، ويسرائيل روزنتسايغ من سلاح الجو (معاريف ، ٧٥/٤/٢٧ وهآرتس ، ٧٥/٤/٢٣) . أما ابرز المعتقلين المدنيين فهم امنون افني صاحب شركة الهندسة الهيدرولية في كريات غات ، الذي استغل علاقاته الشخصية بموظفي وزارة الدفاع وبعض ضباط الجيش وقدم لهم رشوات للحصول على طلبات من الجيش تقدر بملايين الليرات . كذلك اعتقل يوسف مهيرشاك ، صاحب مصنع « هتخوف » في حيفا ، الذي ينتج صهاريج وقود لحساب قسم المعدات في سلاح الجو ، بناء على طلب وزارة الدفاع ، وذلك بتهمة رشوة بعض العاملين في الوزارة والجيش ، مقابل الحصول على مناقصات بملايين الليرات . واعتقل ايضا يوحنان رافياح ، وهو مستشار اقتصادي يمثل مصنع مهيرشاك في وزارة الدفاع (هآرتس ، ٧٥/٤/١٧) . كذلك اعتقل فيما بعد المدعو غوستاف ستيل وهو مهندس في وزارة المواصلات ، ودافيد رابتز صاحب مصنع « رادا » في حيفا (معاريف ، ٧٥/٤/٢٧) . وذكر مفوض الشرطة موريس كلمارو ان وزارات التجارة والصناعة والمواصلات والخارجية ، بالاضافة الى مكاتب الاستثمارات ومسؤولين في سلاح الجو ، متورطين في قضايا الفساد في وزارة الدفاع . وأعلن ايضا ان الشرطة تحقق في موضوع امني آخر ، وصفه بأنه سري (هآرتس ، ٧٥/٤/٢٤) .

تعتبر قضايا الفساد التي اكتشفت مؤخرا في جهاز الامن الاسرائيلي ، استمرارا لتلك القضايا التي اكتشفت خلال السنة الاخيرة على نطاق واسع ، سواء في المؤسسات الحكومية او العامة، واهمها قضايا الاختلاس والرشوة وسوء الائتمان في كل من بنك اسرائيل ــ بريطانيا ، « والشركة لاسرائيل » ، وشركة البناء الحكومية سوليل بونيه، وشركة المياه مكوروت . ويبدو ان هذه القضايا ليست جديدة على المجتمع الاسرائيلي ، اذ لا زلنا نذكر قضايا الاختلاس والسرقة في شركة النفط الاسرائيلية « نتيفي نفط » وشركة المقاولات « غيرد » وشركة السيارات « اوتوكارز » ، التي اكتشفت جميعا في عهد الحكومة السابقة . غير ان الجديد في قضايا الفساد الراهنة هو كثافتها ، التي تجاوزت ما يمكن اعتباره « حالات شاذة » على حد قول رئيس حكومة اسرائيل يتسحاق رابين (هآرتس ، ٧٥/٤/٢٤) ، ثم وصولها الى جهاز الامن الاسرائيلي ، « فأمام اعيننا ذبحت البقرة المقدسة ، التي تربت على الدلال خلال الـ ٢٧ سنة الاخيرة ــ انها جهاز الامن ، الذي استثمرت به اكثر الاموال والامكانات . والان اتضح ان الحليب الذي تمنحه هذه البقرة المقدسة فاسد قليلا ، ربما لعدم توفر رقابة كافية عليها » (اريه افنيري ــ يديعوت احرونوت ، ٧٥/٥/٤). ويبدو ان قضايا الفساد هذه ليست جديدة في جهاز الامن الاسرائيلي ، بل هي وليدة سلسلة من الاخطاء حدثت في الماضي . ويعتقد مراقب الدولة ، دكتور ي. نفنتسائيل (من مقابلة معه في دافار ، ٧٥/٥/٢) انه « اذا كان هناك شعور بأن كل شيء على ما يرام في الجيش ، فان هذا الشعور ليس له تغطية . لقد اشارت رقابة الدولة في الماضي والحاضر الى اخطاء في جهاز الامن ... لا اعتقد ان قيادة جهاز الامن نفسها اعتقدت ان كل شيء حسن عندها . حدثت تحقيقات ومحاكمات عسكرية واستنتاجات رقابة داخلية ، تشهد كلها امام القيادة ، ان الامور لم تكن صالحة ... »

تقرير مراقب الدولة ــ وثيقة حول انتشار الفساد

اعقب اكتشاف قضايا الفساد في جهاز الامن ، نشر تقرير مراقب الدولة الخامس والعشرين للسنة المالية ١٩٧٣ / ٧٤ ، الذي جاء بمثابة وثيقة هامة تدل على انتشار الفساد والعيوب في الادارة الاسرائيلية ، خاصة في الوزارات والمؤسسات الاقتصادية والامنية . ويصدر تقرير مراقب الدولة سنويا على شكل مجلد ضخم يضم ، عادة ، مئات الصفحات التي تحتوي على استنتاجات وتعليقات جهاز رقابة الدولة على سير العمل في الوزارات والمؤسسات الاسرائيلية الرسمية المختلفة ومستوى ادارتها . وأثار التقرير الاخير عاصفة شديدة بين

اوساط الرأي العام ، خاصة وانه جاء بعد اكتشاف قضايا الفساد في جهاز الامن ، وتناولته معظم الصحف ووسائل الاعلام بالشرح والاسهاب ، خلافا لما يحدث في كل سنة حيث يقتصر الاهتمام به على بعض الدوائر الحاكمة ووسائل الاعلام ، ثم يتناساه الجميع .

تعتبر استنتاجات المراقب بالنسبة لوزارة الدفاع والجيش اهم ما ورد في تقريره الاخير ، اذ ذكر المراقب ان هناك عيوبا وتأخيرات ونفقات لا لزوم لها صرفت على اقامة تحصينات ومراكز الجيش والمستوطنات في هضبة الجولان . كذلك اشار الى وجود « استخفاف » بالمعدات العسكرية داخل الجيش وخاصة سيارات النقل . اما بالنسبة للخدمة الاحتياطية ، فقد وجد المراقب انها لم توزع بشكل صحيح بين افراد القوات الاحتياطية خلال الحرب الاخيرة وبعدها . كذلك اشار الى وجود نقص في الملاجىء العامة . وبالنسبة لوزارة الدفاع ذكر المراقب ان هناك اخطاء كبيرة في اساليب العمل وانظمة المشتريات واستغلال الميزانيات ، وتناول بشكل خاص ادارة قسم المشتريات ، فأشار الى التقاعس والاهمال الشديدين اللذين يسودانها ، والنفقات التي لا لزوم لها ، ثم الشكوك حول الغش والخداع داخلها . واضاف المراقب ان وزير الدفاع تنقصه الاجهزة الكافية لتعقب ما يحدث داخل وزارته . اما بالنسبة للصناعة العسكرية فقد اشار المراقب الى عدم وجود خطة لديها لشراء مواد احتياطية ، وذلك بالاضافة الى ان الصناعة العسكرية متعلقة بشكل خطير بعدد قليل من المزودين في الخارج (هآرتس ، دافار ، يديعوت احرونوت ، ٧٥/٤/٢٩) .

أما بالنسبة للاستنتاجات الاخرى التي توصل اليها المراقب ، فأهمها تلك التي تتعلق بالوزارات الاقتصادية مثل وزارات المالية ، والتجارة والصناعة ، والعمل والمواصلات . وانتقد المراقب وزارة المالية بقوله ان ميزانية الدولة تتخللها عيوب كثيرة ، والجهاز المالي مقلق جدا . فالميزانية لا تعكس ما تفعله الحكومة ، وبدلا من تقليصها ، حيث كان بالامكان توفير مليار ليرة خلال هذه السنة ، تم توسيعها . وأشار المراقب الى ان « سماسرة » كثيرين يربحون أموالا طائلة خلال عملية نقل الاموال بين المالية والجمهور . كذلك تطرق الى الدين القومي الآخذ بالازدياد سنة بعد اخرى ، وأوصى بأحداث اصلاح شامل في الادارة المالية في الدولة . أما بالنسبة لبنك اسرائيل فقد وجد المراقب ان البنك لا يملك سياسة واضحة بالنسبة لمنح الاموال . وعلق على نشاط وزارة التجارة والصناعة بقوله ان هناك اخطاءً كثيرة في المعلومات ومراقبة الاسعار . وبالنسبة لوزارة المواصلات اشار المراقب الى ان استئجار الشاحنات في الخارج ، التي احتاجتها اسرائيل خلال الحرب وبعدها ، سبب خسائر مالية كثيرة للوزارة . وتطرق المراقب ايضا الى وزارتي الاستيعاب والاسكان ، فوجد ان مهاجرين جدد ، مثلا ، قد حولوا الى مساكن غير ملائمة للسكن ، كذلك فان هناك تأخيرا في اخلاء الاحياء الفقيرة ، وهو ما تعتبره وزارة الاسكان احد مهامها الاساسية (دافار ، ٧٥/٤/٢٩) .

اما بالنسبة لاستنتاجات المراقب حول القضايا الداخلية والاجتماعية ، فأهمها تلك التي تتطرق الى وضع السلطات المحلية الذي وصف بأنه غير مرض . فالسلطات المحلية لا تستطيع الصمود تحت عبء النفقات المطلوبة منها لتمويل اعمالها المتنوعة، بحيث تضطر الى الحصول على قروض بشروط غير سهلة ، بعضها مرتبط بجدول غلاء المعيشة . وتشكل هذه القروض الان عبئا ثقيلا على السلطات المحلية ، اذ انها مدينة الان بنحو ٣ر٥ مليار ليرة لصندوق القروض ، عدا الفوائد والزيادة نتيجة الغلاء ، بحيث ارتفعت هذه الديون الى ٦ مليارات ليرة . ولمواجهة هذا العبء تضطر السلطات المحلية الى اللجوء لمصادر تمويل من سوق المال الحرة ، حيث يقوم المرابون باستغلال اوضاعها والتشديد في شروط منح القروض . ويلقي المراقب اللوم في ذلك على وزارة الداخلية التي لم تنجح في فرض الرقابة الممكنة والضرورية حسب القانون والانظمة (ر١١ ، ٧٥/٤/٢٨) . كذلك اشار تقرير المراقب الى الوضع السيىء في وزارة المعارف والثقافة ، حيث لم يؤد الاصلاح الذي اتبعته الوزارة الى رفع مستوى الطلاب . ويذكر ايضا ان سكان مدن الاعمار ما زالوا متخلفين في المجال الثقافي (يديعوت احرونوت ، ٧٥/٤/٢٩) .

وبعد نشر تقريره ، عقد مراقب الدولة مؤتمرا صحافيا هاجم فيه بشدة النظم الادارية في جهاز

الحكومة والجهاز المالـي في اسرائيل ، اللذين يؤديان الى كثرة ظواهر الفساد . واكد المراقب انه لا يجوز لاي شخص « ان يخدع نفسه ، بأن هناك خيارا امامنا لادارة الدولة بصورة صحيحة او غير صحيحة . ان خيارا كهذا غـير قائم . اذا سمحوا لظواهر الفساد بالانتشار ، فانها ستؤدي الى تآكل حقيقة وجود هذه الدولة . وربما تؤدي الى هدمها والقضاء علـى وجودنا كمجتمع » . واضاف انه « من المستحسن ان تمنح قيادة الدولة افضلية كبيرة لاصلاح الادارة العامة والرسمية ، من خلال ظواهر الفساد » . وتطرق المراقب الى اولئك المتورطين بأعمال الفساد فأشار الى « ان الضرر الذي يسببه هؤلاء شبيه بالضرر الذي يسببه الخونة » (المصدر نفسه) . كذلك اعلن المراقب خلال مقابلة معه (دافار ، ٧٥/٥/٢) ان تقدما سريعا طرأ خلال السنين الاخيرة على جميع مجالات الادارة في العالم ، وهذا التطور « وصل الـى جيراننا ايضا . لذلك اذا كنا لا زلنا نتعثر في مكاننا او نتقدم بصورة بطيئة فقط — فان ذلك يعد انسحابا من جانبنا . يختلجنا الشعور بأننا شعب مختار ، وقد حققنا الكثير من المكاسب في مجالات عدة بفضل هذا الشعور ، مثل العلوم والحياة الاجتماعية . ولكن في مجال الادارة فاننا لا نظهر تلك الرغبة في التقدم ، كما هو الحال في مجالات اخرى » .

دعا معظم المعلقـين والكتاب الى الاهتمـام باستنتاجات مراقب الدولـة ، والنواحي التـي تطرقت اليها ، نظرا لخطورتها ، وخاصة تلك المتعلقة بجهاز الامن وبالوزارات والمؤسسـات الاقتصادية . « ان استنتاجات تقرير مراقب الدولة ليست مادة للواعظين . يجب ان يكون لها عنوان آخر : المستشار القضائي للحكومة، النيابة العامة للدولة ، الشرطة ، الوزراء المسؤولين عن العاملين داخل وزاراتهم » (جدعون ساميط — هآرتس ، ٧٥/٥/٢) . وانتقد كاتب آخر تقرير مراقب الدولة « لان الواقع اظهر ان الاسلوب « النباتي » واللين الذي انتهجه الدكتور نفنتسائيل قد فشل . فطوال السنين التي عمل فيها امتنع المراقب عن الاشارة الى اشخاص معينين واكتفى بالاستنتاجات العامة في نقده ... بدون تفصيل او اشارة واضحة الى المسؤولية والمسؤولين، ولذلك لا فائدة من تقاريره » (دانيئيل بلوخ — دافار ، ٧٥/٤/٢٥) . ولهذا ينبغي اصلاح مكتب مراقب الدولة « وملاءمته لسد الحاجة في دراسة شاملة لاعمال الحكومة وشركائها في المجال الاقتصادي والمالي . ولذلك ثمة ضرورة لدراسة امكانية تعيين مراقب جديد ، وادخال هيئة قوية الى مكتبه ... لكي يستطيع القيام بمهامه المطلوبة بشأن الاقتصـاد والمجتمع » (المصـدر نفسه) .

الفساد واسبابه

تعود عوامل الفساد التي ظهرت في المجتمـع الاسرائيلي خلال الفترة الاخيرة ، خاصة في جهاز الامن ، الى الاوضـاع الاقتصـادية والسـياسية والاجتماعية التي تسود اسرائيل خلال السنوات الاخيرة . ورغم ان هـذه العوامل تختلف بـين مؤسسة واخرى من تلك التي انتشر فيها الفساد ، الا ان هناك عدة نقاط مشتركة بينها ، منهـا : (١) تنحصر حـوادث الفساد في المؤسـسات الاقتصادية وفي جهاز الامن، (٢) ظهر ان المتورطين في هذه الاعمال هم ، عادة ، من كبار المسؤولين والموظفين في هذه المؤسسات ، (٣) تتمثل حوادث الفساد في الرشوة والاختلاس وسوء الائتمان . لذلك يمكن الاستنتاج ان هناك عوامل عامة فـي اسرائيل تؤدي الى مثل هذه الاعمال ، واخـرى خاصة تساعد او تدفع الى ارتكابها . ومن اهم العوامل العامة اسلوب التعامل الاقتصادي فـي اسرائيل . لقد واتى الحظ هذه الدولة فحصلت كل حياتها على أمـوال [تبرعات ومساعدات] تفوق انتاجها . ان هذه الاموال التي وزعت بصورة انتقائية بواسطة بعض الفئات المركزية ، لم تمنح تلك الفئات القوة فقط ، وانما الشعور بالوفرة المزيفة . لقد شجع هذا الشعور التبذير ، وخلق لدى الكثيرين الاعتقاد بأن دافع هذه الاموال ، اي اميركا ، سيدفعها ولن يخسر شيئا (يوئيل ماركوس — هآرتس ، ٧٥/٥/٧) . وعلى خلفية الوفرة المالية المزيفة هذه ، ساد جو مـن التساهل . فأموال كثيرة جدا تدفقت الى اشخاص عديدين ، بحيث كثرت الحفلات والهدايا والرشوات علـى مختلف انواعها واشكالها . كذلك فان عدم وجود قوانين ملائمة تبين المحظور والمسموح به في مثل هذه الحالات قد ساعد على انتشار الفسـاد « وقد وصلنا الى وضع يصعب معه ايجاد اي زعيم ليس في ماضيه اي عيب . لذلك كان من الطبيعي ان

كثيرا من الامور التي حدثت بسبب العادة المتبعة في البلد ... قد دفعت عددا من الاشخاص الى الانحراف عن الطريق المستقيم » (المصدر نفسه).

كذلك يبدو ان العامل السياسي الداخلي قد أثر على انتشار الفساد ، « ومن المهم ان نذكر هنا ، ان الانحطاط في الاخلاق والاداب العامة قد حدث بين فئة صغيرة داخل الطبقة القيادية والغنية وذات الكفاءات ، وان مجرى الانحطاط حدث في الاساس بسبب الاسلوب الاقتصادي والسياسي » (امنون روبينشتاين — هآرتس ، ٧٥/٤/٢٥) . ويؤكد معلق آخر ان عددا لا بأس من قضايا الفساد ، التي اكتشفت مؤخرا ، جاء نتيجة لاسلوب الحماية والمحسوبية الذي كان متبعا خلال فترة طويلة في اسرائيل ، خاصة وان الاخلاص الشخصي والانتماء السياسي كانا من اهم المقاييس للحصول على الوظائف الكبيرة . « ان هذا الاسلوب خلق مع الايام نظاما اقتصاديا وسياسيا مبنيا على « اسداء الجميل ورد الجميل » ، ثم تنظيم الامور في الداخل ، بدون الحاجة الى الشرطة — تماما كما يحدث في الجريمة المنظمة » (يوئيل ماركوس — هآرتس ، ٧٥/٤/٢٣) . ولا ينطبق هذا الوضع على الاجهزة الحزبية فقط ، « فخلال السنين تكونت اجهزة فرعية للبيروقراطية ، عندما اتجهت مجموعات من المدراء وموظفي الحكومة ورجال الجيش الذين انضموا الى عالم الاعمال الى المحافظة على علاقاتها واخلاصها الشخصي « للاصدقاء والرفاق » الذين بقوا في الخدمة العامة ... ان العلاقات الشخصية — السياسية والمحسوبية في وضع ألزم تحويل اموال كثيرة من اموال الشعب الى مشاريع رسمية حيوية (مثل الحاجة الى بناء خطوط تحصينات ضخمة بسرعة ومهما كلف الامر) هي التي فتحت الطريق في نهاية الامر ليس فقط أمام التبذير وانما امام الانحراف عن الطريق المستقيم ايضا ، وتحويل أموال الشعب الى الجيوب الخاصة » (المصدر نفسه) .

عدم الرقابة في جهاز الامن هو سبب الفساد

بالنسبة لجهاز الامن ، يبدو ان هناك عوامل خاصة ساعدت على ارتكاب اعمال الرشوة التي اكتشفت مؤخرا ، رغم انه لا يمكن فصلها عن الجو العام المتمثل في « الركض وراء الربح » . واهم هذه العوامل الخاصة هي : (١) عدم وجود قوانين ملائمة داخل الجيش للمحافظة على الاستقامة . لذلك هناك ثغرات كثيرة داخل جهاز الامن تكون غالبا دافعا لارتكاب اعمال الفساد . « فالجميع [مثلا] يتحدثون الان عن تحسين انظمة المناقصات ، بسبب ظهور جميع اعمال الرشوة داخلها ... ولكن هناك اعمال التخطيط التي لا يسري عليها واجب المناقصات ابدا ، خاصة وان جهاز الامن يطلب في كل سنة عدة خطط من جهات مختلفة بملايين الليرات » (يوسف لابيد — معاريف ، ٧٥/٥/٢) . (٢) الاتساع الكبير في جهاز الامن خلال سنين قليلة ، وخاصة منذ حرب ١٩٧٣ . « فليس سرا ان جيش اسرائيل ازداد بصورة كبيرة من ناحية عددية . ولكن وزارة الدفاع — وهي الهيئة المدنية التي تدير الجيش — لم تتسع بالنسبة نفسها . والاسوأ من ذلك ان الاتساع الفجائي في جهاز الامن ادى الى استدعاء بعض الاشخاص الذين ما كانوا ليتولوا مهام ذات مسؤولية في الجيش في الايام العادية » (المصدر نفسه) . (٣) انعزالية جهاز الامن ، « وهنا يمكن القول ان وزارة الدفاع والجيش ، هما ، من عدة نواحي ، دولة داخل دولة . ان واجب السرية يستغل احيانا للقيام بأعمال من السهل اخفاؤها عن اعين الجمهور » (المصدر نفسه) . (٤) ميزانية الدفاع الكبيرة وعدم توفر رقابة كافية عليها .

وتحدث عضو الكنيست مسحه ارليخ ، رئيس اللجنة الفرعية في الكنيست المشرفة على ميزانية الدفاع ، حول هذا الموضوع (في مقابلة مع يديعوت احرونوت ، ٧٥/٤/٢٥) قائلا انه ليس هناك ادنى حد من الرقابة البرلمانية على جهاز الامن . وخلافا لاي وزارة اخرى ، من تلك التي تتعرض ميزانيتها للمساومة مع فرع الميزانيات في وزارة المالية ، فان المالية لا تملك الاجهزة الملائمة لفحص ميزانيات الدفاع ، « والنتيجة هي ان هذه الميزانيات تبقى الميراث الدائم لموظفي قسم الميزانيات في وزارة الدفاع . واذا اضفنا الى ذلك ستار السرية الذي تحاط به ، سيفهم المرء ان جهاز الامن هو مكان معد للفوضى والتبذير وحتى لمظاهر الفساد ، كما ظهر خلال الاسابيع الاخيرة . واضاف ارليخ ان اعضاء اللجنة التي يرئسها ، والتي تتمثل مهمتها الاساسية في فحص ميزانيات الدفاع ، لا يحق لهم الاطلاع مسبقا على ارقامها « والنتيجة هي انهم

يجهلون تركيبها الحقيقي » (المصدر نفسه) .

ويبدو ، من ناحية ثانية ، انه ليس هناك تشجيع من جانب قادة جهاز الامن ، للنقد والرقابة العامة على هذا الجهاز ، وقد كان الراي العام وأوساط عديدة على استعداد للتسليم بهذا الامر ، وقبلوا بالافتراض ان جهاز الامن مفيد ونزيه ومليء بالتوفير . لقد ساد هذا الافتراض بين الجمهور بسبب المديح الذي يكيله رؤساء جهاز الامن لانفسهم » (تيدي برويس — دافار ، ٧٥/٤/٢٤) . « ان هذا الوضع بحد ذاته — ميزانية ضخمة مع رقابة عامة ضعيفة — لم يكن سليما . وعندما اضيف اليه اعتراض رؤساء جهاز الامن على الاصغاء ولو لقليل من النقد ، لم يكن الانحطاط داخله مستبعدا » (المصدر نفسه) .

ويبدو ايضا ان ظاهرة انتقال عدد من كبار الموظفين والضباط من الخدمة العامة والجيش الى قطاع العمل الخاص ، وانضمامهم الى شركات مرتبطة بأعمال مع دوائر في الحكومة او في جهاز الامن ، كانوا ينتمون اليها في الماضي ، قد ساعدت على انتشار حوادث الفساد داخل جهاز الامن . « ان الضابط الذي يرئس قسم شراء المعدات في احد اسلحة الجيش ، وينضم بعد تسريحه من الجيش بأشهر معدودة الى شركة وكيلة لبيع الاسلحة ، يمكن ان يحضر معه ليس خبرة مهنية فقط ، وانما علاقات خاصة ومعلومات ، يمكن بواسطتها فتح ابواب مغلقة أمام آخرين » (ناتان ريبون — هآرتس ، ٧٥/٤/٣٠) . ويظهر انه على الرغم من ان اسرائيل سنت في عام ١٩٦٩ قانون الخدمة العامة ، الذي عين فترة سنتين بين ترك الخدمة العامة والانضمام الى القطاع الخاص ، فان هذا القانون لا يطبق بشكل صحيح ، وهو مليء بالثغرات (المصدر نفسه) .

تعيين مراقب جديد في وزارة الدفاع

ادى اكتشاف حوادث الرشوة والفساد في جهاز الامن الى اثارة المسؤولين عن هذا الجهاز وخاصة وزير الدفاع بيرس الذي وعد « باقتلاع جميع الاعشاب الضارة » منه ومعالجة مثل هذه الحوادث « بيد من حديد » (هآرتس ، ٧٥/٤/٢٤) . وقرر بيريس اتخاذ عدة اجراءات لاكتشاف حوادث الفساد ومنعها ، منها تعيين مراقب جديد داخل جهاز الامن ، يكون ذا خبرة بما يحدث داخل الجيش ، خاصة فيما يتعلق بالمشتريات وبالمواضيع المالية الاخرى . وقد عرض بيريس هذا المنصب على عدة اشخاص منهم حاييم لاسكوف رئيس الاركان السابق ، والعميد (احتياط) يسرائيل طال ، والعميد رفائيل فاردي ، الا انهم رفضوا ذلك (دافار ، ٧٥/٤/٢٥) . وفي النهاية وافق شمعون افيدان من رؤساء كتلة مبام وقائد لواء جفعاتي في حرب ١٩٤٨ على تولي هذا المنصب . وسيعمل معه في هيئة الرقابة البروفيسور هانس كلينغهوفر كمستشار قانوني ، والدكتور ارثور بيرغمان مدير عام بنك الملاحة كمستشار للمواضيع الاقتصادية والمالية . كذلك ستوضع وحدة الرقابة المالية في الجيش ووزارة الدفاع تحت تصرف هيئة الرقابة الجديدة، بعد تعزيزها بمزيد من العاملين (معاريف، ٧٥/٥/٨) .

كذلك دعا وزير الدفاع بعض الخبراء في الشؤون الاقتصادية والقانونية الى التطوع للعمل في لجان المناقصات المختلفة التي ستقيمها وزارة الدفاع والجيش . ويقوم العميد ثاني شمعون تسلئير رئيس شعبة التنظيم في وزارة الدفاع بتنظيم حركة التطوع هذه (المصدر نفسه) .

ودعا معلقون عديدون الى ازالة حاجز الرقابة والسرية عن جهاز الامن ، خاصة فيما يتعلق بالامور المالية ، ومنح لجان الكنيست المختصة صلاحيات واجهزة ملائمة لمراقبة هذا الجهاز . فجهاز الامن لا يستطيع القضاء على شهوة الطمع التي انتشرت بين الجمهور . ولكنه يستطيع بالتأكيد الاهتمام بأن تكون المناقصات عادلة . كذلك عليه ان يهتم بتعليق اعمال التخطيط بالمناقصات ايضا، وبالزام الضباط بعدم الانضمام الى الشركات المرتبطة بأعمال مع الجيش ، بعد تسريحهم . يجب على وزارة الدفاع توسيع جهاز الرقابة الداخلية بواسطة تقوية الجانب المدني في الوزارة ، ومنح صلاحيات واسعة للمراقب المالي . والاهم من هذا كله : على جهاز الامن ان يخرج من موقع السرية ، وهو بمثابة موقع لاخفاء الاخطاء والمخالفات » (يوسف لابيد — معاريف ، ٧٥/٥/٢) .

الدعوة الى التشديد في عقوبة المخالفين

دعا الكثيرون من الاسرائيليين من وزراء واعضاء كنيست ومعلقين وكتاب الى التشديد في عقوبة

المخالفين « لان الاشخاص الذين سرقوا وغشوا ، او دسوا أموالا طائلة في جيوب المنتجين والمقاولين مقابل رشوات — حكمهم كحكم من يسرق السلاح والمعدات العسكرية ... واذا كانت عقوبة الجندي الذي يفقد بندقيته بسبب الاهمال الحكم بالسجن ستة اشهر — فماذا ستكون عقوبة شخص سرق عن قصد من ميزانية الدفاع مبلغا يمكن بواسطته انتاج بندقية او دبابة او طائرة ؟ » (اريبه افنيري — داغار ، ٧٥/٤/٢٥) . « ان من يسرق أموالا من متطلبات الامن عندنا ، يسرق سلاحا وذخيرة من جنودنا ، في اللحظات الحاسمة من المعركة » . كذلك اعلن النائب سمحه ارليخ ، (من مقابلة معه في يديعوت أحرونوت ، ٧٥/٤/٢٥) انه يجب على الحكومة والسلطات القضائية ان تتبع وسائل شديدة ضد المخالفين « ليس فقط من اجل القضاء على السوء ، وانما من اجل استعادة ثقة الشعب بالحكم » .

التغيير في الحكم ساعد على اكتشاف قضايا الفساد

ان المميز لقضايا الرشوة والفساد التي تم اكتشافها مؤخرا ، سواء في جهاز الامن او في المؤسسات الاقتصادية الاخرى، هو كثافتها وظهورها في فترة قصيرة نسبيا ، وبالتحديد بعد حرب ١٩٧٣ ، رغم انها نفذت قبل بضع سنين . وكانت قد اكتشفت بعض القضايا المماثلة في الماضي ، تم على اثرها اعتقال عدد من كبار رجال الاقتصاد ، الا ان قضايا كهذه ، وخاصة تلك المتعلقة بجهاز الامن وبشركة الاستثمارات الاسرائيلية (الشركة لاسرائيل) كان نشرها محظورا في عهد الحكم السابق، وهناك من يقول ان اكتشاف هذه القضايا خلال السنة الاخيرة ، مرتبط بتغيير الاشخاص الذين يترأسون الحكم — اي رئيس الحكومة رابين، ووزير الدفاع بيريس ، ووزير العدل حاييم تسادوك ، ووزير المالية رابينوفيتش ... وعلى اي حال ، هناك ثلاثة أشخاص تصرفوا بحزم بكل ما يتعلق بمعالجة قضايا الفساد ، وهم وزير العدل تسادوك والمستشار القضائي للحكومة شمغار والمفوض العام للشرطة روزليو (اريبه افنيري — يديعوت احرونوت ، ٧٥/٥/٤) . وتجدر الاشارة هنا ان الشرطة انشأت قبل نصف سنة تقريبا قسم تحقيق خاص بالمخالفات الاقتصادية ، يضم مدققي حسابات ومحامين واصحاب مهن اكاديمية اخرى — وجميعهم من المحققين المجربين الذين يستطيعون الغوص في عمق القضايا الاقتصادية (المصدر نفسه) .

كذلك هناك سبب آخر لتوقيت اكتشاف هذه القضايا ، وهو الوضع الاقتصادي الذي ساد اسرائيل خلال السنة الاخيرة ، والذي لم يؤد فقط الى « شد الحزام » وانما ايضا الى « مراقبة الاخرين » ، اذ بدأت تطرح اسئلة كثيرة وغير منقطعة حول مستوى المعيشة الذي يعيشه مدراء الشركات وبعض الموظفين والاشخاص المسيطرين على ميزانيات ضخمة (المصدر نفسه) .

المقارنة مع فيتنام الجنوبية

تثير موجة الفساد هذه في اسرائيل ، عدا الاستياء والدعوة الى الكشف عن الفاعلين والتشديد في عقوبتهم ، نوعا من القلق ، يدفع البعض الى مقارنة ما يحدث في اسرائيل مع الفساد الذي كان منتشرا في فيتنام الجنوبية ، خاصة الان، حيث « يتعقب الكثير من سكان اسرائيل بقلق المأساة التي حلت في جنوب شرق آسيا . لذلك ينبغي ان نذكر ان جنوب فيتنام سقطت في الاساس بسبب الفساد والتعفن في الحكم ، اللذين لم يتعرضا الى اموال الشعب فقط ، وانما دمرا اساس رغبة وقدرة المواطن على منح كل ما يستطيع من اجل دولته ... لذلك فان محاربة التعفن الداخلي يجب ان تكون احد الاهداف الاساسية لحكومة اسرائيل (يوئيل ماركوس — هآرتس ، ٧٥/٤/٢٣) . اما الفرق بين اسرائيل وفيتنام في مجال الفساد ، فهو « ان نسبة قليلة من السكان في فيتنام قد اشتركت في عملية فساد واسعة ، بينما عندنا نسبة كبيرة من السكان اشتركت في عملية فساد صغيرة ... ولا اقصد القول اننا جميعا مذنبون ، وانما اريد الاشارة الى ان الفساد الذي حدث هنا ذو مقياس قومي » (المصدر نفسه ، ٧٥/٥/٧) .

رغم هذه المقارنة ، تنبغي الاشارة الى ان الاسرائيليين لا يزالون يعولون على جهازي الشرطة والمحاكم ، اللذين لا يزالان يحظيان بثقة كبيرة ، لكبح موجات الفساد تلك .

حنه شاهين

(٥) القضية الفلسطينية عسكريا

[١]

تخفيض عدد القوات والاسلحة الاسرائيلية في المناطق العازلة في سيناء

عقد رئيس الوزارة الاسرائيلية الجنرال يتسحاق رابين مؤتمرا صحافيا في القدس في ١٩٧٥/٦/٢ اعلن فيه بصورة مفاجئة تخفيض عدد قوات واسلحة الجيش الاسرائيلي المرابط في المنطقة الامامية العازلة في سيناء ومما قاله بهذا الصدد « بمناسبة اعادة فتح قناة السويس واستئناف الملاحة الدولية في قناة السويس والتي من المقرر ان تستأنف طبقا لاتفاق فك التحام القوات بين اسرائيل ومصر اتخذت حكومة اسرائيل خطوات تأمل ان تساهم في تخفيف حدة التوتر العسكري في المنطقة . كذلك فهذه الخطوات ليست بديلة لاستمرار المساعي لاحراز تسوية اخرى بين اسرائيل ومصر . ان استعداد اسرائيل للتعاون في المساعي السياسية لا يزال قائما كما اوضحنا ذلك لحكومة الولايات المتحدة في مناسبات عديدة ، لقد قررت حكومة اسرائيل ان تخفض قوات جيش الدفاع الاسرائيلي المرابط في المنطقة الامامية في قطاع القناة » . هذا وقد جرى تنفيذ القرار فعلا في يوم ١٩٧٥/٦/٤ .

يأتي هذا القرار الدراماتيكي بعد يوم من بدء قمة سالزبورغ بين الرئيس المصري والرئيس الاميركي . وقد قصدت به المحافل الاسرائيلية تحقيق كسب اعلامي وسياسي باعلانها عن هذه البادرة من جانبها في هذا الوقت حتى تثبت لمصر وللولايات المتحدة وللعالم عن رغبتها في العمل من اجل تخفيف حدة التوتر في المنطقة والتقدم في طريق السلام . وقد اعترف بذلك اكثر من مسؤول اسرائيلي وعلى رأسهم رئيس الوزارة نفسه ووزير الخارجية ووزير الدفاع وغيرهم . ومهما تكن الابعاد والغايات السياسية والاعلامية فان القرار لا قيمة له من الناحية العسكرية .

ما هي تفاصيل الخطوة التي اقدمت عليها اسرائيل ؟ لقد اعلنت كما اشرنا الى ذلك في بداية البحث عن قرارها بتخفيض عدد القوات والاسلحة الاسرائيلية في منطقة تخفيض القوات (القطاع الشرقي) والتي تبعد عن القناة مسافة ٢٠ كيلومترا وتبلغ عرضا (١٠) كيلومترات وتضم القوات التي أشرنا اليها اعلاه . ان ذلك يعني سحب نصفها الى نقاط تقع الى الشرق من الخط الاحمر على الخارطة ، أي الى مسافة ٣٠ كيلومترا عن القناة .

ويشمل ذلك : —

١ — الدبابات — حيث جرى تخفيض عددها من ٣٦ دبابة الى ١٨ دبابة .

٢ — المدفعية — تم نقلها الى مسافة ٣٢كيلومترا أي الى خارج الخط الاحمر .

٣ — القوات الاخرى — خفضت هذه القوات من ٨ كتائب الى ٤ كتائب .

٤ — الصواريخ — ستتقيد اسرائيل بعدم وضع صواريخها ضمن مسافة (٤٠) كم من القناة كما وان اتفاقية الفصل اصلا تمنع اقامة مواقع للصواريخ الموجهة أرض — جو ضمن مسافة ٣٠ كيلومترا عن القناة وهذا يعني بالمقابل ان لا تقيم مصر اية مواقع لصواريخها الموجهة ارض — ارض وارض — جو في الضفة الشرقية للقناة على الاطلاق .

ان القاء نظرة على خريطة شبه جزيرة سيناء وعلى مناطقها الغربية الواقعة بين القناة والممرات وتعيين المواقع المحددة لمرابطة القوات الرئيسية لكل طرف ، يلمس عدم اهمية هذا الانسحاب او التخفيض الذي تم . فالانسحاب **اولا** شمل مناطق ساقطة عسكريا ولا قيمة تذكر لها من الناحية العسكرية . ذلك لانها تبعد مسافة تتراوح بين ٢٠ — ٣٠ كيلومترا عن المواقع الرئيسية التي ترابط فيها القوات الاسرائيلية . وترابط فيها قوات تعرف بالمفهوم العسكري بنقاط المراقبة الامامية او بقوات حجاب . والتي يناط بها جمع المعلومات

عن التحركات والنشاطات العسكرية في الجانب المصري ، اما في حال اندلاع القتال فتناط بها مسئولية مشاغلة القوات المصرية المهاجمة الى ان تصل القوات الاسرائيلية الرئيسية او حال تلقيها امرا بالانسحاب ، الانسحاب فورا والالتحاق بالقوات الاسرائيلية الرئيسية . **ثانيا** ان الاسلحة والمعدات المسحوبة لا تؤثر بوجودها او عدمه على ميزان القوى في الجبهة وان سحب حتى كامل القوات مسافة ابعد من المسافة التي سحبت اليها فلن يؤثر ذلك على الاوضاع في الجبهة ولن يتبدل من الواقع شيء . ذلك لان مفتاح الموقف هي الممرات وحجم الوجود الاسرائيلي فيها . ان الدفاعات الاسرائيلية الرئيسية تقع في الممرات ، في حين ترابط القوات الاسرائيلية النظامية الضاربة في « نخل وبئر حسنا وبئر جفجافه » ، وهي قوات تكفي لصد اي هجوم مصري الى حين وصول الاحتياطي الاستراتيجي . واذا القينا نظرة على عدد الدبابات وقطع المدافع التي سحبت فلا تشكل هذه في مجموعها سوى سرية مدرعات (١٨) دبابة وكتيبة مدفعية (١٨) مدفعا . وهذه قياسا الى حجم القوات الاسرائيلية والمصرية المرابطة على كلا جانبي خط المواجهة لا تشكل سوى نسبة ضئيلة جدا لا تكاد تذكر في المعادلة العسكرية .

لذلك ان ما يهم اسرائيل هو عدم المساس بمواقعها ودفاعاتها الرئيسية في الممرات وفي ابار النفط الاستراتيجية والتي تزودها بكميات النفط التي تحتاجها الة الحرب الاسرائيلية . وقد عبر عن ذلك وزير الدفاع بقوله « لم نكن لنقدم على خطوة مجردة من المسؤولية بأن نخلق وضعا يسلب اسرائيل قدرتها الدفاعية . ان هذا التغير معين وكما سبق وقلت : الاعتبار السياسي في مثل هذه الحالة أصعب من الاعتبارات الامنية الاخرى . وأعتقد ان هذا لا يغير قدرة اسرائيل الدفاعية تغييرا اساسيا » . كما ان وزير الخارجية ايجال الون ردد التعابير نفسها بقوله « الحقيقة التي ينبغي ذكرها ان هذه الخطوة لم تكلفنا اي شيء ، وصحيح اننا تحملنا مخاطرة معينة ولكنها مخاطرة مدروسة » اما رئيس الاركان الجنرال « مردخاي غور » فقد عبر عن التخفيض واوضاع الجبهة بقوله « حسب ما قيل حتى الان ان المعنى الاساسي لكل هذه العملية سياسي على الاغلب ولقد اعددنا قوة كافية للرد بالقوة الكافيةوبالسرعة المطلوبة اذا تغيرت الاحوال بشكل حاسم . ان الجيش يظل متأهبا في الخطوط الاساسية كما كان قبل ذلك (يعني اتخاذ الخطوة) ولكن قوات معينة منه طبقا لما اعلن تجتاز تغييرا في التشكيل وهي الان موجودة صباح اليوم في « المواقع الجديدة » . اما الجنرال حاييم هيرتزوغ فقال عنها « لا اريد التحدث بعبارات الضعف او القوة ، لان عدد القوات المسموح بها بناء لاتفاق فك التحام القوات لا تشير في نهاية الامر الى القوة بل انها في الواقع شيء رمزي ومتبادل ولا يمكن استخلاص عبر عسكرية لا من القوة الموجودة حاليا ولا من القوة التي ستبقى بعد تخفيض حجم القوة بناء لقرار الحكومة » . ثم اضاف قائلا : « لا يوجد فرق فعلي من الناحية العسكرية بين القوات الموجودة حاليا وبين القوات التي ستبقى في منطقة تخفيض القوات بعد تنفيذ قرار الحكومة . وهذه ليست المشكلة المطروحة . ان المشكلة هي ما يوجد لدينا من قوات في سيناء وليس ما نحتفظ به في منطقة فك التحام القوات » .

اذا ان تخفيض القوات لا قيمة استراتيجية له وان اسرائيل قصدت من وراء ذلك مجرد القيام بخطوة عسكرية في الجبهة ذات بعد سياسي .

الرائد الطيار حسين عويضة

[٢]

الاسرائيليون يناقشون مغزى الموجة الجديدة من النشاط الفدائي في الوطن المحتل

ازداد النشاط العسكري والجماهيري للثورة الفلسطينية في المناطق المحتلة بشكل ملحوظ في الاونة الاخيرة . وقد غطت عمليات الثورة الفلسطينية جميع ارجاء الوطن المحتل ، بالرغم من اساليب القمع والارهاب التي يتبعها العدو ، القديمة منها والحديثة ، كالعودة لاستخدام اسلوب العقاب الجماعي ، وفرض منع التجول ، ونسف البيوت ، والتمشيط ، واقامة الحواجز على الطرق ، وتشديد الحراسات في الداخل وعلى الحدود ، والاعتقالات الجماعية والاحتياطية كالتي قام بها قبيل ١٥ ايار (ذكرى انشاء دولة اسرائيل) تحسبا من ازدياد موجة العمليات في هذه المناسبة . الا ان الثوار الفلسطينيين ، وبناء على اعترافات الناطق العسكري الاسرائيلي ، « استطاعوا تنفيذ ٣٠ عملية خلال شهر نيسان الماضي ، ثلاث عشرة منها في الضفة الغربية ، واثنتان في قطاع غزة ، وسبع في القدس ، وعملية واحدة في كل من تل ابيب ، الرملة ، بئر السبع وقرية طمره في الشمال » (يديعوت احرونوت ، ١٩٧٥/٥/٩) . وتشير احصائية اخرى الى « تنفيذ ٥٠ عملية فدائية في القدس منذ بداية هذه السنة » (هآرتس ، ١٩٧٥/٥/٢٩) ، بينما اشار مصدر اخر (معاريف ، ١٩٧٥/٥/٢٨) اثر اعتقال مجموعة من الفدائيين ، مؤلفة من سبعة اشخاص ، بان تلك المجموعة قامت بعمليات بلغت مائة عملية في العام ١٩٧٤ والشهور الخمسة الاولى من العام ١٩٧٥ . وهذا بالطبع بعض ما اعترف به العدو ، الذي يحاول تجاهل عدد من العمليات وينسبها الى نشوب حرائق لاسباب فنية او حوادث الطرق وغيرها .

الاعتراف بتصاعد النضال الفلسطيني والفشل في مواجهته

أبدت اجهزة الاعلام الاسرائيلي اهتماما ملحوظا بالنشاط الفدائي المتصاعد في الاراضي المحتلة ، بينما حذر البعض من « ازدياد بروز التنظيمات المعادية في المناطق المحتلة وانه اصبح هناك بالتأكيد مجال للقلق المتزايد في اسرائيل » . اما سبب ذلك فهو انه « ... لم تبق في الشارع العربي ظاهرة اليأس وخيبة الامل التي كانت قبل حرب تشرين ، كما وازداد عدد اولئك الذين يعتقدون ان الفلسطينيين المخلصين يجب ان يأخذوا دورهم في المعركة ، بما لا يقل عن دور جيشي مصر وسوريا . واصبح جو النشاط التنظيمي اسهل وذلك ازاء ازدياد العداء لاسرائيل ... ويمكن القول ان سكان الضفة الغربية والقدس الشرقية وعرب اسرائيل اصبحوا في الفترة الاخيرة اكثر « فلسطينية » من الماضي . ان شعور التماثل مع الايديولوجية الفلسطينية لمنظمة التحرير اصبح على ما يبدو ، موقف معظم السكان الذين يعيشون تحت الحكم الاسرائيلي . وهذا هو السبب الذي يخلق الجو الملائم للنشاط التنظيمي والتخريبي المتزايد بشكل كبير » (دائي روبينشتاين — دافار ، ١٩٧٥/٥/١٥) . كما وذكر المراسل العسكري لصحيفة يديعوت احرونوت (١٩٧٥/٥/٢٩) بان « ما يميز الذين اعتقلوا مؤخرا ان كثيرا منهم تنظموا بمبادرة محلية وخرجوا للقتال بوسائل بدائية وان جزءا منهم على الاقل صنع وسائل القتال بنفسه » . واضاف المراسل : « ... ان هذا لا يعني بانه ليس من الممكن ان تنفذ في المستقبل القريب عمليات كبيرة ... وعلى اي حال فان الاعتقالات الاخيرة لا تبشر بالهدوء في الضفة الغربية وقطاع غزة » (المصدر نفسه) .

اضافة لذلك فهناك ارتفاع في عدد عرب المناطق المحتلة سنة ١٩٤٨ الذين ينضمون للمنظمات الفدائية (هآرتس ، ١٩٧٥/٥/٢٢) . ويعزو المعلقون الاسرائيليون ذلك لثلاثة اسباب « اولها عدم امكانية الاختلاط اجتماعيا [بين العرب واليهود] ، بينما يكمن الثاني في طبيعة دولة اسرائيل ... لان العربي لا يستطيع ان يتجاهل هويته القومية ويتبع القومية الاسرائيلية ، وذلك لسبب بسيط هو انه ليست هناك قومية اسرائيلية . اما السبب الثالث فهو بالطبع البعث المتجذر

والنشيط للقضية الفلسطينية ، فكلما ازداد نشاط المنظمات كلما طرحت القضية الفلسطينية بصورة اوسع في الهيئات المختلفة وبذلك تقوى الهوية الفلسطينية في كل مكان » (تسفي البيليغ ــ دافار ، ١٩٧٥/٥/٢٣) .

كذلك اعترف وزير الدفاع الاسرائيلي ، اثناء زيارة قام بها لقلقيلية وجنين ، بازدياد تعاون سكان المناطق المحتلة مع المنظمات الفدائية ، واعلن ان السلطات « ستتبع جميع الوسائل للقضاء على الارهاب الفردي والجماعي » (معاريف ، ١٩٧٥/٥/٢١) .

ومن ناحية ثانية ، وبالاضافة لاعتماد الثوار الفلسطينيين في جزء من عملياتهم على الاسلحة المصنعة محليا ، اعلن في الاونة الاخيرة بان قوات الامن اكتشفت كمية كبيرة من مواد التخريب التي كانت قد سرقت من الجيش الاسرائيلي . واتضح اثناء التحقيق ان يهوديا اسرائيليا يدعى دانسي ساعيل كان عضوا في الخلية . وكان ساعيل في السابق عضوا في منظمة الفهود السود ثم انشق عنهم واسس تنظيما متطرفا اسماه « القوة الثورية السوداء » (هآرتس ، ١٩٧٥/٥/٢٢) .

وكانت عمليات الثوار الفلسطينيين في القدس قد استأثرت باهتمام اوساط العدو وذلك لشدة بعضها كالقصف الصاروخي لمجمع الوزارات والكنيست وتدمير المبنى الواقع على طريق الخليل داخل المدينة . وحاول احدهم تبرير ذلك بقوله ان بعض الاسباب تعود الى « التجمع الكبير للسكان العرب في هذه المدينة، كما ويمكن الافتراض ايضا ان قادة المخربين يعتقدون ان العمليات التي تنفذ في تلك المنطقة تحظى بصدى أكبر في العالم » (يعقوب كروز ــ يديعوت أحرونوت، ١٩٧٥/٥/٩). واضاف آخر (حفاي أشد ــ دافار ، ١٩٧٥/٥/٩) « بأن المعركة على مصير القدس بعيدة من نهايتها ... واصبحت الان ، اكثر من اي وقت مضى ، تؤخذ بالحسبان امكانية تجدد النزاع والقتال على مصيرها ... ان القدس تنتظر حروبا دامية وصراعات سياسية ... ان العالم كله يطالب اسرائيل بالانسحاب الى حدود الرابع من حزيران ١٩٦٧ ... اضف الى ذلك ان العالم لم يعترف حتى الان بالقسم الغربي من المدينة الذي نسيطر عليه منذ سنة ١٩٤٨ ... » .

فشل عسكري وسياسي

بالرغم من ادعاءات سلطات الامن الاسرائيلية اثر الاعتقالات الاخيرة ، انها اكتشفت معظم منفذي هذه العمليات ، يبدو انه لم يكتشف سوى منفذي اثنتين من العمليات الخمسين التي حصلت في القدس (هآرتس ، ١٩٧٥/٥/٢٩) . « ويشمل النشاط التخريبي في المناطق المحتلة عشرات العمليات التي تجد قوات الامن صعوبة في القاء القبض على منفذيها » (دافار ، ١٩٧٥/٥/١٥) .

وباشتداد ضربات المقاومة اخذت تعلو في اسرائيل الاصوات التي تهاجم المسؤولين الذين يحاولون التخفيف من تأثير الثورة الفلسطينية واهميتها فكتبت ، مثلا ، دافار (١٩٧٥/٥/١٥) معلنة « ان الصراع مع السكان الفلسطينيين في المناطق المحتلة ، هو في حقيقة الامر ، حلقة اساسية ، من الصراع العربي الاسرائيلي . وان اهمية هذا الصراع لا تقل عن الحروب مع الدول العربية ... يبدو لاول وهلة ان موجة العمليات الاخيرة لا تشكل خطرا على وجود اسرائيل ، الا ان كل عملية تسبب عمليا هزة اخرى في نظام الحياة في البلاد . ويترتب على كل عملية حملة تمشيط واعتقالات وتحقيقات وغرض منع التجول ويعاني من هذا الكثيرون ممن ليس لهم علاقة بالامر . كما وان المرارة تزداد في اسرائيل التي تتضرر من العمليات ، وتتصلب المواقف وتصبح ردود الفعل اكثر شدة » .

ولم يكن مصير الاجراءات السياسية افضل من العسكرية . وكانت السلطات الاسرائيلية المختصة قد اعلنت مؤخرا عن نيتها العمل على نقل الصلاحيات الادارية الى سكان المناطق المحتلة ، بهدف تعيين مدراء عامين عرب في مكاتب الحكم العسكري بحيث تقلص مهام ضباط المناطق الاسرائيلية الى ادنى حد ممكن ، وذلك كمرحلة اولى على طريق خلق قيادة سياسية بديلة لمنظمة التحرير . ولكن يبدو ان هذه الخطوة فشلت فشلا ذريعا ، لان « هناك خوف في اوساط القيادة العربية من تنفيذ السياسة الاسرائيلية الجديدة ، كما وان هناك شكوكا في اوساط الحكم العسكري » (هآرتس ، ١٩٧٥/٥/٨) . وعلق ميخائيل اساف (دافار ، ١٩٧٥/٥/٢٣) على هذه المحاولة بقوله انها « تأتي الان وبالذات بعد النجاح السياسي

الكبير لمنظمة التحرير الفلسطينية في العالم العربي والخارجي ... ولاثبات فشل هذه المحاولات يكفي ان نشير الى الغاء سفر وفد وجهاء المناطق للتعزية بوفاة الملك فيصل » .

التحذير من اتساع نطاق العمل الفدائي

تحذر بعض الدوائر الاسرائيلية من اتساع نطاق العمل الفدائي في المستقبل القريب ، خاصة وانه « مقابل ازدياد العمليات على جانبي الخط الاخضر [حدود ١٩٤٩] فان النشاط من خلف الحدود قد خف مؤخرا ... ويكمن السبب الرئيسي لذلك في القتال الاخير بين الفدائيين وبين حزب الكتائب اللبناني ... او ربما يفضلون [الفدائيين] عدم تعريض لبنان لضربة انتقامية في هذه المرحلة ... خصوصا وان اسرائيل بقيت « مدينة » لهم منذ لينة سافوي » (يديعوت أحرونوت، ١٩٧٥/٥/٩).

ورغم انه « لم ينفذ اي هجوم ضد اهداف اسرائيلية يهودية في الخارج منذ كانون الثاني الماضي ... فان هذا لا يمنع ان تقوم جبهة الرفض بعمليات في الخارج بهدف افشال اشتراك منظمة التحرير في اي حل سياسي في اطار مؤتمر جنيف او بطرق اخرى » .

« ... كذلك هناك اساس للافتراض بان فتح ومنظمات « معتدلة » اخرى تخطط وتعد لعمليات ضد الاهداف الاسرائيلية في الخارج ، ذلك ان تلك المنظمات قد تغير مواقفها لعدة اسباب ، منها فشلها في توجيه ضربات داخل اسرائيل ، او اذا لم تنجح بالاشتراك في مؤتمر جنيف ، او لتوجيه انظارنا عن هجوم عربي شامل علينا . وهناك ايضا اهداف اخرى مثل ... ضرب ناقلات النفط التي تنقل البترول من الخليج الفارسي لاسرائيل » (المصدر نفسه) .

تضعضع المعنويات

علاوة على الفشل السياسي والعسكري في مواجهة الثورة الفلسطينية ، منيت اجهزة الاعلام الاسرائيلي بفشل ذريع في تغطية نشاطات الثورة او التقليل من اهميتها ، مما اثار غضب بعض المسؤولين الاسرائيليين . فبعد الانفجار الذي وقع في احد الابنية في القدس وجه عضو الكنيست يوسف تامير (ليكود) سؤالا مستعجلا يحتج فيه على عرض التلفزيون الاسرائيلي لهذا « المشهد الذي يهدم المعنويات » (معاريف ، ١٩٧٥/٥/١٤) . وقد وجه البعض انتقادات شديدة للتلفزيون ، بقوله ان « عرفات يتلقى خدمة مجانية من دولة اسرائيل » و « هناك انطباع بان المخربين يوجهون مصلحة الاذاعة » . وصرح تسفي برنشتاين ، سكرتير عام الحزب الديني القومي ، بانه « يتضح من رد فعل الجمهور على البرامج ان الاستياء من التلفزيون يعم الجميع وينبغي العمل على تغيير قانون مصلحة الاذاعة ، بشكل يجعل الاجهزة الحكومية توجهها كأي قطاع اخر من قطاعات الخدمات ... كذلك على المعارضة في الكنيست ان تعمل مع الائتلاف الحاكم لاجتثاث الاعشاب الضارة التي انتشرت في اجهزة الاعلام ... ان هذه مشكلة امنية — ولا نبالغ في قيمتها ووزنها » (المصدر نفسه) .

ومن جهة اخرى قدم النائبان شوشاناه اربيلي — الموزيلينو (التجمع) ويوسف تامير (ليكود) ، اقتراحا لجدول اعمال الكنيست لتعديل قانون مصلحة الاذاعة ، ولكن النائبين بوعز موآب (قائمة حقوق المواطن) ومئير باعيل (موكيد) طلبا اسقاط الاقتراح من جدول الاعمال بحجة ان السياسيين ليس هم الذين يقررون نوع البرامج المعدة للبث وان الكنيست لا يستطيع ان يكون منصة لبحث مضمون الكتب والمسرحيات والافلام ... » (دافار ، ١٩٧٥/٥/١٥) .

كذلك ارتفعت اصوات اخرى تعارض فرض المراقبة على البث ، ذلك ان « الاضرار التي تسببها لن تقل — بل العكس هو الصحيح » ، بينما انهم اولئك الذين يلوحون باعلام « التآمر والانهزامية » بانهم « بعلا من الانضمام للحرب التي تهدد كياننا ... يذهبون باتجاه خاطىء ، فهم الذين يهدمون المعنويات وهم المتخصصون بالتضليل والتمويه وهم الذين يتسلحون الآن بأدوات القصارين ويعملون على تغطية العورة بطبقات من الدهان اللامع ... ان مهمة وسائل الاعلام هي تغطية الاحداث في اطار العقل المستقيم والحاجات الامنية الحقيقية — اما اذا استجابت لغضب النائب تامير وغيره فانها ستخون واجبها » (معاريف ، ١٩٧٥/٥/١٤) .

واعلن وزير المعارف والثقافة ، المسؤول عن تنفيذ قانون مصلحة الاذاعة ، بأنه لم يصل الى استنتاج بضرورة تغيير قانون الاذاعة او زيادة

صلاحيات الوزير ، ولكنه قال بانه سيعمل على تعزيز لجنة ادارة المصلحة (دافار ، ١٥/٥/ ١٩٧٥) .

ويبدو ان الداعين للمحافظة على المعنويات ، [التي وصفها العميد احتياط اوري بن — اري (يديعوت احرونوت ، ١٩٧٥/٥/٢١) بانها « هي التي جعلت من الاسرائيلي مقاتلا لا يعرف الخوف ... وهي الثروة الوطنية الاساسية »] هم الذين نجحوا في النهاية ، وذلك عندما اصدر وزير الدفاع امرا بمنع الصحافيين من الوصول الى مواقع اي عملية فدائية فلسطينية في المستقبل ومنع اي وصف اذاعي حي لها .

البحث عن طرق جديدة لمواجهة النشاط الفدائي

مع فشل الاجراءات الاسرائيلية في مجابهة النشاط الفدائي ، انطلقت مجددا الدعوات بين اوساط العدو لتطبيق عقوبة الاعدام بحق الفدائيين ، وكان اول من نادى بذلك — كالعادة — وزير الشرطة ، شلومو هيلل (دافار ، ٧/٥/ ١٩٧٥) . اما النائب شموئيل تامير (ليكود) فقد طالب « بوضع تقديرات جديدة في الصراع ضد المخربين وبضرورة تجنيد كل الطاقة البشرية غير المشغولة من اجل هذا الهدف » (معاريف ، ٢٠/ ١٩٧٥/٥) . واعرب اخرون عن اسفهم لان المبادرة بقيت بأيدي الفدائيين ولان السلطات الاسرائيلية تكتفي بالعمليات الوقائية والدفاعية، بدل اجبار الفدائيين على الاهتمام بأمنهم ، وطالبوا باتخاذ خطوات ملائمة لردعهم وافشال مخططاتهم (يعقوب كروز — يديعوت احرونوت ، ٩/٥/ ١٩٧٥) . واقترح احدهم طرقا جديدة لمجابهة الفدائيين بقوله : « ليس هناك اي عامل ردع فعال لوقف عمليات الارهاب والقتل ، مما يعتبر بمثابة تشجيع لزيادتها ... ولن يكون هناك مفر ، ان عاجلا ام اجلا ، من البحث عن طرق للرد والردع ... ويشك ان كانت عقوبة الاعدام تشكل علاجا كافيا للمشكلة ، وان كانت هناك اهمية للعودة وبحث هذه الامكانية . وفي المقابل علينا ان ندرس من جديد عمليات النفي والطرد لمن لهم علاقة بالتخريب او الذين يؤيدونه بشكل مباشر وغير مباشر . ان النفي والطرد يمكن ان تكون وسائل فعالة جدا ، خصوصا اذا رافقها استيلاء الجيش الاسرائيلي او مدنيين يهود على المناطق والممتلكات التي ستصبح خالية بهذه الطريقة . فاذا ما ادركت منظمات التخريب ان استمرار اعمال الارهاب والقتل ... سيؤدي بصورة مباشرة الى تحويل المزيد من المناطق العربية الى احياء يهودية فسترتدع دون شك عن الاستمرار بعملياتها ... ذلك ان اكثر القيم قداسة لدى سكان المناطق هي الصمود والارتباط بالارض . ويمكن ان يشكل التهديد باقتلاعهم ونفيهم اكثر وسائل الردع فعالية » (حفاي اشد — دافار ، ٩/٥/١٩٧٥) .

سمير جريس

جدول بالعمليات العسكرية لقوات الثورة الفلسطينية من ٥/١٤ — ١٩٧٥/٦/١٢

الرقم	تاريخ العملية اليوم	الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية قتيل	جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة شهيد	جريح	مفقود	المصدر : البلاغ العسكري	تاريخه
١	٥/١٢	١٠٤٠٠	تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد		تدمير جزء كبير من أحد الاندية التي يرتادها جنود العدو ومجنداته	—	—	—	٧٥/١٤٤	٥/١٣
٢	٥/١٤	١٤٠٠	الرائم/شمال القدس	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	تدمير سيارة شرطة العدو واشعال النيران فيها كما تضررت سيارات مجاورة	—	—	—	٧٥/١٤٥	٥/١٤
٣	٥/١٥	—	تل ابيب(١)	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد		تدمير مركز صناعي في شارع رعنان واشعال النيران فيه	—	—	—	٧٥/١٤٦	٥/١٥
٤	٥/١٥	١٤٠٠	بتاح تكفا(٢)	تفجير	عبوات حارقة موقوتة	—	—	اشعال النيران في منطقة الاحراش وامتدادهـــا لمعسكر تدريب الضفادع البشرية	—	—	—	٧٥/١٤٧	٥/١٥
٥	٥/١٥	٨٤٠٠	القدس	تفجير	عبوات ناسفة حارقة	—	—	اكتشاف العبوة في أسفل صهريـــج وقـــود بحي «ميشيرم» وابطال مفعولها	—	—	—	٧٥/١٤٨	٥/١٥
٦	٥/١٦	١٧٤٠٠	هشرون/شمال شرق تل ابيب(٣)	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد		تدمير عدد من المصانـــع العسكرية ، تصدع عدد من المنشآت المحيطـــة بمنطقة الانفجارات	—	—	—	٧٥/١٤٩—١٥٠	٧٥ ٥/١٧
٧	٥/١٧	—	البيرة/شمال القدس(٤)	تفجير	عبوات ناسفة	١	١	تدمير سيارة عســـكرية لاحد ضباط المخابرات	—	—	—	٧٥/١٥١	٥/١٧

الرقم	تاريخ العملية اليوم	الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية قتيل جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة شهيد	جريح	مفقود	المصدر : البلاغ العسكري	تاريخه
٨	٥/١٧	١٣٤٣٠	رام الله(٥)	القاء قنبلة	قنبلة يدوية	غيرمحدد	تدمير سيارة عسكرية وقتل وجرح من فيها	—	—	—	٧٥/١٥٢	٥/١٧
٩	٥/١٧	—	اريحا	تفجير	عبوة ناسفة	غيرمحدد	تدمير سيارة عسكرية وقتل وجرح من فيها	—	—	—	٧٥/١٥٣	٥/١٧
١٠	٥/١٧	١٤٤٠٠	عين الفشخة/ شاطىء البحر الميت(٦)	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد	تدمير جزء من مقصف عين الفشخة	—	—	—	٧٥/١٥٤	٥/١٧
١١	٥/١٨	—	القدس	تفجير	عبوة ناسفة	غيرمحدد	تدمير عبوة في مكان تجمع جنود العدو قرب متحف روكفلر	—	—	—	٧٥/١٥٥	٥/١٨
١٢	٥/١٩	—	القدس	تفجير	عبوة ناسفة	غيرمحدد	اصابة مبنى البلدية بأضرار	—	—	—	٧٥/١٥٦	٥/١٩
١٣	٥/١٩	—	القدس	تفجير	عبوات حارقة	— —	تم اكتشاف العبوات في كاراج سيارات جيش العدو قرب باب الخليل وابطل مفعولها	—	—	—	٧٥/١٥٦	٥/١٩
١٤	٥/١٩	—	القدس	تفجير	عبوات ناسفة	— —	تدمير ثلاث سيارات عسكرية للعدو	—	—	—	٧٥/١٥٧	٥/٢٠
١٥	٥/١٩	٢٠٤٠٠	يروحام/النقب(٧)	تفجير	عبوات حارقة	— —	تدمير واشعال النيران في مصنع للزجاج	—	—	—	٧٥/١٥٨	٥/٢٠
١٦	٥/١٩	—	عراد/النقب(٨)	تفجير	عبوات ناسفة حارقة	— —	اشعال النيران في قسم المصابغ بالمنطقة الصناعية وامتدادها الى اقسام اخرى	—	—	—	٧٥/١٥٨	٥/٢٠
١٧	٥/٢٠	—	بين رفح وخان يونس	تفجير وكمين	عبوات وأسلحة مختلفة	غيرمحدد	تدمير خط سكة الحديد والاشتباك مع افراد العدو	١	١	—	٧٥/١٥٩	٥/٢١

١٨ — ٥/٢٠	٨٤٠٠	القدس	—	—	١	—	تمكن أحد مناضلينا من قتل أحد جنود العدو والاستيلاء على سلاحه	—	—	—	٧٥/١٦٠	٥/٢١
١٩ — ٥/٢٢	—	القدس	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	تدمير سيارتين للعدو في موقف بالقرب من حديقة ماميلا	—	—	—	٧٥/١٦١	٥/٢٢
٢٠ — ٥/٢٢	٢١٤٠٠	نهاريم/غور الاردن	اشتباك وهجوم	أسلحة رشاشة وقذائف صاروخية	غيرمحدد		اشتباك مع دورية للعدو ومهاجمة معسكر جنود واصابة بعض المنشآت فيه	—	—	—	٧٥/١٦٢	٥/٢٣
٢١ — ٥/٢٤	٢٠٤٠٠	مخيم دير البلح/ غزة	القاء قنبلة	آلة يدوية	غيرمحدد		انفجرت القنبلة وسط دورية للعدو	—	—	—	٧٥/١٦٣	٥/٢٥
٢٢ — ٥/٢٥	٨٤٠٠	بين بئر السبع وعراد/النقب	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد		تدمير محطة ضغط المياه المركزية	—	—	—	٧٥/١٦٥	٥/٢٥
٢٣ — ٥/٢٣	—	نابلس	هجوم	أسلحة رشاشة وقنابل يدوية	غيرمحدد		تدمير شاحنتين للعدو وقتل وجرح من فيهما	—	—	—	٧٥/١٦٦	٥/٢٥
٢٤ — ٥/٢٦	٩٤٠٠	العفولة	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد		تدمير عدة محلات داخل سوق الخضار المركزي واصابة سيارة بأضرار	—	—	—	٧٥/١٦٧	٥/٢٧
٢٥ — ٥/٢٦	١١٤٠٠	صفد	قصف	صواريخ ثقيلة	غيرمحدد		تدمير منشآت عسكرية للعدو	—	—	—	٧٥/١٦٨	٥/٢٧
٢٦ — ٥/٢٧	٢٤٠٠	نهاريا	قصف	صواريخ ثقيلة	غيرمحدد		تم قصف أهداف عسكرية للعدو	—	—	—	٧٥/١٦٩	٥/٢٧
٢٧ — ٥/٢٦	١٥٤٠٠	بين شتولا وزرعيت	كمين	قذائف صاروخية واسلحة رشاشة	٦ اصابات		اصابة آلية للعدو	—	—	—	٧٥/١٧٠	٥/٢٧
٢٨ — ٥/٢٦	٩٤٠٠	جنين	تفجير	عبوات حارقة موقوتة	٢	—	تدمير باص لشركة ايجد	—	—	—	٧٥/١٧١	٥/٢٧

الرقم	تاريخ العملية اليوم	الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية قتيل جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة شهيد	جريح	مفقود	المصدر : البلاغ العسكري تاريخه
٢٩	٥/٢٨	١٣٤٠٠	القدس	تفجير	عبوة حارقة	— —	اشعال النيران في محلات تجارية في حي ميلا	—	—	—	٧٥/١٧٢ ٥/٢٩
٣٠	٥/٢٨	١٧٤٠٠	القدس(٩)	تفجير	عبوات حارقة	— —	اشعال النيران في مستودع اخشاب وامتدادها الى المستودعات المجاورة	—	—	—	٧٥/١٧٣ ٥/٢٩
٣١	٥/٢٩	١٠٤٠٠	القدس	تفجير	عبوة ناسفة	— —	تدمير سيارة عسكرية واصابة سيارات اخرى باضرار	—	—	—	٧٥/١٧٤ ٥/٢٩
٣٢	٥/٢٩	١٠٤٠٠	القدس	تفجير	عبوة ناسفة	٢ —	انفجار العبوة اثر اكتشافها في أحد باصات شركة ايجد				٧٥/١٧٥ ٥/٣٠
٣٣	٥/٢٧	٢٠٤٠٠	بتاح تكفا وبات يام/ جنوب تل ابيب وهرتسليا/شمال تل ابيب(١٠)	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد	تدمير أحد مصانع النسيج وأحد المستودعات الطبية في بتاح تكفا واشعال النيران في مصنع للمطاط في بات يام وامتداد النيران الى منشآت أخرى واشعال النيران في مصنع للدهانات بهرتسليا	—	—	—	٧٥/١٧٦ ٥/٣٠
٣٤	٥/٣١	—	بيسان	قصف	صواريخ ثقيلة	غيرمحدد	اصابة بعض المنشآت في المدينة	—	—	—	٧٥/١٧٨ ٦/ ١
٣٥	٦/ ٢	—	غزة	القاء قنبلة واشتباك	قنبلة يدوية	٥ اصابات	بعد اصابة افراد الدورية اشتبك مناضلنا مع افراد للعدو	١	—	—	٧٥/١٧٩ ٦/ ٣
٣٦	٦/ ٢	٢١٤٠٠	الخليل	تفجير	عبوات حارقة	غيرمحدد	اشعال النيران داخل مطعم قرب الحرم الابراهيمي	—	—	—	٧٥/١٨٠ ٦/ ٣

٣٧ — ٦/ ٤	—	القدس(١١)	تفجير	عبوات ناسفة حارقة	غيرمحدد	تدمير أجزاء كبيرة من مبنى اذاعة العدو بحي مصرارة وامتداد النيران الى احد المستودعات الرئيسية الخاصة بالارشيف والمعلومات والى المستودعات والاستديوهات	—	—	—	٧٥/١٨١ ٦/ ٤
٣٨ — ٦/ ٥	٧٤٣٠	القدس	هجوم	قنابل يدوية	غيرمحدد	تدمير سيارتين عسكريتين والقضاء على أفراد حاجز في شارع صلاح الدين	—	—	—	٧٥/١٨٢ ٦/ ٥
٣٩ — ٦/ ٥	٢١٤٠٠	القدس(١٢)	تفجير	عبوات حارقة	—	تدمير واحراق سيارة لشرطة العدو وامتداد النيران الى سيارات اخرى في حي موشرم	—	—	—	٧٥/١٨٣ ٦/ ٦
٤٠ — ٦/ ٥	١٤٤٣٠	كريات جات(١٣)	—	—	غيرمحدد	تدهور قطار حديدي وخروجه عن الخط بعد ان تمكن ثوارنا من قطع خط سكة الحديد مما أدى الى تعطيله	—	—	—	٧٥/١٨٤ ٦/ ٦
٤١ — ٦/ ٥	—	الخالصة	قصف	صواريخ ثقيلة	غيرمحدد	اصابة عدة أهداف ومنشآت عسكرية في المدينة	—	—	—	٧٥/١٨٥ ٦/ ٧
٤٢ — ٦/ ٧	١٦٤٠٠	نابلس	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد	تدمير باص لشركة ايجد وقتل وجرح من فيه	—	—	—	٧٥/١٨٦ ٦/ ٨
٤٣ — ٦/ ٨	٧٤٠٠	مفرق بيت ليد وهشرون	كمين	أسلحة رشاشة وقنابل يدوية	غيرمحدد	مهاجمة مجموعة من جنود العدو المجازين الذين ينتظرون على المفرق ناقلات لحملهم الى معسكراتهم	١	—	—	٧٥/١٨٧ ٦/ ٨
٤٤ — ٦/ ٧	—	الرامة/الجولان(١٤)	كمين	الغام	غير محدد	تدمير سيارة عسكرية محملة بجنود العدو	—	—	—	٧٥/١٨٨ ٦/ ٨

الرقم	تاريخ العملية اليوم	الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية قتيل جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة شهيد	جريح	مفقود	المصدر : البلاغ العسكري	تاريخه
٤٥	٦/ ٨	٧٤٣٠	معوز حاييم/ بيسان(١٥)	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد	تدمير محطة المياه المركزية مما أدى الى قطع المياه عن المنطقة	—	—	—	٧٥/١٨٩	٦/ ٨
٤٦	٦/ ٨	١٣٤٠٠	كفار سابا	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد	تدمير مستودع لاسطوانات الغاز واشتعال النيران في المبنى	—	—	—	٧٥/١٩٠	٦/ ٩
٤٧	٦/ ٨	—	بيت ليد	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد	اصابة عدد من أفراد العدو الذين كانوا يلاحقون ثوارنا (راجع عملية رقم ٤٣)	—	—	—	٧٥/١٩١	٦/ ٩

١—٢— ادعى العدو الصهيوني بأن حريقا شب في مبنى صناعي وتسبب بأضرار في ورشات للنجارة ومعامل لادوات التجميل وذلك نتيجة لاحتكاك كهربائي أو من عقب سيجارة في شارع رعنان في تل ابيب ، واضاف بأن رجال الاطفاء في بتاح تكفا قد أخمدوا ١٦ حريقا شبت في المناطق الزراعية والمراعي خلال خمس ساعات . (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، عدد ٨١٩، صفحة ٣٢٢ ، بتاريخ ١٩٧٥/٥/١٦) .

٣ — ادعى العدو بأن ٢٥ شخصا اصيبوا بجراح طفيفة اثر انفجار مخـزن للذخيرة في مصنع للصناعة العسكرية في منطقة السهل الساحلي وذلك نتيجة « حريق او انفجار مواد كيماوية قابلة للاشتعال » . وتجدر الاشارة الى انه في نفس الخبر اورد مراسل عتيم انه وجد في مكان الانفجار قذيفة لم تنفجر بعد في حائط مبنى في المنطقة . (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، عدد ٨٢٠ ، صفحة ٣٣٤ ، بتاريخ ١٩٧٥/٥/١٧) .

٤—٥—٦ اعترف العدو بهذه العمليات اذ أورد في ٥/١٨ انه رفع حظر التجول عن اريحا في اعقاب الانفجار الذي وقع في عين الفشخة بينما تواصل قوات الامن الاسرائيلية التحقيق في حادثي رام الله والبيرة دون ان يورد اية تفاصيل . (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، عدد ٨٢١ ، صفحة ٣٧٨ ، بتاريخ ١٩٧٥/٥/١٩) .

٨ــ٧ اعترف العدو بالعمليتين في بروحام وعراد وقدر الخسائر في كلا العمليتين بـــ ٢٥٠،٠٠٠ ليرة اسرائيلية . (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، عدد ٨٢٣ ، صفحة ٤٠٦ ، بتاريخ ١٩٧٥/٥/٢٠) .

٩ــ اعترف العدو بحادث الحريق دون ان يورد اية تفاصيل عن سببه (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، عدد ٨٢٧ ، صفحة ٥٥٩ ، بتاريخ ١٩٧٥/٥/٣١) .

١٠ــ ادعى العدو بأن الحريق في مصنع النسيج في بيتاح تكفا يعود من « شرارة انطلقت من احدى الماكينات في المصنع » . كما اعترف العدو بأن حريقا شب في مصنع للمطاط في بيت يم اتى على المصنع بكامله واحترقت بناية لشركة طنبور في هرتسليا . (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، عدد ٨٢٥ ، صفحة ٤٩٦ ، بتاريخ ١٩٧٥/٥/٢٩) .

١١ــ ادعى العدو بأن حريقا شب في ساحة مبنى الاذاعة في القدس في كوخ يحتوي على معدات محلات الطوارىء كما اكد النبأ بأن الحادث لم يكن نتيجة اية عملية عسكرية دون ان يحدد اسبابه . (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، عدد ٨٣١ ، صفحة ١٠٨ ، بتاريخ ١٩٧٥/٦/٥) .

١٢ــ ادعى العدو بأن سيارة قد احترقت في حي مائة شعاريم وبأن الشرطة تحقق لمعرفة اسباب الحريق . (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، عدد ٨٣٢ ، صفحة ١٤٠ ، بتاريخ ١٩٧٥/٦/٦) .

١٣ــ ادعى العدو بأن حركة سكة الحديد توقفت في خط بئر السبع بعد ان انقلبت عربة محملة بالفوسفات وذلك نتيجة خطأ فني . (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، عدد ٨٢٣ ، صفحة ١٩٠ ، بتاريخ ١٩٧٥/٦/٩) .

١٤ــ ادعى العدو بأن مواطنين اسرائيليين اصيبا بجراح اثر انفجار اربعة ألغام تحت الشاحنة التي تقلهما بعد دخولهما حقل ألغام رغم السياج واليافطات التي تحذر من وجود حقل الالغام . (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، عدد ٨٣٤ ، صفحة ١٩١ ، بتاريخ ١٩٧٥/٦/٩) .

١٥ــ ادعى العدو بانه نتيجة خطأ فني وقع انفجار في مضخة للمياه قرب كيبوتس معوز حاييم في بيسان . (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، عدد ٨٣٤ ، صفحة ١٩٠ ، بتاريخ ١٩٧٥/٦/٩) .

ملاحظة : تصدر البلاغات العسكرية عن الاعلام العسكري في القيادة العامة لقوات الثورة الفلسطينية .

جدول بالعمليات العسكرية التي اعترف بها العدو الصهيوني من ٥/١٤ — ١٩٧٥/٦/١٢

الرقم	تاريخ العملية اليوم	الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية قتيل	جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة شهيد	جريح	مفقود	المصدر	تاريخه
١	٥/١٤	—	شتولا	قصف	قذائف هاون	—	—	لم تقع أية أضرار	—	—	—	ن٠عدد٨١٧،ص٢٩٣	٥/١٤
٢	٥/١٥	—	القدس	تفجير	عبوة ناسفة	—	—	تم اكتشاف العبوة أسفل شاحنة تنقل قوارير الغاز وابطل مفعولها	—	—	—	ن٠عدد٨١٩،ص٣٢٧	٥/١٦
٣	٥/١٩	٨،٠٠	القدس	تفجير	عبوة ناسفة	—	—	تم اكتشاف العبوة قرب مبنى البلدية وابطل مفعولها	—	—	—	ن٠عدد٨٢١،ص٣٨٢	٥/١٩
٤	٥/٢٠	—	القدس	طعن	سكين	—	١	—	—	—	—	ن٠عدد٨٢٣،ص٤٣٥	٥/٢١
٥	٥/٢٠	—	بين رفح وخانيونس	تفجير	عبوة ناسفة	١	١	لم يرد في النبأ أية معلومات حول الاضرار	—	—	—	ن٠عدد٨٢٣،ص٤٣٩	٥/٢١
٦	٥/٢٦	—	العفولة	تفجير	عبوة ناسفة	غير محدد		وقع الانفجار في سوق الخضار المركزي	—	—	—	**ن٠عدد٨٢٥،ص٤٩٣**	**٥/٢٩**
٧	٥/٢٦	٢٤،٠٠	صفد وافيفيم ونهاريا	قصف	قذائف كاتيوشا	—	—	لم تقع أية أضرار	—	—	—	ن٠عدد٨٢٥،ص٤٩٤	٥/٢٩
٨	٥/٢٨	٢٤،٠٠	شتولا	قصف	أسلحة رشاشة وقذائف بازوكا	—	—	لم يصب أي من أفراد دورية لحرس الحدود	—	—	—	ن٠عدد٨٢٦،ص٥٤١	٥/٣٠
٩	٥/٢٩	—	بين بيت لحم — صور باهر	تفجير	**عبوة ناسفة**	—	—	أحدثت العبوة حفرة كبيرة في الطريق	—	—	—	ن٠عدد٨٢٦،ص٥٤٢	٥/٣٠
١٠	٥/٢٩	١٢،٠٠	القدس	تفجير	عبوة ناسفة	—	١	انفجار العبوة في شارع شفتي يسرائيل	—	—	—	ن٠عدد٨٢٦،ص٥٤٢	٥/٣٠

١١ — ٢ /٦	٩٤٠٠	غزة	اشتباك	قنابل يدوية وأسلحة رشاشة	—	—	قام المناضل خليل ابراهيم بدوي بالتصدي لدورية اسرائيلية	١	—	—	ن٠عدد٨٢٩،ص٦٢	٣ /٦
١٢ — ٢ /٦	—	الخليل	اشعال نيران	—	—	—	اصابة مطعم قرب الحرم الابراهيمي بأضرار طفيفة اثر محاولة اشعال النيران فيه	—	—	—	ن٠عدد٨٣٠،ص٨٨	٤ /٦
١٣ — ٥ /٦	—	كريات شمونة	قصف	صواريخ	—	١	اصابة مبنى حديقة الاطفال ومبان اخرى باضرار	—	—	—	ن٠عدد٨٣١،ص١١٣	٥ /٦
١٤ — ٥ /٦	٧٤٣٠	القدس	القاء قنبلة	قنبلة يدوية	—	٢	اصابة احد افراد حاجز في شارع صلاح الدين	—	—	—	ن٠عدد٨٣١،ص١١٦	٥ /٦
١٥ — ٨ /٦	—	بيت ليد	اشتباك	أسلحة مختلفة	—	—	—	١	—	—	ن٠عدد٨٣٤،ص١٩٥	٩ /٦
١٦ — ٨ /٦	١٣٤٣٠	كفار سابا	تفجير	عبوة ناسفة	—	—	اصابة منزل بأضرار اثر انفجار في غرفة لقوارير الغاز	—	—	—	ن٠عدد٨٣٤،ص١٩٥	٩ /٦

ن — نشرة « رصد اذاعة اسرائيل » تصدر يوميا عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

غازي خورشيد

دار الآداب تقدم

آخر منشـــوراتها

- **عن علاقات الدائرة**

  رواية بقلم **الياس خوري**

- **بـــيروت ٧٥**

  رواية بقلم **غـــادة السمان**

- **امرأتان ... في امرأة**

  رواية بقلم الدكتورة **نوال السعداوي**

- **قصائد مهربة الى حبيبتي آســيا**

  قصائد للشاعر **محمد علي شمس الدين**

- **ابتسمي حتى تمر الخيل**

  قصائد للشاعر **محمد الفيتوري**

- **خليل مطران** (مختارات من شعره)

  اختارها وقدم لها **أحمد ع. حجازي**

دار الآداب ، ص.ب ٤١٢٣ ، بيروت